الجامعـــــــة الإســـلاميـة – غـزة
شئون البحث العلمي والدراسات العليا
كـليـــــــــــــــــــة الآداب
دكتـــوراه اللغـة العربيـــــــــــة

The Islamic University–Gaza
Research and Postgraduate Affairs
Faculty of Arts
PhD of Arabic Language

جَمَالِيَّاتُ التَّشْكِيْلِ البَلاَغِيِّ فِيْ الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

Aesthetics of Rhetorical Variation in Ottman Maqamat

إِعْدَادُ البَاْحِثِ
مَجْدِي عَايِش عُوْدَة أَبُو لِحْيَة

إِشْرَافُ
الْأُسْتَاذ الدُّكْتُور
مُحَمَّد شَعْبَان عُلْوَان

قُدِّمَ هَذَا البحثُ اسْتِكْمَالاً لِمُتَطَلَّبَاتِ الحُصُوْلِ عَلَى دَرَجَةِ الدُّكْتُورَاه
فِيْ الُّلغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِكُلِيَّةِ الآدَابِ فِيْ الجَامِعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ بِغَزة

أغسطس/2017م – ذو القعدة/ 1438هـ

إقـــــــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

جَمَالِيَّاتُ التَّشْكِيْلِ البَلاَغِيِّ فِيْ الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

Aesthetics of Rhetorical Variation in Ottman Maqamat

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أُخْرَى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	**مجدي عايش عودة أبو لحية**	اسم الطالب:
Signature:		التوقيع:
Date:	**الثلاثاء 29 /08 /2017م**	التاريخ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية غزة
The Islamic University of Gaza

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا هاتف داخلي 1150

الرقم: ج س غ/35/ Ref:

التاريخ: 2017/8/29م Date:

نتيجة الحكم على أطروحة دكتوراة

بناءً على موافقة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **مجدي عايش عودة ابولحية** لنيل درجة الدكتوراة في **كلية *الآداب*/ قسم اللغة العربية**، وموضوعها:

جماليات التشكيل البلاغي في المقامات العثمانية

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الثلاثاء 07 ذو الحجة 1438هـ، الموافق 2017/8/29م الساعة العاشرة صباحاً في قاعة مبنى طيبة، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د. محمد شعبان علوان	مشرفاً و رئيساً	.....
أ.د. نعمان شعبان علوان	مناقشاً داخلياً	.....
أ.د. عبد الخالق محمد العف	مناقشاً داخلياً	.....
أ.د. عبد الفتاح أحمد أبو زايدة	مناقشاً خارجياً	.....
د. محمد اسماعيل حسونة	مناقشاً خارجياً	.....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الدكتوراة في **كلية *الآداب*/قسم اللغة العربية**.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

عميد البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. مازن اسماعيل هنية

مُلَخَّصُ الرِّسَالَةِ بالُّلغَةِ العربيَّةِ

جَماليَّاتُ التَّشْكِيْلِ البَلاَغِيِّ فِيْ الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

تَتَنَاوَلُ هَذَه الدِّرَاسَةُ المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةَ، وجَمَاليَّاتِ التَّشْكِيلِ البَلاَغِيِّ فِيْ نُصُوْصِهَا المَقَامِيَّةِ. وقد جاءتِ الدِّرَاسَةُ موزَّعةً فِيْ أَرْبَعَةِ فُصُوْلٍ تصدَّرَها تمهيدٌ تناولَ الْجَمَالَ والتَّشْكِيلَ، تبعه الفَصْل الأَوَّل الَّذِيْ تكفَّل بالحَدِيْث عن فَنِّ المَقَامَةِ من حَيْثُ النَّشْأَةُ، والتَّطَوُّرُ، ثُمَّ تطرَّقَ إِلَى أبرزِ أُدَبَائِهَا، والْمَوضُوْعاتِ الَّتِيْ تناولتها.

وانتقلتِ الدِّرَاسَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الفَصْلِ الثَّانِي الَّذِيْ تَنَاوَلَ التَّشْكِيلَ الْبَيَانِيَّ من تَشْبِيْهٍ، واستعارةٍ، وكنايةٍ، ومَجَازٍ مُرْسَلٍ، وأثرها فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ. أَمَّا الفَصْلُ الثَّالِثُ من الدِّرَاسَةِ فقد رَصَدَ التَّلْوِيْنَ البَدِيْعيَّ الَّذِيْ تزيَّنتْ به المَقَامَةُ. حَتَّى وَصَلَ فِيْ النِّهايةِ إِلَى الفَصْلِ الرَّابِعِ الَّذِيْ تفرَّدَ بدراسةِ التَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ، والحركيِّ، والصَّوتيِّ، ثُمَّ خَتَمَ بالتَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبيِّ، كالأمرِ، النَّهْيِ، الاسْتِفْهَامِ، التَّمنِّي، والنِّدَاءِ، إِلَى جانبِ الظَّوَاهِرِ البَلاَغيَّةِ، كَالتَّكْرَارِ، والتَّقْدِيْمِ والتَّأْخِيْرِ، والشَّرْطِ.

وَقَدِ اعْتَمَدَ البَاْحِثُ المَنْهَجَ التَّكامليِّ، الَّذِيْ يجمعُ في طيَّاته عدداً من المناهجِ الأُخْرَى، كالمَنْهَجِ التَّحْلِيْلِيِّ الوَصْفيِّ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى المَنْهَجِ التَّارِيْخِيِّ.

وَفِيْ النِّهَايَةِ تَوَصَّلتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى مَجْمُوْعَةٍ من النَّتَائِجِ لَعَلَّ أَهَمّهَا؛ أَنَّ فَنَّ المَقَامَةِ مَوْسُوْعَةٌ لُغَوِيَّةٌ، وفنيَّةٌ، ومُعْجَمٌ مِنْ مَعَاجِمِ الْجَمَالِ الأَدَبِيِّ، والْبَلاَغِيِّ.

كَمَا رَصَدَتِ الدِّرَاسَةُ عَدَداً مِنَ التَّوْصِيَاتِ أهمَّهَا؛ الاهتمام بدراسةِ التُّرَاثِ الْبَلاَغِيِّ الَّذِيْ يُمَثِّلُ كَنْزاً مِنْ كُنُوْزِ الْعَرَبِيَّةِ، وإعادةِ صِيَاغَةِ مُؤَلَفَاتِهِ بِمَا ييَّسرُ التَّعَامُلَ مَعَهَا، خَاصَّةً فِيْ ظلِّ التَّطَوُّرَاتِ والتَّغَيُّرَاتِ الَّتِيْ نَعِيْشُهَا مِنْ نَاحِيَةٍ، وَبِمَا يُحَقِّقُ الفائدةَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَفِيْ مُقَدِّمَةِ هَذَا التُّرَاثِ، الأَدَبُ العُثْمَانِيُّ.

وأختمُ فأقولُ إنَّ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ هدفتْ إِلَى إثباتِ ضرورةِ دراسةِ أدبِ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وما فيه من جَمَالٍ حَاوَلَ بَعْضُ الْبَاحِثِيْنَ إخفاءَهُ. وَإِعْطَاء العَصْرِ العُثْمَانِيِّ عِنَايَةً أكبرَ، وَمسَاحَةً أوسعَ فِيْ الدِّرَاسَاتِ الأَدَبيَّةِ، والبَلاغيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ كَنْزاً دَفِيْناً من الْكُنُوْزِ الَّتِيْ تحتاجُ إِلَى التَّنقيبِ، والدِّرَاسَةِ لاكتشافِ روائعها، وَسَبْرِ أغوارِ نفائِسِهَا.

Abstract

Aesthetics of Rhetorical Variation in Ottman Maqamat

This research is meant to study the Ottman Maqamat and the aesthetics of rhetorical variation in its texts.

The research is divided into four chapters preceded by a preface that discussed the rhetoric and variation.

The first chapter deliberated the art of Maqamat, when it was originated and evolved. The chapter also touched on its famous memorable writers and the themes it discussed.

Then the research moved to the second chapter, which dealt with Rhetoric Formation including likeness, metaphor, and metonymy and its impact on the Ottoman Maqamat. The third chapter of the research has observed the linguistic beauty variation, which was used to beautify those Maqamat.

Chapter four dealt with the study of the chromatic, kinetic, and phonic formation. Then it ended up with stylistic formation, i.e. the imperative, negative imperative, query, wishing, and proclamation. This in addition to the rhetoric phenomena such as repetition, anastrophe, and conditional style.

The researcher adopted the integrated approach. This approach combines a number of other approaches, such as descriptive analytical approach, in addition to the historical approach.

At the end of this research the researcher inferred a set of results. Most importantly, the study concluded that the Maqamat can be considered as an artistic and linguistic encyclopedia, and as a lexicon of beauty.

The research also conducted a set of recommendations. Most importantly, there is a necessity to study the literary rhetorical heritage which represents a treasure of Arabic literature, and to reformulate this literature in a way that facilitates its outreach considering the recent changes and evolutions we witness on the one hand, and the need to maximize the benefit of this literature on the other hand. This has a special value with regards to the Ottoman literature.

This study believes that the Ottman Maqamat is an investigation-worthy subject. This research aimed at proving the legacy of studying the literature of the Ottman era with all its aspects of beauty that some researchers try to hide or deny.

The research recommended the necessity of paying the Ottman era much attention and a wider range of literary studies considering that it represents a divine treasure that requires quality in-depth research and investigation.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا

نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٥].

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ

الْإِهْــدَاْءُ

❋ إِلَى مَـنْ كُـنْتُ أَرْجُو أَنْ يَسْعَدَ قَلْبِي بِرُؤْيَةِ سَمَاحَةِ وَجْهِهِ، والتَّغَنِّي بِدَمَاثَةِ خُلُقِهِ، والدي الحبيب رَحِمَه، اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبَلَّغَهُ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى.

❋ إِلَى مَـنْ كُـنْتُ أَتَمَنَّى دَوْمَاً أَلَّاْ تُفَارِقَ قَسَمَات وَجْهِهَا عُيُونِي ثَانِيَةً، وَأَلَّاْ يُغَادِرَ عَذْب صَوْتِهَا سَمْعِي هُنَيْهَةً، وَأَلَّا أُحْرمَ بَرَكَةَ دُعَائِهَا لَحْظَـةً وَاحِدَةً ، أُمِّي رَحِمَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَسْكَنَهَا فَسِيحَ جَنَّاتِهِ.

❋ إِلَىْ مَلَاكِي فِيْ الدُّنْيَا، وَبَسْمَتِي فِيْ الحَيَاْةِ، وَسَعَادَتِي فِيْ الْوُجُودِ، إِلَى مَعْنَى الْحُبِّ، وَمَنْهَلِ الأَمَانِ، إِلَى زَوْجَتِي الحَبِيْبَةِ، إلى شمسي المُشرقةِ، وَجَوْهَرَتِي المُتَلَأْلِئَةِ، حَبِيْبَتِي، و حَبِيْبَتِي، و حَبِيْبَتِي، أُمْ رَائِد.

❋ إِلَى مَنْ أَرَى التَّفَاؤُلَ بِأَعْيُنِهِم، والسَّعَادَةَ فِيْ بَسْمَتِهَم، والحَيَاْةَ فِيْ ضِحْكَتِهِم، إِلَى مَنْ بِمَحَبَّتِهِم أَزْهَرَتْ أَيَّامِي، وَتَفَتَّحَتْ بِرَاحَتِهِم سُبُلَ سَعَادَتِي، وَتَحَقَّقَتْ أَحْلَامِي، أَوْلَادِي هِنْد، تُقَى، نُوْر، أَسْمَاء، رَائِد، مُحَمَّد، وَبَرَاء.

❋ إِلَى حَدَائِقِ الحُبِّ الْمُزَيَّنَةِ بِبَاقَاتِ الزُّهُوْرِ، الْمُعَبَّقَةِ بِأَطْيَبِ الرَّيَاحِيْنِ وَأَذْكَى الْعُطُوْرِ، إِخْوَتِي الْأَعِزَّاء: خَلِيْل، فَتْحِي، مُحَمَّد، كَامِل، مَحْمُوْد، بَسَّام، وَرَائِد.

❋ إِلَى نَسَائِمِ الرِّقَّةِ، إِلَى القُلُوْبِ الرَّحِيْمَةِ الْمُفْعَمَةِ بِالوَفَاءِ، وَالْمُوَشَّحَةِ بِالْعَطَاءِ أَخَوَاتِي الحَبِيْبَاتِ: عَائِشَة، نَايْفَة، رَسْمِيَّة، تَمَام، فَاطِمَة، فَطُّوْم، سُعَاْد، ونَبِيْلَة، ووِدَاد، وأَسْمَاء، وَأَمَل.

❋ إِلَي فَيْضِ الْحَنَانِ، وَنَبْعِ الْحُبِّ والْأَمَانِ، وَسِرِّ نَجَاحِي فِيْ حَيَاتِي الْجَامِعِيَّةِ، الحَاجَة: أُمّ أَمَان.

❋ إِلَى القُلُوْبِ الرَّائِعَةِ الْمُزَيَّنةِ بِالْأَمَل، وَالْمُكَلَّلَةِ بالنَّجَاحِ، طُلَابِي الأَفَاضِلِ، وَطَالِبَاتِي الْمَاجِدَاتِ.

❋ إِلَى الأَصْدِقَاءِ، وَالْجِيْرَانِ، وَكُلِّ مَنْ أَعْرِفُ، وكُلِّ مَنْ يَعْرِفُنِي عَلَى ظَهْرِ هَذِهِ الْبَسِيْطَةِ.

❋ إِلى كُلِّ مَنْ أَحَبَّنِي فِيْ اللهِ، وَأَحْبَبْتُهُ فِيْهِ.

إِلَى هَؤُلَاءِ جَمِيْعَاً أُهْدِي هَذَا الَجَهْدَ..... الْمُتَوَاضِعَ.

شـــكْرٌ وتقْدِيْرٌ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، أَحْمَدُ رَبِـي مِـلءَ السَّمَوَاتِ، وَمِـلءَ الْأَرْضِ، وَمِـلءَ مَـا بَيْنَهُمَـا، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمُخْتَارِ، خَيْرِ الْأَنَامِ، أَمَرَنَا بِـالْاعْتِرَافِ لِلْآخَرِيْنَ بِفَضْلِهِم، وَإِنْزَالِ النَّاسِ مَنَازِلَهِم، وَعَلَّمَنَا شُكْرَ النَّاسِ عَلَى مَعْرُوْفِهِم.

وَلَسْتُ إِذْ أَشْكُرُ مَنْ قَدَّمُوا لِـيَ الْعَوْنَ، وَذَلَّلُوا أَمَامِـيَ الصِّعَابَ بِمُسْتَوْفِيْهَم حَقَّهُم، بَلْ هُوَ أَدْنَـى وَاجِبٍ لَهُم عَلَـيَّ. وَأَسْتَهِلُّ الشُّكْرَ لِلْأُسْتَاذِ الدُّكْتُوْرِ مُحَمَّد شَعْبَان عُلْوَان الَّذِيْ تَكَـرَّمَ بِقَبُوْلِ الْإِشْرَافِ عَلَى الرِّسَالَةِ، وعَلَى مَا قَدَّمَهُ لِـيَ مِنَ الْعَوْنِ، وَالنُّصْحِ، وَالْإِرْشَادِ.

ثُـمَّ شُـكْرِي الْجَزِيْـلُ لِلْأَسَـاتِذَةِ الْأَفَاضِـلِ الَّـذِيْنَ تَحَمَّلُـوا عِـبْءَ مُراجَعَـةِ الرِّسَـالَةِ، وَإِضَـافَةِ بَصَمَاتِهِم عَلَيْهَا لِإِخْرَاجِهَا فِيْ حَالٍ أَحْسَنَ، وَمَظْهَرٍ أَرْوَعَ، وَلَاْ شَكَّ أَنَّهُم بَذَلُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جهْدَاً عَالِيَاً، وَوَقْتَاً غَالِيَاً فَجَزَاهَم اللهُ خَيْرَ الْجَزَاءِ؛ إِنَّهُم:

الْأُسْتَاذ الدُّكْتُور/ نعمان شعبـــــان علوان

الْأُسْتَاذ الدُّكْتُور/ عبد الخالق محمد العف

الْأُسْتَاذ الدُّكْتُور/ عبد الفتـــــاح أبو زايدة

والْأُسْتَاذ الدُّكْتُور/ محمد إسماعيل حسونة

وَشُكْرٌ مَوْصُوْلٌ إِلَى مِنْ مَنُّوا عَلَيْنَا بِأَوْقَاتِهِم، أَسَاتِذَتِي الأَجِلَّاء فِيْ بَرْنَامَجِ الدُّكْتُورَاه.

كَمَا أُقدِّمُ شُكْرِي لِلصَّرْحِ الشَّامِخِ، وَالْبِنَـاءِ الْعَظِيمِ، الجَـامِعَةِ الإِسْلَامِيَّـةِ بِغَزَّةَ، الَّتِـيْ يَسَّرَتْ لَنَـا فُرْصَـةَ إِتْمَـامِ دِرَاسَـةِ الدُّكْتُوْرَاه، وَأَخُـصُّ بِالشُّكْرِ كَلِيَّـةَ الآدَابِ، وَقَسْمَ اللُّغَـةِ العَرَبِيَّـةِ. كَمَـا أُقَدِّمُ الشُّكرَ لِلْأُخْتِ/ عَفَافِ الْحَاج الَّتِيْ تَوَلَّتْ عِبءَ تَوْفِيْرِ المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ، وَبَذَلَتْ فِيْ سَبِيْلِ ذَلِكَ جهْدَاً رَائِعَاً، كَمَا أُقدِّمُ الشُّكْرَ لِلْأُسْتَاذَةِ عَبِيْر حَمَادَة الَّتِيْ رَاجَعَتْ جزءاً مِنَ الرِّسَالَةِ. وشُكْرٌ خَاصٌّ إِلَى مَنْ وَقَفَتْ بِجَانِبِي طِيْلَةَ فَتْرَةِ الدِّرَاسَةِ الْجَامِعِيَّةِ فِيْ لِيبْيَا الحَاجَة/ أَمّ أَمَان حَفِظَهَا اللهُ، وأطالَ عمرها. وَلَا أَسْتَثْنِي مِنَ الشُّكْرِ جَامِعَةَ الأَقْصَى الْحَبِيْبَـةَ رِئَاسَـةً، وَإِدَارَةً، وَأَسَاتِذَةً، وَأَخُصُّ بِالشُّكرِ طُلَابِيَ الْأَمَاجِدَ، وَطَالِبَاتِي الفُضْلَيَاتِ. وَلَاْ أَنْسَى زُمَلَائِي جَمِيْعَاً فِيْ الدِّرَاسَاتِ الْعُلْيَا.

وَفِيْ النِّهَايَةِ فَإِنِّي أُقدِّمُ شُكْرِي لِكُلِّ مَنْ شَارَكَ أَوْ سَاهَمَ، وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ فِيْ إِنْجَازِ هَذَا الْعَمَلِ المُتَوَاضِعِ..... جَزَاهُم اللهُ جَمِيْعَاً خَيْرَ الْجَزَاءِ.

البَاْحِثُ/ مَجْدِي عَايِش أَبُوْ لِحْيَة

فَهْرَسُ الْمُحْتَوَيَاتِ

إقـــــــرار .....أ

ملخص الرِّسَالَة باللُّغَة العربية.....ب

Abstract .....ت

صفحة اقتباس (آية قرآنية).....ث

ألإهـدَاْءُ.....ج

شـكر وتقدير.....ح

فهرس المحتويات.....خ

المقدمة.....1

أولاً: أهمية الدِّرَاسَة: 4

تمهيـــــــد.....11

الْجَمَال والتَّشْكِيل، وتطوّرهما في الفكر البلاغيّ 14

مفهوم الْجَمَال، والْجَمِيْل، والْجَمَاليَّة.....17

الْجَمَال في الفكر الفلسفيِّ، والفنيِّ 23

الْجَمَال في الفكر العربيّ الإسلاميّ.....24

الْجَمَال في نظر الجاهليين.....24

الْجَمَال في الفكر الإسلاميِّ.....25

ثانياً: التَّشْكِيل 33

التَّشْكِيل لغةً واصْطِلَاحاً 33

الفَصْل الأول: فن المَقَامَة في العَصْر العُثْمَانِيّ.....42

المَبْحَث الأول: فنّ المَقَامَة، الْمَفْهُوْم، النَّشأة، والتَّطور 42

المَقَامَة في اللُّغَة، والاصْطِلَاح.....43

نشأة فن المَقَامَات 46

عوامل ازدهار فن المَقَامَات فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيّ.....49

المَبْحَث الثَّانِي: بناء المَقَامَة، وأصولها الفنيَّة.....52

1- الرَّاوي والْبَطَل.....52

2- الْكُدْيَة 55
3- الصَّنْعَة اللَّفْظِيَّة 56
المَبْحَث الثَّالِث: أُدَبَاء فن المَقَامَة فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيّ 58
1- شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ 59
2- نَاصِيْف اليَازْجِيّ 60
3- ابن النَّقِيْب 65
4- عبد الله السّويديّ 66
5- أَحْمَد البَرْبِيْر 67
6- مُحَمَّد المُبَارَك 70
7- نقولا التُّرك 71
8- الشّهاب الأَلُوسِيّ 72
9- أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق 74
10- عَبْد الله فِكْرِيّ باشا 76
11- إِبْرَاهِيْم الأحدب 76
12- شِهَاب الدِّين السّويديّ 77
13- ابن مَيْمُون الجزائريّ 77
المَبْحَث الرَّابِع : مَوْضُوْعَات المَقَامَة فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيّ 79
أولاً: الْمَوضُوْعات السِّيَاسِيَّة 80
ثانياً: الْمَوضُوْعات الاجتماعيَّة 83
ثالثاً: الْمَوضُوْعات الدِّيْنِيَّة 90
رابعاً: الْمَوضُوْعات السُّلوكيَّة، والأَخْلَاقيَّة 95
خامسا: الألغاز، والأحاجي، والمعمَّيات: 98
سادساً: الطِّب والفلك 100
سابعاً: الوَصْف 102

1- وصف الطَّبِيْعَة:.....102
2- وصف الرّحلات.....104
3- وصف القُصُوْر 106
ثامناً: الْهِجَاء.....106
تاسعاً: الْغَزَل.....107
غزل الغلمان.....108
عاشراً: المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات.....110
حادي عشر: ما لا يستحيل بالانعكاس.....113
الفَصْل الثَّانِي: التَّشْكِيل البيانيُّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ 117
المَبْحَث الأوَّل: التَّشْكِيل التَّشْبِيْهيّ..... 119
البنى التَّشبيهيَّة المُرْسَلَة.....121
البنى التَّشْبِيْهيَّة الْبَلِيْغَة.....126
البنى التَّشْبِيْهيَّة التَّمثيليَّة.....134
الْبنْيَة التَّشْبِيْهِيَّة الضِّمْنِيَّة.....135
المَبْحَث الثَّانِي: التَّشْكِيل الاستعاريّ..... 137
المَبْحَث الثَّالِث: التَّشْكِيل الكنائيّ..... 151
المَبْحَث الرَّابِع: الْمَجَاز الْمُرْسَل..... 165
الفَصْل الثَّالِث: التَّشْكِيل البَدِيْعيّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ 168
المَبْحَث الأول: المُحَسِّنَات البَدِيْعيَّة الْمَعْنَوِيَّة 169
1- الطِّبَاق.....169
الطِّبَاق لغةً واصْطِلَاحاً 169
2- الْمُقَابَلَة 173
أضرب الْمُقَابَلَة.....173
أ- مقابلة اثْنَيْنِ باثْنَيْنِ 174
ب- مقابلة ثلاثة بثلاثة.....176

ج- مقابلة أربعة بأربعة.....177
د- مقابلة خمسة بخمسة.....177
3- التَّوْرِيَة.....177
التَّوْرِيَة لغةً واصْطِلَاحاً.....177
4- اللَّف والنَّشر 179
5- الاقْتِبَاس.....180
أولاً: الاقْتِبَاس من الْقُرْآن الْكَرِيْم.....181
ثانياً: الاقْتِبَاس من الحَدِيْث الشَّريف 187
ثالثاً: الاقْتِبَاس من الأَدَب.....189
المَبْحَث الثَّانِي: المُحَسِّنَات البَدِيْعيَّة اللَّفْظِيَّة 201
1- الجِنَاس.....201
أ- الجِنَاس التَّام.....202
2- الجِنَاس غير التَّام (النَّاقِص).....210
1- الجِنَاس اللاحق 211
2- الجِنَاس المُصَحَّف.....212
3- الجِنَاس المُحَرَّف 214
4- جناس الاشتقاق.....216
5- الجِنَاس الْمُضَارِع.....218
6- جناس القلب 220
7- جناس التَّرْكيب.....222
8- الجِنَاس المُذيَّل.....223
9- الجِنَاس المُطَرَّف.....224
2- السَّجْع.....227
السَّجْع لغةً واصْطِلَاحاً.....227

أضرب السَّجْع.....228
أ- السَّجْع المُطَرَّف.....228
ب- السَّجْع المُرَصَّع.....229
ج- السَّجْع المتوازي.....233
د- السَّجْع المتوازِن.....234
هـ- السَّجْع المُتَمَاثِل.....234
3- العكس.....235
4- لزوم ما لا يلزم.....237
5- الاكتفـــاء.....240
6- التَّشْطِيْر 241
الفَصْل الرَّابِع: التَّشْكِيل اللَّوْنيِّ، والحركيّ، والصوتي، والْأُسْلُوبيّ..... 246
المَبْحَث الأوَّل: التَّشْكِيل اللَّوْنيِّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ 246
اللَّوْن لغةً واصْطِلَاحَاً.....248
التَّشْكِيل اللَّوْنيّ اصْطِلَاحَاً.....250
التَّشْكِيل اللَّوْنيّ في لوحات الطَّبِيْعَة فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ 261
المَبْحَث الثَّانِي: التَّشْكِيل الحركيِّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ 269
المَبْحَث الثَّالِث: التَّشْكِيل الصَّوتيّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ 283
التَّشْكِيل بالمُحَسِّنَات الصَّوْتيَّة فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ 284
المَبْحَث الرَّابِع: التَّشْكِيل الْأُسْلُوبيّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ 294
مفهوم التَّشْكِيل الْأُسْلُوبيّ اصْطِلَاحَاً:.....294
أدوات التَّشْكِيل الْأُسْلُوبيّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ 296
أولاً: الأَمْر.....297
ثانياً: النَّهْي 301
ثالثاً: الاسْتِفْهَام.....303

رابعاً: النِّدَاء.....311
خامساً: التَّقْدِيم والتَّأْخِير.....312
سادساً: التَّكْرَار.....315
سابعاً: الشَّرْط.....319
سمات المَقَامَات في العَصْر العُثْمَانِيّ.....324
الخاتمــة..... 324
أولاً: النَّتَائِج.....327
ثانياً: التَّوصيات.....328
الْمَصَادِر والْمَرَاجِع..... 330
الفَهَارِس العامة..... 350
أولاً: فهرس آيـــات الْقُرْآن الْكَرِيْم.....351
ثانياً: فهرس الأحاديث النبويَّة الشَّريفة.....358
ثالثاً: فهرس القـــــــوافي.....359

المُقَدِّمَةُ

الْحَمْدُ للهِ الَّذِيْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ البَيَانَ، وَأَطْلَقَ لِفَصَاحَتِهِ الْعَنَانَ، والصَّلَاةُ والسَّـلَامُ عَلَى مَنْ أَزْهَرَتْ أَزَاهِرُ حَصَافَتِهِ وَفَصَاحَتِهِ، وَفَتَنَتِ القُلُوْبَ بَدَائِعُ عِبَارَتِهِ، وَرَوَائِعُ بَرَاعَتِهِ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ أَكْمَل مَنْ نَطَقَ بالصَّوَابِ، وَأَفْضَل مَنْ أُوْتِيَ الْحِكْمَةَ، وَفَصْلَ الْخِطَابِ، وَأَفْصحَ مَنْ نَطَقَ بالضَّادِ، نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَالْهُدَى، وَمُعَلِّمِ النَّاس الْخَيرَ وَالتُّقَى، وَخَيْر مَنْ خَطَبَ النَّاسَ وَخَاطَبَهُمْ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْأَبْرَارِ الَّذِيْنَ بَلَّغُوا بَلَاْغَهُ، وَنَالُوا الدَّرَجَةَ العُظْمَى فِيْ البَلَاْغَةِ، وعَلَى مَنْ اتَّبَعَ هَدْيَهُ، وَاسْتَنَّ سُنَّتَهُ، وَسَارَ عَلَى دَرْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّيْنِ.

يُطْلِقُ النُّقَّادُ المُسَمَّياتِ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ صَادِقَةً أَمْ كَاذِبةً، بَيْدَ أَنَّهُم سُرْعَانَ مَا يَنْتَقُوْنَ مِنْهَا مَا يُنَاسِبُ أَهْوَاءَهُم سَوَاءٌ أَكَانَتْ حَسَنَةً، أَمْ رَدِيْئَةً.

وَلَعَلَّ مِنْ أَهَمِّ المُسَمَّيَاتِ الَّتِيْ أَطْلَقَهَا النُّقَّادُ تِلْكَ التُّهْمَةَ الَّتِيْ أُلصِقَتْ بِالعَصْرِ العُثْمَانِيِّ ظُلْمَاً وَبُهْتَانَاً، وَهَذِهِ التُّهْمَةُ هِيَ مُصطلَحُ عَصْرِ الْانْحِطَاطِ، أَوْ عَصْرِ الْجُمُوْدِ، أَوْ عَصْرِ التَّخَلُّفِ، وَغَيْرَهَا مِنْ تِلْكَ المُسَمَّياتِ الَّتِيْ تَصُبُّ فِيْ بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ، وَرَغْمَ بِذَاءَةِ المُصْطَلَحِ، إِلَّا أَنَّهُم شَرَعُوا يَنْتَقُوْنَ مِنْهَا مَا يُلَائِمُ أَهْوَاءَهُم، وَيَحْذِفُوْنَ مَا يُخَالِفُ أَذْوَاقَهُمْ غَيْرَ آبِهِيْنَ بِمَا يَتَرَتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَزْوِيْرٍ لِلْحَقَائِقِ، أَوْ ظُلْمٍ لِصَفْحَةٍ نَاصِعَةٍ مِنْ أَرْوَعِ صَفَحَاتِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْحَربِ المَسْعُورَةِ الَّتِيْ أَطْلَقوها عَلَى العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، إِلَّا أَنَّهم انتقوا مَا عَكَسَ الصُّورَةَ الْمُشْرِقَةَ من عَصْرِ الْانْحِطَاطِ – حَسْبَ زَعْمِهِم– فَسَرَقُوا مَحْمُوْد سَامِي البَارُوْدِي، وَرَوَائَعَهُ الَّتِيْ نَظَمَهَا فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وَنَسَبُوْهَا إِلَى العَصْرِ الحَدِيْثِ، وَمَا فَعَلُوهُ مَعَ البَارُوْدِي سَارُوا عَلَى نَهْجِهِ مَعْ أَمِيْرِ الشُّعَرَاءِ أَحْمَد شَوْقِي، وَغَيْرِهِ مِنَ الْأُدَبَاءِ: أَمْثَال حَافِظ إِبْرَاهِيْم، البوريني، شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ، نَاصِيْف اليَازْجِيّ، أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق، مُحَمَّد بن مَيْمُون الجزائريّ، وابن معتوق، وإِبْرَاهِيْم الأحدب، وحسن العطار، وغيرهم من الْأُدَبَاء الَّذِيْن أسهموا في رفعِ راية الأَدَبِ في شَتَّى الميادينِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ.

وَقَبْلَ الْوُلُوْجِ فِيْ أَعْمَاقِ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، والحَدِيْثِ عن رَوَائِعِهِ، ثمَّةَ تَسَاؤُلَاْتٌ لَا حَصْرَ لَهَا تَطْرَحُ نَفْسَهَا هُنَا، وَتَحْتَاجُ إِلَى إجابةٍ قَاطِعَةٍ لردِّ أَقْوَالِ الطَّاعِنِيْنَ فِيْ تُرَاثِهِ، الْمُتَرَبِّصَيْنَ بِرُوَّادِهِ في عَوَالِمِ الأَدَبِ، ومِنْ هَذِه التَّسَاؤُلَاتِ:

– مَا الدَّافعُ الْحَقِيْقِيُّ وَرَاءَ المَوْقِف العدوانيِّ تِجَاهَ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ؟ وما سرُّ الهجمةِ المسعورةِ عَلَى تراثه؟

– مَا سِرُّ التَّناقضِ الغريبِ في آراءِ بَعْض النُّقَّادِ، والانفصامِ العجيبِ في شخصياتهم عِنْدَ الحَدِيْثِ عن تاريخِ هَذَا العَصْرِ، وثقافتِهِ؟

– مَا سِرُّ النَّظْرةِ السَّوْداويَّةِ القاتمةِ الَّتِيْ ينظر بها هَؤلاءِ إِلَى الشَّمْسِ المشرقةِ، والْقَمَرِ البازغِ اللَّذَيْنِ عَمَّا الْأَرْضَ بالنُّورِ والضِّياءِ فِيْ هَذَا العَصْرِ، بَيْدَ أَنَّهُم أصرُّوا ظُلماً عَلَى أُفُولِهما؟

ولا أريدُ أنْ أستطردَ كَثِيْراً فِيْ طَرْحِ التَّسَاؤُلَاتِ، لكن هُنَاْكَ قضيَّة واحدة فَقَطْ أودُّ أنْ أطرحَهَا، وقد دارَ حولَهَا جدلٌ كبيرٌ، وَهَذِهِ القضيَّةُ هي مُسَمَّى (الْانْحِطَاط)، فَهَلْ (ربُّ السَّيف والقلم)، مَحْمُوْد سَامِي البَارُوْدِي من أتباع هَذَا المُصْطَلَحِ؟ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ هَلْ غفلَ هَؤلاءِ عَنِ التَّناقُضِ الَّذِيْ كانَ يمكنُ أنْ يقعَ فيهِ هَذَا الْأَدِيْبُ الفذُّ؟ وَهَلْ الأَدَبُ الَّذِيْ خطَّه الْأُدَبَاءُ، والشِّعْرُ الَّذِيْ نظمه الشُّعَرَاءُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ كَانَ – كَمَا يَدَّعِي هَؤلاءِ– مَوَاتاً إِذَا كَانَ من أَنْصَارِ فكرةِ موتِ الأَدَبِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ؟ وَهَلْ يُمْكِنُ أن يقبلَ أيُّ منصفٍ أن يَنْسفَ مجهودَ سنواتٍ أبدعَ فيها كلَّ الإِبْدَاعِ فِيْ تِلْكَ الحقبةِ، ويدخله تحتَ مُسَمَّى الجمودِ؟

إنَّ الْإِنْصِافَ كُلَّ الْإِنْصِافِ أن تُطلَقَ المُسَمَّياتُ دونَ طمسٍ للحقائقِ، ومن العدلِ كَذَلِكَ أن تبتعدَ الأهواءُ الشَّخصيَّةُ كُلَّ البُعدِ عِنْدَ إطلاقِ تِلْكَ المُسَمَّياتِ؛ حَتَّى يأخذَ كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ دُوْنَ أيِّ ظلمٍ، أَوْ بهتانٍ.

أَمَّا هَذِهِ الدِّرَاسَةُ فَقَدْ تناولتْ جَمَالِيَّاتِ التَّشْكِيلِ البَلاغيِّ فِيْ الْمَقَامَةِ العُثْمَانِيَّةِ، واقتضتْ طبيعتها تقسيمَها إِلَى أربعةِ فُصُوْلٍ تصدَّرَهَا مُقدِّمَةٌ، وتمهيدٌ، رَصَدَتِ المقدِّمةُ الْفَتْرَةَ المتمثِّلةَ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وُصُوَرَةِ الحَيَاةِ فيها دُوْنَ استرسالٍ في تقديمها مِنْ خِلَالِ طَرْحِ مَجْمُوْعَة مِنَ التَّسَاؤُلَاتِ الَّتِيْ رُبَّمَا تُظْهِرُ الصُّورَةَ الْمُظْلِمَة، الَّتِيْ حاول كَثِيْرٌ مِنَ النُّقَّادِ رسم ملامحها بالخطوطِ السَّوْداءِ الدَّاكنةِ دُوْنَ أيِّ تمحيصٍ، ومحاولة طَرْح بعضِ التُّرهَاتِ، وترسيخها في عقولِ بعضِ الدَّارِسِينَ الَّذِيْن استسلموا خاضعينَ لِتِلْكَ الأفكارِ، أَمَّا التَّمْهِيدُ فَعَرَّجَ عَلَى مصطلحي الْجَمَالِ، والتَّشْكِيلِ فِيْ مَعَاجِمِ الُّلغَةِ، وَفِيْ الاصْطِلَاحِ، إِلَى جانبِ رَصْد آراءِ العُلَمَاْءِ، والنُّقَّادِ القُدَامَى والمُحْدَثِينَ حَوْلَ هذينِ المُصْطَلَحينِ.

أَمَّا أَوَّلُ فُصُوْلِ الدِّرَاسَةِ فقد تنقَّلَ بَيْنَ حَدَائِقِ المَقَامَاتِ، وتناولَ الْمَقْصُودَ بها، وشَيْئَاً عن ظروفِ نَشْأتِها، ونَسائمَ مِنْ عَوَامِلِ تطوُّرِهَا، ثُمَّ غَاصَ في عَوَالِمِ كُتَّابِ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وَحَاوَلَ سَبْرَ أغوارِ حياةِ أولئكَ الكُتَّابِ؛ ليقدِّمَ لنا فَاصِلَاً عَذْبَاً من نغماتِ الْجَمَالِ، وآياتِ الحُسْنِ والْجَلَالِ، الَّتِيْ حَمَلَتْهُا مَقَامَاتُهُم عَلَى أَلْسِنَةِ عَدَدٍ من نجومها الزَّاهِرةِ في سماءِ ذَلِكَ العَصْرِ. ثمَّ نَحَا مَنحىً آخرَ، حَيْثُ حَلَّقتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى مناهلِ المَقَامَةِ، ووردتْ ماءَ مَوْضُوْعَاتِهَا

فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، فنهلتْ من السِّيَاسَةِ مَرَّةً، وَمِنَ الدِّينِ ثانيةً، وَمِنَ الجَانِبِ السُّلوكيِّ، والأَخْلَاقيِّ مَرَّةً ثالثةً، وعَرَّجَتْ عَلَى الوَصْفِ والْغَزَلِ، والْمَدْح والألغازِ، والْهِجَاءِ، والمُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات؛ لتقدِّم لنا لوحةً متكاملةً ربَّما تروي شَيْئَاً مِنْ ظَمَأ الدَّارِسِين، وفَاصِلَاً عَذْبَاً يسدُّ حتماً رمقَ المُتَعَطِّشِيْنَ إِلَى التُّرَاثِ الْعَظِيمِ، وعظيمِ التُّرَاثِ.

وَثَانِي فُصُوْلِ الدِّرَاسَةِ تكفَّل بتقديمِ جَوَانِبِ التَّشْكِيلِ الْبَيَانِيِّ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ فِيْ ذَلِكَ العَصْرِ متنقلاً بَيْنَ روائعِ التَّشْكِيلِ التَّشْبيهيِّ، ونفائسِ التَّلْوينِ الاسْتِعَارِيِّ، وبدائعِ التَّشْكِيلِ الكنائيِّ، وآياتِ الْجَلَالِ الَّتِيْ بَدَتْ فِيْ ثَنَايَاهَا كَافَّةً.

أَمَّا ثَالِثُ الفُصُوْلِ فقد ارتحلتْ فيه الدِّرَاسَةُ إِلَى أهمِّ عنصرٍ من عَنَاْصِرِ النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ، والَّتِيْ إذا مَا ذُكرتِ المَقَامَةُ ذُكرَ مَعَهَا، وَهُوَ فَنُّ البَدِيْع، وتشكيلاتُهُ الْجَمَاليَّةُ، فَنَهَلَ الْأُدَبَاءُ مِنْ شَتَّى أصنافه، مِنَ الطِّباقِ والتَّجْنِيسِ، وَمِنَ الْمُقَابَلَةِ والتَّسْجيعِ، وَمِنَ الاقتباسِ والتَّشْطِيْرِ، وَمِنَ التَّوْرِيَةِ والتَّقسيمِ، مَعْ بَيَانِ مَا حَمَلَتْهُ هَذِهِ الأَلْوَانُ من معانٍ فائقةٍ، ومُوْسِيْقَا متفرِّدةٍ، أضفتْ إِلَى النُّصُوْصِ جَمَالَاً من طرازٍ فريدٍ، ووشَّحتها بحُسْنٍ من نوعٍ أخَّاذٍ.

وَرَابِعُ الفُصُوْلِ رَصَدَ عَوَالِمَ التَّشْكِيلِ فِيْ الْمَقَامَةِ العُثمانيَّةِ، فبدأ بالتَّشْكِيلِ اللَّوْنيِّ حَيْثُ رَسَمَ الْأُدَبَاء كأبرعِ فنانٍ، واختاروا الأَلْوَانَ كأحسن رسامٍ، وقدَّموا لوحاتٍ فنيَّة ترنو إِلَيْهَا العُيُوْنُ فتقرُّ بها، وتتأثَّر بها القُلُوْبُ فتأنسُ صحبتها، وتشعرُ بها الْأَحَاسِيْسُ فتتفاعلُ معها، وتتعلَّقُ بها الأفئدةُ فتعشقها، وَثَنَّى بالتَّشْكِيلِ الحركيِّ، فصُحْبَةَ السُّكونِ والْحَرَكَةِ، أو رفقةَ الهدوءِ والتَّوَتُّر أبهرنا كتَّابُ المَقَامَةِ بالتَّشْكِيلاتِ الْحَرَكِيَّةِ الَّتِيْ رَسَمَتْ صُوراً ناطقةً، ومَشَاهِدَ حيَّةً، فعشنَا مَعْ رَوَائِعهم مشقَّةَ الرَّحِيلِ، وعناءَ التَّرْحَالِ، وحيينا مَعْ مَقَامَاتِهِم سعادةَ الصُّعودِ، وشقاءَ الهُبُوطِ، وثلَّثَ بالتَّشْكِيلِ الصَّوتيِّ حَيْثُ غَنَّى الْأُدَبَاء فأضحت كلماتُهم فنوناً، وترنَّموا فأبهروا المُتَلَقِّي بعذبِ المُوْسِيْقَا، وروائعِ الْأَلْحَانِ، وتركوا السَّامِعِيْنَ يمتِّعونَ أنظارهم بعقودِ دُرٍّ نضيدٍ، ويطربونَ آذانهم بروائعِ نظمٍ دقيقٍ. ثُمَّ خَتَمَ، فَقَدَّمَ التَّشْكِيلَ الْأُسْلُوبيَّ وأدواتِهِ، وتنقَّلَ بَيْنَ تِقْنِيَّاتِهِ حَيْثُ الأمرُ، والنَّهيُ، والاسْتِفْهَامُ والنِّدَاءُ، والشَّرْطُ، والتَّقْدِيمُ والتَّأْخِيرُ، والتَّكْرَارُ، وما احتوته النُّصُوْصُ المَقَامِيَّةُ من أَسَالِيْبَ رائعةٍ كَتَبَتْ لها الْبَقَاءَ بَيْنَ الفُنُوْنِ.

وَبَعْدَ التَّنقُّلِ والتَّرْحَالِ، وَبَعْدَ السَّيرِ والتَّجْوالِ ترسو سفينةُ الدِّرَاسَةِ عَلَى شاطئِ الْخَاتَمَةِ لتحملَ شذىً من عبيرِ هَذَا العَصْرِ، وَعِطْراً رُبَّمَا كَانَ جَدِيْدَاً من أزهارِ تِلْكَ الحقبةِ الْمُضِيْئَةِ الَّتِيْ حَاوَلَ بعضُ الْبَاحِثِيْنَ إطفاءَ نُورِهَا، وَجَاهدَ عَدَدٌ مِنَ الدَّارِسِينَ لإخمادِ جذوة تألُّقها. ثُمَّ ترسلُ

بعضَ التَّوصِياتِ الَّتِيْ قَدْ تفتحُ للدَّارسينَ آفاقاً جديدةً، وأبواباً كَانَتْ موصدةً يثري من يقصدها الْمَكْتَبَةَ الْعَرَبِيَّةَ بتراثِ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ العظيمِ، وأدبِهِ الرَّشِيقِ.

أَوَّلاً: أَهَمِّيَةُ الدِّرَاسَةِ:

لَعَلَّ البَلَاْغَةَ مِنَ العُلُومِ الَّتِيْ يشرُفُ الْبَاحِثُونَ بدراستها، وقد تناولَ كَثِيْرٌ مِنَ العُلَمَاْءِ البَلَاْغَةَ الْعَرَبِيَّةَ في عُصُوْرٍ متعددةٍ، بَيْنَمَا أَهْمَلَهَا معظمهم فِيْ الأَدَبِ العُثْمَانِيِّ.

وتكمنُ الأهميَّةُ العلميَّةُ لهذه الدِّرَاسَةِ فِيْ كونها أساساً ثابتاً في ترسيخِ جذورٍ قويَّةٍ لِلْبَلَاغَةِ في الأَدَبِ العُثْمَانِيِّ، وإثباتِ حقيقة جليَّة لا ينكرها إِلَّا مَنْ لَمْ يتذوَّقْ جَمَالِيَّاتِ الأَدَبِ العُثْمَانِيِّ، وهي: أنَّ الأَدَبَ العُثْمَانِيَّ شعرَه ونثرَه هُوَ المنهلُ العذبُ لاستقاءِ الثَّقَافَةِ، والوِرْدُ الصَّافي لكَثِيْر مِنَ العُلُوم، والْأَرْضُ الخصبةُ لبذرةٍ طيبةٍ أصلها ثابتٌ، وفرعها قد يرتقي إِلَى عنانِ السَّمَاءِ، بَيْدَ أنَّ كنوزَ الأَدَبِ العُثْمَانِيِّ لا زَالَ أَغْلَبُهَا دَفِيْنَاً بَيْنَ طَيَّاتِ الكُتُبِ، وأرففِ الْمَكْتَبَاتِ فِيْ شَتَّى أنحاءِ الْمَعْمُوْرةِ.

وتهدفُ الدِّرَاسَةُ إِلَى الْوُصُولِ إِلَي ما يمكنُ الْوُصُولُ إليه من الْأَسْرَارِ، والْكُنُوْزِ الكامنةِ في صدفاتِ المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ الَّتِيْ تغاضى عنها كَثِيْرٌ مِنَ الدَّارِسِينَ بِدَعْوَى الضَّعْفِ، وكون العَصْر العُثْمَانِيّ عصر التَّخلُّفِ، والْانْحِطَاطِ.

وسيقومُ البَاْحِثُ بدراسةِ المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ دراسةً وافيةً مِنْ خِلَالِ التَّشْكِيلِ الْجَمَاليِّ فيها بعرضِ ماهيَّةِ المَقَامَةِ، وأهمّ روادها، والْمَوضُوْعاتِ الَّتِيْ تناولتها، وتقديمِ الأَسَالِيْبِ البَلاغيَّةِ، وطرحِ التَّشْكِيلاتِ اللَّوْنيَّةِ، والْحَرَكِيَّةِ، والصَّوْتيَّةِ، والْأُسْلُوبيَّةِ، وَبَيَانِ مَا فيها مِنْ تصويرٍ بيانيٍّ بديعٍ، ولونٍ بديعيٍّ فريدٍ، وتناسقٍ فَنِّيٍّ رائعٍ.

ثَانِيَاً: دَوَافِعُ اختيارِ الْمَوضُوْعِ:

لَمَّا كَانَتْ البَلَاْغَةُ الْعَرَبِيَّةُ من أشرفِ العُلُومِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وأكثرها أهميةً مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى فقد اجتهد كَثِيْرٌ من الْبَاحِثِينَ في هَذَا الْمِضْمَار، بَيْدَ أنَّهم ركَّزوا عَلَى عصورِ الأَدَبِ كَافَّةً، وأهملوا العَصْرَ العُثْمَانِيَّ؛ إِذْ مِنَ النُّدرةِ مَنْ تناولَ المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةَ بعينها، لِذَا رَأَى البَاْحِثُ أَنْ يركِّزَ جهدَهُ عَلَى هَذَا الجزءِ مِنَ الأَدَبِ العَرَبِيِّ، ويجمعَ الظَّوَاهِرَ الْمُتَعَدِّدَة فيه، ويصنِّفها كَمَا هو مبيَّن في الخُطَّةِ، كَمَا يلجأُ البَاْحِثُ إِلَى تَوْظِيفِ مَبَاحِثِ العنوانِ لِلْوُصُوْلِ إِلَى أهدافِ الدِّرَاسَةِ وأغراضِهَا.

ثَالِثَاً: مَنْهَجُ الدِّرَاسَةِ: (التَّكَامُلِيّ، حَيْثُ إن هَذَا المَنْهَجَ يحتوي جَمِيْعَ جوانبِ الدِّرَاسَةِ)، وتبعًا لطبيعةِ الدِّرَاسَةِ فَإِنَّ البَاْحِثَ سيتبعُ المَنْهَجَ التَّحليليَّ الوَصْفيَّ بالإضافةِ إِلَى المَنْهَجِ التَّاريخيِّ؛ لمناسبتها لموضوعِ الدِّرَاسَةِ، ولاستخلاصِ الْأَهْدَافِ المرجوةِ مِنْهَا إِنْ شاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى.

رَابِعَاً: أَهْدَافُ الدِّرَاسَةِ: تَهْدِفُ الدِّرَاسَةُ إِلَى:

1- التَّركيز عَلَى الدِّرَاسَاتِ المتعلِّقةِ بالبَلَاْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

2- الأَدَبُ العُثْمَانِيُّ أدبٌ حَمَلَ الْجَمَالَ عَلَى مدى الأزمانِ، والدُّهُورِ، والدِّرَاسَاتُ العُثْمَانِيَّةُ تعكسُ هَذَا الْجَمَالَ عَلَى مدى الأيامِ والعُصُوْرِ، وتصبُّ جلَّ الاهتمامِ لإثباته، وَرَسْمِ مَشَاهِد الحُسْنِ فيه.

3- إثبات مَا تَفَرَّدَ بِهِ الأَدَبُ العُثْمَانِيُّ من ظواهرَ خَاصَّةٍ، وأَسَالِيْبَ متفرِّدةٍ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ.

4- ترسيخُ جذورٍ قويَّةٍ لِلْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِيْ الدِّرَاسَاتِ السَّابِقَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، الَّذِيْ تعرَّض كَثِيْراً للظُّلمِ من بعضِ الدَّارِسِينَ.

5- إبطال آراءِ بعضِ الدَّارِسِينَ الَّذِيْن هاجموا العَصْرَ العُثْمَانِيَّ، والْبَاحِثِينَ الَّذِيْن سعوا سعياً حثيثاً لتعكيرِ صفوه، مُتلمِّسينَ شَتَّى الدُرُوْبِ الْمُظْلِمَةِ للطَّعنِ في جَمَالِيَّاته الأَدَبيَّةِ، وروائعه الفنيَّةِ، بَلْ حاولوا جَاهِدِيْنَ لإلغاءِ وجوده.

خَامِسَاً: الصُّعُوْبَاتُ الَّتِيْ واجهتْ البَاْحِثُ:

لا يَخْلُو أيُّ عملٍ مِنْ بعضِ الصُّعُوْبَاتِ، فَقَدْ وَاجَهَ البَاْحِثُ عدَّةَ صُعُوبَاتٍ، ولكن منَّة اللهِ الواسعةِ، وكرمه الفيَّاض، ورحمته الغامرة بعبادِه، ومشيئته المطلقة – بلا أَدْنَى شكٍّ – كَانَتْ العونَ الأوَّلَ لي في تذليلِ هذه الصُّعُوْبَاتِ، نَاهِيْكَ عن توجيهِ أستاذي الفاضلِ الْأُسْتَاذ الدُّكْتُور مُحَمَّد علوان، وَخِبْرَةِ الْأُسْتَاذ الدُّكْتُور نبيل أبو علي في هَذَا الميدانِ، والَّذِيْ فَتَحَ لي أبواباً كَانَتْ مُوْصَدَةً في هَذِهِ الدِّرَاسَة، وَلَا أَنْسَى كرمَ أساتذتي جَمِيْعَاً الَّذِيْنَ لَمْ يدَّخِروا جهداً في توفيرِ المشورةِ، والدَّعمِ الْمَعْنَوِيِّ، والعلميِّ. أطالَ اللهُ أعمارَهُمْ، وأضاءِ دُرُوْبَهُم، وأحسنَ خَاتِمَتَهُم.

أَمَّا أهمُّ هَذِهِ الصُّعُوْبَاتِ فَهِيَ:

1- اتِّساعُ مَوْضُوعِ الدِّرَاسَةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةَ غنيَّةٌ بالظَّوَاهِرِ الُّلغويَّةِ، والبَلاغيَّةِ.

2- نُدْرَةُ الدِّرَاسَاتِ والبُحوثِ الَّتِيْ تناولتِ الأَدَبَ العُثْمَانِيَّ، خَاصَّةً فَنّ المَقَامَةِ، والتَّشْكِيل البلاغيّ فيها.

3- افتقارُ مكتباتنا فِيْ قطاعِ غزَّةَ إِلَى كَثِيْرٍ من الْمَصَادِرِ، والْمَرَاجِعِ الَّتِيْ يحتاجُ إِلَيْهَا البحثُ العلميُّ خاصة في ظلِّ إغلاقِ المعابرِ، والحصارِ المتواصلِ والظَّالِمِ، عَلَى قطاعنا الحبيبِ في هَذَا الوقتِ.

4- صُعُوبةُ الحصولِ عَلَى الْمَرَاجِعِ الَّتِيْ تناولتِ الأَدَبَ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ بأسلوبٍ صحيحٍ.

5- قِلَّةُ الخبرةِ فِيْ هَذَا الْبَابِ، فالَّذِيْن سَبَرُوا أغوارَ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ أدبيَّاً قلَّةٌ قليلةٌ، ربَّما لا يتجاوزُ عددُهم أصابعَ اليدِ الواحدةِ.

6- عدم تقبُّل كثير من الباحثين لفكرة دراسة الأدب العثمانيِّ، وتركيز جهدهم في جوانب أخرى.

سَادِساً: الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ:

لَعَلَّ الدِّرَاسَاتِ الَّتِيْ تناولتِ العَصْرَ العُثْمَانِيَّ كَكُلٍّ كانتْ قليلةً، خاصَّةً تِلْكَ الدِّرَاسَات الَّتِيْ تناولتْ فنَّ المَقَامَةِ. بَيْدَ أنَّ الدِّرَاسَاتِ الَّتِيْ تناولتِ التَّشْكِيلَ البَلَاغِيَّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ تكادُ تكون نادرةً جداً، بحَيْثُ لَمْ أعثرْ خلالَ بحثي عَلَى موضوعٍ مستقلٍّ يبحثُ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ بصورةٍ خَاصَّةٍ؛ لذا اخترتُ هَذَه الدِّرَاسَةَ المتخصِّصةَ في عنوانها؛ لأملأَ بعضَ هَذَا الفراغِ في الدِّرَاسَاتِ العَرَبِيَّةِ.

أَمَّا أَهَمُّ الدِّرَاسَاتِ في هَذَا الميدانِ فَهِيَ:

1- الأَدَبُ العربيُّ بينَ عصرينِ المملوكيِّ والعُثْمَانِيِّ. أ. د/ نبيل خالد أبو علي.

2- المَقَامَاتُ في العَصْرينِ المملوكيِّ والعُثْمَانِيِّ- دراسة تحليليّة نقدية. سحر أبو عطيوي. رسالة ماجستير.

3- سمات أسلوبيَّة في مَقَامَاتِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ- دراسة تحليليَّة. مي حسن يونس رسالة ماجستير.

4- فَنُّ المَقَامَةِ في التُّحفةِ الْمَرْضِيَّةِ لابن مَيْمُون الجزائريّ. الطَّاهر حسيني. رسالة ماجستير.

سابعاً: خُطَّةُ الدِّرَاسَةِ:

اقتضتْ طَبِيْعَةُ الدِّرَاسَةِ إِلَى أنْ تَنْقَسِمَ إِلَى مُقدِّمةٍ، وتمهيدٍ، وأربعةِ فُصُوْلٍ، وخاتمةٍ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

* **الْمُقدِّمَــةُ:** وقُـدِّمَ الحَـدِيْثُ فيهـا عـن أهميَّـةِ الْمَوضُـوْعِ، وسـببِ اختيـاره، وأهـدافِ الدِّرَاسَـةِ، والصُّعُوْبَاتِ الَّتِيْ واجهت البَاْحِثَ، وخطَّةِ الدِّرَاسَةِ، وَمِنْهُجِ البحثِ، والدِّراساتِ السَّابقةِ.

* **التَّمْهِيدُ:** وَتَنَاوَلَ فيه البَاْحِثُ مفهومَ كُلٍّ من الْجَمَالِ والتَّشْكِيلِ في الُّلغَةِ، والاصْطِلَاحِ، وأثرهما في الدِّرَاسَاتِ البَلاغيَّةِ، ثُمَّ رَصَدَ نظراتٍ فِيْ الْجَمَالِ والتَّشْكِيلِ فِيْ الفكرِ العربيِّ والإسلاميِّ، ومفهومهما فيْ الفكرِ الفلسفيِّ، والْفَنِّيِّ.

الْفَصْلُ الأَوَّلُ: فَنُّ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وينقسم إِلَى أربعةِ مَبَاحِثَ هِيَ:

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ: فنّ المَقَامَةِ النَّشأةَ والتَّطوُّرَ، وعوامل ازدهارها فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: بِنَاءُ المَقَامَةِ وأصولها الفنيَّةُ.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: أُدَبَاءُ المَقَامَةِ في العَصْرِ العُثْمَانِيِّ.

1- شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ

2- نَاصِيْف اليَازْجِيّ

3- ابن النَّقيب

4- عبد الله السّويديّ

5- نقولا التُّرك

6- الشّهاب الأَلُوسِيّ

7- أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق

8- عَبْد الله فِكْرِيّ باشا

9- إِبْرَاهِيْم الأحدب

10- شِهَاب الدِّين السّويديّ

11- مُحَمَّد بن مَيْمُون الجزائريّ

12- مُحَمَّد بن أَحْمَد الوُرْغِيّ

13- مُحَمَّد المُبَارَك

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: مَوْضُوْعَاتُ المَقَامَةِ في العَصْرِ العُثْمَانِيِّ.

أَوَّلاً: الْمَوضُوْعاتُ السِّيَاسِيَّةُ.

ثَانِيَاً: الْمَوضُوْعاتُ الاجتماعيَّةُ.

ثالثاً: الْمَوضُوْعاتُ الدِّيْنِيَّةُ.

رابعاً: الْمَوضُوْعاتُ السُّلوكيَّةُ والأَخْلَاقيَّةُ.

خامساً: الألغازُ والأحاجي والمعمَّياتُ

سادساً: الطِّبُّ والفَلَكُ

سابعاً: الوَصْفُ

1- وصفُ الطَّبِيْعَةِ

2- وصفُ الرَّحلاتِ

3- وصفُ القُصُوْرِ

ثامناً: الْهِجَاءُ

تاسعاً: الْغَزَلُ، غزلُ الغلمانِ

عاشراً: المُفَاخَرَاتُ والمُنَاظَرَاتُ

حادي عشر: ما لا يستحيلُ بالانعكاسِ

***الفَصْل الثَّانِي:** التَّشْكِيلُ البيانيُّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وينقسم إِلَى أربعةِ مَبَاحِثَ هِيَ:

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: التَّشْكِيلُ التَّشـــبيهيُّ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: التَّشْكِيلُ الاستعاريُّ.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: التَّشْكِيلُ الكنـــائيُّ.

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: الْمَجَـــازُ الْمُرْسَـــلُ.

* **الْفَصْلُ الثَّالِثُ:** التَّشْكِيلُ البَدِيْعيُّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وينقسم إِلَى مبحثينِ هما:

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ: المُحَسِّنَات البَدِيْعيَّة الْمَعْنَوِيَّة، ويشمل (الطِّباق، الْمُقَابَلَة، التَّوْرِيَة، اللَّف والنَّشر، و الاقتباس من الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، والحَدِيْثِ الشَّريفِ، الأَدَبِ، والْأَمْثَالِ العربيَّةِ).

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: المُحَسِّنَاتُ البَدِيْعيَّةُ اللَّفْظِيَّةُ، ويشملُ (الجِنَاس، السَّجع، العكس، لزوم ما لا يلزم، الاكتفاء، والتَّشْطِيْر).

الْفَصْلُ الرَّابِعُ: التَّشْكِيلُ اللَّوْنِيُّ، والحركيُّ، والصَّوتيُّ، والْأُسْلُوبيُّ في المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ، وينقسمُ إِلَى أربعةِ مَبَاحِثِ هي:

الْمَبْحَثُ الأوَّلُ: التَّشْكِيلُ اللَّوْنـــيُّ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: التَّشْكِيلُ الحركـيُّ.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: التَّشْكِيلُ الصَّوتيُّ.

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: التَّشْكِيلُ الْأُسْلُوبيُّ.

سماتُ فَنِّ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ

الْخَاتَمَةُ: وفيها نتائجُ الدِّرَاسَةِ، ثُمَّ التَّوصِياتُ.

وأَخِيرَاً، فهَذَا جهدٌ متواضعٌ أقدِّمه للمكتبةِ الْعَرَبِيَّةِ، ولأساتذتي الكرامِ، وإخواني الأعزَّاء، وطلابي الأحباب، وطالباتي الفُضْليات، وَكُلِّي أملٌ أن أصلَ مِنْ خِلَالِ هذه الدِّرَاسَةِ إِلَى الْكُنُوْزِ الدَّفينةِ، والْأَسْرَار البَلاغيَّةِ الكامنةِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ ؛ لَعَلَّ ذَلِكَ يفتح كَثِيْراً من الأبوابِ الْمُوْصَدَة لِمَا يشمله فَنُّ المَقَامَةِ من فصاحةٍ، وما يحويه من بيانٍ. وأنْ يحظى بالقَبُول، فإنْ وفِّقت فيه فهو بتوفيقِ اللهِ – جَلَّ وعَلَا – ومنَّتِهِ، وإن قصَّرتُ فَإِنَّ سمةَ البشرِ النَّقصُ. وَمَا مِنْ إنسانٍ يبلغ الْكَمَالَ، وإنْ سَعَى تجاهه سعياً حثيثاً، وسار في دُرُوْبِه سيراً جاداً.

واللهُ وَلِيُّ التَّوفيقِ، وَمِنْهُ نستمدُ العَوْنَ، فَهُوَ وَلِيُّ ذَلِكَ ومولاه.

مجدي عايش أبو لحيـة

ذو القعدة 1438هـ

أغســطس 2017م

التَّمْهِيْـــــــــــدُ

الْجَمَـــــــــــالُ

وَ

التَّشْكِيْـــــــــلُ

تَمْهِيْـــــــد

الْجَمَالُ والتَّشْكِيلُ

تفاوتتِ الآرَاءُ حَوْلَ الأَدَبِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، بَيْدَ أَنَّهُ من الْإِنْصِافِ الْقَوْل في هَذَا المقامِ: إنَّ الأَدَبَ – شعره ونثره– فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ قد سبقته ظُرُوْفٌ، وقد حفَّزتْ إليه دَوَافِعُ، وتهيَّأتْ له عَوَامِلُ جَعَلَتْ منه فنّاً رُبَّمَا نافس بعضَ العُصُوْرِ السَّابِقَةِ خَاصَّةً في تنوُّع الفُنُوْنِ، وأَسَالِيْبِ التَّجْديدِ، وَصُوَرِ التَّعبيرِ عَنِ النَّفسِ، والْمُجْتَمَعِ، والْحَيَاةِ، وَلَعَلَّ المدَّةَ الَّتِيْ تولَّى فيها العُثْمَانِيُّوْنَ زِمَامَ الأُمُوْرِ، ثمَّ الْأَحْدَاثَ الجِسَامَ الَّتِيْ مرَّتْ بها تِلْكَ الْفَتْرَةُ فتحتْ كَثِيْراً من الأبوابِ الْمُوْصَدَةِ الَّتِيْ كانَ يخشى كَثِيْرٌ مِنَ الْأُدَبَاءِ طَرْقَهَا، فخاضوا غِمَارَ التَّجْدِيدِ في الْمَوضُوْعاتِ والْمَضْمُونِ، وَفِيْ الشَّكلِ والمُوْسِيْقَا، وفي الأَوْزَانِ وَالْقَوَافِي.

وَقَبْلَ الإبحارِ فِيْ سَفِيْنَةِ الأَدَبِ، والسَّفرِ تِلْقَاءَ حَدَائِقِ المَقَامَاتِ يجبُ أنْ تَتَحَرَّكَ السَّفينةُ إِلَى الخلفِ قَلِيْلاً لَعَلَّ الَّتِيْارَ يَرْسِمُ لها مَلَامِحَ الْحَقِيْقَةِ الَّتِيْ تجاهلها كَثِيْرٌ مِن النُّقَّادِ، وَحَاوَلَ تَغْيِيْرَ مَلَامِحِهَا مَنْ لم تسعفْهم حَاسَةُ الْإِنْصِافِ، فشرعوا يطلقونَ رصاصاتِ الظُّلمِ صَوْبَ هَذَا العَصْرِ، وهو العَصْر العُثْمَانِيّ الَّذِيْ حَاوَلَ كَثِيْرٌ مِن النُّقَّادِ أنْ يقدِّمَ ملامِحَهُ فِي صُوْرَة مُظْلِمَةٍ مُسْتَنِداً إِلَى أدلَّةٍ واهيةٍ أشبهَ بِخُيُوْطِ الْعَنْكَبُوْتِ، وحاولوا التَّقْدِيمَ لِذَلِكَ بِمُسَمَّىً طَفَا عَلَى السَّطحِ حَسَبَ وجهةِ نظرهم، وهَذَا المُسَمَّى هو (عَصرُ الْانْحِطَاطِ) الَّذِيْ أَخَذَ يتداوَلُهُ كَثِيْرٌ من أبناءِ الأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ دُوْنَ أدنَى مُحَاوَلةٍ لإنصافِ تِلْكَ المَرْحَلَةِ.

وَقَدْ أُثِيْرَ حَوْلَ هَذَا المُسَمَّى جَدَلٌ كبيرٌ لَمْ تُعرَفْ بدايَتُهُ، أو حَتَّى نهايَتُهُ، وَلَعَلَّ مِنْ أسبابِ هَذَا الجَدَلِ، مَنْ وضعوا هَذَا المُصْطَلَحَ، وأعني بِذَلِكَ مصطلح (الْانْحِطَاط) الَّذِيْ ابتدعَهُ بعض النُّقَّادِ المصريينَ وَمَنْ تَابَعَهُم، وَتَبِعَهُم بترديدِ هَذَا المُصْطَلَحِ عَدَدٌ كبيرٌ مِن النُّقَّادِ في شَتَّى البلدانِ الْعَرَبِيَّةِ، وأخصُّ بالذِّكرِ الَّذِيْنَ عَكَفُوا عَلَى دراسةِ المَنَاهِج الْمِصْرِيَّة دُوْنَمَا تدقيقٍ، أو تمحيصٍ لهذه المُصْطَلَحاتِ الَّتِيْ تملأُ تِلْكَ المَنَاهِجَ مِنْ نَاحِيَةٍ، ودونَ إجراءِ أَيِّ تغييرٍ عَلَى مُفْرَدَاتها – وَكَأَنَّهَا قُرْآنٌ مُنْزَلٌ – مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَهُنَا أقولُ إنَّ كَثِيْراً مِنَ الدَّارِسِينَ رُبَّمَا وضعوا نُصبَ أعينهم أنَّ المصريينَ هم القدوةُ الحسنةُ، والمثلُ الأعَلَى الَّذِيْ لا يمكنُ أنْ تُخالفَ وجهةُ نظره، أو حَتَّى يُناقش رأيُهُ؛ لِأَنَّهم هم أساتذةُ الوطنِ العربيِّ في عالمِ الأَدَبِ، وشَتَّى العُلُومِ.

وَلَعَلَّ كَثِيْراً مِن النُّقَّادِ الَّذِيْن أخذوا عَلَى عاتقهم الإبحارَ في هَذَا العالمِ، والغوصَ فِيْ ذلكَ البحرِ المتلاطمِ الْأَمْوَاجِ، والمتمثِّلِ في ذَلِكَ المُصْطَلَحِ، أَصَرَّ كُلَّ الإصرارِ أن يتمسَّكَ بِذَلِكَ المُصْطَلَحِ، وَهُنَا أذكرُ دِيْكَ الْجِنِّ الَّذِيْ يَقُوْلُ:

حَيَــاةٌ ثُــمَّ مَــوْتٌ ثُــمَّ بَعْــثٌ حَدِيثُ خُرَافَـــــــةٍ يَـــا أُمَّ عَمْرِو[1]

وَكَأَنِّي بهَؤلاءِ النُّقَّادِ قَدْ تبنوا في نظرتهم للأدبِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيّ صَدْرَ هَذَا البيتِ، وأهملوا عَجُزَهُ، مُصِرِّينَ عَلَى التَّمسُّكِ، بَلِ التَّشبُّثِ بِذَلِكَ المُصْطَلَحِ العَقِيْمِ.

وَهُنَاْكَ كَثِيْرٌ من الْأَسْئِلَةِ الَّتِيْ تَطْرَحُ نفسَهَا، والَّتِيْ لو فَكَرَ الدَّارِسُونَ فيها مَلِيًّا لسارعوا إِلَى تغييرِ وجهةِ نظرِهِم فِيْ مُصْطَلَحِ (الْانْحِطَاط) المزعومِ.

– فَهَلْ مَاتَ الأَدَبُ في ذَلِكَ العَصْرِ– أَعْنِي فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ– فِعْلاً، وَشَارِكَ في تشييعِ جنازتِهِ مَنْ سَارَعَ بتبنِّي هذه النَّظرةِ، أو بتأييدِ تِلْكَ الفكرةِ؟

– مَنِ الْمَسْؤُولُ عن فكرةِ إطلاقِ مُصْطَلَحِ (مَوْتُ الأَدَبِ) في هَذَا العَصْرِ؟ وعَلَى اعتبارِ تِلْكَ الرُّؤيةِ – وهي موت الأَدَب – هلْ يُعْقَلُ أَنْ تعجزَ تِلْكَ الحِقْبَةُ الطَّويلةُ مِنَ الحكمِ العُثْمَانِيِّ في ثلاثِ قاراتٍ أنْ تلدَ أديباً فذّاً، أَوْ شَاعِرَاً لا يُجَارَى؟.

– هَلْ يمكنُ أَنْ يستوعبَ صَاحِبُ أيَّةِ عقليَّةٍ نَاقِدَةٍ، وَقَرِيْحَةٍ وقَّادَةٍ أنْ تُجمعَ كُلُّ أعمالِ تِلْكَ الحقبةِ، والَّتِيْ كُتِبَتْ بِمِدَادٍ من الدِّماءِ، ثُمَّ يُلْقِي بِهَا في دُرُوْبِ النِّفاياتِ غيرَ مكترثٍ بما بذله هَؤلاءِ الْأُدَبَاءُ مِنْ مجهوداتٍ، قَلَّدَتْهُم يَوْمَاً تيجانَ الشُّهرةِ، وبوَّأتهم أَرْقَى المناصبِ، وأعَلَى المراتبِ؟.

– هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُنْكِرَ مؤرخو الأَدَبِ، ودارسوه إِبْدَاعَاتِ مَحْمُوْد سَامِي البَارُوْدِي الْمُذْهِلَةَ (1838–1904م)، وروائعَ أَحْمَد شَوْقِي الْمُبْهِرَةَ (1870–1932م)، ولمساتِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ السَّاحِرَةَ (1800–1871م)، وإسهاماتِ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ الْبَارِعَة (977–1069هـ)، ومقاماتِ نقولا التُّرك الْفَائِقَةَ (1176–1244هـ)، وَلَوْحَاتِ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق المتفرِّدةَ (1219–1305هـ)، وآخَرُوْن كَثِيْرونَ تثبت الأدلَّةُ القاطعةُ أنَّهُم أمضوا جُلَّ حياتِهِم فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وأنَّ ما وَصَلَ إليه هَؤلاءِ الْأُدَبَاءُ مِنْ شُهْرَةٍ، وما اعتلوه من مكانةٍ، إِنَّمَا كانَ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ؟.

– هَلْ يُعْقَلُ أَنْ يُنْكِرَ النُّقَّادُ أنَّ الرَّوَائِعَ الشِّعْرِيَّةَ لكَثِيْرٍ مِنَ الشُّعَرَاءِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وعَلَى رَأْسِ هَؤُلَاْءِ مَحْمُوْد سَامِي البَارُوْدِي، وأَحْمَد شَوْقِي، وَحَسَن مُحَمَّد البوريني، والمَقَامَاتِ الْبَارِعَةَ لكَثِيْرٍ مِنَ الْمَقَامِيِّيْنَ، ويتصدَّرهم نَاصِيْف اليَازْجِيّ، وأَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق، ونقولا التُّرك...وغيرهم قد نافستْ روائعُهُم الفُنُوْنَ الأَدَبيَّةَ في العُصُوْرِ المُخْتَلِفَةِ؟.

---

[1] الْحِمْصِيّ، دِيْوَان ديك الجنّ الْحِمْصِيّ، (ص170). والأَصْبهانيّ، محاضرات الْأُدَباء، (ج423/4).

وإِلَى جَانِبِ ذَلِكَ، فَإِنَّ هُنَاْكَ عَدَداً كَبِيْرَاً مِنَ الشُّعَرَاءِ، وأُدَبَاءِ المَقَامَاتِ العُثْمَانِيِّينَ الَّذِيْنَ بَرَعُوا في نظمهم، وسَموا في كتاباتهم، وأبدعوا في مَعَانِيهم، وفاقوا في صورهم، فكتبتْ لهم أعمالُهُم الأَدَبيَّةُ الْخُلُودَ في عَالَمِ الأَدَبِ، وارتقوا إِلَى مَصَافِ الإِبْدَاعِ، وَمِنْ هَؤلاءِ الشُّعَرَاء مُحَمَّد حسن البوريني، وشِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ، وابن الإفرنجيَّة، ونَاصِيْف اليَازْجِيّ...، وغيرهم كَثِيْر. فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُحْرَمَ دارسو الأَدَبِ من إبداعاتِ مِثْل هَؤلاءِ الأفذاذِ؟، وَهَلْ فكرةُ إخفاءِ مثل تِلْكَ الإِبْدَاعاتِ في هَذَا العَصْرِ مَقْصُوْدَةٌ من أطرافٍ بِعَيْنِهَا؟.

إِنَّ الْأَسْئِلَةَ هَذِهِ تحتاجُ إِلَى إجاباتٍ دقيقةٍ، ورُبَّمَا يكونُ هُنَاْكَ كَثِيْرٌ من العُقُوْلِ الَّتِيْ تحتفظُ بإجاباتٍ شافيةٍ، بَيْدَ أَنَّ الخشيةَ من المواجهةِ مَعْ أَنْصَارِ تِلْكَ المُصْطَلَحاتِ، هي الَّتِيْ تمنعهم مِنَ التَّصريحِ، فيكتفونَ بالسُّكوتِ، ويلتزمونَ الصَّمتَ.

ومِنَ النُّقَّادِ مَنْ نَحَا مَنْحَىً آخرَ تِجَاهَ هَذَا المُصْطَلَحِ (الجُمُود والْانْحِطَاط)، لكنَّه فَسَّرَ المُسَمَّى تفسيراً رُبَّمَا لَمْ يتعرضْ مِنْ خِلَالِه لأيِّ قَدْحٍ في حديثه عَنِ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وَمِنْ هَؤلاءِ، علي أَحْمَد سعيد (أَدُوْنِيْس)، الَّذِيْ ينقل وجهةَ نظرِ كَثِيْرٍ من الكتَّابِ المصريينَ، والَّتِيْ تتمثَّلُ في ترديدهم لِذَلِكَ المُصْطَلَحِ. وَمِنْ هُنَا يتساءَلُ (أَدُوْنِيْس) في أثناءِ حديثه عن العَصْرِ العُثْمَانِيِّ قَائِلَاً: "ولاشكَّ أَنَّهَا كَانَتْ فترةً مظلمةً من النَّاحِيَةِ السِّيَاسِيَّةِ، والاقتصاديَّةِ، والاجتماعيَّةِ. فهَلْ كَانَتْ حَقاً فترةً مظلمةً من النَّاحِيَةِ الأَدَبيَّةِ الشِّعريَّةِ، أو الثَّقافيَّةِ بعامة؟... ويكملُ قَائِلَاً: إِنَّ تسميةَ هذه الْفَتْرَةِ بالْمُظْلِمَةِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ ثَمَّةَ مقياساً في ذهنِ من سَمَّاها بالْمُضِيْئَةِ"[1].

ويعودُ أَدُوْنِيْس ليفنِّدَ تلك الرُّؤيةَ قَائِلَاً: "ولاشكَّ أَنَّ الشَّعرَ العربيَّ تراجع فِيْ تِلْكَ الْفَتْرَةِ الْمُظْلِمَةِ عمَّا كان عليه سابقاً، قد تراجعَ عَلَى الأخصِّ كميَّاً، لكنَّنا نجدُ مَعْ ذَلِكَ حركةً شعريَّةً مستمرةً تدوم طوالَ هذه الْفَتْرَة، دون انقطاعٍ، وَلَعَلَّ في دراسةِ هذه الْحَرَكَةِ ما يفرضُ علينا أن نعيدَ طرحَ القَضَايَا المتعلِّقة بعصرِ النَّهضةِ طرحاً مُغايراً لِمَا هو مَألوفٌ"[2].

ويطرحُ (أَدُوْنِيْس) مَجْمُوْعَةً من الْأَسْئِلَةِ في هَذَا الصَّددِ، رُبَّمَا تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا جملةً من القيم، يَقُوْلُ: "والسُّؤالُ الأَوَّلُ في هَذَا الصَّددِ هو: هَلْ نقيسُ تقدُّمَ الْحَرَكَةِ الشِّعريَّةِ بفهمها روح العَصْرِ، والتَّعبيرِ عنها، أَمْ بِعَوْدتها إِلَى أصلٍ ثابتٍ، ومحاولة تقليده، أو الاحتذاء به؟ وَهَلْ انحطاطُ الشِّعرِ ناتجٌ عن رفضِ هذه العودةِ، ورفضِ التَّقليدِ؟"[3].

---

[1] أَدُوْنِيْس، الثَّابت والمتحول، 3 "صدمة الحداثة"، (ص53).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص53.

[3] المَرْجِع نفسه، ص54.

ولم يتوقَّفْ (أَدُوْنِيْس) عِنْدَ هَذَا الحَدِّ، بَلْ تناولَ خَصَائِصَ النِّتاجِ الأَدَبيِّ فِيْ الْمَرْحَلَةِ الَّتِيْ وسمها بَعْض النُّقَّادِ بالْمُظْلِمَة، أو الْانْحِطَاط مؤكداً أنَّ كتابةَ الشَّعرِ لم تتوقَّفْ، كما استمرتِ الْحَرَكَةُ الفكريَّةُ، وتطوَّرَتْ لغةُ الْقَصِيْدَةِ سَوَاء من حَيْثُ بنيتُها الشَّكليَّةُ (إيقاعات مختلفة ضمن بنيةٍ واحدةٍ)، أو من حَيْثُ استخدامُ اللُّغَةِ العاميَّةِ، وأنواع تعبيريَّة أُخْرَى (المُوشَّح، الدُّوبيت، الكَان كَان، الزَّجل، والمواليا)... [1].

وَيَتَمَسَّكُ (أَدُوْنِيْس) كغيره مِن النُّقَّادِ بمصطلحِ (الْانْحِطَاط)، لكنَّه طرح فكرةً مغايرةً للآخرينَ، وهذه الفكرةُ هي "أنَّ فترةَ الْانْحِطَاطِ قد تكون انحطاطاً بالقياسِ إِلَى شاعرٍ عظيمٍ كأَبِي تَمَّام، أو أبي نواس، أو الْمُتَنَبِّي، أو امرئ القيس، لَكِنَّهَا بكلِّ تأكيدٍ ليستِ انحطاطاً بالقياسِ إِلَى البَارُوْدِي...إِنَّهَا عَلَى الأقلِّ حقَّقت تطويراً أساسيَّاً في بنية الْقَصِيْدَة، وفي اللُّغَةِ الشِّعريَّةِ. أمَّا البَارُوْدِي فقد تجاهل هَذَا التَّطويرَ، وعاد إِلَى الْأَشْكَالِ الْقَدِيمَةِ"[2].

الْجَمَالُ والتَّشْكِيل، وتطوُّرهما في الفكرِ البلاغيِّ

أَوَّلاً: الْجَمَالُ

الْجَمَالُ فِيْ اللُّغَةِ، تتَّسعُ الآفاقُ، وتتنوَّعُ الآراءُ، وتتعدَّدُ الأذواقُ، ويَنْطَلِقُ كُلٌّ يُدلي بدلوه للتَّعْبِير، ويندفعُ الْجَمِيْعُ؛ ليعبِّرَ عن مضمونِ الكَلِمَاتِ، وَفَحْوَى الْمُفْرَدَاتِ بشَتَّى الطُّرُقِ، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الكَلِمَاتُ الَّتِيْ يطلقها الْإِنْسَانُ ساذجةً، أو بسيطةً، لكنَّها في مخيلته تعبِّرُ عن مَكْنُوْنَاتِ هذه الكلمةِ أو تِلْكَ المُفْرَدَةِ.

وَمِنْ هُنَا اندفعَ علماءُ اللُّغَةِ في مَعَاجِمهم يطلقونَ العَنَانَ لقدراتهم اللُّغَوِيَّةِ، وإمكاناتهم العقليَّةِ لتفسير هَذَا المُصْطَلَحِ، والتَّوسُّعِ في الحَدِيْثِ عن مُفْرَدَاته، لكن رَغْمَ هَذَا التَّوسُّعِ تظلُّ معظمُ مَعَاجِم اللُّغَةِ تدورُ في فَلَكٍ واحدٍ حول معنى الْجَمَالِ، قد يكون بينها اشْتِرَاكٌ في الْمَعْنَى، وَقَدْ يَكُوْنُ هُنَاْكَ تَبَاعُدٌ بحَيْثُ يَصْعُبُ جَمْعُ دَلَاْلَاْتِهَا فِيْ أصلٍ واحدٍ.

والْجَمَالُ في لِسَانِ الْعَرَبِ "مصدر الْجَمِيْل، والفعل جَمُل، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل: ٦]، أَي بهاء وحُسْن، والْجَمَالُ: الحُسْن يكون في الفعلِ، والخَلْقِ، وقد جَمُل الرجُلُ بالضَّم جَمَالاً فهو جَمِيلٌ، وجُمَال بالتَّخفيفِ، وجُمَّال الأَخيرة لا تُكسر، والْجَمَال بالضَّمِ والتَّشديدِ أَجمل من الْجَمِيْلِ. وجَمَّله أَي زَيَّنه والتَّجَمُّل تَكَلُّف الْجَمِيْل، و

---

[1] يُنْظَر: أَدُوْنِيْس، الثَّابت والمتحوِّل 3 "صدمة الحداثة"، (ص54، ص55).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص55.

جَمَّل اللهُ عليك تَجْميلاً إذا دعوت له أَن يجعله الله جَمِيلاً حَسَناً، وامرأَة جَمْلاء وجَمِيْلَة وهو أَحد ما جاءَ من فَعْلاء لا أَفْعَل لها؛ قالَ:

وَهَبْتُـــه مِـــنْ أَمَـــةٍ سَـــوْدَاءَ لَيْسَـــتْ بِحَسْـــنَاءَ ولا جَمْـــلاءَ

وقالَ الشَّاعِرُ:

فَهْـــيَ جَمْـــلاءُ كَبـــدْرٍ طَالِـــعِ بَـــذَّتِ الخَلْـــقَ جَمِيْعَـــاً بالْجَمَـــال

وَفِيْ حَدِيْثِ الإسراءِ: ثُمَّ عَرَضَتْ له امرأَةٌ حَسْناءُ جَمْلاءُ أَي جَمِيْلَة مليحةٌ، ولا أَفعل لها من لفظها كدِيمة هَطْلاء، وفي الحَدِيْثِ جاءَ بناقةٍ حَسْناءَ جَمْلاءَ، والْجَمَالُ يقعُ عَلَى الصُّوَرِ والْمَعَانِي وَمِنْهُ الحَدِيْث إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يحب الْجَمَالَ أَي حَسَنُ الْأَفْعَالِ كاملُ الأَوصافِ؛ وقوله أَنشده ثعلب لعبيد الله بن عتبة:

وَمَـا الحَـقُّ أَنْ تَهْـوَى فتُشْـغفَ هَوِيتَ، إذَا مَا كَانَ لَيْسَ بأَجْمَل

ويجوزُ أَنْ يَكُوْنَ أَجمل فيه بِمَعْنَى جَمِيل، وقد يجوز أَنْ يَكُوْنَ أَراد ليس بأَجمل من غيره، كما قَالُوا اللهُ أَكبرُ يريدونَ من كلِّ شيء. والمُجاملةُ: المُعَاملةُ: بالْجَمِيْلِ، والمُجَامِلُ الَّذِيْ يقدر عَلَى جوابك فيتركه إبقاءً عَلَى مَوَدَّتك، والمُجَامِلُ: الَّذِيْ لا يقدر عَلَى جوابك فيتركه ويَحْقد عليك إلَى وقتٍ ما. وجامَلَ الرَّجلَ مُجامَلَةً لم يُصْفِه الإخاءَ وماسَحَه بالْجَمِيْل، يقال: اجْمُل إن كنت جامِلاً فَإذَا ذهبوا إلَى الحالِ قَالُوا إنَّه لجَمِيلٌ، وجَمَالَك أَنْ لا تفعل كَذَا وكَذَا، أَي لا تفعله، والزمِ الأَمرَ الأَجْمَلَ"[1].

وَلَمْ يَبْتَعِدْ صَاحِبُ مُعْجَمِ الصَّحَاحِ عن ابن مَنْظُوْر، يَقُوْلُ: "والْجَمَالُ :الحُسْنُ وقد جَمُلَ الرَّجلُ بالضَّم جَمَالاً، فهو جميلٌ، والْمَرْأَة جَمِيْلَة، وجَمْلاءُ أَيْضَاً، وقول أبي ذؤيب:

جَمالَـــكَ أيُّهَـــا القَلْـــبُ القَـــرِيْحُ سَـــتَلْقَى مَـــنْ تُحِـــبُّ فتَسْـــتريحُ

يريد: "الْزَمْ تَجَمُّلَكَ وحياءَك، ولا تجزعْ جزعاً قبيحاً: والْجَمَال بالضَّم والتَّشديد :أَجْمَلُ مِنَ الْجَمِيْل. ويقال للشَّحمِ المُذابِ :جَميلٌ. وجُمَيْلٌ: طائرٌ جاء مصغَّراً، والجمع جِمْلانٌ مثال كُعَيْت وكِعْتانٍ.

---

[1] ابن مَنْظُوْر، لِسَان الْعَرَب، (ج126/11)، مادة (جمل). وابن فارس، مجمل اللغة، (ج1، 189/2)، مادة (جمل).

والجُمْلَـةُ: واحدة الجُمَـلِ. وقد أَجْمَلْتُ الحسابَ، إذا رددتَه إِلَـى الجُمْلَـةِ. وأَجْمَلْتُ الصنيعة عِنْدَ فلان، وأَجْمَلَ في صنيعه"[1].

إنَّ تتبُّعَ الدَّلَالَاتِ المُخْتَلِفَة لمادة (جَمَلَ)، وجمعها في حقلٍ واحدٍ، أو مزجها فِيْ بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ يبين أنَّه "رُبَّمَا يكون الأصلُ في استخدامِ اللفظِ، هو الاستعمال الماديّ الَّذِيْ يشكِّل أكثرَ الدَّلَالَاتِ اللُّغَويَّةِ شيوعاً، ووفرةً، وهو إطلاقه عَلَى الحيوانِ الَّذِيْ عرفته البيئةُ الْعَرَبِيَّةُ، وصحبَ العربيَّ فِيْ حِلِّهِ، وتَرْحَالِهِ في الصَّحراءِ، فالجملُ في نظرِ العربيِّ، محبَّبٌ إِلَى نفسه، قريبٌ إِلَى ذاته حَتَّى قِيْلَ: إنَّه غَدَا كَأَحدِ أبنائه يسعدُ برؤيته، ويستمعُ إِلَى شكواه، ويشاركُه تعبه ونصبه، قالَ الشَّاعِرُ:

شَـكَى إلـيَّ جَمَلِـي طُـوْلَ السّـرَى صَـبْرَاً جَمِـيْلَاً فَكِلَانَـا مُبْتَلَـى[2]

وَلَمْ يقفِ الأمرُ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ، فقد نشأتْ بين العربيِّ، وناقته ألفةٌ كالَّتِيْ تنشأ بين البشرِ، فقد صوَّر "إلفتهم له، وتفاعلهم معه، وكأنَّه يشاركهم فرحهم، وإحساسهم بالتَّعبِ والأذى، أو السُّرورِ، والرِّضا، وقد يتجسَّد هَذَا فِيْ قَوْلِ الشَّاعِرِ الَّذِيْ صوَّر لنا معاناته من رحلته الطَّويلةِ، بحَيْثُ أضفى عَلَى جمله صوراً إنسانيَّةً حين أشعرنا أنَّه شاركه الإحساسَ بالتَّعبِ، وطولِ الرِّحْلَةِ"[3].

ومنَ الْجَمَالِ اشتقتْ دلالاتٌ كَثِيْرةٌ لها علاقة بالحسنِ، والذَّوقِ الرَّفيعِ، وهي صفةُ المجاملةِ، يقال: جاملَ الرَّجلُ مجاملةً إذا بادله الْجَمِيْلَ، ووصف الإخاءِ، فكأنَّ المجاملَ هو الَّذِيْ يظهر الحَسَنَ من خلقه في تعامله مع الآخرينَ.

الْجَمَالُ اصْطِلَاحَاً، إنَّ المتتبِّعَ لدلالاتِ الْجَمَالِ في مَعَاجِمِ الُّلغَةِ، يجد وشائجَ كَثِيْرةً بين الْمَعْنَى اللغويِّ، والْمَعْنَى الاصْطِلَاحيِّ، والَّذِيْ يجمع هذه الدَّلَالَات المُخْتَلِفَة هو أنَّ لفظَ الْجَمَالِ يحمل دلالاتِ الحسنِ في كلِّ شيء الخَلْق والخُلُق، وهَذَا قريبٌ من الْمَعْنَى الاصْطِلَاحيِّ الَّذِيْ يتداوله الكتَّابُ في مجالي الأَدَبِ، والفَنِّ.

---

[1] الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح- تاج اللغة، وصحاح الْعَرَبِيَّة، (ج2041/5) مادة (جمل)، والزيات ، المُعْجَم الوَسِيط- مجمع اللغة الْعَرَبِيَّة، (ج136/1).

[2] البيت في لِسَان الْعَرَب، (ج140/14) مادة (شكا). سيبويه، الكتاب، (ج321/1). هَذَا البيت نسب لشاعر مغمور اسمه الملبد بن حرملة في المرزبان السِّيرافي، شرح أبيات سيبويه (ج317/1).

[3] الصَّفَّار، التَّشْكِيلِ اللوْنِيِّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص37).

مفهومُ الْجَمَالِ، والْجَمِيْلِ، والْجَمَاليَّةِ

قدَّمَ التُّرَاثُ العربيُّ العديدَ من الرُّؤى الْجَمَاليَّةِ في معالجةِ كَثِيْرٍ من قَضَاْيَا الأَدَبِ، والفَنِّ، واللُّغَةِ، والبَلَاْغَةِ، فضلاً عن قَضَاْيَا الحَيَاةِ، والدِّينِ سَوَاء أتعلَّقت بمسألةِ الشَّكلِ الفنيِّ، أم تعلَّقت بالمضمونِ. ولم تبرح قضيَّة الْجَمَال العُلَمَاْء العرب في الميادينِ كَافَّةً، فقد جسَّدَ هَؤلاءِ المعاييرَ الْجَمَاليَّةَ في كُلِّ نمطٍ إبداعيٍّ، وإنْ لم تصلْ إلَى صفةِ الشُّموليَّةِ، أو إلَى صفةِ الْكَمَالِ.

ولا يبتعدُ العُلَمَاْءُ عن ذَلِكَ كَثِيْراً، فمنْ يطَّلِع – مثلاً– عَلَى علمِ البَلَاْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ "يدركُ بكلِّ وضُوحٍ أنَّ مُصْطَلَحَ البَلَاْغَةِ الَّذِيْ جعله الْبَلَاغِيُّونَ العربُ غالباً مماثلاً للفَصَاحةِ، وكلاهما ملازمٌ للبيانِ، إنَّما يحملانِ ملامحَ الصَّفاءِ، والنَّقاءِ، والْبَهَاءِ، والجودةِ والإتقانِ، والوضوحِ، والدِّقَّةِ في الدَّلَالَةِ، والاختيارِ، وتنقيةِ كُلِّ أسلوبٍ من أيِّ لفظٍ يشينه، تحسيناً وتزييناً؛ ليَغْدُو النَّصُّ متلاحمَ الأجزاءِ، عَذْبَاً رقيقَ الحواشي، بعيداً عن التقيُّدِ، والْغُمُوْضِ، والهشاشةِ، والضَّعفِ والتَّنافرِ. إنَّه قطعةُ نسيجٍ حَبِرة دقيقةَ الصُّنعِ، ناعمة الملمسِ، قويَّةَ التَّأثيرِ، مثيرةً للعاطفةِ والفكرِ معاً"[1].

إنَّ البَاْحِثَ في أَسَالِيْبِ البَلَاْغَةِ العربيَّةِ يدركُ أنَّ المتكلمَ لا يكتفي بأن يعرضَ أسلوبه بشكلٍ تقريريٍّ مباشرٍ؛ وإنَّما قد يرسله عَلَى سبيلِ المجازِ، مستخدماً أَسَالِيْبَ مرافقةً له، كالتَّرصيعِ، والتَّصريعِ، والإشارةِ، والتَّلويحِ، والتَّجْنِيسِ، والتَّرديدِ؛ ليزيدَ كلامَه تألقاً وإشراقاً، وتزداد كتاباتُه بهجةً وجَمَالَاً، وهَذَا كلُّه من عَنَاْصِرِ الْجَمَالِ الَّتِيْ يسعى الْجَمِيْعُ إلَى الاستمتاعِ بها.

وَكُلُّ مادةٍ ترتقي إلَى البَلَاْغَةِ والفَصَاْحَةِ إنَّما هي شكلٌ جَمَالِيٌّ، أو قُلْ إنْ شئت تَشْكِيلٌ جَمَالِيٌّ؛ وكَذَلِكَ كلّ ما يتعلق بأحوالِ الإسنادِ، والذِّكرِ، والحذفِ، والتَّعْرِيفِ، والتَّنكيرِ، والإيجازِ والإطنابِ، والوصلِ والفَصْلِ، وكلُّ ما يتعلق بالبيانِ من تشبيهٍ، واستعارةٍ، وكنايةٍ، وتعريضٍ، وجميع ما يرتبط بالبَدِيْعِ من طباقٍ، ومقابلةٍ، وسَجْعٍ، وجناسٍ، كُلُّها مَشَاهِدُ حيَّةٌ من مَشَاهِدِ الْجَمَالِ الَّتِيْ تبهرُ الأَلْبَاْبَ، وتخلبُ الأفئدةَ، والقُلُوْبَ.

وَإِذَا تحرَّكْنا قَلِيْلَاً مبتعدينَ عَنِ البَلَاْغَةِ، إلَى ميادينَ أُخْرَى، نجدُ أنَّ الْجَمَالَ يحملُ مفاهيمَ أُخْرَى، قد تكون مُتَنَوِّعَةً، وَمِنْ هُنَا رأى آخَرُوْنَ "أن الْجَمَالَ يتركَّبُ – فَقَطْ– من نظامِ

---

[1] جمعة، جَمَالِيَّة الكلمة، دراسة جَمَالِيَّة بلاغيَّة نقديَّة، (ص21).

الأَشْيَاءِ، أو الظَّوَاهِرِ وفقَ مفاهيمِ أرسطو"[1]، ومنْ ثمَّ فَإِنَّ "الْجَمَالَ هو التَّعبيرُ الْجَماليُّ النَّاجحُ عِنْدَ كروتشه"[2].

لقدْ غزا الْجَمَالُ جميعَ الفُنُوْنِ والآدابِ، وسيطر عَلَى مناحي الحَيَاةِ كَافَّةً، وعلى كَثِيْرٍ من الأَنْمَاط الإِبْدَاعيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، بيدَ أنَّ الْجَمَالَ وقعَ في الإِبْدَاعِ البلاغيِّ، وكانِ وقعُه أشدَّ لاسيَّما حين حرصتْ أَسَالِيْبُ البَلَاْغَةِ عَلَى استخراج أسرار الجملةِ الُّلغويَّةِ، والنَّحْويَّةِ، والأَدَبيَّةِ في وقتٍ واحدٍ؛ لتصلَ بالْكَلَامِ العربيِّ إِلَى مرتبةِ البيانِ النَّاصعِ المؤثِّرِ السَّاحِرِ الَّذِيْ يثير النَّفسَ، والفكرَ إذا سمعه البُلَغَاْءُ؛ كما جرى مع سيدِ المُرسلينَ، مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حين استمع إِلَى عمرو بن الأهتم[3]، وأعجب بِقَوْلِهِ فقال: "إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرَاً"[4]، وَلَعَلَّ هَذَا كلَّه ما جعلَ ابنَ الأثير يربطُ بَيْنَ البيانِ، والْجَمَالِ؛ فيقُوْلُ: "شيئانِ لا نهايةَ لهما: البيانُ، والْجَمَالُ"[5].

إنَّ الْجَمَالَ في أَسَالِيْبِ الْعَرَبِيَّةِ، أدباً، ونقداً، وبلاغةً غَدَا غايةَ الدِّرَاسَاتِ الحَدِيْثَةِ؛ وَذَلِكَ لاعتبار الأَسَالِيْبِ الإِبْدَاعيَّةِ التَّعبيريَّةِ إنتاجاً إنسانيَّاً جماليَّاً؛ وباعتبارِ أنَّها تماثلُ الْجَمَالَ الَّذِيْ تلتقطه الحَوَاسُ من الطَّبِيْعَةِ، والأَشْيَاءِ، والظَّوَاهِرِ. فالْجَمَالُ يرتبط بالظَّوَاهِرِ الطَّبيعيَّةِ؛ وكَذَلِكَ يتَّصل بكلِّ إبداعٍ إنسانيٍّ من جهةِ الشَّكلِ غالباً؛ بَيْنَمَا الْجَمِيْلُ يحتاج إِلَى الحَوَاسِ والشُّعورِ معاً، وهو يرتبط بالقيودِ والقوانينِ عَلَى الرَّغْمِ مِن أنَّه يبدو مُستقلاً عنها، فهو يراعيها، ويتَّفقُ معها. أمَّا

---

[1] إِسْمَاعِيْل، الأسس الْجَمَالِيَّة في النَّقْد العربي عرض وتفسير ومقارنة، (ص43).

[2] يُنْظَر: مطر، فلسفة الْجَمَال، أعلامها ومذاهبها، (ص193– ص196)، العشماوي، فلسفة الْجَمَال في الفكر الْمُعَاصِر، (ص21– ص23). وإِسْمَاعِيْل، الأسس الْجَمَالِيَّة في النَّقْد العربي عرض وتفسير ومقارنة، (ص53). بندتو كروتشه– B–Croce (1866– 1956م) فيلسوف إيطالي من أتباع المدرسة الهيغلية الجديدة، وأستاذ بنابولي (1902–1920م)، وقد ظهر كروتشه قرب نهاية القرن التاسع عشر بنقد للنظريات الفلسفيَّة، والاقتصاديَّة للماركسيَّة.

[3] يُنْظَر: ابن كَثِيْر، البداية والنهاية، (ج45/5، 46). هو عمرو بن سنان بن سُمي بن سنان بن خالد المنقريّ التميميّ، أبو ربعي، لُقب أبوه بـ (الأهتم) لأنَّ ثنيَّتَهُ هُتمت يوم الكلاب. وهو سيِّدٌ من سادات قومه، كان خطيباً بليغاً، شريفاً جميلاً، وكان يقال لشعره (الحُلَلُ المنَشَّرَةُ). وفد عَلَى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وفد بني تميم، فلقي إكراماً وحفاوة ، ولمَّا تكلَّم بين يدي النبيّ أعجبه كلامُهُ، وسأله النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الزبرقان بن بدر (الشاعر) فمدحه، ثم هجاه ولم يكذب في الحالين، فقال المصطفى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: (إنَّ من الشِّعر حكماً، وإنَّ من البيان سحراً). لم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه، وهو صاحب البيت السَّيَّار المَشْهُور: **لَعَمْرُكَ مَا ضاقت بلادٌ بأهلها ولكنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَـــالِ تَضِيْقُ**

[4] [مسلم: صحيح مسلم، كتاب (الجمعة)، 594/2: رَقَمِ الْحَدِيْثِ 869].

[5] ابن الأثير، المَثَل السَّائِر، (ج40/1).

الْجَمَالُ فَإِنَّه يظلُّ مرهوناً بالتَّذوُّقِ الفرديِّ، ورهافةِ الحسِّ، ودقَّته، وسلامته، ما يجعله متحرِّراً من كلِّ قيدٍ إلا ذلك. وتتمثَّل الْأَشْكَالُ الْجَمَاليَّةُ في الفَنِّ المبدعِ بظواهرَ أسلوبيَّةٍ عدَّة؛ فهي تتمثَّل في التَّناظُرِ والْإِيْقَاعِ، والتَّوازنِ، والتَّناغمِ، والتَّوافقِ، والتَّنوُّعِ، مع الوَحدةِ، والتَّناسبِ، والتَّصْوِيْرِ، ونظامِ التَّأليفِ، وحِيْنَمَا يُلِحُّ الْجَمَاليونَ عَلَى الشَّكلِ في مفهومِ الْجَمَالِ، فَإِنَّهم يرونَ أنَّ الْجَمِيْلَ إنَّما هو تجلِّي الرُّوحِ، والأفكارِ في الأَشْيَاءِ، والظَّوَاهِرِ. والْجَمِيْلُ في الفنِّ، والأَدَبِ، والبَلَاْغَةِ هو نهايةُ المطافِ من جهةِ ما تعرف له المضامين، أما الجَلِيلُ فهو يتطلَّع إِلَى مقامٍ رفيعٍ سامٍ يتجسَّدُ بالوجودِ الإلهيِّ، وكلِّ مثلٍ أعلَى لِلجَمَالِ.

ومن المُصْطَلَحَاتِ الَّتِيْ ترتبطُ بالْجَمَالِ، مُصطلحُ الْجَمَاليَّةِ، وهَذَا المُصْطَلَحُ يحمل دلالةً عَلَى كلِّ شيءٍ جميلٍ، أو أنَّها معنى الْجَمَالِ، البيانِ، البَلَاْغَةِ في الأَدَبِ، والفَنِّ، وأَسَالِيْبِ البَلَاْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وكَأَنَّهَا لونٌ من ألوانِ الإِبْدَاعِ في الْجَمَالِ، ولو مثّل حالةً مِنَ التَّناغُمِ بينَ الشَّكلِ والْمَوضُوْعِ. وإنَّما نتناولها باعتبارها منهجاً تحليليّاً لدراسةٍ نقديَّةٍ فنيَّةٍ أدبيَّةٍ بلاغيَّةٍ يماثل المَنْهَجَ الْوَاقِعيَّ، أو النَّفسيَّ، أو الرَّمزيَّ، أو الاجتماعيَّ، منهجاً يعالج جماليَّةَ النَّصِّ الإِبْدَاعيِّ كالدِّقَّةِ، والجودةِ، والإتقانِ، نظامِ التَّرْكيبِ وتناسبِه، وإيقاعِ ألفاظه وصوره، لهَذَا تتعلق الْجَمَاليَّةُ بالتَّجربةِ الْجَمَاليَّةِ ذاتها من جهةِ الشَّكلِ، والْمَضْمُونِ[1]؛ وتماثل ما أَطْلَق عليه بعضُ الْبَاحِثِيْنَ (المَنْهَج الْجَمَاليّ) الَّذِيْ يرتكزُ في أساسه عَلَى نظريَّةِ (علم الْجَمَال: الإستطيقا)؛ ويحكمُ بها النَّاقِدُ، أو البلاغيُّ عَلَى الأَشْيَاءِ سَوَاء كَانَتْ طبيعيَّةً أم مصنوعةً، أم كَانَتْ إبداعاً فنيّاً أو لغويّاً أو أدبيّاً، و بأحكامٍ جماليَّةٍ، كأنْ توصفُ بأنَّها جَمِيْلَةٌ، أو فاتنةٌ، أو ذميمةٌ، أو مثيرةٌ للسُّخريةِ[2]، علماً بأنَّ الإِبْدَاعَ في النَّقدِ الأَدَبيِّ يتركَّز بأربعةِ أشياءَ (العاطفة، والفكرة، والْأُسْلُوب، والْخَيَال)[3]. فالْخَيَالُ صانعٌ للصُّورِ الْجَمَاليَّةِ الَّتِيْ تلبِّي جُمْلَةً مِنَ الْأَهْدَافِ، والْوَظَائِفِ. والْجَمَاليَّةُ هي دراسةُ جملة من المسائلِ مجتمعةً، أو منفردةً؛ مثل: ما الْجَمَالُ؟ ما الغايةُ الَّتِيْ يقوم عليها نصٌّ ما، مهما كان حجمه، وجنسه؟ ما علاقةُ الشَّكلِ بالْمَضْمُوْنِ في أيِّ نمطٍ إبداعيٍّ؟ ما العَنَاْصِرُ الَّتِيْ تشترك في صياغةِ نصٍّ ما، وتُكوِّن ملامحه ووظيفته؟ إنَّهَا أسئلةٌ كَثِيْرةٌ يسعى المَنْهَجُ الْجَمَاليُّ (الْجَمَاليَّة) للإجابةِ عليها[4] بروحٍ موضوعيَّةٍ بعيدةٍ عن العواطفِ، والأفكارِ المسبقةِ.

---

[1] يُنْظَر: جيروم، النَّقْد الفنيّ، دراسة جَمَالِيَّة وفلسفيَّة، (ص3). والتَّهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، (ج187/1).

[2] يُنْظَر: عبدالله، مقدمة في النَّقْد الْأَدَبيّ، (ص48).

[3] أمين، النَّقْد الْأَدَبيّ، (ص22).

[4] يُنْظَر: لؤلؤة، موسوعة المصطلح النَّقْديّ، (ص273).

بهَذَا كلِّه نحنُ نقفُ مع العديدِ من الْبَاحِثِينَ الَّذِيْن توسَّعوا في مفهومِ الْجَماليَّةِ، وإن كان أكثرُ منظِّريها لا يقيمون اعتباراً ولا وزناً لمضمُونِ النّصِّ، ووظيفته، وغايته أيَّاً كانَ نوعه تاريخيَّاً أم اجتماعيَّاً، نفسيَّاً أم فنيَّاً، خلقيَّاً أم دينيَّاً؛ لغويَّاً أم بلاغيَّاً؛ مُوْسِيْقِيَّاً أم أدبيَّاً[1].

وعِنْدَ معالجةِ أيِّ أسلوبٍ بلاغيٍّ، فَإنَّه يلزمُ الْوُقُوف عِنْدَ بنيته كاملةً من جهةِ الشَّكلِ والْمَضْمُون؛ في دلالته الحقيقيَّةِ، والمجازيَّةِ الموحيةِ بالظِّلالِ الْمَعْنَوِيَّةِ الكَثِيْرةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وعدم إهمالِ قيمته الخُلقيَّة، لِأَنَّ منْ يسعى إِلَىْ ذَلِكَ لا تمنعه آراءُ العديدِ من الَّذِيْن رفضوا الوظيفةَ، والغايةَ الخلقيَّةَ النبيلةَ في الإِبْدَاعِ منْ أصحابِ النَّظريَّةِ الْجَماليَّةِ؛ فذهبوا إِلَى أنَّ البحثَ في الأَدَبِ، أو الفَنِّ، أو أيِّ إبداعٍ آخرَ عن الوظيفةِ، والغايةِ السَّاميةِ إِنَّما هو أمرٌ مضحكٌ؛ فالأَخْلَاقُ، والقيمُ، والصِّدقُ في الْقَوْلِ، والفكرِ، والحَيَاة لا يبحث عنه إلا الْأَنْبِيَاءُ، والمصلحونَ. وَمِنْ هُنَا رأى بعضُ الْبَاحِثِينَ الْجَماليينَ أنَّ الأَخْلَاقَ ليستْ من معاييرِ الْجَمَالِ، فلم يحكموا عَلَى الأعمالِ الخيِّرةِ بالْجَمَالِ؛ والشِّريرةِ بالقبحِ، وإِنَّما نظروا إِلَى العَنَاْصِرِ الْجَماليَّةِ باعتبار نظامها[2].

والْجَماليَّةُ مصدرٌ صناعيٌّ يقابل الْجَماليَّ؛ ولهَذَا فهو من جهةِ اللَّفظِ الاصْطِلَاحيِّ يرادف عِنْدَ بعضِ الْبَاحِثِينَ "مفهوم (الشَّكليّ، أو الفنيّ) باعتباره بنْيَة"[3]، عَلَى حين أصبحت نظريَّةُ النَّقاءِ الفنيِّ الْجَماليِّ عِنْدَ تيارٍ آخرَ تتمثَّلُ فِيْ تِلْكَ الْبنْيَةِ الشَّكليَّةِ لمصطلحِ الْجَماليّ/ الْجَماليَّة[4].

أمَّا الْجَماليَّةُ فَقَدْ دَارَ حولها جدلٌ عظيمٌ ارتبط بدلالتها، وطبيعتها باعتبارِ أنَّها تشكِّلُ جوهرَ التَّجربةِ الْجَماليَّةِ؛ لِأَنَّها نظريَّةُ النَّقاءِ الفنيِّ الْجَماليِّ[5] في عَنَاْصِرها وفي آلياتها. فالْجَماليَّةُ- عِنْدَ بَعْض النُّقَّادِ- هي دراسةُ مسائلَ؛ مثل: "ما الْجَمَالُ؟ ما علاقةُ الشَّكلِ بالْمَضْمُوْنِ في الْمَوضُوْعِ الْجَماليِّ؟ ما الَّذِيْ تشترك فيه الفُنُوْنُ المُخْتَلِفَةُ من عَنَاْصِر الْجَمَالِ؟"[6].

وَمَهْمَا تشعَّبتِ الآراءُ في مفهومِ الْجَماليَّةِ؛ فَإِنَّها تعدُّ منهجاً تحليليَّاً نقديَّاً لدراسةِ الْبِنْيَة اللغويَّة، والْأُسْلُوبيَّة، وما تؤسسه من دلائلَ، ووظائفَ، وأهدافٍ؛ لِأَنَّ النَّصَّ الإِبْدَاعيَّ أيَّاً كان جنسه يُؤَكِّد خَصَائِصه باتجاهين: الشَّكلِ والْمَضْمُونِ؛ ولا فَصْلَ بينهما، مما يُحقِّق للنَّصِّ صورته

---

[1] إِسْمَاعِيْل، الأسس الْجَمَالِيَّة في النَّقْد العربيّ عرض وتفسير ومقارنة، (ص43).

[2] يُنْظَر: المَرْجِع السَّابِق، ص86.

[3] الطَّاهِر، مقدمة في النَّقْد الْأَدَبي، (ص434).

[4] يُنْظَر: العشماويّ، فلسفة الْجَمَال في الفكر الْمُعَاصِر، (ص52).

[5] جيروم، النَّقْد الفنيّ، دراسة جَمَالِيَّة وفلسفيَّة، (ص3).

[6] لؤلؤة، موسوعة المُصْطَلَح النَّقْديّ، (ص273).

الإيجابيَّةَ الفعَّالَةَ، ومن ثمَّ يجسِّد حقيقةَ الْجَمَالِ بكلِّ خَصَائِصها الدَّلاليَّةِ؛ لِأَنَّ للكلامِ جسداً وروحاً، وكذا لكلِّ جسمٍ جوهرٌ، وحقيقةٌ، وأيّ أسلوبٍ بلاغيٍّ مهما قيل فيه قَدِيمَاً وحَدِيثَاً . إنَّما هو بنيةٌ لغويَّةٌ دلاليَّةٌ مباشرةٌ، وغيرُ مباشرةٍ، يحمل وظائفَ الإثارةِ، والإمتاعِ في الوقتِ الَّذِيْ يحملُ وظيفةَ التَّوصيلِ، والإبلاغِ، والإفادةِ بنقلِ الأفكارِ، ولهَذَا فوظيفةُ الْأُسْلُوبِ البلاغيِّ ذات وجوهٍ متعدِّدةٍ، بعكس الْأُسْلُوب العادي بين النَّاسِ، ومن ثمَّ تتجاوزُ الْأُسْلُوب الأَدَبيّ في الشِّعر والنَّثر، وإن اقتربَ في وظيفته مَعَ الْأُسْلُوبِ البلاغيِّ من بعضِ الوجوهِ.

فالْأُسْلُوبُ البلاغيُّ بوصفه ظاهرة بلاغيَّة تجمعُ بَيْنَ عَنَاْصِرِ الأَدَبِ، والفنِّ، واللُّغَةِ، والحَيَاةِ في بنيةٍ فنيَّةٍ مثيرةٍ للعاطفةِ، والوجدانِ، والعقل، باعتبارِ ما تكتنزه من أسرارٍ موحيةٍ في الشَّكْلِ، والْمَضْمُونِ. وما عَلَى الْقَارِئِ المرهفِ المثقَّفِ الَّذِيْ حاز الشُّروطَ الذَّاتيَّةَ؛ ثمَّ الْمَوضُوْعيَّةَ إلَّا أنْ يدركَ مكوناتِ كلِّ أسلوبٍ، ويستوعبه ليفهمَ إشاراته القريبةَ، والبعيدةَ، دُوْنَ أن يقعَ في إشكاليَّةِ الأحكامِ الذَّاتيَّةِ والانطباعيَّةِ، المسبقةِ، والجاهزةِ. فالإحساسُ بالْجَمَالِ استجابةٌ روحيَّةٌ، وموضوعيَّةٌ لعَنَاْصِرِ الْجَمَالِ في الأَشْيَاءِ، والظَّوَاهِرِ. وَإِذَا كَانَتِ الأحكامُ البَلاغيَّةُ الْجَمَاليَّةُ قدْ تباينتْ بينَ متلقٍّ وآخرَ قَدِيمَاً، وحَدِيثَاً لهَذَا الْأُسْلُوبِ، أو ذَاكَ مع محاولةِ استكناه كلّ ما قيلَ فيه، والتَّعمُّق في فهمِ الظَّاهرةِ البَلاغيَّةِ القرآنيَّةِ لِلْوُصُوْلِ إِلَى تجربةٍ جماليَّةٍ جَدِيْدَةٍ في أسلوبِ الخبرِ، والإنشاءِ. وهو ما سعى إليه من قبلُ عددٌ من الْبَاحِثِينَ، والدَّارِسِينَ في تناول جَمَالِيَّات الكلمةِ البَلاغيَّةِ[1]. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ: إنَّ السَّعيَ إِلَى تجاوزِ الرُّؤيةِ الْجَمَاليَّةِ الجزئيَّةِ الَّتِيْ استندَ إِلَيْهَا الْبَلَاغِيُّونَ العربَ القُدَامَى؛ لبلوغِ مرتبة الشُّمولِ وفقَ مبدأ التَّنظيرِ، والتَّطبيقِ للرُّؤيةِ الْجَمَاليَّةِ لدراسةِ الْأُسْلُوبِ البلاغيِّ؛ وإن اجتزئ من نصٍّ أدبيٍّ، أو لغويٍّ أكبر. وهو الْأُسْلُوب الَّذِيْ أسسه البلاغيُّ الفذُّ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيّ في نظريَّة (النَّظْم)، وفي مصطلحِ (الهيئة) الَّذِيْ يبنى عَلَى الصُّورَة، والدَّلَالَة... وكَذَلِكَ فعلَ عددٌ آخر غيره في النَّظرِ إِلَى الْأُسْلُوبِ البلاغيِّ في سياقٍ نصِّيٍّ متكاملٍ، ولاسيَّما ما كانَ عِنْدَ الْبَلَاغِيينَ الَّذِيْن تناولوا النّصَّ القرآنيَّ، كالباقلانيِّ، الزَّمَخْشَرِيِّ، والرُّمَانيِّ.

ولا يمكنُ أنْ يساورَ البَاْحِثُ الشَّكَ لحظةً واحدةً في أنَّ الْبَلَاغِيينَ العربَ القُدَامَى قد توقَّفوا عِنْدَ شكلِ الجُمْلَةِ اللُّغويَّةِ؛ ولكنَّهم لم يروا هَذَا الشَّكلَ محايداً بذاته. فقد ارتفع مفهومُ التَّذوُّقِ الْفَنِّيِّ البلاغيِّ لديهم حِيْنَمَا انتهوا إِلَى أنَّ أيَّ شكلٍ بَلاغيٍّ يحمل في طبيعته الْجَمَاليَّةِ وَعْيَ الْإِنْسَانِ لِمَا يحيطُ به، بِطَرِيْقَةٍ إراديَّةٍ، أو لا إراديَّة. وبهَذَا ارتقوا عن مفهومِ الْجَمَالِ الطَّبيعيِّ المجسَّدِ في

---

[1] يُنْظَر: تليمة، مدخل إلى علم الْجَمَال الْأَدَبيِّ، (ص22– ص25).

ماهيَّةِ الْأُسْلُوبِ اللغويِّ. فاللُّغَةُ، والصُّورَةُ، والْخَيَالُ، والْإِيْقَاعُ أدواتٌ يتجسَّدُ فيها مضمونٌ ما؛ ينطوي عَلَى وظائفَ مُتَنَوِّعَةٍ، وأهدافٍ كَثِيْرةٍ؛ مِمَّا يحقِّقُ للشَّكْلِ البَلاغيِّ الْجَمَاليَّ فلسفةَ تفسيرِ الوجودِ، والكونِ، والمصيرِ.

ولهَذَا كلِّه فَإِنَّ الْبَلَاغِيينَ والنُّقَّادَ القُدَامَى قد أغنوا الأَسَالِيْبَ البَلاغيَّةَ بنظراتهم الْجَمَاليَّةِ والفلسفيَّةِ، ولاسيَّما ما يتعلق بالبَلَاْغَةِ القرآنيَّةِ. ولمَّا اختلفتْ تفسيراتهم لمعنى الشَّكلِ البَلاغيِّ – أَحْيَانَاً– فَإِنَّهم أمدُّوا الحضارةَ بتنوُّعٍ لا نظيرَ لـه من الفكرِ، والفَنِّ في كلِّ أسلوبٍ من تِلْكَ الأَسَالِيْبِ. فالوجدانُ الْجَمَاليُّ الحقيقيُّ في كلِّ أطيافه انبثقَ من الشَّكلِ – دونَ ريبٍ – ولكنَّ عَنَاْصِره لم تتقيَّدْ عِنْدَهُم بزمانٍ ما، أو مكانٍ ما، أو سببٍ ما. فالتَّذوقُ الَّذِيْ مارسوه عَلَى الشَّكلِ انخرطَ في صميمِ التَّجربةِ الإِبْدَاعيَّةِ، فاستمدوا منه العديدَ من الرُّؤى الفكريَّةِ، والفنيَّةِ الَّتِيْ لا يستطيعُ عامةُ النَّاسِ أنْ يستنبطوها. وكانوا كلَّما انغمسوا في الْأُسْلُوبِ البلاغيِّ انغماس الصُّوفيِّ النَّاسكِ، واستغرقوا في عالمه الخاص، كانوا يستخرجونَ ضُرُوباً من الْجَمَالِ الموحيةِ بالصَّفاءِ، والنَّقاءِ، والْبَهَاءِ. ومن ثمَّ أكَّدُوا أنَّ الصُّورَةَ الُّلغَوِيَّةَ والبَلاغيَّةَ ليست مجرَّدةً؛ بل هي صورةٌ تعيشُ في عالمِ الحَيَاةِ، وتستجيبُ عَلَى الدَّوامِ لكلِّ انفعالٍ، ولكلِّ فكرٍ. فظلَّت أعمالهم خالدةً حيَّةً في وجدانِ الدَّارِسِينَ الغربيينَ المُنصفينَ الَّذِيْن اعترفوا لهم بالفضلِ، والرِّيادةِ. وَلَعَلَّ هَذَا كلّه ما يبدو جَلِيَّاً في جَماليَّةِ مُفْرَدَاتِ عُلُوْمِ البَلَاْغَةِ كَافَّةً.

إنَّ الْجَمَالَ مقترنٌ بالبَلَاْغَةِ، والفَصَاْحَةِ، والبيانِ بمثل ما هو مقترنٌ بالجودةِ، والإتقانِ، والدِّقةِ، وإنزالِ الْأَلْفَاظِ في مواضعها من نظامها الدَّقيقِ المؤتلفِ. فالْجَمَالُ هو نظامُ التَّوافقِ، والتَّوازنِ، والتَّناظرِ، والرَّونقِ في الدِّيباجةِ، والتَّناسبِ فيهما. ومن ثمَّ فمن يتأمَّلْ مسائلَ الْجَمَالِ فِيْ الْبَلَاْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عامةً، وفي عُلُوْمها بصفة خَاصَّةٍ يدركْ مدى الانسجامِ المطلقِ القائمِ عَلَى خطوطٍ متوازيَّةٍ، ومُتَنَوِّعَة في إطار الوحدة، والتَّنوّع، والمحل سَوَاء بأثرها في النَّفس، وما ترسمه من تشكيلٍ مبدعٍ كَتَبَ لِلْبَلَاغَةِ العَرَبيَّةِ الْخُلُودَ. وبيان ما تتركه علاقةُ الْجَمَالِ بالفَنِّ، وفي طليعته فنّ البَلَاْغَةِ.

وَيُعَدُّ التَّجانُسُ بين العَنَاْصِرِ من أهمِّ قواعدِ الْجَمَالِ؛ لِذَا فَإِنَّ "قدامةَ نَاقدٌ شكليٌّ يَرُدُّ علَّةَ الْجَمَالِ في الشِّعرِ إِلَى ما ينطوي عليه من تجانسٍ بين العَنَاْصِرِ، والأجزاء، وهو يُحَاوِل– بالتَّركيزِ عَلَى الصِّياغةِ– تبريرَ قيمة الشِّعرِ، تلك الْقِيمَة الَّتِيْ ترتدُّ إِلَى صورةِ الْقَصِيْدَةِ، والَّتِيْ لا يمكن أن تفهمَ منفصلةً عن عَنَاْصِرها، والَّتِيْ يحدِّدها أَخِيرَاً علمٌ يميِّز الجيِّدَ مِنَ الرَّدِئِ في الشِّعرِ"[1].

---

[1] عصفور، مفهوم الشِّعر، دراسة في التُّراث النَّقْديِّ، (ص128، ص129).

الْجَمَالُ في الفكرِ الفلسفيِّ، والفنيِّ

لَمْ يبرحْ مُصْطَلَح الْجَمَالِ فكر الْفَلَاسِفَةِ، والْأُدَبَاء قَدِيماً، وحَدِيثاً، بل شغلَ عقولهم، واختلفوا في بيانِ مهمته، ووظيفته، وتحديدِ قيمته، وضوابطه بدءاً من فلاسفةِ اليونانِ الَّذِيْنَ تذوَّقوا الْجَمَالَ، واستطردوا في الحَدِيْثِ عنه، حتى الْفَلَاسِفَة العرب، والْمُسْلِمِينَ الَّذِيْن استقوا مَشَاهِدَ الْجَمَالِ من الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، ثم الْفَلَاسِفَةِ، والْفَنَّانينَ فِيْ الْعَصْرِ الْحَدِيْثِ الَّذِيْن لم يتركوا باباً من أبوابِ الْجَمَالِ إلا وطَرَقُوْهُ.

لَقَدْ عرفَ الْإِنْسَانُ الْجَمَالَ، وأحسَّ به منذ أن وُجدَ عَلَى ظهر هذه الْبَسِيطَةِ، ولفتَ انتباهه مَشَاهِدَ الْجَمَالِ حوله، فالأشجارُ الباسقةُ، والزُّروعُ الخضراءُ العامرةُ بالأَلْوَانِ الْمُتَعَدِّدَةِ، والْأَشْكَالِ المُتَنَوِّعَةِ، وكُلَّمَا حَرَّك بصره في أيِّ مكانٍ بهرته الرَّوْعَةُ، وكُلَّمَا أطرقَ في كلِّ زمانٍ جذبه الْجَمَالُ، وبهرته النُّجومُ المتلألئةُ، والْقَمَرُ المنيرُ، وجذبَ انتباهه الشَّمْسُ السَّاطعةُ، ونسماتُ الفجرِ الَّتِيْ تبدو كالحريرِ.

بدت أَمَامَهُ مَشَاهِدُ السَّعادةِ، ولوحاتُ الهناءِ، وسيطرت عَلَى مخيلته، فأَطْلَق العَنَانَ لريشته ليبدعَ أَجْمَلَ اللَّوْحَاتِ، وظهرتْ أَمَامَهُ صورَ الرُّعْبِ والخَوفِ، حرَّكت دوافعه، فمنح الْحُريَّةَ لقلمهِ ليكتبَ أَجْمَلَ الكَلِمَاتِ، دُونَ النَّظرِ إِلَى بساطةِ ما يرسمُ، أو الاهتمام بسذاجةِ ما يكتبُ، لا يحركُ ريشته، ولا يقلِّبُ قلمَهُ سوى مبدأُ المنفعةِ.

إنَّ بداياتِ الحَدِيْثِ عن الْجَمَالِ لا يمكن أنْ توثِّقها أزمانٌ، فالْإِنْسَانُ بالفطرة، وبلا أيَّة مقدِّماتٍ انصهرَ في بوتقةِ الْجَمَالِ، وانسجمَ مع مكوناته، وإن أرجعَ بعضُ الْبَاحِثِينَ بداياتِ علمِ الْجَمَالِ في العالمِ القديمِ إِلَى القرنِ التَّاسعِ قبلَ الميلادِ، حَيْثُ ازدهرت حضاراتُ الشَّرقِ القديمِ في بلادِ الرَّافدينِ، وحوض نهرِ النِّيلِ، وآسيا الصُّغرى، وَهُنَا "يكفي أن تنظرَ إِلَى حضارةِ بابل، وآشور، وسومر، وآرام، وحضارة مصر الفرعونيَّة، والصِّين، والهند، والسِّند، وغيرها لتشيد برقيِّ الفَنِّ، والآدابِ في آثارها الباقيةِ عَلَى امتدادِ عصورِ التَّاريخِ"[1].

لَقَدْ بَرَعَتِ الحضاراتُ الْقَدِيمَةُ في تَصْوِيْرِ مَشَاهِد الْجَمَالِ عن طريقِ الدِّقَّةِ في استعمالِ الْأَشْكَالِ في النُّقوشِ البارزةِ، والرَّسْمِ والْبَرَاعَةِ في استخدامِ الأَلْوَانِ. ويبرزُ في هَذَا الميدانِ اليونانيونَ، أما مفهومُ الْجَمَالِ عِنْدَهُم فقد كان "نقطة انطلاقٍ لفلسفةٍ معينَّةٍ من الحَيَاْة، فقد كَانَتْ تِلْكَ الفلسفةُ من الفلسفاتِ الَّتِيْ تطلق الصِّفَاتِ البشريَّةِ عَلَى الآلهةِ، ومجدت عَلَى القيمِ

---

[1] سالم، قراءات في علم الْجَمَال حول الإستطيقا النَّظريَّة والتَّطبيقيَّة، (ص3). والبرجاويّ، فصول في علم الْجَمَال، (ص45).

الْإِنْسَانِيَّةِ، ولم ترَ في الآلهةِ سوى بشرٍ تضخَّمتْ أجسامُهُم، وكان الفَنُّ مثلَ الدِّينِ تجسيداً لِلطَّبِيْعَةِ وللإنسانِ بوجهٍ خاصٍّ بكونه ذروة مسارِ الطَّبِيْعَةِ"[1].

نظرَ فلاسفةُ اليونانِ إِلَى الْجَمَالِ عَلَى أنَّه مثلُ "العدالة والحقِّ، ليسا ثابتينِ مُطلقاً، ولا يرجعانِ إِلَى مصدرٍ إلهيٍّ، وإنَّما مردُّهما إِلَى قناعة النَّاس؛ لِأَنَّ الفنَّ نشاطٌ بشريٌّ لا يكتسب قيمه الْجَمَاليَّة من التَّعبير عن مثال مطلق الْجَمَالِ، ولا هو هبة الآلهةِ، إنَّما هو مهارةٌ مكتسبةٌ بالخبرةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، والتَّعليمِ، وَحَتَّى مَعَانِي الخيرِ، والعدالةِ، قابلة للتَّعلُّمِ"[2].

الْجَمَالُ في الفكرِ العربيِّ الإسلاميِّ

تتعدَّدُ الإحساساتُ البشريَّةُ الدَّاخليَّةُ، وتتغيَّرُ نتائجُ النَّظرِ إِلَى الأُمُوْرِ بالبديهةِ تبعًا لهَذَا التَّعدُّدِ، والتَّباينِ، ولمَّا كان كلُّ شيءٍ في الوجود يعبِّرُ عن قطعةٍ جماليَّةٍ بذاتها، خلقها اللهُ الَّذِيْ أتقن كلَّ شيء خلقه، حاول الكَثِيْرونَ الْوُقُوفَ بتأمُّلٍ يشدّ، وورود حوض فلسفة الْجَمَال؛ ليشربوا من معينه بعد تنقيتها من الشَّوائب الدَّخيلة، والْأَغْرَاض غير النبيلة، والسَّير قدماً تجاه تذوُّقٍ جَمَاليٍّ هو غاية من يبحثونَ عن الْجَمَال، ويفتِّشون عن الْبَهَاء، والْجَلَال.

أَدْرَكَ النُّقَّادُ والْبَلَاغِيُّونَ العربُ القدماءُ مفهومَ الْجَمَالِ، كالْجَاحِظ، وابن قتيبة، وابن طباطبا العلويّ، وابن سينا، وابن رشد، والفارابيّ، وابن رشيق القيروانيّ، وحازم القرطاجنيّ، وغيرهم كَثِيْر، وكان قد سبقهم إِلَى إطلاقِ الأحكام الْجَمَاليَّة عبد الله بن المقفع (ت 142هـ) حَيْثُ قالَ: "اعلم أنَّه ستمرُّ عليك أحاديثُ تعجبك؛ إمَّا مليحة، وإمَّا رائعة، فَإِذَا أعجبتك كنتَ خليقاً أنْ تحفظها؛ فَإِنَّ الحفظَ موكلٌ بما راع ومَلُح"[3].

الْجَمَالُ في نظرِ الجاهليينَ

لَمْ يعرفِ العربُ في العَصْرِ الجاهليِّ علماً لِلجَمَالِ، وإنَّما كان عِنْدَهُم نظراتٍ حسيَّةً بسيطةٌ، لا تعطينا تصوُّراً كافياً عن آرائهم الْجَمَاليَّةِ، ولم يصلنا من فنونهم – باستثناء الأَدَبِ– ما يكوِّن لدينا نظراتهم في الْجَمَالِ، والفَنِّ؛ لاعتمادِهم عَلَى الشِّعرِ، وحصرِ الْقِيمَةِ الْجَمَاليَّةِ في مغازلة الْمَرْأَة، والطَّبِيْعَة حَتَّى أضحى الشُّعر مرآةً لنفوسهم، وبرزت مِنْ خِلَالِه مُثُلُهم العليا، كالكرمِ، والشَّجاعةِ، والمروءةِ. واللَّبنة الْأُوْلَى لِلجَمَالِ تجلَّتْ عِنْدَ ظهورِ الإسلامِ، وقيامه بثورةٍ فِيْ

---

[1] سالم، قراءات في علم الْجَمَال حول الإستطيقا النَّظريَّة والتَّطبيقيَّة، (ص9). البرجاويّ، فصول في علم الْجَمَال، (ص54).

[2] مطر، فلسفة الْجَمَال، أعلامها ومذاهبها، (ص15).

[3] ابن المقفَّع، الْأَدَب الكبير، (ص273).

جَمِيْعِ مجالاتِ الحَيَاةِ، ووضع قيّم أخلاقيَّة نبيلة، وسامية، كما كان لظهورِ الخلافةِ العباسيَّةِ دورٌ كبيرٌ في ظهور القيمِ الْجَمَاليَّةِ خَاصَّةً بوجودِ مزيجٍ من القومياتِ المُخْتَلِفَةِ أثَّرتْ، وتأثَّرتْ ببعضها بعضاً. فنظرةُ العربِ لِلجَمَالِ قبل الإسلامِ كان معكوساً عَلَى الأَشْيَاءِ المَادِيَّةِ الحسيَّةِ، مثل جمال الْمَرْأَةِ، والبعيرِ، والفرسِ، والأطلالِ، فقد دفعتْ طبيعتهم الْبَسِيطَةُ، وفطرتهم الصَّافيةُ إِلَى التَّعلُّقِ بكلِّ جميلٍ، حتى وإن كان هَذَا ماديَّاً، وهَذَا ما نقله النُّقَّاد: "ونراهم يقفونَ عِنْدَ الْمَرْأَةِ فيصفونَ جسدَها، ولا يكادونَ يتركونَ شيئًا فيها دون وصفٍ له، إذ يتعرَّضونَ لجبينها، وخدِّها وعنقها، وصدرها، وعينها، وفمها، وريقها، ومعصمها، وساقها، وثديها، وشعرها، كما يتعرَّضونَ لثيابها، وزينتها، وحليّها، وطيبها، وحيائها، وعفتها، وقد يتعرَّضونَ لبعض مغامراتهم معها"[1].

الْجَمَالُ في الفكرِ الإسلاميِّ

أَمَّا الإسلامُ فقد جاءَ ليلفتَ الأذهانَ، والقُلُوْبَ، والعُقُوْلَ جَمِيْعَاً إِلَى الْجَمَالِ الحقيقيِّ، وليس معيار الْجَمَالِ في الإسلامِ بهاءَ الصُّورَةِ، وحسنَ الطَّلعةِ، والتَّناسُقَ بَيْنَ أعضاءِ الجسمِ، وليس منطلقه الرَّائحة الطَّيبة تنبعث من صاحبها، إنَّه الدِّينُ الَّذِيْ لا يغفل الفطرةَ، بل يذكيها، وينمِّيها، ويحثُّ أهله، ومتَّبعيه عَلَى أن يعملوا وفقَ الدَّلَالَاتِ الدَّعويَّةِ الْمُبَاشِرَةِ، ولهَذَا فليس غريباً أنْ نقرأ أنَّ الرَّسُولَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كان يرجِّلُ شعره، ويغسلُ ثوبه، ويهذِّبُ شكلَ عمَّته إذا وضعها حتى يبدو مظهرُه العامُ عَلَى أفضلِ شكلٍ، وأحسنِ طلعةٍ، وكذا كان سائرُ الصَّحابةِ – رضوان الله عليهم– سوى من زهدَ منهم في الدُّنيا عَلَى وجهِ الإطلاقِ من أمثال أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُوْلُ: "إنَّما حُبِّبَ إِلَيَّ من الدُّنْيَا: النِّسَاء، والطِّيْب، وجُعِلَت قُرَّة عيني في الصَّلاةِ"[2]، ومع كلِّ هَذَا لم يكن يصل به، وبصحابته حبّ الْجَمَالِ، والهيئة البهيَّة إِلَى حدِّ الإغراقِ في هذه الطَّيِّباتِ، الَّتِيْ تنقلب عِنْدَ الإكثار منها في غير فائدةٍ إِلَى خبائثَ، بل حصَّلوا في ذلك التَّوازنِ الْجَمِيْلِ، فَلَا إفراطَ في مثل هذه المجملات، ولا تفريطَ بتركها، بحَيْثُ تبدو هيئةُ أحدهم حسنةً غير منفِّرةٍ، ورائحتهم طيِّبة غير شائنةٍ.

أَمَّا الْقُرْآنُ الْكَرِيْمُ، فَإِنَّه ينقلنا صُحْبَةَ الْجَمَالِ إِلَى مَعَانِي السُّموِّ، والعلوِّ، والزُّهدِ في الماديَّاتِ حبَّاً في المعنويَّاتِ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الْجَمَالَ في السُّورِ، والآياتِ كان "باعثاً الحَيَاْة في الْمَعَانِي الْمَقْصُودةِ، مُحَرِّكاً الانفعالات، مثيراً لمشاعرَ شَتَّى ترتسمُ فيه القيمُ الْجَمَاليَّةُ، فتحرِّك

---

[1] ضيف، تاريخ الْأَدَب العربيِّ– العَصْر الجاهليّ، (ص212، ص213). يُنْظَر: عبد الرحمن، الشِّعر الجاهليّ– قضاياه الفنيَّة والموضوعيَّة، (ص277– ص279).

[2] [النسائيّ، المجتبى من السُّنن، كتاب عشرة النِّساء، باب (1)، حب النساء، ج61/7: رَقَمِ الْحَدِيْثِ 3939].

الوجدانَ، خوفاً وخشيةً، راحةً واطمئناناً، رعباً وفزعاً، وشعوراً بالرَّاحةِ التَّامَّةِ، كلُّ هذه البواعثِ الْجَمَاليَّةِ تشكِّل طاقةً كبيرةً يحرِّكها الْقُرْآنُ الْكَرِيْمُ في نفس الْقَارِئِ المؤمنِ، تدعوه إِلَى التَّزوُّدِ بها، وتوجِّهُ ميوله الْخَيَاليَّةَ، وترسمُ في ذهنه انطباعاتٍ جماليَّةً تحيط نفسه، وبيئته، والكون أجمع، أرضاً، وسماءً، ونباتاً، ومخلوقاتٍ أُخْرَى من بشرٍ، وحيوانٍ"[1]. وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الطَّاقةَ الْجَمَاليَّةَ في ظواهرِ الكونِ كَانَتْ، ولا تزال، وستظلُّ محرِّكةً لوجدانِ الْإِنْسَانِ المخاطبِ بالآياتِ الكريمةِ، فكلُّ نظرةٍ، وأيُّ تأمُّلٍ لها كفيلٌ بملء العَيْنِ جَمَالاً، وإحساساً بهَذَا الْجَمَالِ. كَمَا أَنَّه باعثٌ لتثبيتِ الأفئدةِ، والرَّبطِ عَلَى القُلُوْبِ لتكونَ من المؤمنينَ.

ويبدو الانسجامُ مصدراً من مصادرِ الطَّاقةِ الْجَمَاليَّةِ في الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، ويتجلَّى هَذَا للنَّاظرِ في جمالِ الكونِ، والطَّبِيْعَةِ، وتوزيع الْأَشْكَالِ والأَلْوَانِ، وهَذَا الانسجامُ لم يصنعْ من الفوضى، بل هو من تقديرِ العزيزِ العليمِ، فمقدارُ ما يستوعب الْإِنْسَانُ من هَذَا الْجَمَالِ هو مقدار ما يدركه، ويستمتعُ به؛ لذا قيل: "إِنَّ الْإِنْسَانَ لا يستجمل العالمَ إلا بمقدارِ ما في نفسه من جمالٍ، وهَذَا ما يجعل عادة أجملنا نفساً هو أكثرنا استمتاعاً بالْجَمَالِ"[2].

ويقترنُ الْجَمَالُ في الإسلام بالْجَمَال الشَّكليِّ، والرُّوحيِّ، وقد وردت أحاديثُ كَثِيْرةٌ حملت فِيْ ثَنَايَاهَا هَذَا المضمونَ، وَمِنْهُا قولُ النَّبيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "تنكح الْمَرْأَة لأربع: لمالها ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يداك"[3].

لَقَدْ وَضَعَ الْمُسْلِمُونَ مفهومَ الْجَمَالِ، وضوابطه ضمن إطارِ الفكرِ الإسلاميِّ الَّذِيْ ينظرُ إِلَى الْجَمَالِ نظرةً كُلِّيَّةً لها علاقتها الوثيقة باللهِ بديعِ السَّمواتِ والْأَرْضِ، فالْجَمَالُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ "يتحدَّدُ ضمن هذه الوحدةِ المتكاملةِ من الانسجامِ بَيْنَ سائرِ المخلوقاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ، الصَّادرةِ عن ذاتٍ واحدةٍ، هو الله الخالق ذو الْجَلَال، والإكرام. لقد صار مفهومُ التَّنوُّعِ خَاصَّاً بالفكرِ الإسلاميِّ، وأثار جدالاً بين بعض الْبَاحِثِينَ منذ أن استقرَّتْ من النَّاحِيَّةِ الرَّسْميَّةِ دراسةُ الحضارةِ الْعَرَبِيَّةِ الإسلاميَّةِ"[4].

---

[1] الصَّفَّار، جَمَالِيَّة التَّشْكِيلِ اللوْنِيِّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص24).

[2] إِبْرَاهِيْم، فلسفة الفن في الفكر الْمُعَاصِر، دراسات جَمَالِيَّة، (ص381).

[3] [الْبُخَارِيّ، صحيح الْبُخَارِيّ، كتاب (النكاح)، باب (16) باب الاكتفاء في الدين، ج7/7: رَقَمِ الْحَدِيْثِ 5090]، يُنْظَر: الألبانيّ، غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، (ص222).

[4] الصَّفَّار، جَمَالِيَّة التَّشْكِيلِ اللوْنِيِّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص29).

وعِنْدَ الحَدِيْثِ عن مظاهر الْجَمَال، فَإِنَّنا نجدُ أنَّ العُلَمَاْء الْمُسْلِمِينَ أبهروا العالمَ، خَاصَّةً وأنَّ نظرتهم إِلَى تِلْكَ المظاهرِ كَانَتْ تنطلق من وحدة الوجودِ، موسومةً بأعَلَى صفةٍ، وهي وحدانيَّة الخالق، فكلُّ المخلوقات بتنوُّعها، واختلاف ألوانها، وأشكالها تحمل دلالةً ذهنيَّةً واحدةً، هي صدورها عن خالقٍ واحدٍ، تجتمع، وتتآلف في صُورٍ، ولوحاتٍ تتداعى في ذهن الْإِنْسَانِ؛ لتثير فيه التَّفكير في معالم خلق الله وقدرته، وتحفّزه عَلَى التَّأملِ في سرِّ الوجودِ، وقدرةِ الخالقِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى. فلا مكانَ للتَّشظِّي، ولا متَّسعَ للقبحِ، ولا حيِّزَ للتَّشتُّتِ، بَلْ هُنَاْكَ فَضَاءَات واسعة تحمل فِيْ ثَنَايَاهَا لوحاتِ الْجَلَال، وآفاق شاسعة تستوعبُ كلَّ مَعَانِي الْجَمَالِ.

والإسلامُ بجمالِهِ، وجمالِ شرائعِهِ، وجمالِ آدابِه، وجمالِ ثقافتِهِ، وجمالِ جزئياتِهِ، وجمالِ كليَّاتِهِ، أو قلْ إنْ شئتَ جماله بكلِّ ما فيه، ومن فيه، دفع الْفَلَاسِفَةَ، والْأُدَبَاءَ العربَ، والْمُسْلِمِينَ إِلَى معالجةِ موضوعِ الْجَمَالِ من هَذَا المنطلقِ، وتحدَّثَ بعضهم عن هَذَا الْمَفْهُوْم وظواهره، وَذَلِكَ ضمن معالجاتٍ كَثِيْرةٍ مُتَنَوِّعَةٍ لبعضِ ظواهرِ الحَيَاْةِ الثَّقافيَّةِ كلّ في عصره، فنجدُ (الْجَاحِظ) يبدعُ في الحَدِيْثِ عن الْجَمَالِ، ونرى (الغزاليّ) يقدِّمُ لوحةً مضيئةً له، ونقرأ عِنْدَ (الرَّاغب الأصْفَهَانِيّ)، و(التَّوحيديّ) معايير تميّزه، ونلمحُ (الفارابيَّ) يبدعُ في تفسيرِ المُصْطَلَحِ، وبيانِ مُفْرَدَاته.

إنَّ الْجَاحِظَ (ت255هـ) حَمَلَ في فكرِهِ نظراتٍ جماليَّةً متفرِّقةً، متمثِّلةً بالقيمِ العليا، بصفته فناناً، ومفكراً استلهم مُثُلَ مجتمعه في فنِّهِ، وتحدَّثَ عنها في أفكارِهِ، كَمَا أَنَّهُ (الْجَاحِظ) كان يصبو إِلَى شيءٍ من التَّمييزِ بين المفاهيمِ الْجَمَاليَّةِ، فالمليحُ عِنْدَه ليس كالْجَمِيْلِ عَلَى الرَّغْمِ من التَّرابطِ بينهما، فقد كانَ يُحَاوِل أنْ يضعَ لكلِّ مفهومٍ درجته الَّتِيْ تناسبه حتى تداخلتْ هذه المفاهيمُ، وترابطتْ، وهَذَا التَّداخلُ كان نتيجةً طبيعيَّةً للوعيِ الْجَمَاليِّ العام في زمنه.

أما فكرةُ الْجَمَالِ عِنْدَ الْجَاحِظِ، وبزوغها فقد تكوَّنتِ المفاهيمُ الْجَمَاليَّةُ لديه نتيجة تطوُّرِ المجتمعِ العربيِّ فكريَّاً منذ العَصْرِ الجاهليِّ، وَحَتَّى بدايةِ العَصْرِ العباسيِّ، وفكرةُ الْجَمَالِ تجلَّتْ عِنْدَه في مفاهيمَ عديدةٍ كالحسنِ، والاعتدالِ، والوزنِ، والتَّناسقِ، والتَّناسبِ، والتَّمامِ، والْكَمَالِ الأزليِّ، كما احتلَّ مفهومُ الحسنِ مكانةً مرموقةً لديه؛ لأنَّه يحتوي التَّمامَ، والاعتدالَ، والاتِّزانَ، والتَّناسبَ؛ لِأَنَّها الصِّفةُ الَّتِيْ تضافُ إِلَى الشَّيْء فتفضِّله النَّاسُ عَلَى غيره، وَمِنْ هُنَا لخَّصَ الْجَاحِظُ مفهومَ الْجَمَالِ في ثلاثِ نظراتٍ (النَّظرة الهندسيَّة في تعريف الْجَمِيْل، النَّظرة العقلانيَّة إِلَى الْجَمِيْل، ومبدأ الوسط في المقاييس الْجَمَاليَّة)، حَيْثُ رأى في النَّظرةِ الهندسيَّةِ الْكَمَالَ، وهو أحدُ المفاهيمِ الْجَمَاليَّةِ الهامةِ؛ لِأَنَّ الْوُصُولَ إِلَى الْكَمَالِ يتطلَّبُ اجتماعَ صفاتٍ جماليَّةٍ عديدةٍ، ومنسجمة منها ما هو ظاهريٌّ، وَمِنْهُا ما هو باطنيٌّ، وَمِنْهُا ما يكون محسوساً، كَمَا تعمَّقَ في

المفاهيمِ الهندسيَّةِ المركَّبةِ مثل الحسن الخالص، والحسن المصمت، والْجَمَال الفائق، والْجَمَال المفرد، بالإضافةِ إِلَى الحسنِ المطلقِ الَّذِيْ لا يحتاجُ إِلَى غيره في صونه، ولا إِلَى سواه في اكتماله، ولا يتأثَّرُ بالدَّهرِ والْأَحْدَاثِ، كَمَا درسَ نسبيَّةَ الْجَمَالِ أَيْضَاً، ورأى أنَّ جمالَ الْإِنْسَانِ أكملُ أنواعِ الْجَمَالِ، ويتفوَّقُ عَلَى ما عداه من جمالِ أشياءِ الطَّبِيْعَةِ، الطَّبِيْعَة الَّتِيْ نظرَ إِلَيْهَا الْجَاحِظُ من جوانبَ عديدةٍ، وبأهميةٍ بالغةٍ، حتى أنَّه نقضَ مزاعمَ علماءِ الْجَمَالِ ذوي النَّزعةِ الذَّاتيَّةِ في أنَّ جمالَ الطَّبِيْعَةِ مقتصرٌ عَلَى الفنِّ، ولِأَنَّ الْجَاحِظَ كان يدرك كَثِيْراً مستوى مجتمعه العقليِّ لم يجردِ الْمَفْهُوْم الهزليَّ من مفاهيمه الْجَمَاليَّة؛ لِذَا دارَ حَوْلَ هَذَا الْمَفْهُوْم دوراتٍ واسعةً دُونَ توجيهِ الضّوء إِلَى بؤرته المركزيَّةِ مباشرةً؛ لِأَنَّه حاول دائماً الْوُصُولَ لعدلٍ بين الجدِّ والمزحِ، ولم ينسَ الْمَفْهُوْم المأساويَّ، واعْتَمَد فيه عَلَى البكاءِ رَغْمَ أنَّ كلامه فيه كان قَلِيْلَاً وموجزاً؛ وفيه من الإشارةِ أكثرُ مما فيه من الشَّرحِ والتَّوضيحِ، فالبكاءُ عِنْدَه مفيدٌ لطبيعةِ الْإِنْسَانِ، وغرائزه فَقَطْ.

وَعَوْدَةٌ إِلَى الْجَاحِظِ، وأقوالِهِ في الْجَمَالِ والحُسْنِ، فالْجَمَالُ عِنْدَه متغيِّرٌ بتغيُّر النَّظرةِ إليه، وتغيُّر دلالةِ الشَّيْء الْجَمِيْلِ، ولا يتغيَّرُ هَذَا الْجَمَالُ بالمنفعة فحسب، وإنَّما بالتَّأمُّلِ والتَّفكيرِ، وقد يجمعُ الإحساس بالْجَمَالِ، والحسن المنفعةِ، والْجَمَال الشَّكليّ، فإحساسُ العربيِّ بالنَّارِ ودفئها أيامَ القِرَّة، ولياليه الباردةِ، هو غير إحساسه بها في غيرِ هذينِ الوقتينِ، يَقُوْلُ: "ولولا معرفتهم لإتلافها، والألم، والحرقة المولِّدينِ عنها لتضاعفِ الحسنِ عِنْدَهُم، وإنَّهم ليرونها في الشِّتاءِ بغير العَيْنِ الَّتِيْ يرونها بها في الصَّيفِ، وليس ذَلِكَ إلا ما حدثَ من الاستغناءِ عنها"[1].

أَمَّا نظريَّةُ الفارابيِّ (ت339هـ) الْجَمَاليَّةُ، فقد حاولَ مِنْ خِلَالِهَا الجمعَ بين فلسفةِ أفلاطون، وأرسطو، فقد كَانَ لهما تأثيرٌ كَبِيْرٌ في نظريَّته الْجَمَاليَّةِ، فمزج بنزعةٍ رومانسيَّةٍ صوفيَّةٍ، تحملُ في طيَّاتها الرُّوحَ الشَّرقيَّةَ الإسلاميَّةَ، ما بين الفلسفةِ الْجَمَاليَّةِ عِنْدَ كلٍّ من أفلاطون وأرسطو، والتَّوفيق بين الدِّينِ والفلسفةِ؛ فقد كان الْجَمَالُ بالنِّسبةِ للفارابيِّ هو تحقيق القيمِ الخيِّرةِ في الأَشْيَاءِ الْجَمِيْلَةِ مِنْ خِلَالِ بنائِهَا، وترتيبِهَا، وقد عُدَّ الفنُّ صفةً حسيَّةً أساسها التَّجريب، والْفَنَّانُ عِنْدَ الفارابيِّ يستطيعُ التَّقرُّبَ من العقلِ الفعَّالِ عن طريقِ نُسكه، وتنقية نفسه من شوائبِ المادةِ، والعمليَّةُ الإِبْدَاعيَّةُ عِنْدَ الفارابيِّ عمليَّةٌ إنسانيَّةٌ بفعل بناءِ الْفَنَّانِ الشَّخصيِّ، وإمكانيَّاته الفكريَّةِ، وهي نتاجٌ خلَّاقٌ يمكنُ أنْ يُضْفِي عَلَى جَمَالِيَّاتِ الطَّبِيْعَةِ جَمَالَاً أكبرَ.

إنَّ التَّجربةَ الْجَمَاليَّةَ عِنْدَ أبي نصر الفارابيّ ليستْ تجربةً كان قد أودعها في إحدى مؤلفاتِهِ الفلسفيَّةِ، بلْ هي تجربةٌ كامنةٌ بين ثَنَايَا كتبه، وتتطلَّبُ جهداً لاستخراجها.

---

[1] الجاحظ، الحيوان، (ج96/4). القِرَّة: ما يصيب الإنسان وغيره من البرد.

تناولَ الفارابيُّ الْجَلَالَ، والْجَمَالَ، والْبَهَاءَ، والحُسْنَ، وَإِذَا كَانَ الْجَلَالُ عِنْدَه يحصلُ من الاستشعارِ للذَّاتِ، والصِّفَاتِ، والْأَفْعَالِ الإلهيَّةِ، فَإِنَّ الْجَمَالَ هو السِّمَةُ المشتركةُ بين الموجوداتِ كَافَّةً، كلٌّ حسبَ درجاتِ وجودِه، ومراتبها. وَكَمَا أَنَّ الْكَمَالَ في الْجَلَالِ كائنٌ، فكَذَلِكَ يكونُ الْكَمَالُ في الْجَمَالِ، وإنَّ كلَّ موجودٍ إنَّما كُوِّنَ ليبلغَ أقصى الْكَمَالِ الَّذِيْ له أنْ يبلغه بحسب رتبته في الوجودِ الَّذِيْ تخصُّه، والْكَمَالُ هو أصلٌ للجلالِ، والْجَمَالِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ كمالَ الشَّيْءِ هو الَّذِيْ يجعله جليلاً، أو جميلاً، وافتقاده يجعله قبيحاً؛ "فالْجَمَالُ، والْبَهَاءُ، والزِّينةُ في كلِّ موجودٍ هو أن يوجد وجوده الأفضل، ويحصل له كماله الأخيرُ. وَإِذَا كَانَ الأَوَّلُ وجودُه أفضلُ الوجودِ، فجماله فائتُ الْجَمَالِ؛ كلّ ذي جمالٍ، وكَذَلِكَ زينته، وبهاؤه. ثمَّ هذه كلُّها له في جوهره، وذاته، وَذَلِكَ في نفسه؛ وبما يعقله في ذاته. أما نحن فَإِنَّ جمالَنَا، وزينتَنَا لنَا بأعراضِنَا؛ لا بذاتِنَا، ولِلْأَشْيَاءِ الخارجةِ عنا، لا في جوهرِنَا، والْجَمَال، والْكَمَال ليسا هُما فيه سوى ذاتٍ واحدةٍ؛ وكَذَلِكَ سائرها"[1].

ولأبي حيان التَّوْحِيدِيّ (ت414هـ) نظراتٌ جديرةٌ بالاعتبار في الْجَمَالِ، وَلَعَلَّه أوَّل عربيٍّ وضع علمَ الْجَمَالِ مأخوذاً عن آراء معاصريه، ومُدبَّجاً بأسلوبه، وقد جعل العقلَ معياراً لتمييزِ الْجَمَالِ والحُسْنِ، فَإِنَّ ما يستقبحه العقلُ يبقى قبيحاً، وما يستحسنه العقلُ يبقى حسناً. فهو يطرحُ مسألةَ الْجَمَالِ، والتَّذَوُّقِ الْجَمَاليِّ وشروطِهِ، يَقُوْلُ: "ما سببُ استحسانِ الصُّورَةِ الحسنةِ؟ ثمَّ يتساءلُ، أهذه كلّها من آثارِ الطَّبِيْعَةِ، أم هي عوارضُ النَّفسِ، أم هي من دواعي العقلِ، أم من سِهامِ الرُّوحِ؟ أم هي خاليةٌ من العللِ جاريةٌ عَلَى الهذرِ، وهَلْ يجوزُ أنْ يوجدَ مثلُ هذه الأُمُوْرِ الغالبةِ، والأحوالِ المؤثِّرةِ عَلَى وجهِ العبثِ، وطريقِ البطلِ"[2].

ويطبِّقُ التَّوحيديُّ النَّظريَّةَ الْجَمَاليَّةَ عَلَى فنِّ البَلَاْغَةِ، فيقرِّرُ أنَّه وإنْ كان لابُدَّ للأديبِ من طبيعةٍ جيدةٍ، ومزاجٍ صحيحٍ، وسليقةٍ سليمةٍ، إلَّا أنَّهُ لابدَّ له من صناعةٍ مُتقنةٍ، وإلمامٍ جيِّدٍ، ودراسةٍ طويلةِ الباعِ، يَقُوْلُ: "إنَّ البَلَاْغَةَ هي الصِّدقُ في الْمَعَانِي مَعَ ائتلافِ الأَسْمَاءِ، والْأَفْعَالِ، والْحُرُوْفِ، وإصابةِ الُّلغَةِ، وتحرِّي الملاحةِ المشكلةِ، برفضِ الاستكراهِ، ومجانبةِ التَّعسُّفِ"[3].

ويستطردُ التَّوْحِيدِيُّ في الحَدِيْثِ عن التَّذَوُّقِ الْجَمَاليِّ، فيرى "أنَّ تذوُّقَ الْجَمَالِ يخضعُ لعاملينِ رئيسينِ، الأَوَّل: اعتدال مزاجِ المتذوِّقِ، فلا ينظرُ إلَى الغريبِ المتطرِّفِ، والشَّاذِ

---

[1] الفارابيّ، آراء أهل المدينة الفاضلة، (ص35).

[2] التَّوْحيديّ ، الهوامل والشَّوامل، (ص147).

[3] إبْرَاهِيْم، أبو حيان التَّوْحيديّ أديب الفلاسفة وفيلسوف الْأَدَباء، (ص278)، وبهنسي، فلسفة الفنِّ عند أبي حيان التَّوْحيديّ، (ص67، ص68).

المنحرفِ. والثَّانِي: تناسب أعضاءَ الشَّيْءِ بعضها إِلَى بعضٍ في الشَّكلِ، واللَّوْنِ، وسائرِ الهيئاتِ. عَلَى أنَّ أبا حيَّان يرى أنَّ هذينِ العاملينِ لا يجتمعانِ فِيْ جَمِيْعِ الأحوالِ، فالتَّذوقُ الفنيُّ لا يتطلب شروطاً سهلة. بل هو معقَّد يحتاج إِلَى قوَّةٍ إبداعيَّةٍ لدى المتذوِّق تساعده عَلَى الحكم الصَّحيح. هذه القوَّة هي نوع من الاعتدال بين المزاج، والأعضاء، والشَّكل، واللَّوْن، والحسِّ"[1].

إنَّ الإدراكَ الانفعاليَّ –عِنْدَ التَّوحيديّ– ما هو إلا انفعالٌ نفسيٌّ بإزاء فعلِ النَّفسِ في الطَّبِيْعَةِ الَّتِيْ تُنظِّمُ صورةَ المادةِ، وَهُنَا تتحرَّك النَّفسُ في اتجاهينِ يكمّل كلٌ منهما الآخرَ، اتِّجاه فاعل يجعل الطَّبِيْعَة موافقةً لرغبة النَّفسِ، ودور منفعل تقوم به النَّفسُ في عمليَّةِ الإدراكِ الْجَمَاليِّ، وَمِنْ هُنَا يَنْطَلِقُ التَّوْحِيدِيُّ إِلَى إظهارِ الطَّبِيْعَةِ النَّوعيَّةِ للانفعالِ الْجَمَاليِّ، واختلافه عنِ الانْفِعَالَاتِ النَّفسيَّةِ الأُخْرَى، كانفعالِ الخوفِ مثلاً، فمن المؤَّكدِ أنَّ النَّفسَ في الحالَّتَيْنِ تستقبل أنواعاً مختلفةً، وتتأثَّر مع كلِّ انفعالٍ تأثراً يختلف عن الآخر، فبين تذوُّقِ الْجَمَالِ، والشُّعورِ بالخوفِ بونٌ واسعٌ، ومساحةٌ شاسعةٌ.

أمَّا الإمامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِي (ت471هـ)، فقد أصرَّ عَلَى الْجَمَالِ في الشَّكلِ والْمَضْمُونِ كغيرِهِ مِن النُّقَّادِ، والْبَلَاغِيينَ، والْفَلَاسِفَةِ من العربِ، وانتصرَ لمفهومِ الْجَمَالِ في الشَّكلِ، والْمَعْنَى في نظريته الْمَعْرُوفَة بـ (النَّظْم)، ويُلمَحُ ذَلِكَ فِيْ قَوْلِهِ: "اعلمْ أنْ ليس النَّظْم إلا أن تضع كلامَكَ الوضعَ الَّذِيْ يقتضيه علمُ النَّحْوِ، وتعمل عَلَى قوانينِهِ، وأصولِهِ، وتعرف مناهجَهُ الَّتِيْ نهجت فلا تزيغ عنها"[2]. ثمَّ قالَ: "وإذْ قدْ عرفتَ أنَّ مدارَ أمرِ النَّظْمِ عَلَى مَعَانِي النَّحْوِ، وعَلَى الوجوهِ والفروقِ الَّتِيْ من شأنِهَا أن تكونَ فيه، فاعلمْ أنَّ الفُروقَ، والوجوهَ كَثِيْرةٌ ليس لها غايةٌ تقفُ عِنْدَها، ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها، ثمَّ اعلمْ أن ليستِ المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حَيْثُ هي عَلَى الإطلاقِ، ولكن تعرض بسببِ من الْمَعَانِي، والْأَغْرَاض الَّتِيْ يوضعُ لها الْكَلَامُ، ثُمَّ بحسبِ موقعِ بعضها من بعضٍ، واستعمال بعضها مع بعضٍ"[3].

أمَّا الرَّاغِبُ الأصْفَهَانِيُّ (ت502هـ)، فقد تعلَّقَ عِنْدَ الحَدِيْثِ عن الْجَمَالِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ [المعارج: ٥]، ونظرَ إِلَى مَعْنَى الْجَمَالِ عَلَى أنَّهُ مَأْخُوْذٌ من دلالته عَلَى الكثرةِ لتنسجمَ هذه الدَّلَالَةُ مع تعريفه الاصْطِلَاحيِّ لِلجَمَالِ بأنَّه الحسنُ الكَثِيْرُ، فقال:

---

[1] بهنسي، فلسفة الفنِّ عند أبي حيان التَّوحيديّ، (ص67، 68). يُنْظَر: إبْرَاهِيْم، علم الْجَمَال، قضايا تاريخيَّة ومعاصرة، (ص40).

[2] الْجُرْجَانِي، دَلَائِل الإعْجَاز، (ص81).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص87.

"الْجَمَال الحسن الكَثِيْر، وَذَلِكَ ضربانِ: أحدهما يختصُّ الْإِنْسَانُ به في نفسِهِ، أو بدنِهِ، أو فعلِهِ، والثَّانِي: ما يُوْصل منه إِلَى غيره، وعَلَى هَذَا الوجهِ ما روي عنه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أنَّه قالَ: "إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الْجَمَالَ" ويرى أنَّ قولَهُم جميل، وجُمَال، وجُمَّال عَلَى التَّكَثِيْر، قال تَعَالَى: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ١٨]، ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ [المعارج: ٥]، وقد جاملتُ فلاناً وأجملتُ في كذا، وجَمَالَك أي أجمل، واعتبر منه معنى الكثرة. فقيل لكلِّ جماعةٍ غير منفصلةٍ جملة، وَمِنْهُ قيل للحسابِ الَّذِيْ لم يُفصَّل، والْكَلَام الَّذِيْ لم يُبيَّن مُجْمَل"[1].

وتبنَّى الإمامُ الغزاليّ (ت505هـ) نظرةً متفرِّدةً تفصل بين المنفعة، والْجَمَال، وهَذَا ما خالف به أرسطو الَّذِيْ ربط الْجَمَال بالمنفعة، يَقُوْلُ الغزاليّ: "ولا تظنَنَّ أنَّ حُبَّ الصُّورِ الْجَمِيْلَةِ لا يتصور لأجلِ قضاءِ الشَّهوةِ لذة أُخْرَى قد تحب الصُّور الْجَمِيْلَة لأجلها، وإدراك نفس الْجَمَال أَيْضَاً لذيذ لذاته، وكَيْفَ ينكر ذلك، والخضرة، والماء الجاري محبوب لا ليشرب، وتؤكل الخضرة أو لا ينال منها سوى الرُّؤية"[2]. وقد ربط أَحْمَد ياسوف بين رأي الغزاليِّ هَذَا، والْقُرْآن الْكَرِيْم في الآية الكريمة الَّتِيْ تعدِّد نعم الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، ومنافع الحيوان الَّذِيْ هيَّأه الله للبشر، وأنَّ من منافعها متعة، والإحساس بالْجَمَال ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل: ٦]، ويرى "أنَّ المَوْقِفَ الْجَمَاليَّ وفقَ ظاهرِ الآيةِ الكريمةِ يَقُوْلُ بالغائيةِ، إلَّا أنَّه يدعو إِلَى التَّرفُّعِ عنِ المنفعةِ المَادِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ، فلا يرتبطُ بالنَّافعِ مباشرةً كَمَا في فلسفة سقراط، والإبل مفيدة بلحمها وركوبها، وَهُنَاْكَ هنيهات تأمليَّة سامية يتجلَّى للبصرِ حينها جمالُ شكل الإبل، وهَذَا يدعو إِلَى تسبيحِ الخالقِ، فالشُّعورُ بالْجَمَالِ يتكونُ بعد إشباعِ الحاجةِ المَادِيَّةِ، فالظَّمآنُ لا يشعرُ بجمالِ خريرِ النَّهْرِ، كَمَا أَنَّ الجائعَ لا يشعرُ بجمالِ الثِّمارِ، وأنَّ الْجَمِيْلَ يعني إثارة وجدانيَّة لمشاعرَ راقيةٍ"[3].

وَلَمْ يَكْتَفِ الغزاليُّ بوجود الْجَمَالِ والحسنِ في الْمَحْسُوْسَاتِ، بَلْ تَجَاوَزَ ذَلِكَ إِلَى غير الْمَحْسُوْسَاتِ، إذْ "يُقَالُ هَذَا خلقٌ حسنٌ، وهَذَا علمٌ حسنٌ، هذه سيرةٌ حسنةٌ، وهذه أخلاقٌ جَمِيْلَة. إنَّمَا الأَخْلَاقُ الْجَمِيْلَةُ يرادُ بها العلم، والعقل، والعفَّة، والشَّجاعة، والتَّقوى، والكرم، وسائر خِلَالِ الخيرِ، وَشَيْء من هَذِهِ الصِّفَات لا يدرك بالحَوَاسِ الخمسِ، بل يدركُ بنورِ البصيرةِ"[4].

---

[1] الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن، (ص127).

[2] الغزاليّ، إحياء علوم الدين، (ج316/4).

[3] ياسوف، جماليّات المفردة القرآنيّة، (ص4).

[4] العظم، موسوعة مصطلحات الإمام الغزاليّ، (ص14).

إنَّ الغزاليَّ ينظرُ إِلَى مقاييسِ الْجَمَالِ المتوافرةِ في الشَّيْءِ الْجَمِيْلِ، وبمقدارِ حضورِ صفاتٍ جَمَاليَّةٍ تقرِّبُ الشَّيْءَ الْجَمِيْلَ إِلَى الْكَمَالِ يكونُ مقدار جماله، وبذا "تتفاوتُ صفاتُ الْجَمَالِ بتفاوتِ صفاتِ الْكَمَالِ، واللّياقةِ فيه. وفي هذه الحالةِ يكونُ العقلُ أَيْضَاً هو المميِّز المتحسس لِلجَمَالِ، ومع ذَلِكَ لا تتوافرُ صفاتُ الْكَمَالِ، والْجَمَالِ لأيِّ مخلوقٍ، أو كائنٍ؛ لِأَنَّ الْكَمَالَ للهِ وحدَهُ، وليس لغيره جَمَالاً إلا بمقدار ما منحه الله"[1].

ولم يتوقفْ أَبُو حَامِد الغزاليُّ عِنْدَ الحَدِيْثِ عن الْجَمَال، بل تجاوز ذلك، وتطرَّق إِلَى تقسيماته ، فكلٌّ "جمال عِنْدَ مدرِك ذلك الْجَمَال، والله تَعَالَى جميل يحب الْجَمَال، ولكنَّ الْجَمَال إِذَا كَانَ يتناسب مع الخلقة، وصفاء اللَّوْن، أدرك بحاسة البصر، وَإِذَا كَانَ الْجَمَال بالْجَلَال، والعظمة، وعلوِّ المرتبة، وحسن الصَّفات والأَخْلَاق، وإرادة الخبرات إِلَى غير ذَلِكَ من الصِّفَاتِ الباطنة أدرك بحاسة القلب، ويُؤَكِّد الغزاليّ أن لا خير، ولا جمال، ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنةٌ من حسنات الله، وأثرٌ من كرمه، وغرفةٌ من بحر جوده، سَوَاء أُدرك هَذَا الْجَمَال بالعُقُوْل، أو بالحَوَاس، وجماله تَعَالَى لا يتصوَّر له ثانٍ لا في الإمكانِ، ولا في الوجودِ"[2]. وَمِنْ هُنَا تبدو ثلاثيَّةُ أقسام الْجَمَال، أوَّلها: جمالٍ حسيٍّ يدرك بالحَوَاسِ، وثانيها: جمالٍ وجدانيٍّ يدرك بالقلبِ، وثالثها: جمالٍ عقليٍّ يدرك بالعقلِ.

تِلْكَ هي النَّظرة الشُّمُوليَّة الَّتِيْ تبنَّاها الإمام، أبو حامد الغزاليُّ من منطلق الْقُرْآن الْكَرِيْم، والسَّنة النَّبويَّة، والطَّبِيْعَة البشريَّة، فالإسلام لم يهمل مَشَاهِد الْجَمَال سَوَاء أَكَانَتْ هذه المَشَاهِد ظاهرةً، أم باطنةً، والعُلَمَاْء الْمُسْلِمُونَ استقوا مبادئهم من الدِّين، فقدَّموا ما عجز عنه الآخَرُوْن من الثَّقافات الأُخْرَى من ربط الْجَمَال بالمنفعة فَقَطْ، ووضعوا مفهوماً لِلجَمَال رُبَّمَا لم تتوصَّل إليه كَثِيْر من الثَّقافاتِ الأُخْرَى على مدى الأزمان والدُّهُور.

إنَّ النَّصَّ الْجَمَاليَّ يُؤَكِّد جَمَاليَّته باتجاهين في الصُّورَة، والدَّلَالَة، أي في المبنى، والْمَعْنَى، أو في الشَّكلِ، والْمَضْمُونِ، فهو بنيةٌ دلاليَّةٌ شاملةٌ تؤكِّد قيمتها بوظائفها، وأهدافها الَّتِيْ تعزِّزها الذَّات المبدعة في إنتاجها، وَمِنْهُا الوظيفة الْجَمَاليَّة الصَّرفيَّة.

والْإِنْسَان كُلَمَا ارتقى في إدراك الْجَمَال في الشَّكل والْمَضْمُون، ازداد اقتراباً من مرتبة الإِبْدَاع في الحسن الَّذِيْ يشمل الْإِنْسَان، والظَّوَاهِر، والفنّ، علماً أنَّ إدراك الْجَمَال في الْمَضْمُوْن أكثرُ دقَّةً وإثارةً من الْجَمَال الكامن في الشَّكْل؛ لِأَنَّه يحتاج إِلَى عملٍ مُضاعفٍ في الفهم،

---

[1] الغزاليّ، إحياء علوم الدِّين، (ج322/4).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ج280/2.

والاستيعاب، والتَّحليل. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ إنَّ هُنَاْكَ علاقةً وثيقةً في التَّجربةِ الْجَماليَّةِ بين الشَّكل، والْمَضْمُون؛ وبين الْجَمَالِ، والوظيفةِ، أو الهدف لأيّ إبداعٍ إنسانيٍّ؛ بل إنَّ الْجَمَال في الكون، والأَشْيَاء يمكنُ أن يحمل العديدَ من الوظائفِ، والْأَهْدَافِ تبعاً للمتلقِّي، وخبرته، وثقافته.

ثانياً: التَّشْكِيْلُ

التَّشْكِيْلُ لُغَةً واصْطِلَاحَاً

التَّشْكِيْلُ فِيْ اللُّغَةِ، يدور الشَّكْل في اللُّغَة في دلالَّتِيْن: الْأُوْلَى المَثَل والشَّبَه، والجمع أَشْكَالٌ وشُكُوْل. تقول: "وقد تَشَاكَل الشَّيئانِ، وشَاكَل كلُّ واحدٍ منهما صاحبه، والمُشَاكَلَة الموافقة، والتَّشَاكُل مثله. وتَشَكَّل الشَّيْء: تصوَّر، فالأَشْكَل مثلاً ما فيه بَيَاضٌ وسَوَادٌ، والشُّكْلَة الحمرة تختلط بالبياض، ودمٌ أَشْكَل فيه بياضٌ وحُمرةٌ، والأَشْكَل من الإبل والغنم: الَّذِيْ تخلَّط سواده حمرةً، وغبرةً، أو غيرهما، وقيل في صفة العَيْن أَشْكَل العَيْن: أي في بياضها شيءٌ من حمرة، وقيل الشُّكلة في العَيْن الصُّفرة الَّتِيْ تخالط بياض العَيْن الَّذِيْ حول الحدقة عَلَى صفة عين الصَّقر،... شكَّلت الْمَرْأَة شعرها: ضَفَّرَتْ خصلتينِ من مقدِّمِ شعرها عن يمين وعن شمال، ثم شدَّت بها سائر ذوائبها، وشكَّل الرَّسَّام لوحته، ركَّب ألوانها وخطوطها، وشكَّل باقةً من الزُّهور: ألَّف بين أشكالها"[1]، وفي الْقُرْآن الْكَرِيْم قوله تَعَالَى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 84]، أي عَلَى طريقته، ومذهبه.

وَلَمْ يكتفِ العرب بدلالةِ الكلمة (شَكَلَ) في مَعَاجِم اللُّغَة، بل ابتعدوا كَثِيْراً في تقديم مزيدٍ من الإيحاءات والدَّلَالَات لها، فصيغةُ (تَشَكَّل) وردتْ في الدَّلَالَة عَلَى التَّنوُّعِ اللَّوْنيِّ، ودليل ذلك قول العرب: تشَكَّل العنب: أينع بعضه، وهَذَا فيه دلالة اللَّوْن الْمُتَعَدِّدَة؛ لِأَنَّ العنبَ إذا اسودَّ بعضه، فَإِنَّ بعضه الآخر ستبقى ألوانه متعدِّدةً، أو قل إنْ شئتَ إنَّ ألوانه متدرِّجة، ومن المجاز قول العرب: تَشَكَّل الشَّيْء: تصوَّر، وشكَّله: صوَّره؛ لِأَنَّ أساس التَّصوُّر والتَّصْوِيْر لا يكون إلا بتخيُّل الأَلْوَاْن وضمُّ بعضها إِلَى بعضٍ. وأما صيغة شكّل فقد وردت مع شكل من أشكال زينة الْمَرْأَة.

ويُؤَكِّدُ صاحبُ مُعْجَمِ الصَّحَاحِ تلك الْوَشَائِج في تناوله مادة (شَكَلَ)، فقد سَافَرَ بين حروفِ الشَّكلِ متنقلاً من لونٍ إِلَى لونٍ، "فالأشكلُ من الشَّاءِ: الأَبْيَض الشَّاكلةِ؛ والأنثى شَكْلَاء

---

[1] ابن مَنْظُوْر، لِسَان الْعَرَب، (ج11/356، 357). ومجمع اللغة الْعَرَبِيَّة، المُعْجَم الوَسِيط، (ج1، 94/2)، والبستانيّ، محيط المحيط، (ص477)، مادة (شكل).

بيِّنة الشَّكَلِ، والشُّكلةُ كهيئةِ الحُمرةِ تكونُ في بياضِ العَيْنِ، كالسُّهلةِ في سوادها، وَمِنْهُا عين شَكْلَاء، ورجلٌ أَشْكَلُ العَيْنِ، ودمٌ أَشْكَل إِذَا كَانَ فيه بياض وحمرة، ويقال أَيْضَاً بالفرس شِكَالٌ، وهو أن تكون ثلاث قوائم محجَّلة، وواحدة مطلقة، وَمِنْهُ تشكَّل العنب: أينع بعضه، وأشكل النَّخل، أي طاب رطبه، وأدرك، والأشْكَلُ: السِّدر الجبلي"[1]. قال الشَّاعِر:

يَغْلُــو بَهَــا رُكبانُهَــا وَتَغْتَلِــي عِوَجَاً كَمَا اعْوَجَّتْ قِيَاس الأَشْكَلِ[2]

والَّذِيْ يبدو جَلِيَّاً من الْمَعْنَى اللغويِّ تنبُهُ النُّقَّادِ العربِ، وعلماءِ اللُّغَةِ الأقدمينَ إِلَى الْعَلَاقَةِ الوشيجةِ بين أَنْمَاطِ الإِبْدَاعِ الفَنِيِّ الماديِّ رسوماً، وزخارفَ، ونقوشاً، والإِبْدَاعِ الفنيِّ شعراً ونثراً المتمثِّل في القدرةِ الفنيَّةِ عَلَى التَّصْوِيْرِ، والتَّعبيرِ عن الْمَعَانِي بأسلوبٍ أدبيٍّ جميلٍ، فقد انطلقَ الْأُدَبَاءُ يَرْسُمُونَ أجملَ التَّشْكِيلاتِ معتمدينَ عَلَى أَنْمَاطِ الإِبْدَاع الماديِّ، فقد كَانَتْ هذه الأَنْمَاطُ بِمَثَابَةِ المصباح الَّذِيْ يضيئ لهم سبلَ الإِبْدَاعِ، ودُرُوْبَ التَّفوُّقِ. فاندفعوا ينظمونَ روائعَ الأشعارِ والأبياتِ، ويَكْتُبُونَ أَرْوَعَ القصصِ، والرِّواياتِ، والمَقَامَاتِ، ويُقدِّمُونَ أجملَ الصُّورِ، والتَّشْكِيلاتِ، ويصيغونَ أبهى المُحَسِّنَاتِ.

لَقَدْ بَرَعَ علماءُ البَلَاْغَةِ في الحَدِيْثِ عن التَّشْكِيلِ بأَسَالِيْبَ تَنمُّ عن ذكاءٍ، وفطنةٍ، وإِنْ كان تناولهم بطرقٍ مُتَنَوِّعَةٍ، ومصطلحاتٍ متباينةٍ. فالمُشَاكَلَةُ الأَدَبيَّةُ لها دلالةٌ مجازيَّةٌ أُخْرَى، حَيْثُ وردت في كتابِ (البيانِ والتَّبيينِ) حين تحدَّث الْجَاحِظُ عن عمليَّةِ الإِبْدَاعِ الأَدَبيِّ، وميلِ النُّفوسِ إليه، فينصحُ المتأدِّبَ إن وجدَ نفسه تتكلَّفُ الصَّنعةَ الشِّعريَّةَ، فعليه تركها إِلَى صنعةٍ أُخْرَى تستهويه، وتتقبَّلها نفسه، يَقُوْلُ: "وأنا أوصيكَ أَنْ لا تدعَ البيانَ والتَّبيينَ أن لكَ فيهما طبيعة، وأنَّهما يناسبانك بعض المناسبةِ، ويشاكلانك بعض المُشَاكَلَةِ، ولا تهملْ طبيعتك فيستولي الإهمالُ عَلَى قوَّةِ القريحةِ...قَالُوا: والمُشَاكَلَة من جهةِ الاتِّفاقِ في الطَّبِيْعَةِ والعادةِ رُبَّمَا كَانَتْ أبلغَ، وأوغلَ من المُشَاكَلَةِ من جهة الرَّحِمِ"[3]. فالمُشَاكَلَةُ هنا الانسجامُ والموافقةُ، وقد رسم بشرُ بن المعتمر هَذَا المَشْهَدَ في صحيفتِهِ بِقَوْلِهِ: "والشَّيْءُ لا يحنُّ إِلَّا إِلَى ما يشاكله، وإِنْ كَانَتِ المُشَاكَلَةُ قد تكون في طبقاتٍ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ لا تجودُ بمكنونها مَعَ الرَّغبةِ، ولا تسمح بمخزونها مع الرَّهبةِ، كَمَا تجودُ به مع الشَّهوةِ والمحبَّةِ، فهَذَا هَذَا"[4].

---

[1] الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج5/ 1736، 1737)، مادة (شكل).

[2] ابن العجاج، دِيْوَان العجاج، (ص277).

[3] الجَاحِظ، البيان والتَّبيين، (ج189/1).

[4] المَرْجِع السَّابِق، ج138/1.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ ابن طباطبا العلويّ (ت322هـ) عن الْجَاحِظِ (ت255)، وبشر بن المعتمر (ت201هـ)، فقد تناولَ إبداعَ الشَّاعِرِ الْقَصِيْدَةَ، واختيارَ القَوَافِي الَّتِيْ تشاكلُ مُفْرَدَاتِ الْقَصِيْدَةِ، حَيْثُ اسْتَخْدَمَ مصطلحَ المُشَاكَلَةِ قَائِلاً: "وإن اتَّفقت له قافية قد شغلها في معنى من الْمَعَانِي، واتَّفق له معنى آخر مضادّ لِلْمَعْنَى الأَوَّلِ، وكَانَتْ تِلْكَ القافيةُ أوقعَ في الْمَعْنَى الثَّانِي منها في الْمَعْنَى الأَوَّلِ، نقلها إِلَى الْمَعْنَى المختارِ الَّذِيْ هو أحسنُ، وأبطل ذلك البيت، أو نقض بعضه، وطلب لمعناه قافيةً تشاكله، ويكون كالنَّساجِ الحاذقِ الَّذِيْ يُفَوِّفُ وَشْيَهُ بأحسنِ التَّفويفِ، ويسديه وينيره، ولا يهلهل من شَيْئَاً فيشينه، وكالنقَّاشِ الرَّفيقِ الَّذِيْ يضعُ الْأَصْبَاغ في أحسنِ تقاسيمِ نقشه، ويشبع كلَّ صبغٍ منها حتى يتضاعفَ حسنه في العيانِ، وكناظمِ الجوهرِ الَّذِيْ يؤلِّفُ بين النَّفيسِ منها، والثَّمينِ الرَّائقِ، ولا يشين عقوده، بأن يفاوت بين جواهرِهَا في نظمِهَا، وتنسيقِهَا"[1].

لَقَدْ قدَّمَ ابن طباطبا العلويّ مفهومَ التَّشْكِيلِ عَلَى طبقٍ من ذهبٍ، وَذَلِكَ حينَ مزجَ بين الإِبْدَاعِ الماديِّ، والإِبْدَاع الفنيِّ كأَرْوَع ما يكون التَّقْدِيم، مُعْتَمِدَاً عَلَى النَّقاش الَّذِيْ يبدع أجْمَل اللَّوْحَات، والصَّائغِ يؤلِّفُ أَرْوَعَ عقودِ الدُّرِ النَّفيساتِ.

وتستحيلُ المُشَاكَلَةُ والتَّشْكِيلُ مَعَانِيَ تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا التَّوَافُقَ، وتضمُّ في طيَّاتِهَا الانسجامَ والتَّرابطَ، فترتدُّ النُّصُوْصُ الأَدَبيَّةُ بفضلهما قصوراً مشيدةً، ومناهلَ عذبةً يَرِد ماؤها المُتَعَطِّشُونَ للفَنِّ الْجَمِيْلِ، والأَدَبِ الرَّفيعِ، فيروي هَؤلاءِ ظمأَ أشواقهم، ويشبعونَ جوعَ أحساسهم.

التَّشْكِيلُ فِي الاصْطِلَاحِ، إنَّ المتنقِّلَ بين مَعَانِي مادة (شَكَلَ) يلحظ الْعَلَاقَةَ الوشيجةَ بين الْمَعْنَى اللغويِّ، والْمَعْنَى الاصْطِلَاحيِّ، فكَثِيْرٌ من استخداماتِ اللَّفظةِ في اللُّغَةِ تحملُ دلالاتِ التَّشْكِيلِ في بعدِهَا الاصْطِلَاحِيِّ.

وقد تناولَ علماءُ البَلَاْغَةِ المُشَاكَلَةَ في ثَنَايَا مؤلفاتِهِمْ، حَيْثُ تحدَّثَ عنها صاحبُ (تحرير التَّحبير) ابن أبي الأصبع المصريّ (ت654هـ)، وعقدَ لها فصلاً، يَقُوْلُ: "إنَّ الشَّاعِرَ يأتي بِمَعْنَى مشاكلٍ لمعنى في شعرٍ غير ذلك الشِّعرِ، أو في شعرٍ غيره بحَيْثُ تكونُ كلُّ واحدةٍ منهما وصفاً، أو نسباً، أو غير ذلك من الفُنُوْنِ، غير أنَّ كلَّ صورةٍ أبرز فيها الْمَعْنَى فيها غير الصُّورَةِ الأُخْرَى. فالمُشَاكَلَةُ بينهما من جهةِ الغرضِ الجامعِ لهما، والتَّفرقة بينهما من جهةِ صورتيهما اللَّفْظِيَّةِ"[2].

---

[1] العلويّ، عيار الشِّعر، (ص43، ص44).

[2] المصريّ، تحرير التَّحبير، (ص394).

وتردَّدَ مصطلحُ المُشَاكَلَةِ عِنْدَ أربابِ البَلَاْغَةِ، وأساطينِ الفَصَاْحَةِ العربِ، كابن طباطبا العلويّ، وابن الأثير، وعَبْد الْقَاهِر الْجُرْجَانِيّ، والخَفَاجِيّ، وابن أبي الأصبع العدوانيّ، والقَزْوِيْنِيّ، وحازم القرطاجنيّ، وقد سبق هَؤلاءِ المحدثينَ الَّذِيْن شرعوا يلوِّنونَ في المُصْطَلَحاتِ، ويبدِّلونَ في المُسَمَّياتِ كالتَّشْكِيلِ، أو البنى التَّشْكِيليَّةِ، أو الزَّخارفِ التَّشْكِيليَّةِ، والَّتِيْ لم تختلفْ عن مصطلحِ المُشَاكَلَةِ الَّذِيْ سبقَ إليه علماءُ البَلَاْغَةِ العربِ، وقدّموا أَرْوَعَ الصُّورِ التَّشْكِيليَّةِ فِيْ أَعْمَالِهِمْ الشِّعريَّةِ، وإبداعاتهم النَّثْريةِ، وَلَكَ أنْ تقرأَ نصوصَ هَؤلاءِ في عَوَالِمِ المُشَاكَلَةِ؛ لتطربَ مع كلِّ مقطوعةٍ، وتستمتعَ مع أيِّ منظومةٍ بروعةِ المُشَاكَلَةِ، وإبداعِ التَّشْكِيلِ.

وذكرَ ابنُ الأثيرِ ما أسماه الصِّنَاعةَ اللَّفْظِيَّة الَّتِيْ تعتمدُ عَلَى اختيارِ الْأَلْفَاظِ، وشَبَّهَ ذَلِكَ بحكمِ اللآلئِ: "فَإِنَّا نتخيَّرُ، وننتقي قبلَ النَّظْمِ الثَّانِي نظمَ كلِّ كلمةٍ مع أختها المُشَاكَلَةِ لها، لئلَّا يجيء الْكَلَامُ قلقاً نافراً عن مواضعه، وحكم ذَلِكَ العقد المنظوم في اقترانِ كُلِّ لؤلؤةٍ منها بأختها المُشَاكَلَة لها"[1].

وَبَرَعَ الإمامُ عَبْد الْقَاهِر الْجُرْجَانِيّ (ت471هـ) في رسمِ صورةٍ رائعةٍ للتَّشكيلِ لَمَّا تحدَّثَ عن علاقةِ الفَنِّ، والأَدَبِ بالْأَصْبَاغ، وحسن اختيارِ الأَلْوَانِ، فالفَنُّ من منظوره يُشبَّهُ بالصِّباغةِ، واختيارِ الأَلْوَانِ في صناعةِ النَّسيجِ، يَقُوْلُ: "وإنَّما سبيلُ الْمَعَانِي سبيلُ الْأَصْبَاغ الَّتِيْ تُعْمَل منها الصُّورُ والنُّقُوشُ، فكَمَا أَنَّك ترى الرَّجلَ قد تَهَدَّي من الْأَصْبَاغِ الَّتِيْ عمل منها الصُّورَةَ، والنَّقشَ في ثوبه الَّذِيْ نسَج إِلَى ضربٍ من التَّخيُّرِ والتَّدبُّرِ في أَنْفَسِ الْأَصْبَاغِ، وفي مواقعها ومقاديرها، وكَيْفَيَّة مزجه لها، وترتيبه إيَّاها إِلَى ما لم يتهَدَّ إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كَذَلِكَ حال الشَّاعِرِ، والشَّاعِرِ في توخِّيهما مَعَانِي النَّحْوِ، ووجوهه الَّتِيْ علمت أنَّها محصولُ النَّظم"[2].

وَلَمْ يهملِ الإمامُ الْجُرْجَانِيّ الأثرَ النَّفسيَّ الَّذِيْ يحدثه التَّصْوِيْرُ الَّذِيْ يبدعه الرَّسَّامونَ، والصُّورَ الشِّعريَّةَ الَّتِيْ يشكِّلها الْأُدَبَاءُ، وقد صرَّح بِذَلِكَ قَائِلَاً: "فَكَمَا أَنَّك تعجبُ، وتخلبُ، وتروقُ، وتدخلُ النَّفس من مَشَاهِدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، ويغشاها ضربٌ من الفتنةِ لا ينكر مكانه، ولا يخفى شأنه، كَذَلِكَ حكم الشِّعرِ فيما يصنعه من الصُّورِ، ويشكِّله من البدعِ، ويوقعه في النَّفسِ من الْمَعَانِي"[3].

---

[1] ابن الأثير، المَثَل السَّائِر، (ج1/149).

[2] الْجُرْجَانِي، دَلَائِل الإعْجَاز، (ص 88).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص317.

وَعَوْدَةُ إِلَى النَّظْمِ الَّذِيْ أبدعه الإمامُ عَبْد الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيّ، والَّذِيْ يُعَدُّ بما تحويه هذه النَّظريَّةُ من دقائقَ، ولطائفَ أجملَ مشهدٍ من مَشَاهِدِ التَّشْكِيلِ، وَذَلِكَ بما حمله مصطلحُ النَّظمِ من وجوهِ الحُسْنِ، وجواهرِ اللُّطفِ، ولآلئِ الرِّقَّةِ، ودُرَرِ العذوبةِ، وقبلَ هَذَا وذَاكَ، جمالِ المُشَاكَلَةِ، وجلالِ التَّشْكِيلِ. ومن هذه النَّظريَّةِ قصدَ الْأُدَبَاء معيناً لا ينضبُ، وَمِنْهُلاً لا يجفُّ يرِدُونَ عذبَ كلماتِهِ، وينهلونَ من روائعِ صُوَرِهِ، وبدائعِ محسناتِهِ، فرسموا لِمَنْ خلفهم سبلَ الإِبْدَاعِ، ومهَّدوا لِمَنْ تبعهم دُرُوْب التميُّزِ، وخَطُّوا لِمَنْ اقتفى أثرهم طرق التَّفوّق، فأودعوا في مكنونات المكتباتِ أنفسَ الآثارِ، وروائعَ الأعمالِ في عَوَالِمِ اللُّغَةِ، والآدابِ.

وَتَتَبَايَنُ وسائل التَّشْكِيل سَوَاءٌ أكَانَتْ حروفاً، أم أَلْوَانَاً، ويأتي دورُ الْأَدِيْبِ في الإِبْدَاعِ، والرَّسْم بالكَلِمَاتِ، أو التَّصْوِيْرِ بالأَلْوَانِ، فالْحُرُوْفُ المتباعدةُ المخارجِ إذا أحسن الْأَدِيْبُ صياغتها بلا تنافرٍ، وتركيبها بلا شذوذٍ كَانَتْ أكثرَ وقعاً، وأعظمَ أثراً في النَّفس، وكَذَلِكَ الأَلْوَان المتباعدة إذا أظهر الرَّسَّامُ براعةً في تأليفها، ومزجها كَانَتْ أجمل من الأَلْوَان المتقاربة، وعلَّةُ ذَلِكَ " أنَّ الْحُرُوْف الَّتِيْ هي أَصْوَات تجري من السَّمع مجرى الأَلْوَان من البصر، ولاشكَّ في أنَّ الأَلْوَان المتباينة إذا جُمعت كَانَتْ في المنظر أحسن من الأَلْوَان المتقاربة، ولهَذَا كان البياض مع السِّواد أحسن منه مع الصُّفرة، لقرب ما بينه وبين الأَصْفَر، وبعد ما بينه وبين الأسودِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا موجوداً عَلَى هذه الصِّفة لا يحسن النِّزاع فيه، كَانَتْ العلَّةُ في حسن اللَّفظةِ المؤلَّفةِ من الْحُرُوْفِ المتباعدةِ في العلَّةِ في حسنِ النُّقوشِ، إذا مزجت من الأَلْوَانِ المتباعدةِ"[1].

وَلَمْ يَبْتَعِدْ حازم القرطاجنيّ (ت684هـ) عن سابقيه، حَيْثُ أبدى اهتَمَامَاً واضحاً بما يحدثه الأثرُ النَّفسيُّ بين عَنَاْصِر الصُّورَةِ المرسومةِ المحسوسةِ، أو الصُّورَةِ الشِّعريَّةِ الذِّهنيَّةِ، فالنَّفسُ تتلذَّذُ بالْأَشْكَالِ المتألِّقةِ في تكوينها، المتناسقةِ في عَنَاْصِرها، المتآلفة في أجزائها، وفي المقابل تنفر من الْأَشْكَال المتنافرة في تركيبها، فَإِنَّ "منزلة اللفظ المحاكى به، وأحكام تأليفه من الْقَوْل المحاكى به بمنزلة الْأَصْبَاغ، وحسن تأليفها بعضها إِلَى بعضٍ، وتناسب أوضاعها من الصُّور الَّتِيْ يمثِّلها الصَّانعُ، وكَمَا أَنَّ الصُّورَة إِذَا كَانَتْ رديئةً، وأوضاعها متنافرةٍ، وجدنا العَيْنَ نابيةً عنها غير مستلذةٍ لمراعاتها، وإن كان تخطيطها صحيحاً، فكَذَلِكَ الْأَلْفَاظُ الرَّديئةُ، والتَّأليفُ المتنافرُ، وإنْ وقعتْ بها المحاكاةُ الصَّحِيْحَةُ"[2].

---

[1] الخَفَاجِيّ، سرُّ الفصاحة، (ص64).

[2] القرطاجنيّ، منهاج البلغاء وسراج الْأُدَباء، (ص129).

وَرَغْمَ التَّركيزِ عَلَى جانبِ الإبْدَاعِ الفنيِّ في النَّحتِ، والرَّسْمِ عِنْدَ الحَدِيْثِ عن التَّشْكِيلِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لا يمنع من تناوله في التَّشْكِيلِ الأَدَبيِّ الَّذِيْ لا يعني ظاهر اللَّفظِ، أو ما عرف بالشَّكلِ، إنَّما "هو مَجْمُوْعَةُ الْعَلاَقَاتِ، والمَجْمُوْعَاتِ التَّرْكيبيَّةِ الَّتِيْ تحملُ مَعَانِيَ مختلفةً تثير انفعالاتٍ مختلفةً، سروراً، وحزناً، خوفاً، وخشيةً، أو اطمئناناً"[1].

ويتوسَّعُ النُّقَّاد في تعريف التَّشْكِيلِ، فهو من وجهة نظرهم "مصطلحٌ يحمل دلالَّتِيْنِ، تدلُّ الْأُوْلَى عَلَى المظهرِ الخارجيِّ، أي مظهر الشَّيْء، وتدل الثَّانِية عَلَى المجموعِ المتماسكِ والمتوازنِ، والَّذِيْ لا يتجزَّأ، حَيْثُ إنَّهُ نتاجُ عملية توحيدٍ ترتب عليها تنظيم عَنَاْصِر مختلفةٍ، وتوزيعها بحَيْثُ كونت هيكلاً جَدِيْدَاً فقدت عَنَاْصِرها فرديتها، ومعناها لصالحِ الشَّكلِ الَّذِيْ أصبحتْ جزءاً لا يتجزأ منه"[2].

ويرى آخَرُوْنَ إنَّ التَّشْكِيلَ "عمليَّةٌ تركيبيَّةٌ متكاملةٌ تهتمُّ بالمضمونِ اهتمامها بالشَّكلِ، فتنتظم فيها كلُّ عَنَاْصِرِ الإبْدَاعِ في كلٍّ حيويٍّ مُتناغمٍ"[3].

إنَّ التَّشْكِيلَ يحملُ في ثَنَايَاه مَعَانِي القدرةِ عَلَى التَّلاعُبِ بالأَلْوَانِ لرسم أبهى الصُّورِ، والرَّسْمِ بالكَلِمَاتِ لتصويرِ أَرْوَع اللَّوْحَات الأَدَبيَّةِ، فالتَّشْكِيلُ هو "القدرةُ عَلَى التَّشكُّلِ بأشكالٍ متعدِّدةٍ، ومن معناها هَذَا ظهرَ الفنُّ التَّشْكِيليُّ في الرَّسْمِ والنَّحتِ، والهندسةِ المعماريِّةِ، لقدرة المواد الَّتِيْ يستخدمونها عَلَى التَّشَكُّلِ المرغوبِ"[4]. وَمِنْ هُنَا اندفعَ الْأُدَبَاء ينظمونَ، ويَكْتُبُونَ، ويتغنونَ، وَيَرْسِمُونَ، ويصوِّرونَ، ويشكِّلونَ. ينظمونَ أَرْوَعَ الْقَصَائِد، ويَكْتُبُونَ أَعْذَبَ الكَلِمَاتِ، ويتغنونَ بأحلى الْأَلْحَانِ، وَيَرْسِمُونَ أَجْمَلَ اللَّوْحَات، ويصوِّرونَ أرقَّ الصُّور، ويشكِّلونَ نفائسَ النَّمَاذِجِ، والْأَشْكَالِ. وبهَذَا انصهرتِ الدَّلَالَاتُ المَادِيَّةُ، والدَّلَالَاتُ الْمَعْنَوِيَّةُ فِيْ بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ فأنتجتْ لنا كائناً يحملُ ملامحَ الإبْدَاعِ، وسماتِ الإبهارِ، وَلَعَلَّ هَذَا ما حَمَلَهُ الْقَوْلُ: "إعادة تنظيمِ الأَشْيَاءِ وفقَ ممارسةٍ تشكيليَّةٍ توجد مُنْذُ فترةٍ طويلةٍ كاتِّجاه له بإخراج الجَانِبِ الصُّوريِّ؛ كَيْ تستعيدَ الممارسةُ التَّشْكِيليَّةُ طاقتها الحسيَّةَ البنائيَّةَ في واجهاتِ الحَيَاةِ الحضاريَّةِ، الحديقةِ ومكوناتِهَا النباتيَّةِ، العمارةِ، وموادِهَا الصَّلدةِ، الكتابِ الُّلغويِّ للشَّاعِرِ الشَّخصِيِّ"[5].

---

[1] الصَّفَّار، جَمَالِيَّة التَّشْكِيلِ اللوْنِيِّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص59).

[2] بدوي، معجم مصطلحات الدِّراسات الإنسانية، (ص148).

[3] العَف، التَّشكيل الْجَمَاليّ في الشِّعر الفلسطينيِّ الْمُعَاصِر، (ص4، ص5).

[4] التُّونجيّ، المُعْجَم المفصَّل في الْأَدَب، (ص253).

[5] الصَّفَّار، جَمَالِيَّة التَّشْكِيلِ اللوْنِيِّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص59).

إنَّ الحَدِيْثَ عن التَّشْكِيلِ لا يقفُ عِنْدَ حدودِ الجَوَانِبِ المَادِيَّةِ، بلْ يتجاوزُ ذَلِكَ إِلَى مسافاتٍ أبعدَ، فعِنْدَ الحَدِيْثِ عن التَّشْكِيلِ لا يقصدُ به "مجرد الاسْتِعَارَةِ الطَّرِيفةِ حين ننقلُ الدَّلَالَةَ التَّشْكِيلِيَّةَ من ميدانها الأصليِّ في الفُنُوْنِ التَّشْكِيلِيَّةِ، إِلَى ميدانٍ آخرَ اصطلح عَلَى تسميته بالفُنُوْنِ التَّعبيريَّةِ. فعمليةُ التَّشْكِيلِ قائمةٌ في هذه الفُنُوْنِ، وَتِلْكَ عَلَى السَّوَاء، وكلُّ ما يمكنُ استدراكه من اختلافٍ هو أَنَّ التَّشْكِيلَ في الفُنُوْنِ التَّشْكِيلِيَّةِ حِسِّيٌّ، في حِيْن أَنَّهُ في الفُنُوْنِ التَّعبيريَّةِ وَرَاءَ الحسِّيِّ"[1].

والْبَوْنُ بين التَّشْكِيلِ الحسيِّ، والتَّشْكِيل التَّعبيريِّ واسعٌ رَغْمَ أَنَّ كُلًّاً منهما يحدثُ أثراً في نفسِ المُتَلَقِّي، سَوَاءٌ أكان هَذَا التَّأْثيرُ تأثيراً مباشراً، أم غيرَ مباشرٍ، وَمَعْنَى ذَلِكَ "أَنَّ الْفَنَّانَ التَّشْكِيلِيَّ إِنَّما يشكِّلُ مادةً، وينتج عملاً، كلاهما تتلقَّاه الحَوَاسُ تلقِّياً مباشراً يحدث معه التَّوَتُّر العصبيُّ الَّذِيْ تثيره الْمَحْسُوْسَاتُ، في حين أَنَّ الشَّاعِرَ – رَغْمَ أَنَّ عمله كَذَلِكَ تتلقَّاه الحَوَاسُ، ويحدث التَّوَتُّرَ العصبيَّ المنشودَ – يتجاوز الْمَحْسُوْسَاتِ من حَيْثُ وجودها العيانيِّ القائمِ إِلَى الرُّموزِ المجرَّدةِ من كلِّ ما للشَّيء المحسوسِ ذاته من خَصَائِصَ، وصفاتٍ"[2]. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ الْفَنَّانَ التَّشْكِيلِيَّ (الرَّسَّام مثلاً) يقومُ في عمله الفنيِّ بعمليَّةِ تشكيلِ الْمَحْسُوْسَاتِ، أمَّا الْفَنَّان التَّعبيريّ (الشَّاعِر مثلاً) فيتجاوزُ عَوَالِمَ الْمَحْسُوْسَاتِ، ويقومُ في عمله الفنيِّ بعمليَّةِ تشكيلٍ ترتحلُ إِلَى ما وَرَاءَ الْمَحْسُوْسَاتِ، وتعلو عليها.

إِذَا كَانَتْ ريشةُ الرَّسَّامِ، وأناملُ الْفَنَّانِ في عَوَالِمِ التَّشْكِيلِ لم تتجاوزِ الْمَحْسُوْسَاتِ، فَإِنَّ قلمَ الْأَدِيْبِ يتجاوزُ الْمَحْسُوْسَاتِ، ويسبر أغوارَ المَعْنَوِيَّاتِ، ورُبَّمَا يتجاوزُ إِلَى ما وَرَاءَ ذَلِكَ فيتفوَّق الشِّعرُ عَلَى اللَّوْحَاتِ الفنيَّةِ، ويعلو النَّثْرُ عَلَى الرُّسُوماتِ والمنحوتاتِ؛ لِأَنَّ التَّشْكِيلَ في الشِّعرِ "ليستْ مجردَ عمليةِ تشكيلٍ لمَجْمُوْعَةٍ من الْأَلْفَاظِ كما هو الشَّأن في أيَّةِ عبارةٍ لُغَويَّةٍ، وإِنَّما هُنَاْكَ طابعٌ خاصٌ لهَذَا التَّشْكِيلِ، يجعلُ من الْكَلَامِ شعراً دونَ غيره من ضُرُوبِ الْكَلَام"[3].

إنَّ التَّشْكِيلَ مرحلةُ تحوُّلٍ من الإبهامِ إِلَى الوضوح، ومن الْغُمُوْضِ إِلَى البيانِ خَاصَّةً في رسمِ الصُّورِ الفنيَّةِ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ تشبيهاتٍ، أم استعاراتٍ، أم كناياتٍ، وَمِنْ هُنَا كان الْأُدَبَاءُ في حاجةٍ إِلَى مزيدِ جهدٍ، وبعدِ نظرٍ عِنْدَ تقديمِ أعمالِهِمْ الأَدَبيَّةِ، وَذَلِكَ إذا أرادوا أن ينأوا بأعمالهم عن الْغُمُوْضِ، ويسلكوا دُرُوْبَ الوضوحِ، وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ: "إِنَّ الشُّعورَ يظلُّ مبهماً في نفسِ

---

[1] إِسْمَاعِيْل، التَّفسير النَّفسيّ للأدب، (ص57).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص57.

[3] المَرْجِع نفسه، ص58.

الشَّاعِرِ، فلا يتَّضحُ له إلَّا بَعْدَ أن يَتَشَكَّلَ فِي صُوْرَةٍ، ولابُدَّ أَنْ يَكُوْنَ للشُّعراءِ قدرةٌ فائقةٌ عَلَى التَّصوُّرِ تجعلهم قادرينَ عَلَى استكناهِ مشاعرِهِمْ، واستجلائِهَا"[1]. ويُبَرِّرُ النُّقَّادُ ذلك بِقَوْلِهِم "إنَّ تشكيلَ الصُّورَةِ الشِّعريَّةِ مُعْضِلٌ، ولاشكَّ، وتشكيلُ صورةِ الْقَصِيْدَةِ أكثرُ إعضالاً...فَلَمَّاذا يلجأ الشَّاعِرُ إِلَى تشكيلِ الصُّورَةِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ؟ أي ماذا يدفعه إِلَى هذه المغامرةِ؟ ولماذا يُؤْثِرُ الرُّمُوزَ دونَ الحقائقِ الْوَاقِعةِ؟ وما المَعَاييرُ الَّتِيْ يصدرُ عنها في خلقِ علاقاتٍ بذاتها بينَ هَذِهِ الرُّمُوزِ المتباعدةِ غيرِ المرتبطةِ مِنْ قبلُ؟"[2].

إنَّ الأمرَ الَّذِيْ لا يمكنُ إهماله عِنْدَ الحَدِيْثِ عن التَّشْكِيلِ، هو إطلاقُ العَنَانِ للفكرِ لِلْإِبْدَاعِ، ومنحُ الْحُريَّة للأناملِ للكتابةِ والتَّصْوِيْرِ، وفتح أبواب الْخَيَالِ أمامَ مرأى الْفَنَّانِ؛ ليشكِّلَ مَا شاءَ، متى شاءَ، وأَنَّى شاءَ؛ فَإِنَّ الْحُريَّةَ تفتحُ أبواباً كَانَتْ مُوْصَدةً أمامِ الشَّاعِرِ، والْأَدِيْبِ، وترسمُ دُرُوْباً مُضيئةً للفنَّانِ، والمبدعِ، فيندفعُ هَؤلاءِ جَمِيْعَاً بلا أيّ حواجزَ، أو موانعَ لِلْإِبْدَاعِ كلٌّ في ميدانِهِ، وَمِنْ هُنَا تُرسمُ أجْمَلُ اللَّوْحَاتِ، وتُنظمُ أَرْوَعُ الْقَصَائِدِ، وتُكتبُ أَعْذَبُ الكَلِمَاتِ في عَوَالِمِ الأَدَبِ، والفَنِّ، فيقضي كلٌّ وطَرَهُ، ويسدَّ رمقَ ظمئِهِ، ويستمتعُ الْجَمِيْعُ بكلِّ ما هو حَسَنٌ وجميلٌ، أو بهيٌّ وجليلٌ.

هَكَذَا تحرَّكَ أَنْصَارُ الْجَمَالِ والتَّشْكِيلِ، ومن هذه القاعدةِ الثَّابِتَة انْطَلَقُوا، فأرسوا دعائمَ الْجَمَالِ، وشيَّدوا قُصُورَ الحُسْنِ والجلالِ، وأقاموا أبنيةَ التَّشْكِيلِ، فلم يمنعِ انطلاقهم صَوْبَ الْجَمَال مانعٌ، ولم يوقفِ اندفاعهم تِجَاهَ التَّشْكِيلِ ساترٌ، فامتلكوا أجنحةِ الْحُريَّةِ الَّتِيْ حلَّقوا بِهَا في كلِّ اتِّجاهٍ، وصوبٍ، وحازوا شرفَ البَلَاْغَةِ الَّتِيْ منحتهم ألسنةَ الفَصَاْحَةِ، والبيانِ، فجادتْ قَرَائِحُهُمْ بِبَدِيْعِ الْكَلَامِ، وكلامِ البَدِيْعِ، وعزفت مواهبُهُم ألحانَ الْجَمَالِ، وجَمَالَ الْأَلْحَانِ، وترنَّمتْ ألسنَتُهُمْ بأَرْوَعِ الكَلِمَاتِ، وأعذبِ النَّغماتِ، وأَرَقِّ الْأُغْنِيَاتِ.

---

[1] إِسْمَاعِيْل، التَّفسير النَّفسيّ للأدب، (ص72).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص74، ص75.

الْفَصْـــــلُ الأَوَّلُ

فَـــنُّ الْمَقَـــامَةِ

فِـــيْ

الْعَصْرِ الْعُثْمَـانِيِّ

الفَصْلُ الْأَوَّلُ: فَنُّ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ

المَبْحَثُ الْأَوَّلُ: فَنُّ المَقَامَةِ، الْمَفْهُوْم، النَّشأة، والتَّطوُّر

يكادُ يتَّفق كَثِيْرٌ مِن النُّقَّادِ أَنَّ فَنَّ المَقَامَاتِ مِنَ الفُنُوْنِ التُّرَاثِيَّةِ الْأَصِيْلَةِ شَأْنُهَا شَأْنُ شجرةٍ راسخةِ الجذورِ، أصلها ثابتٌ، وفرعها قد يَرْقَى إِلَى السَّمَاءِ، رغمَ محاولةِ بَعْض النُّقَّادِ غيرِ العربِ سرقةَ هَذَا النِّتاجِ الأَدَبيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ، أو مُحَاوَلات بَعْض النُّقَّادِ العربِ طمسَ معالمِ هَذَا الفنِّ الأصيلِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى. كما يُعَدُّ هَذَا الفَنُّ من أكثرِ الفُنُوْنِ النَّثْرِيَّةِ إثارةً للجدلِ، نظراً لكثرةِ المناهضينَ لهُ، واختلاف الآراءِ في أصلِهِ ونشأتِهِ، وقلَّةِ، بلْ نُدرةِ الدِّرَاسَاتِ الَّتِيْ تناولتْ هَذَا الفَنَّ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ عَلَى وجهِ الخصوصِ. بَيْدَ أنَّ نقطةَ الاتِّفاقِ بين الدَّارِسِينَ أنَّ هَذَا الفَنَّ نشأ في العَصْرِ العباسيِّ، وبالتَّحديدِ في "نهاية القرن الرَّابِع الهجريِّ الَّذِيْ شهدَ ميلادَ جنسِ المَقَامَاتِ عَلَى يدِ بَدِيعِ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ الَّذِيْ سارت مقاماتُه شرقاً وغرباً"[1]. أَضِفْ إِلَىْ ذَلِكَ أنَّ بَدِيعَ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ هو أَوَّلُ من "مهَّد الطَّرِيْقَ، وعبدَّه لظهورِ هَذَا الفَنِّ"[2].

وَرَغْمَ ذلك، فَإِنَّ هُنَاْكَ بعض التَّسَاؤُلَاتِ يطرحها الدَّارِسُونَ، ويلقيها المهتمون بتتبُّع تاريخ الأَدَب العربي وفنونه، أهمها: ما أَصْلُ المَقَامَات؟ وما مدى أحقيَّة بَدِيع الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ بالسَّبق والرِّيادة فيه؟ وهل سيواصل هَذَا الفنُّ طريقَ النَّجاحِ؟ أم أنَّ نجمَهُ سيكونُ مصيره إِلَى الأُفُولِ في يومٍ من الأَيامِ؟.

هذه التَّسَاؤُلَاتُ، وغيرها كَثِيْر تُطرَحُ، وتحتاج إِلَى إجابةٍ قد يُحَاوِلُ بعض الدَّارِسِينَ إيجاد الحلولِ لها، بَيْنَمَا يتهرَّبُ الأكثرونَ من شقِّ طريقِ هَذَا الفَنِّ، وسبرِ أَغْوَاره رَغْمَ عدمِ وعورةِ ذَلِكَ الطَّرِيْقِ.

المَقَامَةُ فِيْ الُّلغَةِ، والاصْطِلَاحِ

المَقَامَةُ فِيْ الُّلغَةِ، مَأْخُوْذَة من مادة (قَوَمَ)، والقوم: الرِّجالُ دونَ النِّساءِ، ولا واحدَ له، وَمِنْهُ المَقَامَةُ بالضَّمِ، والمَقامُ والمُقامُ[3]، والمَقَامَةُ هي المجلسُ، ومقاماتُ النَّاسِ مجالسُهُمْ، وقد استعملتْ بِمَعْنَى مجلس القومِ، أو ناديها، وَمِنْ شَوَاهِدِ استعمالِ ذَلِكَ الْمَعْنَى في الشِّعرِ، قَوْلُ زهير بن أبي سلمى:

---

[1] مرتاض، في نظريَّة الرِّواية، (ص167).

[2] ضيف، المَقَامَة، (ص5).

[3] يُنْظَر: الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج2017/5). مادة (قَوَمَ).

وَفِيْهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوْهُهُمْ وَأَنْدِيَـةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ والفِعْلُ[1]

وقَوْلُ بُشَامَة بنِ الْغَدِيْرِ الْعُذْرِيّ[2]:

وَشَرِبْتُ بِالقَعْبِ الصَّغِيرِ وَقَادَنِي نَحْوَ المَقَامَةِ مِنْ بَنِـيَّ الأَصْغَرُ[3]

وتأتي المَقَامَةُ أَيْضَاً بِمَعْنَى الْجَمَاعَة الَّتِيْ يضمُّها المجلسُ، أو النَّادي، وَمِنْ شَوَاهِدِ استعمالِهَا بهَذَا الْمَفْهُوْمِ، قولُ لبيدِ بنِ ربيعةَ:

وَمَقَامَةٌ غُلْبُ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ جِنٌّ لَدَى بَابِ الحَصِيرِ قِيَامُ[4]

والمَقَامَةُ (بفتح الميم) في أصلِ الُّلغَةِ اسمٌ للمجلسِ، والْجَمَاعَةُ من النَّاسِ، أمَّا المُقَامَةُ (بضم الميم) فهي بِمَعْنَى الإقامةِ، وَمِنْهُ قوله تَعَالَى حكايةً عن أهلِ الجنَّةِ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: 35].

إنَّ دارَ المَقَامَةِ هي دارُ الإقامةِ الَّتِيْ لا نقلةَ مَعَهَا عنها، والميم إذا ضُمَّتْ فِيْ الْمَقَامَةِ فهي من الإقَامةِ، وَإِذَا فُتحتْ فهي من المَجْلِسِ، أو المكانِ الَّذِيْ يُقَامُ فيه. ومن مَشَاهِدِ هَذَا الْمَعْنَى، قَوْلُ سلامة بن جندل:

يَوْمَانِ يَـوْمٌ مَقَامَـاتٍ وأَنْدِيَـة وَيَوْمُ سَيْرٍ إِلَـى الأَعْدَاءِ تَأْوِيْب[5]

لَقَدْ تزيَّنَ الْقُرْآنُ الْكَرِيْمُ بهذه الكلمةِ فقد وردتْ في سبعةِ مواضعَ، في سبعِ آياتٍ، منها قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ ﴾ [البقرة: 125]، وقوله تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ ﴾ [الأحزاب: 13]، وقَوْلُه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان: 51].

---

[1] ابن أبي سلمى، دِيْوَان زهير، (ص7).

[2] هو بشامة بن الغدير بن عمرو بن هلال بن سعد، شاعر محسن مقدم، وهو خال زهير بن أبي سلمى، ولد مقعداً، ولا ولد له، كان مكثراً من المال، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته، وبني أخوته، فأتاه زهير فقال: يا خالاه، لو قسمت لي من مالك! فقال: والله يابن أختي، لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله، فقال: وما هو؟ فقال: شعري ورثتنيه. الضَّبي، المفضَّل، (المفضَّليات، (ص55).

[3] الضَّبيّ، المفضَّليَّات، (ص407).

[4] ابن ربيعة، دِيْوَان لبيد، (ص290).

[5] ابن جندل، دِيْوَان سلامة بن جندل، (ص53).

ولم يتوقَّفْ مفهومُ المَقَامَةِ عِنْدَ ذلك الْمَعْنَى، بلْ تطوَّرَ عبرَ العُصُوْرِ حتى أصبحَ يعني (الأحدوثة من الْكَلَام)، يَقُوْلُ صاحبُ (صَبْحُ الْأَعْشَى فِيْ صِنَاعَةِ الإِنْشَا)، الْقَلَقْشَنْدِيّ في معرضِ حديثِهِ عن المَقَامَةِ، ومحاولةِ وضع مصطلحٍ ثابتٍ لها، فقد "سُمِّيتِ الأُحْدُوْثَةُ من الْكَلَامِ مقامةً، كَأَنَّهَا تذكر في مجلسٍ واحدٍ يجتمع فيه الْجَمَاعَةُ من النَّاسِ لسماعِهَا"[1].

المَقَامَةُ في الاصْطِلَاحِ:

تعدَّدتْ تعريفاتُ المَقَامَةِ عِنْدَ النُّقادِ، وَرَغْمَ تعدُّدِ التَّعريفاتِ نجد أنَّ معظمها يصبُّ فِيْ بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِذَا عدنَا إِلَى العَصْرِ الإسلاميِّ مثلاً، نجدُ أنَّ معناها المجلسُ الَّذِيْ يقومُ عَلَى شخصينِ بين يدي الخليفةِ واعظاً، وقد اسْتَخْدَمَت بِمَعْنَى المحاضرة[2]، وَهُنَاْكَ علاقةٌ وطيدةٌ بين الْمَعْنَى اللغويِّ، والمَعْنَى الاصْطِلَاحيِّ، فالْمَعْنَى اللغويُّ بِمَثَابَةِ تمهيدٍ، وتوطئةٍ لِلْمَعْنَى الاصْطِلَاحيِّ، حَيْثُ تُعرَّفُ بأنَّها: "سَرْدٌ قصصيٌّ قصيرٌ، يعتمد عَلَى حادثٍ يقع لبطلٍ، ويرويه له راويةٌ في أسلوبٍ مُنمَّقٍ، وسُميتِ المَقَامَةُ بالأحدوثةِ من الْكَلَامِ؛ لِأَنَّها تُذكر في مجلسٍ واحدٍ يجتمع فيه الْجَمَاعَة لسماعها"[3].

أمَّا السّيوطيُّ (ت911هـ) فقد توسَّعَ في بيانِ مفهوم المَقَامَةِ، فهي في عرفه "نصٌّ أدبيٌّ مَسْجُوْعٌ، مُرَصَّعٌ بِالمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيْعيَّةِ، وغيرُ مقيَّدٍ بطولٍ معيَّن، يتعاطاه الْأَدِيْبُ لإظهارِ براعته، وتفوقه، أو لإبداء رأيه في قضيَّة ما، أو لاتِّخاذه ستاراً للتَّعْبِيرِ عن نزعاته الظَّاهرةِ، أو المكبوتةِ، أو للدَّلالةِ عَلَى مكَانَتْه"[4].

ومِنَ النُّقَّادِ منْ أوردَ تعريفاً للمقامةِ ارتبطَ بالقصصِ الَّتِيْ تتداخلُ فيها فنونٌ شَتَّى، فهي في عرفهم: "القصصُ القصيرةُ الَّتِيْ يودعها الْأَدِيْبُ ما يشاءُ من فكرةٍ أدبيَّةٍ، أو فلسفيَّةٍ، أو نظرةٍ وجدانيَّةٍ، أو لمحةٍ من لمحاتِ الدُّعابةِ والمجونِ"[5].

وَلَمْ يَبْتَعِدْ معظمُ النُّقَّادِ عن هَذَا التَّعْرِيفِ كَثِيْراً، بل داروا في ذاتِ الفَلَكِ، فهي في عرفهم أَيْضَاً: "قصَّةٌ قصيرةٌ، أو حكايةٌ في ثوبٍ مُنمَّقٍ من اللَّفظِ، يتلاعبُ فيها الْأَدِيْبُ؛ لمقدرته

---

[1] الْقَلَقْشَنْدِيّ، صَبْحُ الْأَعْشَى فِيْ صِنَاعَةِ الإِنْشَا، (ج110/14).

[2] يُنْظَر، ضيف، المَقَامَة، (ص7).

[3] الْقَلَقْشَنْدِيّ، صَبْحُ الْأَعْشَى فِيْ صِنَاعَةِ الإِنْشَا، (ج110/14).

[4] السّيوطيّ، شرح مقامات السّيوطيّ، (ج43/1).

[5] مبارك، النَّثر الفنيّ في القرن الرَّابع، (ص242).

التَّعبيريَّةِ، ويرصِّعها بضروبٍ من البَدِيْعِ، كما يقصد بها أن تكون طُرفةً، ومتعةً للمجلسِ، أو لِلسَّامِعِينَ"[1].

إنَّ الأمرَ الَّذِيْ لا يمكنُ أَنْ يُنْكِرَه الدَّارِسُونَ حَوْلَ المَقَامَةِ "أنَّ استعمالها للدَّلالةِ عَلَى الْمَعْنَى الاصْطِلَاحيِّ لِلْمِقَامَاتِ الأَدَبيَّةِ، فلبَدِيعِ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ فضل السَّبقِ في ذلك، وهو أوَّل من أَطْلَقَ كلمةَ مقاماتٍ عَلَى هَذَا اللَّوْنِ الجديدِ من ألوانِ الكتابةِ الفنيَّةِ؛ إِذْ سَمَّى كتابَه المعروفَ باسم كتابِ المَقَامَاتِ"[2].

وَلَمْ يَبْتَعِدْ آخَرُوْنَ مِن النُّقَّادِ عن قصصيَّة المَقَامَةِ، فهي عِنْدَهُم "قصةٌ وجيزةٌ حواريَّةٌ لغويَّةٌ مَسْجُوْعةٌ، كتبت بأسلوبٍ بديعيٍّ"[3].

لَقَدْ بَرَعَ الْأُدَبَاء العربُ في فنونٍ أدبيَّةٍ شَتَّى، أبهرتِ الأَلْبَابَ، وفتنتِ القُلُوْبَ، وسمتْ تِلْكَ الفُنُوْنُ حَتَّى فاقتِ الآدابَ الأُخْرَى، وَلَعَلَّ "أعظمَ الأجناسِ النَّثْرِيَّةِ، في الأَدَبِ العربيِّ شَأْنَاً، وأطوله عُمرَاً، وأقدره عَلَى القيامِ في وجهِ الدَّهْرِ عَلَى مدى قريبٍ من عشرةِ قرونٍ؛ إِنَّما هو جنسُ المَقَامَةِ. فلو حُفظتْ كلُّ نصوصِ المَقَامَاتِ، ثمَّ طبعتْ ونشرتْ بين النَّاسِ، لشكَّلتْ تراثاً أدبيَّاً نثريَّاً ضخماً. وعَلَى ما أصاب نُصُوْصهَا من تلفٍ وضياعٍ في المشرقِ، والمغربِ جَمِيْعَاً فقد احتفظ لنا الزَّمنُ بكَثِيْرٍ من تِلْكَ النُّصُوْصِ الَّتِيْ تعدُّ كَثِيْرةً، كثرة نسبيَّةً عَلَى الأَقلِّ، وناهيك أنَّ عددَ كتّابِ المَقَامَاتِ جاوزَ المائة والعشرين مقاميَّاً"[4].

احتفظتِ المَقَامَةُ بشكلِهَا، ومضمونِهَا، وأصولِهَا الفنيَّةِ، و"قد ظَلَّ جنسُ المَقَامَةِ قائماً بتقاليده الأَدَبيَّةِ، وأصوله الفنيَّةِ، من لدنْ بَدِيع الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ إِلَى المويلحيّ، بلْ إِلَى حافظ إِبْرَاهِيْم، بلْ إِلَى مُحَمَّد البشير الإِبْرَاهِيْميّ، وَإِذَا تأمَّلتَ هَذَا الجنسَ الأَدَبيَّ العربيَّ القحَّ ألفيته هو الجنس الأَدَبيّ النَّثْريّ الوحيد الَّذِيْ يمثّلْ وجهَ الإِبْدَاعِ الرَّاقي في الْعَرَبِيَّة بحق، أو الإِبْدَاع المعترف بأدبيَّته أكثر بين أُدَبَاءِ الْعَرَبِيَّةِ الغابرينَ عَلَى الأقلِّ. فكأنَّ الَّذِيْ يصادي الشِّعرَ العربيَّ في رأينا عَلَى الأقلِّ إِنَّما هو نثرٌ مقاميٌّ، وليس مطلق النَّثْرِ، فالمَقَامَةُ هي الجنسُ الأَدَبيُّ المُعَادلُ في ميزانِ تاريخِ الأَدَبِ العربيِّ لجنسِ الشَّعرِ"[5].

---

[1] سلام، الْأَدَب في العَصْر المملوكيّ، (ج2/99).

[2] أبو علي، نقد النَّثرِ في تراثِ العربِ النَّقْديِّ حتى نهايةِ العَصْرِ العباسيِّ 656هـ، (ص309).

[3] سليم، الْأَدَب العربيّ وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والحديث، (ص37).

[4] مرتاض، فن الْمَقَامَات في الْأَدَب العربيّ، (ص 160).

[5] أبو علي، نقد النَّثرِ في تراثِ العربِ النَّقْديِّ حتى نهايةِ العَصْرِ العباسيِّ 656هـ، (ص309).

وَرَغْمَ تنوُّعِ التَّعْرِيفاتِ، وتَعدُّدِ من وضعَ المُصْطَلَحَ المقاميَّ، إلَّا أنَّ معظمَ النُّقَّادِ يُجمعونَ عَلَى أنَّ "بَدِيع الزَّمَان هو أوَّل من أعطى كلمةَ مقامة معناها الاصْطِلَاحيّ بَيْنَ الْأُدَبَاء؛ إذْ عبَّرَ بها عن مقاماتِهِ الْمَعْرُوفَةِ، وهي جميعها تصوِّرُ أحاديث تلقى في جماعاتٍ، فَكَلِمَةُ مقامة عِنْدَه قريبةُ الْمَعْنَى من كلمةِ حديث"[1].

وقد تغنَّى كَثِيْرٌ من الكُتَّابِ بالمَقَامَةِ، وروعةِ أسلوبِهَا، وسحرِ بيانِهَا، وجمالِ بديعِهَا، وتعلُّقِ السَّامعينَ بإبداعها، فهي في نظرِ هَؤلاءِ "رياض أزهارٍ، وغياض أفكارٍ تجري من تحتها الأنهارُ، قد اطَّرَدتْ من منبعِ البَلَاْغَةِ أنهارُهَا، وغرَّدتْ بألسنِ الفَصَاْحَةِ أطيارُهَا"[2].

نشأةُ الْمَقَامَاتِ

اختلفَ النُّقَّادُ حَوْلَ نشأةِ المَقَامَةِ فرأى بعضُهُمْ أنَّ أصلَ المَقَامَاتِ فارسيٌّ، وأنَّها انتقلتْ من الُّلغَةِ الفارسيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، بيدَ أنَّ آخرينَ رأوا أنَّ المَقَامَاتِ ظهرتْ في اللغتينِ العبريَّةِ والسِّريانيَّةِ بعد ترجمةِ مقامات الحريريِّ، ولو كانَ أصلُ المَقَامَاتِ فارسيَّاً لكانَ الْأَوْلَى أنْ تنتقلَ المَقَامَاتُ إِلَى هاتينِ الُّلغتينِ من المَقَامَاتِ الفارسيَّةِ، وليس الْعَرَبِيَّة، هَذَا مِنْ نَاحِيَةٍ، ومِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ أوَّلَ من ألَّفَ مقاماتٍ فارسيَّةً، هو القاضي حميد الدين الَّذِيْ نهج نهْج بَدِيع الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ، وترسَّم خطاه رغبةً منه في إدخالِ هَذَا الفَنِّ إِلَى الُّلغَةِ الفارسيَّةِ.

إنَّ المَقَامَةَ فنٌّ عربيٌّ أصيلٌ، ولا طريقَ للتَّشكيكِ في ذَلِكَ، أو سرقةِ هَذَا السَّبْقِ، أمَّا هدفها الأساسُ فهو تعليمُ النَّاشئةِ الُّلغَةَ الْعَرَبِيَّةَ، وأَسَالِيْبَهَا مِنْ نَاحِيَةٍ، ومعرفة فنونِهَا، وأفنانِهَا مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

وَإِذَا كَانَ تضاربُ الأقوالِ شديداً في أصلِ المَقَامَاتِ، فَإِنَّ التَّضَارُبَ حَوْلَ مخترعها كانَ أشدَّ وأعنفَ، ويبدو هَذَا التَّضاربُ بين النُّقَّادِ والدَّارِسِينَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

الْفَرِيق الأَوَّل: رأى أنَّ السَّبْقَ لابن دريد (223–321هـ)، وأنَّ بَدِيعَ الزَّمَانِ عارضَ ابن دُريد فنشأتِ المَقَامَاتُ، ويستدلُّ هَذَا الفريقُ بعدَّةِ أقوالٍ، منها:

أوَّلا: قول الحصريِّ: "إنَّ بَدِيعَ الزَّمَان لمَّا رأى أبا بكر مُحَمَّد بن الحسن بن دريد الأزديّ أغربَ بأربعينَ حَدِيثَاً، وذكر أنَّه استنبطها من ينابيعِ صدرِهِ، وانتخبها من معادنِ فكرِهِ، وأبداها للأبصارِ

---

[1] مرتاض، في نظريّة الرِّواية، (ص160).

[2] شريف، المَقَامَة الشَّريفيَّة في مزايا اللغة الْعَرَبِيَّة، (ص3).

والبَصَائِرِ، وأهداها للأفكارِ والضَّمائِرِ، في معارضَ عجميَّةٍ، وألفاظٍ حوشيَّةٍ... عارضه بأربعمائةِ مقامةٍ في الْكُدْيَة، تذوبُ ظُرْفَاً، وتقطرُ حُسْناً"[1].

ثانياً: هُنَاْكَ نقاطُ التقاءٍ واتِّفاقٍ بينَ أحاديثِ ابن دريد، ومقاماتِ بَدِيع الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ، وتتمثَّلُ نقاطُ الالتقاءِ في الاسمِ، أي الاسم الَّذِيْ سمَّى به بَدِيع الزَّمَان فَنَّهُ الأَدَبيَّ (الحَدِيْث)، ويجمعُ عَلَى (أحاديث)، وهو الاسمُ الَّذِيْ اختاره ابن دريد لأقاصيصه، كَمَا أَنَّ "الغاية من أحاديثِ ابن دريد، ومقاماتِ البَدِيْعِ واحدةٌ، وهي تعليمُ النَّاشِئةِ الُّلغَةَ"[2].

الْفَرِيق الثَّانِي: رأى أنَّ بَدِيعَ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ هو مخترعُ هَذَا الفَنِّ، وحججهم رداً عَلَى قولِ الفريقِ الأوَّلِ كَثِيْرةٌ، منها:

1- إنَّ أحاديثَ ابن دريد نوادرُ، ولطائفُ لم يستقلْ بها دونَ غيره، فقد خاضَ غمارَ هذه الأحاديثِ أبو عمرو الْجَاحِظ (160-255هـ) في مؤلَّفيه (الحيوان)، و(البخلاء)، وابن قتيبة (213-277هـ) في (عيون الأخبار)، وابن عبد ربه (246-328هـ) في (العقد الفريد) كَذَلِكَ.

2- إنَّ ابنَ دريد كان يبدأ أحاديثَهُ بذكرِ سندِ الحَدِيْثِ، بَيْنَمَا لا يفعلُ بَدِيعُ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ كَذَلِكَ.

3- إنَّ أبطالَ ابنِ دريد، ورواتَه كُثُرٌ، فهم يختلفونَ من حديثٍ لآخرَ، أمَّا بَدِيعُ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ فبطلُهُ واحدٌ، هو: (أبو الفتح الإسكندريّ)، وراويتُهُ أَيْضَاً واحدٌ، هو: (عيسى بن هشام).

4- جعل بَدِيعُ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ الْكُدْيَة محوراً رئيساً لأغلبِ مقاماتِهِ، بَيْنَمَا لم تنهجْ أحاديثُ ابنِ دريد هَذَا النَّهجَ، ولم تنحُ ذلكَ المَنْحَى.

5- مالتْ أحاديثُ ابن دريد إِلَى الطَّرِيْقةِ التَّقريريَّةِ الْمُبَاشِرَةِ، أما بَدِيع الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ فقد ابتعدَ عن تلك التَّقريريَّةِ، حَيْثُ غلَّفَ أهدافَهْ داخلَ الحبكةِ الفنيَّةِ لِلمَقَامَةِ.

6- إنَّ استشهادَ أصحابِ الرَّأيِ القائلِ بأنَّ بَدِيعَ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ عارضَ ابن دريد فِيْ مَقَامَاتِهِ، يحملُ في ثَنَايَاه تناقضاً واضحاً حول معارضةِ البَدِيْعِ لابن دريد - وأعني في العددِ - فأحاديثُ ابن دريد تبلغُ أربعينَ حَدِيثَاً، ومقاماتُ بَدِيعِ الزَّمَان- وفقاً لقولِ الحصريِّ السَّابِقِ، وبغضِّ النَّظَرِ عن الاخْتِلَاْف في عددِ المَقَامَاتِ- قدْ وصلتْ إِلَى أربعمائةِ مقامةٍ، فكَيْفَ يعارضُ الْهَمَذَانِيُّ أربعينَ حَدِيثَاً بأربعمائةِ مقامةٍ؟ فالمقارنةُ هنا مقارنةٌ ضِيزَى.

---

[1] الحُصَرِيّ، زهر الآداب وثمر الألباب، (ج106/1).

[2] الْقَلَقْشَنْدِيّ، صَبْحُ الْأَعْشَى فِيْ صِنَاعَةِ الإِنْشَا، (ج125/14).

إنَّ اختلافَ الآراءِ حولَ تَأثُّرِ بَدِيعِ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ بأحاديثِ ابنِ دريد لا ضيرَ فيه، إنْ كانَ الأمرُ صحيحاً، فقد أظهر بَدِيعُ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ هَذَا الفنَّ في صُورةٍ فنيَّةٍ رائعةٍ، وقد عُدَّ رائدُ هَذَا المجالِ، وزعيمُهُ المُجيدُ، بلْ لقد التصقَ اسمُ المَقَامَاتِ بِبَدِيْعِ الزَّمَان في أذهانِ النَّاسِ، وحسبه ذلك[1].

ويُمْكِنُ الْقَوْلُ هُنَا إنَّ التَّأثُّرَ، والتَّأثيرَ ليسا عيباً، أوْ نقصاً في ميدانِ الأَدَبِ إذا ظهرَ الاخْتِلَاْف بينَ الْأُدَبَاء، ولكنَّ العيبَ في التَّشابهِ التَّامِّ الَّذِيْ يلقي بظلالِ السَّرقةِ عَلَى الأعمالِ الأَدَبيَّةِ، وَإِذَا كَانَ بَدِيعُ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ قد أخذَ من ابن دريد حقاً، فَإِنَّ ذلك لا يعيبه، بلْ يزيدُ من إبداعه الفذِّ النَّادرِ المثيل؛ إذْ ليسَ من السَّهلِ أنْ يتفوَّقَ التِّلميذُ عَلَى أستاذِه، وقد احتذى العديدُ من الْأُدَبَاء حذو هَذَا الْأُسْتَاذِ الفذِّ، وَلَعَلَّ الحريريّ من أبرزهم، بالإضافةِ إِلَى الغزاليِّ (450- 505هـ)، وصلاح الدِّين الصَّفديّ (696-764هـ)، وغيرهم، بيد أنَّ هَؤلاءِ كلَّهم لمْ يصلوا مكانةَ بَدِيعِ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ في هَذَا الفَنِّ البَدِيْعِ.

والأمرُ الثَّابتُ الَّذِيْ لا مجالَ للشَّكِّ فيه في آخرِ المَطَافِ أنَّه "كانَ يمكنُ أن نصلَ إِلَى نفسِ النَّتيجةِ، إذا ما قلنا إنَّ بَدِيعَ الزَّمَانِ الْهَمَذَانِيّ هو الَّذِيْ أرسى أصولَ هَذَا الفَنِّ الأَدَبيِّ بعد أن استفادَ من مُحَاوَلاتِ سابقيه، أليستْ هذه هي النتيجة الَّتِيْ توصَّلَ إِلَيْهَا جميعُ الَّذِيْن أشرنا إليهم سَوَاءٌ أكان اقتداءَ البَدِيْع بابنِ دريد، أم بابنِ فارس؟!!"[2].

والْحَقِيْقَةُ الَّتِيْ لا شَكَّ فيها أنَّ المَقَامَةَ تمثِّلُ أحدَ أهمِّ الْأَشْكَالِ الإِبْدَاعيَّةِ الَّتِيْ أفرزتها العقليَّةُ الْعَرَبِيَّةُ، والَّتِيْ عُدَّتْ كأحدِ الأجناسِ الأَدَبيَّةِ منذ أنْ أبدعها بَدِيع الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ، ووضع لها مِنْ خِلَالِ إبداعه شروطها الَّتِيْ تحقَّقتْ بعد ذلك في مقاماتِ الحريريّ، فبلغت الذَّروةَ في هَذَا الشَّكلِ، ولم يكنْ مبدعو فَنِّ المَقَامَةِ في العَصْرِ المملوكيِّ بأقلِّ درجةٍ في كتابةِ المَقَامَات، بلْ تفوَّقوا عَلَى سابقيهم، فبرزَ منهم ابن الورديّ (691-749هـ)، والشَّاب الظَّريف (661-688هـ)، وأبو العباس الْقَلَقْشَنْدِيّ (756-821هـ)، وجلال الدِّين السّيوطيّ (849 ـ 911هـ)، وما لبثَ أن انتهى العَصْرُ المملوكيُّ، وبدأ العَصْرُ العُثْمَانِيُّ فأنجبَ أعظمَ كتَّابِ المَقَامَةِ، أمثال شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ (977 ـ 1069هـ)، ونَاصِيْف اليَازْجِيّ (1800-1871م)، وأَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق (1219 ـ 1305هـ)، ونقولا التُّرك (1176-1244هـ)، وغيرهم كَثِيْرونَ ممن حملوا

---

[1] يُنْظَر: ضيف، المَقَامَة، (ص9).

[2] أبو علي، نقد النَّثر في تراث العرب النَّقْديّ حتى نهاية العَصْر العباسيّ 656هـ، (ص309).

رايةَ الإبْدَاعِ في هَذَا الميدانِ، وتبوؤوا مكانةً بارزةً في تاريخِ الأَدَبِ العربيِّ، وأسهموا مساهمةً فعَّالةً في رسمِ ملامح الأَدَبِ العُثْمَانِيِّ.

عَوَامِلُ ازْدِهَارِ فَنِّ المَقَامَاتِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ

ازدهرَ فنُّ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ شَأْنُهُ شَأْنُ فنونِ النَّثرِ الأُخْرَى، ورُبَّمَا تكون عواملُ ازدهارِ الفُنُوْنِ الأُخْرَى هي ذاتها عوامل ازدهارِ المَقَامَةِ، وقد تشتركُ بعضُ العواملِ فنرى بعضها هي ذات العوامل في العُصُوْرِ السَّابِقَةِ، ومن أهمِّ هذه العواملِ:

1- اتِّساعُ رقعةِ الدَّوْلةِ العُثْمَانِيَّةِ الَّتِيْ امتدت عبر ثلاثِ قاراتٍ، ومع هَذَا الاتِّساعِ ازداد عددُ الْأُدَبَاء مِنْ نَاحِيَةٍ، وتنوَّعتْ مشاربُهُمْ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وكان من البدهيِّ أن يُولِّد هَذَا الاتِّسَاعُ فنوناً متعدِّدةً، وأَلْوَانَاً مُتَنَوِّعَة من فُنونِ الأَدَبِ، كان من بينها فَنُّ المَقَامَةِ، وقد أدَّتِ المنافسةُ بين الأقطارِ الَّتِيْ انضوت تحت لواءِ الدَّوْلةِ العُثْمَانِيَّةِ إِلَى الإجادةِ والإبْدَاعِ، وَلَعَلَّ من صورِ هَذَا الإبْدَاعِ تعدُّد المَقَامَاتِ الَّتِيْ غلبَتْ عليها المُسَمَّياتُ الوطنيَّةُ، فمنِ المَقَامَةِ المغربيَّةِ إِلَى اللبنانيَّةِ، ومن المصريَّةِ إِلَى اليمنيَّةِ، ومن العُمانيَّةِ إِلَى الرَّصافيَّةِ، ومن الدّمشقيَّةِ إِلَى الحلبيَّةِ، ومن المَقَامَاتِ ما حملتْ مسمياتها معنى القدسيَّةِ، كالمكيَّةِ، والقدسيَّةِ، والأَزهريَّةِ، وَمِنْهُا ما حمل عبقَ التُّرَاثِ، كالعكاظيَّةِ، والكوفيَّةِ، والبصريَّةِ، والتَّغلبيَّةِ، والخزرجيَّةِ، وَمِنْهُا ما حملَ صفةَ الوفاءِ للأفذاذِ، كالمَعَرِيَّةِ.

2- تشجيع السَّلاطينِ والْأُمَرَاءِ للأدبِ، والْأُدَبَاء حَالُهُم حَالُ الدُّوَلِ الأُخْرَى، فقد أعظمَ سلاطينُ الدَّوْلةِ العُثْمَانِيَّةِ الْأُدَبَاءَ، وأكرموا وفادتَهُم، فأجزلوا لهم المنحَ والعطايا، وَلَعَلَّ اهتمامَ هَؤلاءِ السَّلاطينِ بالأَدَبِ كانَ له الدَّورُ الرَّئيسُ في تطوُّرِ كَثِيْرٍ من الفُنُوْنِ، كانَ من بينها تطوُّرُ فَنِّ المَقَامَةِ وازدهاره. كما كانَ لهم الدَّورُ الْعَظِيمُ في دفعِ الْأُدَبَاء إِلَى الْقَوْلِ، والتَّفَنُّنِ فيه، فها هو السُّلطان سليمان بن سليم (ت974هـ)، والَّذِيْ بلغت الدَّوْلة العُثْمَانِيّة في عهده أوج عظمتها، وقوتها، واتِّساعها، فقد تميَّز عصره ببروز عددٍ كبيرٍ من المؤرخين، والشُّعَرَاء، والكتَّاب، ورجال القانون، ورجال الَعلم خَاصَّةً أنَّه كان يرعى الآداب، ويشجع الْأُدَبَاء[1]، ونرى الكَثِيْر من أمراء العُثْمَانِيّين يولي الأَدَبَ والْأُدَبَاءَ، والشِّعرَ والشُّعَرَاءَ عنايةً خَاصَّةً، بلْ كان بعضهم يَقُوْلُ الشِّعرَ بأكثر من لغةٍ، "فكان الأميرُ ابن الأمير الشَّهير بابن منجك، جواداً كريماً يضرب به المثلُ في الجودِ والعطاءِ...وكان يحب العُلَمَاْء، ويتواضع لهم"[2].

---

[1] يُنْظَر: حسن، في أصول التاريخ العثمانيّ، (ص101، ص102).

[2] الغزيّ، الكواكب السَّائرة بأعيان المائة العاشرة، (ج81/3).

3- وَلَعَلَّ من أهمِّ أسبابِ ازدهارِ المَقَامَةِ أنَّها من الفُنُوْنِ الَّتِيْ لا تلتزم بقيودٍ متينةٍ تلزمُ الْأُدَبَاء، شَأْنُهَا شَأْنُ القيودِ الَّتِيْ تفرض عَلَى الشُّعَرَاءِ ، أو كتَّابِ الْقِصَّة مثلاً، وَمِنْ هُنَا انطلق الْأُدَبَاء يجوبونِ الْفَيَافِي، يطلقونَ العَنَانَ لقَرَائِحهم لِلْإِبْدَاعِ، فاندفعوا يغرسونَ أجملَ الأفنانِ، ويتغنونَ بأعذبِ الْأَلْحَانِ، فلم تحدُّهم أيُّ حدودٍ، ولم تمنعهم أيُّ سدودٍ، فانْطَلَقُوا عبرَ مقاماتهم إِلَى عَوَالِمِ الإِبْدَاعِ، يتنقَّلونَ من بستانٍ إِلَى بستانٍ، ويطيرونَ من زهرةٍ إِلَى أُخْرَى، فَمِنَ الوَصَايَا والمواعِظِ، والمُنَاظَرَاتِ، إِلَى الْغَزَلِ، والنَّسيبِ، والمُفَاخَرَاتِ، ومن الْمَدْحِ، والْهِجَاءِ إِلَى الوَصْفِ، والرَّسْمِ بلوحاتٍ تحملُ الرَّوْعَةَ، وتزخرُ بالْبَهَاء.

4- ومن الْأَسْبَابِ الَّتِيْ أدَّتْ إِلَى ازدهارِ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وبشكلٍ كبيرٍ، أنَّ أُدَبَاءَ هَذَا الفَنِّ – أعني فنَّ المَقَامَةِ – تلمَّسوا أدبَ سابقيهم من لدن بَدِيعِ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ، والحَرِيريّ، وابن الورديِّ، وشِهَاب الدِّين التِّلمسانيّ، وغيرهم، فنهجوا نهجَهُم، واقتفوا أثرَهُم، وحاولوا جاهدينَ مسايرتهم، بَلْ والتَّفوُّقَ عليهم، فتحقَّقَ لهم ما أرادوا .

5- كثرة الفتوحاتِ والحروبِ الَّتِيْ خاضتها الدَّوْلةُ العُثْمَانِيَّةُ، والانتصارات المبهرة الَّتِيْ حققتها هذه الدَّوْلةُ في شَتَّى الأنحاءِ، فتحت أبواباً واسعةً أمامَ الْأُدَبَاء لِلْإِبْدَاعِ، فقد أشعلت هذه الفتوحاتُ، وَتِلْكَ الانتصاراتُ قرائحَ الْأُدَبَاء، وأيقظت أذهانَ العُلَمَاْءِ، فأَطْلَقوا العَنَانَ لأقلامهم لتسطيرِ الْأَحْدَاثِ الجِسامِ، ومنحوا الْحُرِيَّةَ كلَّ الْحُرِيَّةِ لقَرَائِحهم لتصويرِ الانتصاراتِ الْعَظِيمةِ، فتعدَّدت المؤلفاتُ، وتدفَّقت الكتاباتُ، وتنوَّعت الإِبْدَاعاتُ، واستفاضت النُّصُوْصُ المَقَامِيَّةُ تتغنَّى بالأمجادِ بعدَ أن عزفتْ أَرْوَعَ الْأَلْحَانِ. وَحَالُهَا حَالُ الفُنُوْنِ الأُخْرَى تلمَّست المَقَامَةُ ذات الطَّرِيْقِ، وسارت في نفسِ الدَّربِ تخطُّ رسومَ العزَّةِ والكرامةِ، وترسم مَشَاهِدَ النَّصْرِ والشَّهامةِ، وتشكِّلُ لوحاتِ الإِبْدَاعِ والْبَرَاعَةِ.

6- لَمْ يخلُ العَصْرُ العُثْمَانِيُّ حَالُهُ حَالُ العُصُوْرِ السَّابِقَةِ منَ المجالسِ الأَدَبيَّةِ، والمطارحاتِ الشِّعْرِيَّةِ، وهذه فطرةٌ في المجتمعات، فأدَّى ذَلِكَ إِلَى كثرة التَّراجم والمؤلفات في شَتَّى الفُنُوْن والْمَوضُوْعاتِ، ولم يحرم من ذَلِكَ أَيْضَاً فنُّ المَقَامَات، حَيْثُ أسهمت هذه المجالسُ بشكلٍ أو بآخَرَ في ازدهارِ فنِّ المَقَامَةِ.

7- مواهب الحُكامِ والسَّلاطينِ والْأُمَرَاءِ الأَدَبيَّة فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، فَقَدْ تحلَّى كَثِيْر منهم بالمواهبِ الأَدَبيَّةِ، والخلقيَّةِ، والعلميَّةِ، والشَّواهد عَلَى ذلك لَا حَصْرَ لَهَا، فالسُّلطانُ مراد خان الثَّانِي (ت1003هـ) كان له اشتغالٌ ببعضِ العُلُوْمِ، ومشاركةٌ في مجالسِ الأَدَبِ، وله شعرٌ بليغٌ بالْعَرَبِيَّةِ، والفارسيَّةِ، والتُّركيَّةِ، فقد كان فطناً لبيباً، وشَاعِرَاً مجيداً، وكَذَلِكَ الأمير مصطفى بن

سليم القانوني فقد كان شَاعِرَاً محبَّاً للعَلَّم والعُلَمَاْء. وقد سبقهم جَمِيْعَاً السُّلْطَان سُلَيْمَان، قيل "إنَّه من ذوي العُقُوْلِ، وفيه أقولُ:

سِـــرْنَا لَمَّـــا وُلِّـــيَ سُـــلْطَانُنَا ابْـنُ عُثْمَـانَ وَصِـرْنَا فِـيْ أَمَـانِ

وَارِثَـــاً لِلْمُلْـــكِ عَـــنْ أَجْـــدَادِهِ فَهْوَ فِـيْ الْمُلْـكِ سُـلَيْمَانُ الزَّمَـانِ

وكانَ من قبلهِ جدُّه عُثْمَان يُحِبُّ العُلَمَاْءَ، ويُقَرِّب الصُّلحاءَ"[1].

[1] يُنْظَر: المصريّ، بدائع الزُّهور في وقائع الدُّهُور، (ج1206/3، 1207).

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: بِنَاءُ المَقَامَةِ، وَأُصُوْلهَا الْفَنِيَّة

إنَّ المتنقِّلَ بين حَدَائِقِ النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ، المتنسم عبقَ التُّرَاثِ فيها، المتذوِّقَ براعةَ بيانها، وروعة بديعها، لا يمكنُ أنْ يغفلَ بناءَ المَقَامَةِ، وأصولها الفنيَّة، وَلَعَلَّ المتنقِّلَ بين حقولِ المَقَامَاتِ يستطيع أن يصلَ إلَى صورةٍ واضحةِ المعالمِ عن البناءِ الفَنِيِّ لِلمَقَامَاتِ، والتَّعرُّفِ عَلَى أصولِهَا الفنيَّةِ، ويمكنُ رسم هذه الْأُصُوْلِ مِنْ خِلَالِ الآتِي:

1- الرَّاوِي والْبَطَلُ: لم يُنْكِر كثيرٌ منَ النُّقَّاد أنَّ كلَّ فَنٍّ سرديٍّ يعتمدُ عَلَى الحكيِ أو القصِّ، سَوَاء أكان هَذَا العملُ قصةً، أم روايةً، سيرةً أم مقامةً، لابدَّ وأن تقوم عَلَى شخصياتٍ يتفاوتُ اهتمامُ الكتَّابِ بها حسبَ طبيعةِ دورها، في السَّرْدِ، ومكَانَتْها فيه.

والشَّخْصِيَّاتُ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ كغيرها في الفُنُوْنِ الأَدَبيَّةِ، فهي "عنصرٌ مهمٌّ؛ إذْ عن طريقها يسوقُ الْأَدِيْبُ أفكاره، وقَضَايَاه العامة، ومشاعره، ورغباته الَّتِيْ يرغب في إثارتها"[1].

وتمثِّلُ الشَّخْصِيَّاتُ في الرِّوايةِ – مثلاً– مدارَ الْمَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ، ومحورَ الأفكارِ والآراءِ العامةِ، معظمهم يكونونَ من الْوَاقِعِ، ولكنَّهم يختلفونَ عمَّن تألفهم، والْأَدِيْبُ يصوِّرُ أشخاصَهُ في خلقهم من الْوَاقِعِ مُسْتَعِيْنَاً بالتَّجاربِ الَّتِيْ عاناها هو، أو أحدُ أقاربه، أو أفراد أسرتِهِ. ولهَذَا فَإِنَّ الشَّخْصِيَّاتِ "إذا انبثقت في الرِّوايةِ من الحَيَاةِ و الْوَاقِعِ، إلا أنَّها في العملِ الأَدَبيِّ أوضحُ جانباً؛ فالْأَدِيْبُ ينتزعُ شخصياتِهِ من الحَيَاْةِ ثم يعيد رسمها، ويحدِّدُ خَصَائِصها، ويضبطُ سلوكَهَا، ويحلِّلُ تصرفاتِهَا، وقد يفسِّرها بشكلٍ مباشرٍ، ويهيئ الأجواءَ الَّتِيْ تساعدُ عَلَى تفسيرِهَا"[2].

وصورةُ الشَّخصيَّةِ فِيْ النَّصِّ المقاميِّ لنْ تكونَ كالشَّخصيَّةِ في الرِّوايةِ، فصورة الْبَطَل لن تكون مُتكرِّرةً بنفسِ الصُّورَةِ، ولا بنفسِ النَّمطِ عِنْدَ الكتَّابِ والْأُدَبَاء، فكلُّ كاتبٍ، أو أديبٍ يتفنَّنُ في رسمِ صورِ شخصياتِه سَوَاء أكَانَتْ واقعيَّة، أم غيرَ واقعيَّةٍ من وحيِ إبداعاتِهِ، مِنْ خِلَالِ تفاعلٍ داخليٍّ بينه وبينها، وتختلفُ صورُ الأبطالِ عِنْدَ الكتَّاب باختلافِ جنسِهَا أو فئتِهَا، أو دورِهَا، أو الطَّبقةِ الاجتماعيَّةِ الَّتِيْ تنتمي إِلَيْهَا، وَمِنْ هُنَا "تتفاوت مكوِّناتُ شخصيَّةِ الْبَطَلِ من كاتبٍ إِلَى آخرَ، ومع ذلك كلُّهم ينهلونَ من الصِّفَاتِ الَّتِيْ حدَّدها الْهَمَذَانِيُّ، فقد تجتمعُ معظمُ هذه الصِّفَاتِ في بطلٍ من أبطالِ المَقَامَاتِ، وقد تجتمع بعضها، وقد تستدعي الظُّرُوْفُ البيئيَّةُ المُخْتَلِفَةُ أنْ يُحوِّرَ الْأَدِيْبُ صفاتِ بطلِهِ بما يتناسبُ والبيئة الَّتِيْ يعيشُ فيها، فالْبَطَلُ عِنْدَ ابن

---

[1] يموت، الفن الْأَدَبيّ أجناسه وأنواعه، (ص199).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص199.

ناقيا – مثلاً– أقلُّ ثقافةً وفطنةً من بطل الْهَمَذَانِيِّ، كَمَا أَنَّه يبدو كشخصيَّةٍ مكديةٍ تجرَّدت من النُّبوغِ العِلْمِيِّ، وتخلَّت عن الدَّورِ الأَدَبيِّ، والثَّقافيِّ الَّذِيْ كَانَتْ تقوم به عِنْدَ الْهَمَذَانِيِّ"[1].

وغالباً ما كان الرَّاوي في المَقَامَاتِ يحملُ اسماً، وَلَكِنَّ بعضَ الْأُدَبَاءِ خرجَ عن هَذَا السِّياقِ، ومن هَؤلاءِ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق الَّذِيْ خالفَ الكتَّابَ في (المَقَامَة البخشيشيَّة)، فراويةُ هذه المَقَامَةِ لا يحملُ اسماً كعادةِ المَقَامَاتِ سوى أنَّه أحدُ السُّواحِ الأجانبِ، يَقُوْلُ الشِّدْيَاقُ: "حدَّث أحدُ السُّواحِ الأجانبِ قالَ: قد طالعتُ في بعضِ الصُّحفِ الجامعةِ للأخبارِ، مما يحدثُ في الأمصارِ والأقطارِ، أنَّ في بعضِ الممالكِ ملكاً يقال له البخشيش، مجدّ كميش، أنيس بشيش، لا يُقطعُ أمرٌ دونَ أمرِهِ، ولا ينفذ رأي دونَ خبرِهِ، وَإِذَا شاءَ أن يُصيِّر الحقَّ باطلاً فعل، أو الباطلَ حقاً أمكنه العمل، فلا مردَّ لحكمه، ولا معارضَ لرسمه، وحَيْثُ ما سرحت النَّظر ألفيته أمامَكَ، ومهما تقصد من المآربِ كان لابدَّ لك من أن تتَّخذه إمَامَكَ.. فإنْ هو إلَّا ملك روحانيّ، وسلطان علويّ ليس من النَّوعِ الْإِنْسَانيِّ"[2].

وأَحْيَانَاً قد تتبدَّلُ الأُمُوْرُ، وتتغيَّرُ الأحوالُ فيقوم الرَّاوي مقامَ الْبَطَلِ، "فهو الَّذِيْ يمسحُ فضاءَ المَقَامَةِ، ويتحرَّكُ في أغلبِ أجزائِهَا حتى ليكاد يكونُ هو الْبَطَلُ، أما الفارياق فهو الَّذِيْ تنحلُّ أزمةُ المَقَامَةِ عَلَى يديه بما له من قولٍ فصلٍ، وسداد رأيٍ، واطِّلاعٍ واسعٍ، ومع ذلك فدوره لا يظهر إلا في الآخر، وكأنَّ كلّ ما يسبق من المَقَامَةِ هو تمهيد لذلكَ الدَّور الضَّئيل حضوراً، لكنه أساسيٌّ موضوعاً، بَلْ إنَّنا نجده أَحْيَانَاً لا يظهرُ إلَّا ليَقُوْلَ قصيدةً فيها الجواب الشَّافي، أو أنَّه لا يظهر أبداً، ويكتفي بإرسالِ رأيِهِ في رسالةٍ، وهَذَا هو الْمَعْنَى الحقيقيّ للبطولةِ الَّتِيْ يجسِّمها الفارياق، فهي تكمنُ في أهميَّةِ الْحَرَكَةِ لا في مجالها واتِّساعها"[3].

وَإِذَا عُدْنَا إِلَى الْبَطَلِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، فَإِنَّنا نجد نَاصِيْف اليَازْجِيّ مثلاً قد "جعلَ راويةَ مقاماتِهِ سهل بن عباد، وبطلها مَيْمُون بن خزام"[4].

وَلَعَلَّ نَاصِيْف اليَازْجِيّ اقتفى آثارَ روادِ المَقَامَةِ، فبَدِيع الزَّمَان اخترع "شخصيَّة عيسى بن هشام لتقومَ بروايةِ أحداثِ مقاماتِهِ، وشخصيَّة أبي الفتح الإسكندريّ لتصنعَ تِلْكَ الْأَحْدَاث،

---

[1] أبو علي، نقد النَّثر في تراث العرب النَّقْديّ حتى نهاية العَصْر العباسيّ 656 هـ، (ص323).

[2] فارس، كنز الرَّغائب في منتخبات الجوائب، (ج70/1).

[3] المطويّ، أحمد فارس الشِّدْيَاق، حياته وآثاره وآراؤه في النَّهضة الْعَرَبِيَّة الحديثة، (ج400/1).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (ص5).

كما رأيناه يبدعُ في رسمِ شخصيَّةِ الْبَطَلِ – الإسكندريّ – لكي تكونَ نَمَطَاً خاصاً من الأَنْمَاطِ السُّلوكيَّةِ الَّتِيْ توهمُ بواقعيتها"[1].

إنَّ الشَّخصيَّةَ فِيْ الْمَقَامَةِ أدَّت دورها، وإنْ كَانَتْ خياليَّةً لم تتَّضحْ معالمها، فبالرَّغْمِ من "أنَّ الْهَمَذَانِيَّ لم ينفصلْ عن الْوَاقِعِ في تجميع مكونات شخصيته، واعتماده في رسمِ تلك الصُّورَةِ المتكاملةِ الأبعادِ لشخصيَّة الإسكندريِّ عَلَى الصِّفَاتِ المتناقضةِ الَّتِيْ كان يراها متفرِّقةً في مختلفِ الشَّخْصِيَّاتِ في بيئته. إلَّا أنَّها تبقى خياليَّة، حَتَّى وإن أوهمتنا بوضوحِ معالِمِهَا، وانسجامِ بعض خَصَائِصها مع تناقضاتِ الْوَاقِعِ العباسيِّ الَّذِيْ كان مسرحاً لنشاطها، إذْ لا يعقلُ أن نجدَ إنساناً اجتمعتْ فيه شجاعةُ الفرسانِ، وروحُ المغامرةِ، واقتحامُ الأَهْوَالِ، وعلوُّ الثَّقَافَةِ مع روعةِ البيانِ، ثمَّ هو شاعرٌ متكسِّبٌ، وخطيبٌ واعظٌ، ونحويٌّ متفوِّقٌ، وساخرٌ، وبهلوان...كلُّ هذه الصِّفَاتِ مجتمعةً في شخصٍ واحدٍ!!، والأدهى من ذَلِكَ كلِّه أنَّهُ لا يتمكَّنُ من كسبِ قوتِهِ إلَّا بالْكُدْيَة، والاستجداءِ"[2].

وَيَرْسِمُ ابنُ مَيْمُون الجَزائريّ عَدَدَاً من صفاتِ الْبَطَلِ، إنَّها البَلَاْغَةُ والفَصَاْحَةُ، وروعةُ التَّعبيرِ الَّتِيْ تأخذُ بالأَلْبَابِ، وتؤنسُ القُلُوْبَ، يَقُوْلُ: "يقذفُ لسانه لؤلؤه المكنون، ويصرفُ من بدائعه الأنواع والفُنُوْن، فلا يُجارى في مضمارِ إحسانٍ، ولا يُبَارَى في بلاغةٍ، وبراعةِ لسانٍ، يقصر كلُّ كريمٍ عن نداه، ويظهرُ الإعجاز فيما أظهره من البيانِ وأبداه"[3].

ولم يتوقفِ الأمرُ عِنْدَ هَذَا الحدِّ، فقد غدت أبعادُ الشَّخصيَّةِ المَقَامِيَّةِ الَّتِيْ وضعها بَدِيعُ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ "أصلاً من الْأُصُوْلِ الَّتِيْ تُحتذى، وركيزة من الرَّكائزِ الَّتِيْ تقومُ عليها المَقَامَةُ"[4].

وَلَمْ يَبْتَعِدْ أُدَبَاءُ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ عن ذلك، بلْ لم يبدعوا الجديدَ في هَذَا الميدانِ، ودليلُ ذلك أنَّنا إذا تتبعنا شخصيَّةَ الْبَطَلِ في مقاماتِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ، وأَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق، وشِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ، وغيرهم، فَإِنَّنا نجدها تحملُ معظمَ الصِّفَاتِ الَّتِيْ رسمها الْهَمَذَانِيُّ، فقد كَانَتْ شخصيَّةُ مَيْمُون بن خزام – بطل مقاماتِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ– مُعْجَماً حيَّاً، وقاموساً متنوِّعاً يحمل شَتَّى الْمَعَارِفِ، فقد كانَ فقيهاً، ولُغويَّاً، ونحويَّاً، ومع ذَلِكَ فقد كان هَذَا الْبَطَلُ رَغْمَ معرفته

---

[1] أبو علي، نقد النَّثر في تراث العرب النَّقْديّ حتى نهاية العَصْر العباسيّ 656هـ، (ص322).

[2] المَرْجِع السَّابِق ص322، ص323.

[3] الجزائريّ، التُّحفة المرضيَّة، (ص121).

[4] أبو علي، نقد النَّثر في تراث العرب النَّقْديّ حتى نهاية العَصْر العباسيّ 656هـ، (ص323).

الواسعةِ، وعُلُوْمه المُتَنَوِّعَةِ "أديب شحَّاذ من نوعِ أبي زيدٍ السّروجيّ، وأبي فتح الإسكندريّ"[1]، أو قلْ إنْ شئت: "أديبٌ مُتَسَوِّلٌ"[2].

2- الْكُدْيَةُ، الْكُدْيَةُ أصلٌ من الْأُصُوْلِ الَّتِيْ قَامَتْ عليها المَقَامَةُ، وهي موضوعٌ رئيسٌ تبرزُ مِنْ خِلَالِه عيوبُ المجتمعِ، ومشكلاته المُتَنَوِّعَة، وَلَعَلَّ الأمرَ الملفتَ للنَّظرِ أنَّ الْكُدْيَةَ هي الْمَوضُوْعُ الأَوَّلُ الَّذِيْ قَامَتْ عليه المَقَامَاتُ منذ نشأتها، حتى رأينا صورها المُخْتَلِفَةَ فِيْ مَقَامَاتِهِم، كما رأينا حرصَهُمْ عَلَى إدارةِ الْأَحْدَاثِ مِنْ خِلَالِهَا بِطَرِيْقَةٍ تلفت الانتباهَ لما فِيْ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ من إثارةٍ، وغموضٍ... وقد أصبحت الْكُدْيَةُ أصلاً من الْأُصُوْلِ الَّتِيْ تقوم عليها المَقَامَةُ...فالْكُدْيَةُ بجميع حللها، وعيوب المجتمعِ، ومشكلاته بمختلفِ أنواعِهَا من الأُمُوْرِ الَّتِيْ تعمَّدَ كتَّابُ المَقَامَاتِ تجسيمها وإبرازها[3].

ولم تَعُدِ المَقَامَةُ ذلك الفنّ الَّذِيْ يجبُ أن يلتزم بالْكُدْيَةِ، فقد تناولتْ بعضها واقعاً سقطتْ منه الْكُدْيَةُ، والحيلةُ، فلم تعدِ الْكُدْيَةُ عموداً رئيساً في بناءِ المَقَامَةِ.

وتُمثِّلُ الْكُدْيَةُ أصلاً من أصولِ المَقَامَةِ، حَيْثُ قَامَتِ المَقَامَةُ عليها منذُ بدايتها، وَإِذَا ما جاءتْ مقامةٌ دونَ أن تحتوي عَلَى الْكُدْيَةِ، تأتي وكَأَنَّهَا ناقصةٌ، وبمرورِ الوقتِ حاولَ بعضُ كتَّابها أنْ يتحللوا من هَذَا الأصلِ شَيْئَاً فشَيْئَاً، كما فعل الحريريُّ في بعضِ مقاماته، وجاءتْ مقاماتُ الزَّمخشريِّ، وابن الجوزيّ خاليةً تَمَامَاً من الْكُدْيَةِ.

لَقَدْ كَانَتِ المَقَامَةُ فِي العُصُوْرِ السَّابِقَةِ تعتمدُ عَلَى الْكُدْيَةِ، والتَّسوُّلِ، والألغازِ، والأحاجي، ولكنَّها في العَصْرِ المملوكيِّ، قد تجاوزتْ ذَلِكَ؛ لتعبِّرَ عن أحداثِ هَذَا العَصْرِ، مثل الحروبِ والفتنِ، وتُظْهِر همومَ الكتَّابِ، وإخراجها في ثوبٍ قصصيٍّ، كما وجعلها بعضُ الكتَّابِ هدفاً للوعظِ، والإرشادِ الدِّينيِّ[4].

وقد تجاوزَ بعضُ الْأُدَبَاء فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ هذه الْحُدُوْدَ، فالْمَوضُوْعُ عِنْدَ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق اختلفَ عمَّا كان عليه عِنْدَ غيره من المقاميينَ خَاصَّةً القُدَامَى، فقد تحوَّلَ من الْكُدْيَةِ والاحتيالِ إِلَى معالجةِ مواضيعَ أُخْرَى واقعيَّةٍ حيَّةٍ، "عصريَّةٍ مَأْخُوْذَةٍ من الحَيَاةِ، ومُنتزعةٍ من

---

[1] ضيف، المَقَامَة، (ص85).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص87.

[3] يُنْظَر: أبو علي، نقد النَّثر في تراث العرب النَّقْديِّ حتى نهاية العَصْر العباسيّ 656 هـ، (ص326).

[4] يُنْظَر: سلام، الْأَدَب في العَصْر المملوكيّ، (99/2).

المجتمع الَّذِيْ عاش فيه الْأَدِيْب"[1]، وَلَعَلَّ ذَلِكَ سيظهر جليَّاً مِنْ خِلَالِ دراسةِ نماذج لمقاماتِ كُتَّابٍ في هَذَا العَصْر.

3- الصَّنْعَةُ اللَّفْظِيَّةُ، إذا ذُكِرَ فَنُّ المَقَامَةِ ذكرت معه الصَّنْعَةُ اللَّفْظِيَّةُ، فهذه الصَّنعةُ "أخذت شكلاً خاصاً توارثه كتَّابها في مختلفِ العُصُوْرِ والبيئاتِ، من ذَلِكَ السَّجْع، والمُحَسِّنَات البَدِيْعيَّة الَّتِيْ لازمتها منذ نشأتها في القرنِ الرَّابِعِ الهجريِّ"[2]. وقد كَانَتْ المُحَسِّنَاتُ البَدِيْعيَّةُ طابعاً مميزاً ميَّزَ المَقَامَةَ عن الفُنُوْنِ النَّثْرِيَّةِ الأُخْرَى، وَذَلِكَ لِأَنَّ "نشأة المَقَامَةِ في القرنِ الرَّابِعِ الهجريِّ هو الَّذِيْ طبعها بطابعِ عصرِهَا، عصرِ الزِّينةِ والاختضابِ، وقد فرضتْ هذه الْحَقِيْقَةُ نفسها عَلَى المَقَامَاتِ في مختلفِ العُصُوْرِ، ولا تُعْرَفُ المَقَامَةُ كمقامةٍ إلا بالتزامها بالسَّجْعِ، والمُحَسِّنَاتِ البَدِيْعيَّةِ "[3].

وَقَدْ تَعَاطَى كَثِيْرٌ من أُدَبَاءِ المَقَامَةِ الصَّنْعَةَ اللَّفْظِيَّةَ؛ لإظهارِ براعتهم الكتابيَّةِ مراعاةً لذوقِ العَصْرِ، وهَذَا ما صرَّحَ به أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "وقد مضتْ عليَّ بُرْهَةً من الدَّهْرِ من غيرِ أن أتكلَّفَ السَّجْعَ والتَّجْنِيسَ، وأحسبني نسيتُ ذَلِكَ، فلابدَّ أنْ أختبرَ قريحتي في هَذَا الفَصْلِ، فَإِنَّهُ أولى بِهِ من غيرِهِ"[4].

إنَّ المتنقِّلَ بين حدائقِ المَقَامَاتِ يجذبُ انتباهه أمورٌ كَثِيْرةٌ، بيد أَنَّ أهمَّ هذه الأُمُوْرِ هو الصَّنْعَةُ اللَّفْظِيَّةُ خَاصَّةً السَّجْعَ والتَّجْنِيسَ، والتَّشْطِيْرَ، حَيْثُ يجدُ الْقَارِئُ نفسه حائراً أيَّة أزهارٍ يقطفُ، وأيَّة ثمارٍ يجنى، فأَمَامَهُ من روائعِ البَدِيْعِ في النُّصوص المقاميَّةِ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، فمنْ جمالٍ يبدأ قراءته إِلَى أجملَ، ومن روعةٍ تطربُ أذنه إِلَى أَرْوَعَ وأروعَ، ومن بهاءٍ يلامس إحساسه إِلَى أبهى وأحسنَ.

وَإِذَا كَانَ السَّجْعُ هو الخصِّيصةُ الْأُوْلَى لفنِّ المَقَامَةِ، فَإِنَّنا نجدُ بعضَ كُتَّابها غير ملتزمٍ بِذَلِكَ أَحْيَانَاً، فالشِّدْيَاقُ مثلاً لم يلتزمْ "بالسَّجْعِ فِيْ الْمَقَامَةِ الشِّدْيَاقيَّةِ، ومن ثَمَّ كان خفيفَ الوقعِ عَلَى الأذنِ، جملُهُ قصيرةٌ، إلَّا فيما ندر، نابضةٌ يتخلَّلها التَّرادفُ، والزُّخرفُ البَدِيْعيُّ، لكن في غيرِ إكثارٍ مُمِلٍّ حتى لا يكاد كلُّ ذلك يلحظ فيها، خَاصَّةً فِيْ الْمَقَامَةِ البخشيشيَّةِ، ولهَذَا السَّببِ قيلَ إنَّ الشِّدْيَاقَ كانَ أقلَّ براعةً وحذقاً في تصميمِ المَقَامَةِ، وفي استخدامِ فنونِ البَدِيْعِ والبيانِ،

---

[1] نجم، القصة في الْأَدَب العربيِّ الحديث (1870- 1914م)، (ص250).

[2] أبو علي، نقد النَّثر في تراث العرب النَّقْديّ حتى نهاية العَصْر العباسيّ 656 هـ، (ص327).

[3] حسن، أثر المَقَامَة في نشأة القصة المصريَّة الحديثة، (ص20).

[4] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص141).

وما ذَلِكَ إلَّا لِأَنَّهُ كانَ يكرهُ هذه الزَّخارفَ، عَلَى أنَّه شاعَ فِيْ مَقَامَاتِهِ بدلَ ذلك روحُهُ الفكهةُ، ومزجها بنزعتِهِ المجونيَّةِ، وَمِنْ هُنَا وُصِفَ بأنَّه كان مُبتدعاً في أسلوبِ المَقَامَاتِ السَّاخرةِ، ومتفرِّداً بِهِ"[1].

ولمْ ينهجْ بعضُ الْأُدَبَاء نهجَ سابقيهم، ولم يقتفوا أثرهم في التَّعاملِ مع أصولِ المَقَامَةِ الفنيَّةِ، حَيْثُ تخلَّصَ بعضُهُمْ من بعضِ أصولها كالْبَطَلِ، والْكُدْيَةِ، بَيْدَ أنَّ الصَّنْعَةَ اللَّفْظِيَّةَ كَانَتْ ولا زالتْ الأصلَ الَّذِيْ لم يفكرْ أُدَبَاءُ المَقَامَاتِ في التَّخلُّصِ منه، بَلْ في المقابلِ أثقلوا مقاماتهم بهذه المُحَسِّنَاتِ، وَإِذَا "كُنَّا قد لاحظنا خلوَّ بعضِ المَقَامَاتِ من شخصيَّةِ الْبَطَلِ الْخَيَاليَّةِ، أو خلوّها حَتَّى من الْكُدْيَةِ، فَإِنَّنا سوفَ لا نجدُ مَقَامَةً لم يهتمْ صاحبُهَا بالصَّنْعَةِ اللَّفْظِيَّةِ، فقد نجدُ مَقَامَةً أُثقلتْ بقيودِ الصَّنعةِ حَتَّى بدا التَّكلُّفُ واضحاً مستقبحاً، كَمَا نجدُ مَقَامَةً أكسبتها الصَّنْعَة اللَّفْظِيَّة سحراً وجَمَالَاً، ولكنْ لا نجدُ مَقَامَةً تخلَّت عن الصَّنْعَةِ اللَّفْظِيَّةِ"[2]، وَكَأنِّي أرى أنَّ المَقَامَةَ بلا سجعٍ وجناسٍ أشبهَ بحديقةٍ جرداءَ خلتْ من كلِّ مَشَاهِدِ الْجَمَالِ، وفقدتْ كلَّ صورِ الْجَلَالِ.

إنَّ الْقَارِئَ اعتادَ فِيْ الْمَقَامَةِ أن يرى فنوناً وأفناناً، وبديعاً من شَتَّى الأَلْوَان، فلا يمكنُ أنْ تُقرأَ مَقَامَةٌ بلا ازدواجٍ وجناسٍ، أو سجعٍ واقتباسٍ، فالأَلْوَانُ البَدِيْعيَّةُ زينةُ كلِّ مَقَامَةٍ من المَقَامَاتِ، ورونقٌ، وجمالٌ يزيِّن ما شملته من مَوْضُوْعَاتٍ، وكأنِّي أرى المَقَامَةَ إذا خلتْ من البيانِ والبَدِيْعِ وصلت بين الفُنُوْنِ أدنى الدَّرجاتِ، وهبطتْ حَتَّى أصابتْ أحطَّ الدَّركاتِ. فذُفِنَتْ في المقابرِ معَ الأمواتِ، وكُتبَ لها الْخُلُودُ في سجل النِّيرانِ بما أكسبها كاتبُهَا من السَّيئاتِ.

أمَّا إذا تزيَّنتِ المَقَامَةُ بالمُحَسِّنَاتِ، وازدانتْ بفنونِ البَدِيْعِ المختاراتِ عَلَتْ فوقَ الهاماتِ، وتبوَّأتْ بين الفُنُوْنِ أمكنةً عالياتٍ، فغدتْ كالرَّاياتِ الخافقاتِ، وأصابتِ المجدَ في الوهادِ والرَّبواتِ، فأضحتْ كعقدِ الدُّرِّ في جيادِ الغيدِ والحسناواتِ، وكالَّتِيْجانِ المُرصَّعةِ بالجواهرِ واللآلئِ فوقَ رؤوسِ الحِسانِ، والملكاتِ.

---

[1] عوض، تاريخ الفكر المصريّ الحديث من الحملة الفرنسيَّة إلى عهد إسْمَاعِيْل، (ج215/2).

[2] أبو علي، نقد النَّثر في تراث العرب النَّقْديّ حتى نهاية العَصْر العباسيّ 656 هـ، (ص326).

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: أُدَبَاءُ فَنِّ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ

رَغْمَ الهجمةِ الشَّرسةِ عَلَى العَصْرِ العُثْمَانِيِّ من قِبَلِ بَعْضِ النُّقَّادِ، ورَغْمَ الظُّلمِ البيِّنِ لأدبِ هَذَا العَصْرِ، وَرَغْمَ الجَوْرِ الَّذِيْ وقع عَلَى أدبائه، إلا أنَّ عيونَ المنصفينَ لم تُغمَضْ، والألسنة العادلة لم تسكتْ، والْأَصْوَات المحبَّة للحقيقةِ لم تتوقفْ، فانبرى هَؤلاءِ للدِّفاعِ عن العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وردِّ كيدِ الظَّالمينَ، وَلَعَلَّ ظهورَ الأَسْمَاءِ اللامعةِ في سماءِ هَذَا العَصْرِ في فنونِ الأَدَب كَافَّةً، وَمِنْهُا المَقَامَة قد أسكتتْ ألسنةَ هَؤلاءِ، وردَّت كيدَهُمْ إِلَى نحورِهِمْ، فقد لمعتْ أسماء كثيرةٌ من كتَّاب المَقَامَة فكانتْ كالنُّجومِ في السَّمَاءِ، وأثبتتْ هذه الأَسْمَاءُ للجميعِ عدم موتِ الأَدَبِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ كَمَا ادَّعى أصحابُ الأقلامِ الجائرةِ، بل كتبتْ تلك الفُنُوْنُ تاريخاً ناصعاً، وحاضراً مشرقاً لِلْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ.

إنَّنا إذا تتبَّعنا أُدَبَاءَ فَنِّ المَقَامَاتِ، وتنقَّلنا بين إبداعاتهم، ندركُ مع كلِّ مَقَامَةٍ نقرأها مدى قيمةِ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وَإِذَا دقَّقنا النَّظرَ فِيْ تِلْكَ المَقَامَاتِ نؤمن لأوَّلِ وهلةٍ بعظمةِ هَذَا العَصْرِ أدبيَّاً، وَإِذَا عدنَا وأبحرنَا عميقاً في أسلوبِ المَقَامَاتِ نقفُ أمامَ عقليَّةٍ عربيَّةٍ فذَّةٍ حُقَّ لنا أن نفخرَ بروائعها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فالأَسْمَاءُ الَّتِيْ سَافَرتْ بعيداً في سماءِ المَقَامَةِ، بَلْ حلَّقتْ في الفضاءِ؛ لِتَرْسمَ أَرْوَعَ اللَّوْحَاتِ لِلْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ كَثِيْرةٌ لَا حَصْرَ لَهَا، ومن هذه الأَسْمَاء، نَاصِيْف اليَازْجِيّ، وأَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق، وشِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ، ومُحَمَّد بن مَيْمُون الجَزائريّ، وحسن العطار، وعبد الله الإدكاويّ، ونقولا التُّرك، وغيرهم كَثِيْر. أَمَّا أشهرُ أُدَبَاءِ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ فيمكنُ تناول تاريخهم عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

1- شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ (977-1069هـ/1569 ـ 1659م)

هو أَحْمَد بن مُحَمَّد بن عمر، شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ المصريّ، ونسبته إِلَى قبيلة خفاجة، ولد ونشأ بمصر، وقد نشأ في حجر أبيه فعلَّمه، واختلف إِلَى شيوخ الأزهر في زمنه، فتعلَّم النحو، وعُلُوْم العربية، والفقه الشَّافعيّ، كما درس الحَدِيْث، والتفسير، والأَدَب، والمنطق، والْأُصُوْلِ، ورحل مبكراً مع أبيه إِلَى حج بيت الله الحرام، وأخذ عن شيوخ الحرمين[1].

ورحل إِلَى بلاد الروم، واتَّصل بالسُّلْطَان مراد العُثْمَانِيّ فولاه قضاء سلانيك، ثم قضاء مصر، ثم عُزل عنها فرحل إِلَى الشَّام وحلب، ونفي إِلَى مصر، وولي قضاءً يعيش منه فاستقر إِلَى أن توفي، من أشهر كتبه (رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا)، و(شفاء الَعَلِّيل فيما في كلام

[1] يُنْظَر: الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (ج2/ 325- 332).

العرب من الدَّخيل)، و(شرح درَّة الغواص في أوهام الخواص للحريريّ)، و(طراز المجالس)، و(نسيم الرِّياض في شرح شفاء القاضي عياض)[1].

وفي أشهر كتبه (رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا) والَّذِيْ ختمه بعددٍ من المَقَامَات، إنْ دلَّتْ فَإِنَّما تدلُّ عَلَى علوِّ كعبه في صناعة المَقَامَة، وقد ذيَّل (مُحَمَّد أمين المحبيّ) كتاباً عَلَى كتاب الخَفَاجِيّ هو "نفحة الريحانة، ورشحة طلاء الحانة"[2]، يَقُوْلُ في (المَقَامَة الرُّوميَّة): "أنبأنا النُّعمان بن ماء السَّمَاء عن شقيق، وقد رحل من وادي العقيق في الحجاز إِلَى القسطنطينية، ويصفها بأن البحر قد مدَّ لعناقها ساعديه، بَيْنَمَا تقبل الْأَمْوَاج الْأَرْض بين يديه، ويصف من بها من الجوار الحسان والفرسان الشجعان، ثم يهاجم متصوفيها وعلماءها، ولا يلبث أن يكوي المفتي دون ذكر اسمه بسياط من الْهِجَاء المقذع، من مثل قوله لو قارنه السعد الأكبر إِلَى أعَلَى عليين، حَمَلَتْهُ بنات نعش إِلَى أسفل سافلين، أعمى البصيرة والبصر، عار عَلَى آدم أبي البشر، إِنَّما خلق اعتذاراً لإبليس في ترك السُّجود، وأنى يقبل له عذر وهو كفور جحود، وما أحسنه في زوال النعم، وأقبحه إذا قضى له الدَّهر وبدولته حكم".[3] ثم يختم المَقَامَة بمديح السُلطان العُثْمَانِيّ، ويذكر بعدها مقامة تسمى مقامة الغربة، وللرجل عدَّة مقامات كما قلت ذكرها في ختام كتابه (ريحانة الألبا)، ومن هذه المَقَامَات المَقَامَة الروميَّة نسبة إِلَى بلاد الروم، ودفع الكربة بسلوة الغربة، والمَقَامَة السَّاسانيَّة، والمَقَامَة المغربيَّة[4].

2- نَاصِيْف اليَازْجِيّ (1800-1871م)

هو نَاصِيْف بن عبد الله بن جنبلاط بن سعد اليَازْجِيّ، اللبنانيّ المولد، الحمصيّ الأصل. ولد في قرية كفر شيما من قرى الساحل اللبناني في 25 آذار سنة 1800م في أسرة اليَازْجِيّ الَّتِيْ نبغ كَثِيْر من أفرادها في الفكر والأَدَب.

نشأ نَاصِيْف ميَّالاً إِلَى الأَدَب والشعر، وأقبل عَلَى الدَّرس والمطالعة بنفسه، وتصفّح ما تصل إليه يده من كتب النحو، واللُّغَة، ودواوين الشُّعَرَاء، نظم الشعر وهو في العاشرة من عمره، ولم تكن الكُتُب المطبوعة ميسّرة في عصره، فكان جلّ اعتماده عَلَى كتب يستعيرها من المكتبات الخَاصَّةِ ، فمنها ما يقرأها مرة فيحفظ زبدتها، وَمِنْهُا ما ينسخها بخط يده.

---

[1] الزِّرِكْلِيّ، الْأَعْلَام، (ج177/3).

[2] المراديّ، سلك الدُّرر في أعيان القرن الثاني عشر، (ج86/4).

[3] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (ج325/2).

[4] يُنْظَر: المحبيّ، نفحة الرَّيحانة ورشحة طُلاء الحانة، (ج395/4-477).

بعد اكتمال شخصيته الثقافيَّة اتَّصل بالأمير بشير الشّهابي الكبير، أمير لبنان، فقرّبه إليه، وجعله كاتباً له، فلبث في خدمته اثنتي عشرة سنة، ولمَّا كَانَتْ سنة 1840م وهي السَّنَة الَّتِيْ خرج فيها الأمير بشير من لبنان إِلَى منفاه، انتقل نَاصِيْف اليَازْجِيّ بأهل بيته إِلَى بيروت، فأقام بها، وتفرغ للمطالعة، والتَّأليف، والتَّدريس، ونظم الشِّعر.

اتصلَ نَاصِيْف اليَازْجِيّ بالمرسلين الأميركيين يصحِّح مطبوعاتهم، ودعي للتعليم في المدرسة الوطنيَّة الَّتِيْ كان قد أسسها المعلم بطرس البستاني وَذَلِكَ عام 1863م، واشتغل معه بتصحيح الجزء الأوَّل من مُعْجَمه (محيط المحيط)، وشارك في أول ترجمة عربية للكتاب المقدس فِيْ الْعَصْرِ الْحَدِيْثِ، وصنَّف مَجْمُوْعَة من المؤلفات اللغويَّة التعليميَّة تعدُّ بدء بعث الُّلغَة العربية الفصحى فِيْ الْعَصْرِ الْحَدِيْثِ.

أصيبَ نَاصِيْف اليَازْجِيّ بمرضٍ عضالٍ سنة 1869م، تبعه شلل نصفيّ عطّل شطره الأيسر فلزم داره، وفي أثناء مرضه فجع بفقد ابنه البكر "الشَّيْخ حبيب"، وهو بعد في شرخ شبابه، فوقع عليه ذَلِكَ الحادث وقوع الصاعقة، ولم يعش بعد ذَلِكَ إلَّا أربعين يوماً، وكَانَتْ وفاته في 8 شباط (فبراير) سنة 1871م[1].

مؤلفاته: تَرَكَ نَاصِيْف اليَازْجِيّ مؤلَّفاتٍ متعدِّدةٍ شملتِ الصَّرفَ، والنَّحوَ، والبيانَ، والُّلغَةَ، والمنطقَ، والطِّبَ، والتاريخَ، كَمَا ترك ديواناً شعريَّاً متنوعَ الْمَوضُوْعات، ومراسلاتٍ شعريَّةٍ ونثريَّةٍ، أمَّا أهمُّ هذه المؤلفاتِ فهي كالآتي:

أولاً: (نار القرى في شرح جوف الفرا)، في الصَّرفِ، والنَّحْوِ.

ثانياً: (فصل الخطاب في أصول لغة الأعراب)، وهي رسالة في التَّوجيهات النَّحْويَّة.

ثالثاً: (عقد الجمان في علم البيان).

رابعاً: (ديوان نَاصِيْف اليَازْجِيّ).

خامساً: (مَجْمَع البَحْرَيْن) يشتمل هَذَا الكتاب عَلَى ستين مقامةً عَلَى غرار مقامات الحريريّ، وبَدِيع الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ. وتعدُّ من أهم نتاج اليَازْجِيّ، ومن نفائس المَقَامَات، وهذه المَقَامَات هي[1]:

1- المَقَامَة البدويَّة: تتضمَّن تعرُّف سهيل بالْخُزَامِيّ، وابنته وغلامه، وحيلة الْخُزَامِيّ مع اللصوص.

---

[1] يُنْظَر: الزِّركْلِيّ، الْأَعْلَام، (7/ 252، 253).

[1] يُنْظَر: اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، الفهرس (ص327- ص331).

2- المَقَامَة الحجازيَّة: تتضمَّن دعوى الْخُزَامِيّ أنه خطب لابنه، واحتياله بتحصيل المهر.

3- المَقَامَة العقيقيَّة: تتضمَّن قيام الْخُزَامِيّ خطيباً عَلَى جنازة.

4- المَقَامَة الشَّاميَّة: تتضمَّن دعوى الْخُزَامِيّ معرفة الطب، ومحاورته أحد حذاق الأطباء.

5- المَقَامَة الصَّعيديَّة: تتضمَّن ادِّعاءَ ابنة الْخُزَامِيّ أنَّه بعلها، وأنه غرّها بالغنى، واختصامهما عَلَى ذلك.

6- المَقَامَة الخزرجيَّة: وفيها أسماء المطاعم، والنيران، والساعات، والرياح برد العجوز، وخيل السِّباق.

7- المَقَامَة اليمنيَّة: تتضمَّن احتكام الْخُزَامِيّ ورجل عَلَى ناقةٍ استأجرها منه ثم مَحَل به، وحاول أخذ الناقة.

8- المَقَامَة البغداديَّة: و فيها مناداة ليلى في بيع اللبن، وإيراد مسائل نحويَّه.

9- المَقَامَة الحلبيَّة: تتضمَّن تعلق بعض الرجال بليلى، وتظاهر أبيها بأنه رجل فارسيّ، و احتيالهما عَلَى الرجل بسلب ماله.

10- المَقَامَة الكوفيَّة: وفيها محاورة في مسائل نحويَّة.

11- المَقَامَة العراقيَّة: وفيها الأبيات الَّتِيْ إذا طُرحت أنصافها صارت هجاءً، وذكر أبحر الشِّعر، وأجزائها، وأنواع القوافي، وما يتعلق بها.

12- المَقَامَة الأزهريَّة: وفيها الإلغاز بلفظي العَيْن والنون، ولغزٌ في اسم الصوت، وإيراد مسائل في العروض، والصَّرف.

13- المَقَامَة التَّغلبيَّة: وفيها أبيات الْهِجَاء الَّتِيْ تتحول بالتَّصْحيف مدحاً، وتعديد مشاهير العرب، وخيولها، وذكر أبياتها، وآنيتها، وأزلام المسير.

14- المَقَامَة الهزليَّة: تتضمَّن احتيال الْخُزَامِيّ وابنته عَلَى سهيل بدعوى أنها زوجته، وتخليه عنها بالطَّلاق بعد أن أخذ منه مهراً مضاعفاً.

15- المَقَامَة الرَّمليَّة: وفيها منظومات بديعيَّة من جناسات الخط.

16- المَقَامَة الصُّوريَّة: تتضمَّن تظلُّم ليلى إِلَى القاضي بأن أباها قد أقعدها عن الزواج، واحتيالهما عليه بتزويجها منه، ثم فرارها من الطَّرِيْق.

17- المَقَامَة الحكميَّة: تتضمَّن وصية الْخُزَامِيّ لغلامه، والْقَصِيْدَة الحكميَّة.

18- المَقَامَة الرَّجبيَّة: تتضمَّن خطبة الْخُزَامِيّ في زوال النعيم، وفيها بيتا المديح اللَّذان إذا عكست قراءتها أصبحت هجاءً.

19- المَقَامَة الخطيبيَّة: وفيها خطبة في مآثر العرب، وأرجوزةٌ في أيّام حروبهم.

20- المَقَامَة البصريَّة: وفيها الأبيات الَّتِيْ لا تستحيل بالانعكاس، والبيتان اللَّذان طردهما مديح، وعكسهما هجاء.

21- المَقَامَة الدِّمشقيّة: وفيها خلاصة الخلاصة، وهي أرجوزة مختصرة في علم النَّحو.

22- المَقَامَة السّروجيَّة: وفيها الوصية الَّتِيْ ظاهرها يخالف باطنها.

23- المَقَامَة الموصليَّة: تتضمَّن افتتان رجل بليلى، ونقده أباها المهر ثم انتقاض أبيها عليه، ودعواه عِنْدَ الاحتكام أنها امرأته.

24- المَقَامَة المعريَّة: تتضمَّن خطبة الْخُزَامِيّ عَلَى ضريح أبى العَلاء.

25- المَقَامَة التَّميميَّة: تتضمَّن إضلال الْخُزَامِيّ ناقته ثم احتياله عَلَى الَّذِيْ وجدها عِنْدَه بأن استأجرها منه، ورهنه سهيلاً.

26- المَقَامَة اللغزيَّة: تتضمَّن ألغازاً في مسميات شتَّي.

27- المَقَامَة السَّاحليَّة: تتضمَّن دعوى الْخُزَامِيّ عَلَى رجب أنه بدَّل قوافي أبيات له، فتحوَّل مديحها إلي الْهِجَاء.

28- المَقَامَة الفلكيَّة: وفيها ذكر الكواكب السيَّارة، والبروج، والْمَنَازِلِ، وغير ذلك من متعلقات الفلك.

29- المَقَامَة المصريَّة: تتضمَّن بيع الْخُزَامِيّ لرجب في صفة عبد، وفرار رجب من مشتريه.

30- المَقَامَة الطِّبيَّة: و فيها خطبة في الطِّب، ووصيَّة في حفظ الصِّحة، وإيراد مسائل طبيَّة.

31- المَقَامَة العبسيَّة: وفيها ذكر مآثر بني عبس.

32- المَقَامَة العاصميَّة: وفيها وصية الْخُزَامِيّ للدهقان.

33- المَقَامَة الرَّشيديَّة: تتضمَّن دعوى الْخُزَامِيّ أن ليلى زوجته، واختصامها.

34- المَقَامَة الأَدَبيَّة: وفيها ألغاز الْخُزَامِيّ في القلم، ووصيته لغلامه.

35- المَقَامَة الإنطاكيَّة: تتضمَّن مخاصمة ليلى للخزامي بدعوى أنها زوجها، وتزويجه إياها من القاضي بعد طلاقها ثم فرارها منه.

36- المَقَامَة الطَّائيَّة: وفيها ذكر مآثر الطَّائيين، ومسائل في فقه الُّلغَة.

37- المَقَامَة العدنيَّة: وفيها مآثر أهل اليمن، ودعوى الْخُزَامِيّ أنه اشتري رجباً، وقضى نصف ثمنه، وتسببه في النصف الباقي.

38- المَقَامَة الحميريَّة: وفيها مَبَاحِث لغويَّة، ومسائل شَتَّى في فقه الُّلغَة.

39- المَقَامَة الأنباريَّة: تتضمَّن دعوى ليلى علي رجلٍ أنه قتل أباها، ومجيئها بالْخُزَامِيّ، ورجب شاهدين عليه.

40- المَقَامَة الجدليَّة: وفيها مساجلة في التَّفضيل بين العلم والمال.

41- المَقَامَة التُّهاميَّة: وفيها خطبة في صلح، وسرد قيود الْأَصْوَات.

42- المَقَامَة المضريَّة: تتضمَّن دعوى الْخُزَامِيّ أن له سبيَّة يطلب فكاكها، وهو يعني الخمر.

43- المَقَامَة البحريَّة: وفيها خطبة في فرية لغة العرب، وإلقاء مسائل في النَّحو.

44- المَقَامَة الحليَّة: وفيها معمّيات، وأحاجى.

45- المَقَامَة الفراتيَّة: وفيها الْأَلْفَاظ الَّتِيْ تتنازعها الضاد والظاء.

46- المَقَامَة السُّخريَّة: وفيها اختصام الْخُزَامِيّ، ورجب.

47- المَقَامَة الرَّصافيَّة: وفيها ذكر ما يطلق علي الخيل، والإبل باعتبار الأسنان، والأَلْوَان.

48- المَقَامَة اللاذقيَّة: تتضمَّن خطبة الْخُزَامِيّ علي تلامذة بعض الشيوخ، والْقَصِيْدَة الَّتِيْ أعجازها هجاء.

49- المَقَامَة اللبنانيَّة: وفيها ذكر فروق لغوية، وقيود القطع، والكسر، والحصص.

50- المَقَامَة الحمويَّة: وفيها الخطبة الَّتِيْ ظاهرها منكر، وباطنها معروف.

51- المَقَامَة اليماميَّة: تتضمَّن مخاصمة الْخُزَامِيّ لرجب، ودعواه أنه أعجمي لا يحسن اللفظ العربي، والأبيات الَّتِيْ إذا جرت علي لفظ العجم أدَّت إلي معانٍ فظَّة.

52- المَقَامَة العُمانيَّة: وفيها قيود المساكن، والسّعة، والامتلاء، والخلاء.

53- المَقَامَة الغزّيَّة: تتضمَّن دعوى الْخُزَامِيّ علي رجل أنه قتل نديماً يريد به كتاباً، وجمعه الدّية من القوم.

54- المَقَامَة السِّواديَّة: وفيها مسائل في دقائق النحو، والصرف.

55- المَقَامَة الدِّمياطيَّة: تتضمَّن اختصام رجب وليلى عَلَى أنها امرأته، وتطليقه لها احتيالاً في تحصيل المهر.

56- المَقَامَة الإسكندريَّة: وفيها مسائل في الفقر، والبيان، والمنطق، ومطارحة أشياء من أحاجى العرب.

57- المَقَامَة النَّجديَّة: وفيها إيراد أشياء من غريب الُّلغَة، وقديمها.

58- المَقَامَة العكاظيَّة: وفيها قيود لغويَّة شَتَّى.

59- المَقَامَة المكيَّة: تتضمَّن حج الْخُزَامِيّ، وخطبته عَلَى الحُجاج.

60- الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة: تتضمَّن خطبة الْخُزَامِيّ في المسجد الأقصى، وتوبته.

3- ابن النَّقِيْب (1048-1081هـ)

هو عبد الرَّحمن بن مُحَمَّد بن كمال الدِّين مُحَمَّد، الحسينيّ، المعروف بابن النَّقِيْب، وابن حمزة، أو الحمزاويّ النَّقِيْب، ينتهي نسبه إِلَى الإمام عليّ بن أبي طالب، وعُرف بابن النَّقِيْب؛ لِأَنَّ أباه كان نقيب الأشراف في بلاد الشام، وكان عالماً محققاً ذا مكانة سياسيَّة واجتماعيَّة ودينيَّة.

ولدَ في دمشق، ونشأ ابن النَّقِيْب عَلَى يد والده، وتلقَّى منه عُلُوْمه الْأُوْلَى من الآداب، والشريعة وغيرهما، كما تلقَّى عَلَى غيره من علماء عصره، واستكمل الاطّلاع عَلَى مختلف أنواع العُلُوْم، وأتقن الفارسيَّة، والتركيَّة وهو ابن عشرين سنةً، ومال إِلَى الإنشاء، ونظم الشعر فبرع فيهما، حتى صار من أعلامهما، وقد وصف شعره بأنه كَثِيْر الصُّور، بعيد التَّشابيه، عجيب النّكات، ضمنه - كما كان يصنع الشُّعَرَاء في عصره - كَثِيْراً من المُعميَّات والألغاز، وكان في شعره يجمع بين جزالة اللَّفظ، وجمال التَّرْكيب، وغزارة الْمَعَانِي المستمدة من محفوظه الشعريّ، والنثريّ الكبير.

لابن النَّقِيْب ديوان شعر، له قصائد كَثِيْرة منها ملحمة غنائية في مئة وتسعة عشر بيتاً، جمع فيها أسماء أعلام الغناء القديم، وأسماء الملوك، وندمائهم، وجواريهم، وقيانهم، واقترب فيها من فلسفة عمر الخيام الشِّعريَّة، في ديوانه عددٌ من الموشحات أَيْضَاً. ويمكن لمتصفح ديوانه أنْ

يقف عَلَى عدد من الْأَغْرَاض الشِّعريَّة الَّتِيْ تناولها، وَمِنْهُا المدائح النَّبويَّة. وهَذَا الغرض قليل في شعره لم يرد في ديوانه منه سوى مقطوعتين شعريتين، ومن الْمَدْح عِنْدَه تناوله لشخصيات عصره الاجتماعيَّة والسِّيَاسِيَّة.

وتُعَدُّ المطارحاتُ، والحواريات الشِّعريَّةُ من الْأَغْرَاض الَّتِيْ تَطرَّقَ إِلَيْهَا ابن النَّقِيب، فله كَثِيْر من الْقَصَائِد المتبادلة بينه، وبين شعراء زمانه، كالأمير منجك الشَّاعِر، وَمِنْهُا ما كتبه أَيْضَاً إِلَى بعض الْأُدَبَاء، ورُبَّمَا تعدَّى ذلك إِلَى مطارحات خيالية رمزية في قصائد يخاطب فيها حمامةً، أو شحروراً، يضاف إِلَىْ ذَلِكَ حواريات نثريَّة شعريَّة طريفة مثل (نبعة الجنان)، و(حديقة الورد)، و(المَقَامَة الرَّبيعيَّة)، مما يستحق البحث والدِّرَاسَة .

ومنْ أغراضِ شعره وصف بعض أَنْمَاط الشَّخْصِيَّات الاجتماعيَّة الَّتِيْ كَانَتْ شائعة في عصره، بيد أنَّ أكثر وصفه كان لِلطَّبِيْعَة الدِّمشقيَّة السَّاحرة والَّتِيْ تنقل بريشته بين مَشَاهِدها، يَقُوْلُ متغنيَّاً بسحرها:

سَــقَى اللهُ أَيَامَــاً بِغُوطــةِ جِلّــق ... إِلَى أرضِـها الميثـاءِ مَسْرَى تفرُّجِـي

إِلَـى تِلعات السَفْحِ مـن قاسَيُونـها ... مـــدارجِ داريّ الصّـــبا المتـــأَرَج

إِلَـى مرجهـا الموشـي غبّ سَمَائِهِ ... إِلَى روضِها الأَحْوَى الأغنّ المدبّج[1]

وللغزلِ، والنَّسيبِ حظُّهُ الأوفرُ من شعره، فقد ملأ الحب، والشَّباب جسمه، ونحا شعر الْغَزَل عِنْدَه؛ ليعكس صورة نفسه اللاهية المطربة العابثة في بعض الأحيان. وفي شعره ذكرٌ للخمريَّات والغنائيَّات، ووصف للسَّاقي والنَّديم، وأحاديث عن الكأس والخمر، مبيِّناً فيها أن الطَّبِيْعَة الدِّمشقيَّة، وكثرة الحانات، وشعوره الدَّائم بالصِّبا والشَّباب، من أهم الْأَسْبَابِ الَّتِيْ دفعته إِلَى معاقرة الصَّهباء، عَلَى أنَّ الألغاز، والأحاجي من الْأَغْرَاض الَّتِيْ برع فيها الشَّاعِر، وقد أدرجها بعض المتأخرين في فنون البَدِيْع[2].

4- عبد الله السّويديّ (1104-1170هـ)

هو عبد الله بن الحسين بن مرعي بن ناصر الدين البغداديّ الشَّهير بالسّويديّ، ولد عام

---

[1] ابن النَّقيب، دِيْوَان ابن النَّقيب، (ص184).

[2] يُنْظَر: المحبيّ، نفحة الرَّيحانة ورشحة طُلاء الحانة، (ج2/533-548)، يُنْظَر: المحبيّ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، (ج2/390-404). يُنْظَر: الرِّكابي، الْأَدَب العربي من الانحدار إلى الازدهار، (ص194، ص195).

1104هـ ببغداد، طاف في كَثِيْر من البلدان ثم عاد إِلَى بغداد، له العديد من المؤلّفات النَّافعة، منها شرح دلائل الخيرات المُسَمَّى بأنفع الوسائل في شرح الدَّلائل، وألف متناً في الاستعارات سماها الجمانات، والمَقَامَة الْمَعْرُوفَة ضمنَّها الْأَمْثَال السَّائرة، ولمَّا رحل إِلَى مكة ألف لذلك رحلة سماها بالنَّفحة المسكيَّة في الرِّحْلَة المكيَّة...له شعر لطيف منه قوله في مليح صائغ:

وَشَـادِنٌ صَـائِغٌ هَـامَ الفُـؤَادُ بِـهِ وَحُبُّهُ فِيْ سُوَيْدَا القَلْبِ قَدْ رَسَخَا

يَاْ لَيْتَنِي كُنْتُ مُنْفَاخَاً عَلَى فِيْهِ حَتَّــى أُقَبِّــلَ فَــاهُ كُلَّمِــا نَفَخَــا

توفي في الحادي عشر من شوال1170هـ[1].

5- أَحْمَد البَرْبِيْر[2] (1160 -1226هـ) (1747 -1811م)

أَحْمَد البَرْبِيْر من أشهرِ أُدَبَاءِ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، ومن روَّاد فنِّ المَقَامَة فيه، جمع من العُلُوْم أهمها، فهو "سهم الْأَغْرَاض والأمانيّ، وكنانة البيان والْمَعَانِي، ذو الأَدَب الباهي الباهر، والأرب الزاهي الزاهر، والنفس الزَّكيَّة والأَخْلَاق المرضيَّة، من تستعذب النُّفوس نثره، وتستطيب نظمه وشعره، فلا ريب أنَّه العمدة الإمام، والنخبة القطب الهمام، الَّذِيْ ما رأى أحد مثله في مصر وشام"[3]. وهو الَعَلَّامة الْأَدِيْب، والشَّاعِر النَّاثر؛ أديب الفقهاء، وفقيه الْأُدَبَاء، الشَّيْخ شِهَاب الدِّين أبو العباس أَحْمَد بن عبداللطيف بن أَحْمَد بن مُحَمَّد البَرْبِيْر الحسني الشَّافعي البيروتيّ الأصل، الدمياطيّ المولد، الدمشقيّ وفاة.

ولدَ أَحْمَد البَرْبِيْر في مدينة دمياط، وتوفي في دمشق، دفن بسفح جبل قاسيون بجوار محي الدين بن عربي. تنقَّل بين عدد من المدن فكَانَتْ حياته رحلة بين دمياط، وبيروت، وطرابلس الشام، ودمشق، ومكة المكرَّمة، والمدينة المنوَّرة، ومدن عربية أُخْرَى.

تُجْمِعُ كتبُ التَّراجم عَلَى أنَّ الشَّيْخ أَحْمَد عبد اللطيف البَرْبِيْر، الشاميّ البيروتيّ، هو أحد أعلام الْأُدَبَاء اللبنانيين في القرن الثَّامن عشر. جمع في شخصيته وجوهاً متعدِّدة، ومؤتلفة في آنٍ معاً؛ فكان القاضي والفقيه والشَّاعِر والْأَدِيْب. عرف بخدمة العلمِ تأليفاً وتدريساً، كما تسلَّم مسؤولية الْقَضَاء، والإفتاء في مجلس الأمير يوسف الشِّهابيِّ الَّذِيْ عرض عليه هَذَا المنصب

---

[1] يُنْظَر، المراديّ، سلك الدُّرر، (ج3/84، 85).

[2] البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، (ج3/ 217، 218).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ج3/ 217.

في بيروت الَّتِيْ كَانَتْ في جملة عمالته الإدارية، فقبله بشروط ثلاثة التزم بها الأمير؛ كي لا يحرم هذه الحاضرة كفاءات عالم كبير.

اشتهر أَحْمَد البَرْبِيْر بالنّصفة، وحسن الآداب، وخشية الظُّلم، والتحامل، والانصراف إِلَى التماس العدل، ونصرة المظلوم. شغف بفنون العربية، فتضلَّع فيها، لاسيَّما الُّلغَة، والفقه، والمنطق. ترك مؤلفات نفيسة لم يطبع إلا القليل، منها (الشَّرح الجليّ عَلَى بيتي الموصلي طبع عام 1884م)، و(مقامة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء طبعت عام1882م)، وتشتت معظمها (11 مخطوطاً) في مكتبات الشَّرق والغرب. له ديوان شعر جمعه البَاْحِث عمر الصقعان الأنسي (مخطوط). في ديباجته تماسك مميَّز، وعبارته قويَّة، يدلُّ شعره عَلَى إعماله فكره ورويته في تعبيره، فهو عَلَى درجة من التميّز إذا قورن بشعراء جيله.

تلقَّى عُلُوْمه الْأُوْلَى في العربية والفقه، وحفظ الْقُرْآن الْكَرِيْم في بيروت، كما استظهر في سن مبكرة (ألفية ابن مالك). تفقَّه عَلَى أيدي اساتذة، ومشايخ أجلَّاء (الشَّيْخ عبد الحي فتح الله البيروتي) في الفقه والحَدِيْث والأَدَب. وقرأ الَعَلَّم عَلَى مشايخ عصره، الشَّيْخ مُحَمَّد مرتضى الزبيدي شارح (الأحياء) و(القاموس). ارتحل إِلَى بيروت في عام 1769م لطلب الَعَلَّم. ثم تركها إِلَى دمشق ليغادرها بعد فترة إِلَى بيروت لدى قدوم مُحَمَّد أبو الذهب فاتحاً.

وفي بيروت، وُلِّي الْقَضَاء مدة طويلة، ثم تركه وغادر إِلَى دمشق هرباً من أجواء القلق والاضطراب الَّتِيْ سادت الثُّغور آنذاك. ونتوقف عِنْدَ إقَامَته البيروتيَّة الَّتِيْ تركت آثاراً سلبية في مسيرة حياته. فقد قصد موطن آبائه وأجداده رغبة في طلب الَعَلَّم عَلَى يد شيوخه. فألفاهم دون المستوى فخاب أمله. كما رغب في الاستقرار العائلي، فتزوَّج ولكن زواجه مني بالفشل. ولهذه الغاية نظم شعراً ساخطاً عبر فيه عن انزعاجه من سوء الإقامة، والمتاعب العائليَّة. وقد اتَّخذ الشعر في حياته مكانة ملحوظة؛ إذ توسله أداة بليغة، وفاعلة للتَّعْبِير عن شكواه، وظلامته، أو للاعتذار عن المضي في تحمُّل المسؤوليَّة، أو لتقريظ عالمٍ كبيرٍ، أو لإظهار النَّدم عَلَى تركه موطنه الأصلي.

في دمشق، لاذ بحمى الشَّيْخ خليل المراديِّ مفتي الشام ونقيب أشرافها. فأنزله في داره وأحسن وفادته. وبعد استقراره في عاصمة الأمويين، جرَّب حظَّه مجدداً في الزَّواج، لكنَّه لم يُوفَّق أَيْضَاً، وبقي عقيماً من أيِّ ولد. وفي المقابل، أتيح له أن يتَّصل بمختلف الشَّرائح الاجتماعيَّة، والأَدَبيَّة في المجتمعِ الدمشقيِّ. فتبادل وأعلامهم النشاطات الفكريَّةَ والأَدَبيَّةَ، وارتبط معهم بوشائجَ عميقةٍ، بدت آثارها في كتابه (الشَّرح الجلي). كما التقى شيوخاً أصابوا معرفة

وثقافة لغويَّة، ودينيَّة. فتتلمذ عليهم، أو نال إجازاتهم في بعض العُلُوْم والفُنُوْن. وقد تسنَّى له أن يجتمع بهذه النُّخب سَوَاء في بيت مضيفه الشَّيْخ المرادي، أو في مجالس الوجيه الدّمشقيّ مُحَمَّد علي باشا العظم الَّذِيْ كان يختلف أَيْضَاً إِلَى مكتبته الغنية. ومن جملة هَؤلاءِ نذكر محدثي دمشق: الشَّيْخ مُحَمَّد الكزبري، والشَّيْخ أَحْمَد العطار. وفي المقابل، فإن مجالس الشَّيْخ البَرْبِيْر، في بيروت ودمشق، استقطبت طالبي العلم، والرَّاغبين في اكتساب أسباب المعرفة والثَّقَافَة؛ لذا قصده العديد من الطلاب والمريدين في بيته، أو في مكتبه، للنهل من غزير أدبه، ووافر عُلُوْمه الشرعيَّة. وقد تخرَّج بعضهم عليه، واستجازه بعض آخر منهم، وفي مقدمتهم الشَّيْخ عبد اللطيف فتح الله، الَّذِيْ شغل منصب الإفتاء في بيروت لفترةٍ طويلةٍ، وغلب عليه لقب (المفتي)، والشَّيْخ أَحْمَد الأغرّ الَّذِيْ تولى أَيْضَاً منصب إفتاء بيروت. والشَّيْخ أَحْمَد البَرْبِيْر عالم جليل، وشخصيَّة مرموقة تشكِّل أنموذجاً لمظاهر الاحتكاك الفكريّ، والدِّينيّ الَّذِيْ تواصل بين أعلام مصر، وبلاد الشام في القرن الثامن عشر. عرفته مختلف الحواضر العربية شيخاً فقيهاً، ومحدثاً، بليغاً، وشَاعِرَاً، ومعلماً، تميَّز بجرأةٍ أدبيةٍ أهَّلته لفرض شروط العالم عَلَى الحاكم. فكان له ما أراد[1].

وبكلمة، فخيبات الْأَمَل، عَلَى تنوُّعها، لم تقعدِ الشَّيْخ البَرْبِيْر عن طلب الَعَلَّم والتقوى عَلَى مشايخَ أَجِلَّاءَ. كَمَا أَنَّ عثرات الزمان، وتقلُّبات الأحوال لم تحل دونه، وأداء مهامه في نشر الدعوة، وخدمة رسالة الدين، ورفع لواء المعرفة. فصرف أيامه عَلَى أمور جليلة أهم من حياته، توفي الشَّيْخ أَحْمَد البَرْبِيْر – رحمه الله – في السَّابع عشر من ذي الحجة ختام سنة 1226هـ. وقد رثاه تلميذه ، مفتي بيروت الشَّيْخ عبد اللطيف فتح الله، بِقَوْلِهِ:

مَـا للحَمَـائِم لَا تَكَـادْ تطيـرُ؟ مَـا لِلْأَرَاضِـي بِالْأَنَـامِ تَمُـوْرُ؟
مَـا للجِبَـالِ الشَّـامِخَاتِ تَدَكْـدَكَتْ، وَأُبُـو قُبَـيْسٍ قَـدْ هَـوَى وثبيـرُ
مَـاْ لِلنُّفُـوْسِ تكـادُ تُزْهَـقُ لَوْعَـةً، وَلَهَـا شَـهِيْقٌ قَـدْ عَـلَا وَزَفِيْـرُ
مَـاْ لِلْعُيُـونِ دُمُوْعُهَـا مَصْـبُوبَةٌ مِثْلُ الـدِّمَاءِ عَلَـى الْخُـدُوْدِ تَسِيْرُ
فَكَأَنَّهَـا، حُمْـرَاً، وَسُـوْدَاً، أَحْـرُفٌ لَكَنَّهَـا فَـوْقَ الخُـدُوْدِ سُـطُوْرُ
مَـاْ بَـالُ قَلْبِـي قَدْ تَلَهَّبَ حُرْقَـةً؟.. مِنْ أَيْنَ فِيْـهِ جَهَنَّم وسَعِيْرُ؟..[2]

---

[1] يُنْظَر: البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، (ج3/ 217، 218).

[2] فتح الله، دِيْوَان عبد اللطيف فتح الله، (ج375/1).

وَعَوْدَةٌ إِلَى أهمِّ أعمال أَحْمَد البَرْبِيْر، وهي (مقامة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، يبدعُ قَائِلَاً: "حمداً لمن خلق العَنَاْصِر، وجعل لكل منها فضلاً تعقد عليه العَنَاْصِر، وصلاةً وسلاماً عَلَى الجوهر الفرد الَّذِيْ منه عرض العالم، ومن هو في الدَّارين سيد بني آدم، وعَلَى آله وصحبه، ومن تعلَّق بحبه، ما اكتحلت عيون الطروس بمراود الأقلام، وقلدت نحو الدُّروس بعقود ألفاظ العُلَمَاْء الأعلام. وبعد فإن الفكر والْخَيَال، دخلا بي إِلَى رياض ضاع زهرها فنّم عليه النسيم، ودار عليه الماء الزلال، أكلها دائم وظلها، كأنَّما قابلت مرآتها جنة النعيم فانطبع فيها مثالها وشكلها، فتلقتنا عوديات طيورها بالصدح، ومجامر كمائم ورودها بالنفح، وزهرها بثغر باسم، ونهرها بقلب صافي، وأدواحها ببسط بساط البسط من ظلها الضَّافي، وقَامَت لنا الأشجار عَلَى سوقها، وسفرت لنا عرائس الورود عن لثام غبوقها، وحيَّتْنا راحة الراحة والسرور، بأصابع المنثور، وغنت لنا مُطَوَّقات شواديها عَلَى العيدان، وأعربت وهي عجماء بفنون تمايلت لها قدود الأفنان، حتى لو سمعها ركب العشَّاق عَلَى النَّوى لنسي الحجاز والعراق، وتمنَّى الدخول لذلك البستان، ورقصت بين أيدينا جواري الماء، وظهرت مع وجود شموسنا، وبدورنا نجوم النَّبات حتى ظنناهم نجوم السَّمَاء، ولاح لنا عرض الغيث وشارب الآس فأذكرنا العيش السَّالف، وطاف النسيم بكعبة صفانا طواف القدوم فما كان ألطفَ ذَلِكَ الطَّائف"[1].

6- مُحَمَّد المُبَارَك (1263-1330هـ/1847-1912م)

هو مُحَمَّد بن مُحَمَّد المُبَارَك المغربيّ الجزائريّ الدَّلسيّ الحسنيّ المالكيّ الدِّمشقيّ، أديبٌ لغويّ صوفيّ، ولد ببيروت، وتعلَّم بدمشق، وتوفي سنة 1330هـ، ودفن في المزة بظاهر دمشق، نبغ في اللُّغَة والأَدَب، وبرع في المُنَاظَرَات، والمحاضرات، والمساجلات، تخرج عَلَى يده كَثِيْر من الْأُدَبَاء والبُلَغَاْء، أبدع صاحب (حلية البشر) في وصفه قَائِلَاً: "كعبة الأفراد الآتي من الإِبْدَاع بما أراد، والنَّاظم لمنثور الأَدَب، والرَّاقم في كتاب دلائله عَلَى فضائله ما يقضي له بأسمى الرُّتب، ولد سنة ثلاثٍ وستين ومائتين وألف، وقرأ عَلَى السَّادة الأفاضل، ذوي الفضائل والفواضل، إِلَى أن برق وفاق، واشتهر في الآفاق، وأتى من المنظوم، والمنثور بما يدهش العُقُوْل، ويشرح الصُّدور"[2].

---

[1] البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، (ج3/ 218-220). مراود: جمع مِرْود: وهو الميل من الزجاج أو المعدن يُكتحل به. ضاعت الرائحة: طابت وفاحت. نجوم: جمع نجم، وهو ما لا ساق له من النبات.

[2] المَرْجِع السَّابق، ج3/ 1355.

ومن أعماله مَجْمُوْعَة المَقَامَات الَّتِيْ نظمها، وَمِنْهُا: (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، و(نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْل وَالنَّهَار)، و(أَبْهَى مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين الغُرْبَة وَالإِقَامَة)، و(المَقَامَة اللغزيَّة) (مخطوطة)، و(المَقَامَات العشر لطلبة العَصْر) (مخطوطة).

كَانَتْ وفاته يوم الثلاثاء في 5 جمادي الثَّانِية سنة 1330هـ في الصالحيَّة، وأوصى أن تحمل جنازته بلا عمامة ولا غطاء، وصُلي عليه في الجامع السُّليمي في الصالحيَّة، ودُفن في سفح قاسيون في المقبرة المنسوبة لذي الكفل عَلَيْهِ السَّلَام.

وفي مقامة (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء) يبدع المُبَارَك في المناظرة، يَقُوْلُ عَلَى لسان السَّمَاء: "﴿ نَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: ٦١] ، ومنح أشرف البشر إليَّ عروجاً، وقدَّمني في الذِّكر في محكم الذِّكر، وشرفني بحسن القسم، وأتحفني بأوفر القِسَم، وقدَّسني من النقائض والعيوب، وأطلعني عَلَى الغوامض والغيوب، فأنا المُنزَّه عن كل دنسٍ ووصمة، وجندي هم الرَّافلون في حِلَل الحفظ والعصمة، وبقاعي لم يعصَ الله عليها، ولم تنسب سيئة مَدَى الدَّهْرِ إِلَيْهَا، فلا يدخل حرمي شيطان، وليس له عَلَى أهلي سلطان، وإن استرق السَّمع مني، ليروي بعض الأخبار عني، قذفتُهُ بشهاب ثاقب، وألقيته في عذابٍ واصبٍ"[1].

7- نقولا التُّرك (1176-1244هـ/1763-1828م)

هو نقولا بن يوسف التُّرك الإسطنبوليّ، شاعر له عناية بالتَّاريخ، أصله من بلاد التُّرك من أسرة يونانية، ومولده ووفاته في دير الْقَمَر في لبنان. سَافَر إِلَى مصر، واسْتَخْدَمَ كاتباً في حملة نابليون الأول، وعاد إِلَى لبنان فخدم الأمير بشير الشّهابي، وله في مدحه قصائد. وعمي في أواخر أعوامه، فكان يملي ما ينظمه عَلَى ابنته وردة.

عمل نقولا التُّرك في خدمة الأمير بشير الكبير، فكان شاعره، ونديمه، وكاتبه المقرب، ومعلم أولاده في نهاية القرن الثَّامن عشر. وبعد حين من الزَّمن، وبتكليف من الأمير بشير الثَّانِي، سَافَر نقولا الترك إِلَى دمياط ليراقب عن كثب تطورات الْأَحْدَاث السِّيَاسِيَّة العسكريَّة الناجمة عن الحملة البونابرتيَّة عَلَى مصر، وليرسل تقارير بشأنها إِلَى سيده في لبنان، بقى التُّرك في مصر حتى سنة 1804م واضعاً مصنفات تاريخيَّة عيانيَّة عدَّها جرجي زيدان من أهم ما ألف في التاريخ عن تاريخ الاحتلال الفرنسيِّ، وقد نسب جرجي زيدان إِلَى نقولا التُّرك تاريخاً آخر هو: (تاريخ أَحْمَد باشا الجزار). ومن مؤلفاته التَّاريخيَّة كتابان: أحدهما في حوادث حرب

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص88).

فرنسا والنَّمسا سنة 1815م، طبع في باريس سنة 1817م، والآخر (نزهة الزمان في حوادث لبنان) في تاريخ الْأُمَرَاء الشّهابيين، منه نسخة خطيَّة في باريس، ويعتقد زيدان أنَّ الكتاب الأخير هو القسم الثَّانِي من (تاريخ حيدر الشّهابيّ) المؤلف من ثلاثةِ أقسامٍ.

وعلاوة عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ نقولا التُّرك كان شَاعِرَاً وأديباً، نبغ في قصر الأمير بشير، وخلَّف لنا ديواناً مخطوطاً. من المعروف أنَّ هُنَاْكَ ست نسخٍ مخطوطةٍ من ديوانه أقدمها مخطوط سنة 1858م، الَّذِيْ يضمُّ الأبواب الآتية: قصائد عامة، قصائد هزلية ساخرة، المدائح المكرسة للأمير بشير وقصره، ومزامير النَّبي داود، وإحدى عشرة مقامةً، ومدائح الشَّيْخ بشير جنبلاط، ويعدُّ الديوان من أوثق الْمَصَادِر فِيْ تِلْكَ الْفَتْرَة من تاريخ لبنان. يصوِّر التُّرك في أشعاره الحَيَاْة اليومية لسيده الأمير بشير، ويقدِّم لنا أدقَّ التَّفاصيل عن صفاته الشَّخصيَّة، وحملاته العسكريَّة، ومعاركه، وأخلاقه، وسجاياه (عدله، وشجاعته، بره وإحسانه، أعماله الإنشائيَّة، والعمرانيَّة).

لقد أجاد التُّرك أَيَّمَا إجادةٍ في وصفِ الحَيَاْة البائسة، والعمل الشَّاق الَّذِيْ يقوم به الجبليون اللبنانيون، فيقدم تفسيراً لأمور الكون، والمصير، والمجتمع، والْإِنْسَان مِنْ خِلَالِ تجاربه وعواطفه. وقد شعر نقولا التُّرك في أنه صاحب رسالة في إرشاد الناس إِلَى خيرهم، وغرس روح التفاؤل في نفوسهم دون مبالاة بالتنميق، والزَّخرفة، والتَّزيين؛ لأن الغاية أسمى من ذلك وأكبر، وكَانَتْ مقاماته قد نشرها إِبْرَاهِيْم صادر ضمن كتاب (حكايا عن عالية) مختلفة في المضمون عن مقامات نَاصِيْف اليَازْجِيّ، الَّذِيْ تردَّد أَيْضَاً عَلَى قصر الأمير بشير الثَّانِي مادحاً إياه في منظوماته الْمَعْرُوفَة باسم (المحبوكات الشهابية)؛ إذ تركت أثراً بالغاً في الجيل الصاعد من الشُّعَرَاء الشباب. داعيةً إياهم للإسهام في عمليَّة تجديد الأَدَب العربيِّ، وترويجه بين أبناء الشَّعب.

وَيُعَدُّ نقولا التُّرك من شعراء المناسبات، نظم في عددٍ من أغراض الشِّعْر كالرِّثاء، والْمَدْح، والوَصْف، والْغَزَل، والْهِجَاء، وله بعض الموشَّحات، جاءت بعض قصائده وصفًا للبيئة الأرستقراطيَّة في المجتمع اللبنانيّ، وبعضها سجلاً تاريخيًاً لعددٍ من أحداث عصره في إطار من المحافظة عَلَى النَّهج الخليليّ، واللُّغَة التُّرَاثيَّة، والحرص الواضح عَلَى البَدِيْع.

والَّذِيْ يهمنا أنَّ للتُّرك عَدَدَاً من المَقَامَات المخطوطة (إحدى عشرة مقامة نشرت المَقَامَة الديريَّة منها في كتاب: الآداب العربية)، و(مجموع حوادث الحرب الْوَاقِعة بين الفرنساويَّة والنمساويَّة)، و(تملك جمهور الفرنساويَّة الأقطار المصريَّة والبلاد الشَّاميَّة)[1].

---

[1] يُنْظَر: الزِّركْلِيّ، الْأَعْلَام، (ج8/ 46، 47).

8- الشِّهاب الأَلُوسِيّ (1217-1270هـ/1802-1854م)

شِهَاب الدِّين محمود بن عبد الله الحسيني فقيه، ومفسِّر، ومحدِّث. ولد في بغداد، وتلقَّى العُلُوْم عَلَى شيوخ عصره، وكان شديد الحرص عَلَى التَّعلم، ذكيًّاً فطنًا، لا يكاد ينسى شَيْئَاً سمعه، حتى صار إمام عصره بلا منازع. اشتغل بالتَّأليف، والتَّدْرِيس في سن مبكِّرة، فذاع صيته وكثر تلاميذه، تولى منصب الإفتاء، وبقي فيه حتى سنة 1263هـ[1].

يرجع نسبه إِلَى مدينة (آلوس) وهي جزيرة في وسط نهر الفرات في محافظة الأنبار، حَيْثُ فَرَّ إِلَيْهَا جدُّ هذه الأسرة من وجه هولاكو التَّتري عِنْدَما دهم بغداد فَنُسِبَ إِلَيْهَا.

قام ابن الأَلُوسِيّ بعدَّة زياراتٍ علميَّةٍ إِلَى الآستانة وغيرها. له عدة كتب قيِّمة، أبرزها تفسيره الكبير (روح الْمَعَانِي في تفسير القرآن الْعَظِيم والسَّبع المثاني) الَّذِيْ استغرق تأليفه خمس عشرة سنة، ويُعدُّ هَذَا التفسير موسوعة كبيرة جمع فيه الأَلُوسِيّ خلاصة علم المتقدمين في التَّفسير، وقد ذكر فيه بعض إشارات الصُّوفية في التَّفسير، وله مقامات في التَّصوف والأَخْلَاق، عارض بها مقامات الزَّمخشريّ، توفي الأَلُوسِيّ في ذي القعدة في بغداد ودُفن فيها[2].

من أهمِّ مؤلفاته، (روح الْمَعَانِي في تفسير القران الْعَظِيم والسَّبع المثاني)، و(نشوة الشُّمول في السَّفر إِلَى إسلامبول)، وهو عن رحلته إِلَى الآستانة، (نشوة المدام في العودة إِلَى دار السَّلام)، (غرائب الاغتراب)، (البرهان في اطاعة السُّلطان)، (الطِّراز المُذَهَّب في شرح قصيدة الباز الأشهب)، و(مقامات الأَلُوسِيّ)، وهي في التَّصوف والأَدَب والأَخْلَاق، وهي: (زَجْر الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ)، (في قطف الزَّهر من روض الصَّبر)، (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، وهي وصيَّةٌ لأبنائه، (المَقَامَة الْخَيَاليَّة)، (الاَهْوَالُ مِنَ الأخوال)، و(سجع الْقَمَريَّة في ربع الْقَمَريَّة). ومن أشعاره:

وَإِنِّي مَلَلْتُ السَّجْعَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ ... لِمُعْظَمِ أَهْلِ الرُّوْمِ قَدْ كَسَدَ السَّجْعُ

وَكَمْ فِقْرَة قَدْ أَحْكَمَتْهَا قَرِيْحَتِيْ ... تَلَوْت بِأَرْجَاهَا فَمَـــا سَاغَهَا سَمْعُ

توفي أبو الثناء الأَلُوسِيّ في بغداد في 25 ذو القعدة 1270هـ، وقد أرَّخ وفاته الإمام الْأَدِيْب الشَّيْخ عبد الباقي أفندي العمريّ بِقَوْلِهِ:

---

[1] يُنْظَر: الزِّرِكْلِيّ، الْأَعْلَام، (ج7/ 176).

[2] يُنْظَر: المَرْجِع السَّابِق، ج7/ 176.

قَبْرٌ قَدْ تَوَارَى بِهِ خَيْرُ مَفْقُودِ	فَاغْتَمَّ حُزْنَاً عَلَيْهِ كُلُّ مَوْجُودِ
أَبُو الثَّنَاء شِهَاب الدِّيْنِ فِيْهِ	فَيَا لِمَثْوَى يَرْفِدُ الفَضْل بِمَرْفُودِ
كَجَدِّهِ كَانِ سَيْفَاً يُسْتَضَاءُ بِهِ	فَحَازَ فِيْ الرُّشْدِ حَدَّاً غَيْرَ مَحْدُوْدِ
مَضَى تَغَمَّدّهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ	فليفتخر لحده فيه بِمَغْمُودِ
مِنْ بَعْدِهِ لَاْ فَقَدْنَا مِنْ بَنِيْهِ فَتَىً	لَمْ يَبْكِ مَيتَاً وَلَمْ يَفْرَحْ بِمَوْلُوْدِ

ودفن في مقبرة الشَّيْخ معروف الكرخيّ، وقبره مشهور يزار، وبلغ عمره نحو ثلاث وخمسين سنة[1].

9- أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق (1219-1305هـ/1882-1948م)

هو أَحْمَد فَارِس بن يوسف بن يعقوب بن منصور بن جعفر شقيق بطرس المُلقَّب بالشِّدْيَاق، من أوائل الأفذاذ الَّذِيْن اضطلعوا برسالة التَّثقيف، والتَّوجيه، والتَّنوير، والإصلاح في القرن التاسع عشر، غير أنَّ معظم الدِّرَاسَات الَّتِيْ تناولته عنيت بالجَانِب اللغويّ والأَدَبيّ، وأهملت الجَانِب الإصلاحيّ، ولم ينل ما ناله معاصروه من الاهتمام من أمثال نَاصِيْف اليَازْجِيّ (1800-1871م)، ورفاعة الطَّهطاويّ (1801-1873م)، وعبد القادر الجزائري (1807-1883م). صحفي لبناني كان يصدر صحيفة الجوائب في إسطنبول. يُعَدُّ من ألمع الرَّحالة العرب الَّذِيْن سَافَروا إِلَى أوروبا خلال القرن التَّاسع عشر. كان الْأَدِيْب، والصَّحفيّ، واللغويّ، والمترجم الَّذِيْ أصدر أول صحيفة عربيَّة مستقلة بعنوان (الجوائب)، مثقفاً لامعاً، وعقلاً صداميَّاً مناوشاً أَيْضَاً[2].

لقد كان الشِّدْيَاق مارونيَّاً بالولادة، وتحوَّل أكثر من مرة في أكثر من طائفةٍ في المسيحيَّة إِلَى أن استقرَّ عَلَى الإسلام، عاش في إنجلترا ومالطة، ورحل أَيْضَاً إِلَى فرنسا، يعدُّ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق أحد أهم الإصلاحيين العرب في عهد (مُحَمَّد علي)، وله منهجه الإصلاحيّ الخفيّ الَّذِيْ يبدو فيه أنه فضَّل التوريَّة، والتَّرميز عَلَى الَّتصريح، والإشهار؛ وَذَلِكَ لما كان يحويه منهجه من انتقادات لاذعة للقيادات الرَّجعيَّة، ولخوفه من أن يُدان من قبلها، أو تحرق أعماله، ويظهر هَذَا في كتابه (السَّاق عَلَى السَّاق فيما هو الفَارْيَاق)، وقيل إنَّ الطَّبعة الْأُوْلَى منه صدرت بباريس سنة 1855م. وقد أَلَّف الشِّدْيَاق كتابه من باب تقليد سابقيه من المؤلِّفين، إذْ

---

[1] يُنْظَر: البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثَّالث عشر، (ج3/1450-1455).

[2] يُنْظَر: الزِّركْلِيّ، الْأَعْلَام، (ج193/1).

يَقُوْلُ: "قلت في نفسي لا بأس أن أقفو القوم الَّذِيْن بيَّضوا وجوههم بتسويد الطروس... [1]، كما يشير في مقدمة الكتاب إِلَى أن كل مادة الكتاب مبنيَّة عَلَى أمرين أحدهما، إبراز غرائب اللُّغَة ونوادرها، والأمر الثَّانِي ذكر محامد النِّساء ومذامّهن"[2].

وعودة إِلَى فارس المَقَامَة العُثْمَانِيّة الشِّدْيَاق، فقد "كتب زيادة عَلَى مقامة (نطق السِّيط بالدُّرر واليواقيت) الَّتِيْ تنسب إليه في مدح الأمير بشير الشهابيّ، والمَقَامَة الأنفيَّة، والمَقَامَة البخشيشيَّة، أربع مقامات جعلها فُصُوْلاً من فُصُوْل كتابه السَّاق، ويعود سبب هَذَا التَّضمين الَّذِيْ خالف به كتَّاب المَقَامَة إِلَى أنَّ الشِّدْيَاق بنى كتابه السَّاق عَلَى اللُّغَة، والمَقَامَة هي نتاج طبيعي لتعليم اللُّغَة كما هو معروف عن ابن دريد. ثم صارت نتاجاً أدبيًّاً عِنْدَ بَدِيع الزَّمَان ومن تلاه"[3].

ويتفرَّد أَحْمد فارِس الشِّدْيَاق عن غيره من كتّاب المَقَامَة فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيّ، عَلَى أن أعظم ميزة امتاز بها الشِّدْيَاق فِيْ مَقَامَاتِهِ دون مقاميي عصره تتجسَّم في إخضاع "نصوصه لروح العَصْر، وللمَوْضُوْعَات الاجتماعيَّة، والنَّهضيَّة في أدب القرن التاسع عشر، والعدول بها عن طور التقليد كما فعل نَاصِيْف اليَازْجِيّ الَّذِيْ كان دون الشِّدْيَاق نضجاً في مَجْمَع البَحْرَيْن إِلَى طورٍ آخر فيه من التَّجديد ما يعدُّ تطويراً لفن المَقَامَة الْعَرَبِيَّة، وهَكَذَا كَانَتْ طرافة الشِّدْيَاق أوضح خصوصاً في نقده الدِّينيِّ، والاجتماعيِّ، ومحاولته تحطيم شكل المَقَامَة"[4].

ويُمْكِنُ الْقَوْلُ إنَّ الشِّدْيَاق لمَّا تمرَّد عَلَى شكل المَقَامَة، فقد جنى عليها، وجعله يقترب شَيْئَاً فشَيْئَاً من فن الْقِصَّة القصيرة، فيذوب فيها ذوباناً سَوَاء أكان ذلك عن طريق ترجمة القصص الأجنبيَّة، أم بالفُصُوْل القصصيَّة في كتابه السَّاق عَلَى السَّاق، أم بالفُصُوْل الَّتِيْ نشرها في (الجوائب)[5] بعنوان (جمل أدبيَّة).

---

[1] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق فيما هو الفارياق، (ص15). الطّروس: جمع طِرْس، وهي الصَّحيفة، الصَّحَاح، (ج943/3)، مادة (طرس).

[2] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص 5).

[3] المطويّ، أحمد فارس الشِّدْيَاق، حياته وآثاره وآراؤه في النَّهضة الْعَرَبِيَّة الحديثة، (ج401/1، 402).

[4] المَرْجِع السَّابِق، ج401/1.

[5] الجوانب: هي صحيفة أسبوعية سياسية برزت في الآستانة بتاريخ 1860م لمنشئها أحمد فارس الشِّدْيَاق اللبناني الذي كان ينشرها في المطبعة السلطانية. ومنذ السنة العاشرة أنشأ أحمد فارس مطبعة خاصةٍ بها، وجهزها بكل أدوات فن الطباعة حتى صارت تعد من أشهر المطابع في السلطنة العثمانية، وقد انتشرت الجوائب انتشاراً عظيماً في الشرق والغرب، ونالت شهرة واسعة لم تنلها جريدة سواها منذ ظهور الصحافة الْعَرَبِيَّة، حتى ذاك العهد، فكان يقرأها سلاطين العرب وملوكهم وامراؤهم وعلماؤهم في تركيا، ومصر، ومراكش=

10- عَبْد الله فِكْرِيّ باشا (1250هـ ـ 1307هـ)

وهو أحدُ أركان نهضة الأَدَب فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، تعلَّم في الأزهر، واشتغل باللُّغَةِ التُّركيَّة، وعمل بالتَّرجمة، حَيْثُ ترجم من التركيَّة إِلَى الْعَرَبِيَّة، وقد عمل في حاشية سعيد باشا، ثم إسماعيل باشا، وآخر ما تولاه إدارة الْمَعَارِف سنة 1299هـ، وكان كاتباً بليغاً، سلك في كتاباته طريقة كُتَّاب القرن الرَّابِع الهجري، وله (المَقَامَة الفكريَّة في المملكة الباطنيَّة) المطبوعة في سنة 1299هـ[1]، وله مقامة في حسن الوفاء، وله مقامة بعنوان: "(العمال والبطال)"[2]، يَقُوْلُ فِيْ مَقَامَتِهِ الفكريَّة: ""حدثنا أبو المقال بن ذاكر، عن الْخَيَال بن خاطر، قال: قعدت أتفكر في عجائب الزمان، وغرائب عالم الأمكان، وما في صنيع الْإِنْسَان من بديع الإحسان، ثم ما للإنسان مع فصاحة اللسان من المزايا الحسان، وما منحه الله تَعَالَى من تمييز، ومن عقل عزيز، وبصيرة تقوده إِلَى هداه، وترده عن مهاوي هواه"[3]. حَيْثُ تأثَّر في أسلوبه الكتابي بِبَدِيْعِ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ في التزام السَّجْع القصير، والمُحَسِّنَات البَدِيْعيَّة في غير تكلُّفٍ.

11- إِبْرَاهِيْم الأحدب (1242-1308هـ/1826-1891م)

هو إِبْرَاهِيْم بن علي بن أَحْمَد الطرابلسيّ ثم البيروتيّ، العالم الَّذِيْ طاول الثُّريا علمه، والشَّاعِر الَّذِيْ سحر الأَلْبَاْب نظمه ونثره، والإمام الَّذِيْ شاد ربوع الشِّعر والخطابة، والهُمام الَّذِيْ لزم الأَدَب جنابه، ولثم أعتابه، والفصيح الَّذِيْ بسقت في ناديه أدواح الفَصَاْحَة، والمليح الَّذِيْ ما زال قدمه يوماً عن مناهج الفلاحة، ولد في طرابلس الشام 1242هـ، تتلمذ عَلَى يد كبار العُلَمَاْء، ومن أشهر مؤلفاته: (كشف الْمَعَانِي والبيان عن رسائل بَدِيع الزَّمَان)، و(فرائد الأطواق

= والجزائر، وتونس، وزنجبار، وجاوا، والهند، وغيرها. وفي سنة 1879م صدر الأمر بتعطيل (الجوائب) مدة ستة شهور لامتناع مديرها من نشر مقالة تحمل طعناً في الخديو إِسْمَاعِيْل.

وكانت الجوائب لا تخلو من المناظرات العلمية أو السياسية بين صاحبها وبين أكبر علماء ذاك العهد كالشيخ إِبْرَاهِيْم اليَازْجِيّ... والمعلم بطرس البستاني ورزق الله حسون...وكان مما يعاب عَلَى أحمد فارس خلطه المناظرة العلمية ثم العدول عن البرهان إلى الطَّعن، والذَّم والشَّتم إلى ما شاكل ذلك.

جمع سليم بن أحمد فارس الشِّدْيَاق أنفس ما نشرته هذه الجريدة من منثور ومنظوم .ثم طبعه في سبعة مجلدات سماها (كنز الرغائب في منتخبات الجوائب). المصدر: تاريخ الصحافة الْعَرَبِيَّة لفيليب دي طرازي، المطبعة الْأَدَبيّة، بيروت سنة 1913م ، (ص61- ص64)، الزِّرِكْلِيّ، الْأَعْلَام، (ج98/3)، كحالة، معجم المؤلفين، (ج226/4).

[1] يُنْظَر: البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثَّالث عشر، (ج968/2).

[2] فكري، الآثار الفكرية، (ص94)، يُنْظَر: المَرْجِع السَّابق، ص2.

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص276.

في أجياد محاسن الأَخْلَاق)، و(الوسائل الأَدَبيَّة في الرسائل الأحدبيَّة)، و(كشف الأرب عن سرِّ الأَدَب)، و(فرائد اللآل في مجمع الْأَمْثَال)، و(نفحة الأرواح عَلَى مراح الأرواح)، و(كشف الأرب عن سر الأَدَب)، و(عقود المناظرة في بدائع المغايرة)، وكتاب (ذيل ثمرات الأوراق)، وكتاب (تفضيل اللؤلؤ والمرجان في فُصُوْل الحكم والبيان)، وله مقامات جعلها عَلَى لسان أبي عمر الدِّمشقيّ، وأسند رواياتها إِلَى أبي المحاسن حسان الطرابلسيّ، وهي عبارة عن تسعين مقامة جارى في إبداعها الَعَلَّامة الحريريّ، وله كتاب (كشف الْمَعَانِي والبيان عن رسائل بَدِيع الزَّمَان)، وهي آخر مؤلفاته، ومن قصائده الأنيقة، وأشعاره الرَّقيقة قوله مادحاً حضرة السَّيد الأمير عبد القادر الجزائريّ:

عُقُودُ وُدَادِي نَظْمُهَا لَيْسَ يُفْسَخُ وَشَرْخُ غَرَامِيْ مُحْكَمٌ لَيْسَ يُنْسَخُ

أُذَلُّ لِمَنْ أَهْوَى وَكَمْ ذَلَّ عَاشِقٌ أَشَمٌّ لَهُ أَنْفٌ إِلَى الْمَجْدِ أَشْمَخُ

تَمُدُّ خُدُوْدُ الْغِيْدِ قَلْبِي بِنَارِهَا فَمَهْمَا جَرَى دَمْعِي لَاْ يَتَبَوْخُ

وَلَمْ تَكْتَحِلْ عَيْنِي بِمَيْلٍ مِنَ الْكَرَى وَكَمْ وَبَيْنَ مَنْ أَهْوَى وَبَيْنِيَ فَرْسَخُ

وكَانَتْ وفاته رحمه الله في شعبان ألف وثلاثمائة وثمان للهجرة[1].

12- شِهَاب الدِّين السّويديّ (1250-1325هـ/1834- 1907م)

هو شِهَاب الدِّين بن أبي البركات السّويديّ، ولد في بغداد، أخذ الَعَلَّم عن والده، ثم درس عَلَى كبار علماء بغداد، بعد ذلك شارك في امتحان الْقَضَاء حتى نال إجازته، عُيّن نائباً في قضاء مدينة الهنديّة عام 1878م، بعدها عُيّن قاضياً في السماوة عام 1879م، ثم في الكاظميّة، ومدرساً في مسجد السويدي عام 1882م، ثم أصبح نائبًا لقضاء الديوانيّة، والجزيرة عام 1901م، وظل بها حتى وفاته. شاعر مقلِّد، نظم عَلَى الموزون المُقَفَى وفي أغراضه المألوفة، غير أن مجمل ما توفَّر من شعره جاء في الْمَدْح، كما نظم في مدح المولى سليمان، وهو لا يخرج عن المألوف، كما برع في فن المَقَامَات، حَيْثُ كتب المَقَامَة (السويديَّة)، والَّتِيْ مطلعها: الحمدُ للهِ الَّذِيْ رفع منابر الأَدَب، وهي وصف بستان فيه من كلِّ فاكهة زوجان[2].

---

[1] يُنْظَر: البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثَّالث عشر، (ج1/46-61). يُنْظَر: شيخو، تاريخ الآداب الْعَرَبِيَّة، (ص185، ص186).

[2] يُنْظَر: سركيس، معجم المطبوعات الْعَرَبِيَّة والمعرَّبة، (ج1/ 1067).

13- ابن مَيْمُون الجَزَائِرِيّ

هو أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبدالله بن مَيْمُون الزواوي النَّجار الجزائريّ، المَشْهُور بابن مَيْمُون الجزائريّ، لم يعرف تاريخ ولادته، ولا تاريخ وفاته، وعلَّل المؤرخون ذلك لقلَّة الاهتمام بالأَدَب الجزائريّ إجَمَالاً، وأدب العَصْر العُثْمَانِيّ خصوصاً، "وَإِذَا كنَّا حتى الآن لا نعرف تاريخ ميلاد ابن مَيْمُون، ولا تاريخ وفاته، ولا مكانه أَيْضاً"[1].

ومنْ أشهر كتبه (التُّحفة المرضيَّة في الدَّوْلة البكداشيَّة في بلاد الجزائر المحميَّة)، ويضم هَذَا الكتاب مَجْمُوْعَة من المَقَامَات بلغت ست عشرة مقامةً مرتبةً ترتيباً رقميَّاً، بشكلٍ تصاعديٍّ، وكلُّ مقامةٍ إضافة إِلَى وصفها برقمها، أُضِيْفَ إِلَيْهَا عنوان يعبِّر عن مضمونها، ويميِّزها عن غيرها، وقد وردت المَقَامَات في الكتاب عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

1- المَقَامَة الْأُوْلَى: فيها نبذة عن أخلاقه المرضيَّة، وممَّا أشار عليه بعض السَّادات الصُّوفيَّة

2- المَقَامَة الثَّانِية: في كونه سانجاق دار[2] بلغة المجاهدين الأخيار.

3- المَقَامَة الثَّالثة: في توليته عَلَى تقسيم خبز العسكر، وكَيْفَ نزع الظَّالم حين طغى وتجبَّر.

4- المَقَامَة الرَّابِعة: عَلَى أنه يتصدى ملكاً للإيراد والإصدار، فزحلق نفسه إِلَى تفتر دار.

5- المَقَامَة الخامسة: في تغريبه من الجزائر، ورجوعه إِلَيْهَا بقدر الحكيم القادر.

6- المَقَامَة السَّادسة: في استفتاح الملك صباحاً، وما جرى لأهل الدَّوْلة غدواً، ورواحاً.

7- المَقَامَة السَّابعة: في اسمه، وأهل مملكته، ورسمه.

8- المَقَامَة الثَّامنة: في تهنئة الشُّعَرَاء، ومدحهم له، وتعريف كل واحد بما سطَّره، أو نقله.

9- المَقَامَة التَّاسعة: في ذكر الخروج لوهران بقصد غزو الكفرة، وما حدث بعده من مقاتلة اللئام الفجرة.

10- المَقَامَة العاشرة: في حصار حصن العيون، وكَيْفَ استفتحه -عنوةً- الْمُسْلِمُونَ.

11- المَقَامَة الحادية عشر: في استفتاح حصن الجبل، وكَيْفَ نزعه من أيدي الكفرة عن عجلٍ.

---

[1] يُنْظَر: الزِّرِكْلِيّ، الْأَعْلَام، (ج121/7)، وسعد الله ، أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، (ص137).

[2] سانجاق دار: حامل اللواء أو حامل الرَّاية باللغة التركيَّة.

12- المَقَامَة الثَّانِية عشر: في حصر حصن بن زهوة، وكَيْفَ استفتحه الْمُسْلِمُونَ عنوة.

13- المَقَامَة الثَّالِثة عشر: في استفتاح مدينة وهران، وكَيْفَ صار عزُّ الكفرة إِلَى هوان.

14- المَقَامَة الرَّابِعة عشر: في استفتاح برج الْأَحْمَر والجديد، وكَيْفَ ألقوا لأبي الفتوح المقاليد.

15- المَقَامَة الخامسة عشر: في حصر حصن المرسى، وكَيْفَ افتتحه الْمُسْلِمُونَ، وزال باختتامه الأسى.

16- المَقَامَة السَّادسة عشر: في إياب خليفة سيدنا للجزائر سالماً غانَّما بالأسرى والذَّخائر.

وَلَعَلَّ قيمة هَذَا الكتاب تتمثَّل في كونه وثيقة تاريخيَّة، تعطينا صورة للحياة فِيْ تِلْكَ الْفَتْرَة الَّتِيْ تناولها في مختلف مظاهرها، خَاصَّةً السِّيَاسِيَّة، والدِّيْنِيَّة منها، بل أكثر من ذلك يعطينا الوجه الآخر لهذه الْفَتْرَة، غير الوجه الَّذِيْ أراد الاستعمار الفرنسيُّ أن يثبته في أذهان الجزائريين عن العهد العُثْمَانِيّ، "العهد الَّذِيْ ظُلِم كَثِيْراً، وأعطانا الاستعمار، وأعوان الاستعمار عنه صورة قاتمة بشعة، لا تمتُّ إِلَى الْحَقِيْقَة التاريخية بسبب[1].

ومن النَّاحِيَّةِ الأَدَبيَّةِ فإنَّ هَذَا الكتاب يردُّ افتراءات الظَّالمين عَلَى العَصْر العُثْمَانِيّ، فهو يمثل نموذجاً للكتابة، ومستواها الرَّاقي فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، كَمَا "يضع بين أيدي القراء مادة أدبيَّةً دسمةً، فقد ورد فيه عددٌ من الْقَصَائِد بلغ عدد أبياتها ثمانمائة وثمانية وتسعين بيتاً، جميعها في أدب المناقب والجهاد"[2].

وَعَوْدَةٌ إِلَى ابن مَيْمُون الجزائريّ الَّذِيْ امتلك قدرةً لغويَّةً فائقةً، ومقدرةً أدبيَّةً كبيرةً، والظَّاهر أنَّه أرد أن يرسم ملامح تفوقه الأَدَبيّ، وقدرته التَّعبيريَّة، ومعرفته النَّقديَّة، وَذَلِكَ يتأكَّد من قوله: "ولا أعلم أني لقيت مثله... ولو أدركه الصَّاحب والبَدِيْع، لأخذا عنه كل معنى بديع، وَإِذَا قصد وأخذ للشِّعر بمرصدٍ، وشطَّر وصرَّع، وجنَّس ورصَّع، وطابق، وقابل، ووازن وماثل، واقتنص ولمَّح، ووشَّح واستعار، ورشَّح وكمَّل، وتمَّم وأوضح، وأدمج وسمَّط، ودبَّج، وجمع وفرَّق، وبالغ وأعرق، والتفت واحترس، وضمَّن واقتبس، وأبدع وطرَّز، وأعجب وأعجز، فالسحر الحلال، وماء الزُّلال، والمنهل العذب"[3]. فقد جمع الْأَدِيْب مصطلحاتٍ بلاغيَّةً، وعروضيَّةً تنمُّ عن امتلاكه قدرات ربَّما لمْ يمتلكها كَثِيْرونَ.

---

[1] يُنْظَر: المدنيّ، مذكرات أحمد الحاج الشَّريف الزَّهار، (ص5).

[2] الجزائريّ، التُّحفة المرضيَّة، (ص85).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص186.

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: مَوْضُوْعَاتُ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ

للفَنِّ أشكالٌ وألوانٌ، ولمَوْضُوْعَاته فُصُوْلٌ وأبوابٌ، فقد طرق أُدَبَاء المَقَامَات فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيّ أغراضاً شَتَّى، وسلكوا دُرُوْباً مُتَنَوِّعَة، وقَصَدُوا أبواباً كَثِيْرة، ومن تِلْكَ الأبوابِ: "أبواب الْغَزَلِ والعشقِ، ووصف الخمرِ، ومجالس المنادمةِ، وأبواب الفكاهةِ، والمداعبةِ، والمجونِ، وتسجيل الحوادثِ العامةِ، وبيان خطرها، ووصف أخلاقِ النَّاسِ وعاداتهم، وتصوير مناظرِ البيئةِ، وأبواب الشَّكوى والمديحِ، وأبواب النَّقدِ واللُّغَة، إِلَى غير ذَلِكَ من ألوانٍ"[1].

وَقَدْ بَرَعَ أُدَبَاءُ المَقَامَة في رصدِ مَوْضُوْعَاتِ نصوصهم، وأبدعوا في الخوضِ فيها، حَتَّى أضحت مرآةً صادقةً تعكس صورة العَصْرِ، وتقدِّمُ تراثه الأَدَبيَّ شعراً، ونثراً، وتبرزُ بوضوحٍ التَّاريخَ، والثَّقَافَةَ، والسِّيَاسَةَ، والدِّينَ، والاجتماعَ، وبهَذَا كَانَتْ المَقَامَة سجلاً متكاملاً رصدَ حياةَ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ.

أَوَّلاً: الْمَوْضُوْعَاتُ السِّيَاسِيَّةُ

فِيْ ظِلِّ الظُّروفِ السِّيَاسِيَّة فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ برز فَنُّ المَقَامَةِ، واستوى عَلَى سوقه ناضجاً له أصوله، ومقوِّماته، وملامحه، وسماته، وقد أسهمتْ تِلْكَ الظُّرُوْفُ في ظهور المَقَامَة، وتنوُّع مَوْضُوْعَاتها، كَمَا أسهمت تِلْكَ الْأَحْدَاثُ السِّيَاسِيَّةُ الجسامُ الَّتِيْ شهدها العَصْرُ العُثْمَانِيُّ، والفتوحات الَّتِيْ حققتها جيوش هَذهِ الدَّولة، في تطوُّر تِلْكَ الْمَوضُوْعات.

ولم يكنْ أُدَبَاءُ العَصْر العُثْمَانِيِّ بمعزلٍ عن السِّيَاسَة، وهَذَا أمرٌ بدهيٌّ، فالْأَدِيْبُ ابن بيئته يوثِّر فيها، ويتأثَّرُ بها؛ لذا لم تَخلُ كَثِيْر من تلك المَقَامَات من الإشارة إِلَى تِلْكَ الحَيَاْة السِّيَاسِيَّة، والحَدِيْث عن بعض ملامحها من فتوحاتٍ واسعةٍ في شَتَّى أرجاء الدُّنيا شرقاً، وغرباً، شمالاً، وجنوباً.

وقد حملتِ المَقَامَاتُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ الطَّابعَ السِّياسيَّ، فَلَمْ يكن هَذَا الفَنُّ بمنأى عنِ السِّيَاسَةِ، فقد استوعبَ مساحةً شاسعةً من هَذَا الغرضِ، ورُبَّمَا ارتبط هَذَا الاتِّساع باتِّساع الدَّولةِ العُثْمَانِيّةِ الَّتِيْ امتدت إِلَى ثلاثِ قاراتٍ، هي آسيا، أوروبا، وأفريقيا.

ومن المَقَامَاتِ الَّتِيْ حملتِ الطَّابعَ السِّياسيَّ، المَقَامَةُ الَّتِيْ عُرفتْ بعنوان (أعلام الأحبار بغرائب الوقائع، والأخبار)، حَيْثُ تناولتْ هذه المَقَامَة الْعَلَاقَة بين العُلَمَاْء، والسُّلطة، وانتشار ظاهرة الوشاية بين أهل العَصْرِ، يَقُوْلُ فارسُ المَقَامَة: "الحمدُ لله الَّذِيْ جعل الْمَصَائِب وسائل

---

[1] سليم، الْأَدَب العربيّ وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والحديث، (ص36).

لمغفرة الذُّنوبِ، والنَّوائب فضائل لذي الأقدار والْخُطُوْب، وسلَّط سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَلَى الأشراف أرباب الزُّور، والفجور، والإسراف؛ ليردَّهم بِذَلِكَ إِلَى باب مناجاته، وليظفر المبتلى منهم بقضاء أوطاره وحاجاته... وبعد، أيُّها العُلَمَاْء الفضلاء النُّبلاء الكمَّلا، فرِّغوا أذهانكم، وألقوا آذانكم، وتأمَّلوا ما يلقى إليكم من الخبر الغريب، وما يرسله الله تَعَالَى عَلَى كلِّ عاقلٍ أريب، فقد ارتفعت الأشرار، واتَّضعت أرباب الْمَعَارِف والْأَسْرَار، وانقلبت الأعيان، وفشا في النَّاس الزُّور والبهتان، وأُهملت أحكام الشَّريعة، وتصدَّى لها كلُّ ذي نفسٍ للشَّر سريعة، بَيْنَمَا نحن في عيش ظلّه وريف، وفي أهنى لذة بقراءة العلم الشَّريف...إذ سعى في تشتيت أحوالنا وقلوبنا، وهتك أستارنا وعيوبنا، من لا يخاف الله، ولا يتَّقيه، فرمى كلّ صالح وفقيه بما هو لاقيه، واغترَّ في ذلك بقومٍ يظنُّون أنَّهم أفاضل، وهم والله أوباش أراذل، وما كفاه بثّ ذلك في كلِّ ميدان؛ لأنه يسر للشَّيطان حتى أوصله لمسامع السُّلطان، فلم نشعر إلا ومكاتب واردة علينا من جانب الأمير بعزل صديقنا الشَّهير، من خطة الفتوى، مع أنَّه ذو علمٍ وتقوى...تحيَّرنا من ذلك أشدّ التَّحيُّر، وتغيَّرنا بسببه أعظم التَّغيُّر، ثُمَّ نادى منادي السُّرور، وقال أبشروا برفع السُّوء عنكم، ودفع كلّ الشُّرور...فقلنا يا هَذَا أصدقنا في هذه البشارةِ...[1].

وَمِنَ الْمَوضُوْعاتِ الَّتِيْ طرق أبوابها، وبرع في تصويرها أُدَبَاء المَقَامَات، فساد الْقَضَاء والْقُضَاة، فقد صوَّرت لنا (المَقَامَة السَّاسانيَّة) ذلك، يَقُوْلُ صاحبها شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "وقضاةٌ بلغ سيل الظُّلم بهم الزُّبى، وشرقت أفواه التِّلاع والرُّبى، من كلِّ منقوصٍ لا يظهر رفعُه، إذا رقَّ دينه، وجفا طبعه، أحول عقله يرى الواحد من الرِّشا اثْنَيْنِ، ويبيع دينه نسيئةً بالدِّين. ويستفتي فرعون في قسمة الحَيَاْة قبل الأمواتِ...ويفوق قاضي مُعِزِّ الدَّولة بفسوة الكلب في الهوان، وقد أحسن ابن شرف في هجوه غاية الإحسان، فقال:

إنَّــا إِلَــى اللهِ رَاجِعُــوْن فَقَــدْ هَــاْنَ عَلَــى اللهِ أَهْــل ذَا البَلَــدِ

وفَسْـوَة الكَلْـبِ صَـاْرَ قَاْضِـيْنَا فَكَيْـفَ لَـوْ كَـانَ ضَـرطَة الأَسَـدِ؟

فكم ركب بحر الاَهْوَال، حتى وصل إِلَى ساحل الضَّلال، وأمعن السَّير في تيهه فلم يجد للهداية طرقا، والمُنْبَتُّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى، وفقيه تحت غبطه أجزاءٌ رثَّة بها أفطر الجرذان، وتعشَّتِ العُثَّة أعمى العَيْن والجنان"[2].

---

[1] يُنْظَر: سعد الله، تجارب في الْأَدَب والرحلة، (ص91- ص102).

[2] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلْبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا (المَقَامَة السَّاسانيَّة)، (ص392).

لَقَدْ رسمَ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ صورةً مظلمةً لطائفةٍ من أهمِّ طوائفِ المجتمعِ، ولا أبالغ إنْ قلتُ من أخطر طوائف المجتمع، وهي طائفة الْقُضَاة، الَّتِيْ إنْ أحسنت انتشر الأمن والأمان، وإن حادت عن الحقِّ فشا الجَور والضَّلال، حَيْثُ صوَّر الخَفَاجِيّ الصُّورَة الْمُظْلِمَة للقضاة بعددٍ من الجمل المرعبة الَّتِيْ يحملها قوله: (وقضاةٌ بلغ سيل الظُّلم بهم الزُّبى، وشرقت أفواه التّلاع والرُّبى)، وقوله: (أحول عقله يرى الواحد من الرِّشا اثْنَيْنِ، ويبيع دينه نسيئةً بالدِّين)، ثم يختم بِقَوْلِهِ الَّذِيْ يحمل في طيَّاته منتهى الجَور، وقمَّة الظُّلم مستلهماً من التُّرَاث شخصيَّة فرعون: (ويستفتي فرعون في قسمة الحَيَاْة قبل الأموات). مَعْ مَا تَحْمِلُهُ تلك الشَّخصيَّة من القهر، والتَّسلط، والكبرياء، وسوء العاقبة، وعاقبة السُّوء.

وَلَمْ يَكْتَفِ الْأُدَبَاءُ بتصوير فساد الْقُضَاة، بل تجاوزوا ذلك فكان للعلماء من تصويرهم نَصِيْبٌ، فأظهروا معايبهم، وكشفوا سوءاتهم، يَقُوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ في (المَقَامَة السَّاسانيَّة): "ورؤساء الفقهاء والكتَّاب، الرَّاضين من الغنيمة بالإياب، وسَّعوا الأكمام، وطوَّلوا الَّذِيْول، ومشوا في ظلمات الجهل والعلم مصباح العُقُوْل، قباب عمائمهم عَلَى قبور الأجسام دنِّيَّات منكوسة أهراقت الأَلْبَاْب والأفهام...اتَّخذوا سعة الأكمام زنبيلاً للخزي والملام، وطول الَّذِيْول، مكانس لطرق الغلول. إذا جلسوا يلقون دروساً، رأيت عنز الأخفش تقابل تيوساً. فَإِذَا كبّر وتكسَّرت قواريره، هبَّ لتخريب الأوقاف دبوره وأعاصيره. وَإِذَا صام عن الخبز أفطر بأكل أموالها، وتهجَّد ببيع أحجارها واستبدالها"[1]. فَقَدْ تفوَّقَ الخَفَاجِيّ في رسمِ المَشْهَدِ مُعْتَمِدَاً عَلَى عددٍ من التَّشْكِيلات الْخَيَاليَّة، كالتَّشْكِيل التَّشبيهيِّ، والاستعاريِّ، والكنائيِّ، الَّتِيْ تجسِّد مساحة الظُّلم، والجور، وتصوِّر حجم الضَّلال والكفر، الَّذِيْ يبدو واضحاً فِيْ قَوْلِ الخَفَاجِيّ: (وسَّعوا الأكمام، وطوَّلوا الَّذِيْول)، مَعْ مَا تَحْمِلُهُ العبارتان من سوء السِّيرة، وقبح السَّريرة، وقوله: (وَإِذَا صام عن الخبز أفطر بأكل أموالها) الَّذِيْ يحمل صورةَ ساسةٍ لبسوا عمائم السَّرقة والنَّهب.

وفي المقابلِ لَمْ يُهْمِلِ الْأُدَبَاءُ من توسَّموا فيهم الخيرَ من الْقُضَاة، فانْطَلَقُوا يصوِّرون مثالبهم، ويعدِّدون محاسنهم في صورٍ نقيَّةٍ حملت الحسن والْجَلَال، وضَمَّت الرَّوْعَة والْجَمَال، يَقُوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ في (المَقَامَة الساسانيَّة): "وقد فقد العلم لولا نفحة أنسٍ من نفر بقايا، فتح الله بهم خزائن كنوزٍ هي خبايا في الزَّوايا. من كلِّ نقيّ العرض أبيض السَّجايا، إذا تدنَّست الأعراض فأعراضهم من العَارِ عَرَايَا

أَبْدَتْ مَآثِرُهُمْ نَقْصَ الزَّمَان فَفِي خَدِّ الرَّبِيْعِ طُلُوْعِ الفَجْرِ مِنْ خَجَلِ

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا (المَقَامَة السَّاسانيَّة)، (ص391، ص392). الزَّنبيل: السَّماد.

حمتْ شوكتهم رياضاً في ربا الدِّين العوالي، وأحيا اللهُ بأنفاسهم العيسويَّة موات الْمَعَالِي. وَلَمَّا شرح الله بهم صدر الدِّين، وفتح ببصائرهم عين اليقين، أيَّدهم بأبناء الأعيان من أمرائها، فقالت الخلافة تحتَ أفياءِ لوائها، حَتَّى حموهم من نوائب الحتوفِ، وزهت جنَّةُ مثواهم تحتَ ظلالِ السُّيوفِ، فصارت بهم الأطراف، من منازهِ منازلِ الأشرافِ.[1].

هَكَذَا أبدعَ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ لَمَّا اعْتَمَد عَلَى الْمُقَابَلَات فِيْ رَسْمِ مَشْهَدين متناقضين للقضاة، مشهدٍ مظلمٍ حالكِ الظَّلام، وآخر مشرق كلَّ الإشراق، فبرزت المَشَاهِد أكثر وضوحاً، هَذَا مِنْ نَاحِيَةٍ، ومِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى فقد برع الخَفَاجِيّ في المزجِ بَيْنَ الْحَقِيْقَةِ والمجازِ لبيان فكرته، حَيْثُ وَظَّفَ مزيداً من الصُّورِ البَلاغيَّةِ لإيضاح الفكرة، أوَّل هذه الصُّور التَّشْكِيل الاستعاريّ فِيْ قَوْلِه: (شرح الله بهم صدر الدِّين)، وثانيها التَّشْكِيل التَّشبيهيّ فِيْ قَوْلِه: (فتح ببصائرهم عين اليقين)، وَقَوْلِهِ: (حَتَّى حموهم من نوائبِ الحتوفِ).

وقد توسَّعَ الْأُدَبَاءُ فانتقلوا من الأفرادِ إِلَى الدَّولةِ، والدُّعاء لها، يَقُوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "فأووا من ذَلِكَ الظِّل بركنٍ معتمدٍ، ونزلوا فيه بين العلياء والسَّند، متعنا اللهُ بهذه، وجعلها أطول الدُّول عمراً، وأرفعها مناراً، وأعظمها قدراً، سماء مجدهم مكلَّلة بنجوم تهتدي بها الأماني، ويستقر رجاء كُلِّ قلبٍ عاني، والدَّهر لسعدهم من الخدم، وفيض أياديهم يغني عن الدِّيَمِ، وسحبهم مغدقة عَلَى الرَّاجينَ بالكرمِ

قُلْـتُ للبَـرْقِ إذا تَـأَلَّقَ فِيْهَـا ... يـا زنـادَ السَّـمَاء مَـنْ أَوْرَاكَـا

إذا تشـبَّهْتَ بـالكرام وَمَـا قَـدْ ... كَـانَ مِـنْ جُـوْدِهِم فَلَسْـتُ هُنَاْكَـا

ومذ عَيِيَ لسان برقهم الخُلَّب، وقال: لا خلابة، وكلَّتْ دُهْمُ الأقلام من المشي في الكتابة[2].

وهذه المرة يسلك الخَفَاجِيّ طريقاً جَدِيْدَاً في رسم صورةٍ بارعةٍ للدَّولة، حَيْثُ انطلق من خصوصيَّة الأفراد إِلَى عموميَّة الدَّولة مُعْتَمِدَاً عَلَى أسلوب التَّفضيل أكثر من مرَّةٍ فِيْ قَوْلِه: (وجعلها أطول الدُّول عمراً، وأرفعها مناراً، وأعظمها قدراً). ثم زيَّن المَشْهَد بعددٍ من الْمُفْرَدَات تحمل فِيْ ثَنَايَاهَا السُّمو، والشُّموخ فِيْ قَوْلِهِ: (العلياء، مناراً، نجوم، برقهم، سحبهم).

---

[1] يُنْظَر: الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا (المَقَامَة السَّاسانيَّة)، (ص392، 393). الدِّيَم: السَّخاء، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج1942/5). مادة (دَيَمَ).

[2] يُنْظَر: المَرْجِع السَّابِق، ص395. دُهم: سُود.

إنَّ كَثِيْراً من المَقَامَات العُثْمَانِيّة تناولت موضوع الْقَضَاء، خَاصَّةً مقامات نَاصِيْف اليَازْجِيّ، وَمِنْهُا المَقَامَة الغزيَّة، والمَقَامَة الأنطاكيَّة، والمَقَامَة السُّخريَّة، والمَقَامَة الدّمياطيَّة، والمَقَامَة الصَّعيديَّة، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يبرز ما للقضاء من أهميَّةٍ بالغةٍ في المجتمعِ العُثْمَانِيِّ.

ثانياً: الْمَوضُوْعاتُ الاجْتِمَاعِيَّةُ

الأَدَبُ والمجتمعُ عنصرانِ رئيسانِ يكمل كلٌّ منهما الآخر، فالْعَلَاقَة بَيْنَ الأَدَبِ وَالْمُجْتَمَعِ علاقةٌ حميمةٌ، وَتُوْسَمُ هذه الْعَلَاقَة هنا بأنَّها تبادليَّة بَيْنَ الأَدَبِ وَالْمُجْتَمَعِ، فكلاهما يؤثِّرُ في الآخر، وعَلَى مدى التَّاريخ لم ينكر أحدٌ الْعَلَاقَة بينهما، وَمِنْ هُنَا "كَانَتْ قضيَّة الْعَلَاقَة بَيْنَ الأَدَبِ وَالْمُجْتَمَعِ، وما تزال موضوعاً شديد الأهمية لقيم الأَدَب ودراسته، وبدونها لا يمكن فهم الأَدَب ولا المجتمع، وَرَغْمَ أنَّ مصطلحي الأَدَبِ والمجتمعِ لم يحملا نفس الدَّلَالَاتِ الحَدِيْثَةِ عِنْدَ القدماء، إلَّا إنَّنا نستطيع أن نلمح إسهاماتٍ حول هذه الْعَلَاقَة منذ القديم"[1].

إنَّ العمليَّة الإبْدَاعيَّة تنطلق من الْوَاقِع باعتباره مرجعيَّة أساسيَّة، ومنطلقاً بديهيَّاً لا يمكن أَنْ يُنْكِرَه أحدٌ، كَمَا أَنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الأَدَبِ وَالْمُجْتَمَعِ يستحيل أن تكون هامشيَّة في التَّاريخ الأَدَبيِّ؛ إذْ تلعب هذه الْعَلَاقَة دوراً بارزاً في حركة الفُنُوْن الأَدَبيَّة. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ إنَّ الظَّاهرة العامة الَّتِيْ اتَّسمت بها المَقَامَة – شَأْنُهَا شَأْنُ الفُنُوْن الأَدَبيَّة الأُخْرَى– هي ظاهرة النَّقد للواقع، والثَّورة عَلَى تقاليد ربَّما أصبحت بالية، وكشف العيوب الْإِنْسَانِيَّة، وإظهار المشكلات الاجتماعيَّة، مع محاولة وضع البديل لها في بعض الأحيان، وإيجاد الحلول المناسبة مِنْ خِلَالِ هَذَا الفنِّ الموسوم بفن المَقَامَة.

إنَّنا إذا تتبَّعنا فنَّ المَقَامَة في العُصُوْر الأَدَبيَّة منذ بَدِيع الزَّمَان الهمذاني، نجد أنَّ هَذَا الفن يتلمَّس علاج المجتمع في حُلَّةٍ من اللَّفظ، رَغْمَ أنَّ المُتَلَقِّي يعجب بالصِّياغة، وينبهرُ بحسنِ السَّبكِ، وجمالِ السَّجعِ، وينشغل بهما، ولا يفرغ لِمَا تهدف إليه المَقَامَة في مضمونها إلَّا بَعْدَ اكتمالها، وعمق التَّفكير في مضمونها.

لَقَدْ تناولَ الْأُدَبَاءُ مَوْضُوْعَاتٍ اجتماعيَّةٍ شَتَّى فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّة، وتكشف هذه الْمَوضُوْعات وجود الْعَلَاقَة بين الْفَنَّان والمجتمع، رَغْمَ أنَّ هَذَا التَّناول "لا يعني أنَّ الظَّوَاهِر الاجتماعيَّة الَّتِيْ يتناولها الْفَنَّان في تعبيره الأَدَبيّ تكون طبقَ الأصلِ لمثيلاتها في الْوَاقِعِ الحقيقيِّ؛ لِأَنَّ من حقِّ الْفَنَّان أن يجسِّم صوره الفنيَّة حتى تبدو أكثر دلالةً وعمقاً، بشرط ألا يخلّ

---

[1] البحراويّ، المدخل الاجتماعيّ للأدب، (ص3).

ذَلِكَ بالتَّوازن للواقع الحقيقيِّ، والْوَاقِع الفنيِّ؛ فغاية الْفَنَّان فِيْ جَمِيْعِ أحواله أن تكونَ نماذجه نابضة بالحَيَاْة"[1].

ومن البدهيِّ أن تكونَ الْمَوضُوْعاتُ الاجتماعيَّةُ أكثرَ الْمَوضُوْعات تداولاً فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، فالْأَدِيْب مع كلِّ خطوةٍ يخطوها يصطدم بقضيَّةٍ اجتماعيَّةٍ، وفي كلِّ دربٍ يسلكه يُواجَه بمشكلةٍ واقعيَّةٍ تستحق أن يطلق العَنَان لقلمه ليرسمها، ومن الْمَوضُوْعات الاجتماعيَّة الَّتِيْ تناولها أُدَبَاء المَقَامَات فِيْ أَعْمَالِهِمْ موضوع الزّواج، واختيار الزّوجة، ووصف النِّساء، والمهن، والحرف، والْغَزَل، والنَّسيب، والتَّشبب، إِذَا كَانَ الْغَزَل، والنَّسيب، والتَّشبب يدخل في الْمَوضُوْعات الاجتماعيَّة الَّتِيْ تناولها أُدَبَاء المَقَامَات.

ومن الْمَوضُوْعاتِ الاجتماعيَّةِ الَّتِيْ طرق الْأُدَبَاء أبوابها، وَصْفُ النِّساء، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ الشِّدْيَاق في مقامة (مُقِيمَة): "فخرجت من بيتي كئيباً مبتئساً، ساخطاً عَلَى جميع النِّساء، فبينا أنا في الطَّرِيْق، إذ مرَّ بي سربٌ منهن يخطر بالثَّوب الصَّفيق، والحلي ذي البريق، وقد أرجت الأرجاء بطيبهن العتيق، فرأيت من بينهن الهيفاء والبدين، والغرَّاء الزَّهراء ضرَّة حور العَيْن، ومُهَنَّدة العَيْنين، فتاقت نفسي إِلَى وصالهنَّ، وتبلبل بالي بجمالهنَّ، ونسيت ما لقيت من لكاعي في البيت، وقلت ليتكن لي لو تنفع ليت"[2]. وكأنِّي بالشِّدْيَاق قد عاد إِلَى الأَدَب الجاهليِّ يستلهم تراثه، حَيْثُ الوَصْف الحسيُّ لمفاتن الْمَرْأَة، وربَّما فاق شعراء الْغَزَل الحسِّيّ فِيْ قَوْلِه: (فرأيت من بينهن الهيفاء والبدين، والغرَّاء الزَّهراء ضرَّة حور العَيْن). مُسْتَلْهِماً قَوْلَ الأعشى:

غَرَّاء، فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ، عَوَارِضُهَا تَمْشِي الهُوَيْنَى كَمَا يَمْشِي الوَجِي الوَحِلُ[3]

وقول كعب بن زهير في رائعته (بَانَتْ سُعَادُ):

هَيْفَـاءُ مُقْبِلَـةٌ، عَجْـزَاْءُ مُقْبِلَـةٌ لَا يُشْتَكَى منهـا قِصَرٌ، ولا طُـوَلُ[4]

ومنَ الْمَوضُوْعاتِ الاجتماعيَّةِ الَّتِيْ تناولها الْأُدَبَاءُ، عدم التَّكافؤ بين الزَّوج والزَّوجة، سَوَاء أكان ذلك في السِّن، أم المستوى الاجتماعيِّ، وهَذَا الْمَوضُوْع من الْمَوضُوْعات الجديدة

---

[1] عوض، فن الْمَقَامَات بين المشرق والمغرب، (ص14).

[2] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص279). الصَّفيق: الجميل البيِّن ذو الصَّفاقة، أو الكثيف النَّسج، تبلبل: اختلط.

[3] الأعشى، دِيْوَان الأعشى، (ص55).

[4] ابن زهير، دِيْوَان كعب بن زهير، (ص60).

الْقَدِيمَة الَّتِيْ لم يبرحها الْأُدَبَاء، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيِّ في (المَقَامَة الصُّوريَّة): "قالت هو شيخٌ يَفِن، قد صار جلده كالسَّفَنِ، يضمُّني إِلَى أضلاع له كالنَّعشِ، فتغشاني لحيته كالكفن...وهو فقير يتمنَّى الفلس، وتغلبه عزّة النَّفس، فيعتفد ولا يسترفد...، ويغضي عَلَى القذى، ولا يشكو الأذى، وتبلغ بالثويناء عَلَى الهويناء، ويقنع من الشَّراب بالسَّراب، ويرضى من البيض بالبيظ، وأنا فتاة غضَّةُ الشَّباب، لا تشبعني كُشى الضَّباب، ولا أرضى بخلق الجلباب، ولطالما حرصت عَلَى برِّه، فطويته عَلَى غِرِّهِ، وكلفت نفسي كتم سرِّه، حَتَّى صِرْتُ أهزلَ مِنَ الْجَوْزَلِ، وَأَجْوَعَ مِنْ كَلْبَةِ حَوْمَل"[1].

لَقَدْ بَرَعَ اليَازْجِيُّ أَيَّمَا براعةٍ في رسم المَشْهَد، حتى يخيَّل للقارئ أنَّه أمام مشهدٍ مرأيٍّ تتقلَّب فيه الصُّور تباعاً، مُعْتَمِداً عَلَى تشكيلات تشبيهيَّة بارعة تقوم عَلَى المفارقة بين الأنا، والآخر، الأنا يكتنفه الْجَمَال، والآخر يلفُّه القبح، حتى تقنع السَّامع بالتَّضامن معها، ومؤازرتها في مصيبتها؛ إذ لا مجال للمقارنة، فشتان بين الثَّرى والثُّريَّا. كما يبدع في تصوير مشهد القبح، وقبح المَشْهَد فِيْ قَوْلِه: (هو شيخٌ يَفِن، قد صار جلده كالسَّفن، يضمُّني إِلَى أضلاع له كالنَّعش فتغشاني لحيته كالكفن) مَعْ مَا تَحْمِلُهُ التّشبيهات من توضيح لمَشَاهِد القبح، ثم يرسم مشهد النِّهاية القبيح المؤلم قَائِلاً: (حتى صرت أهزل من الجوزل، وأجوع من كلبة حومل).

وَمِنَ الْمَوضُوْعاتِ الاجتماعيَّةِ الَّتِيْ ضمَّنها أُدَبَاء المَقَامَة نصوصهم، واستوعبت مساحةً شاسعةً فيها، موضوع الزَّواج، والصِّفَات الَّتِيْ يجب أن تتوفَّر في الزَّوجة، وقد أبدع الْأُدَبَاء في رسم محاسن الْجَمَال في الْمَرْأَة، سَوَاء أَكَانَتْ هذه المحاسن حسيَّة أم معنويَّة، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ الصُّورَة الْبَارِعَة الَّتِيْ رسمها الشِّدْيَاق مُسْتَلْهِماً تُرَاثَ السَّابقين، يَقُوْلُ: "فابتدرت إليَّ واحدة منهن لها عنقٌ كالغزال، وحاجب كالهلال...ثم التفتت إليَّ أُخْرَى وجبينها يلمع كالصَّباح، ولحظها يدمي كالصِّفاح...ثم تقدَّمت إليَّ أُخْرَى وحبب عرقها كاللآلئ، وحالك فرعها كاللَّيَالِي، ثم دنت مني أُخْرَى وهي تهتز عجباً ودلالاً، وتبسم عن شنبٍ ما رأى الناظر له مثالاً... ثم أقبلت عليَّ الخامسة وهي من الخفر كالظَّبية المكانة...ثم تقدَّمت السَّادسة باشةً آنسةً... ثم تقدَّمت السَّابعة وكَانَتْ ذات حقيبةٍ سابغةٍ، وطلعةٍ رائعةٍ... ثم انبرت الثَّامنة وهي عَلَى ما يبدو لي رافنة زافنة...ثم استقبلتني التَّاسعة، وهي تفتر عن لآلئ ناصعة، ثم تصدَّت لي العاشرة، وهي ذات

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الصُّوريَّة)، (ص127، 128). يعتفد: يغلق بابه حتى يموت جوعاً، تسترفد: يستعطي، الثويناء: ما يرش من الدقيق تحت العجين، الهويناء: السُّهولة، البيظ: بيض النَّمل، كشى: جمع كشية، وهي شحمة تكون في أحشاء الضّب، الجوزل: فرخ الحمام قبل أن ينبت ريشه، .

قامةٍ معتدلةٍ، وعينٍ جائرةٍ... ثم دعتني الحادية عشرة، وهي متمايلة مُسْبَكرَّة"[1]. فأيُّ جمالٍ تحتويه هذه الأسطر، وأيَّة روعةٍ تتضمَّنها تلك الكَلِمَات، وقد زاد المَشْهَد جَمَالاً، وأضفى عليه روعةً لمَّا استعان الْأَدِيْب بعناصر الطَّبِيْعَة في تقديم المَشَاهِد، حَيْثُ صعد إِلَى السَّمَاء قاصداً الهلال، ثم اندفع صوبَ البيداء قاصداً الغزال، وإِلَى عَوَالِم الإشراق والضِّياء صُحْبَةَ الصَّباح، والصِّفاح، ولم يبرح حبب عرقها الَّتِيْ غدت كاللآلئ، ولا فرعها الَّذِيْ نافس في طوله اللَّيَالِي.

ويتابع أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق فِيْ نُصُوْصِهِ المَقَامِيَّة الحَدِيْث عن النِّساء، فقد أكثر من ذكر أوصافهنَّ الحسنة، يَقُوْلُ: "إنَّ ما خصَّ الله تَعَالَى الْمَرْأَة من المزايا، وفضَّلها به من السَّجايا أنَّ صوتها الرَّخيم لا يمرد عليه نكد، ولا يبدو معه همٌّ وكمدٌ، فأوَّل مَا تُحَرِّكُ شفتيها. تَسْكُنُ القُلُوْبُ إِلَيْهَا، وعِنْدَ مُغَازَلَةِ عَيْنَيْهَا تَنْهَالُ الْمَسَرَّاتَ عَلَى مَنْ هُوَ بَيْنَ يَدَيْهَا"[2].

ولم يبرح نَاصِيْف اليَازْجِيّ هَذَا الأمر، حَيْثُ وظَّف ما يمتلكه من جَمَالِيَّات الُّلغَة، في وصف النِّساء، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُه في (المَقَامَة المضريَّة): "إنَّ لي سبيَّةً من ربات الحجال، قد سباها بعض زعانف الرِّجال، وهي بكرٌ رقيقة القوام، كَأَنَّهَا ورد الكمام، لها نكهة الخزام، وصفاء ماء الغمام، وبهجة بدر التَّمام، تفتن العُقُوْل والأَلْبَاب، وتستعبد السَّادة والأرباب، وهي عذبة المراشف، لدنة المعاطف، باردة الرُّضاب، مَقْصُوْرَة وَرَاءَ الْحِجَابِ. تسفر عن مثل السَّحَر، وتفترُّ عن مثل الدُّرَرِ، وتسرُّ القلب والنَّظر"[3]. فقد جمعَ اليَازْجِيّ عَدَدَاً كَبِيْرَاً من مقاييس الْجَمَال الحسيَّة، والْمَعْنَوِيَّة؛ ليرسم صورة لملكةٍ من الملكات تقلَّدت عرش الْجَمَال، بل ونافست الأغصان في لينها، والْأَزْهَار في عبيرها، ومياه الغمام في صفائها، والبدور في ضيائها، فهي رقيقة كنسيم السَّحَر، مشرقة مثل نظيم الدُّرر، تنتهي بجلب ما يسرُّ القلب، ويبهج النَّظر.

وينتقلُ الْأُدَبَاءُ من مَشَاهِد الْجَمَال الَّتِيْ تسرُّ الناظرين، إِلَى أستار القبح الَّتِيْ تؤذي المَشَاهِدين، وَمِنْ هُنَا فقد حذَّر الْأُدَبَاء في الْمَرْأَة من الأوصاف القبيحة، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قول الشِّدْيَاق: "أعوذ بالله من هَذَا الافتتاح الَّذِيْ يوسوس في صدور النَّاس، كلّ غميس وغمّاس، إِنْ تزوجت امرأةً خرَّابةً، لهَّاجةً، ولَّاجةً، نبَّاحةً، مرغامةً، معذامةً، لوَّامةً، رطَّامةً، خُبَعةً، طُلَعةً تُجَاوِبُ وَلَا سُؤَال، وَتُبَارِزُ وَلَا قِتَال، وَتَفْتَرِحُ عَلَيَّ أَشْيَاءَ يَعْجَزُ عَنْهَا الدِّيْنَارُ، وَتَرْمِيْنِي فِيْ مَهَالِكَ دُوْنَهَا النَّار، فَكَانَ دَأْبِي أَنْ أَصْبِرَ مَرَّةً عَلَيْهَا عذيراً، وَأُخْرَى أَنْ أَشْكُوَ إِلَيْهَا فَلَا تَزْدَادُ إِلَّا شِرَةً

---

[1] يُنْظَر، الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص279، ص280). الخفر: شدة الحياء، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج648/2)، مادة (خفر)، رافنة: نافرة، زافنة: شديدة، مسبكرة: مستقيمة معتدلة.

[2] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص279).

[3] اليَازْجِيّ ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المضريَّة)، (ص241).

ونفوراً"[1]. وَهُنَا لم يترك الشِّدْيَاق صفةً من صفات القبح إلا واستعاذ هو منها، وحذَّر الآخرين من مجاورتها، ومحاولة العيش في أكنافها؛ إذْ لا مجالَ للرَّاحة، ولا متَّسعَ للطمأنينة، ولا مكانَ للأمن، فلا مجال حينها أن ينفع الدِّينار من الوقوع في مهالكَ دونها النَّار.

وسَافَر أُدَبَاء المَقَامَات العُثْمَانِيّة بعيداً، فلم يهمل فرسان تلك المَقَامَات غير المتزوجين، بل رسموا ما تفرّد به هَؤلاءِ من محاسنَ رُبَّمَا تفارق حياة المتزوجين، يَقُوْلُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "ومن قائلٍ لا بل عيش العزب أهنأ، واللذات أجنى،...إذ ليس من تلزه كلَّ ليلةٍ للعظال، وتؤرِّقه من اللَّيْل عَلَى ذي الحال، فهو عَلَى هَذَا محبَّب عِنْدَ البنات، محروص عليه من النِّساء المتزوجات، مشار إليه بالبنان من الأرامل الهائجات، وأنَّه إذا رجع إِلَى منزله رجع ويده خفيفة، ورانفته نظيفة، فلا من تقول له هات، ولا تلومه عَلَى ما فات"[2].

اقتحمَ الْأُدَبَاءُ دُرُوْبَ الحَيَاْةِ الأسريَّةِ، وتوغَّلوا في أسرارها، فلم يهملوا الخلافات الزَّوجيَّة كَثِيْرة الحدوث، وربَّما جاءت من هنا تسمية إحدى مقامات أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق بمقامة (مُقِيْمَة). فقد "كتبها لتسرَّ العزب والمتزوج معاً، وتوقيتها عِنْدَما رجع الفَارْيَاق إِلَى بيروت بعد زيارته إِلَى الجبل حَيْثُ أهله، وهَذَا يعني أنَّ الفارياق كان بعيداً عن زوجته الَّتِيْ تركها في مالطة"[3].

وَمِنَ الْمَوضُوْعاتِ الاجتماعيَّةِ الَّتِيْ تناولتها المَقَامَات، أدبُ المجالس، وَلَعَلَّ هَذَا الغرض من أكثر الْأَغْرَاضِ الَّتِيْ اهتمَّ بها الْأُدَبَاء، وقد برز ذلك فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ منذ نشأتها، واعْتَمَد فيه الْأُدَبَاء عَلَى تقنيتي الأمر والنَّهي الَّتِيْ تناسب المَوْقِف، وقد تنقَّل نَاصِيْف اليَازْجِيّ بين مَجْمُوْعَة من الآداب يصلح أنْ تكون دستوراً في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يَقُوْلُ: "وإيَّاك والغيبة، فهي بئس الرِّيبة، وانظرْ إِلَى معايبك قبل معايب صاحبك، واجتنبِ المزاحَ، فَإِنَّه يخفُضُ الجناحَ، ولا تكنْ إذا سألتَ ثقيلاً، ولا إذا سُئِلتَ بخيلاً، وَإِذَا جلستَ فاعرفْ مقامك، وَإِذَا حدثتَ فانتقدْ كلامك، وَإِذَا تكلَّمت ليلاً فاخفُضْ، وَإِذَا دُعيت إِلَى الولائم، فكن آخرَ جالسٍ، وأوَّلَ قائمٍ، ولا تجالسِ الخسيسَ، فَإِنَّه يزري بالجليس، ولا تدخلْ في الفضولِ، فتخرج عن القَبولِ"[4].

---

[1] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص 358).

[2] المَرْجِع السَّابق، ص359. الرَّانفة: أسفل الألية وطرفها الذي يلي الْأَرْض من الإنسان، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج1367/4)، مادة (رنف).

[3] المطويّ، أحمد فارس الشِّدْيَاق حياته وآثاره وآراؤه في النهضة الْعَرَبِيَّة الحديثة، (ج394/1).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الْأَدَبيّة)، (ص251).

لَقَدْ بَرَعَ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ أَيَّمَا براعةٍ في رصد مَجْمُوْعَة من الآداب الَّتِيْ تصلح أن تكون منهاجاً يُدَرَّس، وقد استلهم معظم هذه الآداب من الْقُرْآن الْكَرِيْم، والسُّنَّة النَّبويَّة، وقد حذَّر من كلِّ عيبٍ، وبرَّر علَّة التَّحذير، فقد حذَّر من الغيبة، وبَرَّر لذلك، وحذَّر من المزاح، وذكر علَّة التَّحذير، ونهى عن مجالسة الخسيس، والدُّخول في الفضول، وبَرَّرَ علَّة النَّهي، فأمتع السَّامع غاية الامتاع، وأقنع المُتَلَقِّي كُلَّ القناعة.

وَمِنَ الْمَوضُوْعاتِ الاجتماعيَّةِ الَّتِيْ عالجتها المَقَامَات العُثْمَانِيّة، وَبَرَعَ الْأُدَبَاءُ في تقديمها، الاختصام إِلَى الْقُضَاة، ففي (المَقَامَة الدّمياطيَّة) يصوِّر نَاصِيْف اليَازْجِيّ اختصام رجب وليلى عَلَى أنَّها امرأته، وتطليقه لها احتيالاً في تحصيل المهر حَيْثُ قال: "برزنا نجرُّ الأردية، حتى مررنا ببعض الأندية. وَإِذَا الْخُزَامِيّ ورجب، تليهما امرأة بادية الحَدَب، منادية بالحرب، وتقدَّم رجب كالأيهم، وهو قد بسر وتجهَّم، وقال:... إنَّ امرأتي عجوزٌ حمقاء، تلقاني بِلمَّةٍ بيضاءَ، وبشرةٍ سوداءَ، وعينٍ صفراءَ، ونكهةٍ دفراءَ...، وهي عَلَى ذلك بذيَّة اللسان، عريَّة من الإحسان، لا تذكر حرمة، ولا تشكر نعمة، تهرُّ كالكلاب، وتعوي كالذِّئاب،...كَانَتْ تمنحني الدُّخول إِلَى الدَّار، فصارت تمنعني المبيت حول الجدار"[1].

امتلك نَاصِيْف اليَازْجِيّ زمام البَلَاْغَة، وعنان الْخَيَال، وقد وظَّف هَذَا الْخَيَال في تصوير المَشْهَد عن طريق مَجْمُوْعَة من التَّشْكِيلات التَّشبيهيَّة الَّتِيْ تحمل فِيْ ثَنَايَاهَا كلَّ مَعَانِي القبح، ويكفي ذلك قوله: (وهي عَلَى ذلك بذيَّة اللسان، عريَّة من الإحسان، لا تذكر حرمة، ولا تشكر نعمة، تهرّ كالكلاب، وتعوي كالذِّئاب)، فكَيْفَ بنا لو أضفنا إِلَىْ ذَلِكَ: (إنَّ امرأتي عجوز حمقاء، تلقاني بِلمّةٍ بيضاءَ، وبشرةٍ سوداءَ، وعينٍ صفراءَ، ونكهةٍ دفراءَ). حَيْثُ لم يترك نَاصِيْف اليَازْجِيّ باباً من أبواب القبح الْمُوْصَدَةِ إلا طرقه، ولم يدع مَشْهَدَاً من مَشَاهِد الشَّيْنِ الْمَعْرُوفَة إلا قصده.

وَلَمْ تكنْ الْمَرْأَة بأقصر لساناً في حديثها أمام القاضي في ذلك المَوْقِف، تقول: "فثارت تلك الْمَرْأَة السَّفيهة، وقالت: يا للعضيهة! قد هتك هَذَا الوغد أستاري، حتى كأنَّه جردَّني من أطماري! ...أما تذكر عيبك وريبك؟ وشؤمك ولؤمك؟ وفاقتك المدقعة، وأسمالك المرقَّعة... ليت شعري ما أصنع برجلٍ أبردَ من عبقر، وأذلّ من فقعٍ بقرقر...وهو عَلَى ذلك أظلم من الخيفقان، وأنقص من الزبرقان"[2]. ويحمل النَّصُّ هنا مشهد صراعٍ بين الأنَا، والآخر لرسم مَشَاهِد القبح،

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الدّمياطيَّة)، (ص386، ص387). دفراء: منتنة.

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص388، ص389. العضيهة: الكذب والبهتان، أطماري: أثوابي البالية، القرقر: القاع الأملس، الخيفقان: رجل يضرب به المثل في الظُّلم، الزِّبرقان: القَمَر.

فقد انطلقت الْمَرْأَة تجابه الرَّجل وجهاً لوجهٍ، وتصارعه ندَّاً لندٍ، وربَّما تفوَّقت في هجائها المقذع معتمدةً عَلَى الاسْتِفْهَام الإنكاريِّ المتتابع فِيْ قَوْلِها: (أما تذكر عيبَك وريبَك؟ وشؤمَك ولؤمَك؟ وفاقتَك المدقعةَ، وأسمالَك المرقَّعةَ؟)، ولم تتوقَّف، وكَأَنَّهَا لم تكتفِ بِذَلِكَ، بل راحت تصبُّ جامَّ غضبها عليه، تتَّهمه بقبيح الصِّفَات عن طريق المقارنة فِيْ قَوْلِها: (ليت شعري ما أصنع برجل أبرد من عبقر، وأذلّ من فقعٍ بقرقر، وهو عَلَى ذلك أظلم من الخيفقان، وأنقص من الزبرقان)؛ عَلَّ ذلك يطفئ نار غيظها.

كَانَتِ المَقَامَةُ العُثْمَانِيَّةُ مرآةً صادقةً لِلْعَصْرِ، فقد عالجت كَثِيْراً من الآفات الاجتماعيَّة الَّتِيْ انتشرت في هَذَا العَصْر، مثل الجدال والمعارضة الَّتِيْ تثير الشُّرور بين النَّاس، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ ما قدَّمه كاتب (المَقَامَة الفكريَّة) لتلك الآفات فِي صُوْرَةٍ مرئيَّةٍ، يَقُوْلُ: "ورأيت أهلها أَيْضَاً متبدِّلي الأوضاع، متلوِّني الأَخْلَاق والطِّباع،...فتثور بينهم الشُرور في كَثِيْر من الأُمُوْر، لكثرة ما يقع بينهم من المعارضة والجِّدال، والمناقضة لما بينهم من مباينة الأهواء ومخالفة الآراء، وقد تعرض لهم الأفكار المناسبة، والآراء الصَّائبة، فتخلفها اللذات والشَّهوات، والْأَغْرَاض والحاجات، فالمروءة، واللطف، والمرحمة، قد يعارضها حبُّ الجاه، والحرص عَلَى نفوذ الكلمة، كَذَلِكَ الحلم، والتدبُّر يعارضه الغضب، والتَّهوُّر"[1].

وَمِنَ الآفَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِيْ صوَّرتها المَقَامَاتُ العُثْمَانِيَّةُ أَيْضَاً مشورة من هم ليس أهلاً للمشورةِ، وما يتبع ذلك من فَسَادٍ وضَلَالٍ، يَقُوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "ورأيت عِنْدَهُم خمسةً من الْأُمَرَاء، وأكابر الوزراءِ في مثابة السُّفراءِ...وأعجب ما رأيت عِنْدَهُم من سوءِ الحال، ودواعي النِّكال، وهي من أعظم الْأَسْبَابِ الدَّاعية لوقوع الفتنِ والاختلال أنَّ هَؤلاءِ الوزراءَ يستشيرونَ في بعض الأمرِ جماعةً تسمى بالْأَغْرَاض النَّفسيَّة من أهل الفساد، وطائفة أَيْضَاً تسمى بالخصال الذَّميمة من أهل الشَّر والعناد، والبغي والاستبداد، والزّيغ عن طريق السَّداد، وكلاهما مصرٌّ عَلَى رأيه، مصمم عَلَى غبّه وبغيه، فيشيرونَ بما يخالف صوابَ الصَّواب، ويُعاب عِنْدَ ذوي الأَلْبَابِ"[2].

إنَّ الْمَوضُوْعاتِ الاجتماعيَّةَ الَّتِيْ طرق أبوابها أُدَبَاءُ المَقَامَاتِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ قد تكون هي ذاتها الْمَوضُوْعات الَّتِيْ تناولها الْأُدَبَاء في العَصْرِ المملوكيِّ، وما سبقه من عصورٍ

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص6). الغب: الظلم، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج190/1)، مادة (غبب).

[2] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص6).

لم تهملْ معظمُ تلك الْمَوضُوْعات، وهذه طبيعةٌ، بل سنَّةٌ في شَتَّى العُصُوْرِ الأَدَبيَّةِ، وإنْ لم يظهرْ ذلك فِيْ الْمَقَامَةِ، فإنَّه ظهر في الفُنُوْن الأَدَبيَّة الأُخْرَى من نصائحَ ووَصَايَا، أو رسائلَ، وخطابةٍ.

ثالثاً: الْمَوضُوْعَاتُ الدِّيْنِيَّةُ

إنَّ الْعَلَاقَة بين الأَدَبِ والدِّينِ علاقةٌ متينةٌ، وإنَّ الصَّداقة بينهما صداقةٌ حميمةٌ، فالدِّينُ والأَدَبُ خليلانِ لا يفترقان؛ لِأَنَّ الْأَدِيْب هو الَّذِيْ ينشر ما في الدِّين من أخلاقٍ حميدةٍ، ويبشِّر بوصول رسالة الأَدَبِ الجيِّدِ الَّذِيْ يحمل في طيَّاته مكارمَ الأَخْلَاقِ.

لقد أبدعَ الْأُدَبَاء في تأليفِ مقاماتهم بهدف توصيلِ العظاتِ الدِّيْنِيَّةِ، والنَّصائحِ الخُلقيَّةِ إِلَى الْقَارِئ والسَّامع، ففي اليمن مثلاً كان رجال الدِّين، والمتصوفون الَّذِيْن ينهون عادة عن قراءة الكُتُب الدُّنيويَّة، كانوا يقبلون عَلَى قراءة مقاماتِ الحريريِّ، ويطلقون عَلَى تلك المَقَامَاتِ "طبق الحلوى" لما فيها من معارفَ مُتَنَوِّعَةٍ، في فنونٍ مُتعدِّدةٍ.

إنَّ الْمَوضُوْعَاتِ الدِّيْنِيَّة ظهرت في المَقَامَات منذ نشأتها، فقد أكثر روَّاد هَذَا الفنِّ من ذكر مثل هذه الْمَوضُوْعَاتِ، وبرز ذلك في مقامات بَدِيع الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ، ومقامات ابن الورديّ ومعاصريه لانتشار النَّزعة الصُّوفيَّة الَّتِيْ كَانَتْ تشيع في المجتمع آنذاك.

ومن البدهيِّ أن يحملَ العَصْر العُثْمَانِيّ مزيداً من القيم الدِّيْنِيَّة خَاصَّةً أنَّ المجتمع العُثْمَانِيّ قد صُبِغَت معالم حياته بالتَّدين، وتلونت بتلك الصّبغة الدِّيْنِيَّة.

إنَّنا إذا تطرقنا إِلَى مقاماتِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ، فَإِنَّنا نجده مُتفتِّحاً ببصيرته قبل بصره عَلَى الإسلام، ونلحظ هَذَا مِنْ خِلَالِ العنوان الَّذِيْ اختاره لمقاماته، حَيْثُ اختار اليَازْجِيّ عنواناً لها مقطعاً من آية من سورة الكهف[1]، وهو قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [الكهف: 60]، وَإِذَا عدنا إِلَى سياق استعمال هَذَا المقطع فِيْ النَّصِّ القرآنيِّ من أجل أن نربطه بالمَقَامَات لرأينا أنَّ سيدنا موسى – عَلَيْهِ السَّلَام – كان مسَافَراً مع غلامه، وهَذَا التَّطواف في الْأَرْض ما كان إلا لطلبِ نفعٍ صالحٍ تجسَّد في قصة سفره، للقاء من هو عَلَى علمٍ لا يعلمه، وغاية السَّفر هنا لم تكن من أجل بسط الملك والسُّلطان، ولكن لأجل تحصيل العلم والحكمة، إلا أن يبلغ وفتاه مَجْمَع البَحْرَيْن، إذْ إنَّ سفره كان مشروطاً بالانتهاءِ إِلَى مَجْمَع البَحْرَيْنِ، وهَذَا المكانُ حسب ابن عاشور "مكان من أرض فلسطين، والأظهر أنَّه مصبُّ نهرِ الأردن في بحيرة طبريَّة، فَإِنَّهُ النَّهرُ الْعَظِيمُ الَّذِيْ يمرُّ بجانبِ الْأَرْضِ

---

[1] يُنْظَر: ضيف، المَقَامَة، (ص85).

الَّتِيْ نزل بها موسى – عَلَيْهِ السَّلَام– وقومه، وكَانَتْ تسمى عِنْدَ الإسرائيليين، بحر الجليل"[1]. وهَذَا دليل عَلَى الجَانِب الدِّينيِّ في المَقَامَات فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيّ. وقد ذهب بعض العُلماء أنَّه "يريد بالبحرين النَّظْم والنَّثر"[2].

وَإِذَا عدنا إِلَى العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وتتبعنا خُطَى المَقَامَاتِ في هَذَا العَصْرِ نجدها تتزيَّنُ بالأدعيةِ، والمواعظِ الدِّيْنِيَّةِ، فنَاصِيْف اليَازْجِيّ مثلاً : "نجده في غير مقامةٍ يعظ ويذِّكر، ويدعو النَّاس إِلَى العملِ الصَّالحِ، ورفض الدُّنيا ومتاعها، وانتظار ما عِنْدَ الله وثوابه، والْأَمَل في جنَّته ورضوانه"[3]. وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قول نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة): الحمدُ للهِ الَّذِيْ جعل حرمه أمناً للعباد، ومقاماً للعُبَّاد، وهو الَّذِيْ خلق فسوَّى، وقدَّر فهدى، وأضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وهو الَّذِيْ جعل الْأَرْض مهاداً، والجبال أوتاداً، وبنى فوقكم سبعاً شداداً، والَّذِيْ مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان... فإنِّي طالما ارتكبت الأوزار، وتبطَّنت الأقذار، واجترحت المغارم، واستبحت المحارم، وانتهكت الأعراض، فسوَّدت منها كل بياض...وها أنا قد اعْتَمَدت الأوبة، واعتصمت بالتَّوبةِ، فادعوا الله لي أن يأخذني بحلمه، ويعاملني بفضله لا بعدله، ثم أخذ في الأجيج والضَّجيج، وجعل يراوح بين النَّحيبِ والنَّشيجِ، حتى أبكى من حضر، من البدوِ والحضرِ[4].

وَمِنْ رَوَائِع الأدعيةِ الَّتِيْ حملت نفحات الأمن والأمان ما حَمَلَتْهُ (المَقَامَة المعريَّة)، وقد وقف فارسها خطيباً عَلَى ضريحِ أبي العلاء، يَقُوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "إنِّي لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ، هيهات قد صار الْجَمِيْع قوماً بوراً، وجعلهم الدَّهرُ هباءً منثوراً! فاضمحلَّت محاسنهم، واشمعلَّت خزائنهم، ونُثلت كنائنهم، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم! فلينتبه الغافل، ولا يشتبه العاقل، وليعتبر كلُّ جبارٍ عنيدٍ، ويذَّكر من كان له قلبٌ، أو ألقى السَّمع وهو شهيد، وأعلموا أنَّ الله قد أرسلني إليكم نذيراً، وأقامني بينكم سراجاً منيراً، لأذكركم يوماً عبوساً قمطريراً، فلا تغفلوا عن شرب تلك الكاسِ، وهول ذلك اليوم المجموع له النَّاس، واتَّعظوا بمن تقدَّمكم من القرونِ والأقرانِ، ومن درج أمامكم من العُيُونِ والأعيانِ، وتوبوا إِلَى بارئكم واندموا عَلَى ما فات، فَإِنَّ اللهَ يقبل التَّوبة عن عباده، ويعفو عن السَّيئاتِ، واعْتَمَدوا حفظ الفروضِ والسُّننِ، ولا تلووا عَلَى

---

[1] ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، (ج362/15).

[2] ضيف، المَقَامَة، (ص85).

[3] المَرْجِع السَّابق، ص88.

[4] يُنْظَر: اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص421، ص422).

خضراء الدِّمن؛ فَإِنَّ المحافظةَ عَلَى الصَّلوات، ومكابدة الصَّوم، لا تنفع من يؤذي القوم، وتَجَشُّم الحج والعمرة، لا يزكِّي شارب الخمرة"[1].

إنَّ الملامحَ الدِّيْنِيَّةَ في مقاماتِ العَصْرَ العُثْمَانِيِّ، وفي هذه المَقَامَةِ تظهر جَلِيَّاً، ومن هذه الملامحِ الإكثار من الاستشهادِ بالْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، والحَدِيْثِ النَّبويِّ الشَّريفِ. بحَيْثُ لا نجد فقرةً من الفقراتِ فِيْ الْمَقَامَةِ السَّابِقَةِ إلا واقتبس فيها اليَازْجِيّ من الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، أو الحَدِيْثِ النَّبويِّ الشَّريفِ، ولم يقتصر الأثرُ الدِّينيُّ عَلَى هذهِ المَقَامَةِ فَقَطْ، بل يكاد يزيِّنُ مقاماتِ اليَازْجِيّ كَافَّةً.

وَمِنْ رَوَائِعِ الْوَصَايَا والمواعظِ الَّتِيْ حملتْ فِيْ ثَنَايَاهَا كلَّ إبداعٍ، ما حَمَلَتْهُ مقامة ابن الأَلُوسِيّ (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، حَيْثُ يوصي بالمحارمِ من الأحياءِ والأمواتِ، يترنَّم بها قَائِلَاً: "يا بَنِيَّ، اللهَ اللهَ في أخواتكم، وعُدُّوهن في عداد بناتكم، يا بَنِيَّ، الله الله في أمِّكم فلعمري لقد كَانَتْ تسترُّ بسروركم، وتغتمُّ لغمِّكم، وهي عَلَى علَّاتها عزيزة عِنْدَي، ولها في سري من الشَّفقة أكثر عليها مما أبدي، يا بَنِيَّ تعاهدوني بالزِّيارة والدُّعاء، واذكروني بالصَّدقة عَلَى ذوي الأرحام الفقراء، فقد انقطع صالح عملي إلا منكم، ولا يروي كاتب اليمين حَدِيثَاً حسناً إلا عنكم، بالله تَعَالَى عَلَيْكُمْ لا تغفلوا عني وأنا بين أطباق التُّراب، فعتبي عَلَى الله تَعَالَى ثمَّ عَلَيْكُمْ أيُّها الأبناء الأنجاب"[2]. ويختم الأَلُوسِيّ مقامة (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ) بأطيبِ الْكَلَامِ، يَقُوْلُ: "يا بَنِيَّ، عَلَى استيفاءِ الوَصَايَا لا أقوى، وجماع ذلك فيما أرى التَّقوى، فالتَّقوى التَّقوى، وليأتِ أحدكم منها بما يقوى، فثقوا بالله تَعَالَى أتمَّ الوثوقِ، وإيَّاكم أن تعتمدوا في أمرٍ عَلَى مخلوقٍ، وفقكم اللهُ لما يحب ويرضى، وحفظكم جَمِيْعَاً من سؤالٍ قضا"[3].

وقد حملتْ مقاماتُ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ مزيداً من وَصَايَا الأَخْلَاق، والأَدَب، الَّتِيْ كتبت بمدادٍ من الذَّهبِ، وحملت فِيْ ثَنَايَاهَا عظيمَ الخلقِ والأَدَبِ، فصارت مصابيح تنير الدُرُوْب، ومشاعل ترسم السُّبُلَ، وهَذَا كلّه نجده فِيْ قَوْلِ اليَازْجِيّ فِيْ الْمَقَامَةِ الأَدَبيَّة: "وَإِذَا بالرَّجل يَقُوْلُ: يا غلام ادنُ مني، وخُذِ الأَدَبَ عَنِّي. ثُمَّ قَالَ: يا بُنَيَّ عاملِ النَّاس ما استطعت بالإحسان، وكنْ بينهم عفيف الطَّرف، واليد، واللسان، وقابلِ النِّعمةَ بالشُّكرِ، وأحي الْجَمِيْلَ بالذِّكرِ، وحافظْ عَلَى الصَّديق، ولو في الحريق. وإيّاك والغيبة، فهي بئس الرِّيبة، وانظرْ إِلَى معايبك قبل معايب صاحبك، واجتنبِ المزاحَ فَإِنَّه يخفض الجناحَ، ولا تكن إذا سألتَ ثقيلاً، ولا إذا سُئلتَ بخيلاً، ولا

---

[1] يُنْظَر: نَاصِيْف، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المعريَّة)، (ص188، 189). اشمعلَّت: تبددت، نثلت: استفرغت، قمطرير: شديد.

[2] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (ص20، ص21).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص24.

تطلب ما في يد النَّاس، ولو طاقةً من الآس، وَإِذَا جلست فاعرف مقامك، وَإِذَا حدَّثت فانتقد كلامك"[1].

ويكملُ الْأَدِيْبُ حديثه بفواصلَ رائعةٍ من الوَصَايَا الأَدَبيَّةِ الَّتِيْ يصحُّ أن تكون وثيقةً في مكارمِ الأَخْلَاقِ، ووَصَايَا الأَدَبِ، يَقُوْلُ: "وَإِذَا تكلَّمتَ ليلاً فاخفضْ، وَإِذَا تكلَّمتَ نهاراً فانفضْ، وَإِذَا دعيت إِلَى الولائم، فكنْ آخرَ جالسٍ، وأوَّلَ قائمٍ، والزمِ الوداعةَ والحياءَ، واجتنبِ الرِّياءَ والكبرياءَ، واحذرِ الكسل، فَإِنَّه آفةُ العملِ، ولا تدخل في الفضولِ، فتخرج عن القبولِ، واعلمْ أنَّ الأَدَبَ أشرفُ من النَّسَبِ"[2].

فقد حملتْ هذه المَقَامَةُ الَّتِيْ وسمت بـ (المَقَامَة الأَدَبيَّة) عالماً من عَوَالِمِ مكارمِ الأَخْلَاقِ الَّتِيْ تضيء للسَّالكين الآفاق، ومن يتنقَّل بين حَدَائِق هذه المَقَامَة، فَإِنَّه يجد ما تقرُّ بها عينه، وتطرب لها أذنه، ويطمئن بها لبُّه، وقلبه.

ومن الْأُدَبَاءِ من نحا في وَصَايَاه مَنْحَىً آخرَ، فحملت من الدَّهاء والذَّكاء، ما لا يفهمه إلا الأذكياء، وَمِنْ رَوَائِع هذه الوَصَايَا قول اليَازْجِيّ في (المَقَامَة السّروجيَّة) الَّتِيْ خالف ظاهرها باطنها، وأرى أنَّ باطنها حمل الرَّحمة، وظاهرها كان ينذر بالعذاب، ولك أنْ تقول أنَّ اليَازْجِيّ قدّم لنا باقةً مُتَنَوِّعَة من أجمل الزُّهور، ونسائم رقيقة من أطيب العطور، يَقُوْلُ: "فَلَمَّا سكتت الضَّوضاء، وأعرض بوجهه إِلَى الفضاء، وقال: يا أبا عبادة إنِّي قد أزمعت السَّفر، ولا أدري هل يجمع بيننا القدر، فخذ عني ما ألقيه إليك، والله خليفتي عليك، قلت أطرف بما عِنْدَك لا ذقت فقدك، ولا حييت بعدك. فقال يا بُنَيَّ إذا ركبت متن الصَّحراء فاطلب خدَّ العذراء. وَإِذَا نمت فاعتنق الصَّبيَّ، ولا تصلِّ عَلَى النَّبيَّ، واقنع بالسَّمراء إذا عزَّت البيضاء. واشرب من كأس الفاجر لا من كأس التَّاجر، وتصدَّقْ عَلَى الأمير بجنى غرس الفقير، وَإِذَا كُلِّفت حمل الجنازة، فاطلب المفازة، وَإِذَا اعْتَمَدت السَّلب في اللَّيْل، فعليك بنهب الخيل. وَإِذَا دخلت الحلبة فاحذفِ السَّلام، واقتصرْ عَلَى ما كذب من الْكَلَام، وحرِّمِ الصَّبر عَلَى الأسير، والجبر عَلَى الكسير، واقطعِ السَّواعد، ولا تتبع القواعد، واخترْ من النِّساءِ العليلةَ المتنصِّفةَ، واحذرِ الْجَمِيْلَة المتعفِّفةَ، وأعرضْ عن الشَّافع إِلَى الدَّافع، وانحرِ الشَّاري كالبائع، واضربِ السَّاعي بعصا الرَّاعي، وفضِّلِ القوافل عَلَى النَّوافل، والغريب عَلَى النَّسيب، والإجازة عَلَى الإمارة، وقدِّمْ زيارة الميت عَلَى حجِّ البيت، واحذر لنفسك من الصَّوم، وادخل السُّوق عِنْدَ النَّوم، واتبعْ ملاح الجواري، ولا تتبع

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الْأَدَبيّة)، (ص250).

[2] المَرْجِع السَّابق، ص252.

الْأَدِيْب والْقَارِئ، واطردِ اللَّابسَ، وأكرمِ العاريَ، وافترسِ اللَّيْلَ والنَّهَارَ، حَتَّى يتيسَّرَ لك الفرار، واحرصْ عَلَى الأعراض دون الجواهر، واعدلْ عن المسلمات دون الكوافر، وكنْ من العواطل، ولا تحاولْ قطع خيط الباطل. وأنكرِ الشَّهادة حَيْثُ لا ترى الإفادة، واضربْ كبدَ الإمام، واستعد لله ما بقيت والسَّلام"[1].

إنَّ المستمعَ لظاهرِ هذه الوصيَّة قد يظنُّ أنَّ ما فيها من الوَصَايَا المغلوطة الَّتِيْ تجرُّ عَلَى صاحبها الويلَ، لكنَّ المدرك لِلْمَعْنَى يجدُ في الوصيَّة مراده، ويحقق مرامه، فكَثِيْر من مَعَانِي هذه الوصيَّة تحمل عكس الظَّاهر، فعَلَى سبيل المثال معنى قَوْلِهِ: (إذا ركبتَ متنَ الصَّحراء فاطلبْ خدَّ العذراءِ. وَإِذَا نمتَ فاعتنقِ الصَّبيَ، ولا تصلِّ عَلَى النَّبي)، فَإِنَّ العذراء بِمَعْنَى: الكوفة، والصَّبي: بِمَعْنَى السَّيف، والنَّبي بِمَعْنَى: الطَّرِيْق. أَمَّا قَوْلُهُ: (وَإِذَا كلِّفت حمل الجنازة، فاطلب المفازة)، فَإِنَّ الجنازة بِمَعْنَى: زقّ الخمر، وأما المفازة فهي بِمَعْنَى: النَّجاة، أو الفلاة. وأَمَّا قَوْلُهُ: (واعدل عن المسلمات دون الكوافر)، فَإِنَّ المسلمات بِمَعْنَى: اللواتي يبتذلن الرِّجال، والكوافر بِمَعْنَى: المستترات. وأَمَّا قَوْلُهُ: (وحرِّم الصَّبر عَلَى الأسير، والجبر عَلَى الكسير، واقطع السَّواعد، ولا تتبع القواعد، واختر من النِّساء العليلة المتنصِّفة، واحذر الْجَمِيْلَة المتعففة)، فَإِنَّ الصَّبر هنا بِمَعْنَى: الحبس حتى الموت، والجبر بِمَعْنَى: القهر والاغتصاب، واقطع السَّواعد بِمَعْنَى: اعبر مجرى الماء، والقواعد بِمَعْنَى: النِّساء اللواتي لم يتزوجن، وَمِنْهُ قول الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى في سورة النور: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: 60]، وأما العليلة فَإِنَّ معناها الظَّاهر: المريضة، لكنَّ معناها في الوصيَّة: المطيَّبة مرَّةً بعد أُخْرَى، وأما المتنصِّفة فهي المستترة بالنَّصيف، وهو الحجاب، وأما المتعفِّفة من النِّساء: فهي الَّتِيْ تشرب فضلة اللبن، وقوله: (وقدِّم زيارة الميت عَلَى حجِّ البيت)، فَإِنَّ الميت بِمَعْنَى: المريض بنحو الصَّرَع، وحجّ البيت بِمَعْنَى: زيارة القبور[2].

وإِلَى جانب ما تحمله المَقَامَة السّروجيَّة من إثارة الذِّهن، وعصف العقل، فَإِنَّها قد تدخل تحت مسمى الأحاجي والمعمَّيات، فكلُّ جملةٍ من جمل المَقَامَة السّروجيَّة تقوم مقام أحجيةٍ تحتاج إِلَى حلٍّ، أو لغزٍ يحتاج إِلَى توضيحٍ، وكلُّ ذلك يُظهر أَمَامَنَا ما لكتَّاب المَقَامَة من

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة السَّروجيَّة)، (ص175– ص177).

[2] يُنْظَر: اليَازْجِيّ، هوامش مَجْمَع البَحْرَيْن، (ص175– ص177).

رجاحة فكرٍ، وفطانة عقلٍ تفوق من يَرْسِمُ بريشته أَرْوَع المَشَاهِد، أو يعزف بآلته أعذب الْأَلْحَان، وينشد بصوته أجمل الْأُغْنِيَات.

رابعاً: الْمَوضُوْعَاتُ السُّلوكيَّةُ، والْأَخْلَاقِيَّةُ

ارتبطَ الأَدَبُ بالدَّعوة إِلَى الأَدَب ومكارم الأَخْلَاق منذ بداياته الْأُوْلَى، وقد تناول هَذَا الارتباط كَثِيْرٌ من العُلَمَاْء، يَقُوْلُ الماورديُّ: "اعلمْ أنَّ النَّفسَ مجبولةٌ عَلَى شيمٍ مهملةٍ، وأخلاقٍ مُرْسَلَةٍ، لا يستغني محمودها عن التَّأديب، ولا يكتفي بالمرضي منها عن التَّهذيبِ؛ لِأَنَّ لمحمودها أضداداً مقابلةً يسعدها هوىً مُطاعٌ، وشهوةٌ غالبةٌ، فإنْ أغفلَ تأديبها تفويضاً إِلَى العقل، أو توكُّلاً عَلَى تنقاد إِلَى الأحسن أعدمه التَّفويض درك المجتهدين، وأعقبه التَّوكُّل ندم الخائبين، فصار من الأَدَب عاطلاً، وفي صورة الجهل داخلاً؛ لِأَنَّ الأَدَب مكتسبٌ بالتَّجربةِ، أو مُسْتَحْسَنٌ بالعادةِ، وَلِكُلِّ قومٍ مواضعةٌ، وَذَلِكَ لا ينال بتوقيف العقل، ولا بالانقياد بالطَّبع حَتَّى يكتسب بالتَّجربة والمعاناة، ويستفاد بالدُّربة والمعاطاة، ثم يكون العقل عليه قيماً، وزكي الطَّبع إليه مسلماً، ولو كان العقلُ مُغْنِيَاً عن الأَدَبِ لكانَ أنبياءُ اللهِ عن أدبه مستغنينَ، وبعقوله مكتفينَ"[1].

إنَّ الحَدِيْثَ عن علاقة الأَدَب بالأَخْلَاق يطول، وخير دليلٍ عَلَى ذلك أنَّ الفاروق، عمر ابن الخطاب – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – كتب إِلَى أبي موسى الأشعريِّ واليه عَلَى الكوفة يَقُوْلُ له: "مُرْ من قبلك يتعلم الشَّعرَ؛ فَإِنَّه يدلُّ عَلَى معالي الأَخْلَاقِ، وصوابِ الرَّأيِ، ومعرفةِ الأنسابِ"[2].

وَإِذَا عاد الْقَارِئ أو الدَّارِس إِلَى المَقَامَة، وتتبَّعَ خطاها، وسلك سبلها، وقطع دُرُوْبها، فَإِنَّه يلحظ أنَّ النُّصُوْص المَقَامِيَّة حملت منذ نشأتها هدف تعليم النَّاشئة الْلُّغَة الْعَرَبِيَّة وأَسَالِيْبها، كَمَا أَنَّ معظمها كَانَتْ تقوم عَلَى الوعظ والإرشاد. ولم تخالف المَقَامَات فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ هذه السُّنَّةَ، فقد سارت عَلَى درب أخواتها في العُصُوْر السَّابِقَةِ.

إنَّ الدَّارسَ لِلْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، البَاْحِث عن السُّلوك والأَخْلَاق يجد ضالته في كَثِيْر من المَقَامَات، وعَلَى رأس تلك المَقَامَات، (المَقَامَة الفكريَّة)، فهذه المَقَامَةُ رصدتِ الْمَوضُوْعات السُّلوكيَّة، والأَخْلَاقيَّة بِطَرِيْقَةٍ رائعةٍ، بل وبأسلوبٍ متفرِّدٍ، وبأكثر من وجهٍ، فهي تستخدم أسلوبي الطِّباق، والْمُقَابَلَة في تقديم السُّلوك، والأَخْلَاق للقارئ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يقرِّبُ إِلَى الأذهان الْمَوضُوْعاتِ بِطَرِيْقَةٍ واضحةٍ، ويبرزها بأسلوبٍ جَلِيٍّ. كَمَا أَنَّ المَقَامَة الفكريَّة لم تترك خلقاً حميداً

---

[1] الماورديّ، أدب الدُّنيا والدِّين، (ص284).

[2] القيروانيّ، العمدة، (ج28/1).

إلَّا ورصدته، ولم تدعْ وصفاً ذميماً إلا ورسمته، فرصدتْ من مكارمِ الأَخْلَاق الصَّبرَ، الحلمَ، البصيرةَ، التَّواضعَ، الجودَ، الكرمَ، الرِّفقَ، والحياءَ، والاستقامةَ، والعفَّةَ، والسَّلامةَ...، ورسمت من الأوصافَ الذَّميمةَ الغضبَ، الحسدَ، الجهلَ، الحمقَ، المناقضةَ، الجدلَ، الشُّحَّ، والْبُخْلَ.

وَمِنْ رَوَائِع الْأُسْلُوبِ فِيْ الْمَقَامَةِ الفكريَّة، ومن جاذبيَّة عرضها أنَّها تَتَنَاوَل مكارم الأَخْلَاق أَوَّلاً، ثُمَّ تتبع ذلك بمساوئها في أكثر من موضعٍ بطريقة التَّصْوِيْر البارع، وَمَا يَحْمِلُهُ هَذَا التَّصْوِيْر من توضيحٍ، وتجسيمٍ، وتشخيصٍ، فقد قدَّمت هذه المَقَامَة الصِّفَات المحمودة في ثوبٍ قشيبٍ، والصِّفَات المذمومة في لونٍ غريبٍ، وشكلٍ عجيبٍ.

وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ في هذه المَقَامَة قَوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ عِنْدَ تناوله لخلق الاستقامة، وصفتي العفَّة والسَّلامة: "ثم نظرت إليه، فرأيت عِنْدَه امرأتين ظريفتين عفيفتين، قد زانهما الحسن والْجَمَال، وعلاهما الأَدَب والْكَمَال، وفي يد كلِّ واحدةٍ شعلة تسطع نارها، وتكاد تغشى الأبصار أنوارها، وعِنْدَهُما جارية جثتها عارية، وفي يدها مرآة كَثِيْرة البريق، مستورة بغشاءٍ رقيقٍ، فكَانَتْ تديرها إليَّ، ولا تزال تجلوها عليَّ، فسألت الدَّليل عنهن، فقال إحداهنَّ الاستقامة، والثَّانية العفَّة، والثَّالثة السَّلامة"[1].

وفي المقابلِ لَمْ يُهْمِلِ الْأُدَبَاءُ تصوير مساوئ الأَخْلَاق، وَمِنْ شَوَاهِدِ تصوير الأَخْلَاق الذَّميمة ما رسمه عَبْد الله فِكْرِيّ للغضب والحسد، يَقُوْلُ: "وصرفت نظري عن تلك الجهة بأسرها، ودقَّقت النَّظر في جهة ذلك الملك العادل، لَعَلِّي أنسى ما رأيت من ذَلِكَ المنظر الهائل، فَإِذَا عِنْدَ تخت سلطنته، عن ميسرته وميمنته أمورٌ عجيبةٌ، وأشياءُ غريبةٌ تستوقع الطَّرفَ، وتستدعي الوَصْفَ، وبينها شخصٌ مهيبُ المنظرِ، عجيبُ الخبرِ والمخبرِ، حديدُ المزاجِ، بعيدُ العلاجِ، قويٌّ شديدٌ، عنيدٌ مريدٌ، قليلُ التَّفكُّر والتَّدبُّر، كَثِيْر التَّهوُّرِ والتَّكبُّرِ، وهو يلحظ الحاضرين شزراً، ويوسعهم فحشاً وهجراً، ويكثر لمن يكلمه نهراً وزجراً، وهو أرعنُ أحمقُ، أهوجُ أخرقُ، لا يمسّ شَيْئَاً إلا مزَّقه، ولا يعالج أمراً إلا أتلفه وخرقه، فقلت للدَّليل ما هَذَا الشَّخص؟ فقال هَذَا هو الغضب، ثم رأيت في طرفٍ آخر شخصاً نحيلَ البدنِ، طويلَ الحزنِ، أصفرَ اللَّوْنِ، أحمرَ العَيْنِ، أضناه الهمُّ، وأفناه السَّقمُ والغَمُّ، وبإحدى يديه قدحٌ فيه سمٌّ ناقعٌ، وفي اليد الأُخْرَى منه سيفٌ قاطعٌ، وهو لا ينفكُّ يسكب السُّمَّ عَلَى بدنه ورأسه، ويجرح بِذَلِكَ السَّيفِ الباترِ أعضاءَ نفسه، فقلت من هَذَا الشَّخص البادي الكمد، البالي الجسد، فقال: هَذَا هو الحسد"[2].

---

[1] فكري، عبد الله، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص284).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص285.

ومن مساوئِ الصِّفَاتِ الَّتِي تناولها الأُدَبَاءُ، الشَّهْوَةُ الحيوانيَّةُ في بعضِ البشرِ، يَقُوْلُ عَبْدُ الله فِكْرِيّ: "نظرت فَإِذَا في الطَّرفِ الآخر شابـةٌ ذاتُ جمـالٍ فاخرٍ، ودلالٍ ظاهرٍ، وحسنٍ زاهرٍ، ومنظرٍ باهرٍ، وهي تسحر العُقُوْل بألفاظها، وتسخر القُلُوْب بألحاظها

إِذَا أَبْصَرْتَ قلباً خليّاً مِنَ الهَوَى تَقُـوْلُ لَـهُ كُـنْ مُغْرَمَـاً فَيَكُـوْنُ

وعَلَى رأسها تاجٌ من الزَّهرِ كالكواكبِ لدى البدرِ، ورأيتها تتكلَّم بفصاحةِ لسانٍ، وتتفنَّن في أَسَالِيْب البيان، فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرِي عَلَيْهَا لَمْ أَتَمَالَكْ أَنْ صَبَوْتُ إِلَيْهَا، وَكِدْتُ أَصِيْرُ أَسِيرَ جَمَالِهَا، وَرَهِيْنَ حِبَالِهَا، وَصَرِيْعَ نِبَالِهَا، فَسَأَلْتُ دَلِيْلِي عَنْهَا، وَقَدْ تَفَرَّسَ مَا أَصَابَنِي مِنْهَا، فَقَالَ هَذِهِ تُعْرَفُ فِيْ الْمَمْلَكَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِالشَّهْوَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ، وَهِيَ مَعْ مَا لَهَا مِنَ الْجَمَالِ، عَارِيَةٌ عَنْ خِلَالِ الْكَمَالِ"[1].

ومن أَرْوَعِ المَقَامَاتِ الَّتِيْ تناولت مكارم الأَخْلَاق، مَقَامَةُ (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ) لابن الأَلُوسِيّ، وفيها باقةٌ منتقاةٌ من روائع الوَصَايَا لأبنائه، يَقُوْلُ: يا بَنِيَّ من رأيتموه يطير في الهواء، ويمشي عَلَى وجه الماء، وقد خالف شَيْئَاً من الشَّريعة الغرَّاء فهو من أولياء الشَّيطان، لا من أولياء الرَّحمن، فإيّاكم وإيَّاه، واشتغلوا عنه بتقوى الله...يا بَنِيَّ، جودوا بالمال في موضع الحقِّ، وابخلوا بالْأَسْرَار عَلَى جميع الخلق؛ فَإِنَّ أَحْمَد جود المرء الإنفاق في وجه البرِّ، وأكرم بخل المرء الضَّنُ بمكتوم السِّرِّ... يا بَنِيَّ، بالغوا في كتم الْأَسْرَار، لاسيَّما عن الأشرار، ولا ترغبوا في نقل الأخبار، ولو للسَّادة الأخيار، فَرُبَّ أمرٍ فشا يكون لصاحبه نعشا، وَرُبَّ نقلٍ يوصل صاحبه إِلَى القتل...يا بَنِيَّ، إذا أحببتم فلا تُفرِطوا، وَإِذَا بغضتم فلا تفرِّطوا، فَإِنَّه كان يقال: أحببْ حبيبك حبَّاً ما عسى أَنْ يَكُوْنَ بغيضك يوماً ما، وابغضْ بغيضك هوناً ما عسى أَنْ يَكُوْنَ حبيبك يوماً ما... يا بَنِيَّ إيَّاكم وكثر المزاح فَإِنَّ منه ما هو كطعنِ الرِّماح، وإنَّه لينفر الرَّفيق، ويوغر صدر الصَّديق...يا بَنِيَّ، لا تتكلموا في أحدٍ بما يوجب الاستغفار، ويحوج يوماً من الأيام إِلَى الاعتذار، واعلموا أنَّ مقولة السُّوء تسرع إِلَى أهلها إسراع السَّيل ينصب في الْحُدُوْد، وتنقض إليهم بأجنحة نقلتُها كالطَّير ينقض إِلَى مألوف الوكود...فاحفظوا ألسنتكم، واجعلوا ذلك طبيعتكم[2].

إنَّ ابن الأَلُوسِيّ وضعَ دستوراً تضمَّن صفحاتٍ ناصعةً احتوت جلَّ مكارم الأَخْلَاق، وعظيم الآداب، من قرأها وحفظها، ضمن الأمان والسَّلامة، ومن خالفها انتهى به المطاف إِلَى

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص284).

[2] يُنْظَر: ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ (ص7- ص13).

الخسران، والنَّدامة، وَمِمَّا زادَ هذه الوصيَّة جَمَالاً أنَّ كلَّ أمرٍ فيها تبعه ما يبرره، وكلّ نهيٍ بين سطورها أردفه بعلَّة النَّهي، مع ما حَمَلَتْهُ الوصيَّةُ من حكمٍ حكيمةٍ، ومُثلٍ صالحةٍ لكلِّ مكانٍ وزمانٍ.

خَامِسَاً: الْأَلْغَازُ، والْأَحَاجِي، وَالْمُعمَّيَاتُ:

الألغازُ، والأحاجي، والمعمَّياتُ مُصطلحاتٌ متعددةٌ لعملةٍ واحدةٍ، و"أما اللغز فَإِنَّه من ألغز اليربوع، ولغَّز إذا حفر لنفسه مستقيماً، ثم أخذ يمنةً ويسرةً ليُعمِّي بِذَلِكَ عَلَى طالبه، وهو قولٌ استعمل فيه اللَّفظ المتشابه طلباً للمعاياة والمحاجاة. والفائدة في ذَلِكَ في العُلُوْمِ الدُّنيويَّةِ رياضة الفكر في تصحيح الْمَعَانِي، وإخراجها عَلَى المناقضة، والفساد إِلَى معنى الصَّواب، والحقِّ، وقدح الفطنة في ذلك، واستنجاد الرَّأي في استخراجه"[1].

إنَّ المتتبعَ لفنِّ المَقَامَات منذ بدايات ظهوره يجد أنَّه اعْتَمَد عَلَى الألغاز والأحاجي اعتماداً كَبِيْرَاً، وقد أَطْلَق نَاصِيْف اليَازْجِيّ عَلَى إحدى مقاماته "المَقَامَة اللُّغزيَّة"، وتضمَّنتْ هذه المَقَامَةُ ألغازاً في مُسَمَّياتٍ شَتَّى، كما تضمَّنت المَقَامَة الأَدَبيَّة، والمَقَامَة الأزهريَّة، والمَقَامَة الحليَّة له معمَّيات، وأحاجي مختلفة في مسائلَ مُتَنَوِّعَةٍ. وَمِنْ شَوَاهِدِ الألغازِ والأحاجي فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ فِيْ الْمَقَامَةِ الأزهريَّة: "فانتدب سجيته السِّبَطرة، ورفع عقيرته الضِّبطرة، وأنشد يَقُوْلُ:

أيُّهَــا الرَّاكــبُ المُــيمِّم مِصْــرَاً ... ألــقِ سَــمْعاً فَلِلْحَــدِيْثُ فُنــونُ

دُوْنَ مِصْـرٍ عَـيْنٌ وعَـيْنٌ وعَـيْنٌ ... قَــامَ فِيهَــا نُــونٌ ونُــونٌ ونُــونُ

قال فطارتِ السِّنةُ من الجفون، بين تلك العَيْن والنون، وتحدَّث القوم بما يكون وما لا يكون"[2]. وَلَعَلَّ (المَقَامَة اللغزيَّة) تبرز لنا ملامح اهتمام كتَّاب المَقَامَة فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ بالألغاز والأحاجي والمعمَّيات، فقد حوت هذه المَقَامَة مزيداً من الألغاز، فقد أنشد فارسها مُلغِزاً في الْقَمَرِ:

---

[1] الكاتب، البرهان في وجوه البيان، (ص67، ص68).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الأزهرية)، (ص67، ص68). السِّبطرة: الماضية، الضِّبطرة: الشَّديدة، عين الأولى: ماء . عين الثانية: رصد . عين الثالثة: رئيس. نون الأولى: حوت ، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. نون الثانية: سيف. نون الثالثة: دواة. يعني أن بينهم وبين مصر مياهاً تقف فيها الأسماك، ولصوصاً تقف بأيديهم السُّيوف، ورؤساء ذوي محابر وأقلام.

وَمَوْلُـــــودٍ بِـــــدُوْنِ أَبٍ وَأُمٍّ بِـــلَا قُـــوْتٍ يَعِـــيْشُ، وَلَاْ يَمُـــوْتُ

لَـــهُ وَجْـــهٌ وَلَـــيْسَ لَـــهُ لِسَـــانٌ، فَيُخْبِرُنَـــا وَيلْزمُـــهُ السُّـــكوتُ[1]

وأنشد مُلغزاً في النَّارِ:

أيُّ صـــغيرٍ يَنْمُـــو عَلَـــى عَجَـــلٍ يَعِـــيْشُ بِـــالرِّيْحِ، وَهِـــيَ تُهْلِكُـــه

يَغْلِـــبُ أَقْـــوَى جِسْـــمٍ، وَيَغْلِبُـــهُ أَضْـــعَفُ جِسْـــمٍ بِحَيْـــثُ لَا يُدْرِكُـــه[2]

ومن الألغازِ كَذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الإسكندريَّة): "ولقد رأيتك تخوض في المعقول والمنقول، وتمزج الفروع بالْأُصُوْلِ. إنْ كنتَ من العُلَمَاْء، فما هي أنواع الإنشاء؟ وبماذا يفرِّق أهل الدِّراية بين الاسْتِعَارَة والتَّشبيه، وبينها وبين الْكِنَايَة؟ وما هي المقولات العشر، والكليَّات الخمس، وما هو التَّناقض في القَضَاْيَا والعكس؟ فارتبك الرَّجل فِيْ تِلْكَ المسائل، ولم يكن عِنْدَه طائل ولا نائل. قال: إن كنت قد أنكرت هذه النَّظائر، فكم طائفة في جناح الطَّائر؟ وإن كنت قد استخشنت الشِّرَس، فكم دائرة في جلد الفرس؟ فإن رأيت التَّخفيف أحبّ، فكم عقدةٍ في ذنب الضَّبِّ؟"[3].

وقد أبدع أُدَبَاءُ المَقَامَة كَذَلِكَ في الأحاجي الفقهيَّة، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الإسكندريَّة): "فَقَالَ: إنِّي أراك بين الفقهاء، كالمستعصم بين الخلفاء! إنْ كنتَ فقيهَ العَصْرِ فأيُّ رجلٍ صَحّ بيعُهُ أباه، واستحق الثَّمن فاستوفاه؟ وأيُّ غاصب لا يبرأ بالرَّدِّ عَلَى المالك، وأيُّ رجلٍ أتلف شَيْئَاً فلزمه شيئانِ هنالك، وأين تُرَدُّ شهادةُ مسلمينِ، وتُقبل شهادة ذميَّينِ؟"[4].

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة اللغزيَّة)، (ص204).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص205.

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الإسكندريَّة)، (ص401). قيل في جناح الطائر خمس طوائف، وفي جلد الفرس ثماني عشرة دائرة، وفي عقد الضّب إحدى وعشرون عقدة.

[4] المَرْجِع السَّابِق، ص398. أما مسالة الرجل الذي باع أباه، فهي فيما إذا رجل أذن لعبده أن يتزوج حرَّة ففعل، فولدت له ابناً، ثم ماتت فورثها ابنها، فطلب الابن مالك أبيه بمهر أمه، فوكّله في بيع أبيه، واستيفاء المهر من ثمنه ففعل فجاز. وأما مسالة الغاصب ففيما إذا كان المالك المغتصب صبيَّاً لا يعقل، فإن الغاصب لا يبرأ بردّ مالهُ عليه، ويضمن ما أتلفه له مرة أخرى. وأما مسألة من أتلف شيئاً فلزمه شيئان، ففيما إذا أتلف أحد مصراعي الباب، أو زوجي الخُفّ ونحوهما، وأما مسألة الشَّهادة ففيما إذا مات ذميٌّ وله ابنان مسلمان، فشهدا أنه مات ذميَّاً، وشهد ذميَّان أنه مات مسلماً، فتُقبل هذه، وتُردُّ تلك. (هامش ص399).

سَادِساً: الطِّبُّ وَالْفَلَكُ

لَقَدِ اهتمَّتِ المَقَامَاتُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ بالعُلُوْم، فتناولَ أدباؤها العُلُوْم المُخْتَلِفَة، فوصفوا الطِّبَّ والأطباء، وصعدوا إِلَى الفَلَكِ، ومن تفوَّق من علماء، فذكروا الكواكبَ السيَّارةَ، والبروجَ والْمَنَازِلَ في السَّمَاء، ولم يهملوا النُّحاة والْأُدَبَاء، فكلٌّ كان له نَصِيْبٌ من إبداعاتهم، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ حديثهم عن الطِّب والأطباء، يَقُوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الطِّبيَّة) مبيناً فضل الطِّبِّ والأطباء: "أما بعد فَإِنَّ هَذَا العلم أفضل عُلُوْم الدُّنيا جَمِيْعَاً؛ لِأَنَّه أشرفها موضوعاً، وهو أدقُّها نظراً، وأجلُّها خطراً، وأقدمها وضعاً، وأعظمها نفعاً، وأغمضها سريرةً، وأوسعها حظيرةً. وهو يستطلع الخبايا. حَتَّى قيل: إِنَّهُ وحيٌ قد هبط عَلَى الأطباء، كما هبط الوحي عَلَى الْأَنْبِيَاء. وصاحب هذه الصِّناعة أروج النَّاس بضاعةً، وأربحهم تجارة، وأشهاهم زيارةً، وأكسبهم أجرةً وأجراً، وأنفذهم نهياً وأمراً، وعليه مدار الأعمالِ والمهنِ، وقيام الفروضِ والسُّننِ، فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لا يتمُّ إلَّا بصحَّةِ البدنِ"[1].

لم يتوقَّفْ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ عِنْدَ عُلُوْم الطِّب فَقَطْ، بل تجاوزوا ذلك إِلَى علم الفلك، ومع هَذَا العلم ارتحل الْأُدَبَاءُ من الْأَرْض إِلَى عنان السَّماء ليرسموا مِنْ خِلَالِ نصوصهم بعض المَشَاهِد الكونيَّة الَّتِيْ تمثِّل عَدَدَاً من آيات الله في مخلوقاته، ومن مَشَاهِد هذه الآيات قول نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الفلكيَّة): "وَإِذَا شيخٌ أطولُ من شهر الصَّوم، قد قام في صدر القوم، وهو يقسم تارة بالخنَّس، وطوراً بالجواري الكنّس، ويلهج مرَّةً بمواقع النُّجوم، وأُخْرَى بفواقع الرُّحوم... إنْ كنت من علماء الفلك، فأفدنا ما سيَّارة النُّجُوم، والفضل لك، فلم يكن إلا كَحَلِّ عقالٍ، حَتَّى أَنْشَدَ فَقَالَ:

تِلْـكَ الـدَّرَارِي: زُحَـل فَالمُشْـتَرِي ... وَبَعْـدَهُ مَرِّيْخُهَـا فِـيْ الأَثَـرِ

شَـمْسٌ فزهـرةٌ عَطَـارِد قَمَـر ... وَكُلُّهَـا سَـائِرَةٌ عَلَـى قَـدَرِ

قَالَ ذَلِكَ من أجوبةِ العُلَمَاْءِ، فما هي أبراج السَّمَاء؟ فنظر إليه نظرة الصِّلِّ الأصَمِّ، وقال اسمع وَخَلَاكَ ذَمٌّ:

مِنَ البُرُوْجِ فِـيْ السَّمَاءِ الحَمَلُ ... تَنْـزِلُ فِيْـهِ الشَّـمْسُ إِذَا تَعْتَـدِلُ

والثَّـوْرُ والجَـوْزَاء نِعْـمَ المَنْزِلَـة ... وَسَـرَطَانٌ أَسَـدٌ وَسُـنْبُله

---

[1] اليَازْجِيّ، نَاصِيْف، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الطبيَّة)، (ص226).

كَــذَلِكَ المِيْــزَانُ ثُــمَّ العَقْــرَبُ قَـوْسٌ وَجَـدْيٌ دَلْـوُ حُـوْتٍ يَشْـرَبُ[1]

سَابِعَاً: الْوَصْفُ

عَشِقَ فرسانُ المَقَامَةِ غرضَ الوَصْفِ، وتنقَّلوا فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّة بين حَدَائِقَ مُتَنَوِّعَةٍ من هَذَا الغرض، فَقَطَفُوا جميل ثمارها، ونشروا عبير ورودها، فقد اتَّسعتْ مقاماتهم حَتَّى استوعبت أشكالاً متعدِّدة، وضروباً مُتَنَوِّعَة كَانَتْ متعةً للمتذوقين، ومن هذه الضُّروبِ ما يَأْتِي:

1- وَصْفُ الطَّبِيْعَةِ:

حفلتْ كَثِيْرٌ من المَقَامَات فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ بوصف الطَّبِيْعَة، ومظاهر جمالها، وآيات الحسن فيها، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ اللَّوْحَة الرَّائعة الَّتِيْ قدمها نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الفراتيَّة)، يَقُوْلُ: "نزلنا بشاطئ الفرات في إحدى السَّفرات، فراقنا ما هُنَالْكَ من المياه الخصِرة، والخمائل النَّضرة، ولبثنا أياماً نتنقَّل فِيْ تِلْكَ المروج، كما تتنقَّل الكواكب في البروج، ونجتلي مفاكهة السَّمر، كما نجتني مفاكهة الثَّمر، ونتوسَّد كلَّ قِضَّة أنقى من الفضَّة، ونرد كلَّ سبيل، أعذب من السَّلْسَبِيْلِ"[2]. حَيْثُ رسم اليَازْجِيّ صورةً بارعةً لمَّا انتقل من روائع الْجَمَال في الْأَرْض إِلَى بدائع الحسن في السَّمَاء، مُعْتَمِدَاً عَلَى الْبنْيَة التَّشبيهيَّة التَّمثيليَّة فِيْ قَوْلِه: (ولبثنا أياماً نتنقل فِيْ تِلْكَ المروج، كما تتنقل الكواكب في البروج)، متحرِّكاً بين المروج، وارداً كلّ منهلٍ أعذب من السَّلْسَبِيْلِ، موشِّحاً وصفه بضروبٍ مُتَنَوِّعَةٍ من الجِنَاس النَّاقِص، منها: الجِنَاس اللاحق فِيْ قَوْلِه: (المروج، والبروج)، و(نجتلي، ونجتبي)، والجِنَاس المصحَّف فِيْ قَوْلِه: (قِضَّة، وفِضَّة)، والجِنَاس المطرَّف فِيْ قَوْلِه: (سبيل، وسلسبيل).

ومن مَشَاهِدِ وصفِ الطَّبِيْعَة أَيْضَاً قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الحمويَّة): "قال سهيل بن عباد: لقيت الْخُزَامِيّ في حماة، فانضويت إِلَى حماه، ولبثت أتنسم ريَّاه، وأترشف حميَّاه، وهو يطوف بي عَلَى الرِّياض والغياض، ويرد المعين والحياض، ويتفقَّدُ الأجارعَ النَّضرةَ، والخمائلَ الغضرةَ، حَتَّى دخلنا إِلَى حديقةٍ، بهيجةٍ أنيقةٍ، والدَّواليبُ حولها تحنُّ حنين النَّاقة الرَّؤوم... فجعلنا نتخيَّرُ الأفياءَ، حَتَّى انتهينا إِلَى ظلالٍ لمياءَ، فجلسنا وقد أطاعنا العاصي،

---

[1] يُنْظَر، اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الفلكيَّة)، (ص213، ص214). الخنَّس: الكواكب، الكنَّس: النجوم السيَّارة، فواقع الرحوم: الشُّهب التي تُرشَق في الجو كأسهم من نار، الدَّراري: الكواكب الْمُضِيْئِة، قدر: منهج مُحكم، الصِّل: حيَّة خبيثة يقال إنها ملكة الحيَّات، الأصمّ: الذي لا يقبل رقية الحاوي، خلاك ذمّ: سقط عنك الذَّم.

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الفراتيَّة)، (ص253). الخصرة: الشَّديدة البرد، القضة: الحصى الصغيرة.

وتسخَّرت لنا مياهه من الأقاصي، وأخذنا نجتني الثّمارَ الذَّوابلَ، من الأفنانِ السَّوابلِ، وقد رقص البلبلُ عَلَى نغماتِ البلابلِ"[1].

وَمِنْ رَوَائِع هَذَا الغرضِ، وصف شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ للآستانة، حَيْثُ يَقُوْلُ: "فَإِذَا هي جنَّة مُلئَت بالحور والولدان، وحُفَّت بالشَّهوات إذْ حُفَّت بالمكاره الجنان، من كلِّ شادن سرق التفاتة الغزال، وتسلَّلت لترى لطفه الصَّبا والشَّمال، لولا خوف الوشاة والعدى، تساقطت القبل عَلَى ورد خدِّه سقوط النَّدى. جرى فيه ماء النَّعيم والهيف، وحار فيه الرَّأي، فلو رآه سيل تَلْعةٍ لوقف. فاق ذكاء سناً وسناء، فلو حاكته حازت الشَّرف صيفاً وشتاء، إذا جاده صَيِّب الحياء والخجل، أنبت ورداً يجتبى بأنامل أهداب المُقَل"[2].

ومن مَشَاهِدِ وصف الطَّبِيْعَةِ، وجمال الْمَنَازِلِ قول عَبْد الله فِكْرِيّ في (المَقَامَة الفكريَّة): "وسرنا نطوي الْمَنَازِلَ، ونقطع المراحل، من طريقٍ إِلَى طريقٍ، حَتَّى وصلنا إِلَى مضيقٍ، خرجنا منه إِلَى قبَّةٍ بديعةٍ، عَلَى ربوةٍ رفيعةٍ، يتَّصل بها كلُّ ما اشتملت عليه المملكة فِيْ جَمِيْعِ أنحائها، في مواردها وطرقاتها ومسالكها، وجداول مائها، وفي هذه القبَّة من الأنوار اللامعة، والأشعَّة السَّاطعة ما يغشي الأبصار، ويدهش النّظّار، ...ومع كلِّ واحدٍ مرآةٌ كَثِيْرة الأضلاع، لمَّاعة الشُّعاع، ينعكس فيها ما في القبَّة من الأضواء، فيظهر كَثِيْر من الصُّور والْأَشْكَال، والأَلْوَاْن البَدِيْعة المثال، فكان بصري يضعف عن مقاومة هذه الأنوار، وقلبي يتعجَّب ما رأيت في الدَّار، حتي أنَّي لفرط ما هالني من غرابة الأمر، وإنَّه لم يسبق لي به عادة في سالف العمر"[3]. حَيْثُ جمع فكري عِنْدَ وصف مظاهرِ الطَّبِيْعَةِ بَيْنَ التَّشْكِيلِ الصَّوتيِّ، واللَّوْنِيِّ، والْحَرَكِيِّ، فأبدع لوحةً ذات جمالٍ أخَّاذٍ زيَّنها بالْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ (نَطْوِي، نَقْطَع) بما فيها من تجدّدٍ واستمرارٍ، ووشَّحها بالجمع في (الْمَنَازِل، المراحل، الموارد، الطُّرقات، المسالك، الجداول، الأنوار، والصُّور، والْأَشْكَال، والأَلْوَاْن) وما حَمَلَتْهُ هذه الجموعُ من الكثرةِ، والتَّنويعِ، ثُمَّ ختم بمشهدٍ يحملُ في طيَّاته كلَّ الإعجابِ والانبهارِ بمَشَاهِدِ الطَّبِيْعَةِ فِيْ قَوْلِه: (حَتَّي أنِّي لفرط ما هالني من غرابة الأمر، وأنَّهُ لَمْ يسبقْ لي به عادة في سالف العمر).

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحمويَّة)، (ص355، 356). حميّاه: خمرته، الأجارع: الأراضي الطيبة النبات، الغضرة: المخصبة، لمياء: كثيفة، السَّوابل: الأغصان المتدلية. البلابل: أنابيب تنصب منها الماء.

[2] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (ص384). تلعة: ما ارتفع من الْأَرْض، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج1192/3)، مادة (تلع).

[3] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص11).

ومن مظاهرِ الطَّبِيْعَةِ الَّتِيْ وصفها الْأُدَبَاءُ، الجبالُ وما فيها من روائعِ الْجَمَالِ، يَقُوْلُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ: "مررنا بجبل لبنان، فراعنا ما به من الشِّعابِ والأوديةِ، والمجالسِ والأنديةِ، والخمائلِ، والغياضِ، والمياهِ، والرِّياضِ، والقرى، والدَّساكرِ، والعشائرِ الملتفَّةِ كالعساكرِ، فلبثنا أياماً في جنباته، نجول بين رِعَانِه وهضباته"[1].

2- وَصْفُ الرَّحلَاتِ

ظهرَ وصف الرِّحلة في العُصُوْر الأَدَبيَّة المُخْتَلِفَة بدءاً بالعَصْر الجاهليِّ، ومروراً بسائر العُصُوْرِ حَتَّى العَصْر العُثْمَانِيّ، فقد أظهر الْأُدَبَاءُ براعةً في وصفها، ووصف مَشَاهِد جمالها، وروعة زينتها.

ولم يختلفِ الحالُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، فقد اتَّخذ الْأُدَبَاء وصف الرِّحْلَة منهجاً ثابتاً في معظم النُّصوص المَقَامِيَّة، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قول ناصف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة المصريَّة): "أزمعتِ الشُّخوصُ إِلَى الكِنانةِ، في ركب من بني كنانة، فَلَمَّا فرغتُ من الأُهبة أتيت القافلة، في اتِّخاذ الرَّاحلة. فعرض لي رجلٌ أدهمُ، وقال آجرتك هَذَا المطهَّم، كلّ يومٍ بدرهمٍ... وخرجنا نطوي الوهاد والرُّبَى، بين الخيزلى والهيذبى، حَتَّى حللنا تلك الدِّيار، فنزلنا عن الأكوار، إِلَى الأوكار"[2].

ولم يخرجْ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الطبيَّة) عن وصف الرِّحْلَة كَذَلِكَ، فقد رسم ملامح تلك الرِّحْلَة فيها، حَيْثُ اعتلى صهوة جواده ليبدأ الرِّحْلَة، يَقُوْلُ: "خرجت عَلَى فرسٍ جَمُوحٍ، إِلَى نيَّةِ جُموحٍ، فأزعجني إهماجاً وخبَبَاً، وأرهقني صعداً وصبباً، حَتَّى نهكني اللُّغوبُ، وأعياني الرُّكوبُ. فنزلت لأقيل وأستقيل، وَإِذَا ناقة ترعى، وهي تنساب كالأفعى، فوقفتُ أستشرفُ الهضاب، والوهاد"[3].

وفي مقدِّمةِ (المَقَامَة الأَدَبيَّة) يصف نَاصِيْف اليَازْجِيّ مشقَّةَ الرِّحْلَةِ، وعناءَ السَّفرِ قَائِلَاً: "ترامتْ بي سفرةٌ شاسعةٌ، في موماةٍ واسعةٍ، وكنت قد انضويت إِلَى صحبٍ أحمى من الجمرات،

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة اللبنانيَّة)، (ص350). راعنا: أعجبنا، الخمائل: الأشجار الظليلة، الغياض: الغابات، الدساكر: المزارع، رعانه: جمع رعن، وهو رأس الجبل، هضباته: تلاله المنبسطة.

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (المَقَامَة المصريَّة)، (ص175). المطهّم: الفرس التام الخلقة، الخيزلى: مشية متثاقلة، الهيذبى: مشية سريعة، الأوكار: الأبيات.

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (المَقَامَة الطِّبيَّة)، (ص180). الإهماج: شديد الرَّكض، الخبب: الرَّكض المضطرب. اللغوب: التَّعب الشَّديد.

وأكرم من الطَّلْحات، فسرت بينهم ناعم البال، آمن البلبال، ومازلنا بين تصويبٍ وإصعادٍ، حتى هبطنا بطن وادٍ"[1].

وقد نهج نَاصِيْف اليَازْجِيّ هَذَا المَنْهَج في كَثِيْر من مقاماته، كالطَّائيَّةِ، والعدنيَّةِ، والأنباريَّةِ، والمضريَّةِ، وغيرها.

وَمِنْ هُنَا لا يمكن أَنْ يُنْكِرَ الدَّارسُ أَنَّ المتتبعَ للشَّواهِدِ السَّابِقَةِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، وغيرها يدرك لأوَّل وهلةٍ أَنَّ وصفَ الرِّحْلَةَ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ "قام مقام المقدمة الطَّلليَّة في الْقَصِيْدَة، حَيْثُ أخذ الكتَّاب يستفتحونَ مقاماتهم بوصفِ الرِّحْلَةِ، ثُمَّ ينتهونَ إِلَى مدحٍ، أو هجاءٍ لشخصيَّةٍ من الشَّخْصِيَّات الَّتِيْ ورد ذكرها فِيْ تِلْكَ الرِّحْلَة، أو يتغزلونَ بحسناءَ قابلوها في رحلتهم تلك"[2].

وَلَمْ يَبْتَعِدْ أُدَبَاء المغربِ العربيِّ عن منهج وصف الرِّحْلَة في مستهلِّ مقاماتهم، بل ساروا عَلَى ذات المَنْهَج، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قول ابن حمادوش في (المَقَامَة الكرهليَّة): "الحمد لله حدى بي حادي الرِّحْلَة، إِلَى أن دخلت في بعض أسفاري كرهلَّة، فنزلت بها في خان، كأنَّه من أبيات النِّيران، أو كنائس الرُّهبان، بل لا شكَّ أنَّه من أبيات العصيان، فلذلك لا يسرّ به النَّاظر، ولا ينشرح به الخاطر، فاختصصت منه بحجرةٍ، أو نصرة في حجرةٍ، وكأنِّي وقعت من السَّمَاء في حفرةٍ، أو اتَّبعت أفعوان فدخلت في جحره، فغلقت بابي، لأحفظ حيائي، وأؤمِّن جنابي، منشدة أتعابي، وكَذَلِكَ كلّ من أصحابي، حتى مدَّ اللَّيْل جناحه، وأوقد السَّمَاء مصباحه، وهدأت الْأَصْوَات، وصرنا كالأموات، وتوغَّلت في حبائل النَّوم، فلم يوقظني إلا جلبة الْأَصْوَات، وتداعي القينات، فَإِذَا بجاري بين بين يحاسب قينة عَلَى كيت كيت، وهي تقول له: فعلت كذا فعلةٍ، وتدفع أجر فعلةٍ، فو الَّذِيْ سهَّل عليَّ السِّفاح، ونصَّبني لكلِّ من أراد النِّكاحَ...فقلتُ: بعداً لهَذَا الجار، ولا شكَّ أنَّه بئسُ القرارِ"[3].

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الْأَدَبيّة)، (ص200). البلبال: الهم، أو وسواس الصدر، الصَّحَاح، (ج4/1640)، مادة (بلل). الطلحات المعروفون بالجود خمسة، الأول: طلحة بن عبيد الله بن عامر، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو الملقَّب بالفيَّاض، والثاني طلحة بن عبيد الله بن معمر التميمي، ويلقب طلحة الجود، والثالث: طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري، ويلقب طلحة الندى، والرابع: طلحة بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو الملقب طلحة الخير، والخامس، طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي، ويلقي بطلحة الطلحات. يُنْظَر: الخَفَاجِيّ، طراز المجالس، (ص218).

[2] أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النَّقْديّ حتى نهاية العَصْر العباسيّ 656، (ص320).

[3] يُنْظَر: ابن حمادوش، رحلة بن حمادوش الجزائريّ، (ص9، ص10).

3- وَصْفُ القُصُوْرِ

تُعَدُّ القُصُوْرُ إحدى أفضل الوجهاتِ الْجَمَاليَّة فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، فهي ترضي عشَّاق التَّاريخ والعراقة، والأشخاص الَّذِيْن لديهم شغفٌ بالحداثة والعَصْريَّة، وعشاق الطَّبِيْعَة الخلَّابة، كما كَانَتْ هدفاً رئيساً للأُدَبَاء الَّذِيْن عشقوا هَذَا الْجَمَال، فرسموا لها أجْمَل اللَّوْحَات الأَدَبيَّة الَّتِيْ توشَّحت بوشاح الأناقة، حَيْثُ شكَّلت أحد الرُّموز المهمة في إبراز هَذَا الْجَمَال الفائق، وَمِنْ شَوَاهِدِ وصف القُصُوْر قول ابن الأَلُوسِيّ في مقامة (زَجْر الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ): "ثم رُفعت إِلَى مقامٍ كريمٍ، كأنَّه قطعةٌ من جنات النَّعيم، في قصر طال مبناه، وطاب معناه، كأنَّه في الحصانة جبلٌ منيعٌ، وفي اللطافة ربيعٌ مريعٌ، شرفاته كالعذارى شددن مناطقها، وتوّجن بالإكليل مفارقها، وأقرَّت له القُصُوْر بالقُصُوْر، إذ بدا كأنَّه سحاب في نحر السَّحاب، وجلست في قبَّة كاد لا يبين منها رأسي، وتنقطَّع من التئام جوانبها عَلَى أنفاسي، ثم طلعت شمس المدام من أفق ذلك الانتظام، فملأ المكان نورها، وذهب من ليلتنا ديجورها"[1].

ثَامِنَاً: الْهِجَاءُ

إِذَا كَانَ الْمَدْحُ قد زيَّن فنَّ المَقَامَات فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، فَإِنَّ الْهِجَاء كان له نَصِيْبٌ من تلك المَقَامَات، وحيزٌ من هَذَا الفنّ، وإن لم يكن بنفس المساحة الَّتِيْ استوعبها غرض الْمَدْح، فقد أسرف بعض أُدَبَاءِ المَقَامَاتِ في الْهِجَاء، حتى أصابوا الْهِجَاء المقذع، وما فيه من أوصافٍ تنفر الآذان من سماعها، ويمجُّها الذَّوق السَّليم، وَمِنْ رَوَائِع الْهِجَاء فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ قول شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ في وصف رجلٍ يذمُّهُ: "اللهمَّ إني أعوذ بك من الخبث والخبائث، وألوذ بك يا نور النُّور إذا دجت ظلمات الحوادث، فَإِنَّه مِمَّا صبَّ من الْمَصَائِب، أن حمل عَلَى كاهل الدَّهر عيبة المعائب، نسخة القبائح، مسودة الفحش والفضائح، جريدة العيوب، تمثال السَّيئات والذُّنوب، إكسير الفساد، وشماتة الأعداء والحسَّاد، أنموذج الهموم، أظلم من ليل المرض والهموم، قحط الرِّجال، قائد جيش الدَّجَّال، قبيح الفعل والْقَوْل، إذا اعتذر عن إساءته غسل الغائط بالبول...رقّه الزّقوم، وأنفاسه الهموم، فهو لعيْن الدَّهر قذى، لا ينطق بغير فحشٍ وأذىً، الجهل رداؤه، والجذام حليته وبهاؤه...ليس في خلقه من الحكم والْأَغْرَاض، إلا أن تقف الأطباء عَلَى ما جُهِل من الأمراض، وتتَّضح به حقائق التَّشريح، ويُكثر رائيه من الاستعاذة والتَّسبيح"[2].

---

[1] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (ص103، ص104).

[2] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدُّنيا، (ص284، ص285).

وَلَمْ يَكْتَفِ الخَفَاجِيّ بِذَلِكَ، بل شرع يرسم صورةً قبيحةً لهَذَا الرَّجل بالتَّشبيه، فيبدو أمام النَّاس كمشهدٍ مرئيٍّ، أو صورةٍ مَشَاهَدةٍ، يَقُوْلُ في هجائه: "أشأم من طُويس، وأثقل في السَّمع من ليس، ومعنى يحمل لحية التَّيْس، يا عينَ الشُّوم، وخليفةَ البُوْمِ، ...يا خيبةَ الْأَمَلِ، ومجمعَ السَّفَلِ، وعدوَّ الأَدَبِ، وأسودَ اللَّقبِ، أما استحى زمان حلَّ في صدره الخُصى، وأصبح لقدر العلم، والمال مُرخِصاً، مادِرٌ لديــه حاتم، والحجــاج أعدل حاكمٍ

لَــوْ كَــانَ يَــدْرِي جَــدُّهُ أَنَّــهُ يَخْــرُجُ مِــنْ إِحْلِيلِــهِ لَاخْتَصَــى

قربه أقبح من الحرمان، وبعده ألذُّ من وصل الحور الحسان، لا يهتدي إِلَى صواب، حتى يشيب الغراب، أو يستضاء شيطان بشهابٍ...أقبح من النِّقَم، وأسوأ من زوال النِّعم...لا خيرَ فيه إلا أنّه لا يأثم له مغتابٌ، بل يحمد ويجازى بجزيل الثَّواب"[1].

بَرَعَ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في غرض الْهِجَاء مُعْتَمِدَاً عَلَى الأوصاف الحسيَّة والْمَعْنَوِيَّة، الظَّاهرة والجوهريَّة، يَقُوْلُ: "حتى إِذَا كَانَتْ الغداة، وقد تألَّب الشَّيْخ بمنتداه، وفد شيخٌ بالٍ، في رثاث أسمال...أقبل رجل قد تزمَّل بكساءٍ خَلَق، واعتمَّ بلفائف مكوَّرةٍ كالطَّبق، قد جمعت ألوان قوس السَّحاب في الخِرَق، وأرخى لعمامته عَذَبَةً، أطول من قَصَبَة، وهو قد كحَّل إحدى عينيه، ولبس خفَّاً بإحدى رجليه، وأخذ عصا بكلتا يديه...فقال القوم تبارك اسم ربك الأعَلَى، من هَذَا الَّذِيْ منظره يضحك الثَّكلى... وأنا أتعوَّذ من منظره الذَّميم، كما أتعوَّذ من الشَّيطان الرَّجيم"[2]. فقد جمع بين بشاعة المظهر، وقبح المنظر الَّذِيْ يبدو في (شيخ بال، رثاث أسمال، كحَّل إحدى عينيه، لبس خفَّاً بإحدى رجليه)، وزاد المَشْهَد قبحاً وبشاعةً فِيْ قَوْلِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: (منظره يضحك الثَّكلى) الَّذِيْ يوضِّح المَشْهَد الغريب، وَيَرْسِمُ الشَّكل العجيب، ويصوِّر المنظر القبيح.

تَاسِعَاً: الْغَزَلُ

إنَّ غرضَ الْغَزَل من أكثر الْأَغْرَاض الَّتِيْ اهتمَّ بها النُّقَّاد، وللغزل قواعدٌ وأصولٌ، رُبَّمَا يكون التَّخلِّي عنها من النَّواقص والعيوب في العمل الأَدَبيِّ، وقد رسم لنا بَعْض النُّقَّادِ تلك القواعد، وعَلَى رأس هَؤلاءِ، قدامة بن جعفر (ت337هـ)، حَيْثُ يَقُوْلُ: "ولمَّا كان المذهب في الْغَزَل إنَّما هو الرِّقة واللَّطافة، والشَّكل والدَّماثة، كان ما يحتاج فيه أن تكون الْأَلْفَاظ لطيفةً مستعذبةً، مقبولةً غير مستكرهةٍ، فَإِذَا كَانَتْ جاسيةً مستوخمةً كان ذلك عيباً، إلا أنَّه لم يكن عيباً

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (ص287).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة السُّخريَّة)، (ص333).

عَلَى الإطلاق، وأمكن أَنْ يَكُوْنَ حسناً، إذ كان قد يحتاج إِلَى الخشونة في مواضع مثل ذكر البسالة، والنَّجدة، واليأس، والمرهبة، كان أحقَّ المواضع الَّتِيْ يكون فيها عيباً الْغَزَل لمنافرته تلك الأحوال، وتباعده منها"[1].

وَمِنْ رَوَائِع الْغَزَلِ في المَقَامَات فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ التَّغنِّي بمكارِمِ الأَخْلَاقِ، والتَّغزُّلِ بها، وكَأَنَّهَا غِيْدٌ حسناواتٌ، ومن بديع ذلك تغنِّي عبدالله فكري، وتغزُّله بخلق الحكمة والبصيرة فِيْ الْمَقَامَةِ الفكريَّة، يَقُوْلُ: "ثم رأيت امرأة مخدرةً، معظَّمةً موقَّرة، يلوح عليها الْجَمَال، وتحيط بها أبَّهة الْكَمَال، ويبدو عليها اللطف والكرم، ومحاسن الشِّيَم، وعلوّ الهمم، ورأيت كلَّ أحدٍ يعظِّمها، ويحييها ويكرمها، إلا جماعة من الأسافل، والأوباش الأراذل، كانوا لا يوقِّرونها، بل رأيتهم يحقِّرونها، ولكنَّها كَانَتْ لا تحفل بما يبديه أهل الفساد والشِّقاق، كَمَا أَنَّها لم تكن تنخدع بتملُّق أهل النِّفاق، بل كَانَتْ تنظر فيما يُعرض من الدَّعاوى، والشَّكاوى بالعدل والحلم، وتفصل فيها الحكم بالحكمة، والذَّكاء، والفضل، والعلم، ورأيت عَلَى رأسها إكليلاً من الزَّهر، لا يذبل مدى الدَّهر، فلا يزال يرفُّ خضرةً، ويتلألأ بهجةً، ونضرةً، ويجلب للعين قُـرَّة، وللخاطر مسرَّة...فعسر عليَّ معرفة أمرها، وسألت الدَّليل عن خبرها، فقال هي البصيرة الْمَعْرُوفَة بحسن آرائها، وهي من نبهاء هذه الدَّولة ونبلائها، وأعظم أمرائها ووزرائها"[2].

غَزَلُ الغلمانِ

من الْأَغْرَاضِ الَّتِيْ ظهرت في الأَدَب العربيِّ، غرض الْغَزَل بالغلمان، ويؤيِّد ذلك سيرة عددٍ كبيرٍ من الشُّعَرَاء العرب، "فلقد جنحوا إِلَى التغزُّل بالغلمان، وكانوا – عَلَى حدِّ روايات التَّواريخ– يحققون أقوالهم بأفعالهم"[3].

وقد برزت هذه الظَّاهرة في مقامات العَصْرِ المملوكيِّ، وبلغت ذروة هَذَا الغرض في مقامة (لوعة الشَّاكي، ودمعة الباكي) لصلاح الدين الصَّفديّ، والَّذِيْ تجاوز فيها عَلَى ما أظنُّ، ويشهد غيري حدود الأَدَب والذَّوق في ظِلِّ مجتمعٍ صبغ بصبغة التَّديُّن[4]، وقد زادت الظُّرُوْف الاجتماعيَّة في العَصْرينِ المملوكيِّ، والعُثْمَانِيِّ هَذَا الغرض ثباتاً ورسوخاً؛ لكثرة ما عجَّت به

---

[1] ابن جعفر، نقد الشِّعر، (ص36).

[2] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة، (المَقَامَة الفكريَّة، (ص13، ص14).

[3] أمين، مطالعات في الشِّعر المملوكي والعثمانيِّ، (ص125).

[4] يُنْظَر، الصَّفدي، لوعة الشَّاكي ودمعة الباكي، (ص67، ص68).

الأسواق والدُّور من غلمان الأتراك، وما اتَّسموا به من حسنٍ، وجمالٍ، ورقَّةٍ، وملاحةٍ، واستسلامٍ[1].

ورُبَّمَا كَانَتْ هذه الظَّاهرة أقلَّ وضوحاً في مقامات العَصْر العُثْمَانِيّ، لكن لم "يتوقَّف شعراء العَصْر العُثْمَانِيّ عن مجاراة أسلافهم في العُصُوْر السَّابِقَةِ، وإظهار مقدرتهم عَلَى جميع فنون الْقَوْل، وَمِنْهُا الْغَزَل بالغلمان"[2].

وَإِذَا عدنا إِلَى العَصْر العُثْمَانِيِّ فَإِنَّنا نجد عَلَى استحياء ملامحَ لهَذَا الغرض في بعض النُّصُوْص المَقَامِيَّة، ورُبَّمَا حمل هَذَا الْغَزَل جبر الخاطر لبعض الغلمان الَّذِيْن حملوا بعض العاهات كالحرق، وقبح الخِلقة، وَمِنْ شَوَاهِدِ الْغَزَل بالغلمان ما نجده في مقامة (زَجْر الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ) لابن الأَلُوسِيّ، يَقُوْلُ: "فقلت: أيَّهَا الشَّيْخ الإمام من أحقّ أن يُعشق الجارية أم الغلام، فقال: أرى الْأَوْلَى بأهل المدارس، أن يستيقظوا لعشق الغلام ذي الطَّرف النَّاعس

فَحُبُّكَ المُرْد والصّبيانِ أَيْسَرُ مِنْ حُبّك الغَوَانِي ذَوَاتَ الذُّلِ وَالْحَقَرِ

فالمرْد فِيْ كُلِّ وَقْتٍ لَاْ حِجَابَ لَهُمْ وَالبِيْضُ تُحْجَبُ فِيْ بِيْضٍ وَفِيْ سُمُرِ

لكن ينبغي أَنْ تعلم، وتتحقق وتفهم، أنَّ العفاف أهم ما يلزم العاشق، وإلا فهو باسم الفاسق أحقُّ وأولى من اسم العاشق"[3].

وَمِنْ شَوَاهِدِ الْغَزَلِ بالغلمان أَيْضَاً قَوْلُ ابن الأَلُوسِيّ: "ثم ختم الْكَلَام، وترك الفاعل التَّارك عِنْدَي الغلام، وجعلت أعلِّله برقيقِ كلامٍ، وهو يُعلِّلُنِي برائقِ غنجٍ وابتسامٍ، وَيَعْبُرُ عَلَى قلبي عَلَى جسر عبارات، ويغير عَلَى لُبِّي بصوادمَ غمزٍ، وأسنَّةِ إشاراتٍ، فنزع بنا هواه شوى اختياري قبل أنْ تشوي الشَّمْس كبد السَّمَاء، فلم يطوِ فراش الفلك بساط نهاري، حتى طوى عشقه مني فؤاداً عميق الأرجاء، فنسيت نفسي، وذهلت ذلك اليوم عن درسي"[4].

ويتجاوزُ ابن الأَلُوسِيّ الْحُدُوْد عِنْدَ الحَدِيْث عن الغلمان، وَلَعَلَّ ألفاظ المَقَامَة تبيِّن هَذَا التَّجاوز مِنْ نَاحِيَةٍ، ورجاءه الشَّيْخ لكتم سرِّه مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، يَقُوْلُ: "وَلَمَّا كاد أن يحسر اللَّيْل لثام الظَّلام، نادى الشَّيْخ الخدم فقال اتونا بالطَّعام...حتى إذا قعدتْ عن الأكل الأضراس، وقام

---

[1] يُنْظَر، سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه الْأَدَبيّ، (ج3/410).

[2] أبو علي، الْأَدَب العربيّ بين عصرين المملوكيّ والعثمانيّ، (ص148).

[3] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (ص83).

[4] المَرْجِع السَّابِق، ص91.

عن المائدة الجلَّاس، فَلَمَّا غُسِلتِ الأيدي من أثر الطَّعام، هبَّ كلٌّ من الحاضرين إِثْرَ ذَلِكَ إِلَى المنام، وقمت أنا، ووسدتُ الغلام يميني، وضممتُه إِلَى صدري لأقيَّه البرد ويقيني، فنمنا وما علينا لحاف، إلا الصِّيانة والعفاف، ولم يوقظنا إلا حرُّ الهجير بلواه، وفاتتنا صلاة الفجر وحسبنا الله، فاستكتمت الشَّيْخ سرِّي، واستأذنته في العود إِلَى مقرِّي، فحلف أن يكتم ما وقع إِلَى يوم الحساب"[1].

ويسَافَرُ ابن الأَلُوسِيّ بعيداً في التَّغزُّل بالغلمان، ويطلق العَنَان لقلمه ليتجاوز حدود أدب اللسان، فيجد في الغلمان بديلاً عن المدام، يَقُوْلُ: "والله الْعَظِيم نسمة صداع المدام، وأحداث ذلك من عاداتها منذ قديم الأيام، وهي أَيْضَاً أحسن دواء لما أحدثته من داء، وَإِذَا تعذَّر الآن استعمالها عليك، فهَذَا رضابي الَّذِيْ هو خير منها بين يديك، فقلت لقد أعظمت عَبَّ المنَّة، وآتيتني غبّ ما أنستني بنعيم الجنَّة، فدنا مني، ووضع شفته عَلَى شفتي، فجعلت أرشف من هاتيك الشِّفاه ما هو لدى القلب أهمّ من ماء الحَيَاة، حَتَّى إذا ارتضعتُ، ومن ذباك البارد العذب تضلَّعتُ..."[2].

عَاشِرَاً: المُفَاخَرَاتُ والمُنَاظَرَاتُ

المُفَاخَرَاتُ والمُنَاظَرَاتُ من الْأَغْرَاض الَّتِيْ تزيَّن بها أدب العَصْر العُثْمَانِيِّ، وقد أبدع الكُتَّاب في تقديمها للقرَّاءِ أَيَّمَا إبداعٍ، فأنت تشعر، حِيْنَمَا تتنقَّل بين تلك المُفَاخَرَات، وتتحرَّك بين فُصُوْل المُنَاظَرَات كأنَّك في ميدان معركةٍ، أو ساحةِ وَغَىً، بيد أنَّك لا تعرف لمن ستكون الغلبة في نهاية المطاف، مع ما يصحب تلك المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات من شدٍّ وجذبٍ، وما تتزيَّن به من روائع البيان، وسحر البَدِيْع، وعذوبة المُوْسِيْقَا، وما يصاحبها من حسن اختيار الْأَلْفَاظ، وجمال العبارات، وعمق الْمَعَانِي، وروعة الصُّور والأخيلة.

وَلَعَلَّ من أشهر المُفَاخَرَاتِ والمُنَاظَرَاتِ الَّتِيْ أبدعها أُدَبَاء العَصْر العُثْمَانِيِّ: (المفاخرة بين الشَّمْس والْقَمَر) للشَّيخ بَهَاء الدِّين الْبِيْطَار، و(المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء) للشيخ أَحْمَد البَرْبِيْر، و(غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، و(نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْل وَالنَّهَار)، و(أَبْهَى مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين الغُرْبَة وَالإِقَامَة) للشَّيخ مُحَمَّد المُبَارَك، و(مناظرة بين العلم والجهل) للشيخِ مُحَمَّد الدَّيسيّ الجزائريّ.

---

[1] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (ص108).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص112. العبّ: الشُّرب من غير مصٍّ، الغبَّ: العقاب، ذباك: ماؤك، تضلعت: امتلأت شبعاً ورياً. الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج3/1251)، مادة (ضَلَعَ).

وَمِنْ رَوَائِع المُفَاخَرَات (المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء) للشَّيخ أَحْمَد البَرْبِيْر، الَّذِيْ شرع يتنقَّل بين الماء والهواء برشاقة الْغَزَلان، وليونة الأغصان، ورقَّة الفراشات، يتحرك حركةً رقيقةً يسيطر عليها الأناقة، يَقُوْلُ عَلَى لسان الماء مُفاخراً: "أنا أوَّل مخلوقٍ ولا فخر، وأنا لذَّة الدُّنيا، والآخرة، ويوم الحشر، وأنا الجوهر الشَّفَاف، المُشَبَّه بالسَّيْف إذا سُلَّ من الغلاف، وقد خلق الله مني جميع الجواهر، حتى اللآلئ في الأصداف، أحيي الْأَرْض بعد مماتها، وأخرج منها للعالم جميع أقواتها، وأكسو عرائس الرِّياض أنواع الحلل، وأنثر عليها لآلئَ الوَبَل والطَّلِّ، حتى يضرب بها في الحسن المثل، كما قيل:

إنَّ السَّـمَاءَ إِذَا لَـمْ تَبْـكِ مُقْلتُهـا لَمْ تَضْحَكِ الْأَرْضُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الزَّهْرِ

وأنا الَّذِيْ أقتل العجوز، وأُذهب حرارة آب وتمُّوز، وقد أفتاني الأفاضل: أنَّ من دخل عليَّ من باب المفاخرة أنَّه لا يجوز، فكَيْفَ ينكر فضلي من دبَّ أو درج، وأنا البحر فرعي، وفي الْأَمْثَال: حدِّث عن البحر ولا حرج. وأمَّا أنت أيُّها الهواء، فكم ذهبت فيك نصائحُ النُّصَّاح، كما قال ابن هرمة:

وَبَعْضُ الْقَوْل يَذْهبُ فِيْ الرِّيَاحِ

وَلَعَمْرِي إنَّه لا يفي قبولك بدبورك، ولا تقوم جنَّتك بسعيرك، ولطالما أهلكت أمماً بسمومك وزمهريرك، فكم تواتر عنك حديثٌ تشمئزُّ منه النَّفس، وتمجُّه الأذن، وحسبك من العناد أنَّك تجري بما لا تشتهي السّفن. وأنت المولع برقص الجواري كفعل الفسَّاق، وأنت الَّذِيْ تهيج التُّراب وتغري النَّار بالإحراق، كما قال فيك ابن الرُّوميّ:

لَا تُطْفِـئَنَّ جَـوَىً بِلَـوْمٍ، إنَّـهُ كَـالرِّيْحِ يُغري النَّـارَ بِـالْإِحْرَاقِ[1].

ومن عيوبك أنَّك لا تسكن ولا يقرُّ لك قرار، ولم تفهم الإشارة فِيْ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام:13]. وقد ضربت العرب بعدم استقَامَتك الْأَمْثَال، كما نقل عنهم أصحاب القصص، فمن ذلك قولهم:

إنَّ ابْـنَ آوى لَشَـدِيدُ المُقْتَـنصْ وَهْوَ إِذَاْ مَاْ صِيْدَ ريحٌ فـي قفصْ

---

[1] ابن الرُّوْمِيّ، دِيْوَان ابن الرُّوْمِيّ، (ج2/ 472).

وأمَّا قولك: لولايَ لما عاش إنسانٌ، ولا بقي عَلَى الْأَرْض حيوانٌ. فجوابه: لو شَاءَ اللهُ لعاش العالم بلا هواء، كما عاش عالم الماء في الماء"[1].

أمَّا قلائدُ المُنَاظَرَاتِ فيتوسطها (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْل وَالنَّهَار) للشَّيخ مُحَمَّد المُبَارَك، وقد قدَّم لها المُبَارَك بِقَوْلِهِ: "فهي مقامةٌ بديعةٌ تُغني عن مقامات البَدِيْع، ومقالةٌ ظريفةٌ تحتوي عَلَى بديع المحاسن، ومحاسن البَدِيْع. بل فُكاهة أحلى من عيش الصِّبا، ونفْثة أرقُّ من نسيم الصَّبا، أخلصت في حسن تخلصها لمدح أمير المغرب، وضمَّنتها معنى المرقص والمطرب، فهي عنقاء مُغرِب. وسمَّيتها: "نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْل وَالنَّهَار"[2].

ثُمَّ بدأ المحاورة إثر ذلك متحدِّثاً بلسان اللَّيْل قَائِلاً: "أَحْمَد من جعلني خَلوةً للأحباب، وجلوةً لعرائس العرفان ونفائس الآداب. وخلقني مثوىً لراحة العباد، ومأوى لِخَاصَّةِ النُّسَّاك والعُبَّاد، ولله دَرُّ من قال فأجاد:

أَيُّهَـا اللَّيْـلُ طُـلْ بِغَيْـرِ جُنَـاحِ لَـيْسَ لِلْعَيْنِ رَاحَـةٌ فـي الصَّـباحِ

كَيْـفَ لا أُبْغِـضُ الصَّـبَاحَ وَفِيْـهِ بَـأْنَ عَنِّـيْ نُـوْرُ الوُجُـوْهِ الصِّـبَاحِ

أتردَّد عَلَى أرباب المجاهدة بفنون الغرائب، وأتودَّد إِلَى أصحاب المَشَاهِدة بعيون الرَّغائب، تدور في ساحتهم بدور الحسن والْبَهَاء، وتُدار في راحتهم كؤوس الأنس والهناء، فتُحيِيهم نغماتُ السَّمر، وتُحيِّيهم نسمات السَّحر. فأحيانُ وَصْلِي بالتَّهاني مقمرةٌ، وأفنانُ فضلي بالأماني مثمرةٌ، وحسبي كرامةً أنِّي للنَّاس خير لباسٍ، أقيهم بلطف الإيناس من كلِّ باسٍ. ومن واصل الإدلاج وهجر طِيب الكرى، قيل له: (عِنْدَ الصباح يَحمَدُ القومُ السُّرى):

وَمَـا اللَّيْـل إلَّا للمُجِـدِّ مَطِيَّـةٌ وَمَيدَانُ سَبْقٍ فَاستَبِق تَبْلُغُ المُنَى

ففتَن بمَعَانِي بيانه البَدِيْع، وتفنَّن في أفانين التَّصْرِيع والتَّرْصِيع. ثم أتمَّ خطبته بالتماس المغفرة والعفو، واستعاذ بالله من دواهي الغفلة، ودواعي اللهو"[3].

لقد وُلِدَ الإِبْدَاعُ من رحم المُفَاخَرَات، والمُنَاظَرَات، فالمتنقِّلُ بين فيافيها يبصر أَرْوَعَ الْأَلْفَاظ، ويلمح أجملَ الْمَعَانِي، ويتنسَّمُ أرقَّ الأخيلةَ، ويسمع أعذب المُوْسِيْقَا، كَيْفَ لا؟ وكلُّ

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص32، ص33). الوبل: المطر الشَّديد الضخم القطر، والطَّل: المطر الخفيف

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص124).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص126.

مفاخِرٍ حاول أن يدلي بدلوه بأجملِ ما يمتلك، وَيَرْسِمُ بريشته أَرْوَع ما يستطيع، ويخرج من جعبته أقوى ما يحتفظ، وَمِنْ هُنَا أنتجتِ المنافسةُ الإِبْدَاعَ، وجاء المخاضُ بمولودٍ امتلك كلَّ صفاتِ الحسنِ، والْجَمَالِ، حَيْثُ أضاف هَذَا الفنُّ إِلَى الأَدَبِ العُثْمَانِيِّ إضافاتٍ رائعةً في أبواب الْأَلْفَاظ، والْمَعَانِي، والصُّورِ والأخيلةِ.

حَادِي عَشَرَ: مَا لَا يَسْتَحِيْلُ بِالْانْعِكَاسِ

مُصْطَلَحُ (ما لا يستحيل بالانعكاس)، أو(القلب المستوى)، أو(مقلوب الكلّ) هو نوعٌ من البيان، والتَّلاعب الدَّقيق بالْحُرُوْف، أو بالكَلِمَات، يكون في الغالب عَلَى صورة جملٍ متناظرة الأحرف، أو الكَلِمَات، وقد يكون أَحْيَانَاً عَلَى شكل كلماتٍ متناظرةِ الأحرف تُقْرَأ في الاتجاهين من اليمين، ومن اليسار فلا يتغير معناها مثل كلمة (نون)، وَمِنْهُا قَوْله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى:﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر: ٣]، ويعرِّف العلويُّ ما لا يستحيل بالانعكاس بِقَوْلِهِ: "هو الَّذِيْ أوَّله، وآخره عَلَى جهة الاستواء، وهو قليلٌ نادرٌ صعب المسلك، وَعْرُ المرتقى، لا يكاد يأتي به إلا من أفلق في البَلَاْغَة، وتقدَّم في الفَصَاْحَة"[1].

كَمَا بَرَعَ الشُّعَرَاء في ابتداعِ فُنُونٍ جديدةٍ، برع مثلهم أُدَبَاء المَقَامَة، فقد خاضوا كَذَلِكَ في فنون الأَدَب، والبَلَاْغَة، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا النَّوع قول نَاصِيْف اليَازْجِيّ: " فأخذوا يتناولونَ الفُنُوْن، ويبرزون كلَّ مكنون، حتى خاضوا في فنِّ البَدِيْع، وأفاضوا في التَّجْنِيس، والتَّنويع، فكان في صدر الحلقة، شيخٌ أفطسُ العرتبة، كأنَّه أحدُ الأغربةِ، فقال: قد علمتم أيُّها النَّاسُ، أنَّ أعظم الجِنَاس، ما لا يستحيل بالانعكاس، فمن ظفر بفرائده الحسنى، فاز بالمقام الأسنى، وسُلِّم له البَدِيْع لفظاً ومعنىً...ثُمَّ أنشد يَقُوْلُ:

قَمَــرَاً يَفْــرُطُ عَمَــدَاً مشــرقُ	**رَشّ مَــاءِ دَمْــعُ طَــرْفٍ يرمُــقُ**
قُرْطُــهُ يَفْــدِي جَــلَاهُ أَيْمَــنُ	**مِــنْ مِيَــاهِ الْجِيْــدِ فِيْــهِ طُــرْقُ**
قَـبَسٌ يَـدْعُو سَـنَاهُ عَـنْ جَفَـا	**فَجَنَــاهَ أُنْــس وَعْــدٍ يَسْــبِقُ**
قَــدْ حَــلَا كَــاذِبُ وَعْــدٍ تَــابِعِ	**لَعِبَــاً تَــدْعُو بِــذَاكَ الْحَــدَقُ**
قَرَحْــتُ ذَا عَبَــرَاتٍ أَرْبَــعِ	**عَبَــرَاتٌ أَرْبَــعٌ إِذْ تُحْــرِقُ**

[1] العلويّ، الطّراز، (ص446).

وواصل فقال: أعوذ بالله من زلَّة العمد، وسفاهة العبد، إنِّي نظمت بيتين لبعض الْأُمَرَاء، طردهما مديح، وعكسهما هجاء...وأنشد:

بَـــاهِي الْمَـــرَاحِمِ لَاْبِـــسٌ كَرَمَـــــاً قَـــــدِيرٌ مُسْـــــنِدُ

بَـــــابٌ لِكُـــــلِّ مُؤَمِّـــــلٍ غُـــــنْمٌ لَعَمْـــــرُكَ مُرْفِـــــدُ

ثُمَّ عمد إِلَى قلبهما، فَإِذَا هو يَقُوْلُ بهما:

دَنَـــــسٌ مَرِيْـــــدٌ قَـــــامِرٌ كَســـب المَحَـــارِمِ لَاْ يَهَـــاب

دَفِـــــرٌ مِكـــــرٌّ معلَّـــــمٌ نَغِـلُ مُؤَمِّـــلُ كُـلَّ بـــــاب

قال: فاستفزَّتِ القوم تلك الصِّناعة العذراء، وقَالُوا: علم الله أنَّها لأغرب من العنقاء، ثم أقبلوا عَلَى الرَّجل يرجمونه بالأحداق، وقَالُوا: فداك أهل العراق، فمن أنت ومن أيِّ الآفاق[1].

وَلَعَلَّ ما يميِّز هَذَا النَّوع أنَّه غالباً "ما يأخذ شكل النَّسقِ الرِّياضيِّ، أو التَّرتيب الهندسيِّ، وهو يقوم في تركيبه عَلَى نمطٍ تكراريٍّ في الْحُرُوْف والكَلِمَات، وقد أَطْلَق عليه السَّكاكي (مقلوب الكلّ)، وهو أن تعاد فيه قراءة الكَلِمَات من آخر حرفٍ، فنجد الْمَعْنَى بتمامه دونَ تغييرٍ في الشَّكل، والدَّلَالَة"[2].

لقد تفرَّدَ الْأُدَبَاءُ العُثْمَانِيُّوْنَ بهَذَا النَّوْعِ، حَيْثُ كان لهم قصب السَّبق في هَذَا الفنِّ، فقد حمل هَذَا اللَّوْن من الغرابة والتَّمكُّن ما يبهر العُقُوْل، فهو يعتمد عَلَى التَّقدير المرسوم بدقَّةٍ صناعيَّةٍ، وإمكاناتٍ راقيةٍ قلَّ أنْ يمتلكها المبدعون، حتى قيل إنَّه "لونٌ بديعيٌّ هو أشبه بألعاب الصِّغار، وأحاجي الكبار"[3].

هذه هي المَقَامَة، وتِلْكَ هي ظروف نشأتها، وعوامل ازدهارها فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، حَيْثُ غَدَتِ النُّصُوْصُ المَقَامِيَّةُ علامةً بارزةً في الأَدَب العربيِّ عَلَى مرِّ العُصُوْر، وقد تفوَّق عددٌ كبيرٌ من الْأُدَبَاء في هَذَا الميدان، كتب هَؤلاءِ فأبدعوا، ونظموا ففاقوا، وخَطُّوا فتفوَّقوا أَحْيَانَاً عَلَى سابقيهم، وفتحوا أبواب الإِبْدَاع لتابعيهم، فلم يكنِ الْأُدَبَاء مجردَ أسماء ظهرت فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ ألقت أعمالها دونما اكتراثٍ، ولكن حفر هَؤلاءِ أسماءهم بحروفٍ من الذَّهبِ بِمَا قدَّموه

---

[1] يُنْظَر، اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة البصرية)، (ص155– ص160). العرتبة: الأنف، الفرائد: الدُّرَر الكبيرة في العقد، الأسنى: الأشرف.

[2] عَبْد الْمُطَّلِب، الْبَلَاغَة والْأُسْلُوبيَّة، (ص298).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص298.

من نصوصٍ مقاميَّةٍ ألقت بظلال جمالها عَلَى ذلك العَصْر، ونشرت نسائم عبيرها في كلِّ بقعةٍ من بقاع الوطن الكبير، ففي كلِّ مقامةٍ كَانَتْ أمطارُ الإِبْدَاعِ تَتَسَاقَطُ، وَدُرَرُ الجواهرِ تتناثرُ، وَغَدَتْ سيولُ الْجَمَال تتدفَّق، وارتدَّت موارد الْبَهَاء تنتشر في شَتَّى الأصقاع ينهل منها الْمُتَعَطِّشُون، ويردها الْبَاحِثُونَ، أُدَبَاء وأُدَبَاء حملوا رايات الإِبْدَاع، وانْطَلَقُوا بها عَلَى صهوات خيولهم؛ ليجوبوا الفلوات والفَيَافِي، ويقطعوا الوهادَ والرَّوابيَ، ينشروا نتاجهم في كلِّ زمانٍ، ويعلِّقوا لوحاتِ رَوَائِعهم في كلِّ مكانٍ.

مِثْلَمَا برعَ الْأُدَبَاء في اختيار أسماء مقاماتهم، بَرَعُوا كَذَلِكَ في انْتِقَاء مَوْضُوْعَاتهم، وَلَعَلَّ ما يميِّز هَؤلاءِ أنَّ مَوْضُوْعَاتهم كَانَتْ بِمَثَابَةِ تمثيل للواقع في كلِّ مظاهره، وفي شَتَّى جوانبه، قَصَدُوا السِّيَاسَة والسَّاسة، فصوَّروا المَشْهَد كأَرْوَع ما يكون التَّصْوِيْر، وتوغَّلوا فِيْ أَعْمَاقِ المجتمع، فرسموا صورته كأجمل ما يكون الرَّسم، وارتحلوا صوب الْمَوضُوْعات السّلوكيَّة والأَخْلَاقيَّة، فوضعوا دستوراً في مكارم الأَخْلَاق، وكريم الصِّفَات، نوَّعوا فأصابوا الهدف، وشكَّلوا باقةً تناسب كلَّ الأذواق، فعاشوا حياة الأطباء، وسيرة الْأُدَبَاء، ونسجوا خيوط التَّشويق في الأحاجي والألغاز، وغادروا صوب النُّجوم والأفلاك، وارتحلوا عبر الوَصْفِ إِلَى باحات القُصُوْر، والحياض، وساحات الحَدَائِق والرِّياض، ومن قلب الجنان تغنَّوا بالغيد، والحسان، ذوات الطُّول الفارع، والْجَمَال البارع، فاخروا وناظروا، وحاوروا وناقضوا، ووضعوا في النِّهاية مشهد النِّهاية، ونهاية المَشْهَد، بروائع ما لا يستحيل بالانعكاس، فأضحت مقاماتهم موسوعةً يقصدها الدَّارِسُونَ، ويتلمَّس خطاها الْبَاحِثُونَ.

الْفَصْـــلُ الثَّـــــانِي

التَّشْكِيْلُ الْبَـيَـــــانِيُّ

فِـــيْ

الْمَقَامَـــاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

الفَصْلُ الثَّانِي: جَمَالِيَّاتُ التَّشْكِيلِ البيانيِّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

المَقَامَاتُ حديقةٌ غنَّاء غنيَّةٌ بالتَّصْوِيْر الحقيقيِّ، وَمِنْهُلٌ فيَّاضٌ للتَّصْويرِ الْخَيَاليِّ، وعالمٌ متكاملٌ يجمع بين الْحَقِيْقَةِ والْخَيَالِ. فَإِذَا ما قلَّبنا صفحاتِ المَقَامَاتِ فَإِنَّه بإمكاننا أن نلمحَ الحوادثَ المحسوسةَ، والمَشَاهِدَ المنظورةَ، كَأَنَّهَا لوحةٌ فنيَّةٌ متكاملةٌ نتلمَّسُ فيها الْجَمَالَ، ونتحسَّسُ فيها الإِبْدَاعُ، ونرى فيها الحُسْنَ والْبَهَاءَ، ونسمعُ فيها عَذْبَ الغناءِ، ونتذوَّقُ فيها الرَّوْعَةَ، والصَّفاءَ.

وهِيَ عالمٌ من سحرِ البيانِ، فيها الاسْتِعَارَةُ الَّتِيْ طالما سحرتِ الْقَارِئينَ، والتَّشْبِيْهُ الَّذِيْ يخلبُ ألبابَ السَّامِعِيْنَ، والْكِنَايَةُ الَّتِيْ تُبهرُ أفئدةَ المبدعينَ، والْمَجَازُ الْمُرْسَلُ الَّذِيْ يدهشُ مخيِّلةَ المُتَعَطِّشِيْنَ، وفيها الصُّورَةُ الَّتِيْ تبهرُ الفُصحاءَ المتميزينَ، والدَّارِسِينَ المتفوِّقين، وتبطلُ دعاوَى من كانوا عَلَى العَصْرِ العُثْمَانِيِّ جائرينَ، لا مكانَ للضَّعفِ الَّذِيْ تردَّد عَلَى ألسنةِ الْبَاحِثِينَ، ولا متَّسعَ للانحطاطِ الَّذِيْ وُسِمَ بِه عَلَى أيدي بعضِ المنتقدينَ، ولا مساحةَ للألوانِ المجرَّدةِ، والخطوطِ الجامدةِ.

وَإِذَا أردتَ أنْ ترى قمةَ الإِبْدَاعِ في التَّصْوِيْرِ، فَلَكَ أن تتلمَّسَ أيَّةَ صورةٍ جزئيَّةٍ؛ لتلمحَ فيها جمالَ الاسْتِعَارَةِ، وروعةَ التَّشْبِيْهِ، وحسنَ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ، وجلالَ الْكِنَايَةِ، وعليكَ أن تُبْصِرَ أيَّةَ صورةٍ كليَّةٍ؛ لترى عَبْرَهَا الأَلْوَانَ المُبهرةَ، وتسمع خلالها الْأَصْوَات الْعَذْبَةَ، وتتحسسُ صَوْبَهَا الحركاتِ الرَّائِعَةَ، وتقف عَلَى مواضعِ الْجَمَالِ المتفرِّقةِ، فتتابعها العَيْنُ، والأذنُ، والْخَيَالُ.

إنَّ المَقَامَاتِ إذا ما قورنت بالأجناسِ الأَدَبيَّةِ الأُخْرَى، فَإِنَّنا نجدها تحملُ سماتٍ متفرِّدةً، وخَصَائِصَ مُتَنَوِّعَةً في التَّعْبيرِ تميِّزها عن باقي الفُنُوْنِ، وهَذَا ما نجده عِنْدَ تَطوافنا بين صفحاتِهَا، وتحرُّكنا بين سُطُوْرِهَا.

وَإِذَا انتقلنا إِلَى التَّصْوِيْرِ الفنيِّ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ؛ فَإِنَّنا حَتْمَاً سَنَجِدُ أَنَّهُ يُمَثِّلُ الأداةَ المفضَّلةَ لدى كَثِيْرٍ من الْأُدَبَاء في هَذَا الميدانِ. كَمَا أَنَّ المتنقِّلَ بين صفحاتِهَا بإمكانه أن يرى المَشَاهِدَ أَمَامَهُ ماثلةً، يسمعُ خلالَهَا الْأَصْوَات، ويتابعُ الحركاتِ، والسَّكناتِ، ويتفاعلُ مع القصصِ، والرِّواياتِ فينسى المستمعُ أنَّ هَذَا الْكَلَامَ يُقرأ، ويتخيَّلُ أنَّه مشهدٌ يُعرضُ، وحادثٌ يقعُ، وشخوصٌ تتحرَّكُ في أمكنةٍ ظاهرةٍ، وأزمنةٍ بائنةٍ. "فأمَّا الحوادثُ والمَشَاهِدُ، والقصصُ، وَالْمَنَاظِرُ، فَيَرَاهَا شَاخِصَةً حَاضِرَةً؛ فِيْهَا الحَيَاةُ، وَفِيْهَا الْحَرَكَةُ، فَإِذَا أَضَافَ إِلَيْهَا الْحِوَارَ فَقَدْ اسْتَوَتْ لَهَا كُلُّ عَنَاْصِرِ التَّخْيِيْلِ. فَمَا يِكَادُ يَبْدَأُ الْعَرْضَ حَتَّى يُحِيْلَ الْمُسْتَمِعِيْنَ نَظَّارَةً، وَحَتَّى يَنْقُلَهُم نَقْلاً إِلَى مَسْرَحِ الْحَوَادِثِ الْأَوَّلِ الَّذِيْ وَقَعَتْ فِيْهِ، أَوْ سَتَقَعُ حَيْثُ تَتَوَالَى الْمَنَاظِرُ، وَتَتَجَدَّدُ

الحركاتُ، وينسى المستمعُ أنَّ هَذَا كلامٌ يتلى، ومثلٌ يُضرَبُ، ويتخيَّلُ أنَّه منظرٌ يُعرَضُ، وحادثٌ يقعُ. فهذه شخوصٌ تروحُ عَلَى المسرحِ وتغدو، وهذه سماتُ الانفعالِ بشَتَّى الوجداناتِ، المنبعثة من المَوْقِفِ، المتساوقة مع الحوادثِ، وهذه كلماتٌ تتحرَّكُ بها الألسنةُ فتنمُّ عن الْأَحَاسِيْسِ المضمرةِ. إنَّها الحَيَاةُ هُنَا، وليستْ حكايةَ الحَيَاةِ"[1].

ومَشَاهِدُ التَّصْوِيْرِ لونٌ، وشكلٌ، ومعنىً، وحركةٌ، وقد تكون الْحَرَكَةُ أصعبَ ما فيه؛ لِأَنَّ تمثيلَهَا يتوقَّفُ عَلَى ملكةِ النَّاظرِ، ولا يتوقَّفُ عَلَى ما يراه بعينه، ويدركه بظاهرِ حسِّهِ، ووصفِ الْحَرَكَةِ كما يَقُوْلُ الْبَلَاغِيُّونَ: "من بديعِ التَّصْوِيْراتِ وجليلِهَا؛ لِأَنَّ التقاطَهَا وهي جادةٌ في حركتها، واضطرابها دليلُ المقدرةِ، والوعيِ، وقوَّةِ الملاحظةِ، ثم تصويرها وهي تتحرَّكُ أعنى المحافظةَ عَلَى هذه الْحَرَكَةِ الحيَّةِ الباعثةِ للنَّفسِ، والَّتِيْ تنفي عنها مَلَلَ الجمودِ ملكةٌ أُخْرَى"[2].

إنَّ الحَدِيْثَ عن التَّصْوِيْرِ الفنيِّ في المَقَامَاتِ يطولُ، وتأثيره في العقلِ والقلبِ يستحيلُ أَنْ يُنْكِرَه ذو لبٍّ، أو يجحده صاحبُ رشدٍ. فالتَّصْوِيْرُ فيها له جماليَّاتُهُ الفنيَّةُ الَّتِيْ تؤثرُ في العقلِ، والقلبِ مَعَاً. فهي تخاطبُ الذِّهْنَ في أرقى عملياتِهِ الفكريَّةِ والإدراكيَّةِ، وتخترقُ كوامنَ الوجدانِ فترقِّقه؛ حتى يصبحَ صافياً حيَّاً، ونابضاً متألِّقاً. ومن ثمَّ يكونُ المنطقُ التَّأثيريُّ آخذاً بالنَّفْسِ البشريَّةِ، متملكاً لجوانبِهَا، وأبعادِهَا.

والتَّصْوِيْرُ في المَقَامَاتِ ملمحٌ متكاملُ الأبعادِ، محكمُ الجَوَانِبِ، نرى فيه جمالَ التَّصْوِيْرِ، ونلمحُ روعةَ السَّبكِ، ونسمعُ عذبَ المُوْسِيْقَا، ونتمتَّعُ فيه بجمالِ قطعةٍ فنيَّةٍ بارعةٍ، أضفْ إِلَىْ ذَلِكَ أنَّ الرَّغبةَ تتفجَّرُ فِيْ تَشْكِيلِ الصُّورَةِ عِنْدَ كَثِيْرٍ مِنَ الْأُدَبَاء، فتتعدَّد مُحَاوَلات التَّصْوِيْرِ، وتتنوَّعُ مجالاتُ الرَّسْم، وتزدادُ الرَّغبة لدى هَؤلاءِ في رسم المزيد من اللَّوْحَات الفنيَّة، فتتشبَّع أعمالهم بكَثِيْر من روائع التَّشْبِيْه، وتتدفَّق مقاماتهم بعيونٍ عذبةٍ من بديعِ الاسْتِعَارَةِ، وتنحدرُ شلالاتُ الْكِنَايَةِ في مَشَاهِدَ مُبْهَرةٍ؛ لتنصهرَ هذه الصُّورُ جَمِيْعَاً في بوتقةٍ مثيرةٍ لا يضاهيها إثارة، وتلتئمُ في باقةٍ عاطرةٍ لا يدانيها باقة، فتغدو هذه الصُّورُ شُمُوسَاً مشرقةً، ونجوماً متلألئةً، ونسائمَ طيِّبةً يفوح شذاها في كلِّ مكانٍ، ويتنسَّمُ عبيرها القارئونَ في كلِّ زمانٍ.

تتقَّلب المَشَاهِدُ، وتتشكَّل الصُّورُ في المَقَامَاتِ كأَرْوَع ما يكون التَّشْكِيلُ، فمن تشبيهٍ مختارٍ إِلَى استعارةٍ منتقاةٍ، ومن كنايةٍ لطيفةٍ إِلَى تعريضٍ مبهرٍ، ومجازٍ مرسلٍ مُؤَثِّرٍ.

---

[1] قطب، التَّصْوِيْر الفنيّ في القرآن، (ص36).

[2] أبو موسى، التَّصْوِيْر البيانيّ، (ص51، ص52).

وتظهرُ ألوانُ البيانِ بأنواعها كَافَّةً في الفُنُوْنِ الأَدَبيَّةِ بصفةٍ عامةٍ، وفِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ بصفةٍ خاصَّةٍ، والتَّشْكِيلاتُ الْبَيَانِيَّةُ الَّتِيْ تضمَّنتها المَقَامَاتُ هي:

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ: التَّشْكِيْلُ التَّشْبِيْهِيُّ

يُعَدُّ التَّشْبِيْهُ من الأَسَالِيْبِ الْبَيَانِيَّةِ المميَّزةِ، وهو وسيلةٌ رئيسةٌ من وسائلِ تشكيلِ الصُّورِ الفنيَّةِ فِيْ النَّصِّ الأَدَبيِّ؛ إذ يزدادُ به الْمَعْنَى رفعةً وشأناً، ويبرزه إيضاحاً وبياناً، ويكسبه تأكيداً وبلاغةً، إنَّه بِمَثَابَةِ الوعاءِ الكبيرِ الَّذِيْ يستوعبُ الأفكارَ والمشاعرَ، فيستحيلُ في يدِ الْأَدِيْبِ أداةً طيِّعةً في كلِّ غرضٍ من أغراضِ الْكَلَامِ الَّتِيْ يريد التَّعْبيرَ عنها، وهو من أكثرِ الأَلْوَانِ الْبَيَانِيَّة دوراناً في الأَدَبِ العربيِّ، لذلك احتلَّ مكانةً مرموقةً بين غيره مِنْ أَسَالِيْبِ الْبَيَانِ، فهو "ومضة الإنارة الَّتِيْ ينكشف الْمَعْنَى عبرها بجلاءٍ، ولكن لهنيهة فحسب، وَذَلِكَ ليتركَ لخيالِ المُتَلَقِّي أن يبحثَ عن التَّرابطاتِ"[1] الَّتِيْ تحقِّق فنيَّةً راقيةً رائقةً نظراً لما تحمله من عواطفَ عميقةٍ، وأحاسيسَ مرهفةٍ.

والتَّشْبِيْهُ أحدُ ألوانِ البيانِ فِيْ الْبَلَاْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وقد تناولِ معظمُ علماءِ البَلَاْغَةِ هَذَا اللَّوْنَ، واستطردوا في شرحِ تقسيماتِ التَّشْبِيْهِ، وضروبه. وتعمَّق كَثِيْرٌ منهم في رصدِ القيمِ الْجَمَاليَّةِ لِلتَّشْبِيهِ، وبيانِ مواطنِ الحسنِ والقبحِ، وإظهارِ محاسنِ التَّشْبِيْه ونقدِهِ، وذكرِ أمثلةٍ من مليحِ التَّشْبِيْهِ، وعقيمِهِ. والحَدِيْثُ حول التَّشْبِيْهِ يطولُ، إذْ يستحيلُ أنْ تحتويه صفحاتٌ معدودةٌ، أو تستوعبه وريقاتٌ محدودةٌ.

وتعريفاتُ التَّشْبِيْهِ لا تكادُ تحصى عَدَداً، وإن كَانَتْ رَغْمَ كثرتها تلتقي جميعها في نقطةٍ واحدةٍ، أو تكاد تلتقي، وهذه النُّقطة هي مشاركة المُشَبَّهِ للمشَّبهِ به في صفةٍ أو أكثرَ، ومن هذه التَّعْرِيفاتِ: "الدَّلَالَة عَلَى مشاركة أمرٍ لأمرٍ آخرَ في مَعْنَىً"[2]، ويتوسَّعُ القيروانيُّ في مُفْرَدَاتِ التَّعريفِ قَائِلاً: "التَّشْبِيْهُ صفةُ الشَّيْءِ بما قاربه وشاكله مِنْ جِهَةٍ واحدةٍ، أو جهاتٍ كَثِيْرةٍ لا من، جميع جهاتِهِ؛ لِأَنَّه لو ناسبه كليَّةً لكان إيَّاه"[3]. وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ التَّشْبِيْهَ هو الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ شَيْئَاً أو أشياءَ شاركتْ غيرها في صفةٍ، أو أكثرَ بواسطةِ أداةٍ من أدواتِ التَّشْبِيْهِ.

---

[1] اليوسف، مقالات في الشِّعر الجاهليِّ، (ص260).

[2] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص328).

[3] القيروانيّ، العمدة، (ج286/2)، القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص328).

أما الْقِيمَةُ الْجَمَاليَّةُ لِلتَّشْبِيهِ فلا يمكن أن يغفلَهَا أحدٌ، فهو بابٌ من أبوابِ البَلَاْغَةِ أثنى عليه النُّقَّادُ قَدِيمَاً وحَدِيثَاً وَذَلِكَ؛ "لِمَا لَهُ من أثرٍ عظيمٍ في بناءِ الصُّورَةِ الأَدَبيَّةِ، ورسم اللَّوْحَةِ الفنيَّةِ الرَّائعةِ المؤثِّرةِ في العواطفِ، والمشاعرِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ لِأَنَّ التَّشْبِيْهَ من الفُنُوْنِ التَّصْوِيْرِيَّةِ يُضْفِي بهاءً، وجلالاً عَلَى الْأُسْلُوبِ، ويمنحه الطَّرافةَ، والجِدَّةَ، والابتكارَ، ويخلع عليه القوَّةَ، والْمُتْعَةَ، والْحَرَكَةَ، والنَّشَاطَ"[1].

والقَزْوِيْنِيُّ أورد في الْقِيمَةِ الفنيَّةِ لِلتَّشْبِيهِ قولَه: "فاعلمْ أنَّه مِمَّا اتَّفقَ العقلاءُ عَلَى شرفِ قدرِهِ، وفخامةِ أمرِهِ في فَنِّ البَلَاْغَةِ، وأنَّ تعقيبَ الْمَعَانِي به – لاسيَّما قسمُ التَّمثيلِ منه – يضاعفُ قواها في تحريكِ النُّفُوسِ إِلَى الْمَقْصُودِ بها مدحاً كَانَتْ، أو ذمَّاً، أو افتخاراً، أو غيرَ ذلك"[2].

ويدورُ أَحْمَد الهاشميُّ فِيْ نَفْسِ الدَّائرةِ حَيْثُ يرى أنَّ: "لِلتَّشْبِيهِ موقعاً حسناً في البَلَاْغَة، وَذَلِكَ لإخراجه الخفيّ إِلَى الجليِّ، وإدنائِهِ البعيدِ من القريبِ، يزيد الْمَعَانِي رفعةً ووضوحاً، ويكسبها توكيداً وفضلاً، ويكسوها شرفاً ونبلاً. فهو فَنٌّ واسعُ النِّطَاقِ، فسيحُ الخطوةِ، ممتدُّ الحواشي، متشعِّبُ الأطرافِ، متوعِّرُ المسلكِ، غامضُ المدركِ، دقيقُ المجرى، غزيرُ الجدوى"[3].

والنُّصُوْصُ الأَدَبيَّةُ تعتمدُ فِيْ تَشْكِيْلِ الصُّورِ الفنيَّةِ عَلَى الأَسَالِيْبِ الْبَيَانِيَّةِ، إذْ تتَّخذُ الْأَلْفَاظُ والعباراتُ شكلاً فنياً بعد أن ينظمها الْأَدِيْبُ في سياقٍ بيانيٍّ خاص يعتمدُ عَلَى الأَسَالِيْبِ الْبَيَانِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ (التَّشْبِيْه، الاسْتِعَارَة، والْكِنَايَة)، وقد وظَّف كتَّابُ المَقَامَةِ العُثْمَانِيَّةِ هذه الوسائلِ فِيْ مَقَامَاتِهِم؛ إذْ نجدُ هَؤلاءِ يحشدونَ في رسمِ صورٍ فنيِّةٍ تطرِّزُ مقاماتِهِمْ بقيمةٍ فنيَّةٍ عليا، وتعينهم عَلَى نقلِ أفكارِهِمْ، ومَعَانِيهم نقلاً مجازيَّاً يهزُّ الوجدانَ، ويحرِّكُ الشُّعورَ.

وَيُعَدُّ التَّشْبِيْهُ من الأَسَالِيْبِ الْبَيَانِيَّةِ الَّتِيْ استعانَ بها أُدَبَاءُ المَقَامَةِ كَثِيْراً فِيْ تَشْكِيْلِ صورهم، وإبراز قيمتها البَلاغيَّةِ، والفنيَّةِ، لِمَا لهَذَا الفَنِّ من قيمةٍ عليا في التَّشْكِيلِ التَّصْوِيْرِيِّ، فهَذَا التَّشْكِيلُ "محاولةٌ بلاغيَّةٌ جادَّةٌ لصقلِ الشَّكْلِ، وتطويرِ اللَّفْظِ، ومهمته تقريب الْمَعْنَى إِلَى الذِّهنِ بتجسيده حيَّاً، ومن ثمَّ فهو ينقل اللَّفْظَ من صورةٍ إِلَى أُخْرَى عَلَى النَّحْوِ الَّذِيْ يريده المصوِّرُ "[4].

---

[1] الجربيّ، الْبَلَاغَة التَّطبيقيَّة– دراسة تحليلية لعلم البيان، (ص126).

[2] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح ، (ص328، ص329) ، يُنْظَر: الزَّركشيّ، البرهان في علوم القرآن، (ج472/3).

[3] الهاشميّ، جواهر الْبَلَاغَة، (ص219).

[4] الصَّغير، الصُّورة الفنية في المثل القرآنيّ، (ص180).

إنَّ المتتبعَ لفَنِّ المَقَامَةِ يجد أنَّ التَّشْبِيْهَ من أقوى الوسائلِ البَلاغيَّةِ الَّتِيْ اعْتَمَدها كتَّابها فِيْ تَشْكِيْلِ صورِهِم، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يرجعُ إِلَى قدرتهم الفائقةِ في رسم الصُّورِ الْبَيَانِيَّةِ خَاصَّةً التَّشْبِيْهيَّة؛ إذ امتلك هَؤلاءِ زمامَ أَسَالِيْبِ البيانِ، وأَطْلَقوا العَنَانَ لقَرَائِحهم لتجودَ بأجملِ الصُّورِ، بل بأجْمَلِ اللَّوْحَاتِ الفنيَّةِ الَّتِيْ توشَّحت بأَرْوَع التَّشْكِيلاتِ التَّشْبِيْهيَّةِ رغبةً في متعةِ السَّامِعِيْنَ، المتلهِّفينَ إِلَى تذوُّقِ جديد المَقَامَات في عصرٍ غلب عَلَى أهله حبُّ الْجَمَالِ، والسَّيرِ في دُرُوْب الحسنِ، والْجَلَالِ.

الْبِنَى التَّشبيهيَّةُ المُرْسَلَةُ

إنَّ فَنَّ المَقَامَة فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيّ زاخرٌ بالتَّشْبِيْهاتِ، فقد أسهمت الْبِنْيَةُ التَّشْبِيْهيَّةُ فِيْ تَشْكِيْلِ صورٍ مُكْتَنِزةٍ بالأبعادِ الدَّلاليَّةِ والرُّؤيويَّةِ تثير إيحاءاتٍ فكريَّةً مُتَنَوِّعَة، وهي تهدفُ مِنْ خِلَالِ استخدامِ التَّشْبِيْهِ إِلَى التَّصْوِيْرِ، والتَّأثيرِ مَعَاً بحَيْثُ تُمَثِّلُ أَمَامَنَا الصُّورَة الْبَيَانِيَّة كَأَنَّهَا مرئيَّةً. وقد برعَ أُدَبَاءُ المَقَامَاتِ في رسمِ اللَّوْحَاتِ الْفَنِيَّةِ فِيْ نُصُوْصِهِم، وَهُنَا نرى اليَازْجِيّ يوظِّفُ التَّشْبِيْهَ فِيْ الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة توظيفاً رائعاً، فينقل مَشْهَدَاً تشبيهيَّاً يحمل في ثَنَايَاه ملمحاً من ملامحِ العَصْرِ؛ ليرسمَ صورةً تبدو ماثلةً للعيانِ، ومرئيَّةً لِلسَّامِعِينَ: "والنَّاسُ قد تألَّبُوا عليه كالأجربينِ، وأحاطوا به كالأخشبينِ...فانقضضت إليه كالأجدلِ، وسقطت عليه كالجندلِ"[1].

وَتَتَجَلَّى عظمةُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ وطاقتُهُ التَّخيُّليَّةُ العاليةُ فِيْ تَشْكِيْلِ الصُّورِ التَّشْبِيْهيَّةِ، فها هو يسَافِر بعيداً في (المَقَامَة الهزليَّة)؛ ليشكِّلَ لوحةً تشبيهيَّةً بارعةً من واقعِ الحَيَاةِ: "فبَيْنَمَا ألقيتُ وسادي، وتلقيتُ مائي وزادي، سمعتُ غطيطاً كأطيطِ البعيرِ، وزفراتٍ تتصاعدُ كالزَّفيرِ"[2]. وَمِنْ شَوَاهِدِه أَيْضَاً: "ولمَّا لم أجدْ من تروق بعيني، أزمعتُ الاغترابَ، وبكَّرتْ بكورَ الغرابِ"[3].

أبدعَ الْأُدَبَاءُ في رسمِ صورٍ تشبيهيَّةٍ منتزعةٍ من الْوَاقِعِ الماديِّ، ومن حياةِ الْإِنْسَانِ الَّذِيْ يرى الأنينَ والبكاءَ مِنْ أهمِّ الْمُفْرَدَاتِ الَّتِيْ تدلُّ دلالةً واضحةً عَلَى الحزنِ والألمِ، وَذَلِكَ لَمَّا رَبَطَ حزنه بحياةِ الثَّكَالَى، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة): "فَأَنَّ أنيناً

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص420).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الهزليَّة)، (ص80). الغطيط: صوت النائم من خياشيمه، الأطيط: صوت البعير من ثقل حمله، الزَّفير: صوت لهب النار.

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص101.

كأنين الثَّكلى، ورفعَ طرفَهُ إِلَى الأفقِ الأعلَى"[1]، حَيْثُ رسمَ مَشْهَداً حيَّاً من مَشَاهِدِ البيئةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِيْ لا يجهلها أبناؤها. وكَذَلِكَ "الصِّدقُ خمرٌ مزاجها الكذبُ، والجهلُ ثوبٌ طرازُهُ اللَّعبُ"[2].

ولم يبرحِ اليَازْجِيّ مَشَاهِدَ مألوفةً فِيْ تَشْكِيْلِ البِنَى التَّشْبِيْهِيَّةِ مستثمراً طبيعةَ الْإِنْسَانِ العربيِّ الَّتِيْ تأنسُ بلقاءِ الأحبَّةِ، وتبتهجُ بزيارتهم، وَمِنْ رَوَائِعِ التَّشْكِيلاتِ التَّشْبِيْهِيَّةِ الَّتِيْ نقلت تلك الصُّورَةَ قولُ اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الحليَّة) يُصوِّرُ مَشْهَداً متداولاً من مَشَاهِدِ الحَيَاةِ الَّتِيْ تدركه طبيعةُ البشرِ: "نزلت بحِلَّة في ديارِ الحلَّةِ، فلقيتُ بها شيخنا أبا ليلى، يسحبُ في أكنافِهَا ذيلاً، ويخطر ميلاً، فابتهجتُ به ابتهاجَ المحبِّ بزيارةِ الحبيبِ، أو المريضِ بعيادةِ الطَّبيبِ"[3]. حَيْثُ أَطْلَق العَنَان لأردية السَّعادة، والابتهاج كي تغشى المكان، وتغطي الفضاء، وتشبع الرَّغبة التلقائيَّة للنَّفس الْإِنْسَانِيَّة.

ومن البِنَى التَّشْبِيْهِيَّةِ المُرْسَلَةِ قَوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ في (المَقَامَة الفكريَّة): "فالعقلُ في المملكةِ الْإِنْسَانِيَّةِ كالملكِ الكبيرِ، والهوى كالجليسِ الخائنِ، والصَّاحبِ المائنِ المداهنِ"[4]. حَيْثُ اعْتَمَد الْأَدِيْبُ عَلَى الْبنْيَةِ التَّشْبِيْهِيَّةِ المُرْسَلَةِ لمَّا شَبَّه الهوى بالجليسِ الخائنِ، ثُمَّ يمتدُّ بخياله فيصوِّره بالصَّاحبِ المائن المداهنِ، مقدِّماً صورةً قبيحةً لمن يطلقُ العَنَانَ لهواه، مع ما في الْبنْيَةِ التَّشْبِيْهِيَّةِ من تجسيمٍ للهوى في صورةِ إنسانٍ جمعَ بين مَعَانِي الخيانةِ، والكذبِ، والنِّفاقِ، والرِّياءِ. وهو يقتربُ كثيراً من قولِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "إِنَّمَا مَثَلُ الجليسِ الصَّالحِ، والجليسِ السُّوءِ كحامِلِ المسكِ، ونافخِ الكِيْرِ"[5].

وَمِنْ دواعي الرَّوعةِ في البِنَى التَّشْبِيْهِيَّةِ الَّتِيْ قدَّمها الكُتَّابُ أَنَّهم شكَّلوها في أسلوبٍ فنيٍّ امتزج فيه الْوَاقِع الفنيّ بالْوَاقِع النَّفسيِّ، والفكريِّ، الَّذِيْ عاشه في بيئته، فهو يقلِّبُ صفحاتِ البيئةِ الحيَّةِ، وَيَرْسِمُ مِنْ خِلَالِ تلك الصَّفحاتِ أجملَ التَّشْكِيلاتِ، يَقُوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ مصوِّراً حالته: "وقد قنعتُ من صِبغِ الأدامِ، بِعضِّ السُّلامَى والسَّلام، فحتى متى أنا من سكرةِ الحيرةِ لا أستفيقُ، كَأَنَّني مُصْحفٌ في بيتِ زنديقٍ.

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص424).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحليَّة)، (ص318).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص320.

[4] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص3). المائن: الكاذب، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج2210/6)، مادة (مين). المداهن: الغاش أو المنافق، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج2116/5)، مادة (دهن) .

[5] [مسلم، صحيح مسلم، كتاب (البر والصلة والآداب)، باب (45) استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السُّوء، 2026/4: رَقَمِ الْحَدِيْثِ 2628].

فَـإِنْ تَسْـأَلَانِي مَـا دَوَائِـي فَـإِنَّنِي بِمَنْزِلَــةٍ أَعْيَــى الطَّبِيْــبَ سُــقَامُهَا

كجرذٍ بسني يوسفَ في دارٍ ذي متربةٍ، يأكلُ بالقرضِ لازماً ربضه، فَإِذَا نفدَ القرضُ، وسدَّ البأسُ مذهبه، أكلتُ كتبي كَأَنَّني أَرَضَةٌ"[1].

لَقَدْ بَرَعَ شِهَابُ الدِّين الخَفَاجِيّ أَيَّمَا براعةٍ فِيْ رَسْمِ مَشْهَد يبرز حالته النَّفسيَّةَ، حَيْثُ وظَّف تشبيهاتٍ يستشعر الْقَارِئُ من أركانها موقفَ الْأَدِيْبِ المأزومِ، وحياته الَّتِيْ لا طائلَ منها، وكأنَّه في هذه الدُّنيا مجردُ مصحفٍ حُكِمَ عليه بالإغلاقِ، أو جرذان اشتكت من فقرِ البيوتِ فمُنِعتْ دخولها.

إنَّ حجمَ المعاناةِ والألمِ الَّتِيْ صوَّرها شِهَابُ الدِّين الخَفَاجِيّ في هذه المَقَامَةِ لا حدودَ لهما، ولا خلاصَ منهما، فهولُ ما يلقى من عذابٍ، وما يعاني من تهميشٍ جعلتِ المُتَلَقِّي يتعاطفُ معه.

وقَدْ عمدَ كتَّابُ المَقَامَةِ أَحْيَانَاً إِلَى توظيفِ البِنَى التَّشْبِيْهِيَّةِ بهدفِ إظهارِ مهاراتهم اللُّغويَّةِ، وإمتاعِ السَّامِعِيْنَ بمزيدٍ من الْجَمَالِ، ليس ذلك فحسب، بل رسم واقعٍ رُبَّمَا لم يدركْ ملامحه كَثِيْرٌ من النَّاسِ، وَمِنْ هُنَا تبدأ دقَّةُ الْأَدِيْب فِيْ تَشْكِيْلِ صورةٍ معبِّرةٍ عن الْوَاقِعِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ أَحْمَد البَرْبِيْر: "ولا تبصر منه إلا رأياً كالنَّجمِ في الدَّآدئِ المدلهمَّةِ عِنْدَ الحُجْنةِ"[2]. وهَذَا المَشْهَدُ مألوفٌ في الأَدَبِ العربيِّ حَيْثُ اعتادَ هَؤلاءِ تشبيهَ الرَّأيِ لوضوحه بالنَّجمِ، وهَذَا يُشْبِهُ قَوْلَ ابنِ الرُّوميّ:

آرَاؤُكُــمْ وَوُجُــوهُكُمْ وَسُيُــــوْفُكُمْ فِيْ الْحَادِثَاتِ إِذَا دَجَوْنَ نُجُــومُ

مِنْهَــا مَعَــالِمُ للهُــدَى وَمَصَــابِحٌ تَجْلُو الدُّجَى والأُخْرَيَاتُ رُجومُ[3]

ولَمْ يَبْرَحِ الْأُدَبَاءُ مَشَاهِدَ الطَّبِيْعَةِ لرسم البِنَى التَّشْبِيْهِيَّةِ المُرْسَلَةِ، فقد استعانوا بأغصانِ البانِ، وأزهارِ الرُّمَّانِ لتصويرِ قَصَبَاتِ السَّبْقِ، يَقُوْلُ أَحْمَدُ البَرْبِيْر: "فيا لها من قصباتٍ تدهشُ الأبصارَ، كَأَنَّهَا أغصانُ بانٍ في طرفِ كلِّ غصنٍ زهرةٌ من جُلَّنار"[4].

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (ج153/2).

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص39). الدَّآدئ من الليالي: الشَّديدة الظُّلمة، الحجنة: الاعوجاج.

[3] ابن الرُّوْمِيّ، دِيْوَان ابن الرُّوْمِيّ، (ج319/3).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص43).

واستلهمَ الْأُدَبَاءُ تشبيهاتهم من التُّرَاثِ لَمَّا أرادوا الفخر بأنفسهم، ورسم تفوُّقهم عَلَى أندادهم، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "وهل أنت مني في القدر، إلا كقلامة الظُّفر؟"[1]. ومثله قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَلَا قَمَـــرٌ إِلَّا صَـــغِيراً كَأَنَّـــهُ قُلامَـةُ أُظْفُـورِ الفَتَـاةِ المُخَضَّـبِ

وقُلامةُ الظُّفر: مَثَلٌ يُضرب في القِلَّة والحَقارة، وَكَأَنَّ مُحَمَّد المُبَارَك أراد أن يستلهم جَمَالِيَّاتِ التُّرَاثِ العربيِّ عائداً إِلَى روائع العَصْرِ الأمويِّ؛ لِيَرْسِمَ قدرَ الحقارة، وصورة التَّهَكُّمِ والسُّخريةِ مِنْ خِلَالِ بِنْيَةٍ تشبيهيَّةٍ مُرْسَلَةٍ تحمل فِيْ ثَنَايَاهَا كُلَّ تِلْكَ الْمَعَانِي، مُعْتَمِداً عَلَى قَوْلِ جَمِيْلِ بُثَيْنَةَ:

لَـوْ أَنَّ فِـي قَلْبِـي، كَقَـدْرِ قُلامَـةٍ، فَضْلاً، وصلتْكِ، أَوْ أَتَتْكِ رَسَائِلِي[2]

استعانَ الْأُدَبَاءُ بالْبِنْيَة التَّشْبِيْهيَّة المُرْسَلَة لمَّا قَصَدُوا التَّهكُّمَ والسُّخْرِيَةَ، وقد وظَّفوها توظيفاً بارعاً حمل في ثَنَايَاه الازدراءَ والتَّحقيرَ، يَقُوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "ولم ينظروا عمامتك الحانيةَ، وجبَّتك القانيةَ، وبردتك اليمانيَّةَ، وأظفارَكَ الَّتِيْ كالمناجلِ، وما تحتها من سُخَامِ المراجلِ"[3]. فالْأَدِيْبُ رسمَ صورةً قبيحةً تشمئزُ منها النَّفْسُ، مُسْتَعِيْنَاً بالأَلْوَانِ، فقد صوَّر أظفاره لطولها وبشاعتها بالمناجلِ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ بل أكملَ مشهدَ القبحِ برسمِ ما تكدَّسَ من أوساخٍ في أظفاره كَانَتْ كسوادِ القِدْرِ الملتصقِ بها من الدُّخانِ، وزاد الصُّورَةَ وضوحاً اعتمادُهُ عَلَى صورةٍ مألوفةٍ تحفظها البيئةُ العربيَّةُ منذُ العصرِ الجاهليِّ.

إنَّ مَشَاهِدَ البيئةِ الخلَّابةَ لم تفارقْ خيالَ الْأُدَبَاءِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، فقد انطبعت تِلْكَ المَشَاهِدُ في أذهانهم، فاستعانوا بها فِيْ تَشْكِيْلِ بنىً تشبيهيَّةٍ مُرْسَلَةٍ، يَقُوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "وقد غذيتكِ بِدَرٍّ كالدُّرِّ واللآلِ، وربيتك في حجرِ الرَّفاهيةِ والدَّلالِ"[4]. فقد صوَّرَ المُبَارَكُ الاهتمامَ البالغَ بالطَّعامِ الَّذِيْ يشبه في أهميته ونفاسته الدُّرَّ واللآلئَ، مع ما في الصُّورَةِ من دلالٍ واهتمامٍ.

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مناظرة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص57).

[2] ابن معمر، دِيْوَان جميل بثينة، (ص54).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة السخريَّة)، (ص335). الحانية: الشديدة الخضرة، القانية: الشديدة الحمرة، سخام: الوسخ المجتمع تحت الأظفار، المراجل: القدور النحاسية.

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص43). الدَّر: اللبن، الدُّر: كبار اللؤلؤ.

وَلَمْ يبرحْ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ عَنَاْصِرَ الطَّبِيْعَةِ لَمَّا قصدَ تصويرَ الشُّمُوخِ والكبرياءِ، فقد استعانَ بالنَّخيلِ لرسوخِهِ، وشموخِهِ، يَقُوْلُ: "فنصبوا السُّرادِقَ، وانتصبوا حَوْلَهُ كالرَّزَادِق"[1]. فقد شبَّهَ الرِّجالَ في ثباتهم، وشموخهم بأشجارِ النَّخيلِ، مُعْتَمِداً عَلَى أَنْسَنَةِ الْجَمَادَاتِ، وتشخيصِ عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ. وهذه الصُّورةُ مألوفةٌ في البلاغةِ العربيَّةِ.

وَلَمْ يتوقفِ الأمرُ عِنْدَ حدودِ الطَّبِيْعَةِ، فقد اسْتَخْدَمَ الكتَّابُ الْبِنْيَةَ التَّشْبِيْهِيَّةَ في رسمِ صورةٍ لجمالِ الْمَرْأَةِ، مستمدِّينَ معطياتها مِنَ البيئةِ الَّتِيْ عاشوا فيها، فعقدوا مشابهةً بين جمالِ الْمَرْأَةِ، والغزالِ، وعنقها الطَّويلِ، وعنقِ الغزالِ، ومقارنةً بين حاجبها الأنيقِ، والهلالِ، ومماثلةً بين جبينها المضيءِ، والصَّباحِ، ومحاكاة بين عيونها الحوراءِ الَّتِيْ تُدْمِي أسيرها، والصِّفاحِ، وبين حببِ عرقها، واللآلئِ، وبين حالك فرعها، واللَّيَالِي، يَقُوْلُ الشِّدْيَاقُ: "فابتدرتْ إليَّ واحدةٌ منهنَّ لها عنقٌ كعنقِ الغزالِ، وحاجبٌ كالهلالِ...ثُمَّ التفتتْ إِلَيَّ أُخْرَى وجبينها يلمعُ كالصَّباحِ، ولحظُهَا يدمي كالصِّفاحِ، ثُمَّ تقدَّمتْ إِلَيَّ أُخْرَى وحبب عرقها كاللآلئ، وحالك فرعها كاللَّيَالِي"[2].

فالشِّدْيَاقُ هُنَا يقدِّمُ وصفاً حسيَّاً لجمالِ الْمَرْأَةِ، فيصف عنقها بعنقِ الغزالِ، فهو طويلٌ أنيقٌ، ويصفُ حاجبها بالهلالِ في تقوّسه ودقَّته، فهو جميلٌ دقيقٌ، وفرعها في الطُّولِ باللَّيَالِي، فهو ليِّنٌ رشيقٌ، وحبب عرقها استحالَ من روعته لآلئَ، أَمَّا عيونُهَا فَإِنَّها تُدْمِي العاشقينَ كما تدمي الصِّفاحُ المعتدينَ. وَمِنْ هُنَا أعادَ الشِّدْيَاقُ تشكيلَ صورةِ الْمَحْسُوْسَاتِ في هيئاتٍ جَدِيْدَةٍ أكسبتها صفةَ الرَّوْعَةِ والْجَمَالِ، وزادها جَمَالاً وروعةً، الْبَرَاعَةُ في المقارنةِ، والأناقةُ في الجمعِ بين المؤتلِفِ.

أجادَ كتَّابُ المَقَامَةِ عَلَى اختلافِ مَشَارِبهم، وتنوُّعِ أذواقهم في رسمِ صورٍ تشبيهيَّةٍ أقرب ما تكونُ إِلَى اللَّوْحَاتِ الْفَنِيَّةِ المرئيَّةِ الَّتِيْ أحاطتْ بها وشائجُ الصِّدقِ، وعلائقُ الْوَاقِعِيَّةِ، وَذَلِكَ مَنَحَ المَقَامَاتِ تفرُّداً أحالها إِلَى مرآةٍ يُشاهَدُ عبرها سماتُ العَصْر، وملامحُ البيئةِ، وعَنَاْصِرُ الطَّبِيْعَةِ. وقد قدَّمَ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ ذلك في (المَقَامَة الأنطاكيَّة)، يَقُوْلُ: "وَإِذَا شيخنا المَيْمُون، تتقدَّمه لَيْلَى كالنَّاقةِ الأَمُونِ...حَتَّى إذا وقفَ بالمحرابِ، انقضَّتِ الفتاةُ كالعقابِ"[3]. حَيْثُ رَسَمَ اليَازْجِيّ مَشْهَدَيْنِ تشبيهيينِ مُعْتَمِداً عَلَى عَنَاْصِرِ البِيْئَةِ الْعَرَبِيَّةِ الجاهليَّةِ كَيْ يصوِّرَ قُوَّةَ الْمَرْأَةِ،

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة السَّواديَّة)، (ص380). الرزادق: الصُّفوف من النخيل.

[2] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة مُقيمة)، (ص279، ص280).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الأنطاكيَّة)، (ص255). الأمون: الشَّديدة القويَّة.

وشدَّةَ بأسها، وأكملَ المَشْهَدَ لمَّا أكَّد قوتها مقارناً هجومها بهجومِ العقابِ، وينقلنا ذلك إِلَى الحدَّةِ وسرعةِ الانقضاضِ، مع ما يحمله المَشْهَدُ من عودةٍ إِلَى تراثِ العَصْرِ الجاهليِّ.

وَمِنْ شَوَاهِدِ انسجامِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ مع عَنَاْصِرِ البِيْئَةِ ومعطياتِهَا قَوْلُهُ: "فجعل الشَّيْخ يدور كاللولب، ويرفس كالتَّولب"[1]. حَيْثُ تأثَّر بالبيئة فصوَّر ثورة الرَّجل، وغضبه، وحركة أقدامه برفس التَّولب مُعْتَمِداً عَلَى التَّوضيح في رسم هذه الصُّورَة.

لَقَدْ حاولَ الْأُدَبَاءُ عِنْدَ تشكيلِ بِنْيَاتِهِم التَّشْبِيْهِيَّةِ إخراجَ الصُّورِ من قالبِ الإدراكِ العقليِّ إِلَى مجالِ الرُّؤيةِ الملموسةِ بغيةَ تحويلِ ذَلِكَ الأمرِ المعنويِّ إِلَى إدراكٍ مشَاهَدٍ بالأثرِ الماديِّ حَتَّى تجمَّعتْ أَمَامَ المُتَلَقِّي تلك المرائي البصريَّةَ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "وقد جرتْ بينه وبينَ الوردِ، مناظراتٌ تروقُ مَعَانِيها كالجوهرِ الفردِ"[2]. فقد استحالَ المعقولُ بينَ أناملِ المُبَارَكِ مَشْهَدَاً مرئيَّاً مفعماً بالْجَمَال، وقلْ إن شئتَ قمَّة الْجَمَالِ، كَيْفَ لا؟ والْمَعَانِي غَدَتْ كالجواهرِ المتفرِّدةِ في الْحُسْنِ، والرَّوْعَةِ، إِلَى جانبِ ما حَمَلَتْهُ الصُّورَةُ من تجسيمِ المعنويِّ فِي صُوْرَةٍ حسيَّةٍ.

الْبِنَى التَّشْبِيْهِيَّةُ الْبَلِيْغَة

لم يتوقفْ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ عِنْدَ حدود البِنَى التَّشْبِيْهِيَّةِ المُرْسَلَةِ، بل تجاوزوا ذلك إِلَى البنى التَّشْبِيْهِيَّةِ الْبَلِيْغَة، وهذه الْبِنَى ترتكزُ فيها الدَّلَالَةُ عَلَى الْعَلَاقَةِ المزدوجةِ بين الدَّالِ، والمدلولِ مِنْ جِهَةٍ، وبين المُتَلَقِّي مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى مِمَّا يزيدُ الْمَعْنَى رسوخاً، واتِّساعاً، ففيها "تتَّسعُ مجالاتُ استعمالِ الكلمةِ؛ لِأَنَّ حذفَ الأداةِ، ووجهِ الشَّبَهِ فيها، وامتدادِ دلالته في الاتِّساعِ بالْوُقُوفِ عَلَى الْمَعْنَى الأساسيِّ، والْمَعْنَى الإضافيِّ، وهو الْمَعْنَى الَّذِيْ يملكه اللَّفْظُ عن طريقِ ما يشير إليه، إِلَى جانبِ معناه التَّصْوِيْرِيِّ الخالصِ"[3].

وأُدَبَاءُ المَقَامَةِ شَأْنُهُم شَأْنُ أغلبِ الْأُدَبَاءِ، وظَّفوا الْبِنْيَةَ التَّشْبِيْهِيَّةَ الْبَلِيْغَةَ في سياقٍ يقومُ عَلَى الإِبْدَاعِ، والتَّلاعُبِ بالْمُفْرَدَاتِ كَيْفَما شاءوا وَفْقَ تصوُّراتهم الخَاصَّةِ، إِذْ كانَ هو الطَّرِيْق الأوحد، والسَّبيل الأصدق في التَّعْبيرِ عن أنفسهم، وإظهارِ مكنوناتها، وبِذَلِكَ تكون الْبِنْيَةُ التَّشْبِيْهِيَّةُ قد أسهمتْ في تكوينِ صورةٍ تخلبُ الأَلْبَابَ، وتُبهرُ القُلُوْبَ.

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة العكاظيَّة)، (ص413). التَّولب: ولد الحمار.

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص103).

[3] عمر، علم الدَّلالة، (ص37).

أَطْلَقَ الْأُدَبَاءُ العَنَانَ لخيالهم لرسمِ الصُّورِ، وَتَشْكِيلِ بنىً تشبيهيَّةٍ بليغةٍ لتصويرِ أحوالهم النَّفسيَّةِ، وما يحيطُ بها من همومٍ وأحزانٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "فطوَّحتني الطَّوائح بأرجوحة الأماني، وهزَّتني الأشعبيَّة إِلَى ماجدٍ يبارزُ الزَّمنَ الجاني"[1]. فالأماني في خيالِ الْأَدِيْبِ أرجوحةٌ يتقلَّب فيها يُمْنَةً ويساراً، ومع هَذَا التَّقلُّبِ ترتسمُ صورةُ المعاناةِ والمأساةِ الَّتِيْ يعيشها الْإِنْسَانُ.

ويتلمَّسُ الْأَدِيْبُ أَحْيَانَاً الْبُنْيَةَ التَّشْبِيْهِيَّةَ لتَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ فِيْ قَوْلِ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "حَتَّى أتيتُ كورةَ خراسان، فَإِذَا بها قيل نصب عرضه لسهامِ الهَوانِ"[2]. وقد برعَ الْأَدِيْبُ فِيْ رَسْمِ مَشْهَدٍ متفرِّدٍ لمَّا صوَّرَ الهوانَ بالسِّهامِ، فقدَّم صورةً ذميمةً يأنفها الذَّوقُ السَّليمُ في مشهدٍ مثقلٍ بالذُّلِ والهوانِ، وَهُنَا تظهرُ براعةُ الْأَدِيْبِ في تقديمِ التَّشْبِيْهِ لَمَّا اختارَ بدقَّةٍ بالغةٍ المُشَبَّه به في الْبِنْيَةِ التَّشْبِيْهِيَّةِ.

وَيُبْدِعُ الْأُدَبَاءُ أَيَّمَا إبداعٍ في تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّات بالبِنَى التَّشْبِيْهِيَّة الْبَلِيْغَة، وما حَمَلَتْهُ تلك البِنَى من مساحاتٍ شاسعةٍ للخوفِ، والرُّعبِ، والضَّياعِ رفقةَ مشاقِ الرِّحْلَةِ، وطولِ المسيرِ، فقد جسَّدَ شِهَابُ الدِّين الخَفَاجِيّ ذلك فِيْ قَوْلِه: "فكم ركبَ بحرَ الاَهْوَالِ، حَتَّى وصلَ إِلَى ساحلِ الضَّلالِ"[3]. فالاَهْوَالُ الجِسَامُ متتابعةٌ تتابع الْأَمْوَاجِ، والنِّهايةُ مروِّعةٌ بَعْدَ المشقَّةِ والعذابِ، وَبَعْدَ التَّعبِ والعناءِ، فهي نهايةٌ حزينةٌ لمقدِّماتٍ كَانَتْ حَتْماً شديدةً وعسيرةً.

إنَّ مهمَّةَ الْبِنْيَةِ التَّشْبِيْهِيَّةِ الْبَلِيْغَة هي المشاركةُ فِيْ تَشْكِيلِ الصُّورَةِ الَّتِيْ قدْ تكونُ وليدةَ الاستخدامِ المبدعِ لِلُّغةِ، فالعَنَاْصِرُ الإِبْدَاعِيَّةُ من تجاربَ شعوريَّةٍ، ولغةٍ موحيةٍ، وخيالٍ فاعلٍ تتواشج لتشكيل لوحةٍ تشبيهيَّةٍ لرسمِ صورةِ الْوَاقِعِ، أو "تَشْكِيْل صورٍ متفرِّدةٍ تجاوزُ سطوحَ الأَشْيَاءِ إِلَى مكنونٍ عميقٍ"[4].

أَمَّا مُحَمَّد الوُرْغِيّ فقد قَدَّمَ فَاصِلَاً عَذْبَاً من البِنَى التَّشْبِيْهِيَّة الْبَلِيْغَة المتتابعةِ، الَّتِيْ قَامَت عَلَى فكرةِ تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ تَارَةً، وتشخيصِ الْجَمَادَاتِ، واسْتِنْطَاقها تَارَةً أُخْرَى، منتهياً إِلَى تَشْكِيلِ لَوْحَاتٍ جَمَالِيَّةٍ تَرْسِمُ الْوَاقِعَ في أدقِّ تفاصيله، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "ولبث عَلَى تلك الصِّفةِ العجيبةِ، يجلو كلَّ يومٍ غريبةً، إِلَى أنْ أظهرَ الدَّهْرُ القُطُوْبَ، وأطبقَ الغارةَ ليلُ

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا (المَقَامَة الرُّوْمِيّة)، (ص368).

[2] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا (المَقَامَة السَّاسانيَّة)، (ص390).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص392.

[4] قاسم، التَّصْوِيْر الشِّعريّ، رؤية نقديّة لبلاغتنا الْعَرَبِيَّة، (ص206).

الْخُطُوْبِ"[1]. حَيْثُ برعَ الوُرْغِيُّ فِيْ رَسْمِ مَشْهَدِ الأمرِ الجللِ، وبيانِ هولِ المصيبةِ لَمَّا شَبَّهَ الْخُطُوْبَ باللَّيْلِ، مع ما يصاحب اللَّيْل من همومٍ وآلامٍ، وزاد المَشْهَد جَمَالاً لَمَّا جاورَ الْبِنْيَةَ التَّشبيهيَّةَ ببنيةٍ استعاريَّةٍ فِيْ قَوْلِه (الدَّهر القطوب) وكأنَّ الكُلَّ شاركه حزنه حَتَّى الدَّهر.

لَقَدْ بَرَعَ الكُتَّابُ في رسم البِنَى التَّشْبِيْهيَّةِ الْبَلِيْغَةِ القائمةِ عَلَى التَّقريبِ بين المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ بِهِ، مع حذفِ الأداةِ، ووجهِ الشَّبَهِ، وبِذَلِكَ يظهرُ لنا مدى التَّقاربِ بينهما، ويتوهَّمُ المُتَلَقِّي أنَّهما متَّحدانِ، وقد زالتْ بينهما الْحُدُوْدُ، واختفتِ الْفَوَاصِلُ، فضمَّ كلٌّ منهما الآخرَ إليه كأنَّهما في عناقٍ، أو قلْ إنْ شئتَ كأنَّهما حبيبانِ تعلَّقَ كلٌّ منهما بالآخرِ ففشلتْ كُلُّ مُحَاوَلاتِ الفَصْلِ بينهما؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ "حذفَ الأداةِ يوحي بتساوي الطَّرفينِ، وعدم تفاضلهما، وحذف وجهِ الشَّبَهِ يوهمُ بأنَّهما متشابهانِ في أغلب الصِّفَاتِ، ويوسِّعُ آفاقَ التَّصْوِيْرِ والْخَيَالِ"[2].

وتوسَّعَ كَثِيْرٌ مِن النُّقَّادِ في تناول البِنَى التَّشْبِيْهيَّةِ الْبَلِيْغَةِ الَّتِيْ تقوم عَلَى الْعَلَاقَةِ المزدوجةِ بين الدَّالِ والمدلولِ مِنْ جِهَةٍ، وبين المُتَلَقِّي مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَمِنْ هُنَا "تتَّسعُ مجالاتُ استخدام الكلمة؛ لِأَنَّ حذفَ الأداةِ، ووجهِ الشَّبَهِ فيها، وامتدادِ دلالته في الاتِّساعِ بالْوُقُوفِ عَلَى الْمَعْنَى الأساسيِّ، والْمَعْنَى الإضافيِّ، وهو الْمَعْنَى الَّذِيْ يملكه اللفظُ عن طريقِ ما يشير إليه إِلَى جانبِ معناه التَّصْوِيْرِيّ الخالص"[3].

وأُدَبَاءُ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ شَأْنُهُم شَأْنُ أغلبِ الشُّعَرَاءِ في افتتانهم بالصُّورِ البَلاغيَّةِ، وظَّفوا الْبِنْيَةَ التَّشْبِيْهيَّةَ الْبَلِيْغَةَ في تشكيلاتٍ توحي بقدرتهم الفائقةِ في توظيفها، حَيْثُ امتلكَ كَثِيْرٌ منهم زمامَ التَّلاعبِ بالْأَلْفَاظِ، فأبدعوا أشكالاً بَارِعةً من التَّشْبِيْهِ البليغِ، وهَذَا ما قدَّمه صاحبُ (الآثار الفكريَّة) في أكثر من مناسبةٍ، يَقُوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "وَإِذَا شخصٌ عظيمٌ كأنَّه ملكٌ كريمٌ يسعى دائماً في تسكينِ الفتنِ، وإخمادِ نارِ المحنِ"[4]. فقد رسمَ صورةً مظلمةً للمحنِ الَّتِيْ غدتْ بِمَثَابَةِ نارٍ ملتهبةٍ تحرقُ الْأَخْضَرَ، واليابسَ، وتحيلُ كُلَّ جميلٍ إلي مَشَاهِدِ القبحِ والدَّمارِ.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ عَبْد الله فِكْرِيّ كَثِيْراً عن أندادِه، فقد رَسَمَ صورةً تشبيهيَّةً بليغةً أُخْرَى حَيْثُ صوَّرَ الغيظَ بالنَّارِ، يَقُوْلُ: "وَحَشَا بالغيظِ والحقدِ أحشاءَهُ، فالتهبَ نارُ غيظِهِ الكامِنِ، وبدت آثارُ

---

[1] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَة الباهيَّة)، (ص43).

[2] يموت، علم أساليب البيان، (ص154).

[3] عمر، علم الدَّلالة، (ص37).

[4] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص282، ص283).

غضبه من المكامنِ"[1]. وتصويرُ الغيظِ بالنَّارِ الملتهبةِ أَضَافَ جَمَالاً إِلَى جَمَالٍ، حَيْثُ رَسَمَ لوحةً تحملُ معالمَ القسوةِ، وَمَلَامِحَ الشِّدَّةِ، وتبدي مَشَاهِدَ الخوفِ والرُّعبِ، مُتَعَلِّقاً بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك: ٨].

ثُمَّ واصلَ عَبْد الله فِكْرِيّ المسيرَ، ووظَّف الْبُنْيَةَ التَّشْبِيْهِيَّةَ الْبَلِيْغَةَ مَرَّةً أُخْرَى فِيْ قَوْلِه: "فزدت تحيُّراً بما سمعته، ولكنَّه سكتَ فسار وتبعته، وقلتُ لَعَلِّي أرى ما يزيلُ حجابَ الْوَهْمِ، ويفتح لي إنْ شاءَ اللهُ بابَ الفهمِ"[2]. حَيْثُ شَبَّهَ الْوَهْمَ بالحجابِ توضيحاً لما يتركه الْوَهْمُ من ظلمةٍ عَلَى حياةِ الآخرينَ. فالْوَشَائِجُ بين الحجابِ، والْوَهْمِ تبدو حميمةً، مع قوَّةِ الصِّلةِ بينهما، وما يمثله الْوَهْمُ من ظَلاميَّةٍ لا ملامحَ لها، ولا حدودَ، وما يرسمه الحجابُ من سريَّة لا ظهورَ لها، ولا وجودَ، مع امتدادِ دلالةِ الْوَهْمِ، والحجابِ نحوَ العمقِ لتسبرَ أغوارَ النُّفوسِ، وتؤجِّجَ بواعثَ التَّأثُّرِ فِيْ أَعْمَاقِ الْقُلُوْبِ فيُحيل السَّعادةَ شقاءً.

أَطْلَقَ الْأُدَبَاءُ العَنَانَ لأخيلتهم لتشكيلِ بنىً تشبيهيَّة بليغة؛ كي يقرِّبَ هَؤلاءِ صورةَ المُشَبَّهِ في ذهنِ المُتَلَقِّي؛ ليُحلِّقَ في آفاقٍ خياليَّةٍ يتحرَّرُ فيها قَلِيْلاً أو كَثِيْراً من أغلالِ القيودِ الُّلغويَّةِ، فتغدو لغته لغةً ساحرةً معبِّرةً عن صدقِ إحساسه، وَلَعَلَّ الآثارَ الفكريَّةَ حملت مزيداً من روائعِ تلك التَّشْبِيْهاتِ، ففي (المَقَامَة الفكريَّة) يقدِّم فارسها، عَبْد الله فِكْرِيّ فَاصِلاً متنوِّعاً من روائعِ التَّشْبِيْهاتِ أولها: "ولكنَّها مع ذلك لا تألو الجهدَ في مناصحةِ العقلِ، وكفِّهِ عن السُّلُوْكِ في مسالكِ الغوايةِ والجهلِ"[3]. فقد أضافَ فكري جَمَالاً إِلَى جَمَالٍ في بنيةِ التَّشْبِيْهِ البليغِ، وَلَعَلَّ الرَّوْعَةَ تبدو في تجسيمِ المعنويِّ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَجَمْعِ (المسالك) مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، والَّذِيْ حمل في ثَنَايَاه التَّنوع، والكثرة. وَيُوَاصِلُ هنا عَبْد الله فِكْرِيّ طريقه في رسم البِنَى التَّشْبِيْهِيَّةِ الْبَلِيْغَةِ مُعْتَمِدَاً عَلَى تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ فِيْ قَوْلِهِ: "وَإِذَا شخصٌ عظيمٌ يسعى دائماً في تسكينِ الفتنِ، وإخمادِ نار المحنِ"[4]. فقمَّةُ الْجَمَالِ، ومنتهى الحسنِ والْبَهَاءِ يبدو في تصويرِ المحنِ بالنَّارِ، وللمتلقِّي أنْ يتصوَّرَ ما في النَّارِ من شدةٍ ولهيبٍ يأتي عَلَى الْأَخْضَرِ واليابسِ؛ إِذْ يستحيلُ أنْ ترتدَّ النَّارُ برداً وسلاماً لمن سلكَ مسالكَهَا، وقصدَ دُرُوبَهَا.

انتقى عَبْد الله فِكْرِيّ تشبيهاته بعنايةٍ بالغةٍ، وَبَرَعَ فِيْ مَرَّاتٍ عديدةٍ فِيْ تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ،

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص283).

[2] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (مَقَامَة في حسن الوفاء)، (ص308).

[3] فكري، عبد الله الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص278).

[4] المَرْجِع السَّابِق، ص280، ص281.

وَكَأَنِّي به يُصِرُّ كلَّ الإصرارِ عَلَى إزالةِ كلِّ غموضٍ قد يسيطرُ عَلَى تشكيلاتِهِ التَّشْبِيْهِيَّةِ الَّتِيْ يتلقَّاها المُخَاطَبُ، يَقُوْلُ: "فزدتُ تحيُّراً بِمَا سمعته، ولكني سكتُّ فسار وتبعته، وقلت لَعَلِّي أرى ما يزيلُ حجابَ الْوَهْمِ، ويفتح لي إن شاءَ اللهُ بابَ الفهمِ"[1]. لَعلَّ صورةَ الْوَهْمِ هنا قد سيطرت عَلَى فكرِ الْأَدِيْبِ، وَمَا يَحْمِلُهُ الْوَهْمُ من تخيُّلاتٍ مرعبةٍ، وتصوُّراتٍ مخيفةٍ، فصوَّرها بكلمة (حجاب)؛ ليزدادَ الأمرُ خَفَاءً، وَغُمُوضَاً.

أَمَّا قَوْلُهُ: "وكنت أسمعُ هَذَا الْكَلَامَ، وأتجلَّدُ لوقعِ سهامِ الملامِ"[2]. فيقدِّم مَشْهَدَاً تشبيهيَّاً يرسم قسوةَ اللومِ، وشدَّة وقعه على النُّفُوسِ حتى كان كالسِّهامِ، مع ما في الصُّورَةِ من روعةٍ يتبعها جمال صُحْبَةَ تجسيمِ الملامِ في صورةِ سِهَامٍ ماضياتٍ.

وَيُوَاصِلُ الكتَّاب طَرْقَ أبوابِ تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ؛ لإزالةِ الْغُمُوْضِ والخفاءِ، مُعتمدينَ عَلَى عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ لمَّا حذَّرَ هَؤلاءِ من مساوئِ الأَخْلَاقِ، يَقُوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "وَمَن انحرفَ عن صراطِ الاعتدالِ، ذات اليمينِ أو ذات الشِّمالِ، وقعَ في الدُّنيا في نيرانِ مساوئِ الأَخْلَاقِ والأعمالِ"[3]. فقد صَوَّرَ الأَخْلَاقَ السَّيئةَ بالنِّيرانِ، وكأنَّه يتمثَّلُ قولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّما مَثَلُ الجليسِ الصَّالحِ والجليسِ السُّوءِ كحامِلِ المسكِ، ونافخِ الكِيْرِ. فحاملُ المسكِ، إِمَّا أن يُحْذِيَكَ، وإِمَّا أنْ تبتاعَ منه، وإِمَّا أن تجِدَ منه ريحاً طيِّبةً. ونافخُ الكيرِ، إِمَّا أنْ يَحرقَ ثِيَابَكَ، وإِمَّا أنْ تجدَ منه ريحاً خبيثَةً"[4]. ويتابع هَذَا التَّجسيمَ بِقَوْلِهِ: "وعِنْدَئذٍ اشتدَّ اشتعالُ نارِ الاختلالِ، وانتشر شَرَرُ الشَّرِ فِيْ جَمِيْعِ المحالِ"[5]. مصوِّراً توابعَ الاختلالِ، وآثارَ الاضطرابِ الَّتِيْ تستحيلُ أشبهَ بالنَّارِ المشتعلةِ، وقل إنْ شئتَ: بل هي النَّار ذاتها، وَلَعَلَّ الْأَدِيْبَ يحذِّرُ هُنَا من عواقبِ الاضطرابِ، وتوابعِ الفسادِ، وما يتبعهما من دمارٍ وخرابٍ.

ويتابع فكري حديثه عن الصُّورَةِ فِيْ رَسْمِ مَشْهَدِ الغيظِ، يَقُوْلُ: "تذَّكرْ ما كان من أمرِ الرَّجُلِ الَّذِيْ ساءَهُ، وحشا بالحقدِ والغيظِ أحشاءَهُ، فالتهبتْ نارُ غيظِهِ الكامنِ، وبدت آثارُ غضبِهِ في المكامنِ"[6]. فالغيظ نارٌ ملتهبةٌ تكاد تَمَيَّزُ من الغيظِ، وتحملُ الْبِنْيَةُ التَّشْبِيْهِيَّةُ تحذيراً مباشراً

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص283).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص283.

[3] المَرْجِع نفسه، ص295.

[4] [مسلم، صحيح مسلم، كتاب (البر والصلة والآداب)، باب (45) (استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء)، 2026/4: رَقَم الْحَدِيْث 2628].

[5] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص295).

[6] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (مَقَامَة في حسن الوفاء)، (ص303).

شديدَ اللَّهجةِ لمن تركَ الغيظَ يسيطرُ عَلَى نفسَهَ، بأنْ يكظمَ غيظَهُ، ويعفوَ عن غيره؛ لَعَلَّهُ يكونُ من المُحسنينَ.

ومن مَشَاهِدَ تشبيهيَّةٍ سيطرَ عليها السَّوَادُ، إِلَى أُخْرَى زيَّنَهَا الخيرُ، وجمَّلها الثَّمَرُ، وزادَ كَذَلِكَ من بهائِهَا وجمالِهَا، الْبَرَاعَةُ في تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، وهو ما يُضْفِي عَلَى الْمَعَانِي وضوحاً وجلاءً. وهَذَا يتمثَّلُ فِيْ قَوْلِ عَبْد الله فِكْرِيّ: "كان ببعضِ الأمصارِ، فيما مضى من الأعصارِ، رجلٌ مِنَ التُّجارِ قَدْ رُزِقَ سِعَةُ الْغِنَى، وَجَنَى ثَمَرَاتِ الْمُنَى"[1]. فَهُنَا صَاغَ فِكْرِيّ بِنْيَةً تَشْبِيْهِيَّةً بَلِيْغَةً أَسْهَمَتْ فِيْ تَشْكِيْلِ صُوْرَةٍ فَنِيَّةٍ أَظْهَرَتْ حَلَاوَةَ الْمُنَى، وانْجِذَابَ النُّفُوْسِ إِلَيْهَا، فَهِيَ أَشْبَهُ بِثَمَرَاتٍ دَانِيَةٍ قَدْ أَيْنَعَتْ، وَحَانَ قطافُهَا، مَعْ مَا فِيْ الْمَشْهَدِ مِنْ لَذَّةٍ تَتُوْقُ إِلَيْهَا النُّفُوْسُ.

ولا يغادرُ عَبْد الله فِكْرِيّ عَوَالِمَ تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، بلْ وَاصلَ رِحْلَةَ الإِبْدَاعِ فِيْ قَوْلِه: "غارقين آناء اللَّيْلِ، وأطراف النَّهَارِ في بحارِ الأفكارِ"[2]. وكأنَّه أراد أنْ يرسمَ هولَ المأساةِ، وشدَّةَ المعاناةِ لَمَّا شبَّهَ الأفكارَ الَّتِيْ تتوالى، وما يرافقها من قسوةٍ بالبحارِ في سعتِهَا، وتلاطمِ أمواجِهَا، وزادَ المَشْهَدَ قسوةً لمَّا استعملَ (غارقينَ آناءَ اللَّيْلِ، وأطرافَ النَّهَارِ) الَّتِيْ شكَّلتْ مشهدَ سيطرةِ الألمِ والمعاناةِ، واستمرارهما دُوْنَمَا توقُّفٍ، مَعْ مَا تَحْمِلُهُ كلمةُ (غارقين) من الرُّعبِ والخوفِ؛ إذْ لا مجالَ للنَّجاةِ هنا من وحشيَّةِ الأفكارِ، ولا سبيلَ للفكاكِ منها، ولو للحظةٍ.

أمَّا مُحَمَّد المُبَارَك فقد كانَ لَهُ باعٌ طويلٌ في تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، حَتَّى غَدَتْ تِلْكَ المعنويات ماثلةً أَمَامَنَا، وكَأَنَّهَا صُورٌ مرئيَّةٌ، حَيْثُ وظَّف الْبنْيَةَ التَّشْبِيْهِيَّةَ الْبَلِيْغَةَ فِيْ قَوْلِه: "وَهَلْ صفتْ أوقاتكَ إلا بوجودي، أو طابتْ أقواتُكَ إلَّا بوابلِ كرمي وجودي؟!"[3]. فقد شبَّهَ الكرمَ والجودَ بالوابلِ؛ لينقلَ للمتلقِّي مشهدَ الكرمِ الفيَّاضِ، والعطاءِ الْعَظِيمِ، والجودِ اللامتناهي، مُدعِّماً فكرتَهُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

كَمَا لجأَ مُحَمَّدُ المُبَارَك إِلَى عنصرٍ من عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ، وهو النَّارُ لرسمِ صورٍ تشبيهيَّةٍ بليغةٍ، كقولِهِ: "فاشتعلتْ بينهما نارُ النِّزاعِ والشِّقاقِ، وقَامَتْ حربُ الجِلادِ والجدالِ عَلَى

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (مَقَامَة في حسن الوفاء)، (ص303).

[2] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (مَقَامَة العمال والبطال)، (ص312).

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غريب الأنباء في المُفَاخَرَة بين الْأَرْض والسَّمَاء)، (ص104).

ساقٍ"[1]. وكأنَّ الْأَدِيْبَ أرادَ أنْ يُحذِّرَ من نتائجِ النِّزاعِ، ومغبَّةِ الشِّقاقِ، الَّذينِ يحرقانِ ما يعترضهما من الْأَخْضَرِ واليابسِ. وأبدع إبداعاً نوعيَّاً لمَّا صوَّرَ الجدالَ بالحربِ الَّتِيْ تقضي عَلَى الإنسانِ والحيوانِ، وقدْ تكرَّرَ هَذَا المشهدُ في كلِّ الأزمنةِ، وَشَتَّى الأمكنةِ.

ومثلُ ذَلِكَ ما برعَ فيه الْأَدِيْبُ من تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ فِيْ قَوْلِهِ: "وليت شعري هل تستوي لذَّةُ المنادمةِ مع الأحبَّةِ بمن رقَّ وراقَ، ولوعةُ من أضحى يتقلَّى بنارِ البعدِ والفراقِ؟!"[2]. فالْأَدِيْبُ انتزعَ صورةً تكرَّرتْ كَثِيْراً في أشعارِ العربِ، وهي صورةُ تشبيهِ البعدِ، والفراقِ بالنَّارِ، لِمَا يحدثانه من أثرٍ عَلَى نفوسِ الأحبَّةِ والعاشقينَ. وهَذَا يقترب من قولِ أبي فراس الْحَمَدَانِيّ:

تَكَادُ تُضِيءُ النّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي إِذَا هِيَ أَذْكَتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْفِكْرُ[3]

وَيُوَاصِلُ الْأَدِيْبُ حكايةَ عشقه لِلطَّبِيْعَةِ، فيصوِّرُ الاغترابَ، وتتابعَ ويلاتِهِ، وقسوةِ معاناتِهِ باليمِّ، وللمتلقِّي أنْ يتصوَّرَ مدى تلك المعاناةِ مِنْ خِلَالِ تجسيمِهَا في صورةِ البَحْرِ.

ركَّزَ الْأُدَبَاءُ عَلَى طرحِ الصِّفَاتِ الَّتِيْ تتركُ آثاراً سيئةً عَلَى المجتمعِ، وتصويرها بصورٍ مرعبةٍ؛ لَعَلَّ من يتعاطى مثلَ هذه الصَّفاتِ أنْ يدعها، وَمِنْهُا الجدال، يَقُوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "فسدَّ ما بينَ الخافقينِ بسوادِهِ، وطفقَ يرمي بسهامِ جدالِهِ في جلادِهِ"[4]. حَيْثُ شكَّلَ بِنْيَةً تشبيهيَّةً بليغةً مُعْتَمِداً عَلَى تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، مُشبِّهاً الجدالَ بالسِّهامِ النَّافذةِ، مَعْ مَا فِيْ الْمَشْهَدِ من رعبٍ، وخوفٍ زادَ من أثرِهِ جمعُ كلمةِ (سهام)، وجملة (طفق يرمي) بما فيهما من استمراريَّةٍ وَتَجَدُّدٍ.

ويشاركُ الْأُدَبَاءُ أفرادَ المجتمعِ في عاداتهم وتقاليدهم، فلم يعدْ يعبأ هَؤلاءِ بصديقٍ وجدوا منه ما يكرهونَ، فدفنوا هذه الصَّداقةَ الَّتِيْ لا تستحقُّ التَّمسُّكَ بصاحبها في لحودِ النِّسيانِ، وَمِنْ هُنَا حاولَ هَؤلاءِ عِنْدَ تشكيلِ بنياتِهِمْ التَّشْبِيْهِيَّةِ الْبَلِيْغَةِ إخراجَ الصُّورِ من قالبِ الإدراكِ العقليِّ إِلَى مجالِ الرُّؤيةِ الملموسةِ؛ بغيةَ تحويلِ ذلك الأمرِ المعنويِّ إِلَى إدراكِ مَشَاهِد بالأثرِ الماديِّ حتى تجمَّعت أَمَامَ المُتَلَقِّي تلك المرائي البصريَّةُ المَشَاهدةُ، ومن هَذَا المَشْهَدِ يشكِّلُ المُبَارَكُ بنيةً تشبيهيَّةً جديدةً يخرج فيها الصُّورَةَ من عَوَالِمِ المعقولِ إِلَى مَشَاهِدَ بصريَّةٍ ظاهرةٍ للعيانِ، يَقُوْلُ: "وإنْ رأيتُ من صديقٍ لي ما أكرهُ، واريته في لحدِ التَّناسي، وعظَّمتُ لقلبي فيه أجره"[5].

---

[1] الطَّيَّان، مُحَمَّد، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص165).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص164.

[3] الْحَمَدَانِيّ ، دِيْوَان أبي فراس، (ص165).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص130).

[5] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص174، ص175).

إنَّ الخلَّ الوفيَّ كَنزٌ من أعظم الْكُنُوْز الَّتِيْ يمتلكها الْإِنْسَان، كَيْفَ لا؟ وهو مفتاح النَّفعِ، وجالب الخيرِ، أمَّا صديق المنفعةِ فعَلَى النَّقيضِ، وَمِنْ هُنَا صوَّر مُحَمَّد المُبَارَك التَّناسي باللحدِّ مقدِّماً المعنويَّ، وهو التَّناسي فِي صُوْرَة مرئيَّةٍ محسوسةٍ، وهي صورة اللَّحدِ مع ما يحمله المَشْهَدُ مِن حزنٍ، وما يستحقُّه صديقُ المنفعةِ من مواراةٍ في لحودِ التَّناسي، وقبورِ النِّسيانِ.

يُقَدِّمُ مُحَمَّد المُبَارَك مَجْمُوْعَةً من البِنَى التَّشْبِيْهيَّةِ الْبَلِيْغَةِ المتجاورةِ، مُعْتَمِداً عَلَى عُلُوْمِ البَلَاْغَةِ الثَّلاثةِ، يَقُوْلُ: "كَيْفَ تهتكُ بسنانِ لسانكَ ثوبَ عرضي، وتفتكُ بي وأنتَ في حيِّي وأرضي؟[1]"، حَيْثُ انتقى من علمِ الْمَعَانِي الاسْتِفْهَام فِيْ قَوْلِهِ: (كَيْفَ تهتكُ؟) وما حمله الاسْتِفْهَامُ من الإنكارِ، واختار من البيانِ التَّشْبِيْهَ البليغَ فِيْ قَوْلِه: (سنان لسانك)، حَيْثُ صَوَّرَ اللسانَ، وما يقذفُ من حِمَمِ الفحشِ بنصلِ الرّمحِ، مَعْ مَا فِيْ الْمَشْهَدِ من توضيحٍ للفُحْشِ، والبذاءةِ، ثم واصلَ ببنيةٍ تشبيهيَّةٍ بليغةٍ أُخْرَى فِيْ قَوْلِه: (ثوب عرضي) مصوِّراً العِرضَ بالثَّوبِ الَّذِيْ يتعرَّضُ للدَّنسِ إثرَ هفواتِ الألسنةِ مَعْ مَا فِيْ الْمَشْهَدِ مِن تجسيمٍ للمعنويِّ فِي صُوْرَةٍ حسيَّةٍ، ولم يبرحْ مُحَمَّد المُبَارَك المَشْهَدَ حتى زيَّنه بلونٍ من البَدِيْعِ، وهو الجِنَاس النَّاقِص (الْمُضَارِع) فِيْ قَوْلِه: (أرضي، وعرضي) مع ما يحدثه الجِنَاسُ مِنْ جرسٍ موسيقيٍّ مُفْعَمٍ بالعذوبةِ، والنَّقاءِ.

هَكَذَا أَطْلَقَ الْأُدَبَاءُ العَنَانَ لأقلامهم لتكتبَ أجملَ الكَلِمَاتِ، وتشكِّلَ أَرْوَعَ اللَّوْحَاتِ، وتعزفَ أعذبَ المقطوعاتِ في عَوَالِمِ التَّشْبِيْهِ البليغِ معتمدينَ عَلَى تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ مِنْ نَاحِيَةٍ، واسْتِنْطَاقِ الْجَمَادَاتِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، ففتحوا أَمَامَ المُتَلَقِّينَ أبواباً كَانَتْ مُوْصَدةً، وحرَّكوا داخلهم مشاعرَ كامنةً كَانَتْ يوماً دفينةً، فعاشَ هَؤلاءِ صُحْبَةَ البِنَى التَّشْبِيْهيَّةِ حياةَ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وألفوا عاداته وتقاليده، وأدركوا خصوصيَّاتِهِ الَّتِيْ كَانَتْ تخفى عليهم قبلَ ذلك. فتزيَّنتِ المَقَامَاتُ بهذه التَّشْبِيْهاتِ، وعلتِ التَّشبيهاتُ صُحْبَةَ المَقَامَاتِ، وكأنَّ كلاً منهما تكفَّل بإخفاء هَنَاتِ الآخر.

البنى التَّشْبِيْهيَّةُ التَّمثيليَّةُ

وللتَّشْبِيهِ التَّمثيليِّ نَصِيْبٌ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وإنْ كانَ حظُّهُ أقلَّ من التَّشْبِيهِ المرسلِ والبليغِ، والتَّشبيهُ التَّمثيليُّ ما كان وجهُ الشَّبَهِ فيه وصفاً منتزعاً من متعدِّدٍ، أو هو تشبيهُ هيئةٍ مركبَّةٍ بهيئةٍ مركبَّةٍ، وقد أورد القَزْوِيْنِيُّ ذَلِكَ قَائِلاً: "التَّمثيلُ ما وجهُهُ وصفٌ منتزعٌ من متعددٍ أمرين، أو أمورٍ"[2].

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص178).

[2] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص371).

وَيُعَدُّ التَّشْبِيْهُ التَّمثيليُّ من أبلغِ أنواعِ التَّشْبِيْهِ وأغناها بخطوطِهِ وألوانِهِ، وأكثرها حيويَّةً وحركةً؛ لِأَنَّه ليس تشبيهاً ميسوراً يدورُ حولَ صفةٍ واحدةٍ، وإنَّما تتعدَّدُ فيه الصِّفَاتُ المنشودةُ فيضِجُّ بالْحَرَكَةِ، وتتابعِ نبضِ الحَيَاْةِ.

وقَدِ استوعبتِ الْبنْيَةُ التَّشْبِيْهِيَّةُ التَّمثيليَّةُ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ مساحةً قليلةً، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يعودُ إِلَى طبيعةِ المَقَامَةِ الَّتِيْ تركِّزُ في المقامِ الأَوَّلِ عَلَى المُحَسِّنَاتِ البَدِيْعِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ التَّشْبِيْهِ التَّمثيليِّ فِيْ الْمَقَامَةِ العُثْمَانِيَّةِ قَوْلُ أَحْمَد البَرْبِيْر: "وسيَّر بي الفلكَ في البحرِ كما تسير العيسُ في البطاحِ"[1]، حَيْثُ شكَّلَ البَرْبِيْرُ بِذكاءٍ خارقٍ، وَرَسَمَ في براعةٍ فائقةٍ مَشْهَدَاً من مَشَاهِد الحَيَاْةِ الْعَرَبِيَّةِ، فقد صوَّرَ هيئةَ الفلكِ الَّتِيْ تسيرُ في البحرِ وسطَ تتابعِ الْأَمْوَاجِ، وما تتعرَّضُ له من عواصفَ، بهيئة العيسِ الَّتِيْ تحملُ الأثقالَ في الصَّحراءِ، وما تواجهُ من صعوباتٍ، مع ما في هَذَا المَشْهَدِ مِن رسمٍ للوحةٍ مألوفةٍ في البيئةِ العربيَّةِ.

لقد استعانَ الْأُدَبَاءُ فِيْ تَشْكِيْلِ الْبنْيَةِ التَّشْبِيْهِيَّةِ التَّمثيليَّةِ بما اختُزِنَ في أذهانهم من صورٍ وأحداثٍ، يَقُوْلُ أَحْمَد البَرْبِيْر: "وهم يمزجونَ جدَّهم بالمفاكهةِ، والمداعبةِ، والمباسطةِ، ويزهونَ كالعقدِ وصاحبِ المنزلِ لهم كالواسطةِ، ومجلسه يحتفلُ بالوافدينَ، ويغصُّ بالواردينَ"[2]. فَقَدْ وَظَّفَ الْأَدِيْبُ مَشْهَدَاً حيَّاً مُفْعَماً بالْحَرَكَةِ يقوم عَلَى دالين يكمل كلٌّ منهما الآخرَ، وهما (الوافدون)، و(صاحب المنزل)، ثُمَّ عَقَدَ مفارقةً بارعةً مُعْتَمِدَاً عَلَى دالين جديدين هما (العقد)، و(واسطة العقد) تتمازج في هذه الْبنْيَة مَشَاهِد الْجَمَال مُعْتَمِدَاً عَلَى تراث السَّابقين، فجعل هيئةَ صاحبَ المنزلِ، ومكَانَتَهُ السَّاميةَ بين الضُّيوفِ الوافدينَ بكلِّ شموخٍ بهيئةِ عقدِ الدُّرِّ الثَّمينِ الَّذِيْ يُمَثِّلُ صاحبَ المنزلِ، وواسطته، بجامع سُمُوِّ المكانةِ والمنزلةِ، وَعُلُوِّ الرُّتبةِ في كليهما، وزاد المَشْهَدَ روعةً استلهامُ تراثِ السَّابقينَ مُتَمَثِّلاً قَوْلَ أَبِي تَمَّام:

فَأَضحَتْ بِكَ الأَحْيَاءُ أَجمَعُ أُلفَةً كَما أُحكِمَت في النَّظمِ وَاسِطَةُ العِقْدِ[3]

وَقَولَ ابنِ الرُّوْمِيّ:

تَوَخَّى حِمَامُ الْمَوتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِي فَلِلَّـهِ كَيْـفَ اخْتَـارَ وَاسِـطَةُ العِقْـدِ؟[4]

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص29).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص44.

[3] أبو تمام، شرح دِيْوَان أبي تمام، (ج238/1).

[4] ابن الرُّوْمِيّ، دِيْوَان ابن الرُّوْمِيّ، (ج400/1).

وَيُبْدِعُ الْأُدَبَاءُ في عَوَالِمِ التَّشْبِيْهِ التَّمثيليِّ، بالعودة إِلَى روائعِ الشِّعرِ العباسيِّ، ورسم مشهدٍ من مَشَاهِدِ التَّذلُّلِ والخضوعِ لِمَنْ يستحقُّ، فلا مكانَ للمنافقينَ، ولا متَّسعَ للمرجفينَ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الخَفَاجِيّ في مَقَامَةِ (الغربة):

لَوْ أَنْصَفُوْهُ لَقَامُوا فِيْ مَجَالِسِهِ عَلَى الرُّؤُوسِ قِيَامَ الظِّلِّ فِيْ المَاءِ[1]

فقد برعَ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ في رَسْمِ المَشْهَدِ لمَّا استعانَ بمفرداتِ الطَّبِيْعَةِ من ظلالٍ ومياهٍ، حَيْثُ صوَّرَ هيئةَ الملكِ وقد أحاطَهُ الشُّمُوخُ والعظمةُ والكبرياءُ، فوقفَ له الْجَمِيْعُ دُوْنَمَا تردُّدٍ إنصافاً، بهيئةِ الظِّلِّ لمَّا يقعُ في الماءِ فيبدو ثابتاً بجامعِ العظمةِ، والشُّموخِ، والرُّسُوخِ في كليهما. مَعْ مَا فِيْ الْمَشْهَدِ مِن تحويلِ عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ إِلَى لمساتٍ تشخيصيَّةٍ متجانسةٍ كلَّ التَّجَانُسِ، ومتناسقةٍ كأَرْوَعِ ما يكونُ التَّناسُقِ، بِمَا يحقِّقُ العمقَ الفنِّيَّ للتَّمثيلِ بأَرْوَعِ نماذِجِهِ، وأرقى مشبَّهاتِهِ.

الْبِنْيَةُ التَّشْبِيْهِيَّةُ الضِّمْنِيَّةُ

وفي مَشَاهِدَ قليلةٍ ظهرَ التَّشْبِيْهُ الضِّمْنِيُّ فِيْ الْمَقَامَةِ، وهو "تشبيهٌ لا يُوضَعُ فيه المُشَبَّهُ، ولا المُشَبَّهُ به فِي صُوْرَةٍ من صُورِ التَّشْبِيْهِ الْمَعْرُوفَةِ، بَلْ يُلمَحُ المُشَبَّهُ والمُشَبَّهُ بِهِ، ويُفهمانِ من الْمَعْنَى. ويكونُ المُشَبَّهُ به دائماً برهاناً عَلَى إمكانِ ما أسند إِلَى المُشَبَّهِ"[2]. أو هو التَّشْبِيْهُ الَّذِيْ لا يُذكرُ فيه المُشَبَّهُ والمُشَبَّهُ به صَرَاحَةً، وإِنَّما يُفهمانِ من فَحْوَى الْكَلَامِ، وسياقِ الحَدِيْثِ، و بِمَعْنَى آخر لم يُصرَّحْ فيه بأركانِ التَّشْبِيْهِ، و لم يأتِ عَلَى الطَّرِيْقَةِ المألوفةِ المتعارفِ عليها في أسلوبِ التَّشْبِيْهِ، وإِنَّما يكونُ دليلاً لإثبات أمرٍ غريبٍ يُدعى حصوله، أو تعليلاً لحكمٍ عجيبٍ يُدعى إمكانه.

وَمِنْ رَوَائِعِ التَّشْبِيْهِ الضِّمْنِيِّ ما حمله قولُ أَحْمَد البَرْبِيْر: "وأنا لا أحبُ الْمَعَالِي، وأنا سلمٌ للمحلِّ المنخفضِ، وحربٌ للمكانِ العالي"[3]. فقد شَبَّهَ البَرْبِيْرُ خُلُوَّ الرَّجلِ الكريمِ من الغنى، وحرمانه من المالِ لكثرةِ عطاياه، وهَذَا أمرٌ غريبٌ، لذلك ساقَ له دليلاً، فشبهه بحرمانِ المكانِ العالي من استقرارِ المياهِ عليه بجامعِ مطلقِ الحرمانِ، وَلَعَلَّ الرَّوْعَةَ تبدو فِيْ تَشْكِيْلِ هذه الصُّورَةِ بِطَرِيْقَةٍ غيرِ مباشرةٍ، حَيْثُ يحتاج المُتَلَقِّي إِلَى مزيدِ جهدٍ، وإطالةِ فكرٍ لِلْوُصُوْلِ إِلَى طرفي

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (ص374).

[2] الجربي، الْبَلَاغَة التَّطبيقيَّة، (ص106)، الهاشميّ، جواهر الْبَلَاغَة، (ص205).

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص36).

التَّشْبِيْهِ، وهَذَا يزيدُ التَّشْبِيْهَ جَمَالاً، ويمنحه بلاغةً بخلافِ التَّشْبِيْهاتِ الصَّريحةِ. وقد اعْتَمَد الأَدِيْبُ فِيْ رَسْمِ الْبِنْيَةِ التَّشْبِيْهيَّةِ عَلَى قَوْلِ أَبِي تَمَّام:

لَاْ تُنكِرِي عَطَلَ الكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلمَكانِ العَـــالِي[1]

إنَّ الْأُدَبَاءَ بَرَعُوا فِيْ نَسْجِ صورهم الشِّعريَّةِ، وتشكيلِهَا مِنْ خِلَالِ توظيفِ البِنَى التَّشْبِيْهيَّةِ المرسلةِ والْبَلِيْغَةِ، مما أعطى لصورهم بُعْدَاً فنيَّاً، ومقياساً جَمَاليَّاً يدفع المُتَلَقِّي إِلَى الولوجِ في عَوَالِمِ الْخَيَالِ لرصدِ جَمَالِيَّاتِهَا، والْوُقُوفِ عَلَى مواطنِ الإِبْدَاعِ فيها، فرسموا صوراً لِلطَّبِيْعَةِ بمظاهرِهَا المُخْتَلِفَةِ، بِمَا فيها الْإِنْسَان، والحيوان، والنَّبات، فكَانَتْ أذواقُهُمْ لهذه الظَّوَاهِرِ أذواقاً مميَّزةً تنبضُ بالحَيَاْة، وتحملُ رؤيةً عميقةً، وتظهرُ اعتزازهم بما كانوا يتناولونَ من الصُّورِ، وافتخارهم بما يقدِّمونَ من مشاهِدَ، ولم يقفِ الأمرُ عِنْدَ هَذَا الحدِّ، بل راحوا يَسْتَلْهِمُونَ الْمَعَانِي من الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، والحَدِيْثِ النَّبويِّ الشَّريفِ، وما حفظوه من تراثِ أسلافهم في العُصُوْرِ السَّابِقَةِ، حَيْثُ تركتْ تِلْكَ الأُمُوْرُ بصماتٍ واضحةً عَلَى نُصُوْصهم المَقَامِيَّةِ، وجسَّدوا كلَّ ما يجولُ في خواطرِهِمْ بأسلوبٍ أدبيٍّ رفيعٍ يظهرُ مقدرتَهُمْ الْفَنِيَّةَ في الصِّياغةِ، والتَّعْبِيرِ، وبراعتهم في التَّشْكِيلِ، والتَّصْوِيْرِ.

---

[1] أبو تمام، شرح دِيْوَان أبي تمام، (ج2/38).

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: التَّشْكِيْلُ الاسْتِعَارِيُّ

الاسْتِعَارَةُ أحدُ أبوابِ علمِ الْبَيَانِ. وقد تعدَّدتْ تعريفاتُهَا في مواضعَ شَتَّى في مؤلفاتِ علمِ البَلَاْغَةِ. وهي في اللُّغَة مشتقَّةٌ مِنَ الْفِعْلِ (عَوَرَ) يقال: "استعار ثوباً فأعاره إيَّاه وَمِنْهُا قَولُهُمْ: (كيرٌ مستعارٌ). وقد قيلَ مُسْتَعَارٌ بِمَعْنَى مُتعاورٌ، أو مُتَدَاوَلٌ"[1].

أَمَّا في الاصْطِلَاحِ فلها تعريفاتٌ عديدةٌ، وقد تنافسَ العُلَمَاْءُ في وضع تعريفاتٍ لها تبيِّنُ مفهومها لدى كبارِ علماءِ البَلَاْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ في عصورها المُخْتَلِفَةِ، وهي وإنْ اختلفتْ عباراتها؛ فَإِنَّها تكادُ تكونُ متَّفقةً مضموناً. ومن هذه التَّعْرِيفاتِ: "استعمال اللَّفظِ في غيرِ ما وُضِعَ له لعلاقةِ المشابهةِ بين الْمَعْنَى الأصليِّ للكلمةِ، والْمَعْنَى الَّذِيْ نقلت إليه الكلمةُ مع وجودِ قرينةٍ مانعةٍ من إرادةِ الْمَعْنَى الأصليِّ"[2]. وقد عرَّفها القاضي الْجُرْجَانِيّ بِقَوْلِهِ: "ما اكتفى فيها بالاسمِ المستعارِ عن الأصليِّ، ونقلتِ العبارةُ فجُعِلتْ في مكانِ غيرها، وملاكها بقربِ التَّشْبِيْهِ، ومناسبةِ المستعارِ للمستعارِ لَهُ، وامتزاجِ اللفظِ بالْمَعْنَى، حتى لا يوجدُ بينهما منافرةٌ، ولا يتبيَّنُ في أحدهما إعراضٌ عن الآخرِ"[3].

ويُوردُ ابنُ رشيقٍ القيروانيّ رأيه في منزلةِ الاسْتِعَارَةِ قَائِلَاً: "الاسْتِعَارَةُ أفضلُ المجازِ، وأوَّلُ أبوابِ البَدِيْعِ، وليس في حلى الشِّعرِ أعجبُ منها، وهي من محاسنِ الْكَلَامِ إذا وقعتْ موقعها، ونزلتْ موضعها"[4].

وقد نالتِ الاسْتِعَارَةُ اهتَمَاماً كَبِيْرَاً من أُدَبَاءِ المَقَامَةِ، حَيْثُ تمكَّنَ هَؤلاءِ من "توظيفِ الصُّوَرِ الْبَيَانِيَّةِ الاسْتِعَارِيَّةِ فِيْ مَقَامَاتِهِم تمكُّنهم من الصُّورِ التَّشْبِيْهِيَّةِ في براعةٍ، وقدرةٍ فنيَّةٍ، باعتبار أنَ الاسْتِعَارَةَ تمثِّل التَّطوُّرَ الطَّبيعيَّ لِلتَّشْبِيهِ، فهي تشبيهٌ حُذِفَ أحدُ طرفيه، وهي لذلك طور النُّضْجِ، والدِّقَّةِ الْفَنِيَّةِ، وقُوَّةِ التَّصْوِيْرِ، وبعدِ الْخَيَال"[5]، مع ملاحظةِ أنَّ لِلتَّشْبِيهِ مَوَاضِعَهُ الَّتِيْ لا يصلحُ فيها غيرُهُ.

وعِنْدَ استعراضِ النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ لأُدَبَاء العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، نجدُ أنَّ الاسْتِعَارَةَ تمثِّلُ تصويراً بارعاً لصدقِ عاطفتهم، في خيالٍ خصبٍ، وإيقاعٍ قادرٍ عَلَى تصويرِ الانطباعِ الذَّاتيِّ

---

[1] الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج761/2). مادة (عور).

[2] علوان، من بلاغة الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص214)، أبو موسى، التَّصْوِيْر البيانيّ، (ص215).

[3] القيروانيّ، العمدة، (ج172/1).

[4] المَرْجِع السَّابِق، ج268/1.

[5] الدَّاية، جماليَّات الْأُسْلُوب والصُّورة الفنيَّة في الْأَدَب العربيّ، (ص125، ص126).

المتوافقِ مع المشاعرِ والوجدانِ، إضافةً إِلَىْ ذَلِكَ فقد اسْتَطَاعوا أن يجعلوا صورهم تموجُ بالحَيَاةِ، والْحَرَكَةِ، والصَّوتِ، والأَلْوَانِ الَّتِيْ أضفت عَلَى لوحاتِهِمْ بهجةً فوقَ بهجةٍ، وجَمَالاً إِلَى جَمَالٍ يصلانِ بالْقَارِئ في نهايةِ المطافِ إِلَى الإيمانِ بقدرة هَؤلاءِ الفذَّةِ عَلَى تصويرِ رؤاهم، وعواطفهم، ورسمِ لوحاتِهِمْ، وصورِهِمْ الشِّعريَّةِ بالاسْتِعَارَةِ أَحْيَانَاً، ومع التَّشْبِيْهِ أَحْيَانَاً ببراعةٍ، واقتدارٍ.

إنَّ المَقَامَاتِ تموجُ بفيضٍ من فرائدِ الاستعاراتِ الَّتِيْ تَبْعَثُ الحَيَاْةَ في الأَشْيَاءِ، وَتُحَلِّقُ بالْقَارِئِ في عالمِ الْجَمَالِ، وتنقلُ إِلَى نفسه ما يدورُ في نفسِ الْأَدِيْبِ، ووجدانه من أحاسيسَ، فَإِذَا أحبَّ شَيْئَاً وصفه بفيضٍ من الصِّفَاتِ الَّتِيْ تصوِّره ملكاً عَلَا فَضْلُهُ عَلَى كلِّ فضلٍ، وَإِذَا أحسَّ بجمالِ الطَّبِيْعَةِ جاء باستعاراتٍ هي الأقربُ إِلَى نفثاتِ السِّحْرِ الحلالِ، تسبرُ أغوارَ النَّفُوسِ فتفتح لها أبوابَ الْجَلَالِ الْمُوْصَدَةَ الَّتِيْ نرتحلُ مِنْ خِلَالِهَا إِلَى عَوَالِمِ الحسنِ، وفَضَاءَاتِ الْجَمَالِ.

وَكَمَا برعَ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ في رسمِ الصُّورِ التَّشْبِيْهِيَّةِ، أبدعوا كَذَلِكَ في تقديمِ المَشَاهِدِ الاسْتِعَارِيَّةِ فِيْ نُصُوْصِهِم المقامِيَّةِ، سَوَاءٌ الَّتِيْ اعْتَمَدتْ عَلَى تَشْخِيْصِ المَعْنَوِيَّاتِ، أو اسْتِنْطَاقِ الْجَمَادَاتِ، أو "تلك الَّتِيْ تقوم عَلَى إضفاءِ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى كلٍّ من الْمَحْسُوْسَاتِ المَادِيَّةِ، والأَشْيَاءِ الْمَعْنَوِيَّةِ، والظَّوَاهِرِ الطَّبيعيَّةِ، والانْفِعَالَاتِ الوجْدَانيَّةِ، وبثّ الحَيَاةِ فيها، والَّتِيْ قد ترتقي فتستحيلُ حياةً إنسانيَّةً تَهَبُ لهذه الأَشْيَاءِ عواطفَ آدميَّةً، وخلجاتٍ إنسانيَّةً[1].

تُعَدُّ الاسْتِعَارَةُ من الأَسَالِيْبِ الْبَيَانِيَّةِ الَّتِيْ تُسْهِمُ إسهاماً كَبِيْرَاً فِيْ تَشْكِيلِ الصُّورَةِ الْفَنِيَّةِ، فهي "أفضلُ أَسَالِيْبِ البيانِ، وأدقُّهَا تعبيراً وتأثيراً، وأجملُهَا تصويراً، وأكملُهَا تأديةً لِلْمَعْنَى"[2]، وهي "أسمى من التَّشْبِيْهِ في التَّصْوِيْرِ، وخلقِ الشِّعريَّةِ؛ لِأَنَّها تحملُ طابعَ التَّخييلِ، فهي تقومُ بنقلِ اللفظِ أو العبارةِ من سياقها اللغويِّ الأصليِّ إِلَى سياقٍ جديدٍ غير مألوفٍ، بغيةَ إثراءِ النَّصِّ بدلالاتٍ أبعدَ وأعمقَ؛ إِذْ إنَّ جَمَالِيَّاتِهَا تكمنُ في نقلها لِلْمَعْنَى مِمَّا هو مفهوميّ إِلَى ما هو انفعاليّ"[3]، لذلك نجدُ أُدَبَاءَ المَقَامَةِ قد اعْتَمَدوا عَلَى التَّشْكِيلِ الاسْتعاريِّ فِيْ مَقَامَاتِهِمْ اعتماداً كَبِيْرَاً؛ ليَنْطَلِقُوا بها نَحْوَ إضاءاتٍ جَدِيْدَةٍ، وإيحاءاتٍ مقصودةٍ. وَمِنْ رَوَائِعِ الاستعاراتِ الَّتِيْ قَامَت عَلَى تشكيلِ عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ، وتشخيصِهَا في صورةِ فارسٍ منهزمٍ بعدَ مشهدٍ حركيٍّ يبدو في: "ومن تردَّى بساطعِ الأنوارِ، واحتبى بحباءِ الوقارِ، ولم يبقَ له ليل يصيح بجانبيه نهار"[4].

---

[1] يُنْظَر: قطب، النَّقْد الْأَدَبيّ– أصوله ومناهجه، (ص61).

[2] عباس، الْبَلَاغَة فنونها وأفنانها – علم البيان والبديع ، (ص158).

[3] كوهن، بنية اللغة الشِّعريَّة، ترجمة مُحَمَّد الولي، ومُحَمَّد العمريّ، (ص205).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحلبيَّة)، (ص58).

فمَشَاهِدُ الرَّوْعَةِ، وروعةُ المَشَاهِدِ تبدو جليَّة هُنَا، فمشهدُ اللَّيْلِ، وَمَا يَحْمِلُهُ من خوفٍ، ورعبٍ، وقسوةِ التَّفاعُلِ مع مَشَاهِدِ الهزيمةِ، وما يتبعها من ذُلٍّ، وعارٍ، قدَّمت لنا لوحةً فنيَّةً تمثَّلتْ في ليلٍ منهزمٍ يصيحُ خلفه من يهزمه، وهو النَّهَار، مع ما في المَشَاهِدِ من إبداعٍ، وروعةٍ تجاوزتِ الْحُدُوْدَ لَمَّا زَيَّنَ المَشْهَدَ بالْمُتَنَاقِضَات الَّتِيْ صورها قَوْلُهُ: (ليل يصيح بجانبيه نهار).

وَمِنَ الرَّوَائِعِ الَّتِيْ جمعتْ بين البِنَى التَّشْبِيْهِيَّةِ، والبِنَى الاسْتِعَارِيَّةِ ما رسمه شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيّ فِيْ قَوْلِهِ: "ولم تنثرْ دُرَرُ المَدَامِعِ، إلَّا من دُرٍّ مُودَعٍ في صدفِ المسامعِ"[1]. حَيْثُ تمثَّلَ المَشْهَدُ في استعارتينِ مكنيتينِ، فقد جعلَ ما جرى من دموعه دُرًّا في نسقٍ رائقٍ، وجعل ما سمعه من أبي مضرٍ دُرَرًا ذاتَ نظمٍ فائقٍ. كَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ المَشْهَدُ تشبيهاً بليغاً لمَّا صوَّر المَدَامِعَ بالدُّررِ، والمَسَامِعَ بالصَّدفِ من بابِ إضافةِ المُشَبَّهِ به إِلَى المُشَبَّهِ، وما حَمَلَهُ التَّشبيهانِ من توضيحٍ للمَعَانِي، وبيانِهَا.

ومن الْبَرَاعَةِ هُنَا "أنَّه بنى عليه ما صيَّره بديعاً مستغرباً، حَيْثُ صيَّر الدُّرَّ الَّذِيْ كان مودعاً في الآذانِ لرقَّته دمعاً جرى من الْعُيُوْنِ والأجفانِ، وتصرَّف فيه تصرُّفاً آخَرَ أخرجه من بابٍ آخرَ، فالظَّاهرُ أنَّهُ من قلبِ الأعيانِ الجَوهريَّةِ، كقلب عصا مُوسَى حيَّةً، فلنسمِّه سحرَ الشُّعَرَاءِ، وقلبَ أعيانِ الْمَعَانِي"[2].

ويتفوَّقُ ابنُ مَيْمُونٍ الجزائريّ عَلَى أقرانه لمَّا جمعَ بين البِنَى التَّشْبِيْهِيَّةِ، والبِنَى الاسْتِعَارِيَّةِ أثناءَ حديثه عن الوطنِ، الَّذِيْ غَدَا في عقله قلادةَ النَّحْرِ، وواسطةَ عقودِ الدُّرِّ، فبدأ يرسمُ هَذَا المَشْهَدَ قَائِلَاً: "فَتْحُ وهرانَ، وما أدراك ما وهران؟، قاعدةٌ للملكِ، وواصلةٌ للسِّلكِ، وقلادةُ النَّحرِ، وحاضرة البرِّ والبحرِ... أصبحت لسهامِ الْأَمَل هَدَفَاً، ولدرِّ العُلَمَاْءِ صَدَفَاً، حسناء تسبي العُقُوْلَ، بين التَّقَنُّعِ والسُّفُورِ"[3].

إنَّ ابنَ مَيْمُون الجزائريّ لَمَّا عَشِقَ الوطنَ شرعَ يرسمُ أَجْمَلَ اللَّوْحَاتِ مزاوجاً بين التَّشْبِيْهِ والاسْتِعَارَةِ في مَشْهَدٍ أخَّاذٍ يستحقّه الوطنُ، فانتقى من الكَلِمَات أَرْوَعِهَا، ومن الْمَعَانِي أبدعِهَا، استهلَّ خطوطَهُ باقتحامِ حصون الْجَمَالِ؛ ليصوِّر وهرانَ بغادةٍ حسناءَ تتقلَّدُ الجَوَاهِرَ مَعْ مَا فِيْ الْمَشْهَدِ مِن حُسْنٍ، وبهاءٍ، ثمَّ يُشكِّلُ بِنْيَةً استعاريَّةً صُحْبَةَ تَشْخِيْصِ المَعْنَوِيَّاتِ حَيْثُ ارتدَّتِ العُقُوْل في نَاظِرَيْهِ فتاةً جَمِيْلَة تُسْبَى، مَعْ مَا فِيْ الْمَشْهَدِ مِن إبداعٍ في الوَصْفِ، وجَمَالِيَّة في

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا (مَقَامَة الغربة)، (ص386).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص389.

[3] الجزائري، التُّحفة المرضيَّة، (ص248).

التَّعْبِيرِ، ويبدو أنَّ الحالةَ النَّفسيَّةَ للأديبِ أسهمتْ في إتمامِ مَشَاهِدِ الْجَمَالِ، فليس أجمل منَ الوطنِ، ولا أَرْوَعَ من النَّصرِ لرسمِ أجْمَل اللَّوْحَاتِ.

إنَّ تَدَاخُلَ البِنَى يعطي حيويَّةً تثري النُّصُوْصَ المَقَامِيَّةَ، فالبِنَى المتجاورةُ نتلمَّسُ إيحاءاتها في الصُّورَةِ التَّشْبِيْهِيَّةِ والاسْتِعَارِيَّةِ، وتكون أحفلَ بالدَّلَالَةِ الوجدانيَّةِ، وكشفها عن الجَوَانِبِ الخفيَّةِ في النَّفسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، خَاصَّةً إذا اتَّسمتْ بالانسجامِ والاتِّسَاقِ، فتبدع لنا مَشْهَدَاً تَسْعدُ به النُّفُوسُ، وتَقَرُّ لرؤيته العُيُوْنُ، وتطمئِنُ صُحبَتَهُ القُلُوبُ.

وَمِنْ رَوَائِعِ التَّشْكِيلاتِ الاسْتِعَارِيَّةِ ما حَمَلَتْهُ (المَقَامَة السّروجيَّة) فِيْ قَوْلِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "حتَّى كانَ يومَ المَهْرجانِ، فَضَبَثَتْ مخالب الشَّيْخِ بالصَّولجان"[1]. المخالبُ أظفارُ السِّباعِ استعارها له تشبيهاً بها في الافتراسِ، والمَشْهَدُ يحملُ في عنوانه قبلَ كلِّ شيء ما يفيدُ نوعاً من الصِّراعِ بين عَنَاْصِر البِيْئَةِ، والممارسة التَّشْكِيليَّة المتعارف عليها في الأَدَبِ العربيِّ، وهي صورة المخالبِ والأظفارِ الَّتِيْ طَاْلَمَا رسمها الشُّعَرَاءُ فِيْ أَعْمَالِهِمْ، حَيْثُ صَوَّر كَثِيْرٌ من الشُّعَرَاء المنايا بالوحوشِ الضَّاريةِ، وشرعَ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ يقتفونَ آثارَهُمْ في استلهامِ هذه الصُّورَةِ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي ذُؤَيْبٍ الْهُذَلِيّ:

وَإِذَا الْمَنِيَّــةُ أَنْشَــبَتْ أَظْفَارَهَــا ... أَلْفَيْــتَ كُــلَّ تَمِيْمَــةٍ لَاْ تَنْفَــعُ[2]

ومثلُ هَذَا المَشْهَدِ تَمَامَاً قولُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "وصارَ لا يقدرُ عَلَى الحراكَ، وأتى وقد أنشبتْ به أظفارُ الهلاكِ"[3]. فقد رسم الخَفَاجِيّ مَشْهَدَاً تشكيليَّاً مروِّعاً من مَشَاهِدِ الصِّراعِ الكامنِ في ثَنَايَا تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، وما حمله هَذَا المَشْهَدُ مِن رهبةٍ، ورعبٍ، وسوءِ عاقبةٍ يتصوَّرها المُتَلَقِّي ماثلةً أمامَ نَاظِرَيْهِ، وقد وقعتِ الضَّحيَّة بين فكَّي الموتِ، وأظفارِ الهلاكِ.

وَتَتَشَكَّلُ البِنَى الاسْتِعَارِيَّةُ في السَّاقِ عَلَى السَّاقِ، وَيُبْدِعُ أَحْمَدُ فَارِس الشِّدْيَاق في تقديمِ أَرْوَع الصُّورِ مُعْتَمِدَاً عَلَى تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، واسْتِنْطَاقِ الْجَمَادَاتِ، فتبدو المَشَاهِدُ ماثلةً أَمَامَنَا وكَأَنَّهَا صورٌ مرئيَّةٌ، فيرسمُ فِيْ قَوْلِه: "فأقمتُ في أسوأ حالٍ، وشرِّ بلبالٍ، والهمومُ قد انثالتْ عَلَيَّ من كلِّ جانبٍ، والأفكارُ متطايرةٌ عَلَى كلِّ مُقَارِبٍ"[4]. فقد رسم مشهدي الأرقِ والألمِ كأَرْوَعِ ما يكون الرَّسْمُ، ونظمَ قصيدةَ حزنٍ تَلَفُّهَا الهمومُ، وتنتابها الشَّكْوى، وَيَرْسِمُ خطوطَهَا الضَّجَرُ، فيبدو

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة السّروجيَّة)، (ص174).

[2] دِيْوَان الهذليين، الشُّعَرَاء الهذليين، (ج3/1).

[3] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا (المَقَامَة التي عارض بها الوطواط)، (ص397).

[4] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص50).

وكأنَّه يعيشُ في ليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سدولَهُ عليه بأنواعٍ من الهمومِ، وأصنافٍ من الأحزانِ. وَمِنْ هُنَا انطلقَ يُصَوِّرُ مَشْهَدَاً جَدِيْدَاً حمله قوله: "فقمتُ من عِنْدَه غضبانَ نادماً، ولعنتُ الأرقَ الَّذِيْ كان السَّببَ في أنْ أكونَ لمعلمي الصِّبيانِ مكالماً"[1]. فلم يجدْ بُدَّاً حينها إلَّا أنْ يصوِّرَ الأرقَ عدوّاً لدوداً، وخصماً عنيداً يَصُبُّ عليه اللَّعناتِ مُعْتَمِدَاً عَلَى تَشْخِيْصِ المَعْنَوِيَّاتِ.

وَيُبْدِعُ الْأَدِيْبُ لَمَّا يزاوج في بنيته الاسْتِعَارِيَّة بين الْجَمَالِ، والضَّحكِ، والبكاءِ مُعْتَمِدَاً عَلَى أَنْسَنَةِ عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ فِي صُوْرَةٍ أخَّاذَةٍ، يَقُوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "فتضاحكتْ مباسمُ الرِّياضِ والغياضِ، غِبَّ أنْ تباكتْ عيونُ الجداولِ والحياضِ"[2]. حَيْثُ استحالتِ الرِّياضُ والغياضُ حُوْرَاً تَتَعَالَى ضحكاتُهَا، وفي المقابلِ تبدو الجداولُ والحياضُ حسناوات انهمرتْ دموعهنَّ فبدتْ عَلَى الخدودِ كاللآلئِ الْمُضِيْئَةِ، مع ما نقله المَشْهَدانِ من تشخيصِ عَنَاْصِرَ الطَّبِيْعَةِ، وما حملاه من وضوحٍ وجلاءٍ صُحْبَةَ الْبِنْيَةِ التقابليَّةِ الَّتِيْ رسمتْ لوحتينِ متباعدتينِ، لوحةَ الفرحِ، ولوحةَ الحزنِ.

لَقَدْ حملتِ المَقَامَةُ معطياتٍ تشكيليَّةً بيانيَّةً ذاتَ طبيعةٍ أخَّاذَةٍ رُبَّمَا فاقتِ الشِّعْرَ، بما امتلكه الْأُدَبَاءُ من حريةٍ تنأى عن قيودِ الوزنِ، وأغلالِ القوافي، فاندفعوا يتلاعبونَ بالْأَلْفَاظِ، وَيَرْسِمُونَ بالكَلِمَاتِ لوحاتٍ تظهرُ في كلِّ جزءٍ من أجزاءِ المَقَامَةِ، فلا تكاد تَتَنَاوَلُ مَشْهَدَاً من مَشَاهِدها حتى تُواجَهُ بتشبيهٍ، أو تستمتعُ باستعارةٍ، أو يجذبُ سمعَكَ كنايةٌ، وَيَبْدُو ذَلِكَ جليَّاً في (رَيْحَانَة الْأَلْبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا) فِيْ قَوْلِ فارسها، شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "فطوَّحتني الطَّوائحُ بأرجوحةِ الأماني، وهزَّتني الأشعبيَّةُ إِلَى ماجدٍ يبارزُ الزَّمَنَ الجاني"[3].

إنَّ الممارسةَ التَّشْكِيليَّةَ في الاسْتِعَارَةِ هنا قدَّمتْ مَشْهَدَاً حيويَّاً متحركاً دارتْ فُصُوْلُهُ بين ماجدٍ تقلَّدَ سيفه، قابلَ زمناً شَرَعَ كَذَلِكَ سيفه؛ ليشاركَ في هذه المبارزةِ، مع ما في التَّشْكِيلِ من تشخيصٍ للزَّمنِ في صورةِ فارسٍ صنديدٍ، وما حمله ذلك من روعةِ الْوَشَائِج بين طرفي الصِّراعِ.

إنَّ فاعليَّةَ البِنَى الاسْتِعَارِيَّةِ في المَقَامَاتِ تأخذُ صداها وتألقها في كَثِيْرٍ من الأحيانِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ جعلِ تشكيلها يرتكزُ عَلَى بثِّ الحَيَاةِ في الماديَّاتِ والمعنويَّاتِ، وحينها ترتقي الأَشْيَاءُ إِلَى مرتبةِ الأحياءِ، وَلَعَلَّ هَذَا التَّعْبيرَ هو المرادفُ لِمَا ينادي به المحدثونَ الآنَ، وهو تشخيص الْجَمَادَاتِ، أو اسْتِنْطَاق عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ شِهَاب الدِّين

---

[1] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص51).

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غريب الأنباء في مناظرة الْأَرْض والسَّمَاء)، (ص104). غِبَّ: بمعنى العاقبة.

[3] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلْبَّا وزهرة الحَيَاْة الدُّنيا (المَقَامَة الرُّوْمِيَّة)، (ص368).

الخَفَاجِيّ: "فَلَمَّا عطسَ الصَّباحُ، شمَّتته كلُّ ذاتِ جناحٍ"[1]. فقد استحالَ الصَّباحُ إنساناً يعطس، وارتدَّتِ الطُّيورُ رجالاً تشمِّتُ هَذَا العاطسَ، مع ما يحمله التَّشْكِيلُ الاستعاريُّ من جمالٍ تمثَّل في اسْتِنْطَاقِ عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ (الصَّباح)، و (كلُّ ذات جناح).

لَقَدْ بَرَعَ الخَفَاجِيُّ فِيْ تَشْكِيلِ بنيةٍ استعاريَّةٍ مزدوجةٍ وظَّفها توظيفاً رائعاً مُعْتَمِدَاً عَلَى دالَّينِ هُمَا دال (الصَّباح)، ودال (كلّ ذات جناحٍ)، وكأنِّي به يُحَاوِلُ بثَّ الحَيَاةِ في عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ، وجعلها حيَّةً ناطقةً؛ لتمثِّل كَذَلِكَ قيماً إسلاميَّةً، وهي حقَّ المسلمِ عَلَى أخيهِ المسلمِ، عن أبي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أنَّ رسولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: "خمسٌ تَجِبُ للمسلمِ عَلَى أخيه: ردُّ السَّلامِ، وتشميتُ العاطِسِ، وإجابةُ الدَّعوةِ، وعيادةُ المريضِ، واتِّباعُ الجنائزِ"[2].

انسجمَ الْأُدَبَاءُ مع الْوَاقِعِ، وانصهروا في بوتقتِهِ، ورسموا مَشَاهِدَ حيَّةً تبدو في كَثِيْرٍ من النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "ثُمَّ أتى لزيارةِ البيتِ والمقامِ، فلقيَ من كانَ يرضعُ مَعَهُ ثديَ المدامِ"[3]. ويُظهرُ هَذَا المقطعُ ميلَ الخَفَاجِيِّ لتشكيلِ الصُّورَةِ، فهو يُفجِّرُ مع فعلِ الرِّضاعةِ مَشْهَدَاً يتفاعَلُ فيه الجامدُ مع المتحرِّكِ، فقد صوَّرَ المدامَ لتعلُّقِ النَّاسِ بها بالأُمِّ الَّتِيْ يتعلَّقُ الرَّضِيعُ بثديِهَا، مع ما فيها من رسمِ صورةِ تشخيصِ المدامِ في صورةِ طفلٍ يتعلَّقُ بأمِّهِ.

ويلجأُ الْأَدِيْبُ أَحْيَانَاً إِلَى تشكيلٍ استعاريٍّ تكونُ فيه للبِنْيَةِ التَّجْسِيْمِيَّة بُعْدَاً فَنِيَّاً يُضْفِي عَلَى النَّصِّ دلالاتٍ إيحائيَّةً، مستفيداً من التَّجاربِ النَّفسيَّةِ الَّتِيْ تعتمد عَلَى الْمُقَابَلَاتِ، ويظهرُ ذلك فِيْ قَوْلِ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "تغيبُ فيه الأتراحُ، وتطلعُ منه الأفراحُ"[4]. الَّذِيْ شكَّل بِنْيَةً تجسيميَّةً صوَّرَ فيها الأتراحَ نُجومَاً تغيبُ، وتأفلُ، وصوَّر الأفراحَ شمساً تشرقُ، وتسطعُ، فتملأُ الكونَ بهجةً وسعادةً. وَلَعَلَّ الشِّدْيَاقَ أراد بهَذَا التَّجسيمِ تحويلَ الأتراحِ والأفراحِ إِلَى تصويرٍ مرئيٍّ يمكن مَشَاهِدته؛ لِأَنَّ الصُّورَةَ البصريَّةَ تكونُ لها قيمةٌ رمزيَّةٌ تأتي لتمثِّلَ عمقَ الشُّعورِ الَّذِيْ لا يمكنُ إدراكه إلا بالحسِّ والمَشَاهِدةِ.

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلْبَّا (مَقَامَة الغربة)، (ص383).

[2] [مسلم، صحيح مسلم، كتاب (السلام)، باب (من حق المسلم للمسلم)، 1704/4: رَقَمِ الْحَدِيْثِ2162].

[3] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلْبَّا (مَقَامَة عارض بها الخَفَاجِيّ مَقَامَة الوطواط، وهو رشيد الدين بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد العمري المعروف بالوطواط)، (ص394). المدام: الخمر.

[4] الشِّدْياق: السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة ممشية)، (ص358).

وَمِنَ البِنَى الاسْتِعَارِيَّةِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الحليَّة): "وقال أمَّا إنْ كانَ قد غرَّكم الهزالُ، حتى دعوتم نَزال"[1]. فتشكيلُ الصُّورَةِ الاسْتِعَارِيَّةِ فِيْ قَوْلِ اليَازْجِيّ قائمٌ عَلَى تَشْخِيْصِ المعنويِّ، وهو (الهُزال)، وَذَلِكَ بمنحه صفة من صفاتِ الأحياءِ (غرَّكم)، الَّتِيْ رَكَنَ إِلَيْهَا الْأَدِيْبُ لِكَيْ يَتَمَكَّنَ مِنَ الْانْتِقَالِ إِلَى الدَّلَالَةِ الْإِشَارِيَّةِ لِلأَلْفَاظِ؛ لِتُوْقِظَ حَالَةً شُعُوْرِيَّةً، وَلَحْظَةً انْفِعَالِيَّةً.

وَمِنَ التَّشْكِيلِ الاسْتعاريِّ كَذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة): "تبطَّنتِ الأقذارُ، واجترحتِ المغارمُ. فأخذ القومُ في تسكينِ ارتعاشِهِ، وتمكينِ انتعاشِهِ، حَتَّى خمدتْ لوعتُهُ، وهمدتْ روعتُهَ"[2]، حَيْثُ لجأ الْأَدِيْبُ إِلَى تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، فاللَّوعةُ نارٌ تُخمدُ، والرَّوعُ أشياءُ ماديَّةٌ تَهْمَدُ، حتى انتهى المَشْهَدُ بالتَّوقُّفِ عن النَّشيجِ والنَّحيبِ مع ما يصاحبُ المَوْقِف من هدوءٍ، وسكينةٍ تضمَّنتهما كلمتا (خمدت)، و(همدت).

وَمِنْ رَوَائِعِ التَّشْخِيْصِ بالاسْتِعَارَةِ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الهزليَّة): "حكى سهيل بن عبَّاد قالَ كانَ لي زوجةٌ صنَّاعُ اليدينِ، كريمةُ النَّبعتينِ، فحسدتني عليها المَنُونُ، وخانني فيها الدَّهرُ الخَؤُونُ، فلبثت بعدها طويلاً، أردِّد زفرةً وعَويلاً، وأنوح بكرةً وأصيلاً، حَتَّى حالَ عليها الحولُ، وآلتِ الفريضةُ إِلَى العولِ، فناجتني الحوباءُ أنْ أستبدلَ ما طابَ لي من النِّساءِ"[3]. حَيْثُ برعَ اليَازْجِيّ فِيْ تَوْظِيْفِ بِنْيَةٍ تشخيصيَّةٍ في تشكيلٍ استعاريٍّ منحَ فيها المعنويَّاتِ الَّتِيْ يألفها بعضَ صفاتِ البشرِ، وهي الحسد فِيْ قَوْلِهِ: (حسدتني المنون) فصيَّر المنونَ إنساناً يحسدُ، وقوله: (خانني الدَّهر)، حَيْثُ ألبسَ الدَّهرَ رداءَ الخيانةِ، ثم ختم بِقَوْلِهِ: (ناجتني الحوباء)، وكأنَّ اليَازْجِيّ أَلِفَ الْعَلَاقَةَ مع النَّفسِ، وبدأ بمناجاتها مناجاةَ العاقلِ؛ عَلَّهُ يجدُ فيها ما يُؤنسُ وحشتَهُ، ويُداوي علَّتَهُ.

ارتحلَ كُتَّابُ المَقَامَة صُحْبَةَ البِنَى التَّشْخِيصِيَّة، وأَطْلَقوا العَنَانَ لقَرَائِحهم لتَشْخِيْصِ المَعْنَوِيَّاتِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ لدى صاحبِ (الآثار الفكريَّة) عَبْد الله فِكْرِيّ، الَّذِيْ بثَّ الحَيَاْةَ في المَعْنَوِيَّاتِ في ثَنَايَا مقاماتِهِ، يَقُوْلُ في (المَقَامَة الفكريَّة): "فيسري للجميعِ ما يسري من تلك الآراءِ السَّقيمةِ، ويحدثُ عنها ما يحدثُ من الشُّرورِ والْمَصَائِب الْعَظِيمةِ"[4]. فالشَّواهدُ تكشف لنا أنَّ كُتَّابَ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ وظَّفوا البِنَى التَّشْخِيصِيَّةَ لتشكيلِ صُورٍ مختلفةٍ تَرْسِمُ ملامحِ

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحليَّة)، (ص321).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص421، ص422).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الهزليَّة)، (ص101). الحوباء: النفس، المنون: الموت.

[4] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص280).

العَصْرِ عن طريقِ تَشْخِيْصِ المَعْنَوِيَّاتِ، وَكَأَنَّهُم أرادوا أن ينقلوا مَشْهَداً من مَشَاهِدِ الحَيَاْةِ، فالسَّاسةُ سيطرَ عليهم الهوى، والآراءُ غلبَ عليها السَّقمُ والمرضُ، فأنزل فكري الآراءَ منزلةَ الْإِنْسَانِ السَّقيمِ الذي أعياهُ المرضُ؛ رغبةً منه في رسمِ واقعٍ يبدو أكثرَ تَفَاؤُلاً.

وَيُوَاصِلُ الفارسُ الرِّحْلَةَ، يعتلي صَهْوَةَ جوادِهِ مُنطلقاً تِجَاهَ البِنَى التَّجْسِيْمِيَّة؛ ليشكِّلَ صورةً استعاريَّةً جديدةً، ملامحها: "ويستخلصُ عَنَانَ السِّيَاسَةَ من أيدي الْأَغْرَاضِ النَّفيسةِ، والخصالِ الذَّميمةِ"[1]. فالسِّيَاسَةُ جوادٌ أصيلٌ يتحكمُ فارسه في عنانه، يحرِّكُهُ صوبَ دُرُوْبِ السَّلامَةِ، وينأى به عن سبلِ النَّدامةِ، مع ما في الصُّورَةِ من تجسيمٍ للمعنويِّ في صُورةٍ حسيَّةٍ بارعةٍ.

ولمْ يتوقفْ سيلُ البِنَى التَّشْخِيصِيَّة في مقاماتِ عبدالله فكري، فهو يقدِّمُ مَجْمُوْعَةً من التَّشْكِيلاتِ الاسْتِعَارِيَّةِ المتتابعةِ، "فقَامَتِ النَّخوةُ في حسنِ روائِهَا وهي تجرُّ رداءَ كبريائِهَا، وتختالُ في ثوبِ خيلائِهَا"[2].

إنَّ الصِّفَاتِ الحميدةَ عبَّرتْ عن شدَّةِ اعتدادِ الْأَدِيْبِ بها، فقد رسمَ لَوْحَةً مُشْرِقَةً للنَّخوةِ، زاد من جمالِهَا لَمَّا كَسَاهَا بِرِدَاءِ الْكِبْرِيَاءِ، وَثَوْبِ الْخُيَلَاءِ، وَكَأَنَّهُ يَصْهَرُ المُتَلَقِّي الْعَرَبِيَّ فِيْ بَوْتَقَةِ الْمَبَادِئِ الَّتِيْ يَصْبُو إِلَيْهَا، وَيَرْسِمُ أَمَامَهُ دُرُوْبَ الْكَرَامَةِ الَّتِيْ تزيِّنُهَا النَّخْوَةُ، وَيَعْلُوْهَا الْكِبْرِيَاءُ فِيْ رِدَاءِ الْعِفَّةِ وَالْإِبَاءِ. مُتَمَثِّلاً قَوْلَ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ:

أَتَتْـــــهُ الخِلافَـــــةُ مُنْقَـــــادَةً إِلَيْـــــــــــهِ تجر أَذْيَـــالَهَا[3]

ويقتربُ ابنُ مَيْمُون الجزائريّ في (التُّحفة المرضيَّة) كَثِيْراً من هَذَا التَّشْكِيلِ، ومن قولِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ لمَّا قَصَدَ التَّشخيصَ لِلْمَعْنَوِيَّاتِ، يَقُوْلُ: "وبالْجُمْلَةِ فَقَدْ وَافَقَتْهُ الرِّيَاسَةُ، وَانْقَادَتْ إِلَيْهِ السِّيَاسَةُ، فَانْتَقَلَ إِلَيْهَا انْتِقَالَ الشَّمْسِ فِيْ مَطْلَعِ السُّعُوْدِ"[4]. فَتَشْكِيْلُ الصُّورَةِ هُنَا قَائِمٌ عَلَى تَشْخِيْصِ المَعْنَوِيَّاتِ، حَيْثُ بَدَأَ حَدِيْثَهُ بِتَصْوِيْرِ الرِّياسَةِ فِيْ صُوْرَةِ إِنْسَانٍ يَأْتِي طَائِعَاً، وَالسِّيَاسَةُ فِيْ صُوْرةِ رَجُلٍ يَنْقَادُ مُذْعِنَاً لِلْأَمِيْرِ، مَعْ مَا تَحْمِلُهُ الصُّوْرَتَانِ مِنْ مَكَانَةٍ سَامِيَةٍ، وَهِمَّةٍ لِلْأَمِيْرِ عَالِيَةٍ دَفَعَتِ الرِّيَاسَةُ وَالسِّيَاسَةُ إِلَى مُنَافَسَةِ الْبَشَرِ لِخِدْمَتِهِ، وَتَمْهِيْدِ الطَّرِيْقِ لِمَسِيْرَتِهِ، فَاعْتَلَى الْمَنْصِبَ، وَانْتَقَلَ لِمَهَامِّهِ انْتِقَالَ الشَّمْسِ فِيْ مَطْلَعِ السُّعُودِ.

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص287).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص289.

[3] أبو العتاهية، دِيْوَان أبي العتاهية، (ص375).

[4] الجزائريّ، التُّحفة المرضيَّة، (ص122).

ويرتدي صاحبُ (السَّاق عَلَى السَّاق)، أَحْمَد فَارِس الشِّدياق رداءَ الإِبْدَاعِ، ويتوشَّحُ بوشاحِ الْبَرَاعَةِ، يَقُوْلُ: "قالَ وَذَلِكَ إِنِّي صعدتُ في درجاتِ هذه الخطَّةِ، ونزلتُ في دركاتِهَا، وعانيتُ ضُرُوباً من أخطارِهَا وهلكاتِهَا، فوجدتُ عِنْدَ كلِّ درجةٍ منها مهواةً تغيبُ فيها الأحلامُ، وتضيعُ الأفهامُ"[1].

إِنَّ تَشْكِيْلَ الصُّوَرِ الاسْتِعَارِيَّةِ فِيْ الْأَسْطُرِ السَّابِقَةِ قَائِمٌ عَلَى تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، فَقَدْ وَظَّفَ نَاصِيْف اليَازْجِيّ البِنَى التَّجْسِيْمِيَّةَ فِيْ تَشْكِيْلِ صُوَرٍ تُعَدُّ مِنْ أَبْرَزِ الْأَدَوَاتِ الَّتِيْ يَلْجَأُ إِلَيْهَا الْأَدِيْبُ للتَّعْبِيْرِ عَنْ رُؤْيَتِهِ، وَإِيْصَالِ تَجْرِبَتِهِ إِلَى المُتَلَقِّي، فَلَنَا أَنْ نَتَصَوَّرَ الْأَحْلَامَ شَمْساً تَغِيْبُ، وَلَنَا أَنْ نَتَخَيَّلَ الْأَفْهَامَ أَمْوَالاً تَضِيْعُ، مَعْ مَا فِيْ الْمَغِيْبِ وَالضَّيَاعِ مِنْ حَالَةِ يَأْسٍ وَقُنُوطٍ تُسَيْطِرُ عَلَى نَفْسِ المُتَلَقِّي، وَتُذَكِّرُهُ دَوْمَاً بِالْمَوْتِ وَالنِّهَايَةِ، وَتَنْقُلُهُ إِلَى مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَمِنَ البِنَى الاسْتِعَارِيَّةِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ قَوْلُ الخَفَاجِيّ في (المَقَامَة الرُّوميَّة): "علَّ أنْ يفتحَ عينُهُ عمَّا تثني عليه الحقائبُ، ويبتسمُ فَمُ الأفقِ عن صبحِ وعدٍ صَادِقٍ، أو كَاذِبٍ

قِيْلَ لِي تَرْضَى بِوَعْدٍ كَاذِبٍ قُلْتُ إِنْ لَمْ يَكُ شَحْمٌ فَمَرَق"[2]

فقد برعَ شِهَاب الدِّينِ الخَفَاجِيّ فِيْ تَوْظِيْفِ بِنْيَةٍ تشخيصيَّةٍ في تشكيلٍ استعاريٍّ أعطي فيها لأحدِ عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ الَّتِيْ ألفها بعضَ صفاتِ البشرِ، وهي (الابتسام) فِيْ قَوْلِه: (يبتسم فم الأفق)، وكأنه أَلِفَ الطَّبِيْعَةَ، وبدأ بالاستمتاعِ بروعةِ مشهدِ ابتسامةِ الأفقِ؛ علَّه يجدُ فيها ما يؤنسُ وحشتَهُ، ويفرِّجُ كربَتَهُ، كَيْفَ لا؟ وقد شاركه الأُفقُ سعادتَهُ.

إِنَّ أَنْسَنَةَ الأخبارِ، ووسمها بسماتِ العاقلِ، وتشخيصها في التَّعْبيرِ الاستعاريِّ يكسبها صفةً إنسانيَّةً جديدةً سعى شِهَابُ الدِّين الخَفَاجِيّ مِنْ خِلَالِهَا إِلَى رسمِ لوحةٍ استعاريَّةٍ تُبيِّنُ قدرته الفائقةَ عَلَى تَشْخِيْصِ المَعْنَوِيَّاتِ، واسْتِنْطَاقِ الْجَمَادَاتِ في أكثرَ من موقفٍ، ثُمَّ الْبَرَاعَة في الجمعِ بين الْمُتَنَاقِضَاتِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ جَلِيَّاً فِيْ قَوْلِه: "ولمَّا بعدتْ شقَّةُ الالتماسِ، وعميتْ عيونُ الأخبارِ، تابعتْ جواسيسُ الحَوَاسِ، تقفو أثرَ بريدِ الانتظارِ... ارتحلتِ الأظعانُ، وأقفرتِ الدِّيارُ من السُّكانِ والجيرانِ. والكرمُ أَفَلَ نجمُهُ، وركدتْ ريحُهُ، وقلَّ عزمُهُ، وتضعضعَ رُكْنُهُ، فما ثمَّ أنيس، ولا اليعافير، ولا العيس"[3].

---

[1] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة مقعدة)، (ص132).

[2] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا (المَقَامَة الرُّوْمِيّة)، (ص368).

[3] المَرْجِع السَّابق، ص368.

والصُّورَةُ هذه تموجُ بالْحَرَكَةِ، وَتَتَفَجَّرُ بالحيويَّةِ الَّتِيْ حَمَلَتْهُا (ارتحلت الأظعان)، ثُمَّ ترتدُّ إِلَى الهدوءِ والسُّكونِ في (ركدت ريحه، وأفل عزمه)، وهَذَا الانتقالُ يكسو البِنَى الاسْتِعَارِيَّةَ مزيداً من الْجَمَالِ والْبَهَاءِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وينتقلُ بالمُتَلَقِّي من عَوَالِمِ السَّآمةِ والملل إِلَى التَّسليةِ والانشراحِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، ويرتقي به من دُرُوْبِ الضَّجرِ، والتَّبرُّمِ إِلَى فَضَاءَاتِ الرِّضا، والقبولِ مِنْ نَاحِيَةٍ ثالثةٍ.

لَقَدْ شَكَّلَ شِهَابُ الدِّين الخَفَاجِيّ من الْبِنْيَةِ التَّشْخِيصِيَّةِ استعارةً أعطى فيها لعَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ الَّتِيْ أَلِفَهَا، وعاشَ فيها بعضَ صفاتِ البشرِ، وهي العناق والتَّقبيل لإنتاجِ صورِهِ، وتحويلِ المَشَاهِدِ إِلَى صُوَرٍ تشخيصيَّةٍ تقرِّبُ الْمَعْنَى في ذهنِ المُتَلَقِّي، وَمِنْ رَوَائِعِ هَذَا التَّصْوِيْرِ قولُهُ: "والبحرُ قَدْ مَدَّ لعناقِهَا ساعديه، والْأَمْوَاجُ تقبِّلُ الْأَرْضَ بين يديه، فأسمت في رياضها سوامي النَّظرِ، وأجلت في حلبةِ الذِّهنِ قداح الفكرِ"[1]. فتشكيلُ الصُّورَةِ الاسْتِعَارِيَّةِ في الْمَقْطُوْعَةِ السَّابِقَةِ قائمٌ عَلَى تَشْخِيْصِ الطَّبِيْعَةِ، واسْتِنْطَاقِ عَنَاْصِرِهَا، وكأنَّ الْأَدِيْبَ أراد أنْ يقدِّمَ لنا لوحةً فنيَّةً بارعةً لا مثيلَ لها، فأَطْلَقَ العَنَانَ للعيونِ لتستمتعَ برؤيةِ مَشْهَدِ البحرِ يَمُدُّ ساعديه لعناقِ الأحبَّةِ، والْأَمْوَاجُ تبدو متلهفةً لرؤيةِ الأصدقاءِ، فتُقَبِّلُ الْأَرْضَ بين أيديهم. وبِذَلِكَ أضافَ جَمَالاً إِلَى جَمَالٍ، وإبداعاً إِلَى إبداعٍ في إطارٍ أسلوبيٍّ مغايرٍ موسومٍ بالإدهاشِ والطَّرافَةِ، وبثِّ الحَيَاةِ في الْجَمَادَاتِ، فيرسمُ الخُطَى للمتلقِّي؛ ليكتسبَ مزيداً من الْمُتْعَةِ، والانسجامِ.

كَانَتْ الفِتَنُ، وما زالتْ مادةً خصبةً للأُدَبَاءِ يشكِّلونَ حَولَهَا أَرْوَعَ الصُّوَرِ، حَيْثُ استغلَّ الْأُدَبَاءُ هذه المفردةَ في رسمِ خطورةِ المواقفِ، وما يتبعها من خرابٍ ودمارٍ، وَمِنْ هُنَا انطلقَ ابنُ مَيْمُون الجزائريّ مُشَارِكَاً سابقيه فِيْ رَسْمِ مَشْهَدِ الفتنِ وخطورتِهَا، يَقُوْلُ: "ولنذكر ما كانَ من أمرِ الشَّريفِ ومعشره، وإخراجهم إِلَى بدوِ البلادِ من حضره، ومن أوقدَ ناراً صَلِيَ بها، ومن أسالَ دماءَ الفتنةِ غرقَ في بحرِهَا"[2]. حَيْثُ أرهبَ ابن مَيْمُون السَّامِعِيْنَ، وألقى الرُّعبَ في قلوبِ المُتَلَقِّينَ لمَّا صوَّر الفتنةَ إنساناً مقتولاً غرقَ في بحرِ دمائِهِ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ، بلْ أحاطَ المَشْهَدَ بالنِّيرانِ، وجعلَ الفتنةَ بحراً متلاطمَ الْأَمْوَاجِ مُعْتَمِداً عَلَى دال الشَّرطِ (مَنْ)، والفعلِ الْمَاضِي في الشَّرْطِ والجزاءِ؛ ليكملَ مشاهدَ الرُّعبِ عن طريق التَّحقيقِ؛ لِأَنَّ من أوقدَ ناراً سيصطلي حتماً بلهيبِهَا، ومن أسالَ دماءَ الفتنةِ سيغرق دَوْمَاً في بحرِهَا، مع ما يحمله المَشْهَدُ مِن تشخيصٍ للمعنويِّ في صورةِ إنسانٍ (أسال دماء الفتنة)، وتجسيمه فِي صُوْرَةٍ ماديَّةٍ مرعبةٍ فِيْ قَوْلِه: (غرق في بحرها).

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا (المَقَامَة الرُّوْمِيّة)، (ص369).

[2] الجزائري، التُّحفة المرضيَّة، (ص141).

إنَّ ديدنَ كُتَّابِ المَقَامَةِ التَّنويعُ المتجدِّدُ فِيْ أَعْمَالِهِمْ، حَيْثُ لَمْ يكتفِ هَؤلاءِ بالبِنَى التَّشْخِيصِيَّة، بل وظَّفوا البِنَى التَّجْسِيْمِيَّة لتشكيلِ صُوَرٍ استعاريَّةٍ قادرةٍ عَلَى تصويرِ المعنويَّاتِ، وتجسيمِ الخَلَجَاتِ الَّتِيْ مرُّوا بها، وإبرازِ الْمَعَانِي بصورةٍ تبدو جديدةً تعبِّرُ عن مواقفِهِم العاطفيَّةِ، وتجارِبِهِم الشُّعوريَّةِ، وتوشيحها بأثوابٍ ماديَّةٍ، وحينها يتراءى الغائبُ ماثلاً، والخفيُّ جَلِيَّاً، والمعنويُّ ماديَّاً، وكأنَّ هَؤلاءِ الكتَّابَ ارتدَّ كلٌّ منهم رسَّاماً يَخُطُّ أَجْمَلَ اللَّوْحَاتِ، أو فنَّانَاً يتغنَّى بأَرْوَعِ الكَلِمَاتِ، فيسبرُ أغوارَ النُّفُوسِ، وتستحيل أعمالُهُ منْهَلاً عَذْبَاً يردُه المشتاقونَ، وتَرْتَدُّ صوَرُهُ دَوْحَةً عظيمةً يتفيؤُ وارفَ ظلالِهَا الْمُتَعَطِّشُونَ.

هَكَذَا رسم مُحَمَّدُ الوُرْغِيّ هذه المَشَاهِدَ الاسْتِعَارِيَّةَ في (المَقَامَة الخمريَّة) قَائِلَاً: "وَإِذَا رأى في بعضِ صحبِهِ انقباضاً، نزعه من غيرِ اعتراضٍ، ورُبَّمَا ملّحَ معهم ومزحَ، إذا نضبَ الخاطرُ ونزحَ، فها أنا أمرحُ في ظلالِهِ، ولا يطرقني طارقٌ بمجالِهِ. فلعلَّكُم إن شَاءَ اللهُ تحمدوه، وتنهلوا من فواضِلِهِ وتعلّوا"[1]. فهنا يبدعُ الوُرْغِيُّ في تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، فيَصيرُ الخاطرُ بين أَنَامِلِهِ مَنْهَلاً لا ينضبُ، وترتدُّ الفواضلُ موردَ ماءٍ ينهلُ منه الْمُتَعَطِّشُونَ، وتَغْدُو الظِّلالُ موطنَ مرحٍ يحملُ ذكرياتِ الصِّبا، وأحلامِ الطُّفُولةِ الممزوجةِ بطيبِ الرَّياحينِ، المعطَّرةِ بنسيم الصَّبا.

وَيُوَاصِلُ مُحَمَّدُ الوُرْغِيّ رحلته صُحْبَةَ تشكيلِ الصُّورِ الاسْتِعَارِيَّةِ، ويرتحلُ بعيداً إِلَى عَوَالِمِ الحزنِ، وتَشْخِيْصِ المَعْنَوِيَّاتِ، يَقُوْلُ: "ولبثَ عَلَى تلك الصَّفحةِ العجيبةِ، يجلو كلَّ يومٍ غريبةً، إِلَى أن أظهرَ الدَّهرُ القطوبَ، وأطبقَ الغارةَ لَيْلُ الْخُطُوْبِ"[2]. حَيْثُ اندفعَ سَرِيْعَاً نَحْوَ دُرُوْبِ الحزنِ عَبْرَ البِنَى التَّشْخِيصِيَّة، فرسم صورةَ الدَّهرِ يلفُّه الحزنُ، ويكتنفه الألمُ من كلِّ جانبٍ حتى بدت ملامحُ الكآبةِ في تقاسيمِ وجهِهِ، بلْ ابتعدَ كَثِيْراً في تكثيفِ الدَّلَالَاتِ الإيحائيَّةِ عبر كلماتٍ منتقاةٍ بدقةٍ في عبارةِ (ليل الْخُطُوْب)، مع ما يحمله اللَّيْلُ من رعبٍ، وما تحمله مفردة (الْخُطُوْب) من جَلَلِ المُصَابِ، وتنوُّعِ الْمَصَائِبِ عَبْرَ استخدامِ هذه المفردةِ جمعاً.

ولا يزالُ كُتَّابُ المَقَامَةِ يبحرونَ في عَوَالِمِ الْجَمَالِ صُحْبَةَ التَّشْكِيلاتِ الاسْتِعَارِيَّةِ عَبْرَ تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، يَقُوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "أَمَا تستحي من اللهِ من ركوبِ هذه الآثامِ"[3].

إنَّ الوُلُوجَ إِلَى أعماقِ (ركوب هذه الآثام) يضعنا أمامَ بِنْيَةٍ تجسيميَّةٍ، ليستْ زينةً زخرفيَّةً، أو صورةً بلاغيَّةً عابرةً، بل هي تجسيمٌ للحالةِ الدَّاخليَّةِ للكاتبِ الَّذِيْ يأبى في قرارةِ نفسِهِ

---

[1] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَة الخمريَّة)، (ص40).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص43.

[3] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة، (ص298).

مساوئَ الأَخْلَاقِ، ويرفضُ شرورَ الآثامِ عَبْرَ دَلالةٍ إيحائيَّةٍ تبدو سريعةً، يحملها قائدٌ هُمَامٌ يمتطي صهوةَ خيلٍ عربيٍّ أصيلٍ، وينشرُهَا في الآفاقِ انتشارَ النَّارِ في الهشيمِ.

وَرَغْبَةُ الْإِنْسَانِ الْجَارِفةُ فِيْ طَلَبِ الْمَعَالِي لَاْ تَتَوَّقفُ، وَحِيْنَهَا يُحَاوِلُ أَنْسَنَةَ تِلْكَ الْمَعَالِي، وَمَا يُرَافِقُ طَالِبِهَا مِنَ الْمَشَاقِّ لِلْوُصُوْلِ إِلَيْهَا، يَقُوْلُ مُحَمَّدُ المُبَارَك: "يُعانِقُ الْمَشَاقَّ وَالاَهْوَالَ، فِيْ كُلِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ. وَيُؤْثِرُ مَا يُورِّثُ الْمَجْدَ وَالسُّؤْدُدَ، وَلَوْ أَتْلَفَ فِيْهِ نَفْسَهُ وَأَجْهَدَ"[1]. حَيْثُ شَكَّلَ بِنْيَةً تشخيصيَّةً مُعْتَمِداً عَلَى تَصْوِيْرِ الْمَشَاقِّ والاَهْوَالِ بإنسانٍ يُعَانقُ، مُسْتَلْهِماً قَوْلَ أَبِي فِرَاس الْحَمدَانِيّ:

تَهُوْنُ عَلَينا فِيْ الْمَعَالِي نُفُوْسُنَا وَمَنْ خَطَبَ الحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهَا الْمَهْرُ[2]

لقدْ عشقَ الْأُدَبَاءُ الطَّبِيْعَةَ، وعاشوا في أحضانِهَا، فلم يبرحوا عنصراً من عَنَاْصِرها إلا قدَّموهُ في تشكيلٍ اسْتِعَارِيٍّ مُبهرٍ أخَّاذٍ، معتمدينَ عَلَى تَشْخِيْصِ تلك العَنَاْصِرِ، واسْتِنْطَاقها، يَقُوْلُ أَحْمَد البَرْبِيْر: "وأنتما حييتما بالسَّلام، وحبيتما ما عَطَسَ الْفَجْرُ، ودَبَّ الظَّلامُ"[3]، فالتَّعبير هنا فِيْ قَوْلِه: (عَطَسَ الْفَجْرُ) حمل أَنْسَنَةَ عنصرٍ من عَنَاْصِر الطَّبِيْعَة، حَيْثُ غَدَا الْفَجْرُ رَجُلاً يعطسُ شَأْنُهُ شَأْنُ كلِّ إِنْسَانٍ عَلَى ظهرِ هذه الْبَسِيطَةِ.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ أَحْمَدُ البَرْبِيْر كَثِيْراً فِيْ قَوْلِه: "ورقصتْ بين أيدينا جواري الماءِ، وظهرتْ مع وجودِ شموسِنَا وبدورِنَا نُجُوْمُ النَّباتِ حتى ظننَّاهَا نُجُوْمَ السَّمَاء"[4]. فقد استحالتْ جواري المَاءِ في الْبِنْيَةِ الاسْتِعَارِيَّةِ فتياتٍ يرقصْنَ، مع ما يحمله المَشْهَدُ مِن جَمَالِيَّاتِ التَّشْكِيلِ في حركةِ جواري المَاءِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وتصويرِ تلك الْحَرَكَةِ برقصِ الفتياتِ الحِسَانِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وبِذَلِكَ أضافَ الْأَدِيْبُ جَمَالاً إِلَى جَمَالٍ في هَذَا المَشْهَد صُحْبَةَ أجواءِ السَّعادةِ والفرحِ.

وفي أحضانِ عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ، وعَوَالِمِ تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ توغَّلَ بَهَاءُ الدِّينِ الْبِيْطَار قَائِلاً: "قالَ: رويتُ عن الورقاءِ، بسندها عن العنقاءِ، قالت: نشرتُ جناحَ الهمَّةِ، وطرتُ في فضاءِ الحكمةِ"[5]. حَيْثُ شَكَّلَ الْأَدِيْبُ لَوْحَةً بَارِعَةً من التَّشْكِيلاتِ الاسْتِعَارِيَّةِ، فقد استحالتِ المَعْنَوِيَّاتُ بين أَنَاْمِلِهِ طائراً ينشرُ جناحيهِ، ويتحرَّكُ في شَتَّى الأمكنةِ، مُصوِّراً عُلُوَّ الهمَّةِ في

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص167).

[2] الحمدانيّ، دِيْوَان أبي فراس الحمداني، (ص165).

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص25).

[4] المَرْجِع السَّابِق، ص25.

[5] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص55).

المَشْهَدِ. وَلَعَلَّ المَشْهَدَ الاستعاريَّ قريبٌ من الاسْتِعَارَةِ الَّتِيْ صوَّرها قولُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ [الإسراء: 24].

وتغدو الْأَرْضُ في نظرِ الْأُدَبَاءِ فارساً مغواراً استلَّ سيفَهُ من غِمْدِهِ فِيْ قَوْلِ مُحَمَّد المُبَارَك: "سلَّتِ الْأَرْضُ سيفَ الانتصارِ من غمدِهِ، وبراعة مطلعها عبارة عن حسنِ الابتداءِ بشكرِ اللهِ وحمدِهِ"[1]. حَيْثُ شَكَّلَ الْأَدِيْبُ صُورَةً اسْتِعَارِيَّةً عَبْرَ تشخيصِ الْجَمَادَاتِ، تمثَّلتْ في تصويرِ الْأَرْضِ في هيئةِ فارسٍ صنديدٍ استلَّ سيفَهُ من غمدِهِ، وشرعَ يبارِزُ الأعداءَ حتى حقَّقَ الانتصارَ.

ويسبحُ ابن الأَلُوسِيّ في فَضَاءَاتِ تَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، وينتقي ما يشاءُ من مَشَاهِدِ الْجَمَالِ، فيشكِّلُ أَرْوَعَ اللَّوْحَاتِ فِيْ قَوْلِه: "وَمَتَىْ كَانَتْ نسائِمُهُ تغشى سحائبَ الاكتئابِ، وتُمْطِرُ الهمومَ في سوحِ الأَلْبَابِ، وكانَ مُوْلَعاً بإيقاعِ طائرِ القلبِ في أشراكِ الْمَصَائِب، وعضّ الأفئدة بأنياب النوائب"[2]. حَيْثُ قدَّم ابن الأَلُوسِيّ صوراً مروِّعةً متتابعةً للاكتئابِ والْمَصَائِبِ، ومَشَاهِدَ متواليةٍ لليأسِ والنَّوائبِ، فالكَلِمَاتُ تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا مزيداً من الرُّعبِ، والخوفِ، وازداد هَذَا الرُّعْبُ لمَّا صَوَّرَ الهمومَ لكثرتها بالمطرِ، وشبَّه النَّوائبَ لعِظمِها بالوحوشِ الضَّاريةِ، مما يُضْفِي عَلَى المَشْهَدِ رعباً فوقَ رعبٍ، وخوفاً إِلَى خوفٍ، حَيْثُ نقلَ ابنُ الأَلُوسِيّ المُتَلَقِّي إِلَى ساحاتٍ شاسعةٍ، ومساحاتٍ واسعةٍ يسيطرُ عليها الرُّعْبُ، ويكتنفها الخوفُ، وتَلُفُّهَا الهمومُ، فترتعدُ فرائِصُهُ، وترتجفُ عواطِفُهُ.

وُعَوْدٌ عَلَى بدء فقد قدَّمَ الْأُدَبَاءِ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ صُوراً جديدةً تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا كلَّ مَعَانِي الإِبْدَاعِ، حَيْثُ اسْتَخْدَمَوا براعتهم فِي حشدِ الْمَعَانِي، ومهاراتِهِم في صياغتها، وقدرتهم عَلَى استنباطِ الصُّوَرِ، فاستعملوا البِنَى التَّشْخِيصِيَّة والتَّجْسِيْمِيَّة في تشكيلاتٍ استعاريَّةٍ عبَّرت عَنْ كُلِّ ما يجول في خواطرهم من مشاعرَ وأحاسيس، تجاوزت تِلْكَ البِنَى الدَّلَالَاتِ الأصليَّةِ إِلَى دلالاتٍ أُخْرَى إيحائيَّةٍ، فاستحال المعقولُ إِلَى محسوسٍ، والمحسوسُ إِلَى معقولٍ، وقد وفق الْأُدَبَاء أَيَّمَا توفيقٍ فِيْ تَوْظِيْفِ البِنَى التَّجْسِيْمِيَّةِ والتَّشْخِيصِيَّةِ لتشكيلِ الاستعاراتِ؛ لِأَنَّهم وجدوا فيها الطَّرِيْقَ الأقصرَ الَّذِيْ يوصلهم إِلَى تجسيمِ الْمَعَانِي، ونقلها من عالمِهَا الجامدِ المُجَرَّدِ إِلَى عالمٍ ينبضُ بالحَيَاةِ، ويحملُ في طيَّاتِهِ التَّجربةَ النَّفسيَّةَ، والْفَنِيَّةَ للمبدعِ مِنْ جِهَةٍ، والتَّشويقِ والْمُتْعَةِ للمتلقِّي مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص89).

[2] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة، (ص88).

وتبقى الطَّبِيْعَةُ دَوْماً كما رأينا مصدراً من مصادرِ تشكيلِ الصُّورَةِ الشِّعْرِيَّةِ، وتظلُّ عَنَاْصِرُها دالاً من دوالِ رسمِ الأَلْوَاْنِ الْبَيَانِيَّةِ، حَيْثُ أضحتْ بكلِّ ملامِحِهَا، وأشكالِهَا، وصفاتِهَا رافداً جَدِيْدَاً، وأرضاً خصبةً، ومناهلَ متدفِّقةً يَرِدُهَا الأدباءُ لتشكيلِ الصُّورَةِ الاسْتِعَارِيَّةِ النَّابعةِ من ذِهْنِ الْأَدِيْبِ وعاطفتِهِ، وَمِنْ هُنَا استحالتْ المَقَامَاتُ مرآةً صادقةً لأحداث العَصْر بكلِّ تجارِبِهِ وآمالِهِ، وجميعِ بواعثِهِ وآلامِهِ.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: التَّشْكِيْلُ الْكِنَائِيُّ

الْكِنَايَةُ إِحْدَى فُنُونِ الْبَيَانِ، وَهِيَ طَرِيْقَةٌ مِنْ طَرَائِقِ البَلَاْغَةِ، وَصُوْرَةٌ مِنْ صُوَرِهَا الَّتِيْ لا يصلُ إِلَيْهَا إِلَّا مَنْ "لَطُفَ طَبْعُهُ، وَصَفَتْ قَرِيْحَتُهُ، وَلَهَا مِنْ أَسْبَابِ البَلَاْغَةِ فِيْ مَيْدَانِ التَّصْوِيْرِ الأَدَبيِّ ما يَجْعَلُهَا دَائِمَةَ الْإِشْرَاقِ، وَاضِحَةَ الْمَعَالِمِ، دَقِيْقَةَ التَّعْبِيْرِ والتَّصْوِيْرِ، فَهِيَ تَأْتِي بِالْفِكْرَةِ مَصْحُوْبَةً بِدَلِيْلِهَا، وَالْقَضِيَّةِ وَفِيْ طَيِّهَا بُرْهَانُهَا"[1].

والْكِنَايَةُ مِنْ أَسَالِيْبِ الْبَيَانِ العربيِّ الَّتِيْ لا يقوى عليها إِلَّا كُلُّ بليغٍ متمرِّسٍ بفنونِ الْقَوْلِ، وهي لونٌ من ألوانِ البيــانِ، يقصدُ بها "لفظٌ أريد به لازمُ معناه، مع جوازِ إرادةِ معناه حينئذٍ"[2]. وقد سبقَ السَّكاكيُّ إِلَى تعريفِ الْكِنَايَةِ قَائِلَاً: "هي تركُ التَّصريحِ بذكرِ الشَّيْء إِلَى ذكرِ ما يلزمُهُ؛ لينتقلَ من المذكورِ إِلَى المتروكِ"[3]. وقد قرنها أبو هلال العسكريّ بالتَّعريضِ قَائِلَاً: "وهو أنْ يكنى عن الشَّيْء ويعرِّضَ به، ولا يصرِّحُ عَلَى حسبِ ما عملوا بالتَّوْرِيةِ عن الشَّيْء"[4].

أمَّا الإمامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الجرجانيّ فقدْ عَبَّرَ عن الْكِنَايَةِ بصورةٍ أُخْرَى قَائِلَاً: "أنْ يريدَ المتكلِّمُ إثباتَ معنىً من الْمَعَانِي فلا يذكره باللَّفظِ الْمَوضُوْعِ له في اللُّغَةِ، ولكن يجيء إِلَى معنىً هو تاليه، وردفه في الوجودِ فيُومئُ بِهِ إليهَ، ويجعلُهُ دليلاً عليه"[5].

وتنقسمُ الْكِنَايَةُ باعتبارِ المكنيِّ إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ: كناية عن صفةٍ، وكناية عن موصوفٍ، وكناية عن نسبةٍ، و"المطلوب بالْكِنَايَة لا يخرجُ عن أقسامٍ ثلاثةٍ؛ أحدها: طلب نفس الموصوفِ، وثانيها: طلب نفس الصِّفةِ، وثالثها: تخصيص الصِّفةِ بالمَوْصُوفِ"[6].

وَلَعَلَّ أسلوبَ الْكِنَايَةِ من أنسبِ الصُّورِ الْبَيَانِيَّةِ لأُدَبَاءِ فَنِّ المَقَامَةِ، لحاجتهم دوماً إِلَى عدمِ التَّصْريحِ إمَّا احتراماً لِلمُخَاطَبِ، أو للإبهامِ عَلَى السَّامِعِيْنَ.

وعِنْدَ الحَدِيْثِ عن الْكِنَايَةِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، علينا ألَّا نغفلَ بلاغَتَهَا، وسرَّ جمالِهَا الَّذِيْ يكمنُ في إمكانِ تناولِهَا دونَ حرجٍ أو لومٍ. فهي كما يرى ابنُ حبنَّكة الميدانيّ: "أسلوبٌ ذكيٌّ من أَسَالِيْبِ التَّعْبِيرِ عن المرادِ بِطَرِيْقَةٍ غيرِ مباشرةٍ، وهي من أجملِ وأبدعِ فنونِ الأَدَبِ،

---

[1] عبد التَّواب، الصُّورة الْأَدَبيّة في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص67، ص68).

[2] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص456).

[3] السَّكاكيّ، مفتاح العلوم، (ص402).

[4] العسكريّ، الصِّناعتين، (ص407).

[5] الْجُرْجَانِي، دَلَائِل الإِعْجَاز، (ص66).

[6] السَّكاكيّ، مفتاح العلوم، (ص403).

ولا يستطيعُ تصيُّدَ الْجَمِيْلِ النَّادرِ منها، ووضعه في الموضعِ الملائمِ لمقتضى الحالِ إلا أذكياءُ البُلَغَاْءِ، وفطناؤهم، وممارسو التَّعْبيرِ عَمَّا يريدون التَّعْبيرَ عنه بطرقٍ جَمِيْلَة بديعةٍ غيرِ مباشِرةٍ"[1].

وَيَرْسِمُ أَحْمَد الهاشميّ لَوْحَةً بَارِعَةً في بلاغةِ الْكِنَايَةِ قَائِلاً: "الْكِنَايَةُ من ألطفِ أَسَالِيْبِ البَلَاْغَةِ وأدقّها، وهي أبلغُ من الْحَقِيْقَةِ والتَّصريحِ؛ لِأَنَّ الانتقالَ فيها يكونُ من الملزومِ إِلَى اللَّازمِ، فهو كالدَّعوى ببيِّنة... كَيْفَ لا؛ وأنَّها تمكِّنُ الْإِنْسَانَ من التَّعْبيرِ عن أمورٍ كَثِيْرةٍ يتحاشى الإفصاحَ بذكرها، إِمَّا احتراماً للمُخَاطَبِ، أو للإبهامِ عَلَى السَّامِعِيْنَ، أو للنَّيلِ من خصمه دون أن يدعَ له سبيلاً عليه، أو لتنزيهِ الأذنِ عما تنبو عن سماعهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ من الْأَغْرَاضِ، واللَّطَائِفِ البَلاغيَّةِ"[2].

إن التَّشْكِيلَ الكنائيَّ يُعَدُّ أحدَ الأنظمةِ الفاعلةِ في النُّصُوْصِ الأَدَبيَّةِ، فهي تمنحُ النَّصَّ حيويةً وثراءً وتكثيفاً دَلالِيَّاً وجَمَالِيَّاً في آنٍ؛ إِذْ إنَّه إقصاءٌ للمَعَانِي الْمُبَاشِرَةِ للدَّوالِ، والتَّحوُّل عنها إِلَى دلالاتٍ إيحائيَّةٍ عميقةٍ، ما يجعلُ المُتَلَقِّي يشعرُ بلذَّةٍ في رحلته الزَّمَانيَّةِ والمكانيَّةِ في الكونِ النَّصيِّ، لاستكشافِ تِلْكَ الدَّلَالَاتِ الغائبةِ، السَّابحةِ في فضائه الواسعِ، وحيّزه الشَّاسعِ، مُعْتَمِداً عَلَى علاقةِ المجاورةِ الَّتِيْ تقوم أساساً عَلَى الانحرافِ بالْأَلْفَاظ عن طريقِ التَّرْكيبِ إِلَى ألفاظٍ أُخْرَى مجاورة لها في الدَّلَالَةِ، بيد أنَّها أكثرُ إثارةً للمشاعرِ، والإيحاءاتِ الدَّفينةِ والغائبةِ في منطقةِ اللاوعي، أي تجاوز الْمَعْنَى الحقيقيّ الَّذِيْ تقومُ عليه إِلَى معنىً آخرَ أكثر إضاءةً وإيحاءً؛ ليصبحَ التَّشْكِيلُ الشِّعريُّ المتكوِّنُ جوهرَ الإِبْدَاعِ الشِّعريِّ في اعتماده عَلَى الانزياحِ والخرقِ اللَّذَيْنِ يُخْرِجانِ النَّصَ الشِّعْرِيَّ من دائرةِ المألوفِ إِلَى دائرةِ التَّوَتُّرِ، وإثارةِ المُتَلَقِّي ومفاجأتِهِ[3].

والتَّشْكِيلُ الكنائيُّ "لونٌ من ألوانِ الأَسَالِيْبِ يخرجُ به الشَّاعِرُ إِلَى معانٍ في اللُّغَةِ، يتجوَّزُ فيها الأَسَالِيْبَ الَّتِيْ تخدمه إِلَى غرضِهِ مع مراعاةِ العلائِقِ، والرَّوابطِ بينَ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ والْمَعْنَى المذكورِ"[4].

والْكِنَايَةُ مِنَ الأَسَالِيْبِ البَلاغيَّةِ الَّتِيْ تملكُ مزايا تُضْفِي عَلَى الْمَعْنَى جَمَالاً، وتزيده قُوَّةً في

---

[1] الْمَيْدَانِيّ، الْبَلَاغَة الْعَرَبِيَّة أسسها وعلومها وفنونها، (ج141/2).

[2] الهاشميّ، جواهر الْبَلَاغَة، (ص290).

[3] يُنْظَر، ياسين، خصائص الْأُسْلُوب في شعر البحتريّ، (ص345).

[4] أحمد، الكناية أساليبها ومواقعها في الشِّعر الجاهليّ، (ص33).

إبرازِ الْمَعَانِي وتجسيدِهَا بصورةٍ محسوسةٍ مؤثِّرةٍ، وَعَدَّ العربُ الْكِنَايَةَ "من الْبَرَاعَةِ والبَلَاْغَةِ، وهي عِنْدَهُم أبلغُ من التَّصريحِ"[1].

اعْتَمَد كُتَّابُ المَقَامَاتِ التَّشْكِيلَ الكِنَائِيَّ في رَسْمِ صورِهِمْ، فقد شَرَعَ هَؤلاءِ في تقديمِ مزيدٍ من الكناياتِ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ؛ لتثبيتِ دعواهم في نفسِ المُتَلَقِّي، وهَذَا ما جعلَ البِنَى المتجاورةَ عِنْدَهُم تسهمُ فِيْ تَشْكِيْلِ صورٍ متعدِّدةٍ، بَلْ تدفعُهُ إِلَى رَسْمِ لوحاتٍ بارعةٍ، فقد عبَّروا عن كلِّ ما تجودُ به قَرَائِحُهُم، ويعينهم بِذَلِكَ خيالُهُم؛ ليدلَّ ذلك كلُّه عَلَى سخاءِ هذه الُّلغَةِ ومقدرتها في التَّعْبيرِ، وأداءِ الْمَعْنَى بصورٍ لَا حَصْرَ لَهَا، تعتمد عَلَى إبداعِ الكُتَّابِ وخيالهم في تجميعِ هذه الصُّورَةِ وتركيبها، فهي أبلغُ من الْحَقِيْقَةِ والتَّصْريحِ، وهي "أبلغُ من الإفصاحِ والتَّعريضِ، وأوقعُ في النَّفْسِ من التَّفرُّعِ"[2].

والْكِنَايَةُ كغيرها من ألوانِ البَيَانِ تقفُ إِلَى جانبِ التَّشْبِيْهِ والاسْتِعَارَةِ عنصراً مهمَّاً من عَنَاْصِرِ التَّشْكِيلِ التَّصْوِيْرِيِّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، كما تلعبُ دوراً كَبِيْرَاً في رسمِ الَّلوْحَاتِ الْبَيَانِيَّةِ، وهي تستمدُ جَمَالَهَا بوصفها عنصراً تصويريَّاً مِنْ خِلَالِ ما تحمله من "تنبيهِ الملكاتِ، واستثارةِ الأذواقِ مِنْ خِلَالِ الَّلمْحَةِ، والإشارةِ، والتَّعريضِ، والرَّمزِ، والإيحاءِ، والمبالغةِ في وضعِ المَعْنَويَّاتِ في صُوَرِ الْمَحْسُوْسَاتِ، وَمِنْ هُنَا يَنْطَلِقُ المُتَلَقِّي؛ ليغوصَ في فَضَاءَاتِ الإيحاءِ والتَّخييلِ، ويلتقطَ الْمَعَانِي والدَّلَالَاتِ، ويُقلِّبَ الوُجوهَ والاحتمالاتِ، وفي المقابلِ يَنْطَلِقُ الْأَدِيْبُ فيرسمُ بالكَلِمَاتِ أجْمَلَ الَّلوْحَاتِ، ويخطُّ بريشته أَرْوَعَ الكناياتِ، مُتنقِّلاً بين كنايةِ الصِّفةِ، وكنايةِ الموصوفِ، مُتتبِّعاً الْجَمَالَ بالخُطَى الواثقاتِ، فلا يَدَعُ للمتلقِّي باباً من أبوابِ الْجَمَالِ إلَّا طَرَقَهُ، ولا درباً من دُرُوْبِ الْجَلَالِ إلا سَلَكَهُ، ولا منهلاً من مَنَاهِلِ الْبَهَاءِ إلا وَرَدَهُ.

وَإِذَا عُدْنَا إِلَى النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، فَإِنَّنا نجدُهَا قد تزيَّنتْ بنماذجَ رائعةٍ للكنايةِ، وقد عَبَّرَ كتَّابها عن كلِّ ما صاغته أذواقُهُم، ويعينهم بِذَلِكَ أحاسيسُهُم المرهفةُ، ليدلَّ ذلك كلّه عَلَى امتلاكِهِم زمامَ الُّلغَةِ، وقدرتهم عَلَى التَّلاعُبِ بمُفْرَدَاتها كُلَّما دَعَتِ الْحَاجَةُ.

ونحنُ إذا تنقَّلنا بينَ صفحاتِ (مَجْمَع البَحْرَيْن) لنَاصِيْف اليَازْجِيّ، فَإِنَّنا نجدُ عالماً شاسعاً من الكناياتِ الْبَارِعَةِ، ومنها قَوْلُهُ في (المَقَامَة الهزليَّة): "قلتُ أنا والمالُ في يديك، وكلانا لكَ وإليكَ، قالَ حيَّاكَ اللهُ فسنستبدلُ الجمرَ بالتَّمرِ، ولكن اليومَ خمرٌ، وغداً أمرُ، فقضيناه يوماً

---

[1] الزَّركشيّ، البرهان في علوم القرآن، (ج300/2).

[2] يُنْظَر: القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص468). عتيق، علم البيان، (ص221).

صفا زلالُهُ، وغاب عُذَّالُهُ"[1]. فَإِنَّ الجمرَ كنايةٌ عن الشَّر، والتَّمرَ كنايةٌ عن الخيرِ، أَمَّا قَوْلُهُ: (يوماً صفا زلاله) فهو كنايةٌ عن طيبِه مع ما صاحبَ الكناية من الإتيانِ بالمعنى صُحْبَةَ الدَّليلِ.

لقدْ فَجَرَّ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ طاقاتِهِم الإِبْدَاعيَّةِ فِيْ تَشْكِيْلِ صورٍ كنائيَّةٍ عبروا مِنْ خِلَالِهَا عن كَثِيْرٍ من الصِّفَاتِ، كالحزنِ والقلقِ، والظُّرفِ، والتَّشميرِ، والجدِّ، والاستقرارِ، والرَّحِيلِ لرسم مَشَاهِدِ الْوَاقِعِ في المجتمعِ العُثْمَانِيِّ، فقد طرقَ نَاصِيْف اليَازْجِيّ جميعَ الأبوابِ في عَوَالِمِ الصُّورِ الكنائيَّةِ، ومن هذه المَشَاهِدِ قولُهُ: "لمحتُ شيخَنَا الْخُزَامِيَّ وابنتَهُ بجانبِ الطَّرِيْقِ، ولديهما فتىً قد لبسَ البياضَ، وتختَّم بالعقيقِ"[2]. فَقَوْلُهُ: لبسَ البياضَ، كنايةٌ عن الظَّرافة، يَقُوْلُونَ من لبسَ البياضَ، وتختَّم بالعقيقِ فقد حازَ الظُّرْفَ كُلَّهُ.

ومن الظَّرافةِ والفراغِ ينتقل نَاصِيْف اليَازْجِيّ إِلَى صورةٍ كنائيَّةٍ معاكسةٍ تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا التَّعب والنَّصَب فِيْ قَوْلِه في (المَقَامَة الأزهريَّة): "فشمذنا إزارَ السَّفرِ، وأوغلنا فِيْ تِلْكَ القِفَرِ"[3]. وَقَوْلُهُ في السَّطرِ السَّابِقِ كنايةٌ عن صفةٍ، وهي التَّشمير والجدِّ، وكأنَّه أراد أن يرسم واقعاً حقيقيَّاً، ومَشْهَدَاً حيَّاً من مَشَاهِد البيئةِ العُثْمَانِيَّةِ الأخَّاذَةِ.

لجأ كثيرٌ من الْأُدَبَاءِ إِلَى البيئةِ لرسمِ صورٍ كنائيَّةٍ يقتفونَ مِنْ خِلَالِهَا خُطَى سابقيهم من الشُّعَرَاءِ العربِ فِيْ رَسْمِ مَشَاهِدِ الطَّبِيْعَةِ، وتصويرِ شدَّةِ الحرِّ في أشهرِ الصَّيفِ، ومن هَؤلاءِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ فِيْ قَوْلِهِ: "إِلَى أنْ حلَّتِ الشَّمْس برج الأسد، ففارقني فراقَ الرُّوحِ للجسدِ"[4]. فَقَوْلُهُ: (حلَّتِ الشَّمْس برج الأسد) كنايةٌ عن اشتدادِ حرِّ الصَّيفِ، وهَذَا المَشْهَدُ متعارفٌ عليه في البيئةِ البدويَّةِ؛ لذا قيلَ في الْأَمْثَال البدويَّةِ: "برجُ الأسدِ يُلصقُ الثَّوبَ عَلَى الجسدِ"[5].

لمْ يبرحْ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ البيئةَ، فقد اعْتَمَدوا عَلَى عَنَاْصِرِهَا لتشكيلِ الصُّورِ الكنائيَّةِ الَّتِيْ تتيحُ لهم عكسَ تجارِبِهِم في أشكالٍ أدبيَّةٍ تتَّسِمُ بالمهارةِ الفائقةِ، والتَّنظيمِ الدَّقيقِ، والْبَرَاعَة المتفرِّدةِ، حتى وإن دفعهم ذلك إِلَى السَّفَرِ بعيداً للخلفِ حَيْثُ البيئةُ الجاهليَّةُ، الَّتِيْ لا يزالُ صَدَى ملامِحِهَا، وصَدَى تراثِهَا ماثلاً أَمَامَهُمْ يسيطرُ عَلَى ألبابِهِم، ويطرُقُ مسامعَ قلوبِهِم، ويبدو هَذَا فِيْ قَوْلِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الرَّمليَّة): "وقضينَا ثميلة ليلنا البَارِح،

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الهزليَّة)، (ص109).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحلبيَّة)، (ص56).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الأزهريَّة)، (ص76).

[4] المَرْجِع السَّابِق، ص83.

[5] الطَّويل، إيقاعات مسجوعة لدى أصحاب المزارع في المدينة، *makkahnewspaper.com/arti/*.

إِلَى أنْ صَدَحَ الصَّادِحُ، وسَكَتَ النَّابِحُ"[1]. فَقَوْلُهُ: (صَدَحَ الصَّادِحُ، وَسَكَتَ النَّابِحُ) كنايةٌ عن طلوعِ الصُّبْحِ؛ لِأَنَّ الطَّائِرَ عادةً يترنَّمُ عِنْدَ الصُّبحِ، والكلب كَذَلِكَ يُمسِكُ عَنِ النّباحِ.

يواصلُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ التَّفاعلَ مع عَنَاْصِرِ البِيْئَةِ، فقد أزفَ الرَّحِيلُ عَبْرَ مشهدٍ من مَشَاهِدِ البيئةِ الجاهليَّةِ، وفي أسلوبٍ كنائيٍّ يرسمُ الْوَاقِعَ بكُلِّ ملامِحِهِ، وشَتَّى سماتِهِ، يَقُوْلُ: "فأجفلَ الفتي أيَّ إجفالٍ، وقالَ ما بالكم تَزُمُّنَّ الْجِمَالَ"[2]. فَقَوْلُهُ: (تَزُمُّنَّ الْجِمَالَ) هنا كنايةٌ عن الرَّحِيلِ. ومن المشهورِ أنَّ مشهدَ الرَّحِيلِ في البيئةِ البدويَّةِ مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بِزَمِّ الْجِمَالَ.

ويتركُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ مساحةً شاسعةً، وَبَوْنَاً واسعاً للمُتَلَقِّي لكي يتخيَّلَ مشهدَ الرَّحِيلِ، فلا يقفُ الأمرُ عِنْدَ حدِّ زَمِّ الْجِمَالِ، ولا عِنْدَ حملِ الخيامِ، بلْ يتجاوزُ الأمرُ كُلَّ ذلك إِلَى تجسيدِ المأساةِ الَّتِيْ يخلفها مشهدُ الرَّحِيلِ، حَيْثُ الوطنُ الجديدُ، أو قُلْ – إنْ شِئْتَ – المَنْفَى الجديدُ.

امتلكَ الْأُدَبَاءُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ زمامَ الُّلغَةِ، ومُفْرَدَاتِ الْوَاقِعِ، وَمِنْ هُنَا لجأوا إليه كَثِيْراً لتشكيلِ صورٍ في أسلوبٍ كنائيٍّ يعبِّرُ عن تجربةٍ واقعيَّةٍ، ورؤيةٍ فنيَّةٍ، استوحاها هَؤلاءِ الْأُدَبَاءُ من خيالِهِم المبدعِ، وإحساسِهِم المرهفِ، وقريحتِهِم الوقَّادةِ، معتمدينَ عَلَى ما حفظوه من أمثالٍ عربيَّةٍ، وظَّفوا مَعَانِيها كُلَّما دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَىْ ذَلِكَ، وَمِنْ هُنَا انطلقَ نَاصِيْف اليَازْجِيّ يرسمُ هَذَا المَشْهَد قَائِلَاً: "ولقدْ خطبني كرامُ الأصهارِ، فَأَبَى إِلَّا أنْ أكونَ منه مَعقِدَ الإزارِ"[3]. فَقَوْلُهُ: (معقد الإزار) مثلٌ فيه كنايةٌ عن شدَّةِ القُرْبِ.

لَجَأَ الْأُدَبَاءُ إِلَى الطَّبِيْعَةِ كَثِيْراً لتشكيلِ صُوَرٍ كنائيَّةٍ ترسمُ لوحاتٍ فنيَّةً رائعةً، فَقَدْ بَرَعَ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ في تصويرِ مشهدٍ من مَشَاهِدِ الْجَمَالِ، وهو صفاء الجوِّ بعد توقُّفِ سقوطِ المطرِ مُعْتَمِدَاً عَلَى دَلَالَةِ الْفِعْلَيْنِ الْمَاضِيينِ (نَضَبَ، وتَهَلَّل) مِنْ نَاحِيَةٍ، وتشخيصِ عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ فِيْ قَوْلِه: (تهلَّلَ وجهُ السَّمَاءِ) مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى. وهَذَا ما حَمَلَتْهُ العبارةُ: "حتى إذا نضبَ الماءُ، وقد تهلَّلَ وجهُ السَّمَاءِ"[4]. فعبارته: (تهلَّلَ وجهُ السَّمَاءِ) حملت فِيْ ثَنَايَاهَا كنايةً عن الصَّحْوِ، وصفاءِ الجوِّ بحَيْثُ لا يُرْجَى سقوطُ المطرِ، وزادَ المَشْهَدَ روعةً تشخيصُ السَّمَاءِ في صُورةِ إنسانٍ عن طريقِ بِنْيَةٍ استعاريَّةٍ رائعةٍ، مع ما حَمَلَتْهُ البِنَى الكنائيَّةُ، والاسْتِعَارِيَّةُ المتجاورةُ من إضفاءِ مزيدٍ من الحُسْنِ والْجَمَالِ عَلَى المَشَاهِدِ.

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَة الرَّمليَّة)، (ص114).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَة الموصليَّة)، (ص182).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَة الصُّوريَّة)، (ص128).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَة التَّميميَّة)، (ص192).

ولَمْ يَبْرَحِ الْأُدَبَاءُ كَذَلِكَ عَنَاْصِرَ الطَّبِيْعَةِ، ومَشَاهِدَ البيئةِ في أيامِ الصَّيفِ الحارةِ، ومن ذلك قولُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الأزهريَّة): "قالَ سُهَيْلٌ: فمكثَ حيناً مِنَ الدَّهْرِ وإيَّاه، أتيمنُ بهلالِ مُحيَّاهُ، وأتهللُ بزُلالِ حُمَيَّاهُ، إلَى أن حلَّتِ الشَّمْس برج الأسدِ، ففارقني فراقَ الرُّوحِ للجسدِ"[1]. فَإِنَّ قولَــهُ: (أتيمنُ بهلالِ محيَّاهُ) كنايةٌ عن طيبِ المعاشرةِ، وقوله: (حلت الشَّمْس برج الأسدِ) كنايةٌ عن اشتداد حرِّ الصَّيفِ. مَعْ مَا تَحْمِلُهُ الكنايتانِ مِنَ الإتيانِ بالْمَعْنَى بدليلٍ.

أُوْلِعَ الْأُدَبَاءُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ بروائعِ سابقيهم في العُصُوْرِ المُخْتَلِفَةِ، حَيْثُ ارتحلَ كَثِيْرٌ منهم إلَى موانئِ الأَدَبِ الجاهليِّ، والإسلاميِّ، والعباسيِّ، فشرَعُوا يَسْتَلْهِمُونَ تراثَهُم، ويستبطنونَ قيمَهُ، وَيَقْتَفُوْنَ أثرَ فرسانِهِ في الشِّعرِ والنَّثرِ، فلَمْ ينسَ هَؤلاءِ روائعَ حَسَّان، والنَّابغةِ، ولا مآثرَ عنترةَ، والْخَنْسَاءِ، ولا بدائعَ البحتريِّ، ولزوميَّاتِ أبي العَلَاءِ، كما لَمْ يقفْ تغيُّرُ الظُّرُوْفِ، وتبدُّلُ الأحوالِ حَاجِزاً أَمَامَهُم لطمسِ تراثِهِم، والتَّخَلِّي عن هويتِهِم الْعَرَبِيَّةِ، وَمِنْ هُنَا يطيرُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ مُحَلِّقاً في سَمَاءِ روائعِ الْخَنْسَاءِ، يَقُوْلُ: "فبَيْنَمَا دخلتُ يَوْمَاً إلَى بعضِ الأحياءِ، وقد مسَّني لُغوبُ الإعياءِ، إذَا شيخٌ طويلُ النِّجَادِ، مُزَمَّلٌ بِبِجَادِ"[2]. مُتَأَثِّراً بالقديمِ، وَمُسْتَلْهِمَاً التُّرَاثَ ليعبِّرَ عن طولِ القَامَةِ، مُتَمَثِّلاً قولَ الْخَنْسَاءِ:

طَوِيْــلُ النِّجَــادِ رَفِيْــعُ العِمَــادْ دِ سَــادَ عَشِــيْرَتَهُ أَمْرَدَا[3]

وَلَمْ يَبْتَعِدْ مُحَمَّدُ الوُرْغِيّ عَنْ إبداعاتِ الْخَنْسَاءِ، بَلْ نَهَلَ من ذاتِ المَعِينِ قَائِلَاً: "وسأخبركَ عنْهُ بمثلِ حديثِ أبي زَرْعٍ، إنَّهُ لرفيعُ العمادِ كَثِيْرُ الرَّمادِ"[4]. فِيْ قَوْلِها:

طَوِيــلُ النِّجَــادِ رَفِيْــعُ الْعِمَــادِ كَثِيْر الرَّمَــادِ إِذَا مَا شَــــتَا

ومعُلُوْمٌ أنَّ كثرةَ الرَّمَادِ كنايةٌ عن صفةٍ، وهي الكرم، لما يستلزمُ من كثرةِ الرَّمادِ، كثرة إحراقِ الحطبِ، ومن كثرةِ إحراقِهِ طهي الطَّعَامِ، وإعداده للضُّيُوفِ القاصدينَ الممدوحَ الكريمَ، وهذه الصُّورَةُ من الصُّوَرِ الكنائيَّةِ الأكثر تداولاً في الأَدَبِ العربيِّ.

تفوَّقَ مُحَمَّدُ الوُرْغِيّ عَلَى نفسِهِ أَيَّمَا تَفَوُّقٍ، حَيْثُ قدَّم لَوْحَةً بَارِعَةً مِنْ لَوْحَاتِ التَّشْكِيلِ الكنَائِيِّ جَمَعَ فيها بينَ صفاتِ الكرمِ، والشَّجاعةِ، والفُروسيَّةِ، والشَّرفِ، وكرمِ الأصلِ، وَعُلُوِّ

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْنِ (المَقَامَة الأزهريَّة)، (ص71).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْنِ (المَقَامَة التَّميميَّة)، (ص192).

[3] الخنساء، دِيْوَان الخنساء، (ص31).

[4] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَة الخمريَّة)، (ص20).

المنزلةِ، والْجَمَالِ، والعفَّةِ، والعفافِ، فلم يتركْ صِفةً من صفاتِ الكِرَامِ إلا رصدها، وكأنِّي به يستلهمُ تراثَ العربِ في شَتَّى العُصُوْرِ، يَقُوْلُ: "فقالتْ بَخٍ بَخٍ ، فخر رسخ، ذلك الفحلُ الَّذِيْ لا يُقذَعُ أنفُهُ، والفيضُ الَّذِيْ لا ينقبضُ كَفُّهُ، لم يفته من المحاسنِ أَصْلٌ ولا فرعٌ، وسأخبركَ عنه بمثلِ حديثِ أبي زرعٍ، إنَّه لرفيعُ العمادِ كَثِيْرُ الرَّمادِ، خفيفٌ عَلَى ظهورِ الخيلِ، ثقيلٌ عَلَى أعدائِهِ يومَ الوَيلِ، راضي الأهلِ والجنابِ، رائقٌ للعُيُونِ والأَلْبَابِ، ليست شملتُهُ بالتفافٍ، ولا شربه باشتفافٍ، ولا ضجعته بانجعافٍ، ولا يَشْبَعُ ليلةً يُضَافُ، ولا ينامُ ليلةً يَخَافَ"[1]. لا أدري، وسوفَ أَخَالُ أَدْرِي أيَّة قريحةٍ هذه الَّتِيْ جمعتْ فأحسنتْ، وخطَّتْ فأبدعتْ، وانتقتْ فبرعتْ، وجاوزتْ حدودَ الْجَمَالِ واستقرَّتْ، حَيْثُ تحرَّكَ الوُرْغِيُّ خطواتٍ واثقةً بَيْنَ حواضرِ العربِ، وبواديهم، وَرَسَمَ ما اسْتَطَاع الرَّسمَ أَرْوَعَ لَوْحَةٍ، بأجملِ الأَلْوَانِ صُحْبَةَ تشكيلاتٍ كنائيَّةٍ متتابعةٍ استهلَّهَا بالأصالةِ، والشَّرَفِ، وَعُلُوِّ النَّسَبِ فِيْ قَوْلِه: (الفحلُ الَّذِيْ لا يُقذعُ أنفُهُ)، وتابعها بصفةِ الجودِ، والكرمِ فِيْ قَوْلِهِ: (الفيضُ الَّذِيْ لا ينقبضُ كفُّه) مَعْ مَا تَحْمِلُهُ الصُّورَةُ من تجدُّدٍ واستمرارٍ، واستحضارٍ لذلك المَشْهَدِ البارعِ للكرمِ الفيَّاضِ، ثُمَّ واصلَ سيرَهُ صَوْبَ محاسنِ الأَخْلَاقِ، فقدَّمَ مَشْهَدَاً جَدِيْدَاً مِنْ خِلَالِ تشكيلٍ كنائيٍّ جديدٍ فِيْ قَوْلِه: (رفيع العمادِ)، وَمنْ كَانَ الكرمُ طبعَهُ، والعروبةُ أصلَهُ لابدَّ أنْ يواصلَ رحلةَ الأصالةِ، ويتوقَّفُ هذه المرَّةَ عِنْدَ محطتينِ اثنتينِ، الْأُوْلَى: الفروسيَّةِ فِيْ قَوْلِهِ: (خفيفٌ عَلَى ظهورِ الخيلِ)، والثَّانية: القوة والبأس، فِيْ قَوْلِه: (ثقيلٌ عَلَى أعدائِهِ يومَ الويلِ)، ثُمَّ ينتقلُ إِلَى صفاتِ الحُسْنِ والْجَمَالِ الَّتِيْ تَقَرُّ لها العُيُونُ، وتطمئنُّ بقربها القُلُوْبُ فِيْ قَوْلِه: (رائق للعيونِ، والأَلْبَابِ). وعاودَ إِلَى رسمِ صورةِ نشاطِهِ، وخفَّةِ نومِهِ فِيْ قَوْلِه: (ليستْ شملتُهُ بالتفافٍ)، وَلضمْ يبرحِ العِفَّةَ، وأدبَ المَأْكَلَةِ فِيْ قَوْلِه: (ولا يَشْبَعُ ليلةً يُضِافُ)، ولا تمنعه الموانعُ من أنْ يُكرمَ أهلَ بيتِهِ فِيْ قَوْلِه: (ولا ينامُ ليلةً يخافُ)، وهذه الصِّفَاتُ كُلُّهَا تغنَّتْ بها العربُ مُنْذُ الجاهليَّةِ، فقد تردَّدَ في كتبِ التُّرَاثِ أَنَّهُ "قيلَ لأعرابيَّةٍ: ما لَكِ لا تُحبينَ زوجَكِ؟ قالتْ: لخصالٍ كُنَّ فيهِ: خبيثُ العَرَقِ، قليلُ المَرَقِ، ضجعتُهُ انجعافٌ، وشَمْلَتُهُ التفافٌ، يشبعُ ليلةً يُضافُ، وينامُ ليلةً يَخافُ، ولا يقضيني أمري – أي الجِمَاع"[2].

لَقَدْ وَجَدَ الكُتَّابُ في البيئةِ مَلَاذَاً للتَّعْبِيرِ عن انفعالاتِهِم الدَّفينةِ، ومشاعرِهِم المكبوتةِ، وتصويرِ رحلاتِ سفرِهِم، وحالةِ التَّعبِ والمشقَّةِ الَّتِيْ تنتابهم طوالَ المسيرِ، معْ مِا فِيْ الْكِنَايَةِ من حَرَكَةٍ تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا كلَّ مقوِّماتِ الحيويَّةِ والاضطرابِ، والْحَرَكَةِ المتوثِّبةِ الَّتِيْ يختفي خلفَهَا ثورةٌ عارمةٌ تتدفَّقُ من العروقِ. وهَذَا ما حَمَلَتْهُ العبارةُ: "وأخذنا نختزلُ الخراذلَ والأوصالَ من كلِّ

---

[1] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَة الخمريَّة)، (ص20).

[2] التَّوْحيديّ، البصائر والذَّخائر، (ج175/2). يُنْظَر: الْمَيْدَانِيّ، مَجْمَع الْأَمْثَال، (ج394/1)

خنساءَ وذيَّالٍ، إِلَى أن صغتِ الشَّمْسُ نَحْوَ المغربانِ، وكادتْ تلبسُ حُلَّةَ الأُرْجُوَانِ"[1]. فَقَوْلُهُ: (تلبس حُلَّةَ الأُرْجُوانِ) كنايةٌ عن احمرارِ الشَّمْسِ عِنْدَ الغُرُوبِ، وهي صُورةٌ كنائيَّةٌ حملتْ فِيْ ثَنَايَاهَا طولَ الرِّحْلَةِ، وعناءَ السَّفرِ، وبُعْدَ المشقَّةِ، والمسيرِ.

برعَ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ في استلهامِ التُّرَاثِ لتشكيلِ الصُّورِ الكنائيَّةِ مُعْتَمِدَاً عَلَى ما جادتْ به القريحةُ الْعَرَبِيَّةُ من أقوالٍ مأثورةٍ، لا زالتْ عالقةً في الأذهانِ حَتَّى يومِنَا هَذَا، ولا يزالُ كَثِيْرٌ من العربِ يردِّدُها في المجتمعاتِ الْعَرَبِيَّةِ حَتَّى يومنا هَذَا، رُبَّمَا للإهانةِ والتَّحقيرِ، أو للإشادةِ والتَّعظيمِ، وَمِنْ هُنَا قِيْلَ: فلانٌ طويلُ الذَّيْلِ، وفلانٌ قصيرُ الذَّيْلِ.

وهَذَا ما ردَّدَهُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ: "ثُمَّ قَالُوا إِنَّا لنراكَ غزيرَ السَّيْلِ، لكنَّكَ قصيرُ الذَّيْلِ"[2]. والعبارةُ فيها كنايتانِ، فَقَوْلُهُ: (غزير السَّيلِ) كنايةٌ عن شدَّةِ الدَّهَاءِ والحذاقةِ، وقولُهُ: (قصير الذَّيْلِ) كنايةٌ عن قِلَّةِ المالِ. أَمَّا (طويل الذَّيْلِ) فقد ردَّدها مُحَمَّد الوُرْغِيّ في (المَقَامَة الخمريَّة) قَائِلَاً: "وخلوتُهُ لها أطوارٌ، طويلةُ الذَّيْلِ في ذكرِ واعتبارِ طرفي النَّهَارِ"[3]. وتحملُ هذه الْكِنَايَةُ في باطِنِهَا كثرةَ المالِ، قالَ الحريريُّ:

إِنَّ الغَرِيْبَ طَوِيلَ الَّذِيْلِ مُمْتَهَنٌ فَكَيْفَ حَالُ غَرِيْبٍ مَا لَهُ قُوْتُ؟[4]

وَمِنَ التَّشْكِيلِ الكنائيِّ قولُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة) يرسمُ صورةً تردَّدَتْ كَثِيْراً في صفحاتِ الأَدَبِ: "حَتَّى صارتْ مدامعُهُم تَصُوبُ، وكادتْ أكبادُهُم تَذُوبُ"[5] والعبارةُ كنايةٌ عن صفةٍ، وهي شدَّة الشَّوقِ، وفِيْ قَوْلِه: "حَتَّى انقضتْ أيامُ الشَّعَثِ"[6]. فَقَوْلُهُ (انقضتْ أيامُ الشَّعَثِ) كنايةٌ عن الإحرامِ، زَادَ جَمَالَ الكنايةِ الإتيانُ بالمعنى وهو الإحرام صُحبَةَ الدَّليلِ.

ولَمْ يَبْرَحِ الْأُدَبَاءُ تصويرَ حالتِهِم الوجدانيَّةِ، ومشاعِرِهِم النَّفسيَّةِ، بل اندفعوا للتَّعْبِيرِ عنها مِنْ خِلَالِ تشكيلاتٍ كنائيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "واعتراني مِنَ الخجلِ والحياءِ بقدرِ ما كانَ عِنْدَي مِنَ الغرورِ والخيلاءِ، وسِرْتُ أَجُرُّ رِجْلَيَّ

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة السُّخريَّة)، (ص331).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الأنباريَّة)، (ص289).

[3] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَة الخمريَّة)، (ص24).

[4] الشّريشي، شرح مقامات الحريري، (ص295)، يُنْظَر: المصريّ، تحرير التَّحبير، (ص537)، والحمويّ، خزانة الْأَدَب وغاية الأرب، (ج175/1).

[5] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص420).

[6] المَرْجِع السَّابِق، ص420.

والخلقُ يضحكونَ عَلَيَّ"[1]. فَقَوْلُهُ (وَسِرْتُ أَجُرُّ رِجْلَيَّ) كنايةٌ عن شدَّةِ التَّعبِ حَتَّى امتنعَ عن القيامِ، وهَذَا يُشْبِهُ قولَ الْمُتَنَبِّي:

عَلِيْــلُ الْجِسْــمِ مُمْتَنِــعُ الْقِيَــامِ شَدِيْدُ السُّكْرِ مِنْ غَيْرِ الْمُدَامِ[2]

لَقَدْ اختارَ الْأُدَبَاءُ مِنَ البيئةِ كَثِيْراً من المَشَاهِدِ لرسمِ صورٍ كنائيَّةٍ يبثُّونَ مِنْ خِلَالِهَا أحزانَهُم، وتبرُّمَهُم مِنَ الحَيَاةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ فِيْ (المَقَامَة الهزليَّة): "فلبثتُ بَعْدَهَا طَوِيلاً، أُرَدِّدُ زفرةً، وعويلاً، وأنوحُ بُكْرَةً، وأصيلاً، حَتَّى حالَ عليها الحولُ، وآلتِ الفريضةُ إِلَى العولِ"[3]. فَإِنَّ قَوْلَهُ: (وآلتِ الفريضةُ إِلَى العولِ) كنايةٌ عن زيادةِ مدَّةِ البكاءِ عَلَى هَذَا القدرِ المفروضِ لَهَا، مع ما حَمَلَتْهُ الكنايةُ أيْضَاً من شِدَّةِ الحزنِ.

بَرَعَ الْأُدَبَاءُ في رَسْمِ صورةِ السَّآمةِ، والملَلِ، وعدمِ القدرةِ عَلَى الهجوعِ في ليلٍ كموجِ البحرِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الهزليَّة): "فبتُّ عِنْدَه بليلةِ الملسوعِ، وعيني لا يأخذُهَا الهجوعُ"[4]. والعبارةُ كنايةٌ عن طولِ اللَّيْلَةِ، وهذه الْكِنَايَةُ تعلَّقَ بها الشُّعَرَاءُ كَثِيْراً كُلَّمَا قَصَدُوا وصفَ اللَّيْلِ وطولِهِ وهمومِهِ، وهي صورةٌ مألوفةٌ في مُعْجَمِ الشُّعَرَاءِ العربِ.

لَقَدْ وَظَّفَ الْأُدَبَاءُ التَّشْكِيلَ الكنائيَّ للتَّعْبِيرِ عن عِظَمِ المُصَابِ، وتصويرِ حجمِ الألمِ الَّذِيْ يشعرُ به الْإِنْسَانُ إِثْرَ تجربةٍ مريرةٍ عاشَهَا، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "ثُمَّ التفتَ إليَّ مُستعبراً، وقالَ: وأنتَ فَمَا ترى، قُلْتُ: واللهِ إِنَّهَا لإحدى الكُبَرِ، وَمُعْضِلَةٌ تفيضُ لها العِبَرُ"[5]. فَإِنَّ قَوْلَهُ: (ومعضلةٌ تفيضُ لها العبرُ) كنايةٌ عن عَظمةِ المُصَابِ، مع ما أضفى الفعلُ الْمُضَارِعُ (تفيضُ)، وما فيه من تجدُّدٍ واستمرارٍ واستحضارٍ للصُّورةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وجمع كلمةِ (العِبَر) مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى إِلَى الْكِنَايَةِ من جَمَالٍ يُؤَكِّد هَوْلَ المُصَابِ الَّذِيْ تفيضُ لَهُ العَبَرَاتُ، وعِظَمَ الخَطْبِ الَّذِيْ تهتزُّ لَهُ المَشَاعِرُ.

وَلَعَلَّ تجاربَ الْأُدَبَاءِ الذَّاتيَّةَ، وحالاتِهِم النَّفسيَّةَ الَّتِيْ تقفُ سدَّاً منيعاً في سبيلِ الْوُصُولِ إِلَى أهدافِهِم، وتحقيقِ آمالِهِم كَانَتْ دافعاً لهم لإبداعِ مزيدٍ مِنَ التَّشْكِيلاتِ الكِنَائيَّةِ الَّتِيْ زيَّنتْ نُصُوْصَهُم المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الأزهريَّة): "فَإِنَّ الفوائدَ

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص302).

[2] الْمُتَنَبِّي، دِيْوَان الْمُتَنَبِّي، (ص484).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الهزليَّة)، (ص101).

[4] المَرْجِع السَّابِق، ص106، ص107.

[5] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص132).

تُشْتَرَى بالذَّخائرِ، فترنَّحتْ أعطافُ الشَّيْخِ ابتهاجاً بالظَّفَرِ، وقَالَ: إنَّ النَّاسَ يستنزلونَ البَدْرَ بالبِدْرِ[1]. فَقَوْلُهُ: (البَدْر) كنايةٌ عن الأمرِ البعيدِ المنالِ.

والْأُدَبَاءُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ شَأْنُهُم شَأْنُ أندادِهِم الآخرينَ لَهُمْ أسلوبُهُم المُتفرِّدُ، وطريقَتُهُم الخاصَّةُ في بناءِ النَّصِّ، فهم يعتمدونَ بشكلٍ أو بآخرَ عَلَى طاقاتِهِم الإِبْدَاعيَّةِ، وقدراتِهِم الْفَنِيَّةِ في التَّعامُلِ مع أنظمةِ الُّلغَةِ بشكلٍ يفسحُ المجالَ لموهِبَتِهِم لأنْ تعتلي سُلَّمَ الإِبْدَاعِ في إنتاجِ الصُّورَةِ، فَقَدِ اسْتَطَاعوا أَنْ يستعملوا تقنياتٍ مُتعدِّدةً، وأدواتٍ مُختلفةً في إنتاجِ الدَّلَالَاتِ الإيحائيَّةِ الَّتِيْ ترتبطُ بالتَّشْكِيلِ الكنائيِّ، وقد تفنَّنَ هَؤلاءِ في هَذَا الضَّرْبِ ربَّما لِأَنَّ عدمَ التَّصْريحِ يحملُ في طيَّاتِهِ مزيداً من الْجَمَالِ لحاجَتِهِ إِلَى التَّأَمُّلِ، وإعمالِ الفكرِ، وإثارةِ الذِّهْنِ.

لَمْ يَكْتَفِ الْأُدَبَاءُ بالتَّشْكِيلِ الكنائيِّ المرتبطِ بالصِّفةِ، بَلْ شَكَّلوا كَثِيْراً منها معتمدينَ عَلَى الْمُقَابَلَةِ بينَ الصِّفَاتِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الشَّاميَّة): "دخلتُ يا ابنَ أخي هَذَا البلدَ، وأنا غريبٌ لا سَبَدَ لي ولا لَبَد"[2]. فَقَوْلُهُ: (السَّبد، واللَّبد) كنايتانِ عن صفتينِ، وهما: القلَّة، والكثرة.

وَكَذَلكَ لَمْ يكتفِ الْأُدَبَاءُ بالْكِنَايَةِ عن الصِّفةِ، بَلْ طرقوا أَيْضَاً أبواباً كَثِيْرةً لتشكيلِ صورٍ كنائيَّةٍ ترتبطُ بالموصوفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "فَلَمَّا فَرَغَ من سحرِهِ السَّحَريِّ، انهالَ عليه الشَّمْسيُّ، والْقَمَريُّ"[3]. فَقَوْلُهُ: (الشَّمْسيّ، والْقَمَريّ) كنايتانِ عن موصوفينِ، وهما: الدِّينار، والدِّرْهم.

كَذَلِكَ حَاوَلَ الْأُدَبَاءُ توظيفَ مَجْمُوْعَةٍ من الصُّورِ الكِنَائِيَّةِ بثُّوا مِنْ خِلَالِهَا قيماً إنسانيَّةً ساميةً، جادتْ بها قَرَائِحُهُم من منظارٍ لطيفٍ، كَانَتْ نتيجتُهُ توجهها بفضائلَ رفيعةٍ في سلوكِهَا العامِّ والخاصِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "وهم ضُرَّابُ السُّيُوفِ، وشُرَّابُ الحُتُوفِ، وقُرَاةُ الضُّيوفِ، وحُبَاةُ الأُلُوفِ، وحُمَاةُ السُّجُوفِ"[4]. وهذه كناياتٌ متتابعةٌ عن الشَّجاعةِ، والكرمِ، وحمايةِ الحرماتِ. كَمَا وَظَّفَ اليَازْجِيّ صيغَ الجمعِ (ضُرَّاب) مع (السُّيوف)، و(شُرَّاب) مع (الحُتُوف)، و(قُرَاة) مع (الضُّيوف)، و(حُبَاة) مع (الأُلُوف)، و(حُمَاةُ) مع (السُّجُوف) للدَّلالة عَلَى تكرارِ الحدثِ عَلَى سبيلِ المبالغةِ والكثرةِ، وتأكيدِ القُوَّةِ، والقدرةِ الفائقةِ في ساحاتِ الوَغَى،

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الأزهريَّة)، (ص69).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الشَّاميَّة)، (ص24، ص25). السَّبد: الشَّعر، واللبد: الصُّوف.

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الكوفيَّة)، (ص66).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة التَّغلبيَّة)، (ص88). السُّجُوف: السّتور.

وميادينِ النِّزالِ، حَيْثُ لا مجالَ للهزيمةِ، ولا متَّسَعَ للضَّعفِ، فالعربيُّ بطبعِهِ هَكَذَا، وفي المقابلِ، وفي وقتِ السِّلْمِ يجمعُ العَرَبِيُّ في جعبته كلَّ مكارمِ الأَخْلَاقِ، فهو بينَ الكرامِ أكرمُهُم، وبينَ أهلِ الجودِ أجودُهُم، وبينَ ناصري الضُّعفاء، وحامي الحرماتِ أوَّلُهُم.

لَقَدْ طَرَقَ الْأُدَبَاءُ كَثِيْراً من الأبوابِ لتشكيلِ صورٍ كنائيَّةٍ تكشفُ عن كَثِيْرٍ من الصِّفَاتِ الَّتِيْ عشقها أصحابُ الذَّوقِ الرَّفيعِ، والحسِّ المرهفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "قَالُوا للهِ دَرُّكَ أيَّها الجندلة، فما تقولُ في المسألةِ"[1]، فَقَوْلُهُ (الجندلة) كنايةٌ عن صفةٍ، وهي المتانة في الحجَّةِ. وفي المقابلِ وظَّفوا مَجْمُوْعَةً من الصُّورِ الكنائيَّةِ حذَّروا مِنْ خِلَالِهَا من أخلاقٍ ذميمةٍ تعافُهَا النَّفْسُ، كالرّشوةِ وشربِ الخمرِ، ومن مَشَاهِدِ هذه الصُّورِ قولُ ناصيفِ اليَازْجِيّ في (المَقَامَة العاصميَّة): "ولا تَبِعِ الحقَّ بالمالِ، فذاك بئسَ الأعمال... ثُمَّ انْطَلَقَتْ بي إِلَى الخانِ، وأنا كشاربِ ابنةِ الحانِ"[2]. فَقَوْلُهُ: (لا تبع الحقَّ بالمالِ) كنايةٌ عن موصوفٍ، وهو الرّشوة، وَقَوْلُهُ: (ابنة الحانِ) كنايةٌ عن موصوفٍ، وهو الخمر.

إنَّ النَّظرةَ الصَّائبةَ إِلَى الصُّورَةِ الأَدَبيَّةِ تأتي من قدرتِهَا عَلَى تركِ أثرٍ عِنْدَ المُتَلَقِّي، ويأتي ذلك من تداخلِ التَّلويناتِ الْبَيَانِيَّةِ لتشكيلِ صورةٍ فنيَّةٍ في تراكيبَ لغويَّةٍ مشتركةٍ تتصهرُ جَمِيْعَاً فِيْ بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ، يُعَبِّرُ عنها الْأَدِيْبُ "مستخدماً طاقاتِ الُّلغَةِ، وإمكاناتِهَا في الدَّلَالَةِ والتَّرْكيبِ، والْإِيْقَاعِ، والْحَقِيْقَةِ، والمجازِ، والتَّرادُفِ، والتَّضادِ، والْمُقَابَلَةِ، والتَّجانُسِ، وغيرِهَا ومن وسائلِ التَّعْبِيرِ الْفَنِّيِّ"[3]. وهَذَا ما جسَّدَهُ شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيّ عِنْدَما آلَفَ بينَ التَّشْكِيلِ الاستعاريِّ، والتَّشْكِيلِ الكنائيِّ، وارتكزَ عَلَى بثِّ الحَيَاْةِ في الماديَّاتِ، والمَعْنَوِيَّاتِ، وحينها ترتقي الأَشْيَاءُ إِلَى مرتبةِ الأحياءِ، يَقُوْلُ: "فَلَمَّا عَطَسَ الصَّباحُ، شمَّتَتْهُ كلُّ ذاتِ جناحٍ"[4]. فقد استحالَ الصَّباحُ إنساناً يعطسُ، وارتدَّتِ الطُّيورُ رجالاً تُشَمِّتُ هَذَا العاطسِ، مع ما يحملُهُ التَّشْكِيلُ الاستعاريُّ من جمالٍ تمثَّلَ في اسْتِنْطَاقِ عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ (الصَّباح)، و(كلّ ذات جناحٍ).

لَقَدْ بَرَعَ شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيّ فِيْ تَشْكِيْلِ بنيةٍ استعاريَّةٍ، وأُخْرَى كنائيَّةٍ مزدوجةٍ، وظَّفهما توظيفاً رائعاً مُعْتَمِدَاً عَلَى دالين هما: دال (الصَّباح)، ودال (كلّ ذات جناح)، وكأنِّي به يُحَاوِلُ استلهامَ أدب الصَّعـاليكِ فِيْ تَشْكِيْلِ الْكِنَايَةِ عن موصوفٍ، وهو الطَّير فِيْ قَوْلِهِ: (كلّ

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الصَّعيديَّة)، (ص30). الجندلة: الصَّخرة.

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة العاصميَّة)، (ص114).

[3] القطّ، الاتِّجاه الوجدانيّ في الشِّعر العربي الْمُعَاصِر، (ص391).

[4] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا (مَقَامَة الغربة)، (ص383).

ذات جناحٍ)، حَيْثُ تردَّدتِ العبارةُ كَثِيْراً عِنْدَ الشُّعَرَاء الصَّعاليك، فَلَمْ يبرحْ هَؤلاءِ هَذَا المَشْهَدَ الكنـــائيَّ، ومن مَشَاهِدِهِ قَوْلُ تَأَبَّطَ شَرًّا:

لَاْ شَيءَ أَسْرَعُ منِّي ليْسَ ذَا عُذَرٍ وَذَا جَنَـاحِ بجنْـبِ الرَّيْـدِ خَفَّـاقِ[1]

تَتَوَشَّحُ النُّصُوْصُ المَقَامِيَّةُ بالبِنَى المتجاورةِ الَّتِيْ تَدُلُّ دلالةً قاطعةً عَلَى ذكاءِ الكُتَّابِ، وقدراتِهِم الفائقةِ، وامتلاكِهِم لزمامِ اللُّغَةِ، وممن نهجوا ذلك النَّهجَ في الجمعِ بين الصُّورِ الْبَيَانِيَّةِ ابنُ مَيْمُون الجزائري، يَقُوْلُ: "قدْ صَقَلَ غَمَامُ العدلِ أزهارَ الوُجوهِ حتى أذهبَ طيشَهَا، وسقى فأروى عطشَهَا، ثم أسَّست الدَّولة الَّتِيْ أرجتْ نفحاتها، وتفتَّحتْ أكمامُ عدلِهَا، وأفصحتْ حمائمُ الثَّناءِ عَلَى أهلها، وتجرَّدتْ جداولُ كرمِهَا، ورمقتْ عيونُ الأماني وجوهَ حشمِهَا"[2].

إنَّ تداخلَ البِنَى المتجاورةِ في الفقرةِ السَّابِقَةِ وَضَعَ أَمَامَنَا صورةً مكتملةَ الأركانِ للدَّولةِ الفتيَّةِ، الَّتِيْ يفخرُ الْأَدِيْبُ بها مِنْ خِلَالِ تشكيلاتِهِ المُتَنَوِّعَةِ الَّتِيْ بدأها بِبِنْيَةٍ تشبيهيَّةٍ بليغةٍ، صوَّر فيها العدلَ بالغمامِ فِيْ قَوْلِه: (غمام العدل)، ثُمَّ تابعَ بتجسيمِ المعنويِّ، وهو العدل في صورةٍ حسيَّةٍ مِنْ خِلَالِ تشكيلٍ استعاريٍّ فِيْ قَوْلِه: (تفتَّحتْ أكمامُ عدلِهَا)، وانتهى بتشخيصِ المعنويِّ في صورةِ إنسانٍ تحرسُ عيونُه الآخرينَ في تشكيلٍ استعاريٍّ آخرَ فِيْ قَوْلِه: (رمقتْ عيونُ الأماني وجوهَ حشمِهَا). فبدتْ وجوهُ المحاسنِ، ومحاسنُ الوجوهِ تلفُّ الدَّولةَ، وتحمي أركانَهَا، وتدعمُ قواعِدَهَا، وقد أكملَ الجمع بين التَّشكيلاتِ البلاغيَّةِ المتنوِّعةِ الجمال الآخَّاذ.

يُدْرِكُ الْمُتَتَبِّعُ للتَّشكيلاتِ الكنائيَّةِ دورها في الارتقاءِ بالنَّصِّ الأَدَبيِّ، وهَذَا ما صرَّحَ بِهِ الإمامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيّ قَائِلَاً: "إذا فَعَلوا ذلك بدتْ هُنَاْكَ محاسنُ تملأُ الطَّرفَ، ودقائقُ تُعجِزُ الوَصْفَ، ورأيتَ هُنَاْكَ شعراً شَاعِرَاً، وسحراً ساحراً، وبلاغةً لا يكمل لها إلَّا الشَّاعِرُ المفلقُ، والخطيبُ المصْقع، وكَمَا أَنَّ الصِّفةَ لا تأتي مصرَّحاً بها، مكشوفاً عن وجهها، ولكن مدلولاً عليها بغيرِهَا، كانَ ذلك أفخم لشأنها، وألطف لمكانِهَا، كَذَلِكَ إثباتك الصِّفة تثبتها له، إذا لم تلقه إِلَى السَّامعِ صريحاً، وجئتَ إليه من جانبِ الْكِنَايَةِ، والتَّعريضِ، والرَّمزِ، والإشارةِ، كان له من الفضلِ والمزيةِ، ومن الحسنِ والرَّونقِ، ما لا يقل قليله، ولا يُجهل موضعُ الفضيلةِ فيه"[3].

لَقَدْ اسْتَطَاع كُتَّابُ المَقَامَةِ أن يمنحوا نصوصَهُم سمةَ التَّأثيرِ؛ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تجاوزِ البناءِ اللُّغويِّ للنَّصِّ إِلَى ما هو ضمنيٌّ فيه؛ لِأَنَّ الشَّيْء الضِّمْنِيَّ هو الَّذِيْ يكونُ مصدُرُهُ تأثيراً

---

[1] تأبَّط شراً، دِيْوَان تأبَّط شراً وأخباره، (ص129).

[2] الجزائريّ، التُّحفة المرضيَّة، (ص126).

[3] الْجُرْجَانِيّ، دَلَائِل الإعْجَاز، (ص306).

فعَّالاً يُعدُّ النَّصَّ تكتيكاً لغويَّاً، أي إجراء تداخلٍ بين البِنَى المتجاورةِ، وفنونِ البيانِ الأُخْرَى؛ إذْ يتحوَّلُ به الْأُسْلُوبُ من معناه الاعتياديِّ، إِلَى معناه غير الاعتياديِّ؛ لِأَنَّ الْأَدِيْبَ انتهكَ قوانينَ العادةِ، وأنتجَ لنا أدباً يَنْبِضُ بالدَّهشةِ والإثارةِ الَّتِيْ تجدُ لها صدىً في نفسِ المُتَلَقِّي، الَّذِيْ يقومُ بربطِ أجزائِهَا وإنتاجِهَا عَلَى شكلِ صورةٍ، تعبِّرُ عن ذلك التَّحوُّلِ للغةِ فِيْ الْمَقَامَةِ من كونها انعكاساً للعالمِ أو تعبيراً عنه، أو موقفاً منه، إِلَى أنْ تكونَ هي نفسها عالماً آخرَ رُبَّمَا بدلاً عن ذلك العالمَ، فَكُلَّمَا كانَ الْكَلَامُ قادراً عَلَى سحرِ المُتَلَقِّي، وحمله عَلَى التَّخيُّلِ كانَ الْكَلَامُ نَصَّاً أدبيَّاً، وبهَذَا امتلكَ كُتَّابُ المَقَامَةِ كلَّ مقوماتِ الإِبْدَاعِ الْفَنِّيِّ مِنْ خِلَالِ تركيبِ تشكيلاتٍ بلاغيَّةٍ قائمةٍ عَلَى تداخلٍ فنيٍّ جميلٍ يتجاوزُ كلَّ حدودِ الْجَمَالِ، ويتخطَّى جميعَ حواجزِ الإِبْدَاعِ في النُّصُوْصِ الأَدَبيَّةِ، أو قُلْ إنْ شئتَ فِيْ النَّصِّ المَقَامِيِّ.

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: الْمَجَازُ الْمُرْسَلُ

وَمِنْ ألوانِ البَيَانِ فِيْ الْبَلَاْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، الْمَجَازُ الْمُرْسَلُ؛ وهو "ما كَانَتْ الْعَلَاقَةُ بينَ ما استعملَ فيه، وما وُضِعَ له ملابسة غير التَّشْبِيْهِ"[1]. وعرَّفه آخَرُوْن بِقَوْلِهِم: "هو نوعٌ من المجازِ اللُّغويِّ، وعلاقتُهُ غيرُ المشابهةِ، بِمَعْنَى أنَّ لـه عدَّةَ علاقاتٍ باعتباراتٍ مختلفةٍ، ولهَذَا سُمِّيَ مُرْسَلَاً؛ لِأَنَّه أُرسِلَ، وأُطْلِقَ من الْعَلَاقَةِ الواحدةِ"[2]. وَسُمِّيَ بالمُرسَلِ؛ لِأَنَّهُ غيرُ مُقيَّدٍ بعلاقةٍ واحدةٍ، كَمَا هو الحالُ في الاسْتِعَارَةِ المقيَّدةِ بعلاقةِ المشابهةِ فَقَطْ، ولِأَنَّ علاقاتِهِ كَثِيْرةٌ تتجاوزُ حدودَ الرَّقَمِ الواحدِ، وتتعدَّى حواجزَ المفردةِ الواحدةِ.

وَقَدْ ظهرَ الْمَجَازُ الْمُرْسَلُ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِيْ مَوَاضِعَ قليلةٍ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يرجع إِلَى اهتمامِهِم بالتَّشْبِيْهِ، والاسْتِعَارَةِ، والْكِنَايَةِ، ومن قَبْلِ ذَلِكَ الولوعُ بِالمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيْعيَّةِ خَاصَّةً السَّجْع والتَّجْنِيس، وَمِنْ شَوَاهِدِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ في النُّصُوْصِ المقاميَّةِ، قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "مَنْ لَمْ يُؤخَذْ بالبنانِ، فَخُذْهُ بالسِّنَانِ"[3]. والْمَجَازُ الْمُرْسَلُ هُنَا وقعَ في كلمةِ (البنان) علاقَتُهُ الجزئيَّةُ، فقد عبَّر عن اليدِ بالبنانِ من بابِ تسميةِ الكُلِّ باسمِ الجزءِ، مَعْ مَا حَمَلَهُ المَجَازُ من إعمالٍ للفكرِ، وإثارةٍ للذِّهنِ، إِلَى جانبِ الْبَرَاعَةِ في الإيجازِ.

ويستظلُّ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الرَّمليَّة) بظلالِ الْعَلَاقَةِ الجزئيَّةِ في مشهدٍ آخرَ من مشاهدِ المَجَازِ المُرْسَلِ فِيْ قَوْلِهِ: "ونزلْنَا جَمِيْعَاً عَلَى تلك السِّلامِ، وتطارحنَا السَّلامَ بالسُّلامِ"[4]. والسُّلام (عظام الأصابع) مَجَازٌ مُرْسَلٌ عن الأيدي، علاقَتُهُ الجزئيَّةُ، فقد عبَّرَ عن اليد بالسُّلامِ من بابِ تسميةِ الكُلِّ باسمِ الجزءِ.

ويَنْطَلِقُ شهابُ الدِّينِ الخَفَاجِيّ من بساتينِ الْعَلَاقَةِ الجزئيَّةِ إِلَى حقولِ الْعَلَاقَةِ السَّببيَّة فِيْ قَوْلِهِ: "وأصابِعُهُ تشيرُ لكنوزٍ خصبةٍ تُستخرَجُ من معادنِ أقطارِهِ، إلا أنَّ أصابعَ النَّاسِ في الرَّاحةِ والأيادي، وفي أصابِعِهِ أيادٍ لكلِّ حاضرٍ وبادي"[5]. والْعَلَاقَةُ هنا سَبَبِيَّةٌ بِمَعْنَى إطلاقِ السَّببِ وإرادة المُسَبَّبِ. والشَّاهدُ (أيادٍ)، والْعَلَاقَةُ في الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ في كلمةِ (أيادٍ) سببيَّةٌ، حَيْثُ أَطْلَقَ السَّببَ، وهو: (أيادٍ)، وأرادَ المُسَبَّبَ وهو (الخير). وتتكرَّرُ الْعَلَاقَةُ السَّبَبِيَّةُ في مَقَامَاتِ عَبْد الله

---

[1] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح: (ص379).

[2] الجربيّ، الْبَلَاغَة التَّطبيقيَّة، (ص207).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة اليمنية)، (ص30).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الرَّملية)، (ص114). السُّلام: عظام الأصابع.

[5] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدَّنيا، (المَقَامَة السَّاسانيَّة)، (ص390).

فِكْرِيّ، فِيْ قَوْلِه: "وَكَانَ لَهُ يدٌ في صنائعَ لطيفةٍ، ومعرفةٌ ببعض عُلُوْمٍ شريفةٍ"[1]، كَمَا تظهرُ ذاتُ الْعَلَاقَةِ في (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات) فِيْ قَوْلِ بَهَاءِ الدِّينِ الْبِيْطَار: "ولي إليهم أيادٍ وأيّ أيادٍ، حِيْنَمَا يصدُّونني للصَّومِ والأعيادِ"[2].

ويعودُ ابنُ مَيْمُون الجزائريّ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، ليشكِّلَ مَجَازَاً مُرْسَلَاً يحملُ علاقةً جزئيَّةً، يَقُوْلُ: "نسألُهُ تَعَالَى أنْ يجعلَ هذه الحادثةَ آخرَ حوادثِهِ، وأعظمَ موارِثِهِ، تنعمُ باله وخاطره، وتقرُّ عينه وناظره"[3]. والْعَلَاقَةُ هنا جزئيَّةٌ بِمَعْنَى إطلاقِ الجزءِ، وإرادةِ الكُلِّ. والشَّاهدُ (عينه)، والْعَلَاقَةُ في الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ في كلمةِ (عينه) جزئية، حَيْثُ أَطْلَقَ الجزءَ وهو، (عينه)، وأرادَ الكُلَّ، وهو (الْإِنْسَان). قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣].

وَبَعْدُ فَقَدْ كَتَبَ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ نُصُوصَهُم فأجادوا، ونظموا الكَلِمَاتِ فأبدعوا، ورسموا اللَّوْحَاتِ الْفَنِيَّةَ فبَرَعُوا، وساروا عَلَى خُطَى سابقيهم فاقتدوا، وفاقوا، واستلهموا تراثَ أمثالِهِم فأحسنوا. وردوا مَنَاهِلَ التَّشْبِيْهِ فنسجوا صُوراً حملتْ كُلَّ معالمِ الْجَمَالِ، واستحالتِ الدَّلَالَاتُ المُعْجَميَّةُ بين أَنَامِلِهِم أشكالاً جديدةً تحملُ دلالاتٍ نفسيَّةً ووجدانيَّةً لَمَّا سَافَرو بعيداً في عَوَالِمِ الْخَيَالِ، وولجوا عَوَالِمَ الاسْتِعَارَةِ فشكَّلوا لَوْحَاتٍ سَاحِرَةً، ارتدَّتْ باقاتِ زهرٍ نشرتْ عبيرَهَا في كلِّ الفَضَاءَاتِ، وقَصَدُوا الْكِنَايَةَ فسبروا أَغْوَارَها، وغاصوا فِيْ أَعْمَاقِهَا.

نظموا مِنَ التَّشْكِيلاتِ التَّشْبِيْهيَّةِ مَا سَرَّ السَّامِعِيْنَ، وَمِنَ التَّلويناتِ الاسْتِعَارِيَّةِ مَا سَدَّ رَمَقَ المُتَعَطِّشِيْنَ، وَمِنَ الصُّورِ الكنائيَّةِ مَا أَبْهَرَ ألبابَ المتذوِّقينَ، فَلَمْ يدعوا دَرْبَاً من دُرُوْبِ الْجَمَالِ إِلَّا سلكوه، ولا سبيلاً منِ سُبُلِ الحسنِ إِلَّا قصدوه، ولا بَابَاً مِنْ أَبْوَابِ الْبَهَاءِ إِلَّا طَرَقُوْهُ، وَكَأَنِّي بهم قَدْ امتلكوا زمامَ اللُّغَةِ والفَصَاْحَةِ، وأَعِنَّةَ البيانَ والبَلَاْغَةَ، وَفَوْقَ كلِّ هَذَا وذاك وظَّفوا عَوَالِمَ جديدةً، فغدتْ صورُهُم مَنَاهِلَ تفيضُ بالطَّاقاتِ الإيحائيَّةِ، واستحالتْ أخيلتُهُم لآلِئَ تتوهَّجُ بالأَلْوَانِ الْجَمَاليَّةِ، ودُرَرَاً تُضِيءُ سطورَ مقاماتِهِم مِنْ جهةٍ، ونماذجَ حيَّةً نابضةً بالْحَرَكَةِ تفتنُ القُلُوْبَ، وتُبْهِرُ الأَلْبَاْبَ والعُقُوْلَ من جهَاتٍ أُخْرَى. وَفَوْقَ هَذَا وذاك فَإِنَّ هذه الرَّوَائِعَ كتبتْ لهَذَا الفَنِّ السَّبْقَ، وسجَّلتْ لهَذَا العَصْرِ حَقَّ المنافسةِ والتَّقدُّمِ.

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (مَقَامَة العمال والبطال)، (ص311).

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مناظرة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص65).

[3] الجزائريّ، التُّحفة المرضيَّة، (ص137).

الْفَصْـــلُ الثَّـالِثُ

التَّشْكِيْـلُ البَدِيْعِيُّ

فِـــيْ

الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

الْفَصْلُ الثَّالِثُ: جَمَالِيَّاتُ التَّشْكِيْلِ البَدِيْعِيِّ فِيْ الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

البَلَاْغَةُ ألوانٌ وأفنانٌ، والبَدِيْعُ عالمٌ واسعٌ من الْجَمَالِ يُشَارُ إليه بالبنانِ، وبحرٌ عظيمٌ بِهِ الْجَمَالُ كامنٌ، والْبَهَاءُ ساكنٌ، والحُسْنُ فاتنٌ، وألوانُ البَدِيْعِ من الكثرةِ بحَيْثُ لا يمكنُ حَصْرهَا، فقد اكتشفَ الْبَلَاغِيُّونَ في النُّصُوْصِ الْبَلِيْغَةِ ذاتِ البيانِ الرَّفيعِ منثوراتٍ جَمَالِيَّةً متفرِّقةً لفظيَّةً، ومعنويَّةً، وهذه المتفرقاتُ المتناثراتُ في صفحاتِ الكُتُبِ يَعْسُرُ تأليفها في أبوابٍ وفُصُوْلٍ، وقَدْ أعطى هَؤلاءِ أسماءَ لهذه المنثوراتِ المُتَنَوِّعَةِ، وجمعوها في مُسَمَّى علمٍ واحدٍ أَطْلَقوا عليه (علم البَدِيْعِ)، وهذه الْجَمَالِيَّاتُ البَدِيْعيَّةُ ضربانِ، منها جَمَالِيَّاتٌ معنويَّةٌ (مُحَسِّنَاتٌ معنويَّة)، وَمِنْهُا جَمَالِيَّاتٌ لفظيَّةٌ (مُحُسِّنَاتٌ لفظيَّةٌ).

وَتَتَعَدَّدُ وجهاتُ نظرِ العُلَمَاْءِ في التَّعْرِيفِ بهَذَا الفَنِّ، فعَلَى الرَّغْمِ من كثرةِ من تناولَ تعريفِ علمِ البَدِيْعِ، إلَّا أنَّ معظمَ هذه التَّعْرِيفاتِ تدورُ في فلكٍ واحدٍ، فالبَدِيْعُ من وجهةِ نظرِ بعضِهِم: "علمٌ يُعْرَفُ بِهِ وجوهُ تحسينِ الْكَلَامِ بَعْدَ رعايةِ تطبيقِهِ عَلَى مقتضى الحالِ، ووضوحِ الدَّلَالَةِ"[1]. والمُحَسِّنَاتُ الْجَمَالِيَّةُ الَّتِيْ تكسو الْكَلَامَ حُلَّةَ التَّزيينِ، قسمانِ: "قِسْمٌ يرجعُ إِلَى الْمَعْنَى، وَقِسْمٌ يرجعُ إِلَى اللفظِ"[2].

والنُّصُوْصُ المَقَامِيَّةُ لوحاتٌ فنيَّةٌ عامرةٌ بألوانِ البَدِيْعِ، تتزيَّنُ صفحاتُهَا بهذه الأَلْوَاْنِ، وتزدانُ كَثِيْرٌ من كلماتِهَا بروائعِ هَذَا الفَنِّ، وقد رأى بعضُ العُلَمَاْءِ أنَّ روعةَ المَقَامَاتِ تُعرَفُ من جهةِ ما تتضمَّنُهُ من البَدِيْعِ، وقَصَدُوا بالبَدِيْعِ هنا ألوانَ البَيَانِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وفنونَ البَدِيْعِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

وَلَا يُمكِنُ أَنْ يُنْكِرَ أحدٌ أنَّ النُّصُوصَ المَقَامِيَّةَ تزدانُ بألوانِ البَدِيْعِ، ويأتي في مقدِّمةِ هذه الأَلْوَاْنِ السَّجْعُ، والازدواجُ، والتَّجْنِيسُ، ويكفي هَذَا الفَنّ خُصُوْصِيَّة في هَذَا الجَانِبِ ما حَمَلَتْهُ صفحاتُهُ الْمُتَعَدِّدَةُ من ألوانِ البَدِيْعِ المُخْتَلِفَةِ، فلا تكادُ تخلو صفحةٌ من لونٍ بديعيٍّ، بَلْ قد لا تمرُّ مقطوعةٌ من مقطوعاتِه، أو سَطْرٌ من أسطرِهِ إلَّا ويتوشَّحُ بفَنٍّ من فنونِهِ الْبَارِعَةِ، الَّتِيْ أضاءتْ بروعتِهَا وأناقتِهَا صفحاتِ النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ.

وَعَوْدَةٌ إِلَى النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ؛ فقد حَفَلَتْ هذه النُّصُوصُ بفنونِ البَدِيْعِ، وتزيَّنتْ بألوانٍ متعدِّدةٍ من هذه الفُنُوْنِ؛ وَمِنْهُا: الطِّبَاق، الْمُقَابَلَة، والتَّوْرِيَة، والسَّجْع، والجِنَاس، والاقْتِبَاس، العكس والتَّشْطِيْر....إِلَى جانبِ الأَلْوَاْنِ الأُخْرَى الَّتِيْ تضمَّنَتْهَا، والَّتِيْ

---

[1] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص477).

[2] السَّكاكيّ، (ص423)، يُنْظَر: الْمَيْدَانِيّ، الْبَلَاغَة الْعَرَبِيَّة أسسها وعلومها وفنونها، (ج369/2).

يُمْكِنُ رصدها مِنْ خِلَالِ مبحثينِ رئيسينِ يشتملُ كلٌّ منهما عَلَى ألوانٍ بديعيَّةٍ، تجذبُ أسماعَ المتلقِّينَ، وتخلبُ ألبابَ المتذوِّقينَ.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: المُحَسِّنَاتُ البَدِيْعِيَّةُ الْمَعْنَوِيَّةُ

تعدَّدتِ المُحَسِّنَاتُ البَدِيْعيَّةُ الْمَعْنَوِيَّةُ، وتلألأتْ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ حَتَّى غَدَتْ أشبهَ بشموسٍ مشرقةٍ، وأقمارٍ بازِغةٍ، أضاءتْ سماءَ المَقَامَاتِ، وَمِنْ هذه المُحَسِّنَاتِ:

1- الطِّبَاقُ

الطِّبَاقُ لُغَةً واصْطِلَاحاً

الطِّبَاقُ لُغَةً، مَأْخُوْذٌ مِنَ الْفِعْلِ الثُّلاثِيِّ (طَبَقَ) وهو وضعُ الرِّجلِ موضعَ اليدِ في مشيِ ذواتِ الأربعِ، وفي مُعْجَمِ الصَّحَاحِ: "طابقتُ بينَ الشَّيئينِ، إذا أجمعت بينهما عَلَى حذوٍ واحدٍ، وألزقتهما"[1]، ويسمى الْمُطَابَقَة، والتَّضَاد، والْمَقْصُودُ بالطِّبَاقِ: "الجمع بين المتضادينِ، أي معنيينِ متقابلينِ في الجملةِ"[2].

الطِّبَاقُ اصْطِلَاحاً:

أجمعَ العُلَمَاْءُ أنَّ "الْمُطَابَقَةَ في الْكَلَامِ هي الجمعُ بينَ الشَّيْءِ وضدِّه"[3]، أو الجمعُ بين متضادينِ، أي معنيينِ متقابلينِ في الجملةِ، وفي اصطلاحِ رجالِ البَدِيْعِ يُسَمَّى الْمُطَابَقَة، والطِّباق، والتَّضاد، والتَّكافؤ، وينقسمُ إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ: "طباق الإيجابِ، وطباق السَّلبِ، وطباق التَّرديدِ"[4].

وَلَمْ يَعُدِ البَدِيْعُ مجردَ رصدٍ للألوانِ البَدِيْعيَّةِ، بَلْ تجاوزَ ذَلِكَ إِلَى مَعَانٍ أكثرَ فاعليَّةً في التَّحسينِ، والتَّجميلِ، فقد أصبحَ "أداةً تعبيريَّةً يعتمدُ الفارقةَ الحسيَّةَ والْمَعْنَوِيَّةَ لغةً بذاتِهَا، كَمَا يجعلُ من الْإِيْقَاعِ التَّكْرَارِيِّ خاصيَّةً بذاتِهَا، وكُلُّ ذَلِكَ يُمَثِّلُ عمليَّةَ تنظيمٍ للأدواتِ التَّعبيريَّةِ الَّتِيْ كانَ الإلحاحُ عليها وسيلةً لقبولِهَا أوَّلاً، ثُمَّ الإعجاب بها ثانياً"[5].

---

[1] الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج4/1512). مادة (طَبَقَ).

[2] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص477)، يُنْظَر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيَّة وتطورها، (ص522).

[3] العسكريّ، الصِّناعتين، (ص399).

[4] المصريّ، تحرير التَّحبير، (ص112).

[5] عَبْد الْمُطَّلِب، الْبَلَاغَة الْعَرَبِيَّة قراءة أخرى، (ص348).

إنَّ بِنْيَةَ التَّقابلِ هي أكثرُ البِنَى انتشاراً في الخطابِ اللُّغوِيِّ عموماً، والأَدَبيِّ خصوصاً، وبرغمِ اعتمادِهَا عَلَى التَّخالفِ، فهي تعتمدُ عَلَى خطَّينِ متقابلينِ، كالسَّوَادِ والبياضِ، والحضورِ والغيابِ.

والمَقَامَاتُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ توشَّحَتْ بالطِّبَاقِ، فَلَمْ يكتبِ الْأُدَبَاءُ مَقَامَةً إِلَّا وزيَّنوها بهَذَا اللَّوْنِ، وَمِنْ رَوَائِعه قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الهزليَّة): "فقلتُ لَهُ شَهِدَ اللهْ أَنَّكَ لأمكرُ أهلِ الخافقينِ، وأقدرهم عَلَى الزَّيْنِ والشَّيْنِ، قالَ يا بُنَيَّ إنَّ الخَلَّةَ تدعو إِلَى السَّلَّةِ، والصِّدقُ خمرٌ مزاجُهَا الكذبُ، والجدُّ ثوبٌ طرازُهُ اللَّعِبُ"[1]. فالجمعُ بينَ (الزَّيْن، والشَّيْن)، و(الصِّدق، والكذب)، (والجدّ، واللعب) يأتي عَلَى تداخلِ الطَّرفينِ تداخلاً كاملاً، يُنتجُ حالةً وجوديَّةً جديدةً، وهذه الحالةُ من الضِّديَّةِ تملأُ السِّياقَ بمساحةٍ شاسعةٍ من الوضوحِ والبَيَانِ، وتبتعدُ عن الْغُمُوْضِ والخفاءِ.

وَمِنَ الطِّبَاقِ كَذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الهزليَّة): "فجنحتُ عن الْقَمَرِ إِلَى السَّمَرِ، وأخذتُ لنفسي الحذرَ، ولبثتُ أتنكبُ الغمضَ، وأقلِّبُ طرفيَّ بين السَّمَاءِ والْأَرْضِ"[2]. حَيْثُ تَجْمَعُ هذه الدَّفْقَةُ مِنَ النَّصِّ المقاميِّ بين ثنائيَّتينِ تقابليَّتينِ مُوَظَّفة في إنتاج دلالةٍ تجمعُ بينَ السَّمَاءِ، والْأَرْضَ. وهذه الدَّلَالَةُ (السَّمَاء والْأَرْض) تزيَّن بها الْقُرْآنُ الْكَرِيْمُ في كَثِيْرٍ من آياتِهِ، حَيْثُ وردتِ الكلمتانِ مجتمعتينِ في خمسةَ عشرَ موضعاً، منها قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى:﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الْأَنْبِيَاء: 4].

وقد تجمعُ الدَّفقةُ الواحدةُ فِيْ النَّصِّ المقاميِّ مَجْمُوْعَةً من الثُّنائيَّاتِ التَّقابليَّةِ الَّتِيْ تتجاوزُ الرَّقمَ الواحدَ إِلَى رقمٍ أعلَى، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ اليَازْجِيّ في (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة): "ثُمَّ أخذَ في الأجيجِ والضَّجيجِ، وجعلَ يراوحُ بين النَّحيبِ والنَّشيجِ، حَتَّى أبكى مَنْ حَضَرَ، من البدوِ والحضرِ"[3]. فَقَدْ وَظَّفَ الطِّبَاقَ في إنتاجِ دلالةٍ طارئةٍ تجمعُ بينَ (المفارقة، والموافقة) عَلَى صعيدٍ واحدٍ: (الأجيج ، والضَّجيج)، (النَّحيب، و النَّشيج)، و(البدو، والحضر). مَعْ مَا تَحْمِلُهُ الدَّلَالَاتُ من إبرازٍ للمَعَانِي وتوضيحِهَا.

وَمِنَ الطِّبَاقِ الجمعُ بينَ (صادق، وكاذب) فِيْ قَوْلِ شِهَابِ الدِّينِ الخَفَاجِيِّ في (المَقَامَة الرُّوميَّة): "عَلَّ أنْ يفتحَ عينَهُ عَمَّا تثني عليه الحقائب، ويبتسمُ فمُ الأفقِ عن صبحِ وعدٍ صادقٍ

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الهزليَّة)، (ص108).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص102.

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص421، ص422).

أو كاذبٍ"[1]. وَمِنْهُ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "فعرضَ لي رجلٌ أدهمُ، وقالَ آجرتُكَ هَذَا المطهَّمَ، كلّ يومٍ بدرهمٍ...وخرجنا نطوي الوهادَ والرُّبى، بينَ الخَيْزِلَى والهِيْذَبَى"[2]. حَيْثُ جَمَعَ الْأَدِيْبُ بَيْنَ (الوهاد، والرُّبى)، و(الخَيْزِلَى والهِيْذَبَى).

ويُطَابِقُ الْأُدَبَاءْ أَحْيَانَاً في السَّطْرِ الواحدِ بين أكثر مِنْ شَيْءٍ؛ وَذَلِكَ لإيضاحِ الفكرةِ، وإيصالِ الْمَعْنَى الَّذِيْ يريدُهُ المُتَلَقِّي؛ إذِ الأَشْيَاءُ بضدِّها تتَّضحُ. وَمِنْ رَوَائِعِ ذَلِكَ ما نجدُهُ من تتابعِ هَذَا الطِّبَاقِ فِيْ الْمَقَامَةِ الفكريَّة، يَقُوْلُ عَبْدُ اللهِ فِكْرِيّ: "فنظرتُ مِنْ خِلَالِ لمعاتِ الشُّعاعِ، فَإِذَا جماعاتٌ مختلفو الأوضاعِ، متباينو الهيئاتِ، والصُّوَرِ، والطِّباعِ ما بينَ صغيرٍ، وكبيرٍ، وطويلٍ، وقصيرٍ، وقويٍّ، وضعيفٍ، وجسيمٍ، ونحيفٍ"[3]. فَقَدْ طابقَ فكري أربعَ مرَّاتٍ في سطرٍ واحدٍ بين (صغيرٍ، وكبيرٍ)، و(طويلٍ، وقصيرٍ)، و(قويٍّ، وضعيفٍ)، و(جسيمٍ، ونحيفٍ). فتبدو الهيئاتُ واضحةً لا غموضَ فيها ولا خفاءَ. وَلَعَلَّ هَذَا التَّداخلُ في البِنْيَاتِ التَّقابليَّةِ يعطى الْكَلَامَ دفقاتٍ من الوضوحِ، والجَلاءِ، والبَيَانِ.

ويُقدِّمُ عَبْدُ اللهِ فِكْرِيّ فَاصِلَاً عَذْبَاً من الطِّبَاقاتِ المتتابعةِ فِيْ نُصُوْصِهِ المَقَامِيَّةِ، يَقُوْلُ: "وَكَفّهُ عن السُّلوكِ في مسائلِ الغوايةِ، والجهلِ، والكشفِ له عن حقائقِ الخيرِ والشَّرِ، والعرفِ والنّكرِ، والنَّفْعِ والضُّرِ، والحليّ والعاطلِ"[4]. حَيْثُ طَالَعَنَا بطائفةٍ من البِنَى التَّقابليَّةِ المتجاورةِ دونَ فواصلَ ظهرتْ في (الخير، والشَّر)، و(العرف، والنّكر)، و(الَّنفع والضّر)، و(الحليّ، والعاطل). مَعْ مَا تَحْمِلُهُ هذه البِنْيَاتُ من روعةِ الجمعِ بَيْنَ المتقابلاتِ، والَّتِيْ كَسَتِ المَشْهَدَ بالوضوحِ، والجَلاءِ.

وفِيْ مَقَامَتِهِ (في حسن الوفاء) يوظِّفُ عَبْدُ اللهِ فِكْرِيّ الطِّبَاقَ في توضيحِ مَعَانِيه الَّتِيْ قد تبدو أَحْيَانَاً غامضةً للمتلقِّي، يَقُوْلُ: "لا يتحمَّلُ لمخلوقٍ منَّةً ولا مَكْرُمَةً، ولا يرى عليه لغيرِ خالقه نعمةً، فلا يتملَّقُ لغنيٍّ ولا فقيرٍ، ولا ينافقُ لصغيرٍ ولا كبيرٍ، ولا يرزأُ من جليلٍ ولا حقيرٍ"[5]. فقد رَسَمَ لَوْحَةً ثلاثيَّةً عنوانها: الطِّبَاقُ في (غنيٍّ، وفقيرٍ)، (صغيرٍ، وكبيرٍ)، و(جليلٍ، وحقيرٍ). وقد أضفى الصَّوتُ المنبعثُ من الدَّال (الرَّاء) المسبوقِ بحرفِ المَدِّ (الياء) عَلَى المَشْهَدِ جَرْسَاً مُوْسِيْقِيَّاً من نوعٍ خاصٍ، تطربُ له الأَسْمَاعُ.

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلْبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا (المَقَامَة الرُّوْمِيّة)، (ص368).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المصريَّة)، (ص219). الخيزلى: مشية متثاقلة، الهيذبى: مشية سريعة.

[3] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص284).

[4] المَرْجِع السَّابِق، ص277.

[5] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (مَقَامَة في حسن الوفاء)، (ص311).

لَقَدْ أُوْلِعَ الكُتَّابُ بألوانِ البَدِيْع خَاصَّةً الطِّبَاق، وافتتنَ هَؤلاءِ بتتابُعِهَا، ومن توالي الطِّبَاقاتِ اللامتناهيةِ، والَّتِيْ تُضْفِي روعةً عَلَى نصوصِ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق، وترسمُ مقدرتَهُ الفائقةُ فِيْ التَّلَاعُبِ بالْأَلْفَاظِ، والرَّسْمِ بالكَلِمَاتِ، تقديمه لعاشقيه لَوْحَةً بديعةً من روائعِ الطِّبَاقاتِ الَّتِيْ تراها العَيْنُ فتقرُّ بها، وتسمعها الأذنُ فتطربُ لسماعِهَا، يَقُوْلُ في (مقامة مُقْعَدة): "وأَمَّا في أمرِ الْمَرْأَةِ، فالقانعُ العزوفُ يَغْدُو شرهاً رغيباً، والرَّشيدُ غويَّاً، والحليمُ سفيهاً، والمهتدي ضالاً، والحكيمُ عمهاً، والعالمُ جاهلاً، والفصيحُ عييَّاً وبالعكسِ، والصَّبُورُ جزوعاً ولا عكسَ، والفتى شيخاً ولا عكسَ، والغنيُّ فقيراً وبالعكسِ، والفظُّ لطيفاً ولا عكسَ، والسَّمينُ نحيفاً وبالعكسِ، والمُعافَى مُبتلَىً ولا عكسَ، والمثبَّتُ متغشمراً وبالعكسِ، والبخيلُ كريماً ولا عكسَ، والسَّاكنُ متحركاً وبالعكسِ، والطَّردُ عكساً وبالعكسِ، وَهَلُمَّ جَرَا"[1].

لَقَدْ نافسَ الشِّدْيَاقُ الإِبْدَاعَ، واقتحمَ بواباتِ الإمتاعِ، وواصلَ بروعةِ أسلوبِهِ الإقناعَ مُعْتَمِدَاً عَلَى عددٍ كبيرٍ من الطِّبَاقاتِ المزدوجةِ، فاستحالَ الْغُمُوْضُ أَمَامَ المُتَلَقِّي وضوحاً بحَيْثُ لَمْ يَدَعْ لَهُ أيَّ متَّسعٍ للسُّؤالِ، كما أثبتَ كَذَلِكَ قدرةً لغويَّةً فائقةً ربَّمَا عجزَ عنها كَثِيْرونَ. فأيُّ حديثٍ يُلقِي، وأيّة دُرَرٍ ينظمُ، وأيّةُ قدرةٍ فائقةٍ يُبدي، وأيُّ إقناعٍ يشفي، حَيْثُ رَصَدَ الْأَدِيْبُ سبعَ عشرةَ جملةً تُمثِّلُ بِنَىً تقابليَّةً متجاورةً دُوْنَ أنْ يفصلَ بينها فاصلٌ، وَلَمْ يَدَعْ للمتلقِّي مجالاً للبحثِ، ثُمَّ زيَّنَ هذه الجملَ بالتَّكْرَار عن طريقِ استخدامِ الدَّالِ (والعكس) فتركَ البابَ أَمَامَ المُتَلَقِّي مُشْرَعَاً لمضاعفةِ تلكَ البِنَى التَّقابليَّةِ أضعافاً كَثِيْرَةً، ومع كلِّ واحدةٍ جلاءٌ ووضوحٌ.

طِبَاقُ السَّلْبِ، الْمَقْصُودُ بطباقِ السَّلبِ: "الجمعُ بينَ فعلي مصدرٍ، واحدٍ مثبتٍ ومنفيٍّ، أو أمرٍ ونهيٍ"[2]. ويُلاحَظُ أنَّ التَّضادَ في هَذَا اللَّوْنِ "إنَّمَا هو تضادٌ صوتيٌّ بنفيِ الدَّالِ، وإثباتِهِ فِيْ آنٍ، كَمَا أَنَّ طَرَفَي الطِّبَاقِ ليسا هما مِحْورَ هَذَا التَّضَادِ الْأُسْلُوبِيِّ، إنَّمَا المحورُ الحقيقيُّ هو (أداة النَّفي)؛ إذْ يتمُّ في ضوئِهَا هَذَا الانزياحُ الصَّوتيُّ، والدَّلاليُّ مَعَاً"[3].

وَمِنْ شَوَاهِدِ طباقِ السَّلْبِ في المَقَامَاتِ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "قَالَ فطارتِ السِّنَةُ مِنَ الجُفُونِ، بينَ تلك العَيْنِ والنُّونِ، وتحدَّثَ القومُ بِمَا يكونُ، وَمَا لا يكونُ"[4]. حَيْثُ كرَّرَ اليَازْجِيّ

---

[1] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة مقعدة)، (ص136). عَمِهَاً: العمه المتحيِّر المتردد. مادة (عمه)، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح (ج2242/6). المتغشمر: من يأتي الأمر من غير تثبيت. مادة (غشمر)، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح (ج770/2).

[2] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص480).

[3] جاب الله، جماليَّات التَّلوين الصَّوتيّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص107).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الأزهريَّة)، (ص77).

لفظةَ (يكون) بالإثباتِ والنَّفيِ، فطابقَ بينهما سلباً مُعْتَمِداً عَلَى الدَّال (لا). وقد "نتجتِ الْمُقَابَلَةُ هنا بعواملَ صياغيَّةٍ إضافيَّةٍ هي (النَّفي)"[1].

وَطِبَاقُ السَّلبِ أقلُّ وروداً فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِه كَذَلِكَ (فقدت، لا فقدت) فِيْ قَوْلِ ابنِ الأَلُوسِيّ: "ما الَّذِيْ أصابَكَ، وأعظم أوصابَكَ، هل فقدت – لا فقدت– أحداً من أحبابك"[2]، حَيْثُ كرَّر لفظةَ (فقدت) بالإثباتِ والنَّفيِ، فطابقَ بينهما سَلْباً، فمنحَ الْكَلَامَ مزيداً من الوضوحِ والبَيَانِ.

2– الْمُقَابَلَةُ

الْمُقَابَلَةُ أُسْلُوبٌ شائعٌ فِيْ الْبَلَاْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فالبليغُ يُكثرُ في نظمِهِ من استخدامِهَا، ويجعلها وسيلةً للتَّأثيرِ في النُّفُوسِ، وأداةً فنيَّةً للبَيَانِ، وظاهرةً بارزةً في البَيَانِ العربيِّ. والْمَقْصُودُ بها عِنْدَ عُلَمَاءِ البَلَاْغَةِ: "أنْ يُؤتَى بمعنيينِ متوافقينِ، أو مَعَانٍ متوافقةٍ، ثُمَّ بما يقابلهما، أو يقابلها عَلَى التَّرتيبِ، والمراد بالتَّوافُقِ خلاف التَّقابُلِ"[3].

ورأى آخَرُوْنَ أنَّ الْمَقْصُودَ بالْمُقَابَلَةِ: "إيرادُ الْكَلَامِ ثُمَّ بمقابلَتِهِ بمثلِهِ في الْمَعْنَى، واللَّفظِ عَلَى جهةِ الموافقةِ، أو المخالفةِ"[4].

أَضْرُبُ الْمُقَابَلَةِ

وفِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ جادتْ قرائحُ الْأُدَبَاءِ فِيْ نُصُوْصِهِم بتشكيلاتٍ متعدِّدةٍ في بابِ الْمُقَابَلَةِ، من شَتَّى الأنواعِ، فَلَمْ يتركوا باباً من أبوابِهَا إِلَّا وطَرَقُوْهُ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، وَلَعَلَّ السَّببَ في ذَلِكَ رغبتُهُم في توضيحِ المعني، وإزالةِ ما يعتري الْكَلَامُ من غموضٍ، ويمكنُ رسم أضربِهَا عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

أ– **مُقَابَلَة اثْنَيْنِ باثْنَيْنِ**، وهَذَا الضَّربُ هو الأكثرُ وروداً فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ لسهولَتِهِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهَا فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ قولُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة): "فإنْ أَصَبتَ فَرَمْيَةٌ مِنْ غَيْرِ رامٍ، وإنْ أخطأتَ فلي معذرةٌ عِنْدَ الكرامِ، واللهُ المسؤولُ أن يحسنَ خواتِمَنَا اللَّاحقةَ، كَمَا

---

[1] عَبْد الْمُطَّلِب، الْبَلَاغَة الْعَرَبِيَّة قراءة أخرى، (ص358).

[2] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ (زَجْر الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ)، (ص101). أوصاب: جمع الوصب، وهو الوجع والمرض.

[3] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص485).

[4] العسكريّ، الصِّناعتين، (ص371). يُنْظَر: القَيروانيّ، العُمْدة، (ج15/2).

أحسنَ فواتحَنَا السَّابِقَةَ"[1]. حَيْثُ طَالَعَنَا بمقابلةِ اثْنَيْنِ باثْنَيْنِ في (خواتمنا اللاحقة)، و(فواتحنا السَّابِقَة). مع ما حَمَلَتْهُ العبارتانِ من روعةِ التَّقسيم مِنْ نَاحِيَةٍ، وعذبِ المُوْسِيْقَا مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

أَمَّا عَبْد الله فِكْرِيّ فقد قدَّمَ فِيْ مَقَامَاتِهِ طائفةً منتقاةً من هَذَا الضَّربِ، فأبدعَ في تشكيلها، وَمِنْ شَوَاهِدِهَا في (المَقَامَة الفكريَّة)، قولُهُ: "فالمروءةُ، واللُّطفُ، والمرحمةُ، قد يعارضها حبُّ الجاهِ والحرصِ عَلَى نفوذِ الكلمةِ، كَذَلِكَ الحلمُ، والتدبُّرُ يعارضُهُ الغضبُ، والتَّهوُّرُ"[2]. فَإِنَّ الشَّاهدَ فيه مُقَابَلَةُ اثْنَيْنِ باثْنَيْنِ هما: (الحلم والتَّدبُّر)، و(الغضب والتَّهوُّر).

وَمِنْ مُقابلةِ اثْنَيْنِ باثْنَيْنِ (طيب الحلال، خبث الحرام) فِيْ قَوْلِ عَبْد الله فِكْرِيّ: "أَمَا تستحي من اللهِ من ركوبِ هذه الآثامِ، ما في طيبِ الحلالِ غنيَّة عن خبثِ الحرامِ"[3]. وَمِنْهُا أَيْضَاً (صباح اليسر، وليل العسر) فِيْ قَوْلِه: "وهو واثقٌ بالنَّجاحِ، جازمٌ بالفلاحِ، مُستيقنٌ بأنَّ صباحَ اليُسْرِ من ليلِ العُسْرِ"[4].

وَمِنْهُا كَذَلِكَ (للعلماءِ والأتقياءِ، وللجهلاءِ والأشقياءِ) فِيْ قَوْلِه: "والمعاشرُ للعلماءِ والأتقياءِ، والملازمُ للجهلاءِ والأشقياءِ"[5].

وَمِنَ البِنَى التَّقابليَّةِ المتواليةِ قَوْلُ عَبْدِ اللهِ فِكْرِيّ: "فتجلو الحقَّ في صورةِ الباطلِ، والباطلَ في صورةِ الحَقِّ، وتُبدي الصِّدقَ في هيئةِ الكذبِ، والكذبَ في هيئةِ الصِّدقِ"[6].

ويُقدِّمُ ابنُ الأَلُوسِيّ لَوْحَةً مِنْ لَوْحَاتِ هَذَا اللَّوْنِ فِيْ مَقَامَتِهِ (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، يَقُوْلُ: "يَا بَنِيَّ، اللهَ اللهَ في أمِّكم فلعمري لقدْ كَانَتْ تسترُّ بسرورِكُم، وتغتمُّ لغمِّكُم"[7]. حَيْثُ رَسَمَ بالْمُقَابَلَةِ صُورةَ التَّرابطِ، وقُوَّةَ الأواصرِ بين الأمِّ، الأبناءِ.

كَمَا بَرَعَ الكُتَّابُ في التَّلاعُبِ بالْأَلْفَاظِ عن طريقِ الْمُقَابَلَاتِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ مَلْمَحَاً واضحاً فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ؛ وَذَلِكَ لإزالةِ كَثِيْرٍ من الْغُمُوْضِ الَّذِيْ قد يسيطرُ عَلَى المُتَلَقِّينَ، وَمِنْ هُنَا قدَّمَ هَؤلاءِ فواصلَ عذبةً من الرَّوَائِعِ الَّتِيْ أبرزتها الْمُقَابَلَاتُ، يَقُوْلُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق:

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص424).

[2] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص280).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص298.

[4] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (مَقَامَة في حسن الوفاء)، (ص306).

[5] فكري، عبد الله، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)،(ص276).

[6] المَرْجِع السَّابِق، ص299.

[7] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ (أَنْبَاء الْأَبْنَاءِ فِيْ أَطْيَبِ الْأَنْبَاء)،(ص20، ص21).

"تغيبُ الأتراحُ، وتطلعُ الأفراحُ"[1]. حَيْثُ رَسَمَ الأديبُ مَشَاهِدَ الفرحِ والسَّعادةِ، وغيابَ الحزنِ والشَّقَاءِ عن طريقِ الْمُقَابَلَةِ، كما قدَّمَ صورةَ دوامِ السَّعادةِ مِنْ خِلَالِ توظيفِ الْفِعْلَيْنِ الْمُضَارِعينِ (تغيب، وتطلع) إِلَى جانبِ المُوْسِيْقَا الظَّاهرةِ في الدَّال (الحاء) المسبوقِ بالرَّاءِ والألفِ فِيْ قَوْلِه: (الأتراح، والأفراح).

وَمِنْ رَوَائِع الْمُقَابَلَاتِ الَّتِيْ تزخرُ بالْحَرَكَةِ، والحيويَّةِ هبوطاً إِلَى الوهادِ، وصعوداً إِلَى الرَّوابي، قولُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "إنَّ الزَّوجةَ إذا علمتْ أنَّ جسمَ زوجِهَا أدغمَ فيها، وأصبحَ سرُّه في فِيْهَا، فصارَ فرداً لا زوجاً، سَوَاء هبطا وهدةً، أو صعدا أوجاً"[2].

وتبدو روعةُ التَّشْكِيلِ، ودقَّةُ التَّنْسيقِ في الْمُقَابَلَاتِ لَمَّا ترتبطُ بالْوَاقِعِ، وتُصوِّرُ حَيْثِيَاتِهِ في الفرحِ والبلاءِ، وفي السَّعادةِ والشَّقاءِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (لخلعتُ ملابسَ الأنسِ، ولبستُ ثيابَ الحدادِ) فِيْ قَوْلِ مُحَمَّد المُبَارَك: "وَهَلْ صفتْ أوقاتُكَ إِلَّا بوجودي، أو طابتْ أقواتك إِلَّا بوابلِ كرمي وجودي؟! ولو قَطَعْتُ عنك لطائفَ الإمدادِ، لخلعتَ ملابسَ الأنسِ، ولبستَ ثيابَ الحدادِ"[3]. مع ما يصوِّره المَشْهَدُ مِن شدَّةِ الحزنِ المُخيِّمِ صُحْبَةَ الْفِعْلَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ (خلعتُ، ولبستُ)، وَمِنْهُا (سلب نعمةٍ، وجلب نقمةٍ) فِيْ قَوْلِه: "وَهَلْ لغيرِ اللهِ تأثيرٌ بحالٍ أو همَّة، في سلبِ نعمةٍ، وجلبِ نقمةٍ"[4].

وَيَرْسِمُ أَحْمَدُ البَرْبِيْر مَجْمُوْعَةً من البِنَى التَّقَابليَّةِ فِيْ نُصُوْصِهِ المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ مقابلةِ اثْنَيْنِ باثْنَيْنِ قَوْلُهُ: "وباللهِ قُلْ لي: أيّ فخرٍ لمن يعِزُّ مفقوداً، ويهونُ موجوداً"[5]. مَعْ مَا يحملُهُ المَشْهَدُ مِن نفيِ الأمرِ عن طريقِ الاسْتِفْهَامِ مَعَ الدَّالِ (أيّ).

ورفعاً لمنزلةِ الحَقِّ، وإزهاقاً للباطلِ رسمَ أَحْمَدُ البَرْبِيْر مقابلةً أُخْرَى قَائِلَاً: "وَدَعْ عنكَ زخارفَ التَّلبيسِ، فأكبرُ من الحقِّ من قَبِلَهُ، وأصغرُ من الباطلِ من عَمِلَه"[6].

ب- مُقَابَلَة ثلاثةٍ بثلاثةٍ، لَمْ يكتفِ الْأُدَبَاءُ بالضَّربِ الأوَّلِ، بَلْ تابعوا مسيرهم إِلَى مقابلةِ ثلاثةٍ بثلاثةٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِهَا قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الخَفَاجِيّ: قُرْبُهُ أقبحُ من الحرمانِ، وَبُعْدُهُ أَلذُّ مِنْ وصلِ

---

[1] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة ممشية)، (ص358).

[2] المَرْجِع السَّابِق (مَقَامَة مقعدة)، ص133. الوهدة: المكان المنخفض، جمعها وهاد.

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غريب الأنباء في المُفَاخَرَة بين الْأَرْض والسَّمَاء)، (ص104).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص158).

[5] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص30).

[6] المَرْجِع السَّابِق، ص46.

الحورِ الحِسَانِ"[1]. حَيْثُ قابلَ الخَفَاجِيُّ بَيْنَ (قربه، وبعده)، و(أقبح، وألذّ)، و (وصل، والحرمان) مَعْ مَا حَمَلَتْهُ الْمُقَابَلَةُ من مُوْسِيْقَا نابعةٍ من دال (الرَّاء) المسبوق بحرف المدِّ (الألف) إضافةً إِلَى توضيحِ الْمَعَانِي، وإزالةِ الخفاءِ والْغُمُوْضِ.

وَمِنْ مقابلةِ ثلاثةٍ بثلاثةٍ كَذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ الله فِكْرِيّ في (المَقَامَة الفكريَّة): "وَمِنْهُم من هو ذميمُ السِّيرةِ، خبيثُ السَّريرةِ، مبغضٌ للخيرِ والبرِّ، مُحبٌّ للفسادِ والشَّرِ"[2]. فهي من بابِ مقابلةِ ثلاثةٍ بثلاثةٍ حَيْثُ قَابَلَ (مبغضٌ) و(محبٌّ)، و(الخير) و(الشَّرِّ) و(البرِّ)، و(الفساد). بأسلوبٍ بلاغيٍّ أخَّاذٍ أكسبَ المشهدَ جلاءً ووضوحاً.

وَيُوَاصِلُ عَبْد الله فِكْرِيّ الإجادةَ، فيقدِّمُ طائفةً من الْمُقَابَلَاتِ الْبَارِعَةِ والمتتابعةِ لإضفاءِ نوعٍ من الوضوحِ عَلَى أعمالِهِ، مُصوِّراً محاسنَ الجرأةِ والإقدامِ، ومهالكَ الجبنِ والإحجامِ، يَقُوْلُ: "ورُبَّمَا كانَ الجبنُ ذريعةَ لتجنُّب الهلاكِ، والإقدامُ سببَ لحصول النَّجاةِ"[3]. فلا نجاةَ من المهالكِ إلا بالإقدامِ، ولا سقوطَ في مهاوي الرَّدى إلَّا ويكون الجبنُ، والإحجامُ من أسبابِهِ.

وَلَمْ يبرحْ عَبْدُ الله فِكْرِيّ الحَدِيْثَ عن مكارمِ الأَخْلَاقِ، وتقديمِهَا مِنْ خِلَالِ البِنَى التَّقابليَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ في (المَقَامَة الفكريَّة): "وقَالُوا جُوْدُ الرَّجلِ يحبِّبه إِلَى أضدادِهِ، وبخلُهُ يبغضهُ إِلَى أولادِهِ"[4]، فجودُ الْإِنْسَانِ وعطاؤه مَجلبةٌ للحبِّ حَتَّى من الأعداءِ، والبخلُ طريقٌ للبغضِ حَتَّى من الأصدقاءِ. وَيدعمُ ذَلِكَ قَوْلُه: "وهَكَذَا الجودُ مثلاً إفراطُهُ إسرافٌ وتبذيرٌ، والتَّفريطُ فيه شحٌّ وتقتيرٌ"[5].

ج- مُقَابَلَةُ أربعةٍ بأربعةٍ

ويظهرُ هَذَا النَّوعِ في مَشَاهِدَ قليلةٍ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، ومِنْ خِلَالِه يقدِّمُ عَبْد الله فِكْرِيّ علاجاً ناجعاً للفوزِ بالسَّلامةِ، والبعدِ عن الوقوعِ في النَّدامةِ مِنْ خِلَالِ الْبِنْيَةِ التَّقابليَّةِ فِيْ قَوْلِه: "فمنْ غلبَ بصيرتَهُ عَلَى هواه فازَ بالمُنَى والسَّلامةِ، ومنْ غلبَ هواه عَلَى بصيرتِهِ وَقَعَ في

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلْبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا، (ص287).

[2] فكري، عبد الله، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص280).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص292.

[4] المَرْجِع نفسه، ص292.

[5] المَرْجِع نفسه، ص295.

العَنَا والنَّدامةِ"[1]. وقدْ اعْتَمَد الأديبُ عَلَى دالِ الشَّرْطِ (مَنْ) رغبةً في إضفاءِ إقناعٍ إلَى إقناعٍ، وجمالٍ إلَى إمتاعٍ، مع ما حَمَلَتْهُ الْمُقَابَلَةُ من إزالةِ الْغُمُوْضِ والإبهامِ عن طريق التَّضَاد.

د- مُقَابَلَةُ خمسةٍ بخمسةٍ

لَقَدْ بَرَعَ كُتَّابُ المَقَامَةِ فِيْ تَوْظِيْفِ هَذَا الضَّربِ من الْمُقَابَلَةِ فِيْ أَعْمَالِهِمْ رَغْمَ قلَّته، حَيْثُ طرحوه عَلَى استحياء، وَمِنْ شَوَاهِدِ هذه الْبَرَاعَةِ قَوْلُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "إنَّ سعادتي في الكونِ هي أنْ أَرْضَى عن أميري، ويرضى عنِّي، وشقاوتي هي أنْ أغضبَ منه، ويغضب مني"[2]. حَيْثُ قابل الشِّدْيَاق (سعادتي)، و(شقائي)، و(أرضى) و(أغضب)، و(عن)، و(من)، و(يرضى)، و(يغضب)، و(عني)، و(مني). فجمعَ في بِنْيَتِهِ التَّقابليَّةِ الأَسْمَاءَ، والْأَفْعَال، والْحُرُوْفَ في أسلوبٍ أدبيٍّ أخَّاذ.

3- التَّوْرِيَةُ

التَّوْرِيَةُ لُغَةً واصْطِلَاحاً

التَّوْرِيَةُ لغةً[3]: التَّوْرِيَةُ مصدرٌ للفعلِ الرُّباعيِّ (ورَّى) عَلَى وزن (فعَّل)، وهي مَأْخُوْذَةٌ مِنَ الْفِعْلِ الثُّلَاثِيِّ (وَرَى) نَقُوْلُ ورَّيتُ الخبرَ توريةً إذا سترتَهُ، وأظهرتُ غيرَهُ، كأَنَّهُ مَأْخُوْذٌ من وَرَاء الْإِنْسَانِ، أو كَأَنَّهُ يجعلُهُ وَرَاءَهُ حَتَّى لا يظهرُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 26].

التَّوْرِيَةُ اصْطِلَاحاً، ويُسمَّى هَذَا اللَّوْنُ التَّوجِيهُ، وَالْإِيْهَامُ أَيْضَاً، وَالْمَقْصُودُ بِهِ "أَنْ تَكُوْنَ الْكَلِمَةُ تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ، فَيَسْتَعْمِلُ الْمُتَكَلِّمُ أَحَدَ احتمالَيْهَا، ويُهْمِلُ الآخَرَ، وَمُرَادُهُ مَا أَهْمَلَهْ، لا مَا استعمله"[4]، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ التَّوْرِيَةَ ذكرُ لفظٍ له معنيانِ؛ أحدهُمَا قريبٌ، ظاهرٌ، مُتبادَرٌ إِلَى الذِّهنِ، غيرُ مرادٍ، والثَّانِي بَعِيْدٌ، خَفِيٌّ، غَيْرُ مُتَبَادَرٍ إِلَى الذِّهْنِ، وَهُوَ المُرَادُ.

بَرَعَ كُتَّابُ المَقَامَةِ فِيْ تَوْظِيْفِ الْغُمُوْضِ والخفاءِ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، فقدْ كانَ ذَلِكَ ديدنهم فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ مُجَاراةً لسابقيهم مِنَ الْأُدَبَاءِ العربِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ التَّوْرِيَةِ لفظ(الغزالة)

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (لمَقَامَة الفكريَّة)، (ص277).

[2] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص62).

[3] الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج6/2522، 2523)، مادة (ورى).

[4] المصريّ، تحرير التَّحبير، (ص268). المصريّ، بديع القُرآن، (ص102). يُنْظَر: القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص499).

فِيْ قَوْلِ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "فلا أنتبهُ إلَّا وقد ذَرَّ قرنُ الغزالةِ الضَّاحي"[1]. أمَّا التَّوْرِيَةُ فقد وقعتْ في لفظِ (الغزالة) حَيْثُ إنَّ الْمَعْنَى القريبَ، الظَّاهرَ، المتبادرَ إِلَى الذِّهنِ، وغيرَ المرادِ هو: (الغزالة الوحشيَّة)، والْمَعْنَى البعيدَ، الخفيَّ، غيرَ المتبادرِ إِلَى الذِّهْنِ، والمرادَ هو (الشَّمْس). وهَذَا شبيهٌ بقولِ القاضي عِياض:

كَـأَنَّ نِيْسَـانّ أَهْدَىْ مِـنْ مَلَابِسِـهِ لِشَـهْرِ كَـانُونَ أَنْوَاعًـا مِـنَ الحُلَـلِ

أَوْ الغَزَالَةُ منْ طُوْلِ المَدَى خَرِفَت فَمَــا تفرّق بَيْنَ الجَدْي والحَمَــلِ[2]

ومثلُ هذه التَّوْرِيَةِ قَوْلُ ناصِيفِ اليَازْجِيّ: "إنْ شئتِ رفعنا زوجَكِ إِلَى قَرْنِ الغزالةِ، لينعمَ بالُكِ بأحسنِ حالةٍ"[3]. ومثلها تَمَامَاً قَوْلُ بَهَاءِ الدِّينِ الْبِيْطَار: "ولَمَّا رعتِ الغزالةُ ما أبداه، ورعت مبتدى كلامِهِ ومنتهاه"[4].

وَمِنَ التَّوْرِيَةِ الَّتِيْ استوعبتْ كلَّ مَعَانِي الخفاءِ والتَّلطُّفِ، وتضمَّنتْ فِيْ ثَنَايَاهَا دُرَرَاً فائقةَ الْجَمَالِ قَوْلُ اليَازْجِيّ: "وكنتُ قد انضويتُ إِلَى صحبٍ أحمى من الجمراتِ، وأكرمَ من الطَّلْحاتِ"[5]. فقدْ وقعتِ التَّوْرِيَةُ في كلمةِ (الجمرات)؛ فالْمَعْنَى القريبُ الظَّاهِرُ المُتبادرُ إِلَى الذِّهنِ، وغير المرادِ هو: (الجمرات الْمَعْرُوفَة في النَّار)، والْمَعْنَى البعيدُ الخفيُّ غيرُ المتبادرِ إِلَى الذِّهْنِ، والمرادُ هو جمراتُ العربِ (الْجَمَاعَة)، وهي أربعةٌ: "بنو نُميرِ بن عامر بن صعصعة؛ وبنو الحارثِ بن كعب بن عُلة بن جَلْد؛ بنو ضبَّة بن أدَ بن طابخة، وبنو عبسن بن بَغيض، وإنَّما قيلَ لهذه القبائلِ؛ جمرات العربِ، لِأَنَّها تجمَّعتْ في أنفسِهَا، ولم يُدخلوا معهم غيرهم"[6].

وَمِنَ التَّوْرِيَةِ الَّتِيْ حملتْ روعةَ الخفاءِ والتَّعميةِ كأجمل ما يكونُ، قولُ أَحْمَد البَرْبِيْر: "ورَقَصَتْ بينَ أيدينا جواري الماءِ، وظهرتْ مع وجودِ شموسنا وبدورنا نُجُوْمُ النَّباتِ حَتَّى ظننَّاهَــا نجومَ السَّمَاءِ"[7]. فالتَّوْرِيَة في كلمة (نُجُوْم)، ومعناها القريبُ المتبادرُ إِلَى الذِّهْنِ هو (نجوم السَّمَاء)، أما الْمَعْنَى البعيدُ غيرُ المتبادرِ إِلَى الذِّهْنِ فهو(ما لا ساق له من النَّبات).

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الهزلية)، (ص110).

[2] الحَمَوِيّ، خزانة الْأَدَب، (ج244/2).

[3] الشِّدْيَاق، أحمد فارس، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة ممشية)، (ص358).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص57).

[5] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الْأَدَبيّة)، (ص250).

[6] ابن عبد ربه، العقد الفريد، (ج318/3).

[7] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص24).

وَيُبْدِعُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ فِيْ تَوْظِيْفِ التَّوْرِيَةِ في (المَقَامَة الحَمَوِيَّة)، يَقُوْلُ: "وأخذنا نجتني الثِّمارَ الذَّوابلَ، من الأفنانِ السَّوابلِ، وقد رقصَ البلبلُ عَلَى نغماتِ البَلَابِلِ"[1]. فالتَّوْرِيَةُ وقعتْ في كلمةِ (البَلَابِل)، ومعناها القريبُ المتبادرُ إِلَى الذِّهْنِ البُلْبُلُ، وهو (الطَّيرُ المعروفُ)، والَّذِيْ رَشَّحَ له كَلِمة (نغمات)، أما الْمَعْنَى البعيدُ غيرُ المتبادرِ إِلَى الذِّهْنِ فهو: (أنابيبُ النَّواعيرِ الَّتِيْ ينصبُّ منها الماءُ)، وفي التَّوْرِيَةِ من الخفاءِ والتَّلطُّفِ ما يُبهرُ السَّامِعِيْنَ، ويخلبُ ألبابَ الْقَارِئينَ.

4- اللَّفُّ والنَّشْرُ

اللَّفُّ والنَّشْرُ عالمٌ من الإِبْدَاعِ تظهرُ فيه ملامحُ النَّظمِ العجيبِ، وسماتُ الاتِّساقِ البَدِيْعِ، والْمَقْصُودُ باللَّفِّ والنَّشْرِ؛ "ذكرُ متعدِّدٍ عَلَى جهةِ التَّفصيلِ، أو الإجمالِ، ثُمَّ ذكرُ ما لِكُلٍّ واحدٍ من غيرِ تعيينٍ؛ ثقةً بأنَّ السَّامعَ يردُّه إليه"[2]. ويرى السَّكاكيّ أنَّ اللَّفَّ والنَّشْرَ هو: "أنْ تلفَّ بين شيئينِ في الذِّكْرِ، ثُمَّ تتبعهما كَلَامَاً مُشْتَمِلاً عَلَى متعلقٍ بواحدٍ وبآخرَ من غيرِ تعيينٍ؛ ثقةً بأنَّ السَّامِعَ يردُّ كُلاً منهما إِلَى ما هو لَهُ"[3].

أمّا اللَّفُّ والنَّشرُ فهو فَنٌّ فِي المتعدِّدَاتِ الَّتِيْ يتعلَّقُ بكلِّ واحِدٍ منها أَمْرٌ لاحقٌ؛ فاللَّفُّ يُشارُ بِهِ إِلَى المتعدِّدِ الَّذِيْ يُؤتَى به أوَّلاً، والنَّشْرُ يُشارُ به إِلَى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذِيْ يتعلَّقُ كُلُّ واحدٍ منه بواحدٍ من السَّابقِ دُوْنَ تعيينٍ، أمَّا ذكرُ المتعدداتِ مع تعيينِ ما يتعلَّقُ بكلِّ واحدٍ منها فهو التَّقسِيم.

واللَّفُّ والنَّشْرُ الْمُفَصَّلُ ضربانِ[4]، الأَوَّل :أنْ يأتي النَّشْرُ عَلَى ترتيبِ اللَّفِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: 73].

والثَّانِي: يكونُ فيه النَّشْرُ عَلَى غيرِ ترتيبِ اللَّفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا النَّوعِ قولُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾[الضحى: 6 - 11].

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (ص276). حميّاه: خمرته، الأجارع: الأراضي الطيبة النبات، الغضرة: المخصبة، لمياء: كثيفة، السَّوابل: الأغصان المتدلية. البلابل: أنابيب تنصب منها الماء.

[2] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح: (ص503).

[3] السَّكاكيّ، مفتاح العلوم، (ص452).

[4] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص503). يُنْظَر، المصريّ، بديع القرآن، (ص73).

أمَّا هَذَا الضَّرْبُ فقدْ وَرَدَ في مواضعَ قليلةٍ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَذَلِكَ لتقديمهم السَّجْع والتَّجْنِيس، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "فَلَمَّا سَمِعَ القومُ كلامَهُ فيه لَغْواً وَلَحناً، عابوه لفظاً ومعنىً"[1]. فالسَّطرُ السَّابقُ من بابِ الطَّيِّ والنَّشْرِ غير المرتَّبِ؛ لِأَنَّ عيبَ اللَّفْظِ يرجعُ إِلَى اللَّحنِ، وعيبَ الْمَعْنَى إِلَى اللَّغْوِ.

وَمِنَ اللَّفِّ والنَّشْرِ غير المرتَّبِ أَيْضَاً قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ في (المَقَامَة العَدَنِيَّة): "فخلعَ الزَّعيمُ عليه، إحدى بردتيهِ، وانصرفَ الغلامُ بينَ يديهِ، وكنتُ قد عرفتُ الشَّيْخَ والغلامَ، إنَّهُما رجبٌ، وابنُ الخُزام"[2]. والْقَوْلُ فِي الأَسْطرِ السَّابِقَةِ مِنْ بابِ الطَّيِّ والنَّشْرِ غير المُرتَّبِ. حَيْثُ طَالَعَنَا اليَازْجِيّ بِقَوْلِهِ: (الشَّيْخ، والغلام)، ثُمَّ لم يرتِّبْ قَائِلاً: (رجب، وابن الخزام)؛ فالشَّيْخُ هو (ابن الخزام)، والغُلَامُ هو (رجب).

5- الاقْتِبَاسُ

الاقْتِبَاسُ وما اشتقَّ منه من فروعٍ وهي: التَّضمين، العقد، الحلّ، والتَّلميح من فنونِ البَدِيْعِ. والْمَقْصُودُ به: أَنْ يضمِّنَ المتكلمُ كلامَهُ من شعرٍ أو نثرٍ كلاماً لغيره بلفظِهِ أو بمعنــاه، وهَذَا الاقْتِبَاسُ يكونُ من الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، أو من أقوالِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، أو مِنَ الْأَمْثَال السَّائرةِ، أو مِنَ الحكمِ المَشْهُورةِ، أو مِنْ أقوالِ كبارِ البُلَغَاْءِ، والشُّعَرَاءُ المتداولةُ دُوْنَ أنْ يعزو المقتبِسُ الْقَوْلَ إِلَى قائِلِهِ. ويطلقُ عليــه كَذَلِكَ في عُرفِ المُحْدَثين، التَّناص، وهو لا يبتعدُ كَثِيْراً في محتواه عن الاقْتِبَاسِ، فمفهومُهُ "أنْ يتضمَّنَ نَصٌّ أدبيٌّ ما نُصُوصَاً أو أفكاراً أُخْرَى سابقة عليه، عن طريقِ الاقْتِبَاسِ، أو التَّضْمينِ، أو التَّلميحِ، أو الإشارةِ، أو ما شابَهَ ذَلِكَ مِنَ المقروءِ الثَّقَافيِّ لدى الْأَدِيْبِ، بحَيْثُ تندمجُ هذه النُّصُوْصُ، أو الأفكارُ مع النَّصِّ الأصليِّ، وتندغمُ فيه؛ ليشكِّلَ نصَّاً جَدِيْدَاً متكاملاً"[3].

والاقْتِبَاسُ منهُ ما هو حَسَنٌ بديعٌ يُقوِّي المتكلِّمُ به كلامَهُ، ويحكمُ به نظامُهُ، ولاسيَّمَا مَا كانَ منه عِنْدَ الخطباءِ، والمواعظِ، وأقوالِ الحكمةِ، ومقالاتِ الدَّعوةِ والإرشادِ، ومقالاتِ الإقناعِ والتَّوجيهِ للفضائلِ في نفوسِ المؤمنينَ بكتابِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وتَعَالَى–، وكلام رسولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَمِنْهُ ما يحيدُ عن الهدفِ فيكونُ عالةً عَلَى النَّصِّ الأَدَبيِّ، ولا يتعدى كونه حشواً لا يُضْفِي عَلَى الْكَلَامِ شَيْئَاً من الْجَمَالِ، بَلْ قد يؤدِّي ذَلِكَ إِلَى فسادِ النَّصِّ الأَدَبِيِّ.

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحَمَوِيَّة)، (ص358).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص358.

[3] يقطين، الرِّواية والتُّراث السَّرديّ – من أجل وعيٍ جديدٍ بالتُّراث، (ص52).

وَبَعْضُ الْأُدَبَاءِ يلجأُ إِلَى الاقْتِبَاسِ لتقويةِ فكرتِهِ، أو لتزيينِ كلامِهِ في أغراضٍ مختلفةٍ، كالْمَدْحِ، والْهِجَاءِ، والْغَزَلِ، والإخوانيَّاتِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَإِذَا لمْ يحرِّفْ في الْمَعْنَى، وَلَمْ يكنْ في اقتباسِه سُوْءُ أدبٍ مع كلامِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وتَعَالَى–، أو كلامِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فلا بَأْسَ باقتباسِهِ، أمَّا إِذَا كَانَ في اقتباسه تحريفٌ في الْمَعْنَى، أو سُوْءُ أدبٍ يتنافى مع الشَّرعِ فهو ممنوعٌ، ويأثمُ به المقتبِسُ، وقدْ يصلُ بعضُ الاقْتِبَاسِ إِلَى دركةِ الكفرِ باللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، ودرجةِ الإلحادِ والعياذُ باللهِ. وتتمثَّلُ أضربُ الاقْتِبَاسِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ في المشاهدِ الآتِيَةِ:

أَوَّلاً: الاقْتِبَاسُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ

الاقْتِبَاسُ فَنٌّ بَدِيعِيٌّ تتزيَّنُ بروعتِهِ المَقَامَاتُ، ويأنسُ بلطفِهِ الْقَارِئُ في معظمِهَا، وتنفردُ ظاهرةُ الاقْتِبَاسِ القرآنيِّ بكثافةٍ عاليةٍ، بحَيْثُ مثَّلتْ خطًّا ممتداً فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، فالْقُرْآنُ الْكَرِيْمُ كانَ، ولا زالَ، وسيظلُّ منهلاً عَذْباً يردُهُ الدَّارِسُونَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إِلَى أن يرثَ اللهُ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَنْ عليها، وسيبقى مَنبعاً يستمدُّونَ منه ثروتَهُم اللُّغويَّةَ، وحديقةً غنَّاء يجتنونَ منها الْأُسْلُوبَ المعجزَ، والصُّورَةَ الْبَارِعَةَ، والمحسِّنَ البَدِيْعَ، فيشكِّلونَ باقاتٍ مُتَنَوِّعَةً من فنونِ البَلَاْغَةِ وأفنانِهَا، كَيْفَ لا؟ وقد صُبِغَتِ الحَيَاْةُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ بصبغةٍ إسلاميَّةٍ في شَتَّى ميادينها، وفي كلِّ جوانبِهَا، وَمِنْ هُنَا كانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيْمُ قِبْلَةَ الْأُدَبَاءِ، وكعبةَ الشُّعَرَاءِ يدينونَ له بالسَّبْقِ، والتَّفوُّقِ، والتَّفرُّدِ.

انطلقَ الْأُدَبَاءُ في هَذَا العَصْرِ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ يقلِّبونَ صفحاتِهِ، ويتفكَّرونَ في سُوَرِهِ، ويتدبَّرونَ آياتِهِ، فيقتبسونَ منه ما دَعَتِ الْحَاجَةُ، فجادتْ قَرَائِحُهُم بروائعِ التَّشْكِيلِ، وحملتْ عقولُهُم قدرةً فائقةً في اختيارِ النُّصُوْصِ القرآنيَّةِ بدقَّةٍ مُتناهيةٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "صدقت حديث لا تزال طائفةٌ من أهلِ الغربِ، تصدر الرِّعاء بعدما استقوا بكلِّ سجالٍ"[1]، حَيْثُ عادَ اليَازْجِيّ إِلَى رسمِ مشهدٍ حيٍّ لازدحامِ النَّاسِ عَلَى مواردِ المياهِ، وسَبْقِ من كانَ يمتلكُ القُوَّةَ، أمَّا من كانَ دونهم فعليه الانتظارُ حالُه حالُ ابنتي شعيب عَلَيْهِ السَّلَام. وهَذَا المَشْهَدُ مُقْتَبَسٌ من قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣].

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المكيَّة)، (ص416).

وَيَرْسِمُ شِهَابُ الدِّينِ الخفَاجِيّ مَشْهَدَاً من مَشَاهِدِ الحزنِ الَّذِيْ يسيطرُ، وأجواءِ الكآبةِ الَّتِيْ تكتنفُ بعضَ المُثقلينَ بالهمومِ مِنْ خِلَالِ قولِهِ في (المَقَامَة السَّاسانيَّة): "فإنْ سألتَ عن حالي، ففؤادي بها فؤادُ أمِّ مُوْسَى فارغٌ من آمالي"[1]. حَيْثُ اقتبسَ شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيّ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠]. وَلَكَ أنْ تتصوَّرَ مليَّاً مشهدَ حُزْنٍ مؤلمٍ عنوانه: قصَّة أمٍّ فقدتْ وليدها الَّذِيْ لا يقوى عَلَى شيء عُنوةً بِطَرِيْقَةٍ مروِّعَةٍ لمَّا ألقتْ به في اليمِّ، وهي لا تعلمُ مصيرَهُ، لكنَّ اللهَ تَعَالَى رَسَمَ لها مشهدَ عودةِ وليدِهَا إِلَى أحضانِهَا فِيْ قَوْلِه سُبْحَانَهُ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]. وبِطَرِيْقَةٍ فيها الْأُسْلُوبُ المعجزُ في ترتيبٍ منطقيٍّ عظيمٍ، حَيْثُ رَسَمَ لها الْقُرْآنُ الْكَرِيْمُ خطَّةَ النَّجاةِ الإلهيَّةِ المُحكَمَةِ بدءاً بِقَوْلِهِ: (أرضعيه)، ثُمَّ دال الشَّرْطِ (إذا) الَّذِيْ رسمَ في ثَنَايَا الرُّعبِ النَّجاةَ، ويتابعُ بدال النَّهْيِ (لا) مِنْ خِلَالِ مَشْهَدَيْنِ متتاليينِ أوَّلهما: الحثّ عَلَى عدمِ الخوفِ فِيْ قَوْلِه: (ولا تخافي)؛ ليغرسَ في قلبِهَا الطمأنينةَ، وثانيهما: عدم الحزنِ فِيْ قَوْلِه: (لا تحزني)؛ لتقرَّ عيونُهَا بالهدوءِ والسَّكينةِ، ويختمُ بمشهدِ العودةِ والجائزةِ الْقَيِّمَةِ مِنْ خِلَالِ التَّأكيدِ فِيْ قَوْلِهِ: (إنَّا رادُّوه إليكِ، وجاعلوه من المرسلينَ) مع ما حمله المدُّ في (رادُّوه) من امتدادِ الفرحِ، وإحاطته بها من كلِّ جَانِبٍ. ويأتي الرَّدُّ فِيْ قَوْلِه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ١٣].

وَيُبْدِعُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في تشكيلِ مشهدِ الحزنِ مُعْتَمِدَاً عَلَى الذِّكْرِ الحَكِيمِ في الحَدِيْثِ عن الموتِ، مِنْ خِلَالِ مَجْمُوْعَةٍ من الأبياتِ الَّتِيْ جذبَ بها قلوبَ السَّامِعِيْنَ، ليحصلَ عَلَى المالِ، يَقُوْلُ في (المَقَامَة الحكميَّة): "فَلَمَّا فَرَغَ من أبياتِهِ، استهلَّتْ دموعُهُ المآقي، وقال سبحانَ الحيّ الباقِي، ثُمَّ سَجَا عَلَى مضجَعِهِ حتى خُيِّلَ أنَّ روحَهُ قدْ بلغتِ التَّراقي"[2]. ويبدو الحزنُ واضحاً في (استهلتْ دموعه المآقي)، حَتَّى يتقنَ مشهدَ التَّسَوُّلِ، وهَذَا المَشْهَدُ الحزينُ مُقْتَبَسٌ من قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴾ [القيامة: ٢٦].

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدُّنيا، (المَقَامَة السَّاسانيَّة)، (ص390).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحكميَّة)، (ص140).

تَتَوَالَى الحِكَمُ عَلَى لسانِ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ، وَيَرْسِمُ هنا مشهدَ اللامبـالاة، يَقُوْلُ: "فأمرَ الأميرُ باعتقالِهِ، وجَعَلَ في أذنيهِ وقراً عن تنصُّلِهِ وسؤالِهِ"[1].

ويسبقُ هَذَا الْقَوْلَ مشهدُ اعتقالِ الفتى بعد شكوى الْمَرْأَةِ، حَيْثُ أبدى الاعتذارَ والأسفَ، لكنَّ الأميرَ أمرَ باعتقالِهِ، وَلَمْ يأبهْ بتوسُّلاتِهِ، وبراءته من التُّهمةِ، وهَذَا المَشْهَدُ اقتباسٌ من قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان:7].

ويطرحُ مُحَمَّد الوُرْغِيّ عَدَدَاً مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِيْ يحملها الزَّوجُ، والَّتِيْ تدفعُ الفتاةَ إِلَى الرَّغبةِ في الزَّواجِ، ثُمَّ يستشهدُ بالقرآنِ الكَرِيْمِ لدعمِ فكرتِهِ، يَقُوْلُ: "فلوْ لَمْ تكنْ لها صفواً، لما قطعتْ لك البحرَ رهواً"[2]. وفي هَذَا المَشْهَدِ الَّذِيْ يرسمُ صورةَ الجريِ خلفَ الرَّجلِ لمَّا تتوفَّرُ فيه صفاتٌ تتمناها أيُّةُ فتاةٍ، يستشهدُ الوُرْغِيّ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان: 24].

شَارَكَ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق كُتَّابَ المَقَامَةِ فِيْ تَشْكِيْلِ لوحاتِ الاقْتِبَاسِ من الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ فِيْ قَوْلِهِ: "قالَ في أيِّ أمرٍ مريجٍ كنتُمْ تخوضونَ، وعن أيِّ نُكْرٍ مشيجٍ أنتم تجيضونَ"[3]. وَهُنَا يلتقي الاسْتِفْهَامُ عن طريق الدَّال (أيّ)، مَعَ الْفِعْلَيْنِ الْمُضَارِعينِ (تخوضون)، و(تجيضون)، ولزومِ ما لا يلزمُ حَيْثُ سبقَ النُّونَ في الْفِعْلَيْنِ حرفانِ هما: (الضَّاد، والواو)، إِلَى جانبِ الاقْتِبَاسِ من قولِهِ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: 5]. وكَأَنِّي به أرادَ أنْ يحذِّرَ من هَذَا المَشْهَدِ، وينكرَهُ.

تتزيَّنُ معظمُ مقاماتِ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ بالاقْتِبَاسِ من الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ في (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة): "فقالَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِيْ جعلَ حرمَهُ آمناً للعبادِ، وَمَقَاماً للعُبَّادِ، وهو الَّذِيْ خلق فسوَّى، وقدَّر فهدى"[4]، مُقْتَبَسٌ من قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى:2،3]، وَقَوْلُهُ في (المَقَامَة الحليَّة): "فقالَ الشَّيْخَ ما الَّذِيْ أنتمْ فيهِ، لَعَلَّنَا نقتفيه، فأعرضوا عنه بوجوهٍ باسرةٍ، وقَالُوا إنَّها لصفقةٌ خاسرةٌ"[5] حَيْثُ يرسمُ الْأَدِيْبُ مشهدَ الحزنِ

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الأنباريَّة)، (ص288).

[2] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَة الباهيَّة)، (ص50).

[3] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة مقعدة)، (ص131). تجيضون: تحيدون عن الحق.

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص321).

[5] المَرْجِع السَّابِق، ص320.

الَّذِيْ سيطر عَلَى الرَّجلِ مستشهداً بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ [القيامة: 24]، وَقَوْلُهُ في (المَقَامَة الهزليَّة): "وَإِذَا بالشَّيْخ قد استوى، وقال ما ضلَّ صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى"[1]. وهَذَا مُقْتَبَسٌ من قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ ﴾ [النجم: 2، 3]، وَمِنْهُ قولُـــهُ أَيْضَاً: "قال أنا المُبَارَكُ بن ريحان، من بطونِ قحطان، وإنِّي لأرى الفتاةَ قد شغفتك حبَّاً، وخلبتْ منك لبَّاً"[2]. وَيَرْسِمُ اليَازْجِيّ مشهدَ العَاشِقينَ الَّذِيْ لم يعد أَمَامَهُم إمكان الخلاصِ من سيطرته، والفكاكِ من قيده، وانتقى مَشْهَدَاً يلائم ذلك، وهو مشهد يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، وامرأة العزيز فِيْ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: 30]. فسيطرة الحبِّ، واستعمال الفعل الْمَاضِي المسبوق بـ (قد) (قد شغفته) أضفى عَلَى المَشْهَد جَمَالاً إِلَى جَمَالٍ، وحسناً إِلَى بهاءٍ.

أَمَّا قَوْلُهُ في (المَقَامَة المكيَّة): "فهيهاتَ أن تبرحَ من بيننا قبلَ بيننا، قال إنِّي لما تريدونَ أَقربُ من حبلِ الوريدِ، وأجرى من خيلِ البريدِ"[3]. فهو مُقْتَبَسٌ مِن قولِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: 16]. وقوله في (المَقَامَة الحليـَّة): "فقالَ إنَّ لي أسيراً أسعي في فدائِهِ قبل أن يهلكَ في عنائِهِ بدائِهِ، فلينفقْ ذو سعةٍ من سعته، وكلّ يعمل عَلَى شاكلته"[4]. مُقْتَبَسٌ مِن قولِهِ تَعَالَى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ ﴾ [الطلاق: 7]، وقوله تَعَالَى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء: 84].

وَلَمْ يبرحْ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق هَذَا اللَّوْن من البَدِيْع، ومن الاقْتِبَاس من الْقُرْآن الْكَرِيْم في (السَّاق عَلَى السَّاق) قوله: "ثم التفت إليّ مستعبراً، وقال: وأنت فما ترى، قلت: والله إنَّها لإحدى الكُبَر، ومعضلة تفيض لها العِبَر"[5]. وهَذَا الْكَلَام مُقْتَبَسٌ مِن قولِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ [المدثر: 35].

والاقْتِبَاسُ ملمحٌ بارزٌ تزيَّنتْ به النُّصُوْصُ المَقَامِيَّةُ. وَمِنْهُ قول عَبْد الله فِكْرِيّ: "فها هي تتهيَّأ لأمرٍ جسيمٍ، وتتجهَّزُ لإيقاعِ سحرٍ عظيمٍ، تعدُّ لـه الحِبَالَ والعِصِـيَّ، لتسحرَ الدَّاني

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الهزليَّة)، (ص104).

[2] المَرْجِع السَّابق، ص106.

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المكيَّة)، (ص320).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحليـَّة)، (ص319).

[5] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص133).

والقصيّ"[1]. اقتباسٌ من قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: 66].

وَلَمْ يهملْ أُدَبَاءُ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات) الاقْتِبَاسَ من الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، بَلْ وظَّفوا الآياتِ القرآنيَّةِ في تشكيلِ لوحاتٍ بارعةٍ مُعْتَمِدِينَ عَلَى قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، يَقُوْلُ بَهَاءُ الدِّينِ الْبِيْطَار: "هَذَا ما جئتُ به من بضاعتي المزجاةِ، لسيدي عزيزِ القدرِ والجاهِ"[2]. منقولٌ من قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف:88].

وَلَمْ يَبْتَعِدْ مُحَمَّد المُبَارَك عن بَهَاءِ الدِّينِ الْبِيْطَار، بَلْ سَافَرَ يتلمَّسُ جَمَالَ التَّشْكِيلِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، يَقُوْلُ: "فإِلَى مَتَى ونحنُ في جِدالٍ وجلادٍ؟ نتطاعنُ بأسنَّةِ ألسنةٍ حدادٍ؟!"[3]. يرسمُ مَشْهَدَاً متداوَلاً كانَ، ولا زالَ حَيْثُ تعتلي الْأَصْوَات، ويشتدُّ الجِدالُ، وتطولُ الألسنةُ الحِدَادُ الَّتِيْ تستحيلُ سيوفاً مشرعاتٍ تصيبُ في كلِّ آنٍ، وتطعنُ فِيْ كُلِّ مَكَانٍ صُحْبَةَ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ (نتطاعن)، والجمع (أسنَّة)، وكلمة (حداد) مَعْ مَا فِيْهَا مِنْ حِدَّةٍ، ومَضَاء، متيمِّناً بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب: 19]. وَكَأَنِّي بالمُبَارَكِ يريد أنْ يحذِّر من شَرِّ الألسنةِ، وخطرِ الجِدالِ.

ويكملُ مُحَمَّد المُبَارَك المسيرَ في التَّعلُّقِ بخيرِ كتابٍ، مُستلهِماً منه الْمَعَانِي فِيْ قَوْلِه: "وأضعتُ مندوبَ مَطَالِبِي، وَوَاجِبَ حقوقي! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أن تخشعَ للذِّكرِ، فتعترفُ لي برتبةِ التَّقْدِيمِ في الذِّكْرِ"[4]. فالمَشْهَدُ هُنُا يَرْسِمُ صُوْرَةً مِنْ صُوَرِ المفاخرةِ بَيْنَ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، مُعْتَمِداً عَلَى دالِ الاسْتِفْهَامِ (الْهَمْزَة)، وَمَا يَحْمِلُهُ الاسْتِفْهَامُ من إِنْكَارٍ، حَيْثُ يدافعُ اللَّيْلُ عن أحقيَّتِهِ بالسَّبْقِ، مُتلمِّساً قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: 16].

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص280).

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص77).

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غريب الأنباء في المُفَاخَرَة بين الْأَرْض والسَّمَاء)، (ص106).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص130).

ويعودُ مُحَمَّد المُبَارَك فَيَرْسِمُ مَشْهَدَ الْمُؤَامَرَةِ الواهيةِ فِيْ قَوْلِهِ: "سُحْقاً لَكَ أيُّها النَّهَارُ، فقد أَسَّسْتَ بنيانَكَ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ"[1]. حَيْثُ يُصَوِّرُ المُبَارَكُ الْجِدَالَ بَيْنَ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، فكُلٌّ منهما يأبى التَّنازلَ، لكنَّ اللَّيْلَ يَرْسِمُ له مَشْهَدَ النِّهايَةِ لضعفِ دعائِمِهِ مُقتبِساً حديثَهُ من قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: 109].

وَمِنَ الاقْتِبَاسِ من الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ قَوْلُهُ: "إنِّي أدمنتُ التَّردُّدَ عَلَى فرقةٍ من أهلِ الرِّقةِ والأَدَبِ، فألفيتهم لاقتناصِ شواردِ الْمَعَانِي من كُلِّ حَدَبٍ"[2]. مَأْخُوْذٌ من قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الْأَنْبِيَاء: 96].

وَلَمْ يتوقَّفْ مُحَمَّد المُبَارَك عِنْدَ ذَلِكَ، فقد اسْتَخْدَمَ الْمُتَنَاقِضَاتِ فِيْ نُصُوْصِهِ المَقَامِيَّةِ مُعْتَمِداً عَلَى توظيفِ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ فِيْ قَوْلِهِ: "قد مدَّتْ عَلَى أبنائها وارفَ ظلِّها، وحبتهم وافرَ وبلِهَا وطَلِّها"[3]؛ ليرسمَ مَشْهدَ الشِّتاءِ، ومَشَاهِدَ الخيرِ الَّتِيْ تملأ الرُّبَى، والوُهَادَ طولاً، وعرضاً رغمَ اختلافِ الظُّرُوْفِ، فالجنَّةُ جنَّةٌ، إنْ أصابها الوابلُ آتتْ فأكرمتْ، وإنْ لامسها الطَّلُّ جادتْ فأغنتْ، وَقَدْ تَعلَّقَ البَرْبِيْرُ هنا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: 265].

وَشَارَكَ مُحَمَّد الدَّيْسِيُّ أقرانَهُ من كُتَّابِ المَقَامَةِ عودتَهُم إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، والاقتباسِ من نُصُوصِهِ الحكيمةِ، يَقُوْلُ: "يا هادمَ البيوتِ، ويا أوهى من نسجِ العنكبوتِ"[4]. وَهُنَا لَمْ يجدْ مُحَمَّد الدَّيسيّ وصفاً أكثرَ حَقَارَةً من هَذَا الوَصْفِ ليخلعَهُ عَلَى الجهلِ والجاهلينَ، وَقَدِ انتقى الْأَلْفَاظَ بدقةٍ بالغةٍ لإضفاءِ مزيدٍ من التَّهكُّمِ والازدراءِ، والحَطِّ من قدرِ هَؤلاءِ مِنْ نَاحِيَةٍ، والتَّعْبير بِقَوْلِهِ: (هَادِمَ الْبُيُوتِ) مع ما حمله الهدمُ، وجَمْعْ (الْبُيُوْت) من الخطرِ الشَّديدِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وتابعَ باستعمالِ الدَّالِ (أَوْهَى) التَّفْضِيْلِ الَّتِيْ تحملُ بَيْنَ حروفِهَا شدَّةَ الضَّعْفِ مِنْ نَاحِيَةٍ ثالثةٍ، وزادَ المَشْهَدَ ضَعْفَاً دالُ (العَنْكَبُوت) الأنثى الَّتِيْ ترمزُ للوَهَنِ الشَّديدِ، والتَّداعِي، والتَّآكلِ مِنْ نَاحِيَةٍ

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص130).

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص151).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص171.

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مناظرة بين العلم والجهل)، (ص192).

رابعةٍ، وهَذَا مُقْتَبَسٌ منْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الْعَنْكَبُوْت: ٤١]. فبيوتُ الْجَهْلِ وَاهِيَةٌ، وقصورٌ الجاهلينَ أَوْهَنُ، وَأَوْهَى من بيتِ الْعَنْكَبُوْتِ.

ثانياً: الاقْتِبَاسُ مِنَ الحَدِيْثِ الشَّرِيفِ

لَمْ يبتعدْ أُدَبَاءِ المَقَامَةِ عن السنَّةِ النَّبويَّةِ، فقد أخذوا يستقونَ منها كلَّما دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَىْ ذَلِكَ، ويُضمِّنونَ مقاماتِهِم من عبقِهَا الطَّاهرِ، ويزيِّنونَ نُصُوصَهم بأقوالِ النَّبِيِّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، بيد أنَّ الاقْتِبَاسَ مِنَ الحَدِيْثِ الشَّرِيفِ لم يكنْ بتلكَ الدَّرجةِ الَّتِيْ سبقتْ في الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، وربَّما يعودُ الأمرُ إِلَى أنَّ الاقْتِبَاسَ من الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ كانَ أكثرَ يسراً مِنْ نَاحِيَةٍ، وكثرة الوضَّاعينَ للحديثِ الشِّريفِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

وعَلَى الرَّغْمِ من ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُمْكِنُ الْقَوْلُ إنَّ بعضَ النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ توشَّحتْ بالاقْتِبَاسِ مِنَ الحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ كُلَّمَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَىْ ذَلِكَ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ، قَوْلُ نَاصِيفِ اليَازْجِيّ: "فخرجتُ بالغلامِ أسعى، حَتَّى أفضيتُ إِلَى تِلْكَ البقعةِ الوُسْعَى، وهو غلامٌ فارِهٌ، أرى منه جَنَّةً لَمْ تحفّ بالمكارِهِ"[1]. حَيْثُ بدأ اليَازْجِيّ يصفُ الغلامَ، وَمَا يَحْمِلُهُ من وسامةٍ في جنَّةٍ عاليةٍ، قُطُوْفُهَا دَانِيَةٌ، وهَذَا اقتباسٌ مِنْ قَوْلِ رَسُوْلِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ"[2].

وَيَرْسِمُ بَهَاءُ الدِّينِ الْبِيْطَار مَشْهَدَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ فِيْ قَوْلِه: "وَمَنِ ادَّعَى مَا ليس له بِقَوْلِهِ أو فعلِهِ، فهلاكُهُ أَقْرَبُ إليه من شِراكِ نعلِهِ"[3]. حَيْثُ يصوِّرُ الْبِيْطَار مشهدَ الجنَّةِ ونعيمها، ومشهدَ النَّارِ وجحيمِهَا في مَشْهَدَيْنِ متقابلينِ يُضْفِيانِ عَلَى اللَّوْحَةِ المزيدَ من الوضوحِ والجلاءِ، مُقْتَبِساً ذَلِكَ من قَوْلِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : "الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ"[4].

ويحثُّ شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيّ الجموعَ عَلَى المحافظةِ عَلَى الخلافةِ، وحمايتها بشَتَّى الوسائلِ حَتَّى تقفَ عَلَى قدميها، وَمِنْ هُنَا يعتمدُ عَلَى الاقْتِبَاسِ مِنَ الحَدِيْثِ الشَّرِيفِ في (المَقَامَة

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة العدنيَّة)، (ص273).

[2] [مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب (51)، ج2174/4: رَقَمِ الْحَدِيْثِ (282].

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص89).

[4] [الْبُخَارِيّ، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيْل، صَحِيْحُ الْبُخَارِيّ، دار طوق النَّجاة، باب (29)، ج102/8: رَقَمِ الْحَدِيْثِ 6488].

السَّاسانيَّة)، يَقُوْلُ: "فقالتِ الخلافةُ تحتَ أفياءِ لوائِها، حَتَّى حموهم من نوائبِ الحتوفِ، وزهتْ جنَّةُ مثواهم تحتَ ظلالِ السُّيوفِ"[1]. والْكَلَامُ اقتباسٌ من قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "يأيُّهَا النَّاسُ! لا تَتَمَنَّوْا لقاءَ العدوِّ واسأَلُوا اللهَ العافيةَ. فَإِذَا لَقيتُمُوهم فاصبروا. واعلمُوا أَنَّ أَبْوَابَ الجنَّةِ تحتَ ظلالِ السُّيوفِ"[2]. وقد برعَ الْأَدِيْبُ هُنَا في انْتِقَاء الْأَلْفَاظِ الَّتِيْ تُضْفِي عَلَى المَشْهَدِ الحقائقَ، مُعْتَمِداً عَلَى البنى التَّشبيهيَّةِ الْبَلِيْغَةِ المستمدَّة من عَنَاْصِرِ البِيْئَةِ ، حَيْثُ صوَّرَ الخلافةَ بشجرةٍ وارفةِ الظِّلالِ، عظيمةِ الأفياءِ، وصوَّرَ السُّيوفَ كَذَلِكَ بالظِّلالِ، وكأنِّي به يحذِّرُ من الخُنوعِ والضَّعفِ، ويَحُثُّ عَلَى القتالِ، والقُوَّةِ لحمايةِ الخلافة.

ولَمْ يَبْرَحِ الْأُدَبَاءُ أركانَ الدِّينِ الإسلاميِّ، بل تناولوها فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ بصورةٍ متفرِّدةٍ لَمَّا تحدَّثوا عن الماءِ وفضلِهِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا الاقْتِبَاسِ، قَوْلُ أَحْمَد البَرْبِيْر: "أما عرفتَ أنَّني أرفعُ الْأَحْدَاثَ، وأُطَهِّرُ الأخباثَ، وأجلو النَّظَرَ، وأكونُ للمؤمنينَ في الآخرةِ نوراً في محلي التَّحجيلِ والغررِ"[3]. حَيْثُ رَسَمَ البَرْبِيْرُ لوحاتٍ متتابعةً لأفضالٍ كَثِيْرةٍ يتنعَّمُ بها الماءُ عَلَى البشرِ، مُعْتَمِداً عَلَى دالِ (الْمُضَارِع) أكثر من مَرَّةٍ، فِيْ قَوْلِهِ: (أرفعُ، أطهِّرُ، أجلو، أكونُ)، متعلِّقاً بِقَوْلِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "إنَّ أُمَّتي يدعونَ يومَ القيامةِ غُرًّا محجَّلينَ من آثارِ الوضوءِ"[4].

ثَالِثَاً: الاقْتِبَاسُ مِنَ الأَدَبِ

الحَدِيْثُ حَوْلَ الأَدَبِ، شعره ونثره يطولُ، والعباراتُ الَّتِيْ تصفُ الشِّعرَ أكثرُ طولاً؛ فهو ديوانُ العربِ، وصفحاتُهُ الَّتِيْ خَطُّوا فيها عاداتهم، وتقاليدهم، وسجلوا عقائدَهُم وأيامَهُم، فأضحى الشَّعرُ بِمَثَابَةِ الْمَرْآةِ الَّتِيْ يرى فيها الْعَرَبِيُّ صُوْرَتَهُ، وَغَدا أُغْنِيَتَهُ الْجَمِيْلَةَ الَّتِيْ يَتَرَنَّمُ بكلماتِهَا، ومُوْسِيْقَاه الْعَذْبَةَ الَّتِيْ يستمتع بنغماتِهَا، ومعناه الرَّائعَ، وَمَلَاذَهُ لَمَّا يشعرُ بالحنينِ، وَوَطَنَهُ عِنْدَما تُهَاجِمُهُ الْغُرْبَةُ، وعمرَهُ المديدَ الَّذِيْ لم ينتهِ بعدُ، ورأيَهُ السَّديدَ لمَّا تضمحلُّ الآراءُ، وَظِلَّهُ الوارفَ لَمَّا تشتدُّ الحرارةُ، ولم تنعمْ عليه بالبردِ السَّماءُ، وَرَوْضَتَهُ الْجَمِيْلَةَ الَّتِيْ تمنحُهُ السَّعادةَ والهناءَ، وَشَمْسَهُ المشرقةَ الَّتِيْ تجودُ عليه بالضِّياءِ، وَصَفْحَتَهُ النَّاصعةَ الَّتِيْ تهبه الآياتِ، والآلاءِ.

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا، (المَقَامَة السَّاسانيَّة)، (ص393).

[2] [مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسِّيَر، باب (6) عدم تمنِّي لقاء العدو، والأمر بالصَّبر عند اللقاء، ج1362/3، 1363: رَقَمِ الْحَدِيْثِ 1742].

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص36).

[4] [مسلم، صحيح مسلم، كتاب (الطهارة)، باب (12)، ج216/1: رَقَمِ الْحَدِيْثِ 246].

وَعَوْدَةٌ إِلَى النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ الَّتِيْ لا تكادُ تخلو منْ شَوَاهِدِ الاقْتِبَاسِ من الشِّعرِ كونه مورداً عَذْباً لهَذَا اللَّوْنِ، فهي تحفلُ بمثلِ هذه الاقْتِبَاساتِ، حَيْثُ تنسَّمَ الْأُدَبَاءُ عَبَقَ التَّاريخِ، واقتفوا تراثَ السَّابقينَ ينهلونَ منه مَتَى شَاءوا، فارتحلوا عائدينَ إِلَى روائعِ الشِّعرِ الجاهليِّ، والإسلاميِّ، والأمويِّ، وَلَمْ يبرحوا كَذَلِكَ بدائعَ الشِّعْرِ العباسيِّ، والأندلسيِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِ التَّعلُّقِ بأستارِ العباسيينَ، وشعرِهِم قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الهزليَّة): "ورُبَّ طُرفةٍ خيرٌ من تُحفةٍ، فإنْ كنت قد ظمئت إِلَى الضَّحْلِ، ونسيت أنْ لابدَّ دونَ الشَّهدِ من إبرِ النَّحلِ"[1]، مُقْتَبَسٌ من قولِ أبي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي:

تُرِيْدِينَ لُقْيَانَ الْمَعَالِي رَخِيْصَةً وَلَابُدّ دُوْنَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحلِ[2]

ويصوِّرُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ معاناتِهِ آلام الملِ والسَّأمِ، فقد أضحى ليلُهُ طويلاً لا يكادُ ينتهي، يشبهُ موجَ البحرِ في تتابُعِهِ، قلقٌ لا يتذوَّقُ طعمَ النَّومِ حَالُهُ حَالُ الملسوعِ، يَقُوْلُ اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الهزليَّة): "فبتُّ عِنْدَه بليلةِ الملسوعِ، وعيني لا يأخذُهَا الهجوعُ"[3]. وهَذَا الْكَلَام مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِ كَثِيْر عَزَّةَ:

أَتَبِيْتُ رَيَّانَ الجُفُونِ مِنَ الكَرَى وأَبِيْتُ مِنْكَ بِلَيْلَةِ المَلْسُوْعِ[4]

وِمِنْ استلهامِ تراثِ الْمُتَنَبِّي قَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "وفي ذَلِكَ إشارةٌ إِلَى حُسْنِ ما اشتملتْ عليه، وقدْ قِيْلَ شبيهُ الشَّيْء مُنْجَذِبٌ إليه"[5]. يَقُوْلُ:

وشِبْهُ الشَّيْء مُنجَذِبٌ إِلَيْهِ وأشْبَهُنَا بِدُنْيانا الطَّغَام[6]

ويفخرُ الشَّيخُ مُحَمَّد المُبَارَك عَلَى لسانِهِ بِسُمُوِّ السَّمَاءِ، وعِظَمِ قدرِهَا لمَّا فاخرتِ الْأَرْضَ، وَمِنْ شَوَاهِدِ الاستشهادِ بالشِّعْرِ قَوْلُهُ: "فمن أعظم ما فُقْتُ به حُسْنَاً وجَمَالاً، وَكِدْتُ بأخمصي أطأُ الثُّريا فَضْلاً وَكَمَالاً"[7]. وهو مَأْخُوْذٌ من قَوْلِ الشَّاعِرِ:

---

(1) اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الهزليَّة)، (ص108).

(2) الْمُتَنَبِّي، دِيْوَان الْمُتَنَبِّي، (ص 518).

(3) اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (ص106، ص107).

(4) كَثِيْر عزة، دِيْوَان كَثِيْر عزة، (ص328).

(5) الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص92).

(6) الْمُتَنَبِّي، دِيْوَان الْمُتَنَبِّي، (ص 102). الطَّغام: الأراذل أو الأوغاد.

(7) الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص95).

وَمِمَّـــا زَادَنِـــي شَـــرَفاً وَتِيْهَـــاً وَكِدتُ بِأُخْمُصِي أَطَـأ الثُّرِيَّـــــا[1]

وَهُنَا يرتفعُ ويسمو، ويفوقُ ويعلو، ويتفرَّدُ بالحسنِ والْجَمَالِ، ويغادرُ الثَّرَى، ويطأُ الثُّرَيَّا مُتفوِّقاً عَلَى الْأَرْضِ، كَيْفَ لا؟ وهو كائنٌ في السَّمَاءِ، ومُسْتَقِرٌ في العَلْيَاءِ.

وَيدْمِجُ شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيّ بين مَشْهَدَيْنِ متفارقينِ، مشهدِ الْجَمَالِ، وما فيه من راحةٍ نفسيَّةٍ، ومشهدِ الدُّموعِ، ما يكتنفُهُ من حزنٍ في أسلوبٍ بلاغيٍّ متفرِّدٍ تنتفي خِلَالَهُ المفارقةُ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي (مقامة الغُربة): "وَلَمْ تنثرْ دُرَر المدامعِ إلَّا من دُرٍّ مُوْدَعٍ في صدفِ المسامعِ"[2]. وهَذَا الْقَوْلُ أصلُهُ قولُ الزَّمَخْشَرِيِّ:

وَقَائِلَـةٌ: مَـا هَـذِهِ الـدُّرُرُ الَّتِـيْ تُسَاقِطُهَا عَيْنَاكَ سِمطَينِ سِمطَينِ؟[3]

فَقَدْ جمعَ شِهَابُ الدِّين الخَفَاجِيّ بَيْنَ الْحَقِيْقَةِ والمَجَازِ، فَقَدْ تمثَّلَ المَشْهَدُ في استعارتينِ مكنيتين، حَيْثُ جَعَلَ ما جرى من دموعِهَ دُرَّاً في نسقٍ رائقٍ، وَجَعَلَ ما سمعه من أبي مُضَرٍ دُرَراً ذاتَ نظمٍ فائقٍ. كَمَا يمكنُ أَنْ يَكُوْنَ المَشْهَدُ تشبيهاً بليغاً لَمَّا صَوَّرَ المدامعَ بالدُّرَرِ، والمسامعَ بالصَّدفِ من بابِ إضافةِ المُشَبَّهِ بِهِ إِلَى المُشَبَّهِ. وَمِنَ الْبَرَاعَةِ هُنَا "أنَّه بنى عليه ما صيَّرهُ بديعاً مستغرباً، حَيْثُ صَيَّرَ الدُّرَّ الَّذِيْ كانَ مُودَعَاً في الآذانِ لرقَّته دمعاً جرى من العُيُوْنِ والأجفانِ، وتصرَّفَ فيه تصرُّفاً آخرَ أخرجَهُ من بابٍ آخرَ، فالظَّاهرُ أنَّهُ من قلبِ الأعيانِ الجوهريَّةِ، كقلبِ عصا مُوسَى حيَّة، فلنسمِّهِ سِحْرَ الشُّعَرَاءِ، وقلب أعيانِ الْمَعَانِي"[4].

وَيُبْدِعُ الْأُدَبَاءُ في عَوَالِمِ الاقْتِبَاسِ، بالعودةِ إِلَى روائعِ الشِّعْرِ العباسيِّ الَّتِيْ كَانَتْ ولا تزالُ مَنْهَلاً عَذْباً يرده المُتَعَطِّشِيْنَ لِلجَمَالِ، فقدْ قَصَدَهُ الْأُدَبَاءُ لرسمِ مشهدٍ من مَشَاهِدِ التَّذَلُّلِ والخُضُوعِ لمن يستحقُ، فلا مكانَ للمنافقينَ، ولا متَّسَعَ للمرجفينَ، من شَوَاهِدِ ذَلِكَ قولُ شِهَابِ الدِّينِ الخَفَاجِيّ في مَقَامَةِ (الغربة):

لَوْ أَنْصَفُوهُ لَقَامُوا فِـيْ مَجَالِسِـهِ عَلَى الرُّؤُوْسِ قِيَامَ الظِّلِّ فِيْ الْمَاءِ[5]

وهَذَا الْقَوْلُ أصلُهُ قولُ البحتريِّ:

---

[1] هَذَا الشعر يُنْسَبُ إلى الإمام القاضي (عياض بن موسى اليحصبي الأندلسيّ) (ت544هـ).

[2] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا (مَقَامَة الغربة)، (ص386).

[3] الزَّمخشريّ، دِيْوَان جارالله الزمخشري، (ص588). (السّمط: الخيط ما دام فيه الخرز).

[4] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا (مَقَامَة الغربة)، (ص389).

[5] المَرْجِع السَّابِق، ص374.

لَوْ أَنْصَفُوْكَ وَهُمْ قِيَامٌ أشبهَتْ أَشْخَاصهُم أَشْبَاهُهَا فِيْ المَاءِ[1]

فهو يستحقُّ أن يقفَ له الْجَمِيْعُ تبجيلاً، واحتراماً من بابِ الْإِنْصِافِ والعدلِ مَعْ تضمِينِ الْكَلَامِ بروائعِ التَّشبيهِ التَّمثيليِّ.

وَمِنْ مَشَاهِدِ استلهامِ التُّرَاثِ العباسيِّ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "وحواليه حلقةٌ من ذوي البُوسَى، كأَنَّهُمْ من بقايا قومِ مُوْسَى"[2]. وهَذَا مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي نواس:

كَأَنَّكَ مِنْ بَقَايَا قَوْمِ مُوْسَى فَهُم لَا يَصْبِرُونَ عَلَى طَعَامِ[3]

كَمَا عادَ الْأُدَبَاءُ إِلَى فرسانِ الكلمةِ في العَصْرِ الأُمَوِيِّ، فلم يهملْ هَؤلاءِ روائعَ مثلثِ الرُّعبِ الأمويِّ، جرير، والْفَرَزْدَق، والأخطل، ومن مَشَاهِد ذَلِكَ ما حَمَلَتْهُ (المَقَامَة الحلبيَّة): "ومن تردَّى بساطعِ الأنوارِ، واحتبى بحباءِ الوقارِ، ولم يبقَ له ليلٌ يصيح بجانبيه نَهَارٌ"[4]. والْقَوْلُ اقتباسٌ من بيتِ الْفَرَزْدَق:

والشَّيْبُ يَنْهَضُ فِيْ السِّوادِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيْحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ[5]

فقد كَانَتْ عَنَاْصِرُ الطَّبِيْعَةِ، ولا تزالُ مَنْهَلاً عَذْبَاً يردُهُ الْأُدَبَاءُ كُلَّمَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَىْ ذَلِكَ، فكَيْفَ إذا أحاطتْ هذه العَنَاْصِرُ بالْإِنْسَانِ إحاطةَ الثَّوبِ بالجسدِ، أو الإسورةِ بالمعصمِ، فأضحتِ الأنوارُ ثوباً جميلاً، وارتدَّ الوقارُ كِسَاءً بارعاً أضاءا ظلمةَ اللَّيْلِ البهيمِ.

وَلَمْ يُهْمِلِ الْأُدَبَاءُ روائعَ العَصْرِ الأندلسيِّ، فَقَدْ تلمَّسوا روائِعَهُ كُلَّمَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَىْ ذَلِكَ، فقد اسْتَلْهَمَ هَؤلاءِ تراثَهُم، وضَمَّنوه فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، كَيْفَ لَا؟ وحنينُهُم الجارفُ دفعهم إِلَى تِلْكَ الحقبةِ الْمُضِيْئَةِ من حقبِ التَّاريخِ الإسلاميِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِ الاقتباسِ من النُّصُوْصِ الأندلسيَّةِ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "فأذهلني ذَلِكَ الطَّويلُ العريضُ، عن الدَّواءِ والمريضِ"[6]. وَهُنَا قصد اليَازْجِيّ الحَدِيْثَ عَنِ العظمةِ والشُّموخِ مِنْ خِلَالِ بِنْيَةٍ كنائيَّةٍ، مُعْتَمِدَاً عَلَى قَوْلِ ابنِ سناءِ الملك:

---

[1] البحتريّ، دِيْوَان البحتريّ، (ص53).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة التغلبيَّة)، (ص85).

[3] أبو نواس، دِيْوَان أبي نواس، (ص652).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحلبيَّة)، (ص58).

[5] الْفَرَزْدَق، دِيْوَان الْفَرَزْدَق، (ص323).

[6] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحلبيَّة)، (ص58).

تَقَلُّـــبُ الشِّـــعْرِ عَلَـــى ردفِـــهِ أَوْقَعَ قَلْبِي فِي العَرِيْضِ الطَّوِيلِ[1]

وَمَلْمَحُ الْجَمَالِ هُنَا يتمثَّلُ في الجمعِ بين فنونِ البَيَانِ وألوانِ البَدِيْع، حَيْثُ كَنَّى عن الأمرِ الْعَظِيمِ بِقَوْلِهِ: (الطَّويل العريض)، ثُمَّ أضفى جَمَالاً آخَرَ لمَّا عادَ إِلَى عُصُورِ الْجَمَالِ، مُقْتَبِساً كلامَهُ من قَوْلِ ابنِ سناءِ الملك.

وَيظلُّ الحريريُّ في عقولِ الْأُدَبَاءِ عَلَى مدى العُصُوْرِ نقطةً فارقةً، وَمِنْهُلاً يستقونَ منه كُلَّمَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَىْ ذَلِكَ، كَيْفَ لا؟ وهو إمامُ أُدَبَاءِ المَقَامَةِ، فقدْ نَهَلَ من موردِهِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ فِيْ قَوْلِهِ: "فحسرتُ عن ساقي ويدي، وقلت سَرُوجَ يا ناقَ فسيري وخِدِي"[2]. والْكَلَامُ اقتباسٌ من أبياتٍ للحريريِّ فِيْ مَقَامَاتِهِ، فِيْ قَوْلِهِ:

سَـروجَ يـا نَـاقَ فَسـيري وخِـدِي وأدْلِجِـــي وأوّبـــي وأسْـــئِدي[3]

تنوَّعتْ مشارِبُ الْأُدَبَاءِ في الاقْتِبَاسِ، فَقَدْ نهلوا من الأَدَبِ الجاهليِّ، والأُمويِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "فحدَّقَ القومُ إليه بالنَّظرِ، وقَالُوا: قَدْ عرفنَاهُ، وَهَلْ يخفى الْقَمَرُ؟"[4]. وهَذَا الْقَوْلُ مَأْخُوْذٌ من قولِ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ:

بَيْنَمَـــا يَـــذْكُرْنَني أَبْصَـــرْنَني دُوْنَ قَيْدِ الميلِ يَعْدو بـي الأَغَرْ
قَالَـتِ الكُبْـرَى: أَتَعْـرِفْنَ الفَتَـى؟ قَالَتِ الْوُسْطَى: نَعَمْ، هَذَا عُمَر
قَالَـتِ الصُّـغْرَى، وَقَـدْ تيَّمتهـا قَدْ عَرِفْنَاهُ، وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَر؟[5]

تفوَّق اليَازْجِيّ لمَّا أحسنَ الاختيارَ، واعتلى القممَ عِنْدَمَا أجادَ الانْتِقَاء، فقدْ جَمَعَ بينَ المَثَلِ والاقْتِبَاسِ، إِلَى جانبِ الاعتمادِ عَلَى أسلوبِ الحوارِ حَتَّى ينتهي إِلَى رَسْمِ مشهدِ الشُّهرةِ مُعْتَمِداً عَلَى دال الاسْتِفْهَامِ (هَلْ) الَّذِيْ خرجَ عن معناه الأصليِّ إِلَى معنى النَّفْيِ فِيْ قَوْلِه: (وَهَلْ يخفى الْقَمَرُ؟)، فالممدوحُ عالي القدرِ، لِذَا ختمَ اليَازْجِيّ حديثَهُ قَائِلاً: "وَحَيَّاهُ تحيَّةَ الرَّئيسِ الأَجَلِّ"[6].

---

[1] ابن سناء الملك، دِيْوَان ابن سناء الملك: (ص437).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة السروجيَّة)، (ص172).

[3] الحريريّ، مقامات الحريريّ، (ص74).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الْأَدَبيّة)، (ص252).

[5] ابن أبي ربيعة، شرح دِيْوَان عمر بن أبي ربيعة المخزوميّ، (ص143). وابن أبي ربيعة، دِيْوَان عمر بن أبي ربيعة، (ص90).

[6] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الْأَدَبيّة)، (ص253).

لَمْ يُهْمِلِ الْأُدَبَاءُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ مَشَاهِدَ البيئةِ الَّتِيْ عرفها العربُ، فقد طرقوا أبوابَهَا، وتغنّوا في أشعارِهِم بِهَا، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "فَإِنَّكُم أهدى في الخُطَى من القَطَا"[1]. والْقَوْلُ مُقْتَبَسٌ من قولِ الشَّاعِرِ، الطِّرِمَّاحِ بنِ حكيمٍ:

تَميمٌ بِطُرْقِ اللُّؤْمِ أهْدَى مِنَ القَطَا ولوْ سَلَكَتْ طُرُقَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتِ[2]

وَمِن الاقْتِبَاسِ من الشِّعْرِ أَيْضَاً قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الأنباريَّة): "فعرفتُ حينئذٍ أنَّها ليلى الْخُزَامِيَّةُ، واستنبأتها عن تِلْكَ المقالةِ الحَذاميَّةِ"[3]. وهو اقتباسٌ من قَوْلِ ابنِ قَلَاقِس:

إِذَاْ قَاْلَـــتْ حَـــذَامِ فَصَـــدِّقُوهَا فَـإِنَّ الْقَـوْلَ مَـاْ قَالَـتْ حَـذَامِ[4]

ولَمْ يُهْمِلِ الْأُدَبَاءُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيُّ المَشَاهِدَ الحيَّةَ، والْأَحْدَاثَ المتداولةَ الَّتِيْ تناقلتها العربُ في العَصْرِ الأمويِّ، ومن اسْتِلْهَامِ التُّرَاثِ الشِّعريِّ في هَذَا العَصْرِ قَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "فاسْوَدَّ وجهُ اللَّيْلِ، وانقلبَ بِحَشَفٍ وسوءِ كيلٍ، وَنَدِمَ عَلَى مناضلةِ النَّهَارِ، ندامةَ الْفَرَزْدَقِ حِيْنَ فارقَ النَّوَّارَ "[5]. مُقْتَبَسٌ من قَوْلِ الْفَرَزْدَقِ:

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة العدنيَّة)، (ص272). القطا: طائر يوصف بالهداية. يضرب بها المثل بصدقها ، فقد قالت العرب في أمثالها (أصدق من القطاة)، وبناء عليه علَّل أهل العلم تشبيه النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– المسجد بمفحصها. إشارة إلى الإخلاص في بناء المسجد، فالرسول الكريم – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ= = قال في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه في سننه بسند صحيح من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً: "من بنى مسجداً لله ولو كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتاً في الجنة"، ولعلَّ اختيار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لموطن القطاة في حديثه دون سواه من مواطن الطيور، أو غيرها لسبب أنها لا تبيض في عشٍّ، أو عَلَى رأس جبلٍ، وإذا أرادت أن تبيض فحصت في الرَّمل بجدٍ، وصدقٍ، واخلاص، وكشفته حتى تضع بيضها فيه عَلَى بسيط الْأَرْض، لذلك شبه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمفحصها المسجد، ولأجل صدقها كما قيل عنها إشارة إلى الإخلاص في بنائه. (القطا في الحديث الشريف وكلام العرب)، موقع إليكتروني (المعهد الإسلاميّ): *www.islamicforumarab.com*

[2] الطرماح، دِيْوَان الطرماح، (ص74)، يُنْظَر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، (ج318/2).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الأنباريَّة)، (ص290). حذام: زرقاء اليمامة.

[4] ابن قلاقس، دِيْوَان ابن قلاقس، (ص64). وينسب إلى ديسم بن طارق، الأنصاريّ، أوضح المسالك عَلَى ألفية ابن مالك، (ج153/3). ابن عقيل، شرح ابن عقيل عَلَى ألفية ابن مالك، (ج94/1). الأنصاريّ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، (ج220/1).

[5] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص127).

نَــدِمْتُ نَدَامَــةَ الكُسَــعِيّ لَمّــا غَــدَتْ مِنِّــي مُطَلَّقَــةً نَــوَارُ[1]

فَقَدِ اعْتَمَد المُبَارَكُ هُنَا عَلَى الاقْتِبَاس من المَثَلِ "أحشفاً وسوء كِيلةٍ"[2]، مِنْ نَاحِيَةٍ، والْبِنْيَةِ التَّشْبيهيَّةِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، واستلهامِ الشَّخْصِيَّاتِ مِنْ نَاحِيَةٍ ثالثةٍ؛ ليصوِّرَ مَدَى النَّدامةِ وعظمَهَا يومَ لا ينفعُ النَّدمُ؛ فالهزيمةُ نكراءُ، والخصمُ عنيدٌ لا مجالَ لمناضلتِهِ، ولا طَاقَةَ لمجابهتِهِ.

وَمِنَ المَشَاهِدِ الَّتِيْ تكرَّرتْ كَثِيْراً في الأَدَبِ العربيِّ مَشْهَدُ النَّاقةِ، خَاصَّةً في الأَدَبِ الجاهليِّ، وتبعهم في تصويرِ المَشْهَدِ – رَغْمَ بُعْدِ المسافةِ – أُدَبَاءُ المَقَامَةِ، يَقُوْلُ ناصيفُ اليَازْجِيّ: "وَلَكِنْ قدْ أناخَ الدَّهرُ عليَّ بكلكلِهِ، وأخنى عليَّ الهرمُ بأفْكَلِهِ"[3]. فقدْ تفوَّق اليَازْجِيّ في تقديمِ مَشْهَدِ السَّآمةِ والأَرَقِ، مُعْتَمِداً عَلَى أَرْوَعِ ما نُظِمَ حَوْلَ هَذَا الْمَعْنَى في الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ، مُقْتَفِياً أَثَرَ امرئ القيسِ فِيْ قَوْلِهِ:

فَقُلْــتُ لَــهُ لَمَّــا تَمَطَّــى بِصُلْبِــهِ وأَرْدَف أَعْجَــازاً وَنَــاءَ بِكَلْكَــلِ[4]

وَيُصوِّرُ الحَدِيْثُ هُنَا الْحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ السَّيِّئَةَ الَّتِيْ وَصَلَ إِلَيْهَا الْمَقْصُودُ، حَيْثُ تَعَاقَبَتْ عَلَيْهِ الْمِحَنُ وَالصُّرُوْفُ، وَتَوَالَتِ الْمَصَائِبُ، وَصَعْبُ الظُّرُوْفِ، وَتَآمَرَ عَلَيْهِ كلُّ شَيْءٍ حَتَّى الدَّهْرُ، وَالَهِرَمُ، فَغَدَا ضَعِيْفَاً أَصَابَهُ الوَهَنُ، فَهُوَ يَرْتَعِدُ مِنْ شدَّةِ ضَعْفِهِ، وَيَرْتَجِفُ مِنْ عِظَمِ وَهَنِهِ.

وَلَمْ يبرحْ شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيّ الْعَاشِقِيْنَ مِنَ الشُّعَرَاءِ، وعَلَى رأسهم كُثَيِّرُ عَزَّةَ، فها هو يصدحُ بأَرْوَعِ الأبياتِ الَّتِيْ تغنَّتْ بها العربُ، وتناولتها كتبُ التُّرَاثِ بالشَّرحِ والتَّحليلِ، يَقُوْلُ: "أَقْسَمْتُ بِبَيْتٍ سَالَتْ بِبَطْحَائِهِ أَعْنَاقُ المَطَايَا، وتَمِل رُكَبانُهُ بِكَأسِ السُّرَى فِيْ الغَدَايَا والعَشَايَا"[5]. اقْتِبَاسٌ مِنْ قَوْلِ كُثَيِّر عَزَّةَ:

وَلَمَا قَضَيْنَا مِنْ مِنَى كلّ حَاجَةٍ وَمَسّحَ بِالأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَى دُهْمِ المَهَارى رِحَالنَا ولَمْ يَنْظُرِ الغَادِي الَّذِيْ هُوَ رَائِحُ

---

(1) الْفَرَزْدَق، دِيْوَان الْفَرَزْدَق، (ص257). الكسعي: هو محارب بن قيس، يضرب به المثل في الندامة، ويذكرون من خبره أنه كانت له اقواس رمى بها بعض حمر الوحش فأصابها، وظن أنه أخطأها، فكسر الأقواس. النَّوار زوج الْفَرَزْدَق، وقد طلقها فندم عَلَى ذلك. يُنْظَر، العسكري، جمهرة الأمثال، (ج257/2).

(2) الْمَيْدَانِيّ، مَجْمَع الْأَمْثَال، (ج207/1).

(3) اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة النجديَّة) (ص407). الأفكل: الرَّعدة.

(4) القيس، دِيْوَان امرئ القيس، (ص117).

(5) الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا، (مَقَامَة الغربة) (ص382).

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَــادِيثِ بَيْنَنَـــا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَــاطِحُ[1]

وَيعُودُ أَحْمَد البَرْبِيْر إِلَى روائعِ العَصْرِ العباسيِّ، مُسْتَلْهِماً تُرَاثَ أَبِي تَمَّام، ومن مَشَاهِدِ ذَلِكَ ما حَمَلَهُ قَوْلُهُ: "وَأَنَا لا أحبُّ الْمَعَالِي، وَأَنَا سلمٌ للمحلِّ المنخفضِ، وحربٌ للمكانِ العَالِي"[2]. وهَذَا اقتباسٌ من قَوْلِ أَبِي تَمَّام:

لا تُنكِرِي عَطَلَ الكَرِيمِ مِنَ الغِنَى فَالسَّيلُ حَربٌ لِلمَكانِ العَـــالِي[3]

وقد اعْتَمَد أَحْمَدُ البَرْبِيْر عَلَى روائعِ التَّشْبيهِ الضِّمنيِّ فَقَدْ شَبَّهَ خُلُوَّ الرَّجلِ الكريمِ مِنَ الغِنَى، وحرمانَهُ مِنَ المالِ لكثرةِ عطايَاهُ، وهَذَا أمرٌ غريبٌ، لذلكَ سَاقَ لَهُ دليلاً، فشبَّهَهُ بحرمانِ المكانِ العالي من استقرارِ المياهِ عليْهِ، بجامعِ مطلقِ الحرمانِ في كِلَيْهِمَا، مَعْ مَا يحملُهُ المَعْنَى في باطنِهِ مِنْ مكانةٍ ساميةٍ، ومنزلةٍ رفيعةٍ.

وَشَارَكَ بَهَاءُ الدِّينِ الْبِيْطَار أندادَهُ في اقتفاءِ آثارِ الشُّعَرَاءِ العباسيينَ فِيْ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات)، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "قالتِ العنقاءُ: فهاجِ بِي نسيمُ الغرامِ، وماجِ بِي بحرُ الوجدِ والهيامِ. أنْ أَنْحُوَ نَحْوَ هَذَا الأثرِ، وأنْ أتشبَّهَ بالشَّمْسِ والْقَمَرِ؛ لأنَّ التَّشبُّهَ بالكرامِ فلاحُ، والتَّنبُّهَ للاقتداءِ بِهِم نجاحُ"[4]. فَقَدْ حَمَلَ الحنينُ الْأَدِيْبَ إِلَى تراثِ العَصْرِ العباسيِّ، مُقتدياً بقولِ السَّهْرَوَرْدِيِّ:

فَتَشَـبَّهُوْا إِنْ لَـمْ تَكُوْنُـوْا مِـثْلَهُم إِنَّ التَّشَــبُّهَ بِــالْكِرَامِ فَــلَاْحُ[5]

وَمِنَ الحكمِ الْبَلِيْغَةِ، والْأَمْثَالِ الحكيمةِ الَّتِيْ ستظلُّ تاجاً من تيجانِ الأَدَبِ الرَّفِيعِ، وعقداً من عُقُودِ الدُّرِّ النَّضيدِ ما ضمَّنَهُ أَحْمَد البَرْبِيْر نُصُوْصَهُ المَقَامِيَّةَ عائداً إِلَى روائعِ الشِّعْرِ العباسيِّ، وأيَّة عودةٍ حميدةٍ هذه التي تتمثَّل فِيْ قَوْلِهِ: "فكم تواتر عنك حديث تشمئزُّ منه النَّفسُ، وتَمُجُّهُ الأُذُنُ، وحسبكَ من العنادِ أنَّكَ تجري بما لا تشتهي السُّفُنُ"[6]. مُسْتَلْهِماً تُرَاثَ أبي الطَّيب الْمُتَنَبِّي فِيْ قَوْلِهِ:

---

(1) كَثِيْر عزة، دِيْوَان كَثِيْر عزة، (ص525).

(2) الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص36).

(3) التبريزي، شرح دِيْوَان أبي تمام، (ج38/2).

(4) الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص75).

(5) السَّهروردي، دِيْوَان السَّهروردي، (ص7).

(6) الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص33).

مَـا كُـلُّ مَـا يَتَمَنَّـى الْمَـرْءُ يُدْرِكُـهُ تَجْرِي الرّيَاحُ بمَـا لَاْ تَشْتَهِي السُّفُنُ[1]

فالْإِنْسَانُ يجتهدُ ويجدُّ، ويسعى ويكدُّ، ويصعدُ الجبالَ هروباً مِنَ العيشِ فِيْ الحفرِ، بَيْدَ أنَّ التَّيارَ المعاكسَ قَدْ يغالبُهُ أَحْيَانَاً، فلا يدركُ ما يتمنَّى، ولا يحقِّقُ ما يَصْبُو إليهِ.

ويُشَكِّل أَحْمَد البَرْبِيْر لوحةً ثنائيَّةَ الأبعادِ مُعْتَمِدَاً عَلَى الاقْتِبَاسِ منَ الشِّعرِ مِنْ نَاحِيَةٍ، والتَّشكيل الْكِنَائيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، مُسْتَلْهِمَاً تُرَاثَ العباسيينَ، وَمِنْ رَوَائِعِ هَذَا الاقْتِبَاسِ، قَوْلُهُ: واستفتحَ باباً بَعْدَ بابٍ. إِلَى أنْ وصلتُ مواطئَ الأنوارِ، وحصلتُ بمواطنِ الْأَسْرَار"[2]، حَيْثُ استلهمَ الْأَدِيْبُ تراثَ أَبِي فِرَاس الحمدانيّ:

فَلَمَّـــا شَـــرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيْبُهَـــا إِلَى مَوْطِنِ الْأَسْرَار قُلْتُ لَهَا قِفِي[3].

حَيْثُ تابع البَرْبِيْر المسيرَ خطوةً تتلوها خطوةٌ، واستفتحَ الأبوابَ باباً يتبعه بابٌ حَتَّى أدركَ النُّورَ، وأصابَ القُلُوْبَ مِنْ خِلَالِ بِنْيَةٍ كنائيَّةٍ من بابِ الموصوفِ وهو (القلب) فِيْ قَوْلِه: (مواطن الْأَسْرَار). فجمعَ بِذَلِكَ بينَ الْبَدِيْعِ والْبَيَانِ فِي صُوْرَةٍ بارعةٍ.

وَلَمْ يبرحْ اَدَبَاءُ الْمَقَامَةِ فحولَ الشُّعَرَاءِ، فَقَدْ كَانَ لأشعارِهِم نَصِيْبٌ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ مُحَمَّد الدَّيْسِيّ: "فالفقرُ شعارُ الصَّالحينَ الأخيارِ، وحليةِ عبادِ اللهِ الأبرارِ، فاقعدْ عَنِ المكارمِ؛ فَإِنَّك أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي"[4]، وهَذَا مَأْخُوْذٌ من قَوْلِ الْحُطَيْئَةِ:

دَعِ المَكَـــارِمَ لَاْ تَرْحَـــلْ لبُغْيَتِهَـــا وَاقْعُدْ فإنّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي[5]

وَكَأَنِّي بمُحَمَّد الدَّيْسِيّ يخالفُ المألوفَ، فيمدحُ الفقرَ والفقراءَ، ويهجو الغِنى والأغنياءَ، عنْ طريقِ بِنْيَةٍ تقابليَّةٍ رائعةٍ دُوْنَ ذكرِ النَّقيضِ تاركاً البابَ مفتوحاً أَمَامَ المُتَلَقِّي ليقدِّرَ المحذوفَ كَمَا يشاءُ، فَإِذَا كَانَ الفقرُ شعارَ الصَّالحينَ الأخيارِ، وحليةَ عبادِ اللهِ الأبرارِ، فَإِنَّ الغِنَى عَلَى نقيضِ ذَلِكَ، فلا يَحِقُّ لهم صعود درجاتِ المجدِ، ولا طلب المكارمِ مُبَرِّرَاً ذَلِكَ بدال الأمرِ (اقعدْ) مُعْتَمِدَاً عَلَى التَّعْبِيْرِ عَنِ اسمِ المفعولِ باسمِ الفاعلِ فِيْ قَوْلِه (الطَّاعم الكاسي)، والْمَقْصُودُ هنا أَنْتَ المطعومُ والمكسوُّ مبالغةً في هجائِه، والحَطِّ من قَدْرِهِ.

---

[1] الْمُتَنَبِّي، دِيْوَان الْمُتَنَبِّي، (ص472).

[2] البيطار، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص55).

[3] أبو نواس، دِيْوَان أبي نواس، (ج215/4).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مناظرة بين العلم والجهل)، (ص193).

[5] الْحُطَيْئَة، دِيْوَان الْحُطَيْئَة، (ص119).

رَابِعَاً: الاقْتِبَاسُ مِنَ الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ

تفوَّقَ الاقْتِبَاسُ مِنَ الْأَمْثَالِ العربِيَّةِ تفوُّقاً واضحاً فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، فلا تكادُ تخلو مَقَامَةٌ من مَثَلٍ أو أكثرَ، والْأَمْثَالُ جمعُ مَثَلٍ، وقد عرَّفُوهُ بأنَّهُ "قولٌ سائرٌ يشبّه بِهِ حالُ الثَّانِي بالأَوَّل، فمواعيدُ عَرْقُوْبٍ مثلاً علم لِكُلِّ مَا لَا يصحُّ مِنَ المواعيدِ"[1].

وتلعبُ الْأَمْثَالُ دَوْرَاً مُهِمَّاً في عُرْفِ الْأُدَبَاءِ والحكماءِ، فَهُمْ "لا يزالونَ يضربونَ الْأَمْثَالَ، ويبيِّنونَ للنَّاسِ تصرُّفَ الأحوالِ بالنَّظائرِ، والأشباهِ، والْأَشْكَالِ؛ ويرَوْنَ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْقَوْلِ أنجحَ مطلباً، وأقربَ مذهباً، قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى:﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]"[2].

وَلَمْ يخالفْ أُدَبَاءُ هَذَا العَصْرِ عُرْفَ الْأُدَبَاءِ، والحكماءِ في العُصُوْرِ السَّابِقَةِ، فَقَدْ تزيَّنتْ مقاماتُهُم باقتباساتٍ مُتَنَوِّعَةٍ من الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ حَالُهَا حَالُ الفُنُوْنِ الأَدَبيَّةِ الأُخْرَى، بَيْدَ أَنَّهُمْ تفوَّقوا عَلَى غيرِهِم فِيْ هَذَا الاقْتِبَاسِ، ودليلُ ذَلِكَ أَنَّ نسبةَ ورودِ المثلِ في مقاماتِ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ بَلَغَ ثلاثةَ أمثالٍ في كلِّ مَقَامَةٍ من مقاماتِهِ السِّتين، فَقَدْ بَلَغَ عددُ الأمثلةِ (187) سبعاً وثمانينَ، ومائةَ مَثَلٍ، وَلَمْ يَقِفِ الأمرُ عَلَى نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ فَقَطْ، فَقَدْ توشَّحتِ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات) بعددٍ كبيرٍ مِنِ الْأَمْثَالِ الَّتِيْ تناثرتْ في نُصُوصِ الْأُدَبَاءِ المَقَامِيَّةِ.

وَمِنْ شَوَاهِدِ الاقْتِبَاسِ مِنَ الْأَمْثَالِ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ فِيْ (المَقَامَة الهزليَّة): "فَقَالَ حَاشَا أنْ تتركني اللَّيْلَةَ سَمِيْرَ الفرقدينِ، وَلَكِنْ غَدَاً تَذْهَبُ أَنْتَ بِالْعَرُوسِ، وَأَنَا بِخُفَّي حُنَيْنٍ"[3]، والكلامُ مُقْتَبَسٌ مِنَ المثلِ العربيِّ "عَادَ بِخُفَّي حُنَيْنٍ"، وَمِنْهُ أَيْضَاً قَوْلُهُ فِيْ (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة): "وأدركتُ ما أدركته بتكرارِ الْمَرَاجِعةِ، فإنْ أصبت فَرَمْيَةٌ مِنْ غَيْرِ رامٍ، وإنْ أخطات فَلِي معذرةٌ عِنْدَ الكِرامِ"[4]. والْكَلَام مُقْتَبَسٌ من المثلِ العربيِّ: "رُبَّ رَمْيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ"[5]، وهو مثلٌ يُضرَبُ للمخطئِ يصيبُ أَحْيَانَاً، وقد بدا الحَدِيْثُ أكثرَ وضوحاً لمَّا اعْتَمَد اليَازْجِيّ عَلَى دال الشَّرْطِ (إِنْ) الَّذِيْ فَتَحَ أَمَامَهُ أكثرَ من دَرْبٍ لِلْخَلاصِ. ومِنَ الاقْتِبَاسِ منَ المثلِ فِيْ (المَقَامَة الهزليَّة) قَوْلُ اليَازْجِيّ: "قَالَ سُهَيْلٌ فافتتنتُ بفصاحَتِها، وَلَمْ ألتفتْ إِلَى قَيْدِ ملاحَتِهَا... فأنشدت:

---

[1] الكاتب، البرهان في وجوه البيان، هامش (ص66).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص66.

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الهزليَّة)، (ص106).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص424).

[5] العَسْكَرِيّ، جَمْهَرَة الْأَمْثَال، (ج399/1).

وَاهَـاً لهَـدي الطُّرْفَـة المتَّفِقَـة إنْ لَـمْ نَقُـلْ وَافَـقَ شَـنٌّ طَبَقَـة

فَإِنَّنا أحمقُ مِنْ هَبَنَّقَة"[1]، مُقْتَبَسٌ مِنَ الْمَثَلِ العربيِّ المَشْهُورِ: "وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَه"، و"أَحْمَقُ مِنْ هَبَنَّقَة"[2].

أَمَّا قَوْلُهُ: "إنَّ هذه النَّخلةَ عِنْدَي خيرٌ من نخلِ هَجَر، وعرائسِ الحُصيبِ، فاعتنقني كَمَنْ تَمَلَّقَ، وَقَالَ كِلَانَا أَفْلَسُ مِن ابنِ المُذلّق"[3]. مُقْتَبَسٌ مِنَ الْمَثَلِ الْعَرَبِيِّ: (كمستبضعِ التَّمرِ إِلَى هَجَر)، وَالْمَثَلُ: "أَفْلَسُ مِن ابنِ المُذلَّق"[4]. وهو رجلٌ من عبدِ شمسٍ كَانَ لا يَجِدُ فِيْ أكثرِ أَوْقَاتِهِ قوتَ ليلةٍ واحدةٍ، وكَذَلِكَ كانَ أبوهُ. قَالَ الشَّاعِرُ فِيْ أَبِيْهِ[5]:

فَإِنَّـكَ إِنْ تَرْجُـو تَمِيْمَـاً وَنَفْعَهَـاْ كَرَاجِي النَّدَى وَالْعُرْفِ عِنْدَ ابنِ المُذَلِّقِ

وَمِنْ رَوَائِعِ الاقْتِبَاسِ مِنَ الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ قولُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة الحليَّة): "وقَالُوا تحسبُهَا حمقاءَ وهي باخسٌ، فَلَابُدَّ بينَنَا مِنْ حَرْبٍ دَاحِسٍ"[6]. مثلانِ عربيَّانِ الْأَوَّلُ يُضْرَبُ لشدَّةِ الدَّهاءِ مع ظنِّ الحمقِ، والثَّانِي يضربُ لشدَّةِ الحربِ. وَمِنْهُ كَذَلِكَ: "وَقالَ: يا لُكاع! تذكرينَ العُنُوقَ، وتنكرين النُّوقَ"[7]. مُقْتَبَسٌ مِنَ الْمَثَلِ الْعَرَبِيِّ: "العُنُوقُ بَعْدَ النُّوقِ"[8]، وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ لمنْ كَانَتْ حاله حسنةً ثُمَّ ساءتْ، ويراد به الأمرُ الصَّغيرُ بَعْدَ الْعَظِيمِ، فَإِنْ أرادوا خِلَافَ ذَلِكَ قَالُوا: أَبَعْد العُنُوق النُّوْق؟.

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الهزليَّة)، (ص103).

[2] هبنَّقة رجلٌ من بني قيس، اسمه يزيد بن ثروان، يُضرب به المثل في الحمق، كان قد اتَّخذ قلادةً من الوَدَع والخرز الملوَّن، العظام، وجعلها في عنقه لكي يعرف نفسه بها إذا ضلَّ، وكان له أخٌ يقال له مروان، فسرق القلادة من عنقه وهو نائم، وجعلها قلادةً له، فلما انتبه يزيد رآها في عنق أخيه، فقال يا مروان سرقتني مني، أنت يزيد فمن أنا؟. العَسْكَرِيّ، جَمْهَرَة الْأَمْثَال، (ج2/309).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الهزليَّة)، (ص109). ابن المذلّق: رجلٌ من عبد شمس بن سعد بن زيد مناة، وكان لا يجد في أكثر أوقاته في بيته قوت ليلة واحدة وكذلك كان أبوه، فقال الشاعر عن أبيه: **فإنك إذ ترجو تميماً ونفعها ... كراجى النَّدى والعرف عند المذلّق**. يُنْظَر، العَسْكَرِيّ، جَمْهَرَة الْأَمْثَال، (ج1/159).

[4] العَسْكَرِيّ، جَمْهَرَة الْأَمْثَال، (ج2/92).

[5] المَرْجِع السَّابِق، ج2/92.

[6] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحليَّة)، (ص321).

[7] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (ص71). العنوق: الإناث من أولاد المعز.

[8] العَسْكَرِيّ، جَمْهَرَة الْأَمْثَال، (ج2/50).

وِمِنَ الاقْتِبَاسِ مِنَ الْأَمْثَالِ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ فِيْ (المَقَامَة الكوفيَّة): "فجعلتُ أروحُ تِلْقاءَهُمْ وأجيءُ، وأقولُ ليسَ هَذَا بعُشِّكِ فادرجي"[1]. وهَذَا مثلٌ يُضرَبُ لِمَنْ يُرِيدُ الدُّخُولَ فِيْ مَا ليسَ مِنْ أهلِهِ.

وِمِنَ الاقْتِبَاسِ مِن المثلِ كَذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ فِيْ (الْمَقَامَة اليَماميَّة): "وَقالَ قدْ تَجَنَّىْ عَلَى هَذَا الغُمرِ، واللهُ يعلمُ أَنْ ليسَ لِي ذَنْبٌ إلَّا ذنبُ صُحْر"[2]. وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يُعَاقَبُ بِلَا أيّ ذَنْبٍ.

وَلَمْ يبرحْ شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيّ الْأَمْثَالَ الْعَرَبِيَّةَ، حَيْثُ ضمَّنَهَا كَثِيْراً فِيْ نُصُوْصِهِ المقاميَّةِ، ومنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ في (رَيْحَانَة الْأَلْبَّا) قَوْلُهُ: "أَضَلُّ من سِنان، وَلَا أَفعلُ كَذَا حتى ترجع ضالَّة غطفان"[3]. وَ"أَضَلُّ مِنْ سِنَان"[4] مَثَلٌ عَرَبِيٌّ، وَمِنْهُ أَيْضاً قَوْلُ الخَفَاجِيِّ فِيْ (المَقَامَة المغربيَّة): "وَأَنَّهُ قنعَ مِنَ الكَثِيْرِ بقليلٍ مِمَّا قلَّلَهُ، عَمَلاً بِالْمَثَلِ: لَمْ يُحْرَمْ من فُزْدَله"[5]، وَهُوَ مَثَلٌ عربيٌّ يُضْرَبُ لِمَنْ طَلَبَ شَيْئَاً لَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُ، والْمَعْنَى لَمْ يُحْرَمْ مَنْ نَالَ بعضَ حاجتِهِ، وَروى "لم يُحرم من فُصِد له". وَمِنْهُ كَذَلِكَ: "والآن قد اندرس النَّسب، وذُبحت الدَّجاجة الَّتِيْ كَانَتْ تبيض الذَّهب"[6]. تَلْمِيْحٌ لمثلٍ عاميٍّ متداولٍ في قصةٍ، وهو يُضْرَبُ لِكُلِّ مَنْ طَلَبَ شَيْئَاً بَعْدَ فَوَاتِ زمنِهِ.

اهتمَّ أُدَبَاءُ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات) بالاقْتِبَاسِ مِنَ الْمَثَلِ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، وَذَلِكَ دَعْمَاً لأَفْكَارِهِم، وَبَيَانَاً لمَعَانِيهم، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ، قَوْلُ بَهَاءِ الدِّيْنِ الْبِيْطَار: "قالتِ العَنْقَاءُ:

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الكوفيَّة)، (ص56).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (المَقَامَة اليماميَّة)، (ص363). صَحْر، بنت لقمان بن عاد. عوقبت عَلَى الإحسان، فضرب بها المثل، فقيل: (ما لي ذنبٌ إلا ذنب صُحْر)، وابنه لُقَيْمٌ خرجا في إغارة، فأصابا إبلاً ، فسبق لُقَيْم، فأتى منزله، فنحرت أخته صَحْر جزوراً من غنيمته، وصنعت منها طعاماً تتحف به أباها إذا قَدِم، وقد كان لقمان حسد لُقَيْما في تبريزه عليه، فلما قدم لقمان قدمت له الطعام، وكان يحسد لُقَيْماً، فلطمها ولم يكن لها ذنب، فصارت عقوبتها مثلًا لكل من لا ذنب له ويعاقب فقيل: "ما لي ذنب إلا ذنب صَحْر". العسكري، جمهرة الأمثال، (ج2/211، 212) الزُّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس، (ج12/290)، مادة (صَحَرَ).

[3] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلْبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا (المَقَامَة الرُّوْمِيّة)، (ص381).

[4] الْمَيْدَانِيّ، مَجْمَع الْأَمْثَال، (ج1/287). العَسْكَرِيّ، جَمْهَرَة الْأَمْثَال، (ج2/9).

[5] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلْبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا (المَقَامَة المغربيَّة)، (ص409). يُنْظَر: العَسْكَرِيّ، جَمْهَرَة الْأَمْثَال، (ج2/160)

[6] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلْبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا (المَقَامَة المغربيَّة)، (ص410).

فقلتُ: هَلْ أنتما بالمَشْهَدِ المأنوسِ، ولا عطرَ بَعْدَ عروسٍ"[1]. وهَذَا مُقْتَبَسٌ من المَثَلِ: "لا مخبأَ لعطرٍ بعد عروسٍ"[2]. وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ للشَّيءِ يُستعجلُ عِنْدَ الحاجة إليه.

وَمِنَ الاقْتِبَاسِ مِنْ المَثَلِ قَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "فَهُوَ فِيْ ذَلِكَ كَمَنْ بحثَ عَنْ حتفِهِ بظلفِهِ، وجدع بكفِّهِ مارنَ أنفِهِ"[3]. وهَذَا اقتباسٌ مِنَ المَثَلِ: "كالبَاْحِثَةِ عَنْ حَتْفِهَا بِظَلْفِهَا"[4].

وِمِنَ الاقْتِبَاسِ مِنَ المَثَلِ، قَوْلُ بَهَاءِ الدِّينِ الْبِيْطَار: "فَلَا تَعُدْ بَعْدُ إِلَى الحَيْفِ، فتكونُ كَمَنْ ضَيَّعَ اللَّبَنَ بالصَّيْفِ"[5]. وهَذَا المَثَلُ يُضْرَبُ لِمَنْ يَطْلُبُ شَيْئَاً قَدْ فوَّته عَلَى نفسِهِ، وَنَصُّهِ: "الصَّيفَ ضيَّعتِ اللَّبنَ"[6].

لَجَأَ الْأُدَبَاءُ أَحْيَانَاً إِلَى الْأَمْثَالِ لِبَيَانِ الفِكْرَةِ الَّتِيْ قَصَدُوا تناوُلَهَا، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "وحديثُ فضلي أَسْرَى مِنَ المَثَلِ، وأسرعُ مِنَ الْقَمَرِ فِيْ النّقلِ. فالزمي معي حُسْنَ الأَدَبِ، وتظفَّري بكمالِ المنى والأربِ. وإنْ عادتِ العقربُ الغادرةُ، فَإِنَّ النِّعَالَ لها حاضرةٌ"[7]. فَقَدْ عَدَّدَ الْأَدِيْبُ عَلَى لسانِ السَّمَاءِ مَحَاسِنَهَا، ثُمَّ انتقلَ إِلَى دال (الأمر) الَّذِيْ يحملُ في ثَنَايَاهُ التَّهْدِيدَ والوعيدَ فِيْ قَوْلِهِ: (الزمي، تظفَّري)، وَخَتَمَ برسمِ مَشْهَدِ النِّهَايةِ المُؤْلِمِ مُعْتَمِدَاً عَلَى المَثَلِ:

إِنْ عَـادَتِ الْعَقْـرَبُ عُـدْنَا لَهَـا وَكَانَـتِ النِّعَـالُ لَهَـا حَاضِـرَهْ[8]

إنَّ البابَ لا يتَّسِعُ هُنَا لتناولِ مَشَاهِدِ الاقْتِبَاسِ كَافَّةً، خَاصَّةً أَنَّ الْأُدَبَاءَ انْطَلَقُوا مُجتهدينَ صَوْبَ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، والحَدِيْثُ الشَّرِيفُ يتلمَّسونَ منهما أَرْوَعَ الأَلْوَانِ، ثُمَّ اندفعوا جادِّينَ تَجَاهَ الشِّعْرِ، والْأَمْثَالِ، ووشَّحُوا نُصُوْصَهُم المَقَامِيَّةَ بروائعِ الشِّعْرِ، وبدائعِ الْأَمْثَالِ، وكَأَنَّهُم أرادوا أَنْ يثبتوا للدَّانِي والقاصي شوقَهُمْ الجارفَ، وحنينَهُمْ الكبيرَ إِلَى التُّرَاثِ في عُصُورِ الأَدَبِ المُخْتَلِفَةِ مِنْ نَاحِيَـةٍ، ومِنْ نَاحِيَـةٍ أُخْـرَى أرادوا أَنْ يرسلوا رِسَالَةً مَفَادهَا أَنَّهُم جُزْءٌ لا يتجزأُ مِنَ العالمِ الإسلاميِّ الْعَظِيمِ.

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص69).

[2] الْمَيْدَانِيّ، مَجْمَع الْأَمْثَال، (ج2/211). العَسْكَرِيّ، جَمْهَرَة الْأَمْثَال، (ج2/307).

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص157).

[4] صيني، مُعْجَم الأمثال الْعَرَبِيَّة، (ج3/93).

[5] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص63).

[6] الْمَيْدَانِيّ، مَجْمَع الْأَمْثَال، (ج2/68). العَسْكَرِيّ، جَمْهَرَة الْأَمْثَال، (ج1/473).

[7] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص92).

[8] اليوسيّ، زهر الأكم في الأمثال والحكم، (ج1/313).

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: الْمُحَسِّنَاتُ الْبَدِيْعِيَّةُ اللَّفْظِيَّةُ

تزيَّنتِ النُّصُوصُ المَقَامِيَّةُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ بِالمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيْعِيَّةِ اللَّفْظِيَّةِ، فقد كَانَتْ هذه المُحَسِّنَاتُ سِمَةً بارزةً فِيْ الْمَقَامَةِ، كَيْفَ لَا؟ والصَّنْعَةُ اللَّفْظِيَّةُ عنصرٌ رئيسٌ من عَنَاْصِرِهَا، وَجُزْءٌ لَا ينفصلُ عَنْ كيانِهَا، وَمِنْ هَذِهِ المُحَسِّنَاتِ:

1- الْجِنَاسُ

يُعَدُّ الْجِنَاسُ أَحَدُ أَنْوَاعِ المُحَسِّنَاتِ البَدِيْعِيَّةِ اللَّفْظِيَّةِ في عِلْمِ البَدِيْعِ. وَبَعْضُ العُلَمَاْءِ يُسَمِّيهُ التَّجَانُسَ، وَمِنَ العُلَمَاْءِ مَنْ يُطْلِقُ عَلَى هَذَا الفَنِّ؛ التَّجْنِيس أَو الْمُجَانَسَة، وَجَمِيعُ المُسَمَّياتِ وُجُوْهٌ لِمُصْطَلَحٍ وَاحِدٍ، والْمَقْصُودُ بِهِ: "أَنْ يُوْرِدَ المتكلمُ كَلِمَتَيْنِ تُجَانِسُ كُلٌّ واحدةٍ منهما صاحبتها فِيْ تَأْلِيفِ حُرُوفِهَا"[1]. وَحَقِيقَةُ الجِنَاسِ عِنْدَ ابنِ الأثيرِ: "أَنْ يَكُوْنَ اللَّفْظَ واحِداً، والْمَعْنَى مُخْتَلِفاً"[2].

ويستمدُّ الْبَلَاغِيُّونَ مِنْ مَبَاحِثِ اللُّغَةِ حَوْلَ المشتركِ اللَّفْظِيِّ، وِمِنْ مَبَاحِثِ الصَّرفيينَ حَوْلَ الاشتقاقِ الَّذِيْ توافقُ فيهِ الصُّورُ اللَّفْظِيَّةُ الْكَلَامَ في التَّجْنِيسِ باعتباره "أقرب النَّمطيَّاتِ إِلَى النَّاحِيَّةِ الصَّوْتِيَّةِ الخالصةِ، وَقَدْ تناولوه بتفريعاتٍ معقَّدَةٍ حرصاً منهم عَلَى أَنْ يتمثَّلَ في التَّرْكيبِ أقصى درجاتِ التَّوازُنِ، خَاصَّةً فيما أسموه بالجِنَاسِ التَّامِّ الَّذِيْ تتساوى فيه أنواعُ الْحُرُوْفِ وأعدادها، وهيئاتها بين كَلِمَتَينِ ينتجُ عنها صورة لفظيَّة، لها إيقاعُهَا الخاص هي الجِنَاس"[3].

وَعَوْدَةٌ إِلَى المَقَامَاتِ، فَقَدْ زيَّنَ الْأُدَبَاءُ حَدَائِقَ نُصُوصِهِم بأزهارٍ مُتَنَوِّعَةٍ مِنَ الجِنَاسِ، حَيْثُ غرسوا أصنافاً شَتَّى مِنْ إبداعَاتِهِم أبهرتِ الدَّارِسِينَ، فَمَا أنْ يُطلِقَ الدَّارسُ العَنَانَ لبصرِهِ صَوْبَ مَقَامَةٍ حَتَّى يبدأَ الدُّخُولَ إِلَى عَوَالِمِ الْجَمَالِ الَّتِيْ تُضْفِي مُوْسِيْقَا الجِنَاسِ إِلَى جَمَالِهَا جَمَالاً مِنْ نَوْعٍ آخرَ تَطْرَبُ لإيقاعاتِهِ الآذَانُ، وَتَقَرُّ بنغماتِهِ الأبصارُ، وكأَنِّي بهَؤلاءِ قَدِ ارتدَّتْ ألوانُ البَدِيْعِ بين أَنَاْمِلِهِم أداةً طيِّعَةً يقلِّبُونَ فيها كَيْفَ يَشاءونَ دُوْنَ تَكَلُّفٍ أو إسرافٍ، كَيْفَ لَاْ؟ والمَقَامَةُ هي فَنُّ الجِنَاسِ، والتَّسْجِيعِ.

ويظهرُ الجِنَاسُ في النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ عَلَى ضَربينِ رئيسينِ، يتفرَّعُ مِنْ خِلَالِهما فُرُوْعٌ كَثِيْرةٌ تتنقَّلُ بينَ الجِنَاسِ التَّامِّ، وغيرِ التَّامِّ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

---

[1] العَسْكَرِيّ، الصِّناعتين، (ص353).

[2] ابن الأثير، المَثَل السَّائِر، (ج262/1).

[3] عَبْد الْمُطَّلِب، الْبَلَاغَة والْأُسْلُوبيَّة، (ص293).

أ- **الْجِنَاسُ التَّامُّ**، وَهُوَ ما اتَّفقَ فِيْهِ اللَّفْظَانِ في أمورٍ أربعةٍ هي: أنواعِ الْحُرُوْفِ، وهيئاتِهَا الحاصلةِ من الحركاتِ، والسَّكناتِ، وأعدادِهَا، وترتيبِهَا. يَقُوْلُ القَزْوِيْنِيُّ: "التَّامُّ مِنَ الجِنَاسِ أنْ يتَّفقَ اللَّفْظَانِ فِيْ أنواعِ الْحُرُوْفِ، وأعدادِهَا، وهيئاتِهَا، وترتيبِهَا"[1]. وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم: ٥٥].

وَمِنَ الْمَنْظُومِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَخْشَى الْعُيُونَ الَّتِيْ فِيْ طَرْفِهَا حَوَرٌ كَمَا أَخْشَى عَلَى الْأَوْطَانِ مِنْ تِلْكَ الْعُيُوْنِ[2]

الْجِنَاسُ الْمُمَاثِلُ: وهو "مَا كَانَ رُكْنَاهُ أو لَفْظَاهُ من قسمٍ واحدٍ من أقسامِ الكلمةِ، بِمَعْنَى أَنْ يَكُوْنَا اسمينِ، أَوْ فعلينِ، أَوْ حَرْفَيْنِ"[3].

وَمِنَ الجِنَاسِ التَّامِّ المُمَاثِلِ مَا يقعُ بَيْنَ اسمينِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "والآنَ دَعْنَا نتمتَّعُ بالحَدِيْثِ، مع صاحِبِكَ الحَدِيْثِ، الَّذِيْ يُمَيِّزُ بَيْنَ القشيبِ والرَّثيثِ، والسَّمينِ والغثيثِ""[4]. فالجِنَاسُ التَّامُّ المُمَاثِلُ وَقَعَ بَيْنَ اسْمَيْنِ هُمَا: (الحَدِيْث)، فالحَدِيْثُ الْأَوَّلُ بِمَعْنَى (تبادل الْكَلَام)، والحَدِيْثُ الثَّانِي بِمَعْنَى (الجديد).

وَمِنْهُ كَذَلِكَ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الخَفَاجِيّ: "حَتَّى لاحتْ مِنْ جانبِ الغربِ قافلةٌ، وفيها فتيةٌ لبابِ التَّوبةِ غير قافلةٍ"[5]. والجِنَاس التَّام المُمَاثِل وَقَعَ بَيْنَ اسْمَيْنِ هُمَا (القافلة)، فالقافلةُ الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (موكب السَّير)، أو الرِّفقة الرَّاجعة من السَّفر، والقافلة الثَّانية بِمَعْنَى: (مغلقة). مع ما في الجِنَاس من جَرْسٍ مُوْسِيْقِيٍّ رَائِعٍ.

ويعودُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ ليقدِّمَ فواصلَ عذبةً مِنْ رَوَائِعِ الْجِنَاسَاتِ فِيْ مَقَامَاتِهِ كَافَّةً، فيُمتِعُ ويُعجبُ، ويُبهرُ ويخلبُ، كَيْفَ لَا؟ وقدْ امتلكَ مَهَارَةَ البَلَاْغَة، يَقُوْلُ: "فابتدرتُ التَّسْليمَ عليهِ، والتَّسْلِيمَ إليهِ"[6]. حَيْثُ طَالَعَنَا بالجِنَاسِ فِيْ كَلِمَتَي (التَّسْليم)، الْأُوْلَى منهما بِمَعْنَى (السَّلام)، والثَّانية بِمَعْنَى: (الانقياد). مَعْ ما يُضْفِيهِ الجِنَاسُ عَلَى النَّصِّ مِنْ جَرْسٍ مُوْسِيْقِيٍّ أخَّاذٍ.

---

[1] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص535).

[2] البيت من قصيدة للباحث بعنوان (مرايا مقلوبة).

[3] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص535). يُنْظَر، المصريّ، تحرير التَّحبير، (ص105).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الأنباريَّة)، (ص291). القشيب والرَّثيث: الجديد والبالي، الغثيث: المهزول.

[5] الخَفَاجِيّ، شِهَاب الدِّين، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا (المَقَامَة المغربيَّة)، (ص398).

[6] اليَازْجِيّ، نَاصِيْف، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المضريَّة)، (ص310).

ويتلاعبُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ بالْمُفْرَدَاتِ فِيْ قَوْلِه: "وأخذنَا نجتني الثِّمارَ الذَّوابلَ، مِنَ الأفنانِ السَّوابلِ، وَقَدْ رقصتِ البَلَابِلُ عَلَى نَغَمَاتِ البَلَابِلِ"[1]. فَقَدْ رَسَمَ الجِنَاسَ التَّامَّ المُمَاثِلَ بَيْنَ اسمينِ، فَكَلِمَةُ (البلابل) الْأُوْلَى هي (الطُّيور الْمَعْرُوفَة)، و(البلابل) الثَّانِية هي جمعُ بُلْبُلَة، وهي (الأنبوبة الَّتِيْ ينصبُّ منها الماء في السَّواقي، والنَّواعير) فِيْ الأَرْيَافِ.

وَيُوَاصِلُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ تفوُّقُهُ فِيْ هَذَا الْبَابِ، يَقُوْلُ: "والآنَ قَدْ علمتَ يا شيخَ الحَرَمِ، أنَّ انتهاكَ الحُرَمِ من الحُرَمِ"[2]. (الحُرَم) الْأُوْلَى هي (خرق المهابة)، و(الحُرَم) الثَّانِية هي (المحرَّمات).

ولدال (الفراق، والبَيْن) نَصِيْبٌ من تَشْكِيْلَاتِ الجِنَاسِ التَّامِّ المُمَاثِلِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "فهيهاتِ أنْ تبرحَ مِنْ بَيْنِنَا قَبْلَ بَيْنِنَا"[3]. فَكَلِمَةُ (بيننا) الْأُوْلَى ظرفيَّة، والثَّانِية بِمَعْنَى (الفراق).

وذاتُ الجِنَاسِ حَمَلَتْهُ مَقَامَاتُ مُحَمَّد المُبَارَك فِيْ قَوْلِهِ: "ثمَّ أخذَ يُزيلُ عنهما ما أضرَّ بهما مِنَ الجفا والبَيْنِ، وَيوقِعُ بينهما أنواعَ الأُلفةِ، ويصلحُ ذاتَ البَيْنِ"[4]. فَكَلِمَةُ البَيْن الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (الفراق)، أما الثَّانِية فهي بِمَعْنَى: (ما بين القوم من القرابة، والصِّلة). قَالَ العباسُ بن الأحنف:

أَرَىْ البَـيْنَ يَشْـكُوْهُ الأَحبَّـةُ كُلُّهُـم فَيَـا رَبُّ قَـرِّبْ دَارَ كُـلِّ حَبِيْـبِ[5]

وَمِنَ الجِنَاسِ المُمَاثِلِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ قَوْلُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق فِيْ (السَّاق عَلَى السَّاق): "فكانَ يخطرُ ببالي كلُّ مُمْكنٍ ومُحَالٍ، ويعاودني مَا كُنْتُ فكَّرتُ فيه مِنَ الأحوالِ، مَرَّةً مُنْذُ أحوالٍ"[6]. فقد طَالَعَنَا بجناسٍ تامٍّ مُمَاثِلٍ في كلمةِ (أحوال)، الْأُوْلَى بِمَعْنَى (حال)، والثَّانِيةُ جمعُ حَوْلٍ، وهو (السَّنَة).

وَيُشاركُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق أقرانَهُ مُحَمَّد المُبَارَك، وشِهَاب الدِّيْنِ الخَفَاجِيّ في إضفاءِ الْمُتْعَةِ عَلَى المُتَلَقِّينَ، وإبهارِهِم بروائعِ الجِنَاساتِ، فَقَدِ التقى هَؤلاءِ جَمِيْعَاً في جِنَاسٍ تامٍّ مُمَاثِلٍ

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحمويَّة)، (ص356).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الاسكندريَّة)، (ص399، ص400).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المكيَّة)، (ص419).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص180).

[5] ابن الأحنف، دِيْوَان العباس بن الأحنف، (ص6).

[6] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص51).

في دال (الأَسْفَار)، يَقُوْلُ الخَفَاجِيُّ: "فقالَ لي خَبِيْرُ الأيامِ، الهجرةُ مِنْ سُنَنِ الكرامِ، كَمَا فَرَّ موسى حِيْنَ همَّ بِهِ القِبْطُ، وَقُدْ كنتُ قَرَأتُ فِيْ بعضِ الأَسْفَارِ، إِذَا أَرَادَ اللهُ سِعَةَ رزقِ عبدٍ حَبَّبَ لَهُ الأَسْفَارَ"[1].

ومثلهُ قَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "وَقَدِ امتلأتْ بطونُ الكُتُبِ والأَسْفَارِ، بذمِّ السُّكونِ إِلَى الإقامةِ ومدحِ التَّغرُّبِ والأَسْفَارِ"[2]. وَمثلهُ قولُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "فقلتُ إِنْ كَانَ مرجعُهُ إِلَى العقلِ فقد كلفتموني إِدًّاً، وشططتمْ في انتظامي مَعَكُمْ جداً، إِذْ لستُ بصاحبِ أسفارٍ، بَلْ حَلِيفُ تَطْوَافٍ وأَسْفَارٍ، وإِنْ كانَ إِلَى الطَّبعِ، فَإِنَّهُ بي لطبعاً سليماً، وخُلُقَاً قَوِيْمَاً"[3]. فَقَدْ طَالَعَنَا الفرسانُ الثَّلاثَةُ في أقوالهم بجناسٍ تامٍّ مماثلٍ في دال (الأَسْفَار) الْأُوْلَى منها بِمَعْنَى: (الكُتُب)، وأَسْفَار الثَّانِيَةِ بِمَعْنَى: (الرّحلات والسَّفر). قال تَعَالَى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾ [الجمعة: ٥]. حَيْثُ جمعَ ثلاثتهم التَّأَثُّرُ بالقُرْآنِ الكَرِيْمِ، والاقتباسُ مِنْ نُصُوْصِهِ.

وينتقي شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيِّ مِنَ الجِنَاسِ ما يزيِّنُ مَقَامَاتِهِ، وَكَأَنِّي بِهِ يَخُطُّ بأَنَامِلِهِ أجملَ الخطوطِ، يَقُوْلُ: ""دَارٌ يسَافَرُ بها النَّظرُ، ويتسابقُ فِيْ مَحَاسِنِهَا السَّمْعُ والبصرُ، دَاخِلُهَا بهوٌ وقُصورٌ، وسرادقُ لا يعرفُ كَمَالَهُ القُصُوْرُ"[4].

ويشاركُهُ بَهَاءُ الدِّين الْبِيْطَار في ذاتِ الجِنَاس، يَقُوْلُ: "ومع هَذَا فليتني لزمتُ حدِّي مِنَ الضَّعْفِ والقُصُوْرِ، وَلَمْ أَتَشوَفْ بجدِّي لارتقاءِ هاتيك القُصُوْرِ"[5]. حَيْثُ وَقَعَ الجِنَاسُ في (القُصُوْر)، أَمَّا الْأُوْلَى فهي بِمَعْنَى: (العيب، أو النَّقص)، وأَمَّا الثَّانِيةُ فهي بِمَعْنَى: (جمع قصر، وهو البيت الفخم الواسع). قَالَ الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥]. وَمِنْهُ في النَّظمِ قَوْلُ ميسون بنت بحدل:

لَبَيْتٌ تَخْفُقُ الأَرْيَاحُ فِيْهِ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرٍ مَنِيْفِ[6]

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا (مَقَامَة الغربة)، (ص382).

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص153).

[3] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص131).

[4] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا (مَقَامَة الغربة)، (ص383).

[5] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مناظرة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص77).

[6] يُنْظَر، الحمويّ، خزانة الْأَدَب، (ج3/258).

إنَّ الْقَارِئَ يقفُ أمامَ لوحةٍ اختارَ فيها الْأُدَبَاءُ من الْأَشْكَالِ أَرْوَعها، ومِنَ الأَلْوَانِ أجملها لرسم الجِنَاسات، يَقُوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "وانحلَّتْ إدارتُهُ، فَمَالَ عَلَى المالِ الموجودِ فِيْ خَزِينةِ النُّقُودِ فبسطَ الرَّاحَ للانبساطِ والرَّاحِ"[1]. فالرَّاحُ الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (بطون الكُفُوف)، والرَّاحُ الثَّانِيةُ بِمَعْنَى: (الارْتِيَاح).

والجِنَاسُ يكسبُ الْكَلَامَ مُوْسِيْقَا عذبةً تطربُ لها الآذانُ، وتتلذَّذُ بها النُّفُوْسُ، فيذهبُ بالمُتَلَقِّي بعيداً عن السَّآمةِ والملالِ، وهَذَا مَا حَمَلَهُ قَوْلُ عَبْدِ الله فِكْرِيّ: "وأخذ الذَّخائرَ يبيعُ ويضيعُ، ويصرفُ، ويتلفُ، ويلحقُ دنيَّها بفاخِرِهَا، حَتَّى أتى عَلَى آخرها، ثم انثنى عَلَى العَقَارِ، يبيعه عَلَى العَقَارِ"[2]. العَقَارُ الْأُوْلَى (كلُّ مِلْك ثابت له أَصْلٌ، كالْأَرْض، والضِّياع، والنَّخل)، العَقَارُ الثَّانِيةُ بِمَعْنَى: (المتاع)، وَمِنْهُ الْقَوْلُ: "في الدَّار عَقَارٌ: أي متاعٌ وأداة"[3].

ويشاركُ مُحَمَّد الوُرْغِيّ أندادَهُ في تقديم مَشَاهِدَ عَذْبَةٍ للجِنَاسِ، يَقُوْلُ: "فغيرُ بديعٍ أنْ تسبقَ البَدِيْعَ، ولا ببعيدٍ أنْ تكونَ ربَّ الطَّالعِ السَّعيدِ"[4]. فلفظةُ البَدِيْعِ الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (المُدْهِش)، والبَدِيْعُ الثَّانِيةُ بِمَعْنَى: (بَدِيع الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ).

أَمَّا فرسانُ (المُنَاظَرَات والمُفَاخَرَات) فَقَدِ افتتنوا بالجِنَاسِ كغيرِهم مِنْ كُتَّابِ المَقَامَةِ، حَيْثُ تنافسَ هَؤلاءِ فِيْ هَذَا الْمِضْمَارِ، فأبدعوا وأمتعوا، وخَطُّوا ففاقوا، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ بَهَاء الدِّين الْبِيْطَار: "فَلَمَّا مرحتُ في مغانيها، وانشرحتُ بمَعَانِيها، جلتُ بِأعَلَى مَجَالِي، في وجوهِ تِلْكَ المَجَالِي، فرأيتُ في مرايا العجائبِ، ومزايا الغرائبِ"[5]. وقد ظهرَ الجِنَاسُ التَّامُّ فِيْ كلمةِ (مجالي)، فالْأُوْلَى بِمَعْنَى: (الشُّعور)، والثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (الحيِّز، أو النِّطاق، أو الميدان).

ثُمَّ ينتقلُ بَهَاء الدِّين الْبِيْطَار إِلَى مَشَاهِدِ الطَّبِيْعَةِ لتشكيلِ لوحةٍ مِنْ لَوْحَاتِ الجِنَاسِ، يَقُوْلُ: "أيَّتُهَا اللَّافِحَةُ بنارِ الهَاجِرةِ، لأنتِ التَّاركةُ للإنصافِ والهَاجِرةِ، وتزدريني بسوءِ الكَلَفِ، أوما دريتَ أنَّهُ مِنْ دواعي الحُبِّ والكَلَفِ"[6]. فالجِنَاسُ فِيْ قَوْلِ الْأَدِيْبِ وَقَعَ فِيْ كلمةِ (الهَاجِرَة)، الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (الجير، وشدَّة الحر)، والثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (الكلمة فيها الفحش)، أَمَّا الكَلَفُ فَلَهَا معنيانِ، الْأَوَّلُ: بِمَعْنَى: (نَمَشٌ يعلو الوجهَ كالسِّمْسِمِ)، والثَّانِي بِمَعْنَى، (الولوع بالشَّيْء).

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (لمَقَامَة الفكريَّة)، (ص292).

[2] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (مَقَامَة في حسن الوفاء)، (ص303).

[3] الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج754/2)، مادة (عقر).

[4] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَة الختانيَّة)، (ص51).

[5] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص55).

[6] المَرْجِع السَّابِق، ص64.

أما مُحَمَّد المُبَارَك فَذَهَبَ يعزفُ أعذبَ الْأَلْحَانِ عَلَى أوتارِ الجِنَاسِ المُمَاثِلِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "وقدَّمني فِيْ الذِّكْرِ، فِيْ مُحْكَمِ الذِّكْرِ"[1]. والجِنَاسُ التَّامُّ تمثَّل في كلمة (الذِّكْر)، أَمَّا الْأُوْلَى فهي بِمَعْنَى: الإعلانِ عن الاسمِ (الأَسْمَاء)، والثَّانِية بِمَعْنَى: (الْقُرْآن الْكَرِيْم).

وَيُبْدِعُ مُحَمَّد المُبَارَك فِيْ التَّلاعُبِ بالْأَلْفَاظِ، والرَّسْمِ بالكَلِمَاتِ لتقديمِ الجِنَاسِ في مَشَاهِدَ مُتَنَوِّعَةٍ تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا مقدرةً فائقةً، وامتلاكاً دقيقاً لزمامِ الُّلغَةِ، يَقُوْلُ: "تَهبُّ فِيْ الْأَدْوَاحِ منْهُ الْأَرْوَاحُ، فتحيي الأشباحَ، وتنعشُ الأرواحَ"[2]. والجِنَاسُ التَّامُّ وقعَ فِيْ (الْأَرْوَاحُ)، الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (الرَّوائح)، والثَّانِيَةُ: (جمع روح، كالْإِنْسَان، والحيوان).

يواصلُ مُحَمَّد المُبَارَك إبداعاتِهِ الباهرةِ فِيْ حُقُوْلِ الجِنَاسِ، فَيَقُوْلُ: "وإنَّمَا أَنَا ذاتُ ولدٍ وبنينَ، لَمْ أزلْ أعاني بهم كُلَّ وَلَهٍ وحنينٍ. فإنْ عاملتِهم بالْجَمِيْلِ، قابلتكَ بالبشاشةِ والوجهِ الْجَمِيْلِ"[3]. فَكَلِمَةُ الْجَمِيْل الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (المعروف، أو الإحسان)، أَمَّا الثَّانِيَةُ فهي بِمَعْنَى: (الْجَمَال، أو الحُسْن).

ويتنقَّلُ مُحَمَّدُ المُبَارَك بين حَدَائِقِ الجِنَاسِ، ويقطفُ من أزهارِهِ، فيُشَكِّلُ باقةً مُتَنَوِّعَةً، يَقُوْلُ: "فَفَتَحَ بابَ المناقشةِ فِيْ هَذَا الفَصْلِ، وَعَقَدَ أسبابَ المناقشةِ بِقَوْلِهِ الفَصْل"[4]. فَكَلِمَةُ الفَصْل الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (أَحدُ أَجزاءِ الكتاب مما يندرج تحت الباب)، والفَصْلُ الثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (القاطع)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ [الطارق: 13].

ويَقُوْلُ أَيْضَاً: "فَمَآثِرِي مَأْثُوْرَةٌ فِيْ القَدِيْمِ والحَدِيْثِ، وَمَفَاخِرِي منشورةٌ فِيْ الكتابِ والحَدِيْثِ"[5]. الحَدِيْثُ الْأُوْلَى: (عكس القديم)، والثَّانِيةُ: (السُّنَّة النَّبويَّة).

وَيَتَلَمَّسُ مُحَمَّدُ المُبَارَك نَسَائِمَ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ فِيْ رَسْمِ لوحاتِ الجِنَاسِ، يَقُوْلُ: "وَأَمَّا خَبَرُ الإسراءِ فعنِّي روتْهُ الأُمَّةُ، ثمَّ بلَّغَهُ الشَّاهِدَ للغائبِ بَعْدَ أُمَّة"[6]. الأُمَّةُ الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (الْجَمَاعَة من النَّاس)، والثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (الْحِيْنُ من الدَّهْرِ)، قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ [هود: 8].

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص88).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص101.

[3] المَرْجِع نفسه، ص107.

[4] الطَّيَّان، مُحَمَّد، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص125).

[5] المَرْجِع السَّابِق، ص129.

[6] المَرْجِع نفسه، ص129.

ولا تتوقَّفْ إبداعاتُ مُحَمَّد المُبَارَك عِنْدَ حَدٍّ، بَلْ يواصلُ إتحافَ مُعجبِيْهِ بمزيدٍ مِنَ الجِنَاسَاتِ، يَقُوْلُ: "وتَتَجَلَّى بناتُ الأفكارِ، وتُجتلى البناتُ الأبكارُ، وتمتدُّ من أصنافِ الإحسانِ مَوَائِدُ، وتميدُ من ألطافِ الحسانِ مَوَائِدُ"[1]. فَكَلِمَةُ المَوَائِدِ الْأُوْلَى هي (مَوَائِد الطَّعام)، أَمَّا مَوَائِدُ الثَّانِيَةُ (جمع مَائِدَة، وهي اسم فاعل من مَادَ يميد)، وَبَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ جِنَاسٌ تامٌّ لا يَخْفَى. ومثل الْأُوْلَى قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المائدة: ١١٤].

وَأَحسنَ مُحَمَّد المُبَارَك الاختيارَ لَمَّا جَمَعَ بَيْنَ مَشْهَدَيْنِ متقابلينِ بارعينِ، أولهما فيْ الْأَرْضِ، وثانيهما في السَّمَاءِ، مُسْتَلْهِماً صورةَ المَشْهَدِ الأَوَّلِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، يَقُوْلُ: "أينَ سوادُك مِنْ بَيَاضِي، وَمَا زَهْرُ نجومِكَ إنْ تلألأَ زهرُ رياضِي؟! وَكَمْ أطلعتُ بدوراً في مواكبِ السَّيَّارَةِ، فأضحتْ تزهو بجمالِهَا عَلَى الكواكبِ السَّيَّارةِ"[2]. السَّيَّارَةُ الْأُوْلَى بِمَعْنَى:(القافلة)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ ﴾ [يوسف: 19]، أَمَّا الثَّانِيَةُ فهي بِمَعْنَى: (كواكب سابحة في مدارها).

ولا يغادرُ مُحَمَّد المُبَارَك صفحاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ النقيَّةَ، ولا يفارِقُ آياتِهِ المباركَةِ، بَلْ واصلَ التَّعَلُّقَ بمَعَانِيه فِيْ تشكيلِ لوحاتِ الجِنَاسِ، يَقُوْلُ: "فَدَعْ عَنْكَ القيلَ والقالَ، وارضَ بالحقِّ غيرَ كارهٍ ولا قَالٍ"[3]. القَالُ الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (الْقَوْل)، والثَّانِية بِمَعْنَى: (المبغض)، من قلى يقلي إذا أبغضَ، قالَ تَعَالَى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: 3].

ويجمعُ مُحَمَّد المُبَارَك بَيْنَ جناسينِ مُمَاثلينِ فِيْ قَوْلِهِ: "فَأَنَا الموصوفُ بالسِّترِ الْجَمِيْلِ، والمَعْرُوْفُ بشكرِ المَعْرُوْفِ، والْجَمِيْل"[4]. فَكَلِمَةُ الْجَمِيْل الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (الحَسَن)، والثَّانِيةُ بِمَعْنَى: (المَعْرُوْف). وَهُنَاْكَ جناسٌ تامٌّ آخر في كلمة (المَعْرُوْف)، أَمَّا الْأُوْلَى فهي بِمَعْنَى: (المَشْهُور)، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فهي بِمَعْنَى: (الْجَمِيْل).

وَيُقلِّبُ مُحَمَّد الدَّيسيّ صفحاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ؛ لينقلَ أخبارَ السَّاعَةِ عن طريقِ الجِنَاسِ التَّامِّ المُمَاثِلِ، يَقُوْلُ: "وَأَنَا نزلتُ إِلَى الْأَرْضِ في هذه السَّاعةِ، وعَلَى أَبْنَائِي تقومُ السَّاعَةُ"[5].

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص135).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص139.

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص158).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص142).

[5] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مناظرة بين العلم والجهل)، (ص204).

فَكَلِمَةُ السَّاعَة الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (جزءٌ من أربعةٍ وعشرين جزءاً من اللَّيْل والنَّهار)، والسَّاعَةُ الثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (يوم القيامة، أو الوقت الَّذِيْ تقوم فيه). قال تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ [الرُّوم: ٥٥].

وَيَتَنَقَّلُ بَهَاءُ الدِّيْنِ الْبِيْطَار بَيْنَ البوادي والحواضرِ، فَيَرْسِمُ جناساً مُمَاثِلاً زَادَ مِنْ جَمَالِهِ قيامُ الجُملةِ عَلَى الْمُتَنَاقِضَاتِ الَّتِيْ تزيد الْمَعْنَى جَلَاءً ووضوحاً، يَقُوْلُ: "فلذَا جَمَالِي بَادٍ، لِكُلِّ حاضرٍ وبَادٍ"[1]. كلمة بادٍ الْأُوْلَى بِمَعْنَى: (الظَّاهر، أو الواضح)، والثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (المقيم في البادية). فَمَجِيْئُ الجناسِ صُحْبَةَ الطِّباقِ زادَ الْمَشْهَدَ رَوْعَةً وبَهَاءٍ.

الجِنَاسُ التَّامُّ المُسْتَوفِي

لَمْ يكتفِ الْأُدَبَاءُ العُثْمَانِيُّوْنَ بالجِنَاسِ التَّامِّ المُمَاثِلِ فَقَطْ، بَلِ انْطَلَقُوا يقدِّمُونَ مَشَاهِدَ أُخْرَى من الجِنَاسِ المُسْتَوفِي دَوْنَ تكلُّفٍ أَوْ تَصَنُّعٍ، حَيْثُ وظَّفَ هَؤلاءِ هَذَا النَّوعَ مِنَ الجِنَاسِ في إضفاءِ الْمُتْعَةِ عَلَى نُصُوْصِهم المَقَامِيَّةِ. ويكونُ الجِنَاسُ مُسْتَوْفِيَاً "إِذَا وَقَع بَيْنَ نوعينِ مختلفينِ كاسمٍ، وفعلٍ"[2]، ويسميهِ ابنُ أبي الأصبع المصريّ، جناسَ التَّغايُرِ، وهو "أنْ تكونَ إحدى الْكَلِمَتَينِ اسماً، والأُخْرَى فعلاً"[3] وَمِنْ شَوَاهِدِهِ: "وانحلَّتْ إدارتُهُ فَمَالَ عَلَى المَالِ الموجودِ في خزينةِ النُّقُود، فَبَسَطَ الرَّاحَ للانبساطِ والرَّاحِ"[4]. فَكَلِمَةُ (مال) الْأُوْلَى هي فعلُ ماضٍ بِمَعْنَى: (الميل)، والثَّانِيَةُ اسمٌ بِمَعْنَى: (النُّقود). قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [الكهف: ٤٦].

ويزاوجُ مُحَمَّد المُبَارَك بَيْنَ الْأَرْضِ والسَّمَاءِ فِيْ تَشْكِيلِ الجِنَاسِ المُسْتَوفِي متنقِّلاً بَيْنَهُمَا بِرشاقَةٍ أنيقَةٍ، يَقُوْلُ: "أَمَا عرفتِ أنَّ الوطنَ دَارٌ، بها فلكُ السُّعودِ قد دَارَ"[5]. فَكَلِمَةُ (دَارٌ) الْأُوْلَى اسم بِمَعْنَى: (المحلّ أو المنزل)، وكلمةُ (دَارَ) الثَّانِيَةُ فعل ماضٍ بِمَعْنَى: (طاف حول الشَّيْء). يَقُوْلُ الأَحْوَصُ:

أَدُورُ ولَـــوْلَا أَنْ أَرَى أمَّ جَعْفَـــرٍ بِأَبْيَـاتِكُمْ مَـا دُرْتُ حَيْـثُ أَدُوْرُ[6]

---

[1] البيطار، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مناظرة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص61).

[2] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص536).

[3] المصريّ، تحرير التَّحبير، (ص104).

[4] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (لمَقَامَة الفكريَّة)، (ص292).

[5] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص171).

[6] الأَحْوَص، شعر الأَحْوَص الأنصاريّ، (ص160).

وَلَمْ يَبْتَعِدْ نَاصِيْف اليَازْجِيّ عَنْ أقرانِهِ، فقدْ تزيَّنتْ مَقَامَاتُهُ بالجِنَاسِ بأنواعِهِ كَافَّةً، يَقُوْلُ: "ثُمَّ أخذ فِيْ الأجيجِ والضَّجيجِ، وَجَعَلَ يراوحُ بَيْنَ النَّحيبِ والنَّشيجِ، حَتَّى أَبْكَى مَنْ حَضَرَ، مِنَ البَدْوِ والحَضَرِ"[1]. فَكَلِمَةُ (حَضَرَ) الْأُوْلَى فعلُ ماضٍ بِمَعْنَى: (قَدِمَ)، والثَّانِيَةُ اسمٌ وهي (عكس البدو، أو سكان الحَضَر).

وَدَخَلَ ابنْ مَيْمُون الجزائريّ هَذَا الميدانَ، يَقُوْلُ فِيْ (التُّحفة المرضيَّة): "الَّذِيْ حَازَ الخصالَ في حلبةِ السَّبَقِ، وَتَجَارَى معه قضاة فسلَّموا له أنَّهُ سَبَقَ"[2]. فَكَلِمَةُ (سَبق) الْأُوْلَى اسم بِمَعْنَى (التَّقدُّم، والفوز)، والثَّانِيَةُ فعل بِمَعْنَى: (تقدَّم، وتفوَّق). مَعْ مَا حَمَلَهُ هَذَا الجِنَاسُ مِنْ جَمَالِ المُوْسِيْقَا، وحسنِ الانْتِقَاء.

والجِنَاسُ التَّامُّ "مِمَّا لا يتَّفقُ للبليغِ إِلَا عَلَى نُدورٍ، وقلَّةٍ، فهو لَا يقعَ فِيْ موقعِهِ مِنَ الحسنِ حَتَّى يكونَ الْمَعْنَى هو الَّذِيْ استدعاهُ وساقَهُ، وَحَتَّى تكونَ كَلِمتُهُ مِمَا لا يبتغي الْأَدِيْبُ مِنْهَا بدلاً، ولا يجدُ عَنْهَا حِوَلاً"[3].

2- الجِنَاس غير التَّام

اقتحمَ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ عَوَالِمَ الْجَمَالِ عَبْرَ بوابةِ الجناسِ النَّاقِصِ الَّذِيْ تعدَّدَتْ أضربُهُ بشكلٍ واسعٍ، حَيْثُ توشَّحت نُصُوْصُهم المَقَامِيَّة بنماذجَ رائعةٍ منهُ، فَقَدْ وَظَّفَ هَؤلاءِ الجِنَاسَ النَّاقِصَ في إكسابِ أعمالِهِم مزيداً مِنَ القَبُولِ عن طريق المُوْسِيْقَا الَّتِيْ يحدثها، والْإِيْقَاعِ الذي يعزفُهُ، فيبتعدُ السَّامعُ عَنِ الضَّجرِ، ويتجنَّبُ السَّآمَةَ، والْمَلَلَ صُحْبَةَ التَّشكِيلاتِ المُختلِفةِ.

والجِنَاسُ النَّاقِصُ في عُرْفِ العُلَمَاْءِ هو "مَا اختلفَ فيهِ اللَّفْظَانِ فِيْ أعدادِ الْحُرُوْفِ فَقَطْ"[4]. وَنَحْوَ ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القيامة: ٢٩، ٣٠]. فالجِنَاسُ في الشَّاهدِ السَّابِقِ جَرَى فِيْ اسمينِ اختلفا فِيْ عَدَدِ الْحُرُوْفِ، وهما: (السَّاق، والمَسَاق).

وتتنوَّعُ أَضْرُبُ الجِنَاسِ النَّاقِصِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ الَّتِيْ غَدَتْ وَكَأَنَّهَا عُقُودُ الدُّرِّ المنظومُ، وَمِنْ أَضْرُبِهِ:

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص421، ص422).

[2] الجزائريّ، التُّحْفَة المرْضِيَّة، (ص148).

[3] الهاشميّ، جَوَاهِرُ الْبَلَاغَة، (ص289).

[4] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص538).

1- الْجِنَـاسُ الَّلاحِـقُ، والْمَقْصُود بالجِنَاسِ الَّلاحِقِ فِيْ اصطلاحِ الْبَلَاغِيينَ: "أنْ يُجمعَ بَيْنَ كَلِمَتَينِ اختلفتا فِي حَرْفَيْنِ غيرِ متقاربينِ"[1]، وَنَحْوَ ذَلِكَ "هُمَزَة و لُمَزَة" فِيْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الْهُمَزَة: 1].

ويظهرُ الجِنَاسُ الَّلاحِقُ في مواضعَ ليستْ بالقليلةِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "ثُمَّ أخذَ فِيْ الأجيجِ والضَّجيجِ، وجعلَ يراوحَ بَيْنَ النَّحيبِ والنَّشيجِ، حَتَّى أبكى مَنْ حَضَرَ، مِنَ البدوِ والحضرِ، فأخذَ القَومُ فِيْ تسكينِ ارتعاشِهِ، وتمكينِ انتعاشِهِ، حَتَّى خَمَدَتْ لوعتُهُ، وَهَمَدَتْ روعتُهُ...قَالَ إنِّي قد تجرَّدتُ عَنْ عَرَضِ الدُّنْيا، إلَى الغايةِ القُصْيَا"[2]. حَيْثُ جَمَعَ اليَازْجِيّ بِطَرِيْقَةٍ أخَّاذة بين مَجْمُوْعَة من الكَلِمَات اختلفت كلٌّ كلمةٍ عن أختها بحرفٍ واحدٍ فَقَطْ، وهي: (الأجيج، الضَّجيج)، (تسكين، تمكين)، (ارتعاشه، انتعاشه)، (خمدت، همدت)، و(لوعته، روعته). وَكَأنِّي باليَازْجِيّ يعزفُ مقطوعاتٍ مُتَنَوِّعَةً تَلفُّهَا مُوْسِيْقَا عذبةٌ من نوعٍ خاصٍّ لا يدركُ كُنْهَهَا إلَّا المتذوِّقُونَ.

وَمِنْهُ أَيْضَاً قولُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة): "واجترحتَ المَغَارِمَ، واستبحتَ المَحَارِمَ"[3]. فقدِ اختلفتِ (المغارم، المحارم) فِيْ حَرْفٍ واحدٍ فَقَطْ.

وَيُوَاصِلُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ رَسْمَ صورٍ مُتَنَوِّعَةٍ للجناسِ الَّلاحِقِ فِيْ نُصُوْصِهِ المَقَامِيَّةِ، يَقُوْلُ فِيْ (المَقَامَة الهزليَّة): "فقضيناه يوماً صَفَا زُلَالُهَ، وَغَابَ عُذَّالُهُ، إلَىْ أنْ آذنتِ الشَّمْسُ بالأُفُولِ، وهمَّ النَّجْمُ بالقُفُولِ"[4]. فَكَلِمَتَا (الْأُفُوْل، وَالْقُفُوْل) اخْتَلَفَتَا فِيْ حرفٍ واحدٍ فَقَطْ.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق عَنْ نَاصِيْف اليَازْجِيّ فِيْ هَذَا الْبَابِ، فَقَدْ رَسَمَ مَشْهَدَاً من مَشَاهِدِ الجِنَاسِ الَّلاحِقِ فِيْ كَلِمَتَي (العبر، الكبر) فِيْ قَوْلِهِ: "ثُمَّ التفتَ إليَّ مستعبراً، وَقَالَ: وَأَنتَ فَمَا ترى، قلتُ: واللهِ إنَّهَا لإحدى الكُبَرِ، ومعضلةٌ تفيضُ لها العِبَرُ"[5]. حَيْثُ افترقتِ الْكَلِمَتَانِ فِيْ حرفٍ واحدٍ فَقَطْ.

---

[1] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص540). العلويّ، الطراز، (ص377).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص422، ص423).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص421. اجترحت: ارتكبت، المغارم: الجنايات.

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص422).

[5] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص132).

2- الْجِنَاسُ الْمُصَحَّفُ، وهو "ما يكونُ فيهِ النَّقْطُ فارقاً بَيْنَ الْكَلِمَتَينِ"[1]، وَمَعْنَى ذَلِكَ ما اتفق ركناه فِيْ عَدَدِ الْحُرُوْفِ وترتيبها، واختلفا فِيْ النَّقْطِ فَقَطْ، بحَيْثُ لو زالَ إعجام أحدهما لم يتميَّزْ عن الآخرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ (يحسبونَ، ويحسنونَ) فِيْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [الكهف: 104].

وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِيْ النَّظْمِ (أعترف، وأغترف)، الَّذِيْ تداولتْهُ مُعْظَمُ كُتُبِ البَلَاْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عِنْدَ الحَدِيْثِ عَنِ الجِنَاس النَّاقِصِ فِيْ قَوْلِ أَبِي فِرَاس الْحَمدَانِيّ:

مِــنْ بَحْــرِ شِــعْرِكَ أَغتَــرِف وَبِفَضْــلِ عِلْمِــكَ أَعْتَــرِف[2]

فَاقَ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ كَعَادَتِهِ الْأُدَبَاءَ في تقديمِ مَشَاهِدِ الجِنَاس بأنواعِهِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا الضَّربِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ مَا طَرَحَهُ فِيْ (المَقَامَة الحَمويَّة) مُتَيَمِّنَاً بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيْ الآيَةِ السَّابِقَةِ: "أَيُعلِّمُونَ اليتيمَ البكاءَ، والنَّديمَ الغناءَ، أَمْ تحسبونَ أَنَّكم تُحسنونَ صُنْعاً"[3]. فَقَدِ اختلفتْ كَلِمَتَا (تحسبونَ، وتحسنونَ) فِيْ النَّقْطِ فَقَطْ. وَمِنْ شَوَاهِدِهِ أَيْضَاً فِيْ نُصُوْصِهِ المَقَامِيَّة، قوله: "وَإِذَا حان الْقَضَاء ضاق الفضاء"[4]. فَقَدِ اختلفتْ كلمتا (الفضاء والْقَضَاء) فِيْ النَّقْطِ فَقَطْ. وَمِنْ شَوَاهِدِه أَيْضَاً قَوْلُهُ فِيْ (المَقَامَة الأنباريَّة): " ثُمَّ انْطَلَقَتْ بي إِلَى الْخَانِ، وَأَنَا كَشَارَبِ ابنةِ الحان"[5]. فكلمتا (الحان) و(الخان) اخْتَلَفَتَا فِيْ النَّقْطِ فَقَطْ.

وَلَمْ يقفْ نَاصِيْف اليَازْجِيّ عِنْدَ حَدٍّ فِيْ إبداعاتِهِ، فَقَدْ زيَّنَ نُصُوصَهُ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، وَمِنْ شواهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِيْ (المَقَامَة الحليَّة): "فَنَظَرَ إليهم نظرةَ البازيِّ، وَصَالَ عليهم صَوْلَةَ الغازيِّ، وَقَالَ أَمَّا إِنْ كَانَ قَدْ غَرَّكُم الهزالُ، حَتَّى دعوتم نَزال، فلأرينَّكم لمحاً باصراً، وفتحاً ناصراً"[6]. حَيْثُ اختلفتِ الْكَلِمَتَانِ (باصراً)، و(ناصراً) فِيْ النَّقْطِ فَقَطْ.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ عن أنداده كَثِيْراً، فَقَدْ سَلَكَ ذاتَ الدَّرْبِ فِيْ نُصُوْصِهِ المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (الرُّبى، والزُّبى) فِيْ قَوْلِهِ فِيْ (المَقَامَة السَّاسانيَّة): "وَقُضَاةٌ بَلَغَ سَيْلُ

---

[1] المصريّ، تحرير التَّحبير، (ص105).

[2] الحمدانيّ، دِيْوَان أبي فراس الحمداني، (ص 216). أغترف: آخذ بيدي.

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحمويَّة)، (359).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الأنباريَّة)، (ص289).

[5] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة العاصميَّة)، (ص114).

[6] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحليَّة)، (ص321).

الظُّلمِ بهم الزُّبى، وشرقتْ أفواهُ التِّلاعِ وَالرُّبى"[1]. وَ(الفضاء، والْقَضَاء) فِيْ قَوْلِهِ فِيْ (المَقَامَة المغربيَّة): "وَلَا أبرحُ فِيْ مَلَاعِبِ الفضاءِ، كُرَةً لصولجانِ القدرِ، والْقَضَاءِ"[2].

ولأُدَبَاءِ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات) حَظٌّ وافرٌ فِيْ هَذَا الجِنَاسِ في رَوَائِعِهِم، وَلَعَلَّ طبيعةَ الغَرَضِ، وَمَا يَحْمِلُهُ مِنْ تفاخرٍ، ومنافسةٍ دَفَعَ هَؤلاءِ إِلَى توظيفِ الْجِنَاسِ بكثرةٍ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ أَحْمَد البَرْبِيْر: "يُحِبُّ المُحَاسَنَةَ، ويكرهُ المُخَاشَنَةَ، ويُحَاشِي مجلسَهُ مِنَ الْمُحَاشَنَةِ"[3]. حَيْثُ اختلفتِ (المُخَاشُنَة)، و(المُحَاشَنَة) فِيْ النَّقْطِ فَقَطْ.

وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "وَقَالَ لَهُ: وَيْلَكَ لَقَدْ تعاليتَ وتغاليتَ فِيْ دعواكَ، أَمَا تخشى فِيْ ذَلِكَ مِنْ عالمِ سرِّكَ ونجواكَ"[4]. فَقَدِ افترقتْ (تعاليت، وتغاليت) فِيْ النَّقْطِ فَقَطْ، وَصَاحَبَ هَذَا الاخْتِلَافَ جرسٌ موسيقيٌّ أَخَّاذٌ.

وَيُوظِّفُ بَهَاءُ الدِّين الْبِيْطَار الْقُرْآنَ الْكَرِيْمَ عَنْ طريقِ الدَّالَّيْنِ (ناضرة)، (ناظرة) فِيْ تَشْكِيْلِ الجِنَاسِ المُصَحَّفِ، يَقُوْلُ: "ثُمَّ قَالَتْ بَعْدَ أنْ تجلَّتْ ببرودِ السَّناءِ، وتحلَّتْ بعُقُودِ الْحَمْدِ والثَّناءِ: أَنَا العروسُ النَّاضرةُ، والعَيْن النَّاظرةُ"[5]. قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: 22، 23]. كما جمع كَذَلِكَ بين (تجلَّت، وتحلَّت) ليكمل مشهد الْجَمَال. وَمِنْهُ (مَعَانِيها، ومغانيها) فِيْ قَوْلِهِ: "فَلَمَّا أمعنَ الْقَمَرُ فِيْ مَعَانِيهَا، وَجَالَ طرفُ فِكْرِهِ في مَغَانِيْهَا"[6]. وَقَدْ حَمَلَتِ الجناساتُ روعةً أظهرت إمكاناتِ الأدباءِ الهائلةَ

ويجمعُ بهاءُ الدِّينِ الْبِيْطَار بَيْنَ أكثرَ منْ جِنَاسٍ مُصَحَّفٍ في آنٍ واحدٍ، يَقُوْلُ: "فَلَمَّا مرحتُ في مغانيها، وانشرحتُ بمَعَانِيها، جُلْتُ بأعَلَى مَجَالِي، في وُجُوْهِ تِلْكَ الْمَجَالِي، فرأيتُ فِيْ مَرَايَا العَجَائِبِ، وَمَزَايَا الْغَرَائِبِ"[7]. حَيْثُ جَمَعَ بَيْنَ (مَعَانِيها، مغانيها)، و(مَرَايَا، مَزَايَا) مَعْ مَا حَمَلَهُ هَذَا الجَمْعُ مِنْ مُوْسِيْقَا عَذْبَةٍ تَطْرَبُ لعذوبتِهَا الأَسْمَاعُ.

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدّنيا، (ص393).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص393.

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص39).المحاشنة: الحقد.

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص158).

[5] الطَّيَّان، بهاء الدين، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص57، 58).

[6] المَرْجِع السَّابِق، ص64.

[7] المَرْجِع نفسه، ص55.

وَيُبْدِعُ الْبِيْطَارُ فِيْ هَذَا الْبَابِ كَذَلِكَ فِيْ الجمعِ بَيْنَ (اليراعة، الْبَرَاعَة) فِيْ قَوْلِهِ: "فارتقتْ عرشَ اليراعةِ والْجَمَالِ، وانتقتْ فرشَ الْبَرَاعَةِ والْكَمَالِ"[1].

ويدورُ مُحَمَّد الدَّيْسِيّ فِيْ فَلَكِ أُدَبَاءِ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات)، ويُقدِّمُ أَرْوَعَ الجِنَاسَاتِ عَنْ طريقِ الجمعِ بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ (زاغ)، و(راغ) فِيْ دقَّةٍ مُتناهيةٍ، يَقُوْلُ: "فَكَمْ مِنْ عالمٍ زَاغَ فِيْ العملِ والعَقْدِ، ورَاغَ فِيْ جَمِيْعِ أحوالِهِ عَنْ سبيلِ القَصْدِ"[2]. ثُمَّ تابعَ بالجمعِ بَيْنَ اسمينِ هُمَا (الشِّعر، والسِّعر) فِيْ قَوْلِهِ: "ونَظْمُ الشِّعْرِ، كاسدُ السِّعْرِ"[3]. وَيُوَاصِلُ الدَّيْسِيّ تقديمِ فَوَاصِلِ الإِبْدَاعِ الَّتِيْ رَسَمَهَا أُدَبَاءُ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات)، يَقُوْلُ: "وإنَّه يُنَالُ بالهممِ لا بالرِّممِ، ولا يُحازُ بنشبٍ، ولا يورثُ بِنَسَبٍ"[4].

ويقتفي مُحَمَّد الوُرْغِيّ آثارَ سابقيهِ، ويَتَرَنَّمُ بروائعَ متنوِّعةٍ مِنَ الجِنَاسِ المُصَحَّفِ بالجمعِ بَيْنَ كَلِمَتَي (الأخبار، والأحبار)، يَقُوْلُ: "وَفِيْمَا بلغَنَا مِنَ الأخبارِ عن الأحبارِ، أَنَّ تُوْنَسَ اسمٌ لذاتِ أسوارٍ، لا سِوَار"[5].

ولأَحْمَد فَارِس الشِّدْياق نَصِيْبٌ من هَذَا الجِنَاسِ، حَيْثُ جَمَعَ بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ (نفدت، نقدت) فِيْ قَوْلِهِ: "ثُمَّ تأَوَّه وَقَالَ: سلعةٌ نفدتْ، ودنانيرُ نقدتْ"[6].

أما شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ فَقَدْ وَظَّفَ الجِنَاسَ المُصَحَّفَ (البَعْرَة)، و(النَّعْرَة) فِيْ هِجَائِهِ، يَقُوْلُ: "والعامةُ يرمونَ التَّاجِرَ بالبَعْرةِ، ويشيعوْنَهُ بالنَّعْرَةِ"[7].

3- الْجِنَاسُ الْمُحَرَّفُ

طَرَقَ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ كَذَلِكَ أبوابَ الجِنَاسِ المُحَرَّفِ، فقدَّمُوا فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ مَشَاهِدَ مُبهرةً روتْ ظَمَأَ المُتَعَطِّشِيْنَ لِلجَمَالِ، الْبَاحِثِيْنَ عَنِ الْكَمَالِ، والْمَقْصُودُ بالجِنَاسِ المُحَرَّفِ، ذَلِكَ اللَّوْنُ "الَّذِيْ يكونُ الضَّبْطُ فيهِ فارقاً بين الْكَلِمَتَينِ، أَوْ بَعْضِهِمَا"[8]، أو "مَا اختلفا فِيْ هيئاتِ

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)،(ص57).

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مناظرة بين العلم والجهل)، (ص200). راغ: مال وحاد.

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص202.

[4] المَرْجِع نفسه، ص192. النَّشب: المال والعقار

[5] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَة الخمريَّة)، (ص22).

[6] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة مُقْعَدَة)، (ص131). الأَزْل: ضيق العيش، الأَزِل: السريع.

[7] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا، (المَقَامَة السَّاسانيَّة)، (ص396).

[8] المصريّ، بَدِيع القُرآن، (ص29).

الْحُرُوْفِ فَقَطْ"[1]، وَمَعْنَى ذَلِكَ اختلافُ اللَّفْظَيْنِ فِيْ هيئةِ الْحُرُوْفِ الحاصلةِ مِنَ الحَرَكاتِ، والسَّكناتِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ في الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الصافات: 72 ، 73]. فالجِنَاسُ وَقَعَ بَيْنَ اسمِ الفاعلِ (مُّنذِرِينَ)، واسمِ المفعولِ (الْمُنذَرِينَ).

وَمِنْهُ فِيْ النَّظْمِ قَوْلُ الأميرِ عبدِ القادرِ الجزائريّ:

والحُسْنُ يَظْهَرُ فِيْ بَيْتَيْنِ رَوْنَقَهُ بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ أو بَيْتٌ مِنَ الشَّعر[2]

فالشِّعرُ الْأَوَّلُ هو النَّظْمُ، والثَّانِي هو بيتُ الشَّعْرِ. وَمِنْهُ (قَدَم، وقِدَم) فِيْ قَوْلِ الْحَمَدَانِيِّ:

ثُـمَّ ادَّعَاهَـا بَنُـوْ الْعَبَـاسِ إِرْثُهُـمُ وَمَـا لَهُـمْ قَـدَمٌ، فِيْهَـا، وَلَا قِـدَمُ[3]

وَلَمْ يكنْ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ أقلَّ شَأْناً مِنْ سابقِيْهِم فِيْ هَذَا الْبَابِ، فَقَدْ قَدَّمُوا لَوْحَاتٍ أَخَّاذةً مِنَ الجِنَاسِ المُحَرَّفِ، وَمِنْ رَوَائِعِهِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ مَا ضَمَّنَهُ عَبْد الله فِكْرِيّ نُصُوْصَهُ المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (خَبراً وخُبراً) فِيْ قَوْلِه: "وسأعرفكَ هَذِهِ الأحوالَ خَبراً وخُبراً، وسأنبئُكَ بتأويلِ ما لَمْ تستطعْ عليْهِ صَبْرَاً"[4]. وَمِنْهُ (مَرِّهَا، مُرِّهَا) فِيْ قَوْلِهِ: "وَقَدْ هذَّبته اللَّيَالِي بِمَرِّهَا، وجرَّعتْهُ كُؤُوسَ حُلْوِهَا وَمُرِّهَا"[5].

ويرتحلُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ إِلَىْ أَرْضِ الكَنانةِ ليشكِّلَ جِنَاسَاً مُحَرَّفَاً، يَقُوْلُ فِيْ (المَقَامَة المصريَّة): "أزمعتِ الشُّخُوْصُ إِلَى الكِنانةِ، فِيْ ركبٍ مِنْ بني كِنانةَ"[6].

فَقَدْ وَرَدَ الجِنَاسُ المُحَرَّفُ فِيْ كلمةِ (الكَنانة)، الْأُوْلَى بِمَعْنَى (مصر)، أمَّا الثَّانِيَةُ فهي بِمَعْنَى: (قبيلة من قبائل العرب). وَفِيْ الْقَوْلِ المُتَدَاوَلِ: "مِصْرُ كَنانَةُ اللهِ فِيْ أرضِهِ، وَمَا طَلَبَهَا عَدُوٌّ إِلَّا أهلَكَهُ اللهُ". أَمَّا قبيلةُ (بني كِنَانَة) بكسرِ الكافِ، وفتحِ النُّونينِ، وواحدُهُم (الكِنانِيّ)، قبيلةٌ مُضريَّةٌ عدنانيَّةٌ ينتمي إِلَيْهَا النَّبيُّ، مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يتواجدُ معظمُهَا اليومَ فِيْ السُّعُوديَّةِ،

---

[1] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص537).

[2] الجزائريّ، دِيْوَان عبد القادر الجزائريّ، (ص302).

[3] الحمداني، دِيْوَان أبي فراس الحمدانيّ، (ص302).

[4] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص281).

[5] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (مَقَامَة في حسن الوفاء)، (ص300).

[6] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المصريَّة)، (ص319).

والأردنِ، والعراقِ، ومصرَ، والسُّودانِ، والأحوازِ، وسوريا، وبشكلٍ أقلَّ فِيْ دولٍ عربيَّةٍ أُخْرَى، كفلسطينَ، وتونس، والمغربِ، واليمنِ، وتحديداً في تُهامَةَ، ووادي مور.

وَكَعَادَتِهِمْ فِيْ ميادينِ الجِنَاسِ بَرَعَ أُدَبَاءُ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات) فِيْ تَوْشِيحِ مقامَاتِهِم بالجِنَاسِ المُحَرَّفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (اليَمَن، واليُمن) فِيْ قَوْلِ أَحْمَد البَرْبِيْر: "وَكُلَّمَا ثَقُلَتْ خَفَّتْ عَلَىْ مَنْ رَشَفَ منها وَذَاقَ، السَّمْرَاءُ الْمَعْشُوْقَةُ، الْمَقْبُوْلَةُ، مَشْرُوْبَةٌ، وَمَرْئِيَّةٌ، وَمَنْشُوْقَةٌ، بَنِي اليَمَنِ واليُمْنِ، ذاتِ الْجَمَالِ والحُسْنِ"[1].

وَيُتَابِعُهُ مُحَمَّد المُبَارَك بتقديمِ كَلِمَتَي (جَنَّة، جُنَّة) فِيْ قَوْلِهِ: "أَمْ كَيْفَ تَزْعُمُ أَنَّكَ الآنَ مِنَ النَّعِيمِ فِيْ جَنَّةٍ، ومنْ شررِ شرورِ الدُّنْيَا فِيْ وقايةٍ، وَجُنَّة"[2]. وَمِنْهُ (زَهراً، زُهراً) فِيْ قَوْلِ اليَازْجِيّ في (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة): "ولبثت عِنْدَه شهراً، أجتبي من روضه زَهراً، وأجتلي من أفقه زُهرا"[3].

وَيُوَاصِلُ مُحَمَّد الدَّيسيّ فَوَاصِلَ الإِبْدَاعِ الَّتِيْ رَسَمَهَا أُدَبَاءُ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات)، يَقُوْلُ: "بنوكٌ بهائمُ، وإنْ لبسوا العمائمَ، وأنعام وإنْ غُذُوا بالإِنْعَامِ، ومعشرٌ طِغَامٌ، وإنْ تمتَّعوا بفاخرِ الثِّيابِ، وألوانِ الطَّعَامِ"[4]. حَيْثُ جَمَعَ بَيْنَ كَلِمَتَي (أَنعام، إنعام) فقد اختلفتِ الْكَلِمَتَانِ فِيْ الضَّبْطِ فَقَطْ.

وَمِنْهُ (الأَزْل، والأَزِل) فِيْ قَوْلِ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "فَقَالَ إِنْ شئتَ أَنْ تصعدَ إِلَى هُنَا إِلَى أَنْ ينفضَّ زحامُ الإبلِ، وتنساغُ غُصَّةُ هَذَا الأَزْلِ الأَزِلِ"[5].

4- جِنَاسُ الاشْتِقَاقِ، واصلَ فرسانُ المَقَامَةِ العُثْمَانِيَّةِ اقتحامَ بواباتِ الجِنَاسِ، وَهَذِهِ المَرَّةُ قَصَدُوا بوابةَ جِنَاسِ الاشتقاقِ، والْمَقْصُودُ بِهِ: "أَنْ يجمعَ اللَّفْظينِ الاشتقاقُ، أو أن يجمعهما المشابهة"[6]. وَمِنْ شَوَاهِدِه (أقم، والقيِّم) فِيْ قَوْلِه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم: ٤٣]، وَمِنْ شَوَاهِدِه فِيْ النَّظْمِ (جدَّ، وجدّهم) فِيْ قَوْلِ أَبِي فِرَاس الْحَمَدَانِيّ فِيْ رائِعَتِهِ (أراك عَصِيَّ الدَّمْعِ):

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص43).

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص158).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحليَّة)، (ص324). الزُّهر: النُّجوم. الجوهري، الصَّحاح، (ج674/2).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مناظرة بين العلم والجهل)، (ص190). الطَّغام: أراذل الناس وأوغادهم.

[5] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة مقعدة)، (ص133). الأَزْل: الضِّيق.

[6] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص542).

سَـيَذْكُرُنِي قَـوْمِي إِذَا جَـدّ جَـدُّهُم وفِيْ اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ[1]

أَمَّا فِـي الْمَقَامَـاتِ الْعُثْمَانِيَّـةِ فَقَدْ كـانَ لهَذَا الضَّـربِ حَـظٌّ قليـلٌ، وَمِـنْ شَـوَاهِدِهِ (حسـوتُ، حسوةً) فِيْ قَوْلِ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "فقمتُ إِلَى الشَّرابِ، فحسوتُ مِنْهُ حَسْوَةً"[2]. وَمِنْـهُ (مهـاوي هواه) فِيْ قَوْلِ عَبْد الله فِكْرِيّ: "وما آتاه اللهُ منْ عقلٍ غريزةٍ، وبصيرةٍ تقوده إِلَـى هُدَاه، وتردُّه عن مهـاوي هَوَاه"[3]. وتفوَّقَ فِكْرِيّ فِـيْ بـابِ جِنَـاسِ الاشـتقاقِ، حَيْـثُ قـدَّم نمـاذجَ مُتَنَوِّعَـةً تلائـم كلَّ الأذواق، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (خطب خطبة)، و(أطناب الإطناب)، و(صوب الصَّواب) فِيْ قَوْلِه: "وَخَطَـبَ خُطْبَـةً مَـدَّ فيهـا أطنـابِ الإطنـابِ، وَأَشَـارَ عَلَـى الملـكِ بِمَـا زَعَـمَ أَنَّـهُ الموافـقُ لصـوبِ الصَّـوابِ"[4]. وَلَعَـلَّ الْبَرَاعَـةَ هُنَـا تبـدو فِـيْ جمعِـهِ ثلاثـةَ جناسـاتِ اشـتقاقٍ فـي مسـاحةٍ ليسـتْ بالواسعةِ، وَمِنْـهُ (وثب وثبة) فِيْ قَوْلِه: "ويدعُو لموافقةِ حُبِّ الجاهِ، عَلَى الرَّأيِ الَّذِيْ كَانَ أبدتهُ إِلَى أنْ تحرَّكَ الحسدُ، وَوَثَبَ وَثْبَةَ الأسدِ"[5]. و(أوردتني الموارد) فِيْ قَوْلِه: "فأوردتني شرَّ الموارِدِ، وعاملتني بِذَلِكَ الوضعِ البارِدِ"[6]. و(شرر الشُّرور) فِيْ قَوْلِهِ: "أَمْ كَيْفَ تزعمُ أَنَّكَ الْآنَ مِنَ النَّعيمِ في جَنَّةٍ، وَمِنْ شَرَرِ شُرُوْرِ الدُّنْيَا فِيْ وقايةٍ وجُنَّةٍ"[7].

وأدركَ مُحَمَّد الوُرْغِيّ جناسَ الاشتقاقِ فِيْ نُصُوْصِهِ المَقَامِيَّةِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ فِيْ (استشرفها استشراف)، و(تأملها تأمُّل) فِيْ قَوْلِهِ: "فاستشرفَهَا استشرافَ المُطلِّ، وتأملها تأمُّلَ المُشْمَعِلِّ"[8].

وكَعَادَتِهِ يتفوَّقُ مُحَمَّد المُبَارَك فِيْ هَذَا اللَّوْنِ، ويبدو تفوُّقُهُ فِيْ (أعلام إعلامه) فِيْ قَوْلِهِ: "وَوَقَفَ عَلَى أقدامِ إقدامِهِ، ناشراً فِيْ حَوْمَةِ ميدانِهِ أعلامَ إعلامِهِ"[9].

وَيُقدِّمُ مُحَمَّد المُبَارَك باقةً مُتَنَوِّعَةً فِيْ مَجْمُوْعَةٍ متتابعةٍ مِنْ جِنَاسِ الاشْتِقَاقِ هِيَ (فضاء فضائلي)، و(دلاء دلائلي)، و(أطناب الإطناب) فِيْ قَوْلِهِ: "وَلَوْ رَمْتُ مدَّ أطنابِ الإطنابِ فِيْ

---

[1] الحمدانيّ، دِيْوَان أبي فراس الحمدانيّ، (ص165).

[2] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص50).

[3] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص292).

[4] المَرْجِع السَّابِق، ص288.

[5] المَرْجِع نفسه، ص289.

[6] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (مَقَامَة في حسن الوفاء)، (ص390).

[7] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص158).

[8] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَة الختانيَّة)، (ص57)، المُشْمَعلّ: وصف من اشمعلَّ بمعنى ارتفع وأشرف.

[9] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص165).

فضاءِ فضائِلِي، لأوردتُ لَكَ فِيْ ذَلِكَ مَا يشفي الغليلَ مِنْ دِلاءِ دلائلي"[1]. حَيْثُ استغرقَ جِنَاسُ الاشتقاقِ أكثرَ مِنْ نِصْفِ مساحةِ الفقرةِ.

ويأبى ابنُ الأَلُوسِيّ إِلَّاْ أنْ يَضَعَ بَصْمَةً مُتفرِّدةً عنوانُهَا (فبدرت بادرة)، يَقُوْلُ: "وَخَرَجَ أمرُهَا مِنْ يَدِهِ، فبدرتْ مِنْهُ يوماً بادرةً باردةً، ونقيصته يَعُدُّهَا الكاملونَ فِيْ بابِهَا زائدةً"[2].

5- الْجِنَاسُ الْمُضَارِعُ

هُوَ أَحَدُ أنواعِ الجِنَاسِ النَّاقِصِ، والْمَقْصُودُ بِهِ: "أَنْ تختلفَ الْكَلِمَتَانِ بحرفٍ مُقَارِبٍ فِيْ الْمَخْرَجِ، سَوَاء كَانَ في الْأَوَّلِ، أَوْ الوسطِ، أَوْ الآخِرِ"[3].

وتتنوَّعُ شواهدُ الجِنَاسِ الْمُضَارِعِ تَبَعَاً لموقعِ الْحُرُوْفِ الَّتِيْ وَقَعَ فيها الاخْتِلَاْفُ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ما وَقَعَ الاخْتِلَاْفُ فِيْهِ فِيْ الحرفِ الْأَوَّلِ قَوْلُ نَاصِيفِ اليَازْجِيّ: "وَهِيَ بِكْرٌ رقيقةُ القوامِ، كَأَنَّهَا وَرْدُ الكمامِ، لَهَا نكهةُ الخزامِ، وصَفَاءُ ماءِ الغمامِ، وَبَهْجَةُ بَدْرِ التَّمَامِ، تفتنُ العُقُوْلَ والأَلْبَاْبَ، وتستعبدُ السَّادَةَ والأربابَ"[4]. فَقَدْ طَالَعَنَا بثلاثِ كَلِمَاتٍ اختلفتْ فِيْ الحرفِ الْأَوَّلِ فَقَطْ، هي (الكَمَام، الغَمَام، والتَّمَام).

ويجمعُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ أكثرَ مِنْ جِنَاسٍ من هَذَا الضَّرْبِ مُحَلِّقَاً فِيْ سَمَاءِ الإِبْدَاعِ، يَقُوْلُ: "فَلَمَّا حَانَ وَقْتُ المساءِ، وانسدلَ سَجفُ الظَّلماءِ، خُلِّي عَنِ التَّاجِرِ، ورُدَّ الحمارُ إِلَى المكاري ساغباً لاغباً جائعاً يكادُ يُسْلِمُهُ الطَّوَى إِلَى التَّوَى، ويسوقُهُ الصَّدَا إِلَى الرَّدَا"[5]. ويظهرُ الجِنَاسُ الْمُضَارِعُ فِيْ (ساغباً لاغباً)، (الطَّوى، التَّوى)، و(الصَّدا، الرَّدا).

وَمِنْهُ (النَّسْخُ، والْمَسْخُ) فِيْ قَوْلِ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "فجئتُ الفَارْيَاقَ وَهُوَ مُكِبٌّ عَلَى النَّسْخِ، وَفِيْ طلعتِهِ مبادئُ الْمَسْخِ"[6].

ويعتلي مُحَمَّدُ المُبَارَك قِمَماً شمَّاءَ فِيْ عَوَالِمِ الجِنَاسِ الْمُضَارِعِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (لوائح، وروائح) فِيْ قَوْلِهِ: "فَبِي تَفُوْحُ رَوَائِحُ الْأَزْهَارِ، وتَلُوْحُ لوائِحُ الأَنْوَارِ، وتُقْتَبَسُ الفوائِدُ، وتُلْتَمَسُ

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص177).

[2] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (قطف الزَّهر من روض الصَّبر)، (ص46).

[3] يُنْظَر، القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص540)، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن، (ج272/3).

[4] اليَازْجِيّ، نَاصِيْف، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المضريَّة)، (ص308).

[5] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا (المَقَامَة التي عارض بها الوطواط)، (ص390).

[6] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص52).

الْفَرَائِدُ"[1]. و(وخيم، فخيم) فِيْ قَوْلِهِ: "كَيْفَ جنحتَ للظُّلْمِ مَعْ أنَّ مرتَعَهُ وخيمٌ، وأثبتتَ فِيْ كَلَامِكَ نَقْصِي عِنْدَ اللهِ فخيمٌ؟"[2].

وَمِنْ أَجْمَلِ صُوَرِ الجِنَاسِ تنغيماً مَا كَانَ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ متعاقبتينِ كَمَا فِيْ قَوْلِ مُحَمَّد المُبَارَك: "فإلامَ تَتَّخِذنِي مَرْمَى هَمْزِكَ وَلَمْزِكَ فِيْمَا فِيْهِ تُفيضُ، مَعْ أنِّي مِنَ الْعُلَا فِيْ الْأَوْجِ، وَأَنْتَ فِيْ الحضيضِ"[3]. قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الْهُمَزَة: ١].

وَقَدْ يقعُ الاخْتِلَافُ فِيْ حُرُوْفٍ فِيْ وَسَطِ الكلمةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ اللهِ فِكْرِيّ: "فَلَمَّا سَمِعَ مَا سَمِعَ، كَادَ فُؤادُهُ ينخلعُ، حَتَّى تخيَّلَ أَنَّ الْأَرْضَ ابتلعتْهُ، أَوِ الرِّيحَ اقتلعتْهُ"[4]. فَقَدْ وَقَعَ الاخْتِلَافُ فِيْ الْوَسَطِ فِيْ كَلِمَتَي (ابتلعته، واقتلعته).

وَيُوَاصِلُ عَبْد الله فِكْرِيّ العزف عَلَى أَوْتَارِ هَذَا الضَّرْبِ صُحْبَةَ (الْأَتْقِيَاء، والْأَشْقِيَاء) فِيْ قَوْلِه: "والمعاشِر للعلماء و الْأَتْقِيَاء، والملازم للجهلاء والْأَشْقِيَاء"[5]. ثُمَّ يتابع بـ (مأوانا، ومثوانا) فِيْ قَوْلِه: "فقالت يا بُنَيَّ، إذا بعت مأوانا، فأين يكون مثوانا؟"[6]. ليزدان المَشْهَد بجرسٍ موسيقيٍّ مِنْ طِرازٍ فريدٍ، وزاد المَشْهَدَ زينةً أسلوبا الشَّرْطِ والاسْتِفْهَامِ.

وفِي مَقَامَاتِ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات) يتفوَّقُ مُحَمَّدُ المُبَارَك عَلَى نفسِهِ كَعَادَتِهِ في باب الجِنَاس، فيجمع عَدَداً كَبِيْراً فِيْ مَقَامَاتِهِ، وَهَا هُوَ يَتَرَنَّمُ بروائعِ الجِنَاسِ عَنْ طريقِ الاسْتِفْهَامِ الْمُوَشَّى بالدُّرِّ، والتِّبرِ صُحْبَةَ (المحبوك)، و(المسبوك) فِيْ قَوْلِهِ: "فَمَا الدُّرُّ الْمَحْبُوكُ، وَمَا التِّبْرُ الْمَسْبُوْكُ؟"[7]. ثُمَّ يتابعُ بِجِنَاسٍ مُزْدَوَجٍ (دعاك، دهاك)، و(الْمُفَاضَلَة، والْمُنَاضَلَة) فِيْ قَوْلِهِ: "فَمَا دَعَاكَ إِلَى حَلَبةِ المُفَاضَلَةِ، وَمَا دَهَاكَ حَتَّى عرَّضْتَ بنفسِكَ لِلمُنَاضَلَةِ"[8].

وَقَدْ يَقَعُ الاخْتِلَافُ في الْجِنَاسِ الْمُضَارِعِ فِيْ الْحرْفِ الأخيرِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ (المِنَحُ، والْمِنَنُ) فِيْ قَوْلِ مُحَمَّد المُبَارَك: "وإنِ حَبَستِ عنهُمْ سَحَائِبَ الْمِنَحِ وَالمِنَنِ، فتحكَّمتْ فِيْهِمْ صُنُوْفُ

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص139).

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص171).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص158.

[4] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص306).

[5] المَرْجِع السَّابِق، ص276.

[6] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (مَقَامَة في حسن الوفاء) (ص305).

[7] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غريب الأنباء في المُفَاخَرَة بين الْأَرْض والسَّمَاء)، (ص101).

[8] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص127).

الصُّروفِ، وَالْمِحَنِ"[1].

6- جناس القلب، و"هُوَ مَا اختلفَ فيهِ اللَّفْظَانِ فِيْ ترتيبِ الْحُرُوْفِ"[2]، وهَذَا النَّوْعُ يتشابَهُ رُكْنَاهُ فِيْ عَدَدِ الْحُرُوْفِ دُوْنَ زيادةٍ أو نقصٍ، وَيُخالفُ أحدُهُمَا الآخرَ فِيْ التَّرتيبِ، ويأتي عَلَى أنواعٍ مِنْهَا:

1- قَلْبُ الْكُلِّ: وَهُوَ مَا جَاءَ فيهِ أَحَدُ ركنيهِ مُخَالفًا للآخرِ فِيْ حُرُوفِهِ كُلِّهَا، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ العباسِ بنِ الأحنفِ:

حُسَـامُكَ فِيْـهِ للأَحْبَـابِ فَـتْحٌ وَرُمْحُـكَ فِيْـهِ لِلأَعْـدَاءِ حَتْـفُ[3]

وَقَوْلُ الشَّاعِرِ:

فَـتْحٌ وَحَتْـفٌ والسَّـرايَاْ دَرْبُنَـا قَسَّـامُ أَقْصَـى وَالْجِهَـادُ نَفِيْـرُ[4]

2- قَلْبُ البعضِ: وهُوَ مَا جَاءَ فيه أَحَدُ ركنيْهِ مُخَالِفًا للآخَرِ فِيْ بَعْضِ الْحُرُوْفِ، أَوْ "أنْ تكونُ إحدى كَلِمَتَيهِ عَكْسَ الأُخْرَى بتقديمِ بعضِ الْحُرُوْفِ عَلَى بعضٍ"[5]، وَمِنْهُ (بين، وبَنِي) فِيْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه: 94]، وَمِنْهُ في النَّظْمِ (سبطه)، و (بسطه) فِيْ قَوْلِ أَبِي فِرَاسِ الْحَمَدَانِيّ:

وَرَاحَـةٌ تَغْمُـرُ كَفَّـيّ سِـبْطِهِ زَادَ عَلَـى قَـدرِ البـزَاةِ بَسْـطه[6]

ويُعدُّ هَذَا النَّوْعُ مِنْ أكثرِ أنواعِ الجِنَاسِ وَفْرَةً فِيْ الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَلَعَلَّ هَذَا يرجعُ إِلَى افتتانِ الْأُدَبَاءِ بالقلبِ والعكسِ لمنافسةِ نظرائِهِم، وأندادِهِم، وَقَدْ تفوَّقَ نَاصِيْف اليَازْجِيّ أَيَّمَا تفوُّقٍ فِيْهِ مُتَلَاعِبَاً بـالْحُرُوْفِ، فشكَّلَ أَرْوَعَ اللَّوْحَـاتِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (المرتبـة، والمتربـة) فِيْ قَوْلِهِ: "فقدْ ولَّتِ المَرْتَبَةُ، وَحَلَّتِ المَتْرَبَةُ"[7]. وَ(التُّلُنَّـة، اللُّتُنَّـة) فِيْ قَوْلِـهِ: "فَمَتَى لَمْ نقضِ التُّلُنَّـةَ،

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غريب الأنباء في المُفَاخَرَة بين الْأَرْض والسَّمَاء)، (ص101).

[2] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص541).

[3] ابن الأحنف، دِيْوَان العباس بن الأحنف، (ص184).

[4] بيت من قصيدة للباحث بعنوان: القدس متى وأين؟.

[5] المصريّ، بديع القرآن، (ص30).

[6] الحمدانيّ، دِيْوَان أبي فراس الحمدانيّ، (ص157).

[7] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الْأَدَبيّة)، (ص286). المتربة: الفاقة، الجوهريّ، الصَّحاح، (ج133/1).

أخذتْنَا اللُّتُّة"[1]. و(ثَفِناته، ونفثاته) فِيْ قَوْلِهِ: "فهيهاتَ أنْ تبرحَ حَتَّى تشرحَ، فحولَقَ واستتبَّ عَلَى ثَفِناتـه، وَأَفاضَ فِـيْ شَـرْحِ نفتاتِـهِ"[2]. وَخَـتَمَ اليـازجيّ بـِ (الأكـوار، والأوكـار) فِـيْ قَوْلِـهِ: "وَخَرَجْنَـا نطوي الوهادِ والرُّبَى، بَيْنَ الْخَيْزَلَى والْهَيْذَبَى، حَتَّى حَلَلنَاْ تِلْكَ الدِّيارِ، فَنَزَلْنَا عَنِ الأكوارِ، إِلَى الأوكارِ"[3].

وَلَا يَقِلُّ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق تفوُّقاً عَنْ نَاصِيْف اليَازْجِيّ فِيْ هَذَا الْبَابِ، فَقَدْ قَدَّمَ نماذجَ رائعةً في (السَّاق عَلَى السَّاق)، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ (شُعراء، وعُشراء) فِيْ قَوْلِهِ: "فقلتُ لا جَرَمَ لأقصدنَّ مُنْتَابَ الشُّعَرَاءِ، ولأتخذنَّهُمْ لِيْ عُشَرَاءَ"[4]. و(فنع، ونفع) فِيْ قَوْلِهِ: "فكلٌ ضُرٌّ معها يستحيلُ إِلَى فنعٍ ونفعٍ، وكلُّ شظفٍ بقربِهَا فَهُوَ قصوفٌ ورَتْعٌ"[5]. مَعْ مَا تَحْمِلُهُ مَشَاهِدُ الجِنَاسِ من قدرةٍ فائقةٍ عَلَى التَّلاعُبِ بالْأَلْفَاظِ، وإمكاناتٍ عظيمةٍ عَلَى التَّرويضِ للحروفِ.

وَيُظْهِرُ مُحَمَّد الدَّيسيُّ ليقدَّمَ جناسَ قلبٍ وهو (الرُّتب، والتُّرب) فِيْ قَوْلِه: "لَاْ يطمعونَ فِيْ نَيْلِ الرُّتَبِ، وَسُكْنَى غالبهم الزَّوايا والتُّربُ"[6].

ويُحَلِّقُ مُحَمَّدُ المُبَارَك منفرداً فِيْ سماءِ الإِبْدَاعِ، حَيْثُ شَكَّلَ لَوْحَاتٍ بَارِعَةً، وشَّحَها بهَذَا الضَّرْبِ مِنَ الجِنَاسِ، وَكَأَنِّي بِهِ يَرْسِمُ أَرْوَعَ الصُّورِ بشَتَّى الأَلْوَانِ، وأَوَّلُ روائِعِهِ هُنَا: (الحماسة، والسَّماحة) فِيْ قَوْلِهِ: "وَقَدْ تفرَّدْتُ لَا مَحَالَةَ فِيْ الْبَهَاءِ والملاحةِ، وانفردتُ بجمعي بَيْنَ الحماسةِ والسَّمَاحةِ"[7]. وثانِيْهَا: (الْمِنحُ، والْمِحَنُ) فِيْ قَوْلِهِ: "وتعيِّرنِي بَمَا يتعرَّفُ بِهِ إليَّ مولايَ مِنْ غُرَرِ الْمِنَحِ فِيْ صُوَرِ الْمِحَنِ والْمَصَائِبِ، فَأَقْبَلَ منها بدرعِ التَّجَلُّدِ، وتُرْسِ التَّصبُّرِ كُلُّ سهمٍ صَائِبٍ"[8]. وَثَالِثُهَا: (أوقاتك، وأقواتك) فِيْ قَوْلِهِ: "وَهَلْ صفتْ أوقاتُكَ إِلَّا بوجودِي، أَوْ طابتْ أقواتُكَ إلا بوابلِ كَرَمِي وَجُوْدِي؟!"[9].

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة العدنيَّة)، (ص273). التُّلنة: الحاجة، اللُّتنة: القنفذة.

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة اللغزيَّة) ، (ص206). حولق: قال لا حول ولا قوة إلا بالله، ثفناته: كلماته.

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المصريَّة)، (ص319).

[4] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة مُقيمة)، (ص281).

[5] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة ممشية)، (ص359). الفَنَع: الجود. (الجوهري، الصحاح، 1260/3))

[6] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مناظرة بين العلم والجهل)، (ص198).

[7] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غريب الأنباء في المُفَاخَرَة بين الْأَرْض والسَّمَاء)، (ص104).

[8] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص158).

[9] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غريب الأنباء في المُفَاخَرَة بين الْأَرْض والسَّمَاء)، (ص107).

ولَمْ يَتَوَقَّفْ مُحَمَّد المُبَارَك عَنْ مواصلةِ مسيرهِ في دُرُوْبِ جناسِ القلبِ، فَقَدْ عَاوَدَ يرسِمُ بَأَنَامِلِهِ مِنْ جَديدٍ بَاقَةً مُتَنَوِّعَةً مِنْ روائِعِ جناسِ القلبِ أَوْلَهَا: (رغبة، وغربة) فِيْ قَوْلِهِ: "وكَيْفَ تَكُونُ للعاقلِ رَغْبَةٌ فِيْ الْغُرْبَةِ، وَهِي مَسْكنُ المسكنةِ، والكربةِ"[1]. وثانيها: (قريب، ورقيب) فِيْ قَوْلِهِ: "وَلَا يقيِّده وَطَنٌ، ولا قريبٌ، ولا يلتقي بِهِ وَاشٍ، ولا رَقِيْبٌ"[2].

ويختتمُ مُحَمَّد المُبَارَك روائعه بِقَوْلِهِ: (جداله، جلاده) فِيْ قَوْلِه: "فَسَدَّ ما بين الخافقين بسواده، وطفق يرمي بسهام جداله في جلاده"[3]. و(المنح، والمحن) فِيْ قَوْلِه: "وإن حبستِ عنهم سحائب المنح والمِنَن، فتحكَّمت فيهم صنوف الصُّروف والمحن"[4].

7- جِنَاسُ التَّرْكيبِ، وَهُوَ أَحَدُ أنواعِ الجِنَاسِ التام، والْمَقْصُودُ بِهِ "مَا كَانَ أحدُ ركنيْهِ كلمةً واحدةً، والأُخْرَى مُرَكَّبَة مِنْ كَلِمَتَينِ"[5].

وَتَتَعَدَّدُ أنواعُ جِنَاسِ التَّرْكيبِ، فَمِنْهُ المُتشابِهُ، وَ"هُوَ مَا تَشَابَهَ رُكْنَاهُ، الكلمةُ المفردةُ، والكلمةُ المركَّبةُ لفظاً وخَطّاً"[6]، وَمِنْهُ في النَّظْمِ (صدَّ عَني، صدَّعَنِي) فِيْ قَوْلِ أَبِي فِرَاس الْحَمَدَانِيّ:

وَجَـــدْتُ فِيْـــهِ اتِّفَـــاقَ سُـــوْءٍ صـــدَّ عَنِّـــي مِثْـــل صـــدَّعَنِي[7]

فَقَوْلُهُ: (صدَّ عني) الْأُوْلَى: بَالَغَ في شقِّي، و(صدَّعني) الثَّانِيَةُ: أصابني بالصُّداعِ. وفي البيتِ جناسٌ تَامٌّ، وَهُوَ جِنَاسُ تركيبٍ مِنَ المُتشابِهِ. والجِنَاسُ في البيتِ مُتَكلَّف تظهرُ فِيْهِ الصَّنْعَةُ بصورةٍ جليَّةٍ.

ويبدو أنَّ هَذَا النَّوعَ أقلُّ أنواعِ الجِنَاسِ وُرُوْدَاً فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، لحاجَتِهِ إِلَى إمكاناتٍ لُغَوِيَّةٍ هائلةٍ رُبَّما لا تحتاجُهَا أضربُ الجِنَاسِ الأُخْرَىْ، وَمِنْ شَوَاهِدِه (طَيْلَسَان، وطَي لِسَان) في قَوْلِ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "ثُمَّ خرجَ يميسُ فِيْ طيلسانِهِ وَهُوَ يَقُوْلُ:

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص156).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص168.

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص130).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غريب الأنباء في المُفَاخَرَة بين الْأَرْض والسَّمَاء)، (ص101).

[5] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص537).

[6] المَرْجِع السَّابِق، ص537.

[7] الحمدانيّ، دِيْوَان أبي فراس الحمدانيِّ، (ص331). صدَّعني الأولى: بالغ في شقي، وصدَّعني الثانية: أصابني بالصُّداع.

مَـأرَبٌ لا حَفَـاوَةٌ مِـنْ حَـرِيْصٍ رَأمَ بالطَّيْلَسِـأنِ طَـيَّ لَسـانِ"[1]

وَمِنْهُ كَذَلِكَ (بَلْ عَمْ، وبَلْعَم) فِيْ قَوْلِ مُحَمَّد الدَّيسيّ: "فَإِنَّهُ كَانَ عالماً غيرَ مُوَفَّقٍ. والَّذِيْ ما خَصَّ، بَلْ عَمْ، قضيَّة ابنِ عوراء بَلْعَم"[2].

أَمَّا مُحَمَّدُ المُبَارَك فظهرَ جِنَاسُ التَّرْكيبِ فِيْ قَوْلِهِ: "وَلِمَ جحدتَ ظهورَ شمسِ كَمَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنَ الفواضلِ كَمَا لي؟"[3]. فَفِيْ الْكَلَامِ جِنَاسُ تركيبٍ، فكلمةُ (كمالي) الْأُوْلَى: (بِمَعْنَى تمامي)، وَكَمَا لي الثَّانِيةُ بِمَعْنَى: (كَالَّذِيْ لي).

8- الْجِنَاسُ الْمُذَيَّلُ

وَهُوَ أَحَدُ أنواعِ الجِنَاسِ النَّاقِصِ كَذَلِكَ، وفيه تفترقُ الْكَلِمَتَانِ بالزِّيادةِ فِيْ عَدَدِ الْحُرُوْفِ، فِيْ آخرِ الكلمةِ، والجِنَاسُ المُذيَّلُ "أنْ يختلفا بزيادَةِ أكثرَ مِنْ حرفٍ واحدٍ"[4]، وَفِيْهِ يكونُ الاخْتِلَافُ بأكثرِ مِنْ حَرْفَيْنِ فِيْ آخِرِهِ. وهَذَا النَّوْعُ من الجِنَاسِ لا يخلو مِنْ مفاجأةِ الإدهاشِ، والإنعاشِ، إنْ لَمْ يَزِدْ نصيبُهُ مِنْهَا. وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ أَبِي تَمَّام:

يَمُـدُّوْنَ مِـنْ أَيْـدٍ عَـوَاصٍ عَوَاْصِـمٍ تَصُوْلُ بِأَسْيَافٍ قَواضٍ قَوَاضِبِ[5]

وَقَوْلُ أَبِي فِرَاس الْحَمَدَانِيّ:

وهبـت سُـلوّي ، ثُـمَّ جِئْـتُ أَرُوْمَـه وَمِنْ دُوْنِ مَا رُمْتُ القَنَا وَالقَنَابِل[6]

أَمَّا المَقَامَاتُ العُثْمَانِيَّةُ فَإِنَّ مُعْظَمَهَا يتوشَّحُ بالجِنَاسِ الْمُذيَّلِ، وَلَعَلَّ أبرزَ الْأُدَبَاءِ الَّذِيْنَ تفوَّقُوا فِيْ هَذَا الْمِضْمَارِ، مُحَمَّد المُبَارَك الَّذِيْ قدَّمَ تشكيلاتٍ مُتَنَوِّعَةً فِيْ نُصُوْصِهِ المَقَامِيَّةِ فِيْ هَذَا الْبَابِ، وأَوَّلُ تشكيلٍ ظَهَرَ فِيْ (العنا، والعِناد) فِيْ قَوْلِهِ: "فَقَالَا: وَمَنْ الَّذِيْ يُلْقِي إِلَيْهِ القيادَ،

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة السَّواديَّة)، (ص384).

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مناظرة بين العلم والجهل)، (ص200). (بلعم بن عوراء) عالم من علماء بني إسرائيل في زمن نبي الله موسى وفرعون. فيه نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 176]. *www.ahlalhdeeth.com*.

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص91).

[4] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص539).

[5] أبو تمَّام، دِيْوَان أبي تمَّام، (ج112/1).

[6] الحمدانيّ، دِيْوَان أبي فراس الحمدانيّ، (ص247).

فِيْ كَشْفِ هنا العَنَا والعِنَادِ"[1]. وثانيها: (السَّنَا، والسَّنَاء) في لوحاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ فِيْ قَوْلِهِ: "فأسفرتْ عَنْ بَدْرِ طلعتِهَا السَّمَاءُ، وَهِيَ تزهُو فِيْ بردِ السَّنَا، والسَّنَاءِ"[2]. وَقَوْلِهِ: "ثُمَّ استوى عَلَى عرشِ السَّنَا، والسَّنَاءِ، وأطلعَ شُمُوْسَ طلعَتِهِ فِيْ الْأَرْضِ والسَّمَاءِ"[3]. وَقَوْلِهِ: "فللهِ سواد ذَلِكَ الشَّعْرِ، أو منطقة كالجوزاءِ، أَوْ قُرْط كالثُّريا ذاتِ السَّنَا، والسَّنَاءِ"[4]. وَثَالِثُهَا: (النَّوى، والنَّوائب) صُحْبَةَ التَّشْكِيلِ الاستعاريِّ، وتَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ فِيْ قَوْلِهِ: "كَمَا أَنَّ فُرَاقَهُ مِنْ أجلِّ الرَّزايَا، وأكبرِ الْمِحنِ والْبَلَايَا، يوقعُ الْمَرْءَ فِيْ مصائدِ الْمَصَائِبِ، ويلقيه بَيْنِ أنيابِ النَّوَى، والنَّوائِبِ"[5]. وبهَذَا يكتملُ مَشْهَدُ الْجَمَالِ الَّذِيْ رَسَمَهُ مُحَمَّد المُبَارَك.

ويبدو أنَّ عَبْد الله فِكْرِيّ حَظُّهُ قليلٌ فِيْ هَذَا الجِنَاسِ، وَمِنْ جِنَاسَاتِهِ المتتابعةِ الَّتِيْ تنمُّ عَنْ بَرَاعَةٍ فائقةٍ، (الْخَلِيْل، الْخَلِيّ)، و(الْجَلِيْل، الْجَلِيّ) فِيْ قَوْلِهِ: "اعلمْ أيُّهَا الْخَلِيْلُ الْخَلِيُّ، ذَا الفضلِ الجليلِ الجليِّ، أنَّهُ قَدْ اتَّفقَ لِيْ فِيْ أمرِ العشقِ أغرب قصَّةٍ، ولعمري لقد حلَّت وإنْ مرَّت وأبقت أعظم غُصَّة"[6]. وَلَعَلَّ ظهورَ الجِنَاسِ في مشهدٍ متتابعٍ منحه هُنَا جَمَالاً من نوعٍ خاصٍّ.

9- الْجِنَاسُ الْمُطَرَّفُ

الْجِنَاس المُطَرَّفْ أَحَدُ أنواعِ الجِنَاسِ النَّاقِصِ، وفيهِ "يكونُ الاخْتِلَافُ بزيادةِ حرفٍ واحدٍ فِيْ الْأَوَّلِ"[7]. وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ أَبِي فِرَاس الْحَمَدَانِيّ:

وَلَاْ أَنَـا، مِـنْ كُـلِّ المَطَـاْعِمِ، طَـاْعِمِ وَلَاْ أَنَا، مِنْ كُلِّ المَشَـاْرِبِ، شَـاْرِبِ [8]

وفِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ يتفوَّقُ مُحَمَّدُ المُبَارَك عَلَى أقرانِهِ فِيْ هَذَا الْبَابِ، فَقَدِ ازدانتْ مقاماتُهُ بِهِ، حَيْثُ رَسَمَ بريشتِهِ أَرْوَعَ النَّمَاذِجِ، وَخَطَّ أجملَ الْأَشْكَالِ، وَمِنْ رَوَائِعِ ذَلِكَ (المَكَارِه، وكَارِه) فِيْ قَوْلِهِ: "فَكَمْ ألقتِ المرءَ فِيْ الْمَكَارِهِ، فَغَدَا يتمنَّى الموتَ، وهو للحياةِ كَارِهٌ"[9]. و(الْمَصَائِب، وَصَائِب) فِيْ قَوْلِهِ: "وتعيِّرني بما يتعرَّفُ به إليَّ مولايَ مِنْ غُررِ المنحِ فِيْ صُوَرِ

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص86). العنا: المعاناة.

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غريب الأنباء في المُفَاخَرَة بين الْأَرْض والسَّمَاء)، (ص102).

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص125).

[4] المَرْجِع السَّابِق، ص138.

[5] المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص155).

[6] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (زَجْر الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ)، (ص57).

[7] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص538، 539).

[8] الحمدانيّ، دِيْوَان أبي فراس الحمداني، (ص41).

[9] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص156).

المحنِ، والْمَصَائِبِ، فأقبلَ منها بدرعِ التَّجلُّدِ، وتُرسِ التَّصبُّرِ كُلُّ سَهْمٍ صائبٍ"[1]. و(الآمال، ومال) فِيْ قَوْلِهِ: "ولطالتْ منكَ الهممُ، وقصرتِ الآمالُ، وَمَا سَكَنَ إِلَى قلبكَ لا وطنٌ ولا مالٌ"[2]. و(صال، والوصال) فِيْ قَوْلِهِ: قَدْ سَطَا الدَّهْرُ عليه وَصَالَ، وجرَّعَهُ مرارةَ النَّوى بَعْدَ أن ذاق حلاوةَ الوصالِ"[3]. و(وارد، وموارد) فِيْ قَوْلِه: "فتراه في دهره بين صادرٍ، ووارِدٍ، قد ورد بسامي همَّته أعذب الموارد"[4]. و(مالهم، وكمالهم) فِيْ قَوْلِه: "فبها يعرف مقدارهم، ويرفع في العلا منارهم، وينمو مالهم، ويسمو كمالهم"[5]. ثُمَّ يزاوجُ بينَ جناسينِ آخرينِ هما: (السَّاكن، والمساكن)، و(النَّازل، والْمَنَازِل) فِيْ قَوْلِه: "أيقنتما أنَّ السَّرَّ فِيْ السَّاكِنِ والنَّازِلِ، لَا فِي المساكنِ والْمَنَازِلِ"[6]. وَلَعَلَّ صورَ الجِنَاسِ المُطَرَّفِ المتتابعةَ الَّتِيْ وَرَدَتْ في مساحةٍ صغيرةٍ تنمُّ عَمَّا كان يحمله مُحَمَّد المُبَارَك من بَلَاغَةٍ، وَبَيَانٍ.

أَمَّا نَاصِيْف اليَازْجِيّ فورد ماء السَّلْسَبِيْلِ ليرسمَ الجِنَاسَ المُطَرَّفَ فِيْ قَوْلِه: "فنزلنا حَيْثُ تنزلُ أبناء السَّبيلِ، وبات الشَّيْخُ يطرفنا بحديثٍ أشهى من السَّلْسَبِيْل"[7]. حَيْثُ جمعَ بين لفظتي (السَّبيل)، و(السَّلْسَبِيْل) بطريقة جذابة لما بين الْكَلِمَتَيْنِ من لقاء في معظم الْحُرُوْف صدر عنها مُوْسِيْقَا عذبة.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ مُحَمَّد الدَّيسي كَثِيْراً في خَطِّ تشكيلاتٍ بارعة من الجِنَاس المُطَرَّف، فشرع يرسم بالكَلِمَات أَرْوَع الجِنَاسات، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (سوق، وفسوق) فِيْ قَوْلِه: "وإِنْ نَفَقَ لك سوق، فَذَاكَ لَعَمْرِي سوق الفسوق"[8]. و(اللباس، وباس) فِيْ قَوْلِه: "هَذَا وأبنائي المترفونَ والمنعَّمونَ، والقوم الَّذِيْن هم في العيونِ معظَّمونَ، يتمتعون بفاخر الأكل واللباس، وسَوَاء عِنْدَهُم من لا بأسَ به، ولا باس[9]. و(الأحياء، والحياء) فِيْ قَوْلِهِ: "يا جهلُ، ما أنت لخطابي بأهلٍ، ولا جدالي عليك بسهلٍ، يا ميِّتَ الأحياءِ، ويا قليلَ الحياءِ"[10]. موظفاً أسلوبَ التَّهكُّمِ بالنِّدَاءِ فِيْ هَذَا الْبَابِ.

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص158).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص159.

[3] المَرْجِع نفسه، ص164.

[4] المَرْجِع نفسه، ص167.

[5] المَرْجِع نفسه، ص172.

[6] المَرْجِع نفسه، ص179.

[7] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة العاصميَّة)، (ص239).

[8] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مُنَاظَرَة بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ)، (ص192).

[9] المَرْجِع السَّابِق، ص199).

[10] المَرْجِع نفسه، ص190.

وشاركَ بَهَاءُ الدِّين الْبِيْطَار كُلَّاً من مُحَمَّد المُبَارَك، ومُحَمَّد الدَّيسيّ هَذَا الإِبْدَاعَ، ونلمحُ ذَلِكَ لمَّا جمعَ بَيْنَ الجِنَاسِ والطِّبَاقِ في آنٍ واحدٍ بين كَلِمَتَي (المملوك، والملوك) فِيْ قَوْلِهِ: "ثُمَّ رنتِ الْقَمَرُ بعينٍ مُحْمَرَّةٍ، ووجمةٍ مُصْفَرَّةٍ. وقالتْ: عجبتُ للمملوكِ، يجاري في مسراه الملوكِ"[1]. وكأنِّي به أرادَ أنْ يمزجَ بَيْنَ المُحَسِّنَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ، والمُحَسِّنَات اللَّفْظِيَّةِ فِيْ بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ؛ ليزاوجَ بين إبرازِ الْمَعْنَى وتوضيحه، والْجَرْسِ المُوْسِيْقِيِّ. ثُمَّ يجمعُ بطريقةٍ أخَّاذَةٍ بَيْنَ (الْجَمَال، والمَال) فِيْ قَوْلِهِ: "فَأَنَا الشَّقيقُ لأهلِ الحسنِ والْجَمَالِ، والشَّفيقُ عَلَى مَنْ صَبَا عشقاً ومالَ"[2].

ويظهرُ أَحْمَد البَرْبِيْر فِيْ ميدانِ الجِنَاسِ المُطَرَّفِ بتوظيفه كَلِمَتَي (الجود، الموجود) فِيْ قَوْلِهِ: "وخُلْفُ الوَعْدِ، خُلُقُ الوَغْدِ، وَدَمُ الجودِ بالموجودِ، مِنْ سوءِ الظَّنِّ بالمعبودِ"[3].

خِتَامَاً، وَبْعَد هَذِهِ الرِّحْلَةِ الشَّيِّقَةِ فِيْ رِيَاضِ الجِنَاسِ، يُمْكِنُ الْقَوْلُ إنَّ الجِنَاسَ كالآلاتِ الموسيقيَّةِ الَّتِيْ تُطْرِبُ الأذنَ، وتحرِّكها بشرطِ البعدِ عن التَّكَلُّفِ والارتباطِ بطبيعةِ مَعَانِي الْأَدِيْبِ. وعَلَى هَذَا كُلَّمَا ظهرَ الجِنَاسُ في الْكَلَامِ بدعوةٍ مِنَ الْمَعْنَى لا تكلُّفاً، أو تطفُّلاً، أو تَمَحُّلاً كان أنجحَ في تحسينِ الْمَعْنَى، وطلاوته، ورونق اللَّفْظِ، وترابطه، وتلاحمه، وهو قَصْدٌ من المقاصدِ البَلاغيَّةِ، ورُكنٌ ركينٌ مِنْ مُحَسِّنَاتِهَا البَدِيْعيَّةِ.

2- السَّجْعُ

السَّجْعُ لُغَةً واصْطِلَاحَاً

السَّجْعُ لُغَةً، مَأْخُوْذٌ مِنَ الْفِعْلِ الثُّلاثِيِّ (سَجَعَ)، نقولُ: سَجَعَ الرَّجلُ سَجْعَاً، وسجَّع تَسْجِيعَاً، وسَجَعَتِ الحمامةُ، أي هَدَرَتْ، أو ردَّدت صوتُهَا عَلَى طريقةٍ واحدةٍ، وسَجَعَتِ النَّاقةُ مدَّتْ حنينها عَلَى جهةٍ واحدةٍ، وَسَجَعَ الخطيبُ إذا تكلَّمَ بكلامٍ مقفَّىً غيرِ موزونٍ، والسَّجْعُ هُوَ الْكَلَامُ غيرُ المَوْزُونِ المُقَفَّى، والجمعُ أسْجَاعٌ، وأَسَاجِيع، والسَّاجِعُ: القاصدُ[4].

السَّجْعُ اصْطِلَاحَاً، تعدَّدتْ تعريفاتُ السَّجْعِ، وَرَغْمَ هَذَا التَّعدُّدِ إلَّا أَنَّ معظمها يدورُ في فَلَكٍ واحدٍ، ومن هذه التَّعْرِيفاتِ قَوْلُ صاحبِ (الإيضاح)، الخطيبِ القزوينيّ: إنَّ السَّجْعَ هُوَ "تواطؤُ الْفَاصِلَتَيْنِ مِنَ النَّثْرِ عَلَى حرفٍ واحدٍ"[5].

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص58، ص59).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص58، ص59.

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص39).

[4] يُنْظَر: الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج1228/3). مادة (سَجَعَ).

[5] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص547).

وَمِنْهَا "اتِّفاقُ الْفَوَاصِلِ فِيْ الْكَلَامِ المنثورِ فِيْ الحرفِ، أو فِيْ الْوَزْنِ، أَوْ فِيْ مجموعهما"[1].

وأفضلُ السَّجْعِ ما كَانَتْ فقراتُهُ متساوياتٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ الرَّسُولِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيْ دعائِهِ المتضمنِ الحثّ عَلَى الإنفاقِ فِيْ وجوهِ الخيرِ، والتَّحذير مِنَ الإمساكِ: "اللهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقَاً خَلَفَاً، وَأَعْطِ مُمْسِكَاً تَلَفَاً"[2]، وَقَوْلُ أعرابيٍّ ذَهَبَ السَّيْلُ بابنه: "اللهُمَّ إنْ كُنْتَ قَدْ أبليتَ، فإنَّكَ طَالَمَا قَدْ عَافَيْتَ"، وَقَوْلُهُم: "الحُرُّ إذا وَعَدَ وفَّى، وَإِذَا أَعَانَ كَفَى، وَإِذَا قَدرَ عَفَا".

والسَّجْعُ محسِّنٌ بديعيٌّ بارزٌ تُبنَى عليه المَقَامَةُ، وَهُوَ أكثرُ الفُنُوْنِ البَدِيْعيَّةِ حُضُوْرَاً فِيْ نُصُوْصِها، فَهِيَ فِيْ المَقَامِ الْأَوَّلِ فنٌّ مَسْجُوْعٌ، "فأمَّا مَا كَانَ مِنَ البُلَغَاْءِ فِيْ ذَلِكَ، فلهم كلامٌ واسعٌ بليغٌ مِنَ التَّسْجِيعِ كالَّذِيْ يكونُ فِيْ الْمَقَامَاتِ"[3].

وأَرْوَعُ السَّجْعِ مَا كَانَتْ فقراتُه متساوياتٍ تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا براعةَ الْأَدِيْبِ، وقدرتَهُ عَلَى تشكيلِ لوحاتٍ بارعةٍ يزيِّنها فَنُّ السَّجْعِ.

وتتوشَّحُ النُّصُوْصُ المَقَامِيَّةُ بألوانِ السَّجْعِ كَافَّةً، فَلَمْ يتركِ الْأُدَبَاءُ لوناً إلَّا طَرَقُوا أبوابَهُ، وسبرُوا أَغْوَارَه، وَغَاصُوا فِيْ أَعْمَاقِهِ، فَهُوَ تَاجُ المَقَامَاتِ، ومُفْتَاحُ كُنُوزِهَا. وَمِنْ رَوَائِعِ السَّجْعِ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ فِيْ (المَقَامَة المكيَّة): "هَبْ لَنَا قُلُوْبَاً طَاهِرَةً، وَعُيُوْنَاً سَاهِرَةً، وَأَنْفُسَاً عَفِيْفَةً، وَأَلْسُنَاً حَصِيْفَةً، وَأَخْلَاقَاً سَلِيْمَةً، وَنِيَّاتٍ مُسْتَقِيْمَةً، وَيَسِّرْ لَنَا تَوْبَةً صَادِقَةً، وَنَدَامَةً حَاذِقَةً، وَسِيْرَةً هَادِيَةً، وَعِيْشَةً رَاضِيَةً، وَعَاقِبَةً حَمِيْدَةً، وَخَاتَمَةً سَعِيْدَةً، وَأَفِضْ عَلَيْنَا نِعْمَتَكَ وَرَحْمَتَكَ، وَلُطْفَكَ وَعَطْفَكَ، وَهُدَاكَ وَنَدَاكَ"[4]. فَلَكَ أنْ تتنقَّلَ بَيْنَ مُفْرَدَاتِ هَذِهِ السُّطُوْرِ لتُطْرِبَ أذنيكَ بنوعٍ فريدٍ مِنْ مُوْسِيْقَا مُبْهِرةٍ، وأنغامٍ أخَّاذةٍ، يعزِفُهَا اليَازْجِيّ عَلَى أوتارِ السَّجْعِ.

أَضْرُبُ السَّجْعِ

إنَّ المتنقِّلَ بَيْنَ المَقَامَاتِ، المتحرِّكَ بَيْنَ سطورِهَا، المتوغِّلَ فِيْ ألوانِهَا البَدِيْعيَّةِ خَاصَّةً السَّجْع، يُطَالِعُ أضرباً عديدةً منه، تتناثرُ هذه الأَضْرُبُ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ بصورةٍ واضحةٍ، وهذه الأَضْرُبُ يُمْكِنُ تتبُّعها عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

---

[1] [الْبُخَارِيّ، صحيح الْبُخَارِيّ، كتاب (الزَّكاة)، باب قوله تعالى "فأما من أعطى واتقى..(27)، ج2/115: رَقَمِ الْحَدِيْثِ1442].

[2] العلويّ، الطِّراز، (ص412).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص412.

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المكيَّة)، (ص419).

أ- **السَّجْعُ المُطَرَّفُ**، وَهُوَ "ما اختلفتْ فاصلتاهُ فِيْ الْوَزْنِ، واتفقتا فِيْ التَّقْفِيَةِ"[1]، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذّلِكَ فِيْ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ (وقارًا، وأطوارًا) فِيْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾[نوح: 13، 14].

ويتَّضحُ مِنَ الآيتينِ الكريمتينِ مَعْنَى ذَلِكَ، وَهُوَ: أَنْ يأتي المتكلمُ فِيْ أجزاءِ كلامِهِ، أَوْ فِيْ بعضِهَا بأسجاعٍ غير متَّزنةٍ بزنةٍ عروضيَّةٍ، وَلَا مَحْصُوْرَة فِيْ عددٍ معيَّنٍ، بشرطِ أَنْ يَكُوْنَ رويُّ الأسجاعِ رويَّ الْقَافِيَةِ.

وَعَوْدَةٌ إِلَى النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ الَّتِيْ لم يألُ أديبٌ من أُدَبَائِهَا جهداً في عزفِ أجملِ المقطوعاتِ عَلَى أنغامِ السَّجْعِ المُطَرَّفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ ابنِ الأَلُوسِيّ: "ما الَّذِيْ أصابَكَ، وأعظمَ أوصابَكَ، هَلْ فقدتَ – لَا فقدتَ– أحداً مِنْ أحبابِكَ، فاضطرمتْ مِنْ فَقْدِهِ نيرانُ كربِكَ واكتئابِكَ، فبادرهُمْ الدَّمْعُ بالجوابِ، وكدتُ أقضي نَحْبِي لَوْلَا الانتحابُ"[2]. حَيْثُ وَرَدَ السَّجْعُ في الْفَاصِلَتَيْنِ (الجواب)، و(الانتحاب)، وَقَدِ اخْتَلَفَتَا فِيْ الْوَزْنِ، واتَّفقتَا فِيْ التَّقْفِيَةِ.

أما نَاصِيْف اليَازْجِيّ فَقَدْ زَيَّنَ مَقَامَاتِهِ بالسَّجْعِ المُطَرَّفِ، حَيْثُ أُوْلِعَ بهَذَا النَّوع، يَقُوْلُ في (المَقَامَة السّروجيَّة): "ولبثنا هُنَاْكَ بضعاً مِنَ اللَّيَالِي، نتفقَّدُ البرجَ والمَشْهَدَ، والطَّلَلَ البالي، حَتَّى كَاْنَ يومُ المهرجانِ، وَقَالَ هَذَا يومٌ يجتمعُ فيه الإنسُ والجانُ"[3]. حَيْثُ طَالَعَنَا بالسَّجْعِ فِيْ الْفَاصِلَتَيْنِ (اللَّيَالِي)، و(البالي) فِيْ الجملةِ الْأُوْلَى، و(المهرجان)، و(الجان)، وقد اختلفتِ الفاصلتانِ فِيْ الْوَزْنِ، واتَّفَقَتَا فِيْ التَّقْفِيَةِ.

وَيَتَرَنَّمُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ فِيْ (المَقَامَة البدويَّة) قَائِلَاً: "فَبَادَرْتُ أَعْدُو إِلَيْهَا حَتَّى اسْتَأْنَسْتُ مِنَ النِّفَارِ، وَرَجَعْتُ إِلَيْهَا أتنوَّرُ تِلْكَ النَّارِ، وَإِذَا الشَّيْخُ قَدْ أَخَذَ كُلَّ مَا هُنَاْكَ وَسَارَ"[4]. حَيْثُ وَرَدَ السَّجْعُ في الْفَوَاصِلِ (النِّفار)، (النَّار)، و(سَارَ) وَقَدِ اخْتَلَفَتِ الْفَوَاصِلُ فِيْ الْوَزْنِ، واتَّفقتْ جَمِيْعَاً فِيْ التَّقْفِيَةِ، وَهِيَ (الرَّاء).

وَنَهَجَ عَبْدُ اللهِ فِكْرِيّ نَهْجَ أقرانِهِ مِنَ الْأُدَبَاءِ العُثْمَانِيِّينَ فِيْ استعمالِ السَّجْعِ المُطَرَّفِ، وتوشيحِ مقاماتِهِ بهَذَا النَّوْعِ، يَقُوْلُ: "وَمَنِ انحرفَ عنْ صراطِ الاعتدالِ، ذاتَ اليمينِ أَوْ ذاتَ الشِّمالِ، وَقَعَ في الدُّنْيَا فِيْ نيرانِ مساوئِ الأَخْلَاقِ والأعمالِ، وانحرفَ كَذَلِكَ عَنْ صراطِ الآخرةِ

---

[1] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص547)، العلويّ، الطِّراز، (ص407).

[2] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ (زَجْر الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ)، (ص101).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة السّروجيَّة)، (ص174).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة البدويَّة)، (ص8).

فَوَقَعَ فِيْ نارِ العذابِ والنّكالِ"[1]. حَيْثُ وَرَدَ السَّجْعُ فِيْ الْفَوَاصِلِ (الاعتدال)، (الشِّمَال)، (الأعمال)، و(النّكال)، وَقَدِ اختلفتْ بعضُ الْفَوَاصِل فِيْ الْوَزْنِ، واتَّفقتْ فِيْ التَّقْفِيَةِ.

ب- السَّجْعُ المُرَصَّعُ، وَهُوَ "اتِّفاقُ ألفاظِ الْفِقْرَتَيْنِ، أو أكثرِهَا فِيْ الْوَزْنِ والتَّقْفِيَةِ"[2]، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا الضَّرْبِ فِيْ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: 13، 14].

أَمَّا الْأُدَبَاءُ فَلَمْ يبرحوا هَذَا النَّوْعَ، بَلْ رَاحُوا يعزفونَ عَلَى أوتارِهِ أَعْذَبَ الكَلِمَاتِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ السَّجْعِ المُرَصَّعِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ العُثْمَانِيَّةِ، قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ فِيْ (المَقَامَة الهزليَّة): "حَكَى سُهَيْلُ بنُ عباد قَالَ: كَانَ لي زوجةٌ صُنَّاعُ اليدينِ، كريمةُ النَّبعتينِ، فحسدتْنِي عليها المنونُ، وخانني فيها الدَّهْر الخَؤُونُ، فلبثتُ بَعْدَهَا طَوِيْلاً، أردِّدُ زفرةً وعويلاً، وأنوحُ بكرةً وأصيلاً، حَتَّى حَالَ عليها الحَوْلَ، وآلتِ الفريضةُ إِلَى العَوْلِ، فناجتني الحوباءُ، أَنْ أستبدلَ مَا طَابَ لِي مِنَ النِّسَاءِ"[3].

إِنَّنَا إِذَا تتبَّعْنَا قَوْلَ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ نجدُ السَّجْعَ المُرَصَّعَ فِيْ الجُمْلَتَيْنِ (فحسدتني عليها المنونُ، وخانني فيها الدَّهْرُ الخَؤُونُ)، فَقَدْ وَرَدَ اتِّفاقُ كَلِمَتَينِ هُمَا (المنون، الخوون) فِيْ الْوَزْنِ والتَّقْفِيَةِ، ثُمَّ يطالعُنَا فِيْ ثلاثِ جملٍ مِنَ الفقرةِ فِيْ قَوْلِهِ: (فلبثت بعدها طويلاً، أردِّد زفرةً وعويلاً، وأنوح بكرةً وأصيلاً)، حَيْثُ وَرَدَ اتِّفاق ثلاث كلماتٍ هي (طويلاً، عويلاً، أصيلاً) فِيْ الْوَزْنِ والتَّقْفِيةِ، ثُمَّ يعاودُ اليَازْجِيّ الكَرَّةَ بجُمْلَتَيْنِ هُمَا: (حَتَّى حال عليها الحولُ، وآلتِ الفريضةُ إِلَى العول) فَقَدْ تماثلت (الحول، العول) فِيْ الْوَزْنِ والتَّقْفِيَةِ. حَيْثُ صَمَّمَ اليَازْجِيّ بِنَاءً هندسيًّاً بديعاً مُسْتَهِلاً البناءَ بالنَّسَقِ الزَّوجيِّ، ثُمَّ الثُّلاثيِّ، ثُمَّ يعودُ إِلَى الزَّوجيِّ ثانيةً. فيبدو البناءُ الهندسيُّ وَكَأَنَّهُ هَرَمَانِ مَقْلُوبَانِ هَكَذَا:

المَنُـون، الخَـوُون

طَوِيْـــلاً، عَوِيْـــلاً، أَصِيْـلاً

الحَـوْل، العَـــوْل

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة، (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص295).

[2] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح، (ص547).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (ص80)، النَّبعتين: الأب والأم، الحوباء: النفس.

ويتفرَّدُ فارسُ (المَقَامَة الفكريَّة)، عَبْد الله فِكْرِيّ بأسلوبٍ أكثرَ مِنْ رَائِعٍ فِيْ تناوُلِ السَّجْعِ المُرَصَّعِ فِيْ جملٍ متتابعةٍ تتداعى طُوْلاً وَقصراً بَيْنَ مقطعينِ، وثلاثةٍ، وتجاوزَ ذَلِكَ إِلَى أربعةِ مقاطعَ، يَقُوْلُ: "نظرتُ فَإِذَا فِيْ الطَّرفِ الآخرِ شَابَّةٌ ذاتُ جَمَالٍ فَاخِرٍ، وَدَلَالٍ ظَاهِرٍ، وحُسْنٍ زَاهِرٍ، وَمَنْظَرٍ بَاهِرٍ، وَهِيَ تسحرُ العُقُوْلَ بألفاظِهَا، وتسخرُ القُلُوْبَ بألحاظِهَا، وعَلَى رأسِهَا تَاجٌ مِنَ الزَّهرِ كَالْكَوَاكِبِ لَدَى الْبَدْرِ، وَرَأَيْتُهَا تَتَكَلَّمُ بِفَصَاحَةِ لِسَانٍ، وَتَتَفَنَّنُ فِيْ أَسَالِيْبِ البَيَانِ، فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرِي عَلَيْهَا لَمْ أتمالكْ أنْ صَبَوْتُ إِلَيْهَا، وكدتُ أصيرُ أسيرَ جمالِهَا، وَرَهِيْنَ حبالِهَا، وَصَرِيْعَ نِبَالِهَا، فسألتُ دليلي عنها، وَقَدْ تفرَّسَ ما أصابني مِنْهَا، فَقَالَ هَذِهِ تُعْرَفُ فِيْ المملكةِ الْإِنْسَانِيَّةِ بالشَّهْوَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ، وَهِيَ مَعْ مَا لَهَا مِنَ الْجَمَالِ، عاريَةٌ عَنْ خِلَالِ الْكَمَالِ"[1]. فَقَدْ نوَّعَ عَبْد الله فِكْرِيّ خِلَالَ مقطوعَتِهِ بَيْنَ الفقراتِ المُرَصَّعةِ قِصَرَاً وَطَوْلاً، والَّتِيْ أكسبتِ المَشْهَدَ زينةً، وزخرفةً مِنْ نَاحِيَةٍ، وَجَرْساً مُوْسِيْقِيَّاً مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، حَيْثُ طَالَعَ القُرَّاءَ مُبتدئاً بسجعٍ مُرصَّعٍ فِيْ أربع جملٍ تتوشَّحُ بجرسٍ موسيقيٍّ عذبٍ فِيْ قَوْلِهِ: (شابة ذات جمالٍ فاخرٍ، ودلالٍ ظاهرٍ، وحسنٍ زاهرٍ، ومنظرٍ باهرٍ) حَيْثُ وَرَدَتْ أربعُ كلماتٍ هي: (فَاخِرٍ، ظَاهِرٍ، زَاهِرٍ، وَبَاهِرٍ) تماثلتْ فِيْ الْوَزْنِ والتَّقْفِيَةِ، ثُمَّ ثنَّى بجُمْلَتَيْنِ هِيَ: (تسحر العُقُوْل بألفاظها، وتسخر القُلُوْب بألحاظها)، فَقَدْ رَصَّعَ فكري بِقَوْلِهِ: (ألفاظها، وألحاظها)، ثُمَّ تَابَعَ التَّرصيعَ بثلاثِ جُمَلٍ هي: (أسير جمالها، ورهين حبالها، وصريع نبالها) مِنْ خِلَالِ: (جمالها، حبالها، نبالها)، وَلَمْ يَكْتَفِ فكريّ هُنَا بالوزنِ والتَّقْفِيةِ فَقَطْ، بَلْ جَمَعَ فِيْ الكَلِمَاتِ الثَّلاثَةِ أربعةَ أحرفٍ متشابهةٍ، هي الألف، واللام، والهاء، والألف، فأكسبَ الفقرةَ إيقاعاً مُوْسِيْقِيَّاً مبهراً لَمَّا جَمَعَ بَيْنَ التَّرْصِيْعِ، ولزومِ ما لا يلزمُ بِمَا فِيْهِ مِنَ امتدادٍ للصَّوتِ أكثر مِنْهُ فِيْ السَّجْعِ، ثُمَّ أسدلَ ستائرَ إبداعِهِ بجُمْلَتَيْنِ هُمَا: (وهي مع ما لها من الْجَمَال، عارية عن خلال الْكَمَال) مَعْ مَا فِيْ الْكَلِمَتَيْنِ (الْجَمَال، الْكَمَال) مِنَ التقاءٍ فِيْ الْوَزْنِ والتَّقْفِيَةِ، وَعَدَدِ الْحُرُوْفِ المتشابهةِ (الميم، والألف، واللام)، وهَذَا يُضْفِي عَلَى الْكَلَامِ جَمَالاً فَوْقَ جَمَالٍ، وإبداعاً إِلَىْ شيء مِنَ الْكَمَالِ. ومن قبلِ هَذَا جرْسٌ مُوْسِيْقِيٌّ أَخَّاذ يأخذُ بالقلوبِ والأَلْبَابِ.

لَمْ يقفِ الْأُدَبَاءُ العُثْمَانِيُّوْنَ عِنْدَ حَدٍّ فِيْ تقديمِ السَّجْعِ المُرَصَّعِ، بَلْ تابعوا الإِبْدَاعَ فِيْ تجاوزِ الأعدادِ حَتَّي وصلوا إِلَى خمسةِ مقاطعَ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ فِيْ (المَقَامَة المُضريَّة): "إنَّ لِي سبيَّةً مِنْ رَبَّاتِ الحجالِ، قَدْ سَبَاهَا بعضُ زعانفِ الرِّجالِ، وَهِيَ بِكرٌ رقيقةُ القوامِ، كَأَنَّهَا وردُ الكمامِ، لَهَا نكهةُ الخزامِ، وصفاءُ ماءِ الغمامِ، وبهجةُ بدرِ التَّمامِ، تفتنُ العُقُوْلَ، والأَلْبَابَ، وتستعبدُ السَّادَةَ، والأربابَ، وَهِيَ عَذْبَةُ المراشفِ، لدنَةُ المعاطفِ، باردةُ الرُّضابِ، مقصورةٌ وَرَاءَ الحجابِ. تسفرُ عَنْ مِثْلِ السَّحَرِ، وتفترُّ عَنْ مِثْلِ الدُّرَرِ، وَتَسُرُّ القلبَ

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة، (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص284).

والنَّظَرَ "[1]. فَقَدْ قدَّمَ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ فِيْ رائعتِهِ خمسةَ مقاطعَ تتوشَّحُ بالسَّجْعِ المُرَصَّعِ فِيْ قَوْلِهِ: (وهي بِكرٌ رقيقةُ القوامِ، كَأَنَّهَا وردُ الكمامِ، لها نكهةُ الخزامِ، وصفاءُ ماءِ الغمامِ، وبهجةُ بَدْرِ التَّمامِ) حَيْثُ طَالَعَ المُتَلَقِّي بخمسِ كلماتٍ هي (القوام، الكمام، الخزام، الغمام، والتَّمام) تماثلتْ فِيْ الْوَزْنِ والتَّقْفية، متفوِّقاً عَلَى نَفْسِهِ فِيْ هَذَا الْبَابِ.

وَفِيْ بَابِ السَّجْعِ المُرَصَّعِ كَانَ لأَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق محطَّاتٌ رائعةٌ فِيْ تحفتِهِ (السَّاق عَلَى السَّاق)، يَقُوْلُ: "فبينا أَنَا فِيْ الطَّرِيْقِ فَقَدْ مَرَّ سِرْبٌ منهنَّ يخطرُ بالثَّوبِ الصَّفيقِ، والْحُلِّيِّ ذي البريقِ، وقد أرجتِ الأرجاءُ بطيبهنَّ، فرأيتُ من بينهنَّ الهيفاءَ والبدينَ، والغرَّاءَ الزَّهراءَ ضرَّةَ حورِ العَيْنِ، ومهنَّدةَ العَيْنينِ، فتاقتْ نَفْسِي إِلَى وصالهنَّ، وَتبلبلَ بالي بجمالهنَّ، ونسيتُ ما لقيتُ مِنْ لكاعي فِيْ البيتِ...فابتدرتْ إليَّ واحدةٍ منهنَّ لَهَا عنقٌ كالغزالِ، وحاجبٌ كالهلالِ...ثُمَّ التفتتْ إِلَيَّ أُخْرَى وجبينها يلمعُ كالصَّبَاحِ، ولحظها يدمي كالصِّفاحِ...ثُمَّ تقدَّمتْ إليَّ أُخْرَى وَحَبَبُ عرقِهَا كاللآلئِ، وحَالِكُ فرعِهَا كاللَّيَالِي، ثُمَّ دَنَتْ مني أُخْرَى وَهِيَ تهتزُّ عجباً ودلالاً، وتبسمُ عَنْ شنبٍ مَا رَأَى النَّاظِرُ لَهُ مثالاً"[2]. فَقَدِ استهلَّ الشِّدْيَاقُ حديثَهُ بجملةٍ ثلاثيَّةِ التَّرصيعِ (فبينا أنا في الطَّرِيْق، فقد مرَّ سرب منهنَّ يخطر بالثَّوب الصَّفيق، والحلى ذي البريق)، ثُمَّ تابعَ بمَجْمُوْعَةٍ من الجملِ الثُّنائيَّةِ هِيَ عَلَى التَّوالي: (فتاقت نفسي إِلَى وصالهنَّ، وتبلبلَ بالي بجمالهنَّ)، ثُمَّ ثَنَّى بِقَوْلِهِ: (لها عنقٌ كالغزال، وحاجبٌ كالهلال)، وتابع بِقَوْلِهِ: (جبينها يلمع كالصَّباح، ولحظها يدمي كالصِّفاح)، وَخَتَمَ بثنائيَّةٍ رابعةٍ: (وهي تهتزُّ عجباً ودلالاً، وتبسمُ عَنْ شنبٍ مَا رَأَى النَّاظِرُ له مثالاً). وكأنَّه يَعزفُ عَلَى آلةٍ موسيقيَّةٍ غَدَتْ طَوْعَ أَنَامِلِهِ فاستوعبتْ أَرْوَعَ الْمَعَانِي، أحاطتْ بأجملِ الْأَلْحَانِ الَّتِيْ حَمَلَتْ فِيْ ثَنَايَاهَا إمكاناتِ الْأَدِيْبِ الرَّائعةِ عَلَى الرَّسمِ بالكَلِمَاتِ، وقدراتِهِ الفائقةَ فِيْ التَّلاعُبِ بالْأَلْفَاظِ.

وَيعاودُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ الكَرَّةَ ليشكِّلَ لَوْحَةً بَارِعَةً مِنْ لَوْحَاتِ السَّجْعِ المُرَصَّعِ، وهَذِهِ المرَّةُ فِي جملٍ متتابعاتٍ، وفقراتٍ متساوياتٍ تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا براعةً فائقةً، يَعزفُ ألحانَهَا فِيْ (المَقَامَة المَكْيَّة)، يَقُوْلُ: "هَبْ لَنَا قُلُوْبَاً طَاهِرَةً، وَعُيُوْنَاً سَاهِرَةً، وَأَنْفُسَاً عَفِيْفَةً، وَأَلْسُنَاً حَصِيْفَةً، وَأَخْلَاقَاً سَلِيْمَةً، وَنِيَّاتٍ مُسْتَقِيْمَةً، وَيَسِّرْ لَنَا تَوْبَةً صَادِقَةً، وَنَدَامَةً حَاذِقَةً، وَسِيْرَةً هَادِيَةً، وَعِيْشَةً رَاضِيَةً، وَعَاقِبَةً حَمِيْدَةً، وَخَاتَمَةً سَعِيْدَةً، وَأَفِضْ عَلَيْنَا نِعْمَتَكَ وَرَحْمَتَكَ، وَلُطْفَكَ وَعَطْفَكَ، وَهُدَاكَ

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (المَقَامَة المضريَّة)، (ص241). زعانف الرِّجال: أوباش الرجال، الكمام: غلاف الزهرة، المراشف: الشفاه، لدنة: لينة، المعاطف: الجوانب، الرضاب: الريق، تفتر: تبتسم.

[2] يُنْظَر: الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (ص279، ص280). شنب: حدَّة في الأسنان، ويقال: بردٌ وعذوبة. الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج1/158) مادة (شَنَبَ).

وَنَدَاكَ"[1]. فقدْ جمعَ اليَازْجِيّ هُنَا فأحسنَ فِيْ تقديمِ فقراتٍ متساوياتٍ فِيْ قَوْلِهِ: (قلوباً طاهرةً، وعيوناً ساهرةً)، و(أنفساً عفيفةً، وألسناً حصيفةً)، و (توبةً صادقةً، وندامةً حاذقةً)، و(سيرةً هاديةً، وعيشةً راضيةً)، و(عاقبةً حميدةً، وخاتمةً سعيدةً). وَقَدْ جمعتْ هَذِهِ الفقراتُ ما يقنعُ النَّاظرَ، ويثبِّت الحائرَ، ويُنَشِّط الفاترَ بما جمعته فِيْ ثَنَايَاهَا مِنْ روعةِ الْكَلَامِ، وحسنِ التَّقسيمِ، وجمالِ لزوم ما لا يلزم، وعذبِ المُوْسِيْقَا.

هَكَذَا عزفَ الْأُدَبَاءُ بالسَّجْعِ مُوْسِيْقَا صافيةً، انصهرتْ مَعَ الكَلِمَاتِ والْمَعَانِي، فَلَا وُجُوْدَ مستقلٌّ لَهَا عَنْ هَذِهِ الكَلِمَاتِ، وَمِنْ ثَمَّ "لَا يُمكنُ أَنْ يَكُوْنَ لَهَا تأثيرٌ منفصلٌ عَنْهَا، إنَّهَا تفتحُ مغاليقَ النَّفسَ أمامَ مَعَانِي العباراتِ الَّتِيْ تصاحبها، وتخلعُ عليها حُلَلَ القَبُولِ، وتقوِّيها بما تُشِعُّهُ حَوْلَهَا مِنْ إيحاءاتٍ"[2].

ويُمْكِنُ الْقَوْلُ إنَّ المُوْسِيْقَا تتَّخذُ في الإبْدَاعاتِ الأَدَبيَّةِ صوراً مختلفةً، وإنْ كانَ فِيْ الْوَزْنِ والْقَافِيَةِ اللَّذَيْنِ ظَلَّا يجريانِ عَلَى طريقةٍ واحدةٍ قروناً طوالاً، وَقَدْ "يَظُنُّ قومٌ أنَّ هذه الصُّورَةَ لا وجودَ لَهَا البتَّة فِيْ الإبْدَاعاتِ النَّثْرِيَّةِ، إلَّا أنَّ هُنَاْكَ لوناً مِنَ السَّجْعِ يُسَمَّى بِالسَّجْعِ المُرَصَّعِ، وَهُوَ "ليسَ إلَّا ضرباً واحداً مِنْ ضُرُوبِ السَّجْعِ، فضلاً عَنْ أنَّهُ قليلُ الانتشارِ فِيْ إبداعاتِ الأَدَبِ بالقياسِ إلَى الصُّورِ السَّجْعيَّةِ الأُخْرَى الأقلِّ صَرامَةً، وبخَاصَّة فِيْ النَّثْرِ الَّذِيْ ينفرُ بطبيعتِهِ مِنَ القيودَ عَلَى عَكْسِ الشِّعْرِ، اللهُمَّ إلَّا إذَا تكلَّفَ النَّاثرُ ذَلِكَ"[3].

ج- السَّجْعُ الْمُتَوَازِي، وَالْمَقْصُودُ بهَذَا الضَّرْبِ مِنَ السَّجْعِ، "اتِّفاقُ الأعجازِ فِيْ الْفَوَاصِلِ مَعَ اتِّفاقِ الوَزْنِ"[4]، وَيُعرِّفُهُ القَزْوِيْنِيُّ بِقَوْلِهِ: "مَا اتَّفَقَتْ فِيْهِ الفقرتانِ فِيْ الْوَزْنِ والرَّوِيِّ"[5]، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِيْ التَّنزيلِ الحكيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [الغاشية:13-15]. وَمِنْهُ دُعَاءُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "اللهُمَّ إنَّا نَجْعَلُكَ فِيْ نُحُورِهِم، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُوْرِهِم"[6]. فَقَدِ اتَّفقتِ الفقراتُ فِيْ الْوَزْنِ والرَّوِيِّ فِيْ الآيَةِ الكريمةِ، وَفِيْ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المكيَّة)، (ص419).

[2] عوض، المَزَايَا المُشَوَّهَة، (ص144).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص144.

[4] العلويّ، الطِّراز، (ص407).

[5] يُنْظَر، القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح (ص547).

[6] [أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الصلاة، تفريع أبواب الوتر، ما يقول الرجل إذا خاف، باب (8)، (ج89/2): رَقَمِ الْحَدِيْثِ 1537].

وَلَمْ يهملِ الْأُدَبَاءُ هَذَا السَّجْعَ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، بَلْ سَافَروا بعيداً فِيْ عَزْفِ أَرْوَعِ الْأَلْحَانِ عَلَى أَوْتَارِهِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "المُعَاشِرُ للعلماءِ والأتقياءِ، والملازمُ للجهلاءِ والأشقياءِ"[1]. حَيْثُ اتفقتِ الفاصلتانِ (الأتقياء)، و(الأشقياء) فِيْ الْوَزْنِ والرَّوِيِّ، إضافَةً إِلَىْ ذَلِكَ فَقَدْ حَمَلَ مَدُّ حرفِ الياءِ والألفِ فِيْ الْفَاصِلَتَيْنِ إيقاعاً مُوْسِيْقِيّاً متفرِّداً.

وَمِنْهُ قولُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "وَلَكُم المشارفُ المعهودةُ، والمحاجرُ المشهودةُ، والمخاليفُ المذكورةُ، والمحاريبُ المَشْهُورةُ"[2]. حَيْثُ اتَّفقتْ لفظتا (المعهودة)، و(المشهودة) فِيْ الْوَزْنِ والرَّوِيِّ، وكَذَلِكَ اتَّفقَت (المذكورة، والمَشْهُورة) فِيْ الْوَزْنِ والرَّوِيِّ. مَعْ مَا يحملُهُ السَّجْعُ من روعةِ الرَّصفِ، وَعَذْبِ المُوْسِيْقَا.

د- السَّجْعُ الْمُتوازِنُ، وَهُوَ مَا اتَّفقتْ فاصلتاهُ فِيْ الْوَزْنِ دُوْنَ الحرفِ الأخيرِ (التَّقْفية)[3]، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ فِيْ الذِّكرِ الحكِيْمِ، قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الغاشية: 15، 16]، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾[النبأ:10، 11]. فالْكَلِمَتَانِ (مصفوفة، ومبثوثة) فِيْ الآيتينِ الأُوليين، اتفقتا فِيْ الْوَزْنِ دُوْنَ التَّقفيةِ، وكَذَلِكَ (لباسا ومعاشاً) فِيْ الآيتينِ التَّاليتينِ.

وفِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ كَانَ للسَّجْعِ المتوازنِ حَظٌّ وَافِرٌ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "فرأيتُ بِهَا مَا شَاءَ اللهُ مِنْ خِيَامٍ مبثوثةٍ، ونيران مشبوبةٍ، وجفانٍ مصفوفةٍ، وخيلٍ مشدودةٍ، ورماحٍ مركوزةٍ"[4]. فَإِنَّ الْفَوَاصِلَ: (مبثوثة، مشبوبة، مصفوفة، مشدودة، ومركوزة) متَّفقةً فِيْ الْوَزْنِ دُوْنَ التَّقْفِيَةِ.

هـ- السَّجْعُ المُتَمَاثِلُ، والْمَقْصُودُ بِهِ: أَنْ تتساوى الفاصلتانِ فِيْ الْوَزْنِ دُوْنَ التَّقْفِيَةِ، وتكونُ أفرادُ الْأُوْلَى مقابلةً لِمَا فِيْ الثَّانِيَةِ، فَهُوَ بالنِّسبةِ إِلَى المُرَصَّعِ كالمتوازنِ بالنِّسبةِ إِلَى المُتَوَازِي، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِيْ التَّنزيلِ الحكيمِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الصافات: 117، 118]. فـ (الكتاب، والصِّراط) يتوازنانِ، وَكَذَا (المستبين والمستقيم)، لَكِنِ اخْتَلَفَا فِيْ الحَرْفِ الأَخِيْرِ.

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المضريَّة)، (ص308).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة العدنيَّة)، (ص270، ص271).

[3] يُنْظَر: العلويّ، الطِّراز، (ص407).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الطائيَّة)، (ص261).

تقلَّبتِ الكَلِمَاتُ بَيْنَ أناملِ الْأُدَبَاءِ الَّتِيْ خطَّتْ طائفةً رائعةً مِنَ السَّجْعِ المتماثِلِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، وتنوَّعتِ الْأَلْفَاظُ حَتَّى غَدَتْ أشبهَ بباقةٍ مختلفةِ الْأَزْهَارِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ السَّجْعِ المتماثِلِ قَوْلُ مُحَمَّد الوُرْغِيّ: "لَمْ يطلعْ بَدْرُ الشِّعْرِ إِلَّا فِيْ سَمَائِهِ، وَلَمْ يُثْمِرْ شجرُ النَّثْرِ إِلَّا فِيْ جِنَانِهِ"[1]. فَقَوْلُهُ: (لَمْ يطلعْ بَدْرُ الشِّعْرِ إِلَّا فِيْ سَمَائِهِ، وَلَمْ يُثْمِرْ شجرُ النَّثْرِ إِلَّا فِيْ جِنَانِهِ) يتوازنانِ، وَكَذَا (سمائه، وجنانه)، لَكِنْ اختلفا فِيْ الحرفِ الأخيرِ. وَقَوْلُهُ: "فَهَلْ تفسحونَ لَهَا ذرعاً، وتفتحونَ لَهَا قَلْباً"[2]. فـ (تفسحونَ، وتفتحونَ) يتوازنانِ، وَكَذَا (ذرعاً، وقلباً)، لَكِنِ اخْتَلَفَا فِيْ الحَرْفِ الأَخِيْرِ. وَمِنْهُ كَذَلِكَ قول شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "مُجزِي العوالي، ومُجرِي السَّوابق"[3]. فَقَوْلُهُ: (مُجزي، ومُجري) يتوازنان، وكذا (العوالي والسَّوابق)، لَكِنِ اخْتَلَفَا فِيْ الحَرْفِ الأَخِيْرِ.

أما نَاصِيْف اليَازْجِيّ فقد قدَّم صورةً بارعةً لهَذَا السَّجْع مُعْتَمِدَاً عَلَى الْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ فِيْ قَوْلِهِ: "وطفقا يتساقطان الحَدِيْث، ويتلاقطان الشّتيت"[4]. فَقَوْلُهُ: (يتساقطان، ويتلاقطان) يتوازنان، وكذا (الحَدِيْث، والشَّتيت)، لَكِنِ اخْتَلَفَا فِيْ الحَرْفِ الأَخِيْرِ.

وَمِنْ هَذَا التَّسْجيعِ قَوْلُ اليازجيّ: "فَهُوَ أظرفُ جليسٍ، وأرفقُ قَرِينٍ"[5]. فَقَوْلُهُ: (أظرف، وأرفق) يتوازنانِ، وَكَذَا (جليس، وقرين)، لَكِنِ اخْتَلَفَا فِيْ الحَرْفِ الأَخِيْرِ.

لَقَدْ كَانَ الْإِيْقَاعُ الْمُوْسِيْقِيُّ خِصِّيصَةً تتوفَّرُ بدرجةٍ عاليةٍ فِيْ الشِّعْرِ، كَمَا تتوفَّرُ بشكلٍ أَوْ بآخرَ فِيْ النَّثْرِ، فَنَجِدُ فِيْ المَقَامَاتِ الأَلْوَانَ البَدِيْعيَّةَ خَاصَّةً السَّجْع الَّذِيْ اهتمَّ لَهُ الْبَلَاغِيُّونَ عَلَى المستوى الصَّوْتيِّ، وأدّوا فِيْهِ أَلْوَانَاً مِنَ الأداءِ يتمثَّل فِيْهَا عنصرُ المُوْسِيْقَا كالسَّجْعِ المُطَرَّفِ، ويرتقي المستوى الصَّوتيُّ فِيْ التَّرصِيْعِ، ويكتملُ المَشْهَدُ الموسيقيُّ فِيْ كُلٍّ مِنَ السَّجْعِ الْمُتَوَازِي والْمُتَوَازِنِ، كُلٌّ يقدِّمُ لَوْحةً موسيقيَّةً عذبةً تطربُ لِجَرْسِهَا الآذانُ، وتطمئنُّ لإيقاعِهَا القُلُوْبُ، والأبدانُ.

3- الْعَكْسُ

لَمْ يتوقَّفْ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ عَنِ الإِبْدَاعِ، بَلْ تَابَعُوا السَّفَرَ، وواصلوا المسيرَ؛ ليبحروا فِيْ أَعْمَاقِ الْجَمَالِ، وَهَذِهِ المَرَّةُ عَنْ طَرِيقِ لونٍ جديدٍ مِنْ ألوانِ البَدِيْعِ، وَهُوَ (العَكْس).

---

[1] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَة الخمريَّة)، (ص23).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص42.

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الطائيَّة)، (ص261).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الفراتيَّة)، (ص326).

[5] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الطائيَّة)، (ص261).

وَالْعَكْسُ أَحَدُ الفُنُوْنِ البَدِيْعيَّةِ الَّتِيْ تُظْهِرُ براعةَ مستخدِمِهِ، والْمَقْصُودُ بِهِ: أنْ تُقدِّمَ فِيْ الْكَلَامِ جزءاً ثُمَّ تعكسُ، بأنْ تقدِّمَ مَا أَخَّرْتَ، وتُؤخِّرَ مَا قَدَّمْتَ. ويعرِّفُهُ صاحبُ (بديع القرآن) ابنُ أَبِي الأصبع المصريّ بِقَوْلِهِ: "أَنْ يُؤْتَى بِكَلَامٍ آخِرُهُ عَكْسُ أَوَّلِهِ، كَأَنَّهُ بدَّلَ فِيْهِ الأوَّلَ بالآخرِ، والآخرَ بالأَوَّلِ"[1]. وَمِنْ شَوَاهِدِ الْعَكْسِ فِيْ النَّظْمِ قَوْلُ الْمُتَنَبِّي:

إِذَاْ مَطَرَتْ مِنْهُمْ وَمِنْكَ سَحَائِبُ فَوَابِلُهُمْ طَلٌّ وَطَلُّكَ وَابِلُ[2].

لَقَدِ استغلَّ الْأُدَبَاءُ "أكبرَ قَدْرٍ مِنْ إمكانيَّةِ اللُّغَةِ فِيْ كراهيتَها لتوالي الْأَمْثَالِ فِيْ رَصْدِ ألوانٍ مِنَ الأداءِ، تعتمدُ عَلَى قيمِ المخالفةِ، والموافقةِ فِيْ رَسْمِ الْحُرُوْفِ ونطقِهَا، بحَيْثُ تُرَكَّبُ الْأَلْفَاظُ مِنْ مَجْمُوْعَةِ أحرفٍ، ثُمَّ تُعْكَسُ فِيْ نِظَامِهَا، وَتَرْتِيْبِهَا"[3].

وَلَعَلَّ هَذَا النَّوعَ هُوَ الَّذِيْ تمثَّلَ بكثرةٍ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، حَيْثُ أظهرَ الْأُدَبَاءُ براعةً فائقةً فِيْ تقديمِهِ، وتوظيفِهِ فِيْ نُصُوْصِهِم الْمَقَامِيَّةِ بِطَرِيْقَةٍ أسهمتْ مساهمةً واضحةً فِيْ تَشْكِيْلِ ألوانٍ بديعيَّةٍ راقيةٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "فَقَالَ الشَّيْخُ جَزَاكَ اللهُ خَيْرَ الجزاءِ، وَجَزَاءَ الخيرِ"[4]، وَقَوْلُهُ: "أَمَّا بَعْدُ، يَا عَشَائِرَ البَشَائِرِ، وَبَشَائِرَ العَشَائِرِ"[5]، وَقَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "وَبِالجملةِ فليسَ لِي فِيْ الْحُسْنِ مجارية، فَكَمْ جمعت بَيْنَ جَارِيةٍ سَاقِيَةٍ، وَسَاقِيَةٍ جَارِيةٍ"[6].

وَقَدْ تفوَّقَ الشَّيخُ مُحَمَّد المُبَارَك فِيْ هَذَا الميدانِ تفوُّقاً ظاهراً، وَكَانَ لَهُ السَّبْقُ فِيْ رَسْمِ تشكيلاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ مِنَ البَدِيْع قائمة عَلَى الْعَكْسِ، وَكَأَنَّهُ اجْتَنَى مِنْ كُلِّ بستانٍ زهرةً، ثُمَّ زيَّنَ بِهَا مقاماتِهِ، وَمِنْ هَذِهِ المَشَاهِدِ قَوْلُهُ فِيْ مَقَامَةِ (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْل وَالنَّهَار): "فَهِيَ مَقَامَةٌ لطيفةٌ تُغْنِي عَنْ مَقَامَاتِ البَدِيْع، وَمَقَالَةٌ ظَرِيْفَةٌ تَحْتَوِي عَلَى بَدِيعِ المَحَاسِنِ، وَمَحَاسِنِ البَدِيْعِ"[7].

---

[1] المصريّ، بديع القرآن، (ص111).

[2] الْمُتَنَبِّي، دِيْوَان الْمُتَنَبِّي، (ص376). الوابل: المطر الغزير، الطلّ: المطر الخفيف، قال تعالى:﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: 265].

[3] عَبْد الْمُطَّلِب، الْبَلَاغَة والْأُسْلُوبية، (ص293).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة العقيقيَّة)، (ص17).

[5] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المصريَّة)، (307).

[6] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غريب الأنباء في المُفَاخَرَة بين الْأَرْض والسَّمَاء)، (ص94).

[7] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَارِ فِيْ مُحَاوَرَة اللَّيْل وَالنَّهار)، (ص124).

حَيْثُ أظهرَ إمكاناتٍ هائلةً، وقدراتٍ فائقةً فِيْ الْجَمْعِ بَيْنَ (بديع المَحَاسِن)، و(مَحَاسِن البَدِيْع) فِيْ أسلوبٍ رائقٍ، وطِرَازٍ فَائِقٍ.

وَفِيْ مَقَامَةِ (أَبْهَى مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين الغُرْبَة وَالإِقَامَة) قدَّمَ مُحَمَّد المُبَارَك مَشْهَداً بديعيَّاً متفرِّداً، يَقُوْلُ: "فَظَفَرُوا بِبَدِيْعِ الْفُنُوْنِ، وَفُنُوْنِ البَدِيْعِ، وَسَمَا قدرُهُم إِلَى سِمَاتِ المجدِ الرَّفيعِ"[1]. وَكَأَنِّي بِهِ يُحَاوِلُ دَوْماً أَنْ يركِّزَ جهدَهُ فِيْ مديحِ مَنْ تَنَاوَلِ البَدِيْعِ.

وَلَمْ يهملْ مُحَمَّد المُبَارَك الجمعَ بَيْنَ العُلَمَاْءِ والْأُدَبَاءِ فِيْ مَشْهَدٍ بديعيٍّ جديدٍ يقومُ عَلَى الْعَكْسِ فِيْ قَوْلِهِ: "وترجمتْ ألسنةُ السُّنَّةِ عَنْ ذَلِكَ منوِّهةً بفضلِ الْغُربةِ سِرَّاً وجهراً، مَعْ مَا وَرَدَ فيها مِنْ عُلَمَاءِ الْأُدَبَاءِ، وأُدَبَاءِ العُلَمَاْءِ نَظْمَاً، وَنَثْرَاً"[2].

لَقَدِ افتتنَ المُبَارَكُ بالعكسِ، وأبدعَ فِيْ تَوْظِيْفِهِ فِيْ أوقاتِ السَّمَرِ، وليالي الأنسِ، يَقُوْلُ: "وبالجملةِ فَلَا يَجنحُ إِلَى الأوطانِ إِلَّا مَنْ سَكَنَ إِلَى رَاحَةِ نفسِهِ، واغترَّ بأنسِ أوقاتِهِ، وأوقاتِ أنسِهِ"[3].

وَلَمْ يبرحْ مُحَمَّد المُبَارَك هَذَا الفَنَّ فِيْ العُلُوْمِ وأسرارها كَذَلِكَ، حَيْثُ قدَّمَ جزءاً في الْكَلَامِ ثُمَّ عَكَسَ، يَقُوْلُ: "فَإِنَّ مَنْ سَلَكَ هَذَا المسلكَ مِنَ السَّادَةِ الأبرارِ، انكشفَ لهم أسرارَ العُلُوْمِ، وعُلُوْمَ الْأَسْرَار"[4]. مع ملاحظةِ التَّوافُقِ بَيْنَ طَرَفَي العَكْسِ

هَكَذَا اعتلى مُحَمَّدُ المُبَارَك قِمَماً شَمَّاءَ، وَعَلَا حَتَّى أصابَ عَنَانَ السَّمَاءِ، كَتَبَ فأجادَ الكتابةَ، وَرَسَمَ فأحسنَ الرَّسْمَ، وانتقى مِنْ فنونِ البَدِيْعِ، وبديعِ الفُنُوْنِ فَبَرَعَ فِيْ الانْتِقَاء، وَمِنْ هُنَا امتلكَ هَذَا الرَّجُلُ قلوبَ معجَبِيْهِ، وألهبَ مشاعرَ مُحِبِّيْهِ، وَمَلَأَ عُيُوْنَ متابِعِيْهِ رَوْعَةً، وجَمَالَاً، وَأَطْرَبَ آذانَهُم حُسْنَاً، وَجَلَالَاً.

4- لُزُوْمُ مَاْ لَاْ يَلْزَمُ

وهَذَا اللَّوْنُ مِنْ روائعِ المُحَسِّنَاتِ البَدِيْعيَّةِ اللَّفْظِيَّةِ، وَحَاصِلُهُ "أَنْ يلتزمَ النَّاثِرُ حَرْفاً مخصوصاً، مَعَ اتِّفاقِ الْكَلِمَتَينِ فِيْ الأَعجازِ"[5]، وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنْ يجيءَ قبلَ حرفِ الرَّوِيِّ، أَوْ مَا فِيْ مَعْنَاهُ مِنَ الفاصلةِ، بِمَا لَيْسَ بلازمٍ فِيْ التَّقْفِيَةِ، وَيلتزمُ فِيْ بيتينِ، أَوْ أكثرَ مِنَ النَّظْمِ، أَوْ فِيْ

---

(1) الطَّيَّان، مُحَمَّد، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص151).

(2) المَرْجِع السَّابِق، ص153.

(3) المَرْجِع نفسه، ص166.

(4) المَرْجِع نفسه، ص168.

(5) العلويّ، الطِّراز، (563).

فاصلتينِ، أَوْ أكثرَ مِنَ النَّثْرِ. وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِيْ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢﴾[الطور: 1، 2]. فَالْتَزَمَ وُجُوْدَ حَرْفَيْنِ اثْنَيْنِ، وهما (الواو، والطَّاء)، مَعَ الْتِزَامِ (الرَّاء) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الطُّور، مسطور).

وتتزيَّنُ النُّصُوْصُ المَقَامِيَّةُ بهَذَا اللَّوْنِ البَدِيْعيِّ، خَاصَّةً أَنَّهُ يقتربُ كَثِيْراً مِنَ التَّسْجِيعِ، الَّذِيْ تَزْدَانُ بِهِ النُّصُوْصُ المَقَامِيَّةُ، وَقَدْ يقومُ هَذَا اللَّوْنُ عَلَى الالتزامِ بحرفٍ واحدٍ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوِيِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "وَلَكُمْ حِفْظُ العُهُودِ، وإنجازُ الوُعُودِ"[1]. فَالْتَزَمَ وُجُوْدَ حرفٍ واحدٍ، وهو (الواو) مَعَ الْتِزَامِ (الدَّال) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (العُهُود، الوُعُود). وَقَوْلُهُ: "وقضينَا غابرَ ليلتِنَا فِيْ تِلْكَ البطاحِ، إِلَى أنْ تبلَّجَ وَجْهُ الصَّباحِ"[2]. فَالْتَزَمَ وُجُوْدَ حَرْفٍ واحدٍ، هو (الألف) مَعَ الْتِزَامِ (الحاء) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (البطاح، الصَّباح). وزاد المَشْهَدَ جَمَالاً التَّشْكِيلُ الاستعاريُّ فِيْ قَوْلِهِ: (تبلَّجَ وَجْهُ الصَّباحِ)، وَمَا فيهِ من تشخيصٍ للصَّباحِ فِيْ صورةِ إنسانٍ مشرقِ الوجْهِ، بَهِيِّ الطَّلْعَةِ.

ويشاركُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق نَاصِيْف اليَازْجِيّ إبداعاتِهِ؛ ليقدِّمَ أُنموذجاً من هَذَا الضَّرْبِ، يَقُوْلُ: "والويلُ لَكَ إنْ ناهزتَ الخمسينَ، وعجزتَ عَنِ التَّموينِ، أَوْ بَدَا الشَّيبُ في عارضيك عِنْدَ الأربعينَ، أَوْ أَصَابَكَ مرضٌ فِيْ بَعْضِ السِّنينَ"[3]. حَيْثُ التزمَ الشِّدياقُ وُجُودَ حرفٍ واحدٍ، هو (الياء)، مَعَ الْتِزَامِ (النُّون) فِيْ آخرِ الأسجاعِ (الخمسين، التَّموين، الأربعين، والسِّنين) فِيْ توزيعٍ موسيقيٍّ رائعٍ.

اقتحمَ شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيّ حصونَ هَذَا اللَّوْنِ، وقصدَ أبوابَهُ الْمُوْصَدَةَ، فزيَّنَ نُصُوْصَهُ المَقَامِيَّةَ بأعدادٍ لَا حَصْرَ لَهَا مِنْهُ، يَقُوْلُ: "إِذَا سَلَّمَ عَلَى أهلِ نادٍ رفيعٍ، فتحيَّتُهُ ضربٌ وجيعٌ"[4]. فَقَدِ التزمَ وجودَ حرفٍ واحدٍ، هو (الياء) مَعَ الْتِزَامِ (العَيْن) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (رفيع، وجيع). تاركاً البابَ مفتوحاً للمتلقِّي ليطربَ سمعَهُ بعذبِ المُوْسِيْقَا، وَرَوعَةِ الإِيْقَاعِ.

أَمَّا أُدَبَاءُ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات)، فَقَدْ كَانَ لهم حَظٌّ وافرٌ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ، حَيْثُ عَزَفُوا جَمِيْعَاً عَلَى أوتارِهِ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ أَحْمَد البَرْبِيْر: "وأدارتْ علينا سُلَافَ طلِّهَا كؤوسُ الزُّهُورِ،

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الخطيبيَّة)، (ص148).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة السّروجيَّة)، (ص173).

[3] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة مقيمة)، (ص282).

[4] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا (المَقَامَة الرُّوْمِيّة)، (ص370).

قَبْلَ أَنْ ترشفَهُ شمسُ البُكُورِ"[1]. فَقَدِ التزمَ الْأَدِيْبُ وجودَ حرفٍ واحدٍ، هو (الواو) مَعَ الْتِزَامِ (الرَّاء) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الزُّهور، البُكُور).

وَقَدْ يلتزمُ هَذَا اللَّوْنُ مِنَ البَدِيعِ وجودَ حَرْفَيْنِ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوِيِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِيْ التَّنزيلِ الحكيمِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الْوَاقِعة: 28، 29].

لَمْ يُهْمِلِ الْأُدَبَاءُ العُثْمَانِيُّوْنَ هَذَا اللَّوْنَ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّة، من شواهده قول نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "فَلَمَّا سكنت الضَّوضاء، أعرض بوجهه إِلَى الفضاء"[2]. فَالْتَزَمَ وُجُوْدَ حَرْفَيْنِ اثْنَيْنِ، وَهُمَا (الضَّاد، والألف) مَعَ الْتِزَامِ (الْهَمْزَة) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الضَّوضاء، والفضاء) مع ما يتركه هَذَا الحَدِيْث من جرسٍ موسيقيٍّ عذبٍ.

أَمَّا أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق، فقد قدَّم أنموذجاً بارعاً من هَذَا الضَّرب، يَقُوْلُ: "فقلت لا جَرمَ، لأقصدنَّ منتاب الشُّعَرَاء، ولأتَّخذنَّهم لي عُشَرَاء"[3]. فَالْتَزَمَ وُجُوْدَ حَرْفَيْنِ اثْنَيْنِ، هما (الرَّاء، والألف) مَعَ الْتِزَامِ (الْهَمْزَة) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الشُّعَرَاء، وعُشَرَاء). فازداد المَشْهَد جَمَالاً صُحْبَةَ الجرس الموسيقيِّ الرائع.

ويلتزمُ شِهَابُ الدِّيْنِ الخَفَاجِيّ وُجُوْدَ حَرْفَيْنِ قَبْلَ الرَّوِيِّ، فيبهرُ أسماعَنَا بعذبِ الُّلزُوْمِ، يَقُوْلُ: "وَمَا حَالُ وردةٍ فارقتْ نسماتِ القَبُولِ، فحداها السّمومُ، وقادها الذُّبُولُ"[4]. فَقَدْ طَالَعَنَا الْأَدِيْبُ بحَرْفَيْنِ اثْنَيْنِ هُمَا (الباء، والواو) قَبْلَ حَرْفِ الرَّوِيِّ (اللَّام) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (القبول، والذُّبول).

وَيَأْبَى ابنُ الأَلُوسِيّ إِلَّا أَنْ يدليَ بدلوِهِ فِيْ هَذَا الْبَابِ، حَيْثُ الْتَزَمَ وُجُوْدَ حَرْفَيْنِ قَبْلَ الرَّوِيِّ فِيْ قَوْلِهِ: "يا مولايَ، التَّوْبَة التَّوْبَة، فَإِنِّي وإِنْ كنتُ أعلمُ أنَّ الخمرَ مصباحُ السُّرورِ، لكنِّي قَدْ حقَّقْتُ أنَّها مفتاحُ الشُّرورِ"[5]. فَقَدْ طَالَعَنَا بحَرْفَيْنِ هُمَا (الرَّاء، والواو)، مَعَ الْتِزَامِ (الرَّاء) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (السُّرور، والشُّرور). وزاد المَشْهَدَ روعةً التَّشْكِيلُ التَّشْبيهِيُّ البليغُ.

وَقَدْ يتفوَّقُ الْأُدَبَاءُ فيلتزموا وجودَ أكثر من حَرْفَيْنِ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوِيِّ، لكنَّ هَذَا الضَّربَ يحتاجُ قدرةً عاليةً، وإمكاناتٍ هائلةً، وَمِنْ مَشَاهِدِهِ قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "فنزَلْنَا حَيْثُ تنزلُ أبناءُ

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص24).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة السّروجيَّة)، (ص174).

[3] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة مقيمة)، (ص281).

[4] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا (المَقَامَة الرُّوْمِيّة)، (ص370).

[5] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (زَجْر الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ)، (ص110).

السَّبيلِ، وَبَاتَ الشَّيْخُ يُطْرِفُنَا بحديثٍ أَشْهَى مِنَ السَّلْسَبِيْلِ"[1]. حَيْثُ الْتَزَمَ وُجُوْدَ ثلاثةِ حُرُوفٍ، هِيَ (السِّين، الباء، والياء)، مَعَ الْتِزَامِ (اللَّام) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (السَّبيل، والسَّلْسَبِيْل).

وَيُبْدِعُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق فِيْ تَشْكِيْلِ لوحةٍ بارعةٍ مِنْ لُزُومِ مَا يلزم، مُقدِّمَاً أُنْمُوْذَجَاً أَخَّاذاً ملتزماً فيهِ بثلاثةِ حُرُوْفٍ قَبْلَ الرَّويِّ، يَقُوْلُ: "إِذْ لستُ بصاحبِ أَسْفَارٍ، بَلْ حليف تَطوافٍ وأسفارٍ"[2]. حَيْثُ استعملَ الشِّدْيَاقُ الجِنَاسَ التَّامَّ المُمَاثِلَ هُنَا، والْتَزَمَ وُجُوْدَ ثلاثةِ حروفٍ، هي (السِّين، والفاء، والألف)، مَعَ الْتِزَامِ (الرَّاء) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (أسفار، وأسفار).

وكَعَادَتِهِ لا يبرحُ عَبْدُ اللهِ فِكْرِيّ لوناً من ألوان البَدِيْع إلا وضمَّنه نصوصه المَقَامِيَّة، وَهُنَا يشكِّلُ لوحةً مِنْ لَوْحَاتِ هَذَا اللَّوْنِ البَدِيْعيِّ، يَقُوْلُ: "المُعَاشِرُ للعلماءِ والأتقياءِ، والملازمُ للجهلاءِ والأشقياءِ"[3]. فَقَدْ امتلكَ الأَديبُ قُدْرَةً، وأيّ قُدْرَةٍ عَلَى التزامِ ثلاثةِ حُرُوفٍ، هِيَ (القاف، الياء، والألف)، مَعَ الْتِزَامِ (الْهَمْزَة) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الأتقياء، والأشقياء). صُحْبَةَ عَذْبِ المُوْسِيْقَا، والمُوْسِيْقَا الْعَذْبَةِ.

وَلَمْ يفارقْ أُدَبَاءُ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات) هَذَا اللَّوْنَ، فَقَدْ توشَّحَتْ بِهِ نُصُوْصَهُم المَقَامِيَّةَ لَمَّا قَصَدُوا تَصْوِيرَ براعتِهِم الأَدَبيَّةِ، وإظهارَ قدراتِهِم البَلاغيَّةِ، وتأكيدَ مهاراتِهِم اللُّغويَّةِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ: "طَالَمَا عبثتْ أيدي الحَدَثَانِ بلطائِفِكَ الزَّاهِرَةِ، ونفثتْ أراقمُ اللَّيَالِي بسُمُومِ سَمومِهَا فِيْ محاسِنِكَ الباهرةِ"[4]. حَيْثُ أسعدَ قلوبَنَا برسومٍ باهرةٍ توحي بامتلاكِهِ قدرة فائقة عَلَى الانْتِقَاء، فَقَدِ التزمَ ثلاثةَ حروفٍ، هِيَ (الألف، الهاء، والرَّاء)، مَعَ الْتِزَامِ التَّاءِ المربوطةِ فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الباهرة، والزَّاهرة).

أَمَّا ابنُ الأَلُوسِيّ فيعلو صوتَهُ مغرِّداً فِيْ مَقَامَاتِهِ فِيْ أكثرَ مِنْ مَوْضِعٍ، يَقُوْلُ: "وأعلمُ أَنَّهُ بابُ الفُتُوْحِ، وفرحٌ يجولُ فِيْ ميادينِ الرُّوْحِ، بِهِ تَتَجَلَّى نواظرُ العُقُوْلِ، وتنجلي أسرارُ المنقولِ والمعقولِ"[5]. حَيْثُ طَالَعَنَا بهذَا اللَّوْنِ فِيْ أُسْلُوبٍ بَدِيْعٍ لَمَّا التزمَ ثلاثةَ حُرُوْفٍ، مُزَاوِجَاً بَيْنَ الجِنَاسِ المُذيَّلِ، ولزومِ ما لا يلزمُ، والْحُرُوْفُ هي (العَيْن، القاف، والواو)، مَعَ الْتِزَامِ (اللَّام) فِيْ آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (العُقُوْل، والمَعْقُول).

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة العاصميَّة)، (ص239).

[2] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة مقعدة)، (ص131).

[3] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص276).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص104).

[5] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (زَجْر الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ)، (ص72).

هَكَذَا سَحَرَ الْأُدَبَاءُ أَعْيُنَ القُرَّاءِ بلمساتٍ بارعةٍ، وَأَطْرَبُوا أسماعَهُمْ بنغماتٍ عَذْبَةٍ، وَحَرَّكُوا أحاسيسَهُم بنسماتٍ رقيقةٍ، وَأَحَاطُوا مشاعِرَهُم بهمساتٍ دافئةٍ، لمَّا أَبْحَرُوا فِيْ عَوَالِمِ هَذَا اللَّوْنِ، وَكَأَنِّي بهَؤلاءِ شَرَعُوا يخُطُّونَ بريشتِهِم فيبهرونَ، ويُشكِّلونَ بأَنَامِلِهِم فيسعدونَ، وَيَرْسِمُونَ بألوانِهِم فيمتِّعُوْنَ، وَقَدْ نَصَّبُوا أنفسَهُم مقاليْدَ الْبَهَاءِ والْجَمَالِ، وألبسوها تيجانَ الحُسْنِ والْجَلَالِ، فأثبتوا للدَّانِي، والقاصِي أنَّهُم أَحَقُّ بالرِّيادَةِ، وأولى بالسِّيادَةِ.

5- الاكْتِفَـــاءُ

الاكتفاءُ لَونٌ مِنْ ألوانِ البَدِيْع، وَيُقْصَدُ بِهِ "أَنْ يحذفَ الشَّاعِرُ مِنَ البيتِ شَيْئَاً يستغني عَنْ ذِكْرِهِ بدلالةِ العقلِ"[1]. وَقَدْ وَرَدَ فِيْ مواضعَ قليلةٍ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ في (المَقَامَة النّجديَّة):

مُـــوْتَمِرٌ وَنَـــاجِرٌ خَـــوَّانُ ... مِـنْ لَقَـبِ الْأَشْـهُرِ وَالصَّـوَّانُ

زبَّـــاء بائـــدٌ أَصَـــمٌّ وَاغِـــلُ ... وَبَعَـــدَ ذَاكَ بَاطِـــلٌ وَعَـــادَلُ

ورنَّـــــةٌ وتَيْـــــرَكُ الخِتَـــــامُ ... وَقِيْـــلَ غيـــرُ ذاك والسَّـــلامُ[2]

وَقَوْلُهُ: والسَّلام، أَي: والسَّلامُ عَلَيْكَ، وهَذَا مِنْ بَابِ الاكتفاءِ البَدِيْعيِّ.

6- التَّشْطِيْر

مِنْ روائعِ المُحَسِّنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، التَّشْطِيْر، والْمَقْصُودُ بهَذَا اللَّوْنِ "أَنْ يتوازنَ المِصْرَاعَانِ والجزآنِ، وتتعادلَ أقسامَهُمَا مَعَ قيامِ كُلِّ واحدٍ منهما بنفْسِهِ، واستغنائِهِ عَنْ صاحِبِهِ"[3]. وَمِنْ

---

[1] الهاشميّ، جواهر الْبَلَاغَة، (ص297).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة النّجديَّة)، (ص406). البيتان الأوَّل والثَّاني، والشَّطر الأول من البيت الثَّالث أسماء الأشهر عند الجاهلية. فالمؤتمر شهر محرم؛ لأنَّه أول السَّنة فكل شيء من أقضيتها يأتمر به، وصفر النَّاجر من النَّجر، أي شدة الحر، والرَّبيع الأول الخوَّان من الخيانة، والربيع الثَّاني الصوَّان من الصّيانة، وجمادي الأولى الزَّبَاء، وهي الدَّاهية الكبيرة، والأخرى البائد، لكثرة القتال والقتل فيها، ورجب الأصم؛ لأنهم كانوا يكفُّون فيه عن القتال فلا تُسمع فيه أَصْوَات السِّلاح، وشعبان الواغل، وهو الدَّاخل عَلَى قوم لم يدعوه لهجومه عَلَى رمضان، ورمضان الباطل، وهو كوز يكال به الخمر، وشوَّال العاذل، لأنه من أشهر الحج فكان يثنيهم عن غير مهماته، وذو القعدة رنَّة لأن الأنعام كانت ترن فيه لقرب النَّحر، وذو الحجة تَيْرَك، لأنهم كانوا يتركون الإبل فيه. *www.saaid.net/mktarat/mohram/55.htm*

[3] العسكريّ، الصِّناعتين، (ص463).

شَوَاهِدِ التَّشْطِيْرِ فِيْ النَّثْرِ قَوْلُ بعضِهِم: "مَنْ عَتَبَ عَلَى الزَّمَانِ طَالَتْ معتبَتُهُ، وَمَنْ رَضِيَ عِنْ الزَّمَانِ طَابَتْ معيشَتُهُ"، فالجزآنِ فِيْ الشَّاهِدِ متوازِنَا الْأَلْفَاظِ والأبنيةِ.

أَمَّا فُرْسِانُ المَقَامَةِ فَقَدْ أُوْلِعُوا فِيْ نُصُوْصِهِم بهَذَا النَّوْعِ مِنَ المُحَسِّنَاتِ البَدِيْعِيَّةِ، وَوَظَّفُوْهُ فِيْ دَعْمِ أفكارِهِم مِنْ نَاحِيَةٍ، وإمتاعِ المُتَلَقِّي مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى بِمَا يحوِيْهِ مِنْ مُوْسِيْقَا تَطْرَبُ لَهَا الآذانُ، وتهتزُّ لَهَا المشاعرُ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، قَوْلُ عَبْدِ اللهِ فِكْرِيّ: "إيَّاكَ والعجلةَ، فَإِنَّهَا تُكنَّى أمّ النَّدامَةِ؛ لِأَنَّ صاحِبَهَا يَقُوْلُ قَبْلَ أنْ يَعْلَمَ، وَيُجِيْبُ قَبْلَ أنْ يَفْهَمَ، وَيَعْزِمُ قَبْلَ أَنْ يُفكِّرَ، وَيَقْطَعَ قَبْلَ أَنْ يُقدِّرَ، وَيَحْمَدَ قَبْلَ أنْ يُجرِّبَ"[1]. حَيْثُ وَرَدَ جُزْآنِ مُتَوَازِنَا الْأَلْفَاظِ والأبنيةِ، وَهُمَا:

يَقُـــــوْلُ قَبْـــــلَ أنْ يَعْلَـــــمَ

وُيُجِيْـــــبُ قَبْـــــلَ أَنْ يَفْهَـــــمَ

ثُمَّ تَبِعَهَا ثلاثةَ أجزاءَ متوازنةَ الْأَلْفَاظِ والأبنيةِ، وَهِيَ:

يَعْـــــزِمُ قَبْـــــلَ أَنْ يُفكِّـــــرَ

يَقْطَـــــعُ قَبْـــــلَ أَنْ يُقـــــدِّرَ

يَحْمَـــــدُ قَبْـــــلَ أَنْ يُجـــــرِّبَ

وَمِنْ شَوَاهِدِهِ كَذَلِكَ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الخَفَاجِيّ: "فَغَيَّضَ مِنْ عَبَرَاتِهِ، وَخَفَّضَ مِنْ زَفَرَاتِهِ"[2]. حَيْثُ أورد جزأين متوازنين في الْأَلْفَاظ والأبنية، وهما:

فَغَـــــيَّضَ مِـــــنْ عَبراتِـــــهِ

وَخَفَّـــــضَ مِـــــنْ زَفراتِـــــهِ

وَمِنَ التَّشْطِيْرِ قَوْلُ بَهَاءِ الدِّينِ الْبِيْطَار: "فارتقتْ عَرْشَ اليراعةِ والْجَمَالِ، وانتقتْ فَرْشَ الْبَرَاعَةِ والْكَمَالِ"[3]. حَيْثُ وَرَدَ جُزْآنِ مُتَوَازِنَا الْأَلْفَاظِ والأبنيةِ، أَحْسَنَ الْأَدِيْبُ إيرادَهُمَا بأسلوبٍ أدبيٍّ رفيعٍ، وَهُمَا:

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص294).

[2] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (مَقَامَة في حسن الوفاء)، (ص307).

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مناظرة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص57).

فَارْتَقَـــتْ عَـــرْشَ الْبَرَاعَـــةِ والْجَمَـــالِ

وَانْتَقَـــتْ فَـــرْشَ الْبَرَاعَـــةِ والْكَمَـــالِ

وَعَزَفَ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ فِيْ نُصُوْصِهِ المَقَامِيَّةِ عَلَى أوتَارِ التَّشْطِيْرِ أَعْذَبَ الكَلِمَاتِ، وَتَغنَّى بأجملِ النَّغَمَاتِ، يَقُوْلُ: "فَبِتْنَا نَتَلَاعَبُ بألفاظِ الْكَلَامِ المُشَقَّقِ، وَنَتَجَاذَبُ أَعْطَافَ الحَدِيْثِ المُرَقَّقِ"[1]. فَقَدْ أَوْرَدَ اليَازْجِيّ شَطْرَيْنِ متوازنينِ فِيْ الْأَلْفَاظِ والأبنيةِ، ويمكنُ تَوْضِيح ذَلِكَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

نَتَلَاعَـــبُ بِأَلْفَـــاظِ الْكَـــلَامِ المُشَـــقَّقِ

نَتَجَـــاذَبُ أَعْطَـــافَ الحَـــدِيْثِ الْمُرَقَّـــقِ

وَيَتَأَلَّقُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق فِيْ عَوَالِمِ التَّشْطِيْرِ أَيَّمَا تَأَلُّقٍ، حَيْثُ جَمَعَ بَيْنَ دَفَّتَي نُصُوْصِهِ المَقَامِيَّةِ عَدَدَاً كَبِيْرَاً مِنَ المَقَاطِعِ بِطَرِيْقَةٍ بارعةٍ، وَصَلَتْ أَحْيَانَاً إِلَى أربعةَ عشرَ مَقْطَعَاً، زَاوَجَ بَيْنَ كُلِّ جُمْلَتَيْنِ حَتَّى أضحتْ عبارَتُهُ كَعِقْدِ الدُّرِّ النَّضِيدِ، يَقُوْلُ: "وَقَدْ قِيْلَ فِيْ الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ سَيْرَ العَجَاجِ، فِيْ كُلِّ فِجَاجٍ. مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا زَوْجَةٍ، كَانَ ذَا أَزْوَاجٍ، قِيْلَ فَمَنْ؟ ثُمَّ كَانَتْ خُطْوَاتُ العزبِ أَوْسَعَ، وَحَرَكَتُهُ أَسْرَعَ، وَكَلَامُهُ أَنْجَعَ، وإِنَاؤُهُ أَتْرَعَ، ونغْمَتُهُ أَرْخَمُ، ونهمَتُهُ أَضْرَمُ، ونهرَتُهُ أَقْوَى، ومَزَّتُهُ أَرْوَى، وَسِنَانَهُ أَذْلَقَ، وَسَهْمُهُ أَخْسَقَ، وَنَشْرُهُ أَعْبَقَ، وَحُبُّهُ أَعْلَقَ، وَطَعْمَتُهُ أَطْيَبَ، وَأَوْقَرَ، وَمَادَتُهُ أَسْكَبَ، وَأَغْزَرَ"[2].

وَلَمْ يَكْتَفِ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق فِيْ نَصِّهِ المَقَامِيِّ بالتَّشْطِيْرِ، بَلْ أَضْفَى إِلَى عبارَتِهِ جَمَالَاً إِلَى جَمَالٍ لَمَّا وَشَّحَهَا بالسَّجْعِ المُرَصَّعِ، حَيْثُ تتَّفقُ ألفاظُ الْفِقْرَتَيْنِ، أَوْ أكثرُهَا فِيْ الْوَزْنِ والتَّقْفِيَةِ، وَزَيَّنَهَا بالسَّجْعِ المُتَوَازِي حَيْثُ تتَّفقُ الْفِقْرَتَانِ فِيْ الْوَزْنِ والرَّوي، مُعْتَمِدَاً عَلَى الدَّال (أفعل) التَّفْضِيلِ، وَيُمْكِنُ بَيَان المَشَاهِدِ الهندسيَّة الَّتِيْ قدَّمَهَا الشِّدْيَاقُ وَقَدِ استحالتْ بَيْنَ أَنَامِلِهِ أَشْبَهَ بِعُقُودِ الدُّرِّ النَّضِيدِ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي، حَيْثُ استهلَّ حديثَهُ بِقِسْمَةٍ رُبَاعِيَّةٍ بَارِعَةٍ مُسْتَعِيْنَاً بالسَّجْعِ الْمُتَوَازِي:

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الرَّصافيَّة)، (ص339). المشقق: المخرج أحسن مخرج، المرقق: من ترقيق الكلام، وهو تحسينه.

[2] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (مَقَامَة ممشية)، (ص359). أخسق: شديد الإصابة، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح (ج4/1469)، مادة (خسق). أذلق: طلق اللسان، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح (ج4/1479)، مادة (ذلق)، أترع: أترع الإناء، ملأَه، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح (ج3/1191)، مادة (ترع).

خُطْوَاتُـــــهُ أَوْسَـــــعَ

حَرَكَتُـــــهُ أَسْـــــرَعَ

كَلَامُـــــهُ أَنْجَـــــعَ

إِنَـــــاؤَهُ أَتْـــــرَعَ

ثمَّ ثنَّى بِمُزَاوَجَةٍ مُسْتَعِيْنَاً بالسَّجْعِ المُرَصَّعِ، فِيْ قَوْلِهِ:

نَغْمَتُـــــهُ أَرْخَـــــمَ

نَهْمَتُـــــهُ أَضْـــــرَمَ

وَقَوْلُهُ:

نَهْرَتُـــــهُ أَقْـــــوَى

مزَّتُـــــــــــهُ أَرْوَى

ثُمَّ ثَلَّثَ بتشطيرٍ رُبَاعِيٍّ مُعْتَمِدَاً عَلَى قَافِيَةٍ واحدةٍ، وَهِيَ قَافِيَةُ (القاف) صُحْبَةَ السَّجْعِ المُرَصَّعِ فِيْ قَوْلِهِ:

سِـــــنَانُهُ أَذْلَـــــقَ

سَـــــهْمُهُ أَخْسَـــــقَ

نَشْـــــرُهُ أَعْبَـــــقَ

حُبُّـــــهُ أَعْلَـــــقَ

وَخَتَمَ حديثَهُ بالعودَةِ إِلَى التَّشْطِيْرِ بَيْنَ جُمْلَتَيْنِ مُتَسَاوِيَتَيْنِ جَمَعَهُمَا التَّرْصِيعُ فِيْ قَوْلِهِ:

طَعْمَتُـــهُ أَطْيَـــبَ، وَأَوْقَـــرَ

مَادَتُـــهُ أَسْـــكَبَ، وَأَغْـــزَرَ

هَكَذَا صَمَّمَ الْأُدَبَاءُ أَشْكَالاً هَنْدَسِيَّةً بَدِيْعَةً، زَيَّنَهَا التَّوازُنُ، وَجَمَّلَهَا رَوْعَةُ التَّلَاعُبِ بالْأَلْفَاظِ، وَكَسَتْهَا زِيْنَةً دِقَّةُ الرَّسْمِ بالكَلِمَاتِ، وزادَ بَهَاءَهَا الْجَرْسُ الْمُوْسِيْقِيُّ العَذْبُ الَّذِيْ تَطْرَبُ لِجَمَالِهِ الآذانُ، وتستقِرُّ لِحُسْنِهِ الأبدانُ.

وَعودٌ عَلَى بِدْء، فَقَدْ تألَّقَ أُدَبَاءُ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ أَيَّمَا تألُّقٍ لَمَّا وَقَفُوا عَلَى مَسْرَحِ البَدِيْعِ، وَتَفَوَّقوا لَمَّا مَثَّلُوا أَحْدَاثَ فُصُوْلِهِ، حَيْثُ غَدَا هَؤلاءِ أَشْبَهَ بِفَنَانٍ بَارِعٍ يُطْلِقُ العَنَانَ لِرِيْشَتِهِ فَيَرْسِمُ أجْمَلَ اللَّوْحَاتِ، أَوْ نَحَاتٍ مُبْدِعٍ يُشَكِّلُ بأَنَامِلِهِ الذَّهَبِيَّةِ أَرْوَعَ التَّشْكِيلاتِ، أَوْ قُلْ إنْ شِئْتَ صَائِغٌ مَاهِرٌ يَنْظِمُ عُقُوْدَ الجَواهِرِ، وَلآلئَ الدُّرِّ، فَقَدْ امتلكَ هَؤلاءِ زِمَامَ البَدِيْعِ، وَعَنَانَ أَلْوَانِهِ، وَأَحْكَمُوا شَكَائِمَ خُطُوْطِهِ، فَشَرَعُوا يُضَمِّنُونَ نُصُوْصَهُم المَقَامِيَّةِ نَمَاذِجَ مِنَ المُحَسِّنَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وأُخْرَى مِنَ المُحَسِّنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ دُوْنَ مُبَالَغَةٍ أَوْ إِسْرَافٍ، فَارْتَدَّ كُلُّ أُنْمُوْذجٍ آيَةً مِنْ آيَاتِ الْجَمَالِ، وَلَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ تَفَوَّقَ هَؤلاءِ عَلَى أَنْفُسِهِم لَمَّا قَصَدُوا أَلْوَانَ البَدِيْعِ، فَنَهَلُوا مِنْ مَوَارِدِ الطِّبَاقِ والْمُقَابَلَةِ، وَقَطَفُوا مِنْ حَدَائِقِ التَّوْرِيَةِ والمُشَاكَلَةِ، ولَمْ يَبْرَحِ الْأُدَبَاءُ أَمَاكِنَهُم فَصَعَدُوا الْقِمَمَ الشَّمَّاءَ، والرُّبَى الْعَلْيَاءَ، وَأَلْقَوا حِبَالَ نُصُوْصِهِم، فَسَحَرُوا أَعْيُنَ الْقُرَّاءِ بِعَذبِ التَّجْنِيسِ، وَرَوَائِعِ التَّسْجِيعِ، وَأَطْرَبُوا آذَانَهُمْ بِجَمِيْلِ الْعَكْسِ، وَبَدَائِعِ التَّشْطِيْرِ، وَكَأَنِّي بِهِم قَدْ صَهَرُوا رَوَائِعَ البَدِيْعِ، وَبَدِيْعِ الرَّوَائِعِ فِيْ بَوْتَقَةِ الْحُسْنِ فَفَاقُوا بِهَا سَابِقِيْهِم، وَفَتَحُوا الأَبْوَابَ الْمُوْصَدَةَ لِتَابِعِيْهِم لاقْتِحَامِ حَلَبَةِ الْمُنَافَسَةِ، وَدُخُوْلِ مَيْدَانِ الصِّرَاعِ؛ لَعَلَّ النُّقَّادَ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الدَّلائِلِ يُنْصِفُوْنَ عَصْرَاً ذَهَبِيَّاً تَعَرَّضَ دَوْمَاً لِلافْتِرَاءِ، وَأَدَبَاً بَارِعَاً عَانَى مُطْلَقَاً التَّهْمِيشِ وَالازْدِرَاءِ، وأُدَباءَ جَادِّيْنَ حَكَمَتْ أَقْلَامُ الْحَاقِدِيْن عَلَيْهِم بالشَّقَاءِ.

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

جَمَالِيَّاتُ التَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ،

وَالْحَرَكِيِّ، وَالصَّـــوْتِيِّ، وَالْأُسْلُوْبِيِّ

فِيْ الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

الْفَصْلُ الرَّابِعُ: التَّشْكِيلُ اللَّوْنِيُّ، وَالْحَرَكِيُّ، وَالصَّوْتِيُّ، والْأُسْلُوبِيُّ

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: التَّشْكِيْلُ اللَّوْنِيُّ

إِذَا رُمْتَ جَمَالاً، وقصدتَ حُسْناً، وَأردتَ بَهَاءً فَبَادِرْ إِلَى الأَلْوَانِ مَتِّعْ بِهَا ناظرَيْكَ، وَقَلِّبْهَا أَنَّى شِئْتَ، وكَيْفَمَا أردتَ.

وإِنْ أردتَ أعلَى مراتبِ الحُسْنِ فِيْ الأَلْوَانِ، وأتمَّ مجامع الْبَهَاء فيها فَلَكَ أنْ تتنقَّلَ بَيْنَ دَلَالَاتِهَا فَحَتْماً ستجد الحُسْنَ، والْبَهَاءَ، ومؤكَّداً سترى الْجَلَالَ، والصَّفَاءَ. فَمِنْ هُدُوْءِ تَبْيَضُّ، وبيضٍ، وابيضَّتْ، وَبَيْضَاءَ، إِلَى كَدَرٍ تَسْوَدُّ، وسُودٍ، واسودَّتْ، وسَوْدَاءَ، ومن نسماتِ خُضْرٍ إِلَى صفاءِ صَفراءَ، ومن دَمَوِيَّة اللَّوْن الْأَحْمَر، إِلَى هُدُوءِ أزرقَ، وسكينةِ زرقاءَ.

إِنَّ مَشَاهِدَ الْجَمَالِ الَّتِيْ يَرْسِمُهَا التَّشْكِيلُ، ويزيِّنُهَا استخدامُ الأَلْوَانِ تُعَدُّ مِنَ المَشَاهِدِ المرئيَّةِ الأخَّاذَةِ، والنَّمَاذِجِ المَشَاهَدَةِ المُبْهِرةِ الَّتِيْ يقفُ أَمَامَهُا أصحابُ الحِسِّ المُرْهَفِ، وأربابُ الأنامِلِ الذَّهبيَّةِ مبهورينَ، قَدْ لا يقوى أحدٌ منهم عَلَى محاكاةِ تِلْكَ المَشَاهِد من قريبٍ أو بعيدٍ، أَوْ تَقْلِيدِ تِلْكَ المساحاتِ الواسعةِ مِنَ الْجَمَالَ البديعِ؛ إِذْ إِنَّ البَوْنَ واسعٌ، والمسافةَ شاسعةٌ بَيْنَ هَذَا وَتِلْكَ.

أمَّا فلسفةُ الْجَمَالِ فِيْ استخدامِ الأَلْوَانِ فِيْ التَّشْكِيْلِ فَإِنَّهَا لَا تُضاهِيْهَا فلسفةٌ، وإِنَّ منطقَ الحُسْنِ في عَنَاْصِرِهَا لا يُضارِعُهُ مَنْطِقٌ، وإِنَّ مستوى الْبَهَاءِ لا يُحَاكِيْهِ مُستَوَىً؛ فنحنُ – حَتْمَاً – أَمَامَ تشكيلٍ لَونيٍّ مُبهرٍ لَا يدركُهُ إِلَّا أصحابُ الحسِّ المرهفِ، ولا يعي كُنْهَهُ إِلَّا أصحابُ العُقُوْلِ الرَّشيدةِ، وأربابُ الآراءِ السَّديدَةِ.

إِنَّ اللَّوْنَ فِيْ الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ حَمَلَ لَنَا دَلَالَةً رُبَّما تَرْسِمُ لَنَا دُرُوْبَ الكرامةِ الَّتِيْ تنقُلُنَا إِلَى عَصْرِ الأمانِ. كَمَا حَمَلَ لَنَا أَيْضَاً دَلالةَ العِزَّةِ، والقُوَّةِ الَّتِيْ أرهبتِ الأعداءَ، وَرَسَمَتْ لَهُمْ دُرُوْبَ الْخَوْفِ، وَخَوْفَ الدُّرُوْبِ، وَأَلْقَتْ بِهِمْ فِيْ جَحِيْمِ النِّيرَانِ، ونيرانِ الجَحِيْمِ. كَمَا أَنَّهَا ضَمَّتْ بَيْنَ جنباتِهَا باقاتٍ مُتَنَوِّعَةً مِنْ لَوْحَاتِ الطَّبِيْعَة الَّتِيْ تبهرُ الأَلْبَابَ بِمَا يجري فِيْهَا مِنْ جَدَاوِلَ وأنهارٍ، وتسْعدُ القُلُوْبَ بِمَا يَحْوِي ثَرَاهَا مِنْ نَخِيْلٍ وَأَشْجَارٍ، وَيُنْعِشُ المشاعرَ مَا يتراقَصُ فِيْ جنباتِهَا مِنْ ورودٍ، وأزهارٍ.

تِلْكَ اللَّوْحَاتُ الَّتِيْ فَاقَ بها كُتَّابُ المَقَامَةِ أعظمَ الْأُدَبَاءِ، وسابقوا فيها أَفْصَحَ الشُّعَرَاءِ، حَتَّى لَكَأَنَّ الْقَارِئَ حِيْنَ يَغُوْصُ فِيْ أَعْمَاقِ هَذِهِ المَقَامَاتِ، وَيَسْبُرُ أغوارَ تِلْكَ النُّصُوْصِ، يعودُ

إِلَى روائعِ الحريريِّ، وبَدِيعِ الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ، وبدائعِ السُّرقسطيِّ، أو يتنسَّمُ عبقَ التَّاريخِ عِنْدَ لسانِ الدِّين بنِ الخطيبِ، وأَبِي حَفْص الشَّهيدِ، وابنِ شَرَف القيروانيِّ.

ومن الملفتِ للنَّظرِ تِلْكَ الْوَشَائِجِ بَيْنَ التَّشْكِيلِ واللَّوْنِ، فاستخدامُ مَادَة التَّشْكِيلِ تحملُ مَزِيْدَاً من الدَّلَالَاتِ اللَّوْنيَّةِ، وكأنَّ هُنَاْكَ علائقُ متقاربةٌ بَيْنَ التَّشْكِيلِ واللَّوْنِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ جليَّاً في مَعَاجِمِ الُّلغَةِ، "فالأَشْكَلُ مَثَلاً ما فيه بياضٌ وسوادٌ، والشّكلةُ الحمرةُ تختلطُ بالبياضِ، ودَمٌ أَشْكَلُ فيه بياضٌ وحُمرةٌ، والأَشْكَلُ مِنَ الإبلِ والغنمِ: الَّذِيْ تخلَّطَ سوادُهُ حمرةً، وغبرةً، أو غيرهما، وقيلَ فِي صفةِ العَيْنِ أَشْكَلُ العَيْنِ: أي في بياضها شيءٌ من حمرةٍ، وقيلَ الشّكلةُ فِيْ العَيْنِ الصُّفرةُ الَّتِيْ تخالطُ بياضَ العَيْنِ الَّذِيْ حَوْلَ الحدقةِ عَلَى صفةِ عينِ الصَّقْرِ"[1].

ويُؤَكِّدُ صاحبُ مُعْجَمِ الصَّحَاحِ، ابنُ حمَّاد الجوهريّ تِلْكَ الْوَشَائِجَ في تناوُلِهِ مادة (شَكَلَ)، فَقَدْ سَافَرَ بَيْنَ حُرُوْفِ الشَّكْلِ مُتنقِّلاً من لونٍ إِلَى لونٍ، "فالأشكلُ من الشَّاءِ: الأَبْيَضُ الشَّاكلةِ؛ والأنثى شَكْلَاءُ بيِّنَةُ الشَّكَلِ، والشُّكْلَةُ كهيئةِ الحمرةِ تكونُ فِيْ بياضِ العَيْنِ، كالسُّهلةِ فِيْ سوادِهَا، وَمِنْهُا عينٌ شكلاءُ، ورجلٌ أشكلُ العَيْنِ، وَدَمٌ أَشْكَلُ إِذَا كَانَ فيه بياضٌ وحمرةٌ، وَيُقَالُ أَيْضَاً بالفرسِ شِكَالٌ، وهو أنْ تكونَ ثلاثُ قوائمَ محجَّلةً، وواحدةٌ مطلقةً، وَمِنْهُ تَشَكَّلَ العنبُ: أينعَ بعضُهُ، وأَشْكَلَ النَّخلُ، أي طَابَ رُطَبُهُ وَأَدْرَكَ"[2].

اللَّوْنُ لُغَةً وَاصْطِلَاحَاً

إنَّ الحَدِيْثَ عَنِ الأَلْوَانِ يطولُ، فَهِيَ لَا حُدُوْدَ لَهَا، وَلَا متَّسعَ لجمعِهَا، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ "اللَّوْنَ صفةٌ طبيعيَّةٌ منْ صفاتِ الأَشْيَاءِ، والأحياءِ الَّتِيْ خَلَقَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، كَمَا أَنَّهُ مِنْ عَنَاْصِرِ التَّشْكِيلِ الأساسيَّةِ فِيْ العملِ الفنِّيِّ"[3].

ودلالةُ اللَّوْنِ فِيْ الُّلغَةِ، وَفِي الاصْطِلَاحِ تكادُ تكونُ واحدةً؛ لِأَنَّهُ مِنَ المدركاتِ الحسيَّةِ الَّتِيْ لا تخطئها الأبصارُ، مُنْذُ أنْ أوجدَ اللهُ البشريَّةَ عَلَى الْأَرْضِ، ولهَذَا فَإِنَّ أقدمَ مَنْ ذكرَ اللَّوْنَ فِي المُعْجَماتِ الْعَرَبِيَّةِ، الخَلِيلُ بنُ أَحْمَد الفراهيديِّ، وَلَمْ يعطِهِ تعريفاً واضحاً، لكونِ دلالتهِ معروفةً عِنْدَ النَّاسِ كَافَّةً، قَالَ: "اللَّوْنُ معروفٌ، وجمعه ألوانٌ، والفعلُ التَّلوينُ، والتَّلوُّنُ"[4].

---

[1] ابن مَنْظُوْر، لِسَان الْعَرَب، (ج365/11، 357). مادة (شكل).

[2] الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج5/ 1736، 1737).

[3] يونس، التَّصْوِيْر الْجَمَاليّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص96).

[4] الفراهيديّ، معجم العين، (ج111/4).

وَتَابَعَ أصحابُ المَعَاجِمِ الخَلِيلَ فيْ هَذَا التَّعْرِيفِ، "واللَّوْن كهيئة السَّوَاد والحُمرة، ولونته فتلوَّن، ولون كلّ شيء: ما فصل بينه وبين غيره، والجمع ألوان، وقد تلوَّن، ولوّن، ولوَّنه، وفلان مُتَلَوِّن، إِذَا كَانَ لا يثبت عَلَى خلقٍ واحدٍ، ولوَّن البسر تلويناً إذا بدا فيه أثر النُّضْج، وَمِنْهُ قَوْله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر: 5]. ومعْلُوْم لِمَنْ رأى أنواعَ النَّخْلِ، وألوان البسرِ أنَّ فيه الْأَخْضَرَ إِلَى الأَصْفَرِ المتدرِّجِ مع الْأَخْضَرِ، إِلَى الأَصْفَرِ الفاتحِ، ثُمَّ المشوبِ بالحمرةِ، أو السَّوَاد حسب نوعه"[1].

إنَّ استخدامَ الأَلْوَانِ في الرَّسْمِ التَّشْكِيليِّ يبدو يسيراً بخلافِ استخدامِهَا في التَّعبيرِ اللُّغَوِيِّ الَّذِيْ لا يمنحها هذه الْحُريَّةَ، أو أنَّ الأَلْوَانَ نَفْسَهَا لا تستطيعُ أنْ تعبِّرَ بحريَّةٍ كَمَا نَجِدُهَا فِيْ حُقُوْلِ الرَّسْمِ.

ورغمَ أنَّ الأَلْوَانَ تبقى بمنأَىً عَنِ الوَصْفِ، مستعصيةً عَلَى كُلِّ تعريفٍ، وعَلَى كُلِّ تحليلٍ، فَإِنَّها مِنْ أكثرِ الأَشْيَاءِ جَمَالاً وخصوبةً في حياةِ البشرِ، فَبِهَا أثرى الْإِنْسَانُ حَيَاتَهُ، ومظاهرَ معيشتِهِ وأضفى عليها مِنْ بديعِ الْجَمَالِ، وبهائِهِ مَا لَا يحدُّه واصفٌ، أَوْ يحيطُ بِهِ خيالٌ. فالأَلْوَانُ "ليست خُطُوْطَاً أو مسحاتٍ شكليَّةً خاليةً من دلالاتٍ جماليَّةٍ، وتعبيريَّةٍ، ورمزيَّةٍ، وطيفيَّةٍ، وَفِيْ بعضِ الأحيانِ تزيينيَّة، بَلْ هِيَ صورٌ تعبِّرُ عَنْ مَوْضُوْعَاتِ الحَيَاْةِ، وانفعالاتِ الْفَنَّانِ بِهَا"[2].

وَالتَّأثيرُ اللَّوْنيُّ في النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ لا تَحدُّهُ حُدُوْدٌ، ولا تكبحُ جماحَهُ شكائمُ، أَوْ تمنَعُهُ سُدُوْدٌ، "فاللَّوْنُ موضوعٌ معقَّدٌ، وَهُوَ جزءٌ مِنْ خبراتِ الْإِنْسَانِ الإدراكيَّةِ، والطبيعيَّةِ للعالمِ المَرْئِيِّ، واللَّوْنُ لا يؤثِّرُ فِيْ قدرةِ الْإِنْسَانِ عَلَى التَّمييزِ فَقَطْ، بَلْ إنَّهُ يُغيِّرُ المزاجَ والْأَحَاسِيْسَ، ويؤثِّرُ فِيْ الخبراتِ الْجَمَاليَّةِ، وَفِيْ الأحكامِ التَّفصيليَّةِ بشكلٍ يكادُ يفوقُ أيَّ بعدٍ آخرَ يعتمدُ عَلَى حاسةِ البصرِ، أَو أيَّةِ حاسةٍ أُخْرَى"[3].

وَالْأَلْوَانُ تَتْرُكُ تَأْثِيْرَاً كَبِيْرَاً فِيْ نَفْسِ النَّاظِرِ إِلَيْهَا مِثْلَمَا تُؤَثِّرُ الْأَنْغَامُ، وَإِيْقَاعُ المُوْسِيْقَا فِيْ نُفُوْسِ سَامِعِيْهَا، وَهِيَ تَبْعَثُ فِيْ النَّفْسِ السُّرُوْرَ وَالْارْتِيَاحَ، أَوْ النُّفُوْرَ وَالتَّقَزُّزَ، فَنَغَمَةُ العُودِ أَوْ الْكَمَانِ قَدْ تَبْعَثُ فِيْ النَّفْسِ السُّرُورَ، كَمَا تَبْعَثُ السُّرورَ إِلَى الْبَصَرِ بَعْضُ الأَلْوَانِ، كَاللَّوْنِ الْأَخْضَرِ، فَهُوَ "اللَّوْنُ الْوَحِيْدُ الَّذِيْ اتَّفقَ عَلَى دَلَالَتِهِ الْمُرِيْحَةِ للنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَقَدْ أَثْبَتَتْ

---

[1] ابن مَنْظُوْر، لِسَان الْعَرَب، (ج393/3). مادة (لون). الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج2197/6). مادة (لون).

[2] الدُّوْريّ، دلالة اللَّون في الفنِّ العربيّ، (ص13).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص133.

الأبحاثُ أنَّ اللَّوْنَ الأَصْفَرَ، والْأَخْضَرَ يُهدئانِ ضرباتِ القلبِ، ويساعدانِ عَلَى تحسُّنِ الدَّورةِ الدَّمويَّةِ"[1].

التَّشْكِيْلُ اللَّوْنيُّ اصْطِلَاحاً

التَّشْكِيلُ اللَّوْنيُّ هُوَ طريقةُ الْأَدِيْبِ فِيْ التَّعبيرِ عَنْ تجربَتِهِ، حَيْثُ يتوسَّلُ بالأَلْوَانِ، فيعيدُ تشكيلَ اللُّغَةِ؛ لتعبِّرَ الأَلْوَانُ، وتروي مَا عجزتْ عَنْهُ الكَلِمَاتُ، فيحملُ اللَّوْن عَلَى تكثيفِ الطَّاقَةِ الدّلاليَّةِ، والإيحائيَّةِ للنَّصِّ الشِّعريِّ، حِيْنَهَا يتقبَّلُ المُتَلَقِّي اللَّوْنَ عَنْ طريقِ الْخَيَالِ؛ لِأَنَّ اللُّغَةَ استوعبتْ كُلَّ خَصَائِصِ الأَلْوَانِ، وحوَّلتها إِلَى تشكيلاتٍ تحملُ مَزِيْدَاً مِنَ الدَّلَالَاتِ، والإيحاءاتِ.

والتَّشْكِيلُ اللَّوْنيُّ كَذَلِكَ مَجْمُوْعَةُ الْعَلَاقَاتِ الشَّكليةِ الَّتِيْ تَتَنَاوَلُ اللَّوْنَ تركيباً، ودلالةً، وإيحاءً، أَوْ التَّنْظِيمُ الفَنِّيُّ لمعطياتِ الصُّورَةِ اللَّوْنيَّةِ فِيْ إطارٍ ذِي دَلَالَةٍ.

وقدْ يَحْمِلُ التَّشْكِيلُ اللَّوْنيُّ أَحْيَانَاً مَا لَمْ تحملْهُ الكَلِمَاتُ، وَقَدْ تقومُ الأَلْوَانُ مَقَامَ التَّعبيرِ اللَّفْظِيِّ خَيْرَ قيامٍ لمَّا يُحسنُ الْأَدِيْبُ استِعْمَالَهَا، وتوظيفَهَا فِيْ لوحاتِهِ الأَدَبيَّةِ سَوَاء أَكَانَتْ مباشرةً أم غيرَ مباشرةٍ، مَعْ مُرِاعَاةِ إنَّ التَّشْكِيلَ فِيْ الأَدَبْ لَا يُقْصَدُ بِهِ "مجردَ الاسْتِعَارَةِ الطَّريفةِ حِيْنَ ننقلُ الدَّلَالَةَ التَّشْكِيليَّةَ مِنْ ميدانِهَا الأصليِّ فِيْ الفُنُوْنِ التَّشْكِيليَّة إِلَى ميدانٍ آخرَ اصطلح عَلَى تسميته بالفُنُوْنِ التَّعبيريَّةِ، فعمليةُ التَّشْكِيلِ قائمةٌ فِيْ هذه الفُنُوْنِ، وَتِلْكَ عَلَى السَوَاءِ. وَكُلُّ مَا يُمْكِنُ استدراكه مِنَ اختلافٍ هو أَنَّ التَّشْكِيلَ فِيْ الفُنُوْنِ التَّشْكِيليَّةِ حِسِّيٌّ (senseous)، فِيْ حِيْن أَنَّهُ فِيْ الفُنُوْنِ التَّعبيريَّةِ وَرَاءَ الحِسِّيِّ (supra -senseous)"[2].

إنَّ الشَّاعِرَ والْفَنَّانَ، وإنْ اختلفَ المُسَمَّى وجهانِ لعملةٍ واحدةٍ، كُلٌّ يتلاعبُ بالْمَعَانِي بطريقته الخَاصَّةِ، مع وجودِ وشائجَ قويَّةٍ بَيْنَ ما ينتجانِ، وإنْ اختلفتِ الطَّرِيْقَةُ، فَهُمَا يقدِّمانِ لَوْحَةً فنيَّةً، وإنْ اختلفتِ الأداةُ، فالشَّاعِرُ والرَّسَّامُ يعتمدانِ عَلَى تَشْخِيْصِ الْجَمَادَاتِ، واسْتِنْطَاقِ الماديَّاتِ، أو أَنْسَنَةِ كُلِّ ما هو ساكنٌ مِنْ نَاحِيَةٍ، وتَجْسِيْمِ المَعْنَوِيَّاتِ، أو الأَشْيَاءِ، أو الصِّفَاتِ، وَمِنْ هُنَا "فَإِنَّ الشَّاعِرَ والرَّسَّامَ عِنْدَما يقومانِ بفعلِ المحاكاةِ – سَوَاء كَانَتْ لمعنويٍّ مجرَّدٍ، أو لماديٍّ محسوسٍ– فَإِنَّهما يخاطبانِ الاحساساتِ والمخيّلةَ، ويجسِّمانِ الأَشْيَاءَ، أو الأفكارَ فِيْ أشكالٍ محسوسةٍ يمكنُ رؤيتها، إمَّا عن طريق العَيْن الباصرة –كما في حالة الرَّسَّام–، وإمَّا عن طريقِ عينِ العقلِ أو المخيِّلةِ، – كَمَا فِيْ حالةِ الشَّاعِرِ–"[3].

---

[1] فرج الله، التَّشْكِيلِ اللوْنِيِّ للطِّباعة، (ص36).

[2] إسْمَاعِيْل، التَّفسير النَّفسيّ للأدب، (ص57).

[3] عصفور، الصُّورة الفنيَّة في التُّراث النَّقْديِّ والبلاغيِّ عند العرب، (ص285).

والتَّشْكِيلُ اللَّوْنيُّ لا يتفرَّدُ به الرَّسَّامُ دونَ الْأَدِيْبِ، فَكَمَا ترنو العَيْنُ إِلَى اللَّوْنِ، وتتأثَّرُ بِهِ، فَإِنَّ الأذنَ تعشقُ اللَّوْنَ عَنْ طريقِ السَّمَاعِ، وإِنْ لَمْ تَكُنْ وجهاً لوجهٍ مَعَ الأَلْوَانِ، ولله دَرُّ القائـلِ:

يَـا قَـوْمِ أُذُنِـي لِـبَعْضِ الحُـيِّ عَاشِـقَةٌ والأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ العَيْنِ أَحْيَانَـا[1].

وَمِنْ هُنَا "يبتعثُ اللَّوْنُ مِنْ خِلَالِ الرَّمزِ الصَّغيرِ الَّذِيْ يدلُّ بِهِ عليْهِ، وَهُوَ كلمةٌ ذاتُ عددٍ محدودٍ مِنَ المقاطعِ الصَّوْتيَّةِ، لا تحملُ أَيَّةَ خصيصةٍ من خَصَائِصِ اللَّوْنِ المذكورِ، وإِنْ كَانَتْ قادرةً عَلَى استحضارِهِ. هَذَا اللَّوْنُ تتلقَّاه الأذنُ فِيْ هَذِهِ الحالةِ كلمةً ذاتَ مقاطعَ معيَّنةٍ، أَوْ تتلقَّاهُ العَيْنُ شَكْلاً منقوشاً فِيْ حُرُوفٍ بذاتها، لكنَّهَا لا تنفعلُ بِهِ إلا عِنْدَمَا تعودُ بِهِ مِنْ صورتِهِ المجرَّدَةِ هَذِهِ إِلَى صورتِهِ الحسيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ"[2].

لقدِ احتفظَ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ فِيْ جعبتِهِم بموسوعةٍ مُتَنَوِّعَةٍ من الأَلْوَانِ ضَمَّنُوْهَا نُصُوْصَهُم المَقَامِيَّةَ ، فانْطَلَقُوا يبحرونَ في عَوَالِمِ الْجَمَالِ يَرْسُمُونَ بريشتِهِم أَجْمَلَ اللَّوْحَاتِ، و يسطِّرونَ بكلماتِهِم أَرْوَعَ المَشَاهِداتِ الَّتِيْ تجذبُ العَيْنَ فتقَّرُ بِهَا، وتخلبُ الأَلْبَابَ فتتفاعلُ مَعَهَا، وتبهرُ الأفئدةَ فتكتسبُ مَزِيْداً مِنَ السَّكينةِ، والثَّباتِ.

وَلَكَ أَنْ تُبْحِرَ مَعْ روائعِ أُدَبَاءِ المَقَامَةِ، ثُمَّ ترسو عَلَى شواطئِ كلماتِهِم الَّتِيْ تُزيِّنُ أعمالَهُم لتبصرَ روعةَ الرَّسْمِ، وتشاهدَ اللَّوْحَاتِ النَّابضةِ بالحَيَاْةِ بِمَا انتظمَ فِيْهَا مِنْ ألوانٍ يُوْجِبُ النَّظَرُ إِلَيْهَا رَاحَةَ النَّفْسِ، وَلَذَّةَ الْقَلْبِ، وَسُرُوْرَ الْعَقْلِ، وَنَشَاطَ الذِّهْنِ، وَتَوَفُّرَ الْقُوَى، وَانْبِسَاطَ الرُّوْحِ.

وَتَخْتَلِفُ دَلَالَةُ اللَّوْنِ بِاخْتِلَافِ مَوْقِعِهِ، فَقَدْ يَكُوْنُ سَلْبِيَّاً أَحْيَانَاً، أو إيجابيَّاً أَحْيَانَاً أُخْرَى، فَاللَّوْنُ الأَبْيَضُ عُرِفَ عَبْرَ العُصُوْرِ بِدَلَالَاتِهِ الْإِيْجَابِيَّةِ؛ دَلَالَاتِ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ عِنْدَ الْمَرْأَةِ، وَالسِّيَادَةِ، وَعِلْيَةِ الْقَوْمِ عِنْدَ الرَّجُلِ، وَمِنَ الدَّلَالَاتِ الْمُحَبَّبَةِ لَهَذَا اللَّوْنِ إِذَا كَانَ فِيْ الْأَسْنَانِ، يَقُوْلُ طَرَفَةُ بنُ الْعَبْدِ:

بَـادِنٌ، تَجْلُـو، إِذَا مَـا ابتَسَـمَتْ عَنْ شَتِيْتٍ، كَأَقَـاحِ الرَّمْلِ، غَـــرّ[3].

ويقتربُ البُحْتُرِيُّ كَثِيْراً مِنْ هَذَا الْمَعْنَى فِيْ قَوْلِهِ:

---

[1] ابن برد، دِيْوَان بشار بن برد، (ج191/4).

[2] إِسْمَاعِيْل، التَّفسير النَّفسيّ للأدب، (ص57).

[3] ابن العبد، دِيْوَان طرفة بن العبد، (ص41). البادن: الممتلئة الجسد، الشتيت: الأسنان المتباعدة، الغرّ: جمع الأغرّ، بمعنى الأبيض.

كَأَنَّمَـــا يَبْسِـــمُ عَـــنْ لُؤْلُـــؤٍ مُنَظَّـــمٍ أَوْ بَـــرَدٍ أَوْ أَقَـــاحْ [1]

وَقَدْ مَنَحَ التَّشْكِيلُ اللَّوْنيُّ البياضَ دلالةً زمنيةً فِيْ تَحْدِيْدِ وقتِ الإمساكِ فِيْ رمضانَ فجراً فِيْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ [سورة البقرة: 187].

أمَّا الأسودُ فهوَ لَوْنٌ مُحبَّبٌ للنَّفْسِ حِيْنَاً، وبغيضٌ أَحْيَانَاً أُخْرَى؛ وَذَلِكَ حَسَبَ مُوْضِعِهِ، وَسِيَاقِهِ الَّذِيْ يَقَعُ فِيْهِ؛ فَهُوَ مُحبَّبٌ فِيْ الشَّعْرِ، والْعَيْنِ، واللِّثَّةِ، والشِّفَاهِ، والْخَالِ، وَمِنْ رَوَائِعِ مَا قِيْلَ فِيْ وَصْفِ الْعَيْنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الْوَاقِعة: 22-23].

وَمِنَ النَّظْمِ قَوْلُ جَرِيْرٍ:

إنَّ العُيُونَ الَّتِيْ فِيْ طَرْفِهَا حَوَرٌ، قَتَلْنَنَـا، ثُـمَّ لَـمْ يُحْيِـيْنَ قَتْلَانَـا[2].

وَمِنْ رَوَائِع استخدامِ الْأُدَبَاءِ اللَّوْنَ الأسودَ، التَّنَقُّلُ بَيْنَ مدلولاتِهِ مِنْ مَعْنَىً إِلَى آخَرَ، والْبَرَاعَةُ فِيْ استخدامِ مُفْرَدَاتِهِ مِنْ أسلوبٍ إِلَى آخَرَ، فتارةً يطلقُ الأَسْوَد، وأُخْرَى يستعملُ الدُّجَى، وثالثةً يرسِمُ المآتمَ والحِدَادَ، وَلَا أكونُ مُبَالِغَاً إِنْ قُلْتُ إنَّ اللَّوْنَ الأسودَ بدرجاتِهِ، ومُفْرَدَاتِهِ غَزَا الْأَعْمَالَ الأَدَبيَّةَ شِعْراً وَنَثْرَاً، وامتدَّ حَتَّى سيطرَ عَلَى الْأَغْرَاضِ الشِّعْرِيَّةِ، والفُنُوْنِ النَّثْرِيَّةِ. والمَقَامَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِيْ اكْتَسَتْ أَحْيَانَاً بالأرديةِ السَّوْدَاءِ، أو ثيابِ الْحِدَادِ الَّتِيْ تُبْرِزُ الْجَمَالَ الأخَّاذَ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَالبَـدْرُ فِـيْ أُفْـقِ السَّـمَاءِ كَغَـادَةٍ بَيْضَـاءَ لاحَتْ فِـيْ ثِيَـابٍ حِدَادْ[3]

بَرَعَ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ فِيْ تَوْظِيْفِ اللَّوْنِ الأَسودِ خَيْرَ تَوْظِيْفٍ لَمَّا وَصَفُوا اللَّيْلَ، وَجَلَسَاتِ السَّمَرِ، فَأَكْسَبُوا أَعْمَالَهُم مَزِيْدَاً مِنَ السَّكينةِ، والْهُدُوْءِ أَحْيَانَاً، كَمَا رَسَمُوا فيهَا مَشَاهِدَ الخوفِ، والرُّعْبِ أَحْيَانَاً أُخْرَى، وزادَ الأمر جَمَالاً لَمَّا عَقَدُوا مُقَارَنَةً بَيْنَ اللَّيْلِ والنَّهَارِ عَلَى سَبِيْلِ المُحَاورةِ بينهما، فَهَذَا مُحَمَّد المُبَارَك يُقدِّمُ فَوَاصِلَ عَذْبَةً مِنَ الْجَمَالِ فِيْ هَذَا الْمَوضُوْعِ، يَقُوْلُ: "فابتدرَ إِلَيْهِ اللَّيْلُ، وأجلبَ عليه بالرَّجْلِ، والْخَيْلِ، وَامْتَطَى جَوَادَهُ الْأَدْهَمَ، واعتمَّ بعمامةٍ سوداءَ، وتلثَّمَ، ثُمَّ نَشَرَ فِيْ الأفقِ عمائِمَهُ السُّوْدِ، فَأَسَرَ بسطوَتِهِ الأُسُودَ. فاسْوَدَّ وَجْهُ اللَّيْلِ، وَانْقَلَبَ بِحَشَفٍ، وسوءِ كَيْلٍ،

---

[1] البحتريّ، دِيْوَان البحتريّ، (ج176/3)

[2] جرير، دِيْوَان جرير، (ص492).

[3] لم أعثر عَلَى قائل البيت.

وَنَدِمَ عَلَى مناضلةِ النَّهَارِ، ندامَةَ الْفَرَزْدَقِ حِيْنَ فارقَ النَّوَّارَ، وَلَمَّا سُقِطَ فِيْ يَدِهِ، ورزئ فِيْ عَدَدِهِ، وعُدَدِهِ؛ تَرَدَّى بالسَّوَادِ، وَلَبِسَ ثيابَ الحِدَادِ، ثُمَّ لَاحَ هِلَالُهُ للعينِ، كمنجلٍ صِيْغَ مِنْ لُجَيْنٍ"[1].

وَلَعَلَّ الْبَرَاعَةَ تظهرُ هُنَا فِيْ تصويرِ الْأَدِيْبِ شدَّةَ الظُّلمةِ الَّتِيْ ارتدَتْ أثوابَ السَّوَادِ، فالدُّجَى يحملُ فِيْ ثَنَايَاه الظَّلامَ الدَّامِسَ، وقدْ زادتْ شدَّةُ الظُّلمةِ بتأثيرِ اللَّيْلِ، والسَّوَادِ، وَكَأَنَّه أضافَ جَمَالاً إِلَى جَمَالٍ؛ ليُؤَكِّدَ لَنَا دلالةَ الظُّلَمِ مِنْ خِلَالِ الإيحاءاتِ الَّتِيْ رسمتها تِلْكَ الكَلِمَاتُ، كَذَلِكَ صَوَّرَ الْأَدِيْبُ سيطرةَ السَّوَادِ، وعمومَ الظَّلامِ بأكثرَ مِنْ أداةٍ، وبمختلفِ الْأَشْكَالِ انطلاقاً مِنْ دَال (اللَّيْل) وَمَا تحملُهُ الكلمةُ، ثُمَّ انتقى لَوْنَاً آخَرَ، وَهُوَ (الأَدْهَم)؛ ليكملَ مشهدَ السَّوَادِ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ، بل بدأ يجمع مَشَاهِد مُتَنَوِّعَة تزخر بالرَّوْعَة في (عمائمه السُّود) مِنْ نَاحِيَةٍ، وسعة الانتشار في (نشر في الأفق) مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يتوقَّفِ الأمرُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَكَأَنَّهُ نشأتْ بين الْأَدِيْبِ والْمُفْرَدَاتِ قصَّةُ عِشْقٍ يَلُفُّهَا السَّوَادُ، ويكسوها الظَّلامُ صُحْبَةَ (تردَّى بالسَّوَاد، ولبس ثياب الحِدَاد) مَعْ مَا فِيْ الْمُفْرَدَاتِ مِنْ سيطرةِ السَّوَادِ، وتلاحُمِ أجواءِ الحزنِ مَعَ ثِيَابِ الحِدَادِ.

وَيُسَافِرُ مُحَمَّد المُبَارَك بعيداً صُحْبَةَ باقةٍ مُتَنَوِّعَةٍ مِنَ الأَلْوَانِ الَّتِيْ تعشقُهَا العُيُوْنُ، وَالَّتِيْ رَسَمَتْهَا كلمةُ (الخيل)، حَيْثُ عدَّدَ بعضُ علماءِ الْعَرَبِيَّةِ ألوانَهَا، وأوصَلَهَا إِلَى اثني عشرَ لوناً، إضافةً إِلَى ألوانٍ أُخْرَى تنشأُ من تمازجِ الأَلْوَانِ، وتداخلِهَا، وَمِنْهُم مَنْ ذَكَرَ أَنَّهَا تزيدُ عَلَى ثلاثينَ لوناً مِنْهَا الأدْهمُ، والْأَخْضَرُ، والأحوى، والكُميتُ، والأشقرُ، والأَصْفَرُ، والوُرْدُ، والأشهبُ، والأبرشُ، والمُلَّمعُ، والمولَّعُ، والأشيمُ وغيرُهَا، ثُمَّ تحدَّثَ أبو عبيدةَ عَنْ كُلِّ لَوْنٍ مِنْهَا مميِّزاً ما يَدُلُّ عليه المَدَى اللَّوْنيُّ بتومجاتِهِ الدَّقيقةِ[2].

ويقتحمُ مُحَمَّد المُبَارَك ثانيةً بواباتِ الْجَمَالِ الْمُوْصَدَةَ، ويفتحُ أبوابَ الْحُسْنِ المُغَلَّقَةَ عَبْرَ بوابَةِ الإِبْدَاعِ فِيْ رائِعَتِهِ (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)؛ ليقدِّمَ لَنَا أَرْوَعَ اللَّوْحَاتِ، وأجملَ التَّشْكِيلاتِ صُحْبَةَ مزيجٍ مِنَ الأَلْوَانِ هَيْمَنَ جمالُهَا عَلَى السَّامِعِيْنَ، وَخَلَبَ حُسْنُهَا ألبابَ الْقَارِئِينَ، وَسَدَّ بهاؤُهَا رَمَقَ المُتَعَطِّشِيْنَ، فَهَا هُوَ يَتَرَنَّمُ قَائِلَاً: "وحَيْثُ إنَّ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ يُذْكَرُ،

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص136– ص138).

[2] يُنْظَر: ابن المثنى، كتاب الخيل، (ص103–108). يُنْظَر: خليفة، عبد الكريم، الأَلْوَان في معجم الْعَرَبِيَّة، مجمع اللغة الْعَرَبِيَّة الأردني، الأردن، العدد 33، 1ديسمبر 1987م. الأبرش: نُكَتٌ صِغَارٌ في شعر الفرس تُخَالِفُ سَائِرَ لَوْنِه، الملمع: فِي جَسَدِهِ بُقَعٌ تُخَالِفُ سَائِرَ لَوْنِهِ، الكُمَيْتُ: ما كان لونه بين الأَسود والأَحمر، وهو تصغير أَكمت ترخيماً، الأحوى: ما شاب حمرته أو خضرته سواد، الأدهم: الأسود. وتغلب الصفة عَلَى الخيل الدُّهم، الأشيم: الذي به خال أسود، الأشهب مزيج من اللونيّن الأبيض والأسود بدرجات متناسبة، المولع: وهو ما ظهرت عَلَى لونه الأشهب بقع مستطيلة ذات لون مغاير للونه الأشهب، الوُرْد: الحمرة الخالصة في الخيل.

والاستطرادَ لأدنى مناسبةٍ لا يُنكَرُ، فَدُوْنَكَ نُبْذَةً فِيْ فضلِ فصلِ الرَّبيعِ، منمنمة البرود بحسنِ وشيِ الرَّبيعِ، إِذْ لا يَخْفَى أَنَّهُ شامةٌ بَيْنَ الفُصُوْلِ، وَقَدْ عُقِدَتْ لنشرِ مزاياهُ أبدعُ الفُصُوْلِ. وَجْهُهُ وسيمٌ، وأنفاسُهُ نسيمٌ، رائقُ الدِّيباجةِ، رقيقُ الزُّجاجةِ، غصنُ شبابِهِ رطيبٌ، وبردُ صباه قشيبٌ، معتدلُ المزاجِ، متَّسِعُ الفجاجِ، عاطرُ الأرجاءِ فِيْ كُلِّ حِيْنٍ، بفنونِ الْأَزْهَارِ والرَّياحينِ، أوقاتُهُ شبيهةٌ بأوقاتِ الجنانِ، تبتهجُ بِهَا النَّفْسُ، وينشرحُ الجَنَانُ، يتلو لسانُ حالِهِ بصوتٍ رخيمٍ: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الْوَاقِعة:٨٩]. فَهُوَ ذُو اليدِ البيضاءِ، والعيشةِ الخضراءِ، والموارِدِ الصَّافيةِ، والمطارفِ الضَّافيةِ... فَكَأَنَّهُ والغصنَ يَرَاعٌ وَرِق، ويزري زَهره بالزُّهْرِ، وَيُغْرِي بالبيضِ والصُّفْرِ، فَمَا الدُّرُّ المحبوكُ، وما التِّبرُ المسبوكُ؟...الوُرودُ تدعو إِلَى حسنِ الوُرُوْدِ، وَقَدْ بدتْ كواكِبُهَا الدُّرِيَّةُ فِيْ مطالعِ السُّعُودِ"[1].

لَكَ أَنْ تتحرَّكَ بَيْنَ مُفْرَدَاتِ الشَّيخِ مُحمَّد المُبَارَك لتصدرَ حُكْمَاً دقيقاً عَلَى براعَتِهِ فِيْ تشكيلِ اللَّوْنِ، لَا لمجردِ الاستخدامِ، لَكِنْ لِلْإِبْدَاعِ فِيْ رَسْمِ صورٍ تزدانُ بالرَّوْعَةِ والْبَهَاءِ حَيْثُ اسْتَخْدَمَ الذَّهْبَ، وَمَا فِيْهِ مِنْ لَمَعَانٍ مَعَ روعةِ استعمالِ الْمُفْرَدَاتِ (الرَّبيع، الدِّيباجة، الْأَزْهَار، والرَّياحين) الَّذِيْ يوحي بثباتِ الْجَمَالِ عَلَى حالِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وامتدادِهِ ليشملَ عُمُوْمَ المكانِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَزَيَّنَ هَذِهِ اللَّوْحَةَ قَوْلُهُ: (فكأنَّه والغصن يَرَاعٌ وَرِق، ويزري زَهره بالزُّهرِ، وَيُغْرِي بالبيضِ، والصُّفْرِ)، وَمَا فِيْ العبارةِ مِنْ سيطرةِ الْجَمَالِ، والأَلْوَانِ الزَّاهيةِ عَلَى المَشَاهِدِ بدلالةِ الْفِعْلَيْنِ الْمُضَارِعينِ (يبتهج، ينشرح)، مع ما في ثَنَايَا الْفِعْلَيْنِ من تجددٍ، واستمرارٍ، واستحضارٍ للصُّورة المضيئة الَّتِيْ ذيَّلَهَا بِعَلَاقةٍ حَمِيْمَةٍ تربطه مع عَنَاْصِر الطَّبِيْعَة أجبرته عَلَى نسيان حزنه، وحذفه البؤس من قاموس عيشه.

يبدأ ابن الأَلُوسِيّ، والبداية تلقي عَلَى المَشْهَد بظلال الإِبْدَاع اللَّوْنيِّ، فيَنْطَلِقُ بكلماته الهادئة الَّتِيْ ما فتئت تصفع التَّوَتُّر، وتلطم السُّرْعَة، ومن وسط ركام السُّكون المُخَيِّم الَّذِيْ يفرضه ظلام اللَّيْل، وهدوء الكواكب، ينتقل الْأَدِيْب من وسط كلِّ هَذَا الهدوء، إِلَى الْحَرَكَة الدَّائبة عَلَى وقع عباراتٍ تمنح هذه الْحَرَكَة مَزِيْدَاً من الْجَمَال، ومُفْرَدَات تحمل ألوان الظَّلام، وما فيه من سكونٍ، فَيَرْسِمُ أَمَامَنَا صورةً قاتمةً، تسيطرُ عَلَى ألوانِهَا خطوطَ السَّوَادِ بدرجاتٍ متفاوتةٍ، يَقُوْلُ: "فبتُّ بِليلةٍ بَلِيلة الأردانِ، مِنْ فيضٍ وابلِ الأجفانِ، قد فَلَقَ وسادِي، وتدثَّرَ بدثارِ الهَمِّ مِهادِي، أنتظرُ أن يثيرَ بازي الصُّبحِ غرابَ اللَّيْل، لَعَلِّي أقضي ما فَاتَ فتطيرُ عنقاءُ مغربٍ بنسرِ مَا أنا فِيْهِ من الويلِ، ودجنةِ اللَّيْلِ إلا ظلاماً، وأنفُ الفجرِ لا ينشقُّ، وإنْ انشقَّ بطنُهُ إِلَّا

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء). (ص100، ص101).

رغاماً، دليل يَقُوْلُ النَّاسُ فِيْ ظلماتِهِ، حَتَّى إذا جعلتْ تصدحُ عَلَى أفنانِ أشعَّةِ الفجرِ الرَّحيمِ بلابلُ الأسحارِ، ورعبت سويد إحجاجِ اللَّيْلِ البهيمِ مِنْ غزالةِ النَّهَارِ"[1].

إنَّ الإبْدَاعَ فنونٌ وألوانٌ، تَسْمُو وَتَسْمُو فتَشُقُّ طريقَهَا نَحْوَ القمَّةِ بريشةِ فنانٍ بارعٍ، أَوْ قَلَمِ شاعرٍ مبدعٍ، صُحْبَةَ أَرْوَعِ الكَلِمَاتِ، وأجملِ العباراتِ، وَتَتَرَاءَى اللَّوْحَاتُ أمامَ الْقَارِئِ المتشوِّقِ لِلجَمَالِ، المتلهِّفِ للجلالِ، فَمِنْ لَوْحَةِ (فبتُّ بليلةٍ بَلِيلة الأردان) إِلَى لَوْحَةِ (أنتظر أن يثير بازي الصُّبح غراب اللَّيْل)، تَلِيْهَا لَوْحَةُ (ما أنا فيه من الويل، ودجنة اللَّيْل إلا ظلاماً)، وَفِيْ كُلِّ لَوْحَةٍ أحداثُ قصةِ رعبٍ لا تنتهي أحداثُهَا، فَفَي أولاهما انصهرَ اللَّيْلُ فِيْ بوتقةِ الفعلِ الْمَاضِي (فبتُّ) مَعْ مَا فِيْهِ مِنْ تحقيقٍ، وسطوةٍ للأرقِ، والسَّهَرِ، وفي ثانيتهما صِرَاعٌ مَرِيْرٌ بَيْنَ الصُّبحِ واللَّيْلِ، الغلبةُ فيهِ للظَّلامِ الَّذِيْ قَهَرَ ضياءَ الصَّباحِ، وَفِيْ ثالثتهما عِشْقُ اللَّيْلِ وَدُجَاهُ، والظَّلامِ وَسَجَاهُ؛ لتكتملَ مَشَاهِدَ اللَّوْحَةِ القاتمةِ، واللَّيَالِي الدَّاكنةِ الأَلْوَانِ حروفٌ تترى؛ ليكتملَ بَيْنَ اللَّيْلِ والنَّهَارِ مشهدُ السَّوَادِ فِيْ اللَّيْلةِ الظَّلماءِ، وتمطرُ السَّمَاءُ الظَّلامَ، وتندفعُ اللَّيَالِي صُحْبَةَ السَّوَادِ، وترسِمُ اللَّوْحَاتُ مَشْهَدَ النِّهايةِ البائسِ الحزينِ.

وَإِذَا عُدْنَا إِلَى اللَّوْحَةِ السَّابِقَة، فَإِنَّنَا نَجِدُ أنَّ التَّمازجَ اللَّوْنيَّ زَادَهَا تأثيراً، وَبُعْدَاً جماليَّاً، ودلاليَّاً، فَقَدْ تقاربتْ توزيعاتُ الأَلْوَانِ فِيْ النَّصِّ، فاللَّيْلُ والظَّلامُ متلازمانِ تلازُمِ الخليلينِ، والدُّجَى والسَّوَاد مجتمعانِ اجتماعِ الشَّريكينِ، وتردُّدُ اللَّوْنِ الأسودِ فِيْ هيئةٍ أُخْرَى بَدَا أكثرَ وضوحاً عِنْدَما اقترنَ بِضِيَاءِ الصَّباحِ، وَصَبَاحِ الضِّيَاءِ.

ويُعَدُّ اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ مِنْ أوائلِ الأَلْوَانِ الَّتِيْ عرفها الْإِنْسَانُ فِيْ الطَّبِيْعَةِ، وَقَدْ تداولَ كَثِيْرٌ مِنَ الكُتَّابِ دلالاتِهِ، فَهُوَ مِنْ وُجْهَةِ نظرِهِم "مِنَ الأَلْوَانِ السَّاخنةِ المستمدَّةِ مِنْ وَهْجِ الشَّمْسِ، واشتعالِ النَّارِ، والحرارةِ الشَّديدةِ، وَهُوَ مِنْ أطولِ الموجاتِ الصَّوْتيَّةِ، وأكثرها تضارباً، فَهُو لَوْنُ البهجةِ، والحزنِ، وَهُوَ لَوْنُ العنفِ، وَلَوْنُ المَرَحِ"[2].

أَمَّا أكثرُ سِمَاتِ هَذَا اللَّوْنِ فَهُوَ ارتباطُهُ بالدَّمِ، وكثرةِ القتلى، والجراحاتِ الدَّاميةِ. وَقَدْ تخرجُ دلالتُهُ عَنْ هَذَا الإطارِ الدَّمَوِيِّ، وَمِنْ هُنَا أَطْلَق عَبْد الله فِكْرِيّ العَنَانَ لريشَتِهِ للتَّلاعُبِ باللَّوْنِ الْأَحْمَرِ؛ لِتَرْسمَ صورةَ التَّعَبِ، والكَدِّ مِنْ نَاحِيَةٍ، وصورةَ التَّمَيُّزِ والْغَيْظِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، يَقُوْلُ: "ثُمَّ رأيتُ فِيْ طَرَفٍ آخرَ شخصاً نحيلَ البدنِ، طويلَ الحزنِ، أصفرَ اللَّوْنِ، أحمرَ العَيْنِ،

---

[1] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (ص64، ص65).

[2] عمر، اللغة واللون، (ص111).

أضنَاهُ الهَمُّ، وأفناه السّقمُ والغَمُّ، بِإِحْدَى يديْهِ قَدَحٌ فِيْهِ سُمٌّ نَاقِعٌ، وَفِيْ اليدِ الأُخْرَى مِنْهُ سيفٌ قاطعٌ، وَهُوَ لا ينفكُّ يسكبُ السُّمَّ عَلَى بَدَنِهِ، ورأْسِهِ، ويجرحُ بِذَلِكَ السَّيفِ الباترِ أعضاءَ نفْسِهِ"[1].

لَقَدْ بَرَعَ عَبْد الله فِكْرِيّ فِيْ رَسْمِ المَشَاهِدِ الَّتِيْ اكتستْ باللَّوْنِ الْأَحْمَرِ بذكرِهِ مباشرة في (أحمر العَيْن) مَعْ مَا يَحْمِلُهُ المَشْهَدُ مِن الهمِّ، والسّقمِ، والغمِّ حَمَلَتْهُ الجملُ (أضناه الهمُّ، وأفناه السّقم والغمُّ)، أو تقديْمِهِ بِطَرِيْقَةٍ غيرِ مباشرةٍ، لكنَّهَا تحملُ دلالةً أَقْوَى مِنَ التَّصْرِيْحِ، ويبدو هَذَا في (سيف قاطع)، و(السَّيف الباتر)، وَكَأَنِّي بفكري قَدْ قدَّمَ لوحةَ جمالٍ لا متناهية، فَلَكَ أنْ تتصوَّرَ الْأَحْمَرَ مرَّةً تلو المرَّةِ، أولاها مع (سيف)، وثانيها مع (قاطع)، وثالثها مع (الباتر)، فيخيَّل للقارئ شَلَّالات من الدِّماء تتحدر أَمَامَهُ، يزيد من انحدارها براعته في استخدام الفعل الْمُضَارِع (يجرح) مع ما فيه من تجدُّدٍ للنَّزف، واستمرار للألم، والأوجاع. الَّتِيْ يضاعفها قوله: (نحيل البدن، طويل الحزن، أصفر اللَّوْن)، ويزيد من قسوتها واستمرارها قوله: (وهو لا ينفكُّ يسكب السُّم عَلَى بدنه، ورأسه، ويجرح بِذَلِكَ السَّيف الباتر أعضاء نفسه).

وللألوانِ نَصِيْبٌ من روائعِ ابنِ الأَلُوسِيّ، فَقَدْ خَطَّ بها مَشَاهِدَ الطَّبِيْعَة الْجَمِيْلَة، وعَنَاْصِرها المُتَنَوِّعَة، يَقُوْلُ: "ثم صرنا إِلَى الدَّار، والشَّيْخ أَمَامَنَا يتبختر بطيلسان الوقار، حتى إذا حَلَلْنَا بعضَ غُرُفِهَا، قدَّمتُ لهم نزلاً من ألطف الفواكه وأطرفها، عنباً كمخازن البلُّور، وظروف النُّور، وأوعية السُّرور، ورطباً كأنَّه شهادةٌ بالعقيق مُقنَّعةٌ، وبالعقيان مُقمَّعةٌ، وَرُمَانَاً كأنَّه صُررٌ ماؤها ياقوتٌ أحمرُ، وسفرجلاً يجمع طيباً، ومنظراً حسناً عجيباً، له زغب كأنَّه زبير الخزِّ الأغبر عَلَى الدِّيباجِ الأَصْفَرِ، وتفاحاً يجمع وصف العاشق الوَجِل، والمعشوق الخَجِل، لَهُ نسيمُ العنبرِ، وَطَعْمُ السُّكَّرِ، ثُمَّ قُدِّمَتْ مائدةٌ كدرارةِ البدرِ اللَّطِيْفَةِ، مَحْفُوْفَةٌ بكلِّ ظريفةٍ، عليها أرغفةٌ تصفع قفا الجوع، وتشير بأكفِّها للجالسين بالشروع"[2].

لَقَدْ رَسَمَ ابن الأَلُوسِيّ في الأَسْطُر السَّابِقَة بكلماته لَوْحَةً بَارِعَةً تبدو فيها خطوط الأنس، وحروف الفرح الَّتِيْ حرَّكت الْجَمَادَات بما تحويه من مؤثراتٍ شديدةٍ، فمن مشهدٍ إِلَى مشهدٍ تتطاير فراشاتُ الْأَمَلِ، ومن لونٍ إِلَى لونٍ تتهادى خطواتُ السَّعادةِ، صُحْبَةَ باقةٍ مُتَنَوِّعَةٍ من الأَلْوَاْن ضمن إطارٍ جماليٍّ لامتناهي تزيِّنه الفواكه، ولذيذ العنب والرُّمَّان، ويحلو السَّمر مع الرُّطَب والتُّفَّاح، ثم أضاف جَمَالاً للموائد الَّتِيْ تبدو كدرارة البدر اللطيفة؛ ليصور كمال مَشَاهِد

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص285).

[2] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ (زَجْر الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ)، (ص117، ص 118). العقيان: ذَهَبٌ متكاثِفٌ في مناجمه، خالصٌ مما يختلِط به من الرِّمال والحجارة، العقيق: حجرٌ كريمٌ أحمر تُعمل منه الفصوصُ، يُوجد باليمن وسواحل البحر المتوسط، الخز: ما يُنْسَجُ من صوفٍ وإِبْرَيْسَمٍ.

الحسن المتواصل، وَيَرْسِمُ مَلَامِحَ السَّعادةِ والْأَمَلِ المتجدِّدِ، ثُمَّ يتبعها، وَيَفْتَحُ بَابَ الْأَمَلِ والتَّفَاؤُلِ بنسائِمِ العنبر الذَّكيَّة، وأَصْوَات الطُّيور الشَّديَّة. وَلَعَلَّ جمع كلمة (فواكه) ينقلنا إِلَى الكثرة، وهَذَا وصف مظهر النَّعيم اللامتناهي، وإثارة الْمُتْعَة الْجَمَاليَّة في هذه الكثرة الَّتِيْ تجعل الذِّهن سارحاً في كثرة الأَلْوَاْن، والطُّعوم، والْأَشْكَال. وَفَوْقَ هَذَا وَذَاكَ ينقلُ المتلقِّي ليعيشَ اللحْظَةَ، وَكَأَنَّ المَشْهَدَ ماثلٌ أَمَامَهُ بتفاصيله كَافَّةً.

إنَّ اللَّوْحَةَ الَّتِيْ شكَّلها ابن الأَلُوسِيّ في نصِّه المقاميِّ تقدِّم دليلاً حيَّاً عَلَى قدرته سُبْحَانَهُ وتَعَالَى؛ لِأَنَّ التَّشْكِيلَ اللَّوْنيَّ لِتَعَدُّدِ أَلْوَانِ الثِّمَارِ اللَّامُتَنَاهَي يَرْسِمُ صُوْرَةً زَاهِيَةً بَدِيْعَةً لِلأَرْضِ الَّتِيْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ إِلَيْهَا الْمَاءَ الْوَاحِدَ، وَرُبَّمَا فِيْ وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَبِيْئَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَكِنَّ الْأَرْضَ تُنْبِتُ أَشْجَاراً ذَاتَ ثِمَارٍ مُخْتَلِفَةِ الأَلْوَاْنِ وَالطُّعُومِ؛ وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ تُقدِّمُ "تَشْكِيْلاً لَوْنِيَّاً يُوَفِّرُ أَمَامَ الْبَشَرِيَّةِ نِعَماً كَبِيْرةً، تَتَنَاغَمُ بِالتَّمَتُّعِ بِهَا أَكْثَرُ مِنْ حَاسَّةٍ، فَالنَّظَرَ يُنْعِمُ التَّشْكِيل اللَّوْنيّ اللَّامَحْدُوْد، وَيُثِيْرُ المَشْهَدَ مُتْعَةً جَمَالِيَّةً تُشَارِكُ حَاسَّةَ الذَّوقَ فِيْهَا، حِيْن يتخيَّل طعوم هذه الثَّمرات"[1].

لقد مثَّلَتِ الْمَقْطُوْعَةُ السَّابِقَة أنموذجاً حيَّاً للامتداد اللَّوْنيِّ في كلمة (نور)، فلك أنْ تتخيَّل الضُّوء المنتشر الَّذِيْ يعين عَلَى الإبصار، أو الأجسام النيِّرة كالْقَمَرينِ والنُّجوم، أو النُّور الإلهيِّ، وقد ذُكر النُّور ثلاثاً وثلاثين مرةً، في ثلاثٍ وثلاثين آيةً في الْقُرْآن الْكَرِيْم، وبه سُميَّت سورة من سور الْقُرْآن الْكَرِيْم (النُّور). أضف إِلَىْ ذَلِكَ ما يحمله النُّور من تنوُّع في الصُّور، وامتداد في الأَلْوَاْن.

لا يقتصرُ التَّشْكِيلُ اللَّوْنيُّ عَلَى الأَلْوَاْن الْمُبَاشِرَة أو غير الْمُبَاشِرَة، فقد يتنقَّلُ الْأَدِيْبُ بين ألفاظٍ تَنْأَى عن هَذَا التَّخْصِيص، فهُنَاْكَ ألفاظٌ تحمل دَلَالَاْتُهَا إِضَاءَاتٍ مُتَعَدِّدَةَ الأَلْوَاْن، تسهم في التَّشْكِيلِ اللَّوْنيِّ في الأَدَبِ، وفي رسم اللَّوْحَات الْجَمَاليَّة البَدِيْعة الَّتِيْ تلفت الانتباه، والْأَحَاسِيْس، وتنقل الذِّهن إِلَى صورٍ من الْجَمَال الباهر، والْبَهَاء اللامتناهي، فلا يملك المُتَلَقِّي إلا الإقرار بهَذَا الْجَمَال، وهذه الْأَلْفَاظ "تحمل شُحناتٍ جماليَّةً يسرح فيها الْخَيَال قَدْرَ ما تستطيع الذَّاكرةُ تخيُّلَهُ من أخيلةٍ ورسومٍ، دُوْنَ أنْ تتحدَّدَ بمشهدٍ معيَّنٍ من مَشَاهِدِ الخَلْقِ، وقد تحملُ هذه الْأَلْفَاظُ مَعَانِي تتداعى فِيْ الذِّهْنِ حِيْنَ تصوِّرُ مَشْهَدَاً يثير الرَّغبةَ في الثَّوابِ، أو يثير الخوفَ، والرُّعْبَ"[2].

---

[1] الصَّفَّار، جَمَاليَّة التَّشْكِيلِ اللوْنيِّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص216).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص79.

وَمِنْ هُنَا يَرْسِمُ فارسُ (المَقَامَة الفكريَّة)، عَبْدُ الله فِكْرِيّ مَجْمُوْعَةً من المَشَاهِدِ الحيَّةِ والتَّشْكِيلاتِ النَّوعيَّةِ دُوْنَ العودةِ إِلَى الأَلْوَانِ الصَّرِيحَةِ، بَيْدَ أنَّ مُفْرَدَاتِهِ تسَافَرُ بعيداً لتلتقطَ كُلَّ الأَلْوَانِ، يَقُوْلُ: "قَالَ فبقيتُ متحيِّراً مِنْ عبارتِهِ، ثمَّ نظرتُ إِلَى موضعِ إشارتِهِ، فَإِذَا سَاحِرَةٌ شرِّيرةٌ، خبيثةٌ قصيرةٌ، عَلَى وجهها نقاب المكر، وفي يدها عصا السِّحر، تقذفها إِلَى جوِّ السَّمَاء، ثمَّ تتلقَّفها مِنَ الهواءِ، وهي تتلوَّنُ تلوُّنَ الحرباءِ، وتتلاعبُ بجميعِ الأَشْيَاءِ، وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ غريبةُ الْأَشْكَالِ، فِيْهَا مِنْ كُلِّ شكلٍ، ولونٍ مثالٌ، ورأيتُهَا تَتَبَاهَى بزينَتِهَا، ووشيِهَا، وعليها جَلَاجِلُ كَثِيْرَةٌ تصطحبُ عِنْدَ مشيِهَا"[1].

إنَّ الْمُفْرَدَاتِ الَّتِيْ وظَّفَهَا عَبْد الله فِكْرِيّ فِيْ مَقَامَتِهِ لَمْ تَحْمِلْ صَرَاحَةَ الأَلْوَانِ، بَيْدَ أنَّها عبَّرَتْ بِطَرِيْقَةٍ تجاوزتْ حُدُوْدَ مَا اشتهرَ مِنْ تِلْكَ الأَلْوَانِ، فرُبَّ لَفْظَةٍ تتَّسعُ حُرُوفُهَا لتستوعبَ كَمَّاً هَائِلَاً مِنَ الأَلْوَانِ، وأُخْرَى تفتحُ البابَ واسعاً للمتلقِّي؛ ليتخيَّلَ مَا شَاءَ مِنْهَا، فإطلاقُ المفردةِ الواحدةِ قَدْ تقومُ مقامَ لَوْحَةٍ كَامِلَةٍ متباينةِ الْأَشْكَالِ، مُتَنَوِّعَة الأَلْوَانِ، وهَذَا مَا يَرْسِمُهُ قَوْلُ فكريّ: (تتلوَّن تلوُّن الحرباء)، وَقَوْلُهُ: (وعليها ثيابٌ غريبةُ الْأَشْكَالِ، فِيْهَا مِنْ كُلِّ شكلٍ، ولونٍ مِثَالٌ)، ثُمَّ يكملُ مشهدَ الأَلْوَانِ المتباينةِ فِيْ قَوْلِهِ: (تَتَبَاهَى بزينتها، ووشيها) مَعْ مَا تَحْمِلُهُ الْمُفْرَدَاتُ الَّتِيْ صاحبَتْ تقلُّبَهَا الْأَفْعَالُ الْمُضَارِعةُ (تتلوَّن، تتلاعب، تتباهى) الَّتِيْ فتحتْ أَمَامَ المُتَلَقِّي أَبْوَابَاً واسعةً؛ كَيْ يستحضرَ دَوْمَاً مَا شَاءَ مِنْ صُوَرٍ بَارِعَةِ الأَلْوَانِ. فلفظةُ (زينتها) تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا عَدَدَاً لَاْ يُحْصَىْ مِنَ الأَلْوَانِ، فَهُوَ يَرْسِمُ فِيْ الذِّهْنِ صُوْرَةً تشكيليَّةً متعددةَ المَظَاهِرِ، والأَلْوَانِ، وَقَدْ ورد لفظُ الزِّينَةِ ومشتقاتُهُ أربعاً وأربعين مرةً في أربعين آيةً بدلالاتِهِ المَادِيَّةِ أَو الْمَعْنَوِيَّةِ، جُلُّهَا حَمَلَ مَعَانِي الْحُسْنِ والْجَمَالِ، أو اللَّهْوِ واللَّعِبِ[2].

وأَحْيَانَاً يَغْدُو اللَّوْنُ كلماتٍ مُمْتِعَةً، ومَعَانِي مُؤْثِرَةً، ومُوْسِيْقَا عَذْبَةً، وألحاناً يتركُ صَدَاهَا أثراً وَاضِحَاً، وَحِيْنَاً آخَرَ يحملُ اللَّوْنُ ألفَاظَاً مُنْتَقَاةً، وَصُوَرَاً بليغةً، وَمَحَاسِنَ بديعةً تُحِيْلُ الْأَرْضَ الْيَبَابَ إِلَى جَنَّاتٍ خَضْرَاءَ، وحَدَائِقَ غَنَّاءَ، فَتَرُدَّ القَحْطَ خُصُوبَةً، والْمُرَّ عُذُوبَةً، وتكسو الْأَرْضَ الجرداءَ أثواباً قشيبةً، فتفتحُ للمتعطشينَ أبوابَ الْمُتْعَةِ أَنَّى ذَهَبُوا، وَمَتَى شَاءُوا. وَمِنْ هُنَا يَنْطَلِقُ عَبْدُ اللهِ فِكْرِيّ فِيْ رائعَتِهِ (المَقَامَة الفكريَّة) يتلاعبُ بدلالاتِ الأَلْوَانِ، وَيَعْزِفُ أَلْحَانَاً مُنْتَقَاةً، فيجبرُ الأبصارَ لتدقِّقَ النَّظرَ، وِيُرْغِمُ القُلُوْبَ لِتُعْلِي صوتَهَا بالسَّعادَةِ، والفرحِ، يَقُوْلُ: "وَسِرْنَا نَطْوِي الْمَنَازِلَ، ونقطعُ المراحِلَ، مِنْ طَرِيْقٍ إِلَى طَرِيْقٍ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَضِيْقٍ، خَرَجْنَا مِنْهُ إِلَى

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص300).

[2] عبد الباقي، المُعْجَم المفهرس لألفاظ الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص580، ص581). يُنْظَر: الصَّفَّار، جَمَاليَّة التَّشْكِيلِ اللوْنِيِّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص90).

قُبَّةٍ بديعةٍ، عَلَى رَبْوَةٍ رَفِيْعَةٍ، يتَّصلُ بِهَا كُلُّ مَا اشتملتْ عليْهِ المملكةُ فِيْ جَمِيْعِ أنحائِهَا، فِيْ موارِدِهَا، وطرقَاتِهَا، ومسالكِهِا، وجداولِ مائِهَا، وَفِيْ هَذِهِ القُبَّةِ مِنَ الأنْوَارِ اللَّامِعَةِ، والأشعَّةِ السَّاطِعَةِ ما يُغْشِي الأبصارَ، ويدهِشُ النُّظَّارَ،... وَمَعَ كُلِّ واحدٍ مرآةٌ كَثِيْرةُ الأضلاعِ، لمَّاعَةُ الشُّعاعِ، ينعكسُ فِيْهَا مَا فِيْ القبَّةِ مِنَ الأضواءِ، فيظهرُ كَثِيْرٌ مِنَ الصُّوَرِ والْأَشْكَالِ، والأَلْوَانِ البَدِيْعةِ المِثَالِ، فَكَانَ بَصَرِي يضعفُ عَنْ مُقَاوَمَةِ هَذِهِ الأنوارِ، وَقَلْبِي يَتَعَجَّبُ مَا رَأيتُ فِيْ الدَّارِ، حَتَّي أنِّي لِفَرْطِ مَا هَالَنِيْ مِنْ غرابةِ الأمرِ، وإنَّه لَمْ يَسْبِقْ لِيْ بِهِ عَادَة فِيْ سالفِ العمرِ"[1].

إنَّ مَشَاهِدَ الرَّوْعَةِ، وَرَوْعَةَ المَشَاهِدِ فِيْ اللَّوْحَةِ السَّابِقَةِ يبدو جَمَالُهَا فِيْ المُزَاوَجَةِ بَيْنَ التَّشْكِيلِ اللَّوْنيِّ وَالْحَرَكِيِّ، فَقَدْ تَنَقَّلَ الْأَدِيْبُ تَارَةً بَيْنَ الأَلْوَانِ، وأُخْرَى بَيْنَ الْحَرَكَةِ، والسُّكُوْنِ، وَلَعَلَّ هَذَا الْجَمَعَ أَكْمَلَ مَشَاهِدَ الرَّوْعَةِ، فَغَدَا المُتَلَقِّي حَائِرَاً أيّ مَشَاهِدِ اللَّوْنِ يَرَىْ؟، وأيَّة حركاتٍ يتلمس؟، وأيَّ أَصْوَات يسمع؟، ثم يبدو حَائِرَاً مَا بَيْنَ لَوْنٍ، وَلَوْنٍ، وَمَا بَيْنَ حركةٍ، وسكونٍ، أو توتُّرٍ، وهدوءٍ، هَلْ يُمَتِّعُ نَاظِرَيْهِ بالأنوارِ اللَّامعةِ، أَمْ بالأشعَّةِ السَّاطِعَةِ؟، وهَلْ يَكْتَفِي بالصُّوَرِ، والْأَشْكَالِ، والأَلْوَانِ البَدِيْعَةِ المثالِ؟، وَهَلْ يُغْنِي أحاسيسَهُ بالسَّيرِ، والْوُصُولِ، أَمْ بِتَهَادِي الْجَدَاوُلِ، والمياهِ؟ فَفِيْ الأَلْوَانِ آلاءُ، وَفِيْ الحركاتِ عِبْرَةٌ، وَفِيْ السَّكَنَاتِ آياتٌ.

ويستنفرُ مُحَمَّد الوُرْغِيّ فِيْ نُصُوْصِهِ المَقَامِيَّةِ حواسَهُ، كُلَّ حواسِهِ عَلَى أَنْغَامِ مَشَاهِدِ الْجَمَالِ حِيْنَ ينهضُ عَلَى روعةِ المَشَاهِدِ، ويستفيقُ عَلَى وَقْعِ أَلْحَانِ الْجَمَالِ، فيمزجُ جَمَالَ المَشَاهِدِ بمَشَاهِدِ الْجَمَالِ، ليقدَّمَ لَوْحَةً جديدةً مِنْ لَوْحَاتِ الْبَهَاءِ والْجَمَالِ، يَقُوْلُ: "نَشَأَ مُذْ شَبَّ بَيْنَ أَزْهَارٍ، وَرِيَاضِ الأَدَبِ، يستنشقُ منها نفحَ الطِّيبِ، ويهصِرُ مِنْ أَغْصَانِهَا الرَّطيبَ، وَيَسْمَعُ مِنْ أَطْيَارِهَا الأغانيّ، وَيَتَعَرَّفُ مِنْ أغصانِهَا البَيَانَ، والْمَعَانِي"[2].

تَأَثَّرَ الْأَدِيْبُ باللَّوْحَةِ، والمَشْهَدِ، وعَلَى وقعهما شَرَعَ يرسمُ مَشَاهِدَ مُتَنَوِّعَةً مِنْ خِلَالِ إشاراتٍ واضحةٍ تَهزُّ المشاعرَ، وتُحَرِّكُ الْأَحَاسِيْسَ مِنْ خِلَالِ بَوَاعِثِ هَذَا الحراكِ، فَغَدَتْ هَذِهِ البواعثُ رَوَائِعَ تُغْنِي نُفُوْسَ السَّامِعِيْنَ، واستحالتْ شُمُوْسَاً مُشْرِقَةً تَجُوْدُ عليهم بِالدِّفءِ والضِّيَاءِ. وارتدتْ رِيَاضَاً مَلْأَى بالأَلْوَانِ، مَا بَيْنَ الأَبْيَضِ والْأَخْضَرِ، والأزرقِ والْأَحْمَرِ، والنِّيليِّ والأَصْفَرِ، ومزدانةً بالورودِ والْأَزْهَارِ، تُثْرِيهُا أنغامُ الأطيارِ، فَوْقَ الدَّوْحِ والأَشْجَارِ.

وإِلَى رحلةٍ قصيرةٍ مَعْ حُرُوفِ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَبُّ إِلَى العربِ مِنْهُ خَاصَّةً فِيْ الصَّحْرَاءِ المُجْدِبَةِ، وَبَقِيَ هَذَا اللَّوْنُ أَحَبَّ الأَلْوَانِ إليهم حَتَّى بَعْدَ تَغَيُّرِ بيئاتِهِم، وانتشارِهِم فِيْ

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص11).

[2] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَة الباهيَّة)، (ص43).

بيئاتٍ جَدِيْدَةٍ. إنَّهُ رَبَطَ بَيْنَ الْأَخْضَرِ، وَبَيْنَ نُزُوْلِ المَاءِ مِنَ السَّمَاءَ، واكتساءِ الْأَرْضِ بالخضرةِ والنَّبْتِ؛ الَّذِيْ فِيْهِ رِزْقٌ للإنسانِ ومواشيْهِ. وَمِنْ ثمَّ انبعاث الخيرِ مِنْ هَذِهِ الخضرةِ، وخيراتِ الْأَرْضِ، وَقَد وُلِعَ العَرَبُ باللَّوْنِ الْأَخْضَرِ، وافتتنوا بِجَمَالِهِ، واسْتَخْدَمَوْهُ فِيْ رِيَاشِهِم، قَالَ النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ:

يَصُوْنُونَ أَجْسَامَاً قَدِيماً نَعِيمُها بِخَاصِرةِ الأَرْدَانِ خُضْرِ المَنَاْكِبِ[1]

وَمِنَ النَّاحِيَةِ النَّفْسِيَّةِ وَقَرَ فِيْ الذِّهْنِ، والدِّرَاسَاتِ النَّفْسِيَّةِ أَنَّ للوْنِ الْأَخْضَرِ أثراً طَيِّباً فِيْ النُّفُوْسِ، وَأَنَّ النَّظَرَ إِلَى الخضرةِ يَبْعَثُ فِيْ النَّفْسِ الْمَسَرَّةَ، والسَّعادةَ، والرَّاحَةَ، لهَذَا قِيْلَ ثَلَاثٌ يُجْلِيْنَ البصرَ: الخُضْرَةُ، والماءُ، والْوَجْهُ الحَسَنُ. وَمِنْهُ الحَدِيْثُ الشَّرِيفِ: "ثَلاثٌ يُجْلِينَ الْبَصَرَ: النَّظَرُ إِلَى الْخُضْرَةِ، وَإِلَى الْمَاءِ الْجَارِي، وَإِلَى الْوَجْهِ الْحَسَنِ"[2]. وَذُكِرَ "أَنَّ الشُّهداءَ يُكْرَمُونَ فِيْ الْجَنَّةِ فِيْ رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، عَلَى نَهْرٍ بَارِقٍ، فِيْ قُبَّةٍ خَضْرَاءَ"[3].

وَلَمْ يَغِبِ اللَّوْنُ الْأَخْضَرُ عَنْ سَمَاءِ المَقَامَاتِ، وَلَمْ تَأْفَلْ نُجُوْمُهُ عَنْ لَيْلِهَا، فَقَدْ أَشْرَقَتْ شَمْسُهُ كَثِيْراً فِيْهَا، وَتَلَأْلَأَتْ نُجُوْمُهُ فِيْ لَيَاليها، وَبَزَغَتْ أَقْمَارُهُ وَسطَ ظُلُمَاتِهَا، وَمِنْ هَذِهْ النُّجُوْمُ، أُوْ تِلْكَ الأقْمَارِ، (غَرِيْب الأَنْبَاءِ فِيْ مُنَاظَرَةِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ) الَّتِيْ بَسَطَ فِيْهَا الْأَدِيْبُ جَنَاحَ إِبْدَاعِهِ؛ كَيْ يَرْوِيَ بِهِ قِصَصَ الْجَمَالِ، وروايات الْجَلَالِ، مُسْتَلْهِماً إبداعاتِ الْأُدَبَاءِ السَّابقينَ، يَقُوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "فَهُوَ ذُوْ اليَدِ البَيْضَاءِ، والْعِيْشَةِ الخَضْرَاءِ، والْمَوَارِدِ الصَّافِيَةِ، وَالْمَطَارِفَ الضَّافِيَةِ...وَلَاْ غَرْوَ أَنْ يُوْسَمَ بِمَدِيدِ الفَضْلِ، والنَّدَى، وَبِهِ ترتَشِفُ الشَّمْسُ مِنْ ثُغُوْرِ الأَقَاحِ قَطْرَ النَّدَى، يَحْكِي الوَرَقُ مِنْهُ الوَرِق، فَكَأَنَّهُ وَالْغُصْنَ يراعٌ وَرِق، وَيُزْرِي زَهْرُهُ بالزُّهْرِ، وَيُغْرِي بِالبِيْضِ والصُّفْرِ...غُصُوْنُهُ تَرْقُصُ، فتميسُ وَتَمِيْلُ، وَطُيُوْرُهُ تُغَنِّي فَتُطْرِبُ بِحُسِن الهَدِيْلِ. الوُرُوْدُ تَدْعُو إِلَى حُسْنِ الوُرُوْدِ، وَقَدْ بَدَتْ كواكبُهَا الدُّرِيَّةُ فِيْ مَطَالِعِ السُّعُوْدِ"[4].

بَرَعَ مُحَمَّد المُبَارَك فِيْ بَيَانِ دَلَالَةِ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ مِنْ خِلَالِ مَجْمُوْعَةٍ مِنَ الْمُفْرَدَاتِ، فَلَمْ يَكْتَفِ بالتَّصْرِيحِ بِهِ فِيْ قَوْلِهِ: (العيشة الخَضْرَاء)، بَلْ سَافَرَ بَيْنَ مَجْمُوْعَةٍ من الْكَلِمَاتِ حَمَلَتْ فِيْ ثَنَايَاهَا اللَّوْنَ الْأَخْضَرَ فِيْ (الورق، الغصن، الغصون، طيوره، الورود) فَكُلُّ كَلِمَةٍ أَظْهَرَتْ جَمَالِيَّاتِ تَشْكِيْلِ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ، وَتَرَكَتِ البَابَ مَفْتُوحاً لِلمُتَلَقِّي ليتخيَّلَ درجاتِهِ المُخْتَلِفَةَ، وَيُطْلِقُ

---

[1] الذُّبيانيّ، دِيْوَان النَّابغة الذُّبيانيّ، (ص12).

[2] الألبانيّ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، (ج443/7).

[3] الطبريّ، جامع البيان في تفسير القرآن، (ج42/2).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص101).

العَنَانَ لِفِكْرِهِ ليتأَمَلَ تشكيلاتِهِ المُتَنَوِّعَةِ، وَلَعَلَّ السِّرَّ الآخَرَ أَنَّ الْأَدِيْبَ جَمَعَ (الورق)، و(الغصون)، و(الطُّيور)، و(الورود) لِلتَّنْوِيعِ؛ فالطُّيُورُ، والوُرُودُ تَحْمِلُ دَلَالَاتٍ لَوْنِيَّةً مُتَعَدِّدَةً، فَفِيْ ثَنَايَاهَا بَاقَةٌ مُتَنَوِّعَةُ مِنَ الأَلْوَانِ الَّتِيْ تَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْأَخْضَرِ، والأَبْيَض، وَالْأَحْمَرِ، وَالأَصْفَرِ، وَكَأَنَّ كُلَّ شَيءٍ فِيْهِ شُمُولِيَّة الأَلْوَانِ، ومِن بَيْنِ ثَنَايَا الأَلْوَانِ يَرْتَسِمُ الْجَمَالَ.

إِنَّ وُرُودِ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ أَدَّى دَوْرَهُ فِيْ التَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ، فَقَدْ رَسَمَ الْأُدَبَاءُ صُوَراً تَكْثِيْفِيَّةً لهَذَا اللَّوْنِ، وجَمَالِيَّاتِهِ، وَحَيَوِيَّتِهِ، وَمِنَ المعْلُوْمِ أَنَّ "الْأَخْضَرَ وَرَدَ فِيْ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ لَوْناً يُمَثِّلُ سِمَةً مِنْ سِمَاتِ النَّعِيْمِ فِيْ الْجَنَّةِ، فِيْ الْبِيْئَةِ الْجَمِيْلَةِ الَّتِيْ يُهَيِّؤُهَا اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ المُكرمينَ فَوُصِفَتِ الثِّيَابُ الخُضْرُ بأَنَّهَا مِنَ السُّنْدُسِ والْحَرِيرِ، وَأَنَّهَا خَضْرَاءُ اللَّوْنِ، وَأَنَّ أَهْلَ الجنَّةِ يُزيَّنُونَ بِضُرُوبٍ مِنَ الزِّيْنَةِ مِنَ الذَّهَبِ، والفِضْةِ"[1]، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ٣١ ﴾ [الكهف: 30، 31].

التَّشْكِيْلُ اللَّوْنِيُّ فِيْ لَوْحَاتِ الطَّبِيْعَةِ فِيْ الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

يَبْرُزُ التَّشْكِيلُ اللَّوْنِيُّ في مَشَاهِدِ الكَونِ، السَّمَاءِ والنُّجُومِ، وَالشَّمْسِ والْقَمَرِ، والْأَرْضِ بِمَا عَلَيْهَا مِنْ مِيَاهٍ مُتَعَدِّدَةِ الْمَصَادِرِ وَالمَشَاهِدِ، وَمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَوَاهِدِ الطَّبِيْعَةِ سُهُولاً، وَجِبَالاً، وَرَوَابِيَ، وَوِهَاداً، وَسُيُولاً، وَأَنْهَاراً، كُلُّ هَذِهِ المَشَاهِدِ جَعَلَتْ مِنْ عَنَاْصِرِ الطَّبِيْعَةِ عَالَماً حَافِلاً بالأَلْوَانِ، عَامِراً بالْحَرَكَةِ، وتقلُّبِهَا الفَتَّانِ، وَتَبْرُزُ جَمَالِيَّةُ التَّشْكِيلِ اللَّوْنيِّ فِيْ لَوْحَاتٍ جَمِيْلَةٍ رَائِعَةٍ، ومَشَاهِدَ رَائِقَةٍ، أَبْدَعَهَا خَالِقُ الكونِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مُصَوِّرُ المخلوقاتِ جَمِيْعاً فِيْ أَبْدَعِ الصُّوَرِ وَأَبْهَاهَا، مُوْجِدُ الكونِ، مُبْدِعُ الأَلْوَانِ، وَمُوْجِدُهَا فِيْ هَذَا الْكَوْنِ، وَوَاهِبُ الْإِنْسَانِ القدرةَ عَلَى النَّظَرِ والتَّأَمُّلِ، والتَّفكُّرِ، والتَّدبُّرِ؛ ليُسخِّرَ ذَلِكَ كُلَّهُ لِخَيْرِ البشريَةِ جَمْعَاء. فَيَنْعَمُ بِجَمَالِهَا الدَّانِي والْقَاصِي، وَيَتَنَعَّمُ بِرَوْعَتِهَا القَرِيْبُ وَالْبَعِيْدُ.

إِنَّ الفَصْلَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ والأَلْوَانِ يكادُ يكونُ مُسْتَحِيْلاً، فالأَلْوَانُ ترتبطُ بحياةِ الْإِنْسَانِ ارتباطاً وثيقاً، فَهِيَ تُحِيْطُ بِهِ منْ كُلِّ جَانِبٍ، وتكتنفُهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيةٍ، فَإِذَا قَلَّبَ الْإِنْسَانُ بَصَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَى الأَلْوَانَ فِيْ أَرْجَاءِ هَذَا الكَوْنِ، وَمَا يَحْوِيهِ مِنَ كائناتٍ، وَمَخْلُوْقَاتٍ عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا فِيْ جَوْفِهَا، وَفِيْ السَّمَاءِ وَمَا تَحْتِهَا، وَفِيْ الْبِحَارِ وَمَا فِيْ أَعْمَاقِهَا، وَإِذَا فَكَّرَ وَتَحَرَّكَ فَإِنَّهُ يَرَاهَ فِيْ

[1] الصَّفَّار، جَمَاليَّة التَّشْكِيلِ اللوْنِيِّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص320).

الزَّهرِ والشَّوكِ والشَّجرِ، وَفِيْ النَّباتِ، والحَبِ، والتَّمرِ، وفي الشَّمْسِ، والنَّجمِ، والْقَمَرِ، كما يراه في الحجرِ والرِّمالِ، وفي الصَّخرِ، والجبالِ، ويراه في الصَّحاري والنِّجادِ، وَفِيْ الرَّوابي والوُهَادِ، يَرَاهُ فِيْ عُيُوْنِ الحَسْنَاوَاتِ، وَفِيْ وُجُوهِ الْجَمِيْلَاتِ، فَلَا يَبْرَحُ مكاناً إِلَّا وَيَبْسُمُ فِيْ وَجْهِهِ لَوْنٌ، وَتَضْحَكُ ألوانٌ وَأَلْوَانٌ.

وَيَتَصَدَّرُ التَّشْكِيلُ اللَّوْنيُّ للوْحَاتِ الطَّبِيْعَةِ النُّصُوْصَ المَقَامِيَّةَ، وَهَذِهِ اللَّوْحَاتُ تَتَدَاعَى فِيْهَا الأَلْوَانُ بِشَكْلٍ مُتَنَاسِقٍ مُتَوَائِمٍ مَعَ الأَشْيَاءِ الْمَوْصُوْفَةِ؛ لِأَنَّ للأَلْفَاظِ هُنَا قُدْرَتَهَا الفائِقَةَ فِيْ رَسْمِ التَّشْكِيلِ اللَّوْنيِّ مِنْ خِلَالِ دَلَالَاتِهَا وسياقَاتِهَا المَصوِّرَةِ للَّوْحَاتِ مَجْمُوْعَةً، وَتَظَلُّ الأَلْوَانُ دَوْماً سِحْرَاً يُبْهِرُ العُيُوْنَ، والأبصارَ.

وَمِنْ مَشَاهِدِ تِلْكَ اللَّوْحَاتِ مَا رَسَمَهُ مُحَمَّد المُبَارَك فِيْ مَقَامَتِهِ (نُضْرَة البِهَارِ فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) الَّتِيْ يقدِّمُهَا كَأَجْمَلِ مَا يَكُوْنُ التَّقْدِيمُ، يَقُوْلُ: "وَعَلَامَ جَعَلَ السَّوَادَ عَلَى النَّقْصِ عَلَامَةً، وَهُوَ مُشْتَقٌ مِنَ السُّؤْدُدِ عَلَى كُلِّ عَلَّامَةٍ؟ أَمَا دَرَى أَنِّي حُزْتُ مِنَ الْكَمَالَ الحَظَّ الأَوْفَرَ، حَتَّى تَحَلَّى بِبَدِيْعِ وَصْفِي العنبرُ، وَهَلْ يُزرِى بالخَالِ سَوَادُهُ الْبَارِعُ، أَوْ يُغْرِى بِالبَرَصِ بَيَاضُهُ النَّاصِعُ؟ وَفِيْ بَيَاضِ المَشِيْبِ عِبْرَةٌ، وأيُّ عِبْرَةٍ، فَكَمْ أَجْرَى مِنَ الآمَاقِ أَعْظَمَ عَبْرَةٍ، وَمَنْ عَابَ نَعْتَ الشَّبَابِ وَفَضْلَ وَصْفِ الشَّيْبِ، فَقَدْ غَابَ عَنْ شُهُودِ العَيْبِ، وَعَالِمِ الغَيْبِ. (فَمَا كُلُّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً، وَلَا كُلُّ حَمْرَاءَ لَحْمَة). هَذَا وَإِنَّ السَّوَادَ حِلْيَةُ أَهْلِ الزُّهْدِ، والصَّلاحِ، وَهَلْ يَسْتَرِقُّ الأُسُودَ إِلَّا سُوْدُ أَحْدَاقِ الْمِلَاحِ؟!"[1].

إِنَّ اللَّوْحَةَ اللَّوْنيَّةَ فِيْ الْمَقْطُوْعَةِ السَّابِقَةِ تَمثَّلتْ فِيْ كَلِمَاتٍ مُنْتَقَاةٍ بِدِقَّةٍ، وَمُتَرَابِطَةٍ أَشدَّ مَا يَكُوْنُ التَّرابُطُ، فالحِكَايَةُ بدأتْ بالاسْتِفْهَامِ الإِنْكَارِيِّ لِمَنْ يَرَى أَنَّ السَّوَادَ مِنْ عَلَامَاتِ النَّقصِ، ثُمَّ يُبَرِّرُ بِنَفْيِ ذَلِكَ كَوْنُهُ عَلَامَةً مِنْ عَلَامَاتِ السُّؤْدِدِ، وَعَلَامَةً مِنْ عَلَامَاتِ الْجَمَالِ، وقد قدَّم دلائلَ جَمَالِهِ بِعَدَدٍ مِنَ الْأَسْئِلَةِ الَّتِيْ حَمَلَتْ مَعْنَى النَّفْيِ فِيْ: (وَهَلْ يُزرِى بالخَالِ سَوَادُهُ الْبَارِعُ؟)، والتَّقريرِ فِيْ: (وَهَلْ يَسْتَرِقُّ الأُسُودَ إِلَّا سُوْدُ أَحْدَاقِ الْمِلَاحِ؟!).

وَيَسْمُو الْأَدِيْبُ شَيْئَاً فشَيْئَاً حِيْنَ يُؤَكِّدُ أَنَّ سوادَ الخالِ عَلَامَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ الْجَمَالِ، وأَنَّ ثِيَابَ الحدادِ حِلْيَةُ أهلِ الزُّهْدِ والصَّلاحِ. وكأَنَّ الْأَدِيْبَ وَاعَمَ بَيْنَ روعَةِ الْجَمَالِ، وَهُدُوْءِ الزُّهْدِ والصَّلَاحِ، فَأَضَافَ هُدُوْءَاً إِلَى هُدُوْءٍ، وَسَكِيْنَةٍ إِلَى خُشُوْعٍ تَقَرُّ بَهَا العُيُوْنُ، وَتَطْمَئِنُ إِلَيْهَا النُّفُوْسُ، وتُثَبَّتُ بِهِ الأَفْئِدَةُ والقُلُوْبُ.

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص136، ص137).

وَكَأَجْمَلِ مَا يَكُوْنُ الرَّسْمُ تَحْشِدُ المَقَامَاتُ صُوَرَاً تتداخلُ فِيْهَا مُفْرَدَاتُ الطَّبِيْعَةِ بحقولِهَا المُخْتَلِفَةِ، وألوانِهَا المُتَنَوِّعَةِ؛ لتصنعَ لَوْحَاتٍ مِنَ الْجَمَالِ مُتَكَامِلَةً، وَتَنْحِتُ تَشْكِيْلاتٍ مِنَ الإِبْدَاعِ مُبْهِرَةً شَامِلَةً، يَقُوْلُ مُحَمَّد المويلحيّ: "هُنَالِكَ تَسْتَبِيْكُ ألوانُ الأَزَاهِرِ، بِمَا يُزْرِي بلَمَعَانِ الجَوَاهِرِ، فَمَا اليَاقُوْتُ عِنْدَهَا، والزَّبَرْجَدُ، وَمَا الفيروزُ، والزُّمُرُّدُ، وَمَا العقيقُ والجُمَانُ، وَمَا الدُّرِّ والمَرْجَانُ! وكَيْفَ يقاسُ الحجرُ بالشَّجَرِ، وَتَسْتَوِي الحَصبَاءُ اليابسةُ بِأَكْمَامِ الأَغْصَانِ الْمَائِسَةِ، وكَيْفَ يُقدَّمُ الْجَامِدُ الثَّابِتُ عَلَىْ النَّامِي النَّابِتِ، وَأَيْنَ الْحَرَكَةُ مِنَ السُّكُونِ، وَالمَنْشُوْرُ مِنَ الْمَدْفُوْنِ، وَأَيْنَ المَنْثُوْرِ عَلَىْ ظَهْرِ الرَّوْضَةِ الزَّهْرَاءِ مِنَ المَلْحُودِ فِيْ بَطْنِ الغبراءِ! وَلِئَنِ انتظمَتِ القَلَائِدُ، بِجَوَاهِرِ تِلْكَ الفَرَائِدِ، فِيْ لبَّاتِ الخَرَائِدِ، وَكَانَ مَكَانُهَا مِنَ الْحُوْرِ فِيْ المَعَاصِمِ والنُّحُورِ، لَكَانَتْ هَذِهِ الزُّهُورُ، بيتَ الرِّئاتِ والصُّدورِ، وَكَمْ أنعشتْ خَامِدَ النُّفُوْسِ والأرواحِ بطيبِ الأَنْفَاسِ، وَشَذَى الأَرْوَاحِ، فَوَقَفْنَا نستنشقُ الأَرِيْجَ والنَّشْرَ، مِنْ أَصنَافِ ذَلِكَ الطِّيْبِ، والعطرِ، لَوْ كَانَ مَعْنَا ضَرِيْرُ المعرَّةِ رَهِيْنُ المحبسينِ لانقَلَبَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ قَرِيْرَ العَيْنِ، وَلَأَنسَ مِنْ وِحشتِهِ، وذهَلَ عَنْ فَاقَتِهِ، وَخِلَّتِهِ"[1].

إنَّ مُحَمَّد الْمُوِيلْحِيّ لَمَّا أرادَ أنْ يرسمَ لَوْحَاتٍ رَائِعَةً متفرِّدةَ الْجَمَالِ، احتاجَ أَنْ يَدْمِجَ مَعْ حَقْلِ الأَلْوَانِ كَلِمَاتٍ مِنْ حُقُولٍ أُخْرَى كحُقُولِ الصَّوْتِ، والْحَرَكَةِ، فَاسْتَعْمَلَ مُفْرَدَاتٍ أَضْفَتْ إِلَى التَّشْكِيْلِ اللَّوْنيِّ مَزِيْدَاً مِنَ الْجَمَالِ، فَإِذَا بِالمُتَلَقِّي يُمَتِّعُ نَاظِرَيْهِ بأجملِ الأَلْوَانِ، وَيُطْرِبُ أذنَيْهِ بأعذبِ الْأَلْحَانِ، وَيُنْعِشُ أنفاسَهُ بَأَطَايِبِ العِطْرِ، والرَّيْحَانِ، يَنْطَلِقُ هَذَا المُتَلَقِّي فِيْ دُرُوْبٍ طَوِيْلةٍ، بَيْدَ أَنَّهُ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالأُخْرَى تعترضُهُ لَمْسَةٌ مِنْ لَمَسَاتِ الْحُسْنِ فينهلُ مِنْهَا، وَآيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْجَمَالِ فَيَرِدُ مَسَالِكَهَا، فَطَوْرَاً يَسْعَدُ بِأَلْوَانِ الأَزَاهِرِ، ولَمَعَانِ الجَوَاهِرِ، وَطَوْرَاً يَستَنْشِقُ الأَرِيْجَ والنَّشْرَ مِنْ أَصْنَافِ الطِّيْبِ وَالعِطْرِ، ثُمَّ يَأْنَسُ بِرِيَاضٍ زَهْرَاءَ، وَحَدَائِقَ فَيْحَاءَ، فَيَخَالُ أَنَّهُ فِيْ جَنَاتٍ خَضْرَاءَ، فِيْ ظِلالٍ، وَعُيُوْنٍ، وَفَاكِهَةٍ مِمَا يَشْتَهِي، وَيَشْتَهُوْنَ.

لَقَدِ اكْتَظَّتِ الْمَقْطُوْعَةُ بالأَلْوَانِ المُبْهِرَةِ، وَيَكْفِيْهَا (اليَاقُوْتُ، وَالْمَرْجَانُ) ليُكْتَبَ لَهَا الْخُلُودُ بَيْنَ الآثَارِ الأَدَبِيَّةِ، فَقَدْ وُصِفَتْ نِسَاءُ الجَنَّةِ بالْجَمَالِ البَاهِرِ المُلْفِتِ لِلانْتِبَاهِ، وَشُبِّهْنَ بِاللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٨]، قيل: "هُنَّ فِيْ صَفَاءِ اليَاقُوْتِ، وَبَيَاضِ الْمَرْجَانِ"[2]. وَمِنَ الْمَعْلُوْمِ أَنَّ جَمَالَ الْمَرْجَانِ لَاْ يَرْجِعُ إِلَى تَنَوُّعِ الْأَشْكَالِ فَحَسْب، وَإِنَّمَا لِتَعَدُّدِ أَلوانِهِ، فَمِنْهُ الأَصْفَرُ، والْأَحْمَرُ، والكريميُّ، والْأَخْضَرُ، والبُرتقاليُّ، كَمَا أَنَّ اليَاقُوْتَ لَاْ

---

[1] المُوِيْلحيّ، حديث عِيسى بن هِشَام، (ص292).

[2] الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف، (ج453/4).

يَحْمِلُ لَوْنَاً واحداً، وإنَّمَا هُوَ مِنَ الأَبْيَضِ أَو الأَصْفَرِ أو الْأَحْمَرِ، وَبِهَذَا قَدَّمَ الْمُوِيلْحِيّ ما يُقَارِبُ عَشْرَة أَلْوَانٍ فِيْ كَلِمَتَي اليَاقُوْتِ، وَالْمَرْجَانِ ، فكَيْفَ بِنَا لَوْ بَحَثْنَا فِيْ الأَزَاهِرِ، وَالْجَوَاهِرِ، والزَّبَرْجَدِ، والفيروزِ، والزُّمُرُّدِ، والعقيقِ، والجُمَانِ، والدُّرِّ، والشَّجَرِ، فَإِنَّنَا سَنَعْثُرُ فِيْ ثَنَايَاهَا عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الأَلْوَانِ لَا حَصْرَ لَهَا، وَلَاْ حُدُوْدَ.

لَقَدْ خَطَّ مُحَمَّد الْمُوِيلْحِيّ (1858– 1930م) وَثِيْقَةَ إبداعِهِ، وَكَتَبَ شَهَادَةَ تفوُّقِهِ بِحُرُوْفٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيْ رائعتِهِ (حديثُ عِيْسَى بنِ هِشَام)، صَوَّرَ فَأَحْسَنَ التَّصْوِيْرِ، وَرَسَمَ فأتقنَ الرَّسْمَ، فقدَّمتْ أَنَاْمِلُهُ الذَّهْبِيَّةُ لَوْحَاتٍ فَنِيَّةً بَارِعَةً، حَمَلَتْ فِيْ ثَنَايَاهَا أَشْكَالاً مِنْ شَتَّى الأَلْوَانِ، يَقُوْلُ: "وَلَمَّا تَجاوَزْنَا البَابَ انتهَيْنَا إِلَى سَهْلٍ رَحِيْبٍ، وَوَادٍ عَشِيْبٍ، نبتتْ أَرْضُهُ بالقُصُوْرِ المَنِيْفَةِ، كَمَا يَنْبِتُ الرَّوْضُ بِالأَغْصَانِ الوَرِيْفَةِ، تَضِلُّ بِهِ الحُدَاةِ، وَتَحَارُ الهُدَاةُ، وَلَاْ بِدْعَ، فالمدينةُ فِيْ اتِّسَاعِهَا قَطْرٌ مِنَ الأَقْطَارِ، وَهَذَا المَعْرِضُ فِيْ سُرَّتِهَا مِصْرٌ مِنَ الأَمْصَارِ، وَمَا زَلْنَا سَائِرِيْنَ عَلَى أَرْضٍ تَزْهُو فِيْهَا أَغْراسُ الجِنَانِ، والبَسَاتِيْنَ، وَأَزْهَارُ الأَغْصَانِ والرَّيَاحِيْنَ، وَلَمَّا امْتَلَأَتِ العَيْنُ مِنْ هَذَهِ المَحَاسِنِ الشَّائِعِةِ، وَجُنَّ اللُّبُّ مِنْ هَاتِيْك الْمَنَاظِرِ الرَّائِعِةِ، التَفَتُّ إِلَى أَصْحَابِي أَتَلَمَسُ مَا يَجْرِي فِيْ خَوَاطِرِهِم، وَأَتَحَسَّسُ مَا يَدُورُ فِيْ ضَمَائِرِهِم"[1].

إنَّ اللَّوْحَةَ الْفَنِيَّةَ الَّتِيْ قَدَّمَهَا مُحَمَّد الْمُوِيلْحِيّ تَنْطَوِي عَلَى التَّشْكِيلِ اللَّوْنيِّ الَّذِيْ يُثِيْرُ الْمُتْعَةَ، والْإِحْسَاسَ بِالْجَمَالِ الَّذِيْ امتَدَّ مَعَ المَسَاحَاتِ الشَّاسِعِةِ، والمَسَافَاتِ الوَاسِعَةِ فِيْ (سَهْلٍ رَحِيْبٍ، وَوَادٍ عَشِيْبٍ)، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الْمُفْرَدَات الَّتِيْ تستوعبُ فِيْ ثَنَايَاهَا أَلْوَانَاً شَتَّى فِيْ (الرَّوض والبساتين، وأزهار الأغصان، والرَّياحين) الَّتِيْ اطمأنتْ لَهَا العُيُوْنُ، وَفُتِنَتْ بمناظِرِهَا الرَّائعةِ الأَلْبَابُ، وأُسِرَتِ القُلُوْبُ.

إنَّنا إذا تنقَّلتْ أبصارُنَا بَيْنَ مُفْرَدَاتِ هَذِهِ اللَّوْحَةِ الْمَرْئِيَّةِ، نُدْرِكْ أنَّ عَنَاْصِرَهَا مُتَعَدِّدَةُ الأَلْوَاْنِ، أَوْ بِالأَحْرَى تَرْسِمُ لَنَا أَلْوَانَاً غَيْرَ مُتَنَاهِيَةِ الْعَدَدِ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ التَّشْكِيلَ اللَّوْنيَّ فِيْهَا تَخَطَّى حُدُوْدَ الْجَمَالِ، وَتَجَاوَزَ أسوَارَ الْجَلَالِ، فالْأَدِيْبُ يُصوِّرُ بريشَتِهِ أَرْوَعَ المَشَاهِدِ، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُرْسِلَ للقُرَّاءِ رِسَالَةً عُنْوَانُهَا: آيَاتُ الْجَمَالِ فِيْ الْمَقَامَةِ لِاْ يُحْصِيْهَا عَدٌّ، وَلَاْ يَحِدُّهَا حَدٌّ.

اسْتَخْدَمَ الْأُدَبَاءُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ كُلَّ مُفْرَدَاتِ لُغَةِ الشَّكْلِ – مِنْ لَوْنٍ، وَصَوْتٍ، وَحَرَكَةٍ – كَمَا لَمْ يَتَوَانَ أَحَدُهُم عَنْ الاسْتِعَانَةِ بِكُلِّ مَا فِيْ الطَّبِيْعَةِ مِنْ أَلْوَانٍ، لِتَصْوِيْرِ لَوْحَاتِهِ الشِّعْرِيَّةِ فِيْ كُلِّ الْأَغْرَاضِ وَصْفَاً كَانَ، أَمْ مَدْحَاً، أَمْ هِجَاء، وَسَوَاء فِيْ وَصْفِ الطَّبِيْعَةِ، أَمْ وَصْفِ مَحَاسِنِ مَحْبُوْبَتِهِ، وَمِنْ هُنَا "يَخْرُجُ اللَّوْنُ مِنْ مَدْلُوْلِهِ الحِسِّيِّ الوَصْفِيِّ المُبَاشِرِ إِلَى إِطْلَاقِهِ

---

[1] المويلحيّ، حديث عيسى بن هشام، (ص276، ص277).

عَلَى الأُمُوْرِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَالْأَفْكَارِ الْمُجَرَّدَةِ"[1]. وَمِنْ هُنَا يتلاعَبُ ابنُ الأَلُوسِيّ فِيْ مَقَامَتِهِ (زَجْرُ الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ) بِدَلَالَاتِ الأَلْوَانِ، وَيَرْسِمُ فِيْ ثَنَايَاهَا بالكَلِمَاتِ أَرْوَعَ اللَّوْحَاتِ، فَقَدْ جَمَعَ فِيْهَا الأَبْيَضَ وَالأَصْفَرَ، وَالْأَسْوَدَ، والْأَخْضَرَ، وَأَبْدَعَ فِيْ تَوْظِيْفِهَا فِيْ مَشْهَدٍ لَوْنِيٍّ مُتَفَرِّدٍ، حَتَّى غَدَتْ هَذِهِ الْمَقْطُوْعَةُ مِنْ أجملِ المَقْطُوْعَاتِ ذاتِ اللَّوْحَاتِ اللَّوْنيَّةِ المتِداخِلَةِ المُتَقَاطِعَةِ، يَقُوْلُ: "فَكُلُّ مَا أراهُ اليومَ مِنَ الْأَحْدَاثِ أَصْفَرُ الوَجْهِ، كَأَنَّمَا جَاءَ برسالَتِهِ مِنْ أَهْلِ الأَجْدَاثِ، وَقَدْ اسْتَحَالَ خَدُّهُ دُجَا، وَعَادَ زَمَرُّدُ خَطِّهِ لِسُوءِ حَظِّهِ سَجَا، وَأُخْمِدَتْ نَارُ حُسْنِهِ بَعْدَ الإيقَادِ، وَلَبِسَ عَارِضُهُ الزَّاهِي ثَوْبَ الحِدَادِ، بَلْ أَمْسَتْ شُعُورُ وَجْهِهِ لُبُوداً، وَأَسْنَانُه اللولِيَّة خضراً أو سوداً، وكان قد فارقنا هلالاً وغزالاً، فعاد – لَا عَادَ– وَبَالَاً وَنَكَالاً"[2].

إنَّ التَّنَاسُقَ بَيْنَ الأَلْوَانِ فِيْ الأَسْطُرِ السَّابِقَةِ يُقَدِّمُ لَنَا لَوْحَةً بَارِعَةً تَحْمِلُ مَزِيْداً مِنَ الْعَنَاوِينِ أَوَّلهَا: عُنْوَانٌ رَئِيْسٌ سُطِّرَ بِمِدَادِ الذَّهَبِ، صَاغَهُ أَبُو الْبَقَاءِ الرُّنْدِيّ فِيْ تُحْفَتِهِ (الفِرْدَوْسُ الْمَفْقُوْدُ):

وَهَـذِهِ الـدَّارُ لَاْ تُبْقِـي عَلَـى أَحَـدٍ وَلَاْ يـدُوْمُ عَلَـى حَـالٍ لَـهَـا شَـانُ[3].

وَثَانِيْهَا: كُتِبَ بِخُطُوطِ التَّشَاؤُمِ والْكَآبَةِ فِيْ (أَصْفَرُ الوَجْهِ، الأَجْدَاثِ، وَثَوْبَ الحِدَادِ)، وَثَالِثُهَا: خُطَّ بِرُمُوزِ النِّهَايَةِ، وَنُضُوبِ مَنْهَلِ الْعَطَاءِ (رِسَالَتِهِ مِنْ أَهْلِ الأَجْدَاثِ)، وَرَابِعُهَا: رُسِمَ بامتدادِ رُقْعَةِ الْحُزْنِ، وَاتِّسَاعِ مَسَاحَةِ الكآبةِ وَالْيَأسِ (وَقَدْ اسْتَحَالَ خَدُّهُ دُجَا، وَعَادَ زَمَرُّدُ خَطِّهِ لِسُوءِ حَظِّهِ سَجَا)، وَخَامِسُهَا: صُوَر تَبَدُّلِ الْفَرَحِ، والسُّرورِ، والهَنَاءِ، بِالْحُزْنِ، والْبُؤْسِ، والشَّقَاءِ فِيْ (بَلْ أَمْسَتْ شُعُورُ وَجْهِهِ لُبُوداً، وَأَسْنَانُه اللولِيَّة خضراً أو سوداً، وكان قد فارقنا هلالاً وغزالاً، فعاد – لَا عَادَ– وَبَالَاً وَنَكَالاً)، وَخَتَمَ ابنُ الأَلُوسِيّ الْقِصَّةَ بِلَحْنٍ جَمَعَ كُلَّ الأحزَانِ، وَوُشِّحِ بمُخْتَلَفِ الأَلْوَانِ، مُنْشِداً أَرْوَعَ الْأَلْحَانِ (وَأُخْمِدَتْ نَارُ حُسْنِهِ بَعْدَ الإيقَادِ، وَلَبِسَ عَارِضُهُ الزَّاهِي ثَوْبَ الحِدَادِ)؛ لِيُكْمِلَ رَسْمَ لَوْحَتِهِ، وْيُنْهِي مَلَامِحَ تَشْكِيلِهَا، وَيَكْتُبَ مَشْهَدَ النِّهَايَةِ الْمُؤْلِمِ، مُسْتَلْهِماً قَوْلَ الرُّنْدِيِّ:

هِـيَ الأُمُـوْرُ كَمَـا شَـاهَدْتُهَا دُوَلٌ مَـنْ سَـرَّهُ زَمَـنٌ سَـاءَتْهُ أَزْمَـانُ

وَهَـذِهِ الـدَّارُ لَاْ تُبْقِـي عَلَـى أَحَـدٍ وَلَاْ يَـدُوْمُ عَلَـى حَـالٍ لَـهَـا شَـانُ[4].

---

[1] يونس، التَّصْوِيْر الْجَمَاليّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص102).

[2] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (زَجْر الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ)، (ص94). لبود: غير منظم.

[3] الرُّنديّ، أبو البقاء، دِيْوَان أبو البقاء الرُّنديّ، (ص5).

[4] المَرْجِع السَّابق، ص5.

ويُسْعِدُ مُحَمَّد الْمُوِيلْحِيّ العُيُوْنَ، وَيُبْهِرُ الأَلْبَابَ وَالقُلُوْبَ بِلَوْحَةٍ هِيَ السِّحْرُ، أَوْ عُقُوْدُ الدُّرِّ، يَقُوْلُ عَلَى لِسَانِ عِيسى بن هِشَام: "وَدَخَلْنَا مَعْرِضَ الأَشْجَارِ، وَبُسْتَانَ الْأَزْهَارِ، فِيْ قَصْرٍ لم يُبْنَ بِنَاء القُصُوْرِ والدِّيارِ، وَلَمْ تُشَدَّ أركانُهُ بالشِّيدِ فَوْقَ الأَحْجَارِ، وَلَمْ ترتفعْ بِالآجرِ حَجَرُهُ وغرفُهُ، وَلَمْ تتَّخِذْ مِنَ الْخَشَبِ أبوابُهُ وَسُقُفُهُ، بَلْ عقدتْ لَهُ القِبَابُ والأَبْرَاجُ، مِنْ صَقيلِ البَلُّوْرِ، وَسبيكِ الزُّجَاجِ، فَهُوَ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيْرَ، كَأَنَّهُ لُجَّةُ يَمٍّ، أَوْ صَفْحَةُ غديرٍ، لَوْ دَخَلَتْهُ بَلْقِيْسُ صاحبةُ الْعَرْشِ فِيْ الْأَيَامِ الخَالِيَةِ، لَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا مَرَّةً ثَانِيَةً، جَمَعُوا فِيْهِ أَشْتَاتَ النَّبَاتِ الْغَضِّ، مِنْ كلِّ بقعةٍ وناحيةٍ مِنَ الْأَرْضِ، مِمَّا يَنْبُتُ بِيْنَ ثنَيَاتِ الْجَلِيدِ، وَتَنْشَقُّ عَنْهُ صُمُّ الْجَلَامِيْدِ، وَمَا اخْضَرَّ فِيْ رُبَا الصَّحْرَاءِ، وَأَوْرَقَ فِيْ وِهَادِ البَيْدَاءِ، وَأَزْهَرَ فِيْ الْجَمَدِ، وَأَيْنَعَ فِيْ الْوَمَدِ، وَمِنْ حَيْثُ تَجْرِي الأَنْهَارُ والْجَدَاوِلِ، إِلَى حَيْثُ تَعْتَصِمُ الْأَرَاوِيُّ وَالأَجَادِلُ، وَمِنْ حَيْثُ تَشْدُو الْحَمَامَةُ الْوَرْقَاءْ، تَحْتَ الظِّلَالِ وَالْأَفْنَاءِ، إِلَى حَيْثُ تَدُوْرُ الْحِرْبَاءُ، فِيْ كَبِدِ السَّمَاءِ، وَمِنْ أَدْنَى الشَّرْقِ إِلَى أَقْصَى الْغَرْبِ، وَمِنْ طَرَفِ القُطْبِ إِلَى طَرَفِ القُطْبِ، فَمَا أَرَدْتَ هُنَاْكَ مِنْ جَمِيْعِ الْأَنْوَاعِ، فِيْ مُتَفَرَّقِ البِقَاعِ، مَا بَيْنَ مُلْتَفٍّ، وَمُنْتَشِبٍ، وَمُتَسَلِّقٍ مِنْهُ وَمُتَشَعِّبٍ، يَفْتُرُ بِكُلِّ مُحْمَرٍّ، ومُبْيَضٍّ، ومُذَهَّبٍ، ومُفَضَّضٍ، ومُشْرِقٍ، ومُوْمِضٍ"[1].

لَاْ أَدْرِي أَيَّ دُرُوْبِ الْجَمَالِ الْأَدِيْبُ قَصَدَ، وَلَاْ أَعْلَمُ أيَّ مَوَارِدِ الْحُسْنِ نَهَلَ، هَلْ كَلِمَاتُهُ وَابِلُ بَهَاءٍ، أَمْ سَحَائِبُ حُسْنٍ؟، وَهَلْ مَعَانِيْهِ لَحْنُ غِنَاءٍ، أَمْ غِنَاءُ لَحْنٍ؟ لَقَدْ رَسَمَ مُحَمَّد الْمُوِيلْحِيّ فَأَبْدَع، وَتَرَنَّمَ فَأَمْتَعَ، وَنَظَمَ فَأَلْهَبَ الْأَحَاسِيْسَ، وَأَثَارَ الْمَشَاعِرَ مَعْ كُلِّ كَلِمَةٍ، مَعْ أَلْوَانِ الأَشْجَارِ، وَالْأَزْهَارِ، وَزُخْرُفَةِ القُصُوْرِ، والدِّيَارِ، وَمَعْ رِقَّةِ النَّبَاتِ الْغَضِّ، فِيْ كُلِّ أَرْضٍ، ثُمَّ يَنْطَلِقُ لِيَسْمُوَ بِالمُتَلَقِّي مَعْ هُدُوْءِ بَيَاضِ الْجَلِيدِ، وَعُذُوبَةِ مَا اخْضَرَّ فِيْ رُبَا الصَّحْرَاءِ، وَأَوْرَقَ فِيْ وِهَادِ الْبَيْدَاءِ. وَيُوَاصِلُ الْأَدِيْبُ إثباتَ امتَلَاكِهِ مَفَاتِيْحَ أَبْوَابِ الْجَمَالِ لَمَّا أَضْفَى عَلَى لَوْحَتِهِ مَزِيْجَاً مِنَ الْأَصْوَاتِ الْعَذْبَةِ حَيْثُ تَشْدُو الحَمَامَةِ الورقَاءِ تَحْتَ الظِّلَالِ وَالْأَفْنَاءِ، بَيْنَ الْأَحْمَرِ والأَبْيَضِ، عَلَى أَفْنَانِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، صُحْبَةَ نَسَائِمِ الْإِشْرَاقِ الغَضَّةِ.

وَلَمْ يَكْتَفِ الْمُوِيلْحِيُّ بِذَلِكَ، بَلْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْمَعَ أَلْوَانَاً شَتَّى فِيْ كَلِمَةِ (النَّبات)، الَّذِيْ تَحْمِلُ بِدَلَالَتِهَا العَامَةِ تَنَوُّعَاً لَوْنِيَّاً، فَلَمَّا اقْتَرَنَتِ الكَلِمَةُ بِقَوْلِهِ: (فِيْ كُلِّ أَرْضٍ) زَادَتِ دَلَالَتُهُ سِعَةً قوةً وإيحاءً لِتَشْكِيلٍ مُتنوِّعٍ، مُتعدِّدِ الأَلْوَانِ، فَقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى "إِنْزَالِ الْمَاءِ الْوَاحِدِ يَكُوْنُ سَبَبَاً فِيْ

---

[1] المُويلحيّ، حديث عيسى بن هشام، (ص291، ص292). ممرد: أملس مصقول، الجمد: الثلج، الومد: الحر، الأراوي: جمع أروى وهو الوعل، الأجادل: جمع أجدل وهو الصَّقر، منتشب: ملتف.

إِحْيَاءِ الْأَرْضِ وَإِنْبَاتِهَا بِنَبَاتٍ مُتعدِّدِ الْأَشْكَالِ وَالْأَصْنَافِ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ الأمْرُ مِنْ تَنَوُّعِ الأَلْوَانِ، وَالطُّعُوْمِ، وَالرَّوَائِحِ، وَالْمَنَافِعِ"[1].

وَقَدْ وَقَفَ سَيِّدُ قُطُب عَلَى ذَاتِ المَشْهَدِ وقْفَةَ فَنَّانٍ مُتذَوِّقٍ لِلجَمَالِ، مُتَحَسِّسٍ لِلْأَلْوَانِ، وإِبْدَاعِ تَنْظِيمِهَا، يَقُوْلُ: "وَإِنْبَاتُ النَّبَاتِ بَعْدَ نُزُولِ الْمَاءِ عَجِيْبَةٌ أُخْرَى لَا يَنْقَضِي مِنْهَا العَجَبُ، عَجِيْبَةُ الحَيَاْة، و عَجِيْبَةُ التَّنوُّعِ، وَعَجِيْبَةُ الْوِرَاثَةِ. إنَّ دِرَاسَةِ توزيعِ الأَلْوَانِ فِيْ زَهْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ نَبْتَةٍ وَاحِدةٍ؛ لَتَقُوْدُ الْقَلْبَ الْمَفْتُوْحَ إِلَى أَعْمَاقِ الحَيَاةِ، وأَعْمَاقِ الْإِيْمَانِ بِاللهِ مُبْدِعِ الحَيَاةِ"[2].

وَإِذَا كَانَتْ العَيْنُ تَعْمَلُ بِالْفِطْرَةِ، وَإِذَا كَانَ اللَّوْنُ هُوَ الخِصِّيصَة الْأُوْلَى لِلْأَشْيَاءِ، فَإِنَّ الاسْتِجَابَةِ الْجَمَالِيَّةِ لِلْأَشْيَاءِ تبدأ بالْاسْتِجَابَةِ لِأَلْوَانِهَا؛ وَذَلِكَ انْطِلَاقاً مِنْ أنَّ الخَصَائِصَ الْجَمَالِيَّةَ للتَّكْوِيْنَاتِ البَصَرِيَّةِ هِيَ مَا تَبْحَثُ عَنْهُ العَيْنُ أَوَّلاً، ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ مَرْحَلَهُ الْإِحَاطَةِ بِمَوْضُوْعِ الشَّيْء الْمُدْرَكِ، وَمَضْمُوْنِهِ. حَيْثُ إِنَّ "الْهَدَفَ الْجَمَالِيَّ فِيْ الْإِدْرَاك الْبَصَرِيِّ يَسْبِقُ الْهَدَفَ الْمَعْرِفِيَّ"[3]، وَانْطِلَاقاً مِنْ هَذَا الْمَفْهُوْمِ يَنْطَلِقُ مُحَمَّد الْمُوِيلْحِيّ فَيَوَظَّفُ الأَلْوَانَ الْمُبَاشِرَةَ، وَغَيْرَ الْمُبَاشِرَةِ، يَصْهَرُ الأَبْيَضَ، والأزرقَ، والْأَسْوَدَ فِيْ بَوْتَقَةِ إبداعِهِ، وَيَمْزِجَ أَلْوَانَ اللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ، وَالْمَشِيْبِ، وَالْحِدَادِ فِيْ رَائِعَتِهِ، فَيُقدِّمَ لَوْحَةً أَخَّاذَةً لِلَيْلَةٍ مُؤرِّقَةٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَتْ سُدُوْلَهَا عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ، وَنَفَتْ عَنْهُ النَّوْمَ، وَالرُّقَادِ، وَأَوْرَثَتْهُ الْأَرَقَ، وَالسُّهَادَ، يَقُوْلُ: "وَطَلَبَ مِنِّيْ أَنْ نُحْيِيَ اللَّيْلَةَ بِالسَّمَرْ، وَأَنْ أَقْتُلَهَا مَعَهُ بالسَّهَرِ، فَجَلَسْنَا نَتجَاذَبُ أَطْرَافَ الحَدِيْثِ، مِنْ قَدِيْمٍ فِيْ الزَّمَنِ، وَحَدِيْثٍ، إِلَى أَنْ صَارَتِ اللَّيْلَةُ فِيْ أُخْرَيَاتِ الشَّبَابِ، فَاسْتَهَانَتْ بِالْإِزَارِ وَالنِّقَابِ، ثُمَّ دَبَّ الْمَشِيْبُ فِيْ فُوْدِهَا، وَبانَ أَثَرُ الْوَضَحِ فِيْ جِلْدِهَا... ثُمَّ إِنَّهَا مَزَّقَتْ جِلْبَابَهَا، وَهَتَكَتْ حِجَابَهَا، وَبَرَزَتْ للنَّاظِرِينَ عَجُوْزَاً شَمْطَاءَ، تَرْتَعِدُ مُتَوَكِّئَةً عَلَى عَصَا الْجَوْزَاءِ، وَتُرَدِّدُ آخِرَ أَنْفَاسِ الْبَقَاءِ، فَسَتَرَهَا الفَجْرُ بِمِلَاءَتِهِ الزَّرْقَاءِ، وَدَرَّجَهَا الصُّبحُ فِيْ أَرْدِيَتِهِ الْبَيْضَاءِ، ثُمَّ قَبَرَهَا فِيْ جَوْفِ الْفَضَاءِ، وَقَامَتْ عَلَيْهَا بَنَاتُ هَدِيْلٍ، نَائِحَةً بِالتَّسْجِيْعِ وَالتَّرْتِيْلِ، ثُمَّ انْقَلَبَ الْمَأْتَمُ فِيْ الْحَالِ عُرْسَ اجْتِلَاء، وَتَغَيَّرَ النَّحِيْبُ بِالْغِنَاءِ، لِإِشْرَاقِ عَرُوْسِ النَّهَارِ، وَإِسْفَارِ مَلِيْكَةِ البُدُوْرِ وَالْأَقْمَارِ"[4].

يُبْدِعُ مُحَمَّد الْمُوِيلْحِيّ أَيَّمَا إِبْدَاعٍ فِيْ رَسْمِ لَوْحَةٍ بَارِعَةٍ عُنْوَانُهَا لِقَاءْ الْمُتَنَاقِضَاتِ، وَخُطُوْطُهَا جَمْعُ المُتَبَاعِدَاتِ، فَيَجْلُو الْغُمُوْضَ، وَيُزِيْلُ الْإِبْهَامَ، ويُضْفِي عَلَى لَوْحَتِهِ جَمَالاً إِلَى

---

[1] البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَرِ فِيْ تَنَاسُقِ الآيَاتِ والسُّوَرِ، (ج209/7)

[2] قطب، في ظِلَال القُرْآنِ، (ج22/6).

[3] يونس، التَّصْوِيْر الْجَمَالِيّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (97).

[4] المُويلحيّ، حديث عيسى بن هشام، (ص259). الفود: معظم شعر الرأس مما يلي الأذن، بنات هديل: الحمائم.

جَمَالٍ لَمَّا اعْتَمَدَ عَلَى التَّشْكِيلاتِ الْبَيَانِيَّةِ الْمُتَتَابِعَةِ الَّتِيْ يزيِّنُهَا تَشْخِيصُ الْجَمَادَاتِ، وتَجْسِيْمُ المَعْنَوِيَّاتِ، فاللَّيْلَةُ الْحَالِكَةُ يَقْتُلُهَا سَيْفُ السَّهْرِ، مِنْ بَعْدِ مَا دَبَّ الْمَشِيْبُ إِلَى شَعْرِهَا فَارْتَدَّتْ عَجُوْزَاً شَمْطَاءَ، تَرْتَجِفُ مُتَوَكِّئَةً عَلَى عَصَا الْجَوْزَاءِ، وَتُرَدِّدُ آخِرَ أَنْفَاسَ الْبَقَاءِ، فَيَرْتَدِي مَنْ خَلْفَهَا أَثْوَابَ الْحِدَادِ السَّوْدَاءَ، وَيَكْتَوِي بِنِيْرَانِ التَّعَاسَةِ، وَالشَّقَاءِ، وَيَصْطَلِي بِلَهِيْبِ الْحُزْنِ، وَشَرَرِ اللَّأْوَاءِ.

تَلَاعَبَ الْأَدِيْبُ هُنَا بالأَلْوَانِ الْمُبَاشِرَة، وَغَيْرِ الْمُبَاشِرَةِ، فَتَارَةً اسْتَخْدَمَ (الْبَيْضَاءَ)، وَأُخْرَى (الْمَشِيْب)، وَثَالِثَةً يُوَظِّفُ (شَمْطَاءِ)، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْجَانِبِ الْمُقَابِلِ، أَوْ النَّقِيْضِ فَيُغْشِي المَشْهَدَ بِسَوَادٍ حَالِكٍ عَبْرَ الكَلِمَاتِ (اللَّيْلَة، الْمَأْتَم، وَالنَّحِيْب)، لَكِنَّهُ لَمْ يَهْدَأْ حَتَّى بَدَّلَ اللَّيْلَ بالنَّهَارِ، وَالسَّوَادَ بِالْبَيَاضِ، وَالْمَأْتَمَ بِالْعُرْسِ، وَالنَّحِيْبَ بِالْغِنَاءِ، ثُمَّ أَضَاءَ الْعُرْسَ بِإِشْرَاقِ النَّهَارِ، وَإِسْفَارِ الْبُدُوْرِ وَالْأَقْمَارِ. كَمَا أَنَّ مَشْهَدَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، وَتَعَاقُبِهِمَا يَحْشِدُ صُوَرَاً مُتَعَدِّدَةً، وأَلْوَانَاً مُتَنَوِّعَةً تَمْتَدُّ أَمَامَ نَاظِرَيِ الْإِنْسَانِ، فَتَكُوْنُ لَهُ عِبْرَةٌ، وَلِغَيْرِهِ آيَةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وَعَوْدَةٌ إِلَى عَوَالِمِ التَّشْكِيلِ اللَّوْنيِّ عِنْدَ حَافِظ إِبْرَاهِيْم فِيْ رَائِعَتِهِ (لَيَالِي سطِيْح)؛ لِنُبْحِرَ قَلِيْلَاً فِيْ وَسَائِلِ تعبيره، وَنَغُوصَ فِيْ دَلَالَاتِ أَلْوَانِهِ، حِيْنَهَا نُدْرِكُ أَنَّ رَوَائِعَهُ مَا تَزَالُ رُسُومَاً تَزْيِيْنِيَّةً تَلْتَصِقُ عَلَى سَاحَاتِ هَذَا الْوَطَنِ، وَتُزَيِّنُ جُدْرَانَهُ، وَلَوْحَاتٍ تَعْبِيْرِيَّةً غُرِسَتْ فِيْ أَعْمَاقِ هَذَا الشَّعْبِ تَحْفَظُ كِيَانَهُ، وَنُقِشَتْ فِيْ قُلُوبِ أَبْنَائِهِ، وَمَا تَزَالُ مُفْرَدَاتُهُ مُتَوَهِّجَةً كَشَمْسِ الصَّبَاحِ، بَازِغَةً كَبَدْرِ التَّمَامِ، مُتَلَأْلِئَةً كَنُجُومٍ تَمْلَأُ سَمَاءَ الفَيَافِي، وَالْأَكْمَامِ، وَسَتَظَلُّ أَلْوَانُهُ نُوْرَاً يَرْسِمُ خُطَى المُتَعَطِّشِيْنَ، وَضِيَاءً يُنِيْرُ دُرُوْبَ الْعَاشِقِيْنَ، وَمَاءً سَلْسَبِيْلاً يَرْوِي ظَمَأَ الرَّاغِبِينَ، وَسَتَبْقَى كَلِمَاتُهُ، كُلُّ كَلِمَاتِهِ – دَوْمَاً– ضِيَاءً يُنِيْرُ لَيْلَ السَّاهِرِيْنَ، وَصُبْحَاً يُضِيْئُ ظُلُمَاتِ السِّنِيْنَ، كَيْفَ لَا؟ وَهُوَ شَاعِرُ الشَّعْبِ، وَشَاعِرُ النِّيلِ، يَقُوْلُ: "وَصَلْنَا إِلَى قَصْرِ الْجِيْزَةِ، وَمُتْحَفِ الْآثَارِ، وَمُلْتَقَى السَّيَّارَةِ مِنْ سَائِرِ الْأَقْطَارِ، فَدَخَلْنَا رَوْضَةً تَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ بَيْنِهَا، كَأَنَّهَا الْجَنَّةُ بِعَيْنِهَا، وَلَمَّا رَأَى الْبَاشَا مَسَالِكَ الرَّوْضِ مُنَضَّدَةً، وَطُرُقَهُ مُرَصَّعَةً مُزَرَّدَةً، حَسِبَهَا أَرْضَاً مَفْرُوْشَةً، بِبُسُطٍ مَنْقُوْشَةٍ، وَأُشْكِلَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ، فَهَمَّ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ...هُنَا كَانَتْ تَتَفَرطُ فَرَائِدُ الْقَلَائِدِ، مِنْ أَجْيَادِ الْخَرَائِدِ، فَتَخْتَلِطُ بِمَنْثُورِهِ أَزْهَارُه، تُرَصِّعُ لُجَيْن أَنْهَارِهِ، هُنَا كَانَتْ تَتَنَاثَرُ الْحُلِيِّ مِنْ قُدُوْدِ الْحِسَانِ، فَتَشْتَبِهُ بِأَثْمَارِ الْأَغْصَانِ"[1].

إِنَّ التَّنَقُّلَ بَيْنَ أَسْطُرِ الْمَقْطُوْعَةِ السَّابِقَةِ، ومُفْرَدَاتِهَا يُتْحِفُ المُتَلَقِّي فَيَخَالُ نَفْسَهُ فِيْ جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، قُطُوْفُهَا دَانِيَةٌ، وَأَلْوَانُهَا زَاهِيَةٌ، أَوْ رَوْضَةٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ بَيْنِهَا، وَكَأَنَّ حَافِظَ إِبْرَاهِيْم كَانَ

[1] إِبْرَاهِيْم، ليالي سطيح، (ص30، ص31).

يُلْقِي الْكَلِمَةَ فَتَتَنَاثَرُ مِنْهَا شَتَّى الأَلْوَانِ، وَقَدْ يُصَاحِبُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ أَجْمَلَ الْأَلْحَانِ، فَالكَلِمَاتُ (روضة، جنَّة، مرصَّعة، مزرَّدة، قلائد، أزهار، الحلي، أثمار، الأكمام)، تَحْمِل أَلْوَانَاً، وَقَلْ إِنْ شِئْتَ تَحْمِلُ لَوْحَاتٍ بَارِعَةً تزخرُ بِالْأَلوانِ، فالرَّوْضَةَ تَجْمَعُ بَيْنَ الأَبْيَضِ والْأَخْضَرِ، وتُؤَلِّفُ بَيْنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَصْفَرِ، وَتُلَائِمَ بَيْنَ الْأَزْرَقِ وَالْأَحْمَرِ. وَالْجَنَّةُ تَتَجَاوَزُ الرَّوْضَةَ فِيْ سِعَةِ الأَلْوَانِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ حَافِظُ إِبْرَاهِيم مِنْ سِعَةِ الأَلْوَانِ فِيْ الرَّوْضَةِ والْجَنَّةِ، إِلَى ضِيْقِ الْمَسَاحَةِ اللَّوْنيَّةِ فِيْ قَوْلِهِ (قَلَائِد، أَزْهَار، الْحُلِيّ، وَأَثْمَار)، وَتَضِيْقُ الْمَسَافَةُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ فِيْ (مُرَصَّعَة، وَمُزَرَّدَة). بَيْدَ أَنَّ التَّفَاوُتَ هُنَا فِيْ مُسْتَوَى اسْتِعْمَالِ الأَلْوَانِ أَعْطَى المَشْهَدَ جَمَالاً مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ، تَتَلَقَّفُهُ النَّفْسُ بِلَهْفَةٍ لِلْمُسْتَوَى الْمُتَفَرِّدَ الَّذِيْ قُدِّم بِهِ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: التَّشْكِيْلُ الْحَرَكِيُّ

تَسْتَمِدُّ الْحَرَكَةُ أَوْ الْحَرَكِيَّة فِيْ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ مُقَوِّمَاتِهَا مِنَ الذَّوْقِ الشَّعْبِيِّ الْعَامِّ، وَتَأْتِي فِيْ انْسِجَامٍ مَعَ التُّرَاثِ، وَالتَّارِيْخِ الْعَرَبِيِيْنِ، وَدَائِماً يَسْتَخْدِمُ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ التَّعابيرَ الْمَجَازِيَّةَ، وَالصُّوَرَ الآسِرَةَ الَّتِيْ تَتْرُكُ فِيْ النَّفْسِ أَثَرَاً مُوْحِياً جَمِيْلاً، فَتَجْعَلُ المُتَلَقِّي يَنْتَشِي مَزْهُواً مَعَ الْحَرَكَةَ الْمُوَارَاةِ، والصُّورَةِ الشِّعرِيَّةِ الرَّهِيْفَةِ. فَهِيَ "مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْوُجُودِ الْحَيِّ، فَبَدْءاً مِنَ الذَّرَّةِ حَتَّى الْمِجَرَّاتِ نَجِدُ أَنَّ الْحَرَكَةَ سِمَةُ الْمَخْلُوْقَاتِ، وَكَذَلِكَ هِيَ سِمَةُ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ، فَالْحَرَكَةُ حَيَاةٌ، وَالسُّكُوْنُ مَوْتٌ، كَمَا تُؤَكِّدُ حَرَكَةُ الْوُجُوْدِ بَثَّ الرُّوْحِ فِيْهِ، وَطَوَاعِيَتَهُ لِلْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ لَيْسَتْ حَرَكَةً عَمْيَاءَ، بَلْ قُدِّرَ لَهَا كُلُّ شَيْءٍ"[1].

وللمُنظِّرينَ آرَاءُ فِيْ جَمَالِ الْحَرَكَةِ فِيْ الفَنِّ، وَهُمْ يُطْلِقُوْنَ صِفَةَ الْجَمَالِ عليهَا بقدرِ مَا تُعبِّرُ بصدقِ تصويرِهَا عَنِ الحَيَاْةِ، فالْحَرَكَةُ مَوْجُوْدَةٌ فِيْ حياتِنَا كَمَا أَنَّهَا مَوْجُوْدَةٌ فِيْ الفُنُوْنِ عَلَى تنوُّعِها سَوَاءٌ أَكَانَتْ مَحْسُوْسَةً، أَمْ غَيْرِ ذَلِكَ. فالشَّاعِرُ العربيُّ حِيْنَمَا يصفُ مَشَاهِدَ لِفْصَلٍ رَبِيْعِيٍّ يَزْهُو بعبقِ الورودِ والرَّياحينِ، يبادرُ إِلَى تركيزِ حَشْدٍ مِنْ مُستلزماتِ اللَّوْحَةِ الرَّبيعيَّةِ الْجَمِيْلَةِ، كالأطيارِ المغرِّدةِ، والثَّلجِ القابعِ عَلَى الغصونِ، وميلانِ الأشجارِ، وَنَسَمَاتِ الصَّبَا الرَّبيعيِّ المنعشِ... مِمَّا يحيلُ اللَّوْحَةَ الطبيعيَّةَ إِلَى مَا يُشْبِهُ حَفْلَةَ عُرْسٍ مُوَارَاةً بالْحَرَكَةِ، والرَّقصِ. وَحِيْنَمَا يصفُ الْحَرْبَ فهوَ يصفُ الجيوشَ الجرَّارةَ بِبَحْرٍ مُتَلاطِمِ الْأَمْوَاجِ، أَوْ كَأَنَّهُ قِطَعُ ليلٍ عاتمٍ تَتَوَالَى فيه النُّجومُ، وتمورُ تَحْتَ النَّقْعِ بالْحَرَكَةِ واللَّمْعَانِ، ويصفُ منظرَ الدِّماءِ تَعْلُو أجسادَ الفُرسَانَ، وفرارهم مِنْ سَاحَاتِ الْوَغَى أَمَامَ ممدوحِهِ، بَيْنَمَا هو رابط الجأش، ثابت الجنان، لا يرفُّ له جفنٌ، ولا يخفق له قلبٌ وجلٌ!. وأَحْيَانَاً يصف وقفته بوقفةِ الأسدِ الرَّابضِ فِيْ عَرِيْنِهِ، والَّذِيْ لا تزحزحه الوحوش والضَّواري من مكانه. كَمَا وَصَفَ الشَّاعِرُ العَرَبِيُّ فِيْ الْقَدِيْمِ، فَرَسَهُ، وَحِصَانَهُ، وَنَاقَتَهُ، والسَّهل، والجبل، والمحبوبة، والْمَرْأَة الْجَمِيْلَة. مُسْتَعِيْنَاً في ذلك بالاسْتِعَارَة، والمَجَاز، والرَّمز، ويترك لوازمها بحَيْثُ تصبح كلُّ استعارةٍ صورةً مشخَّصةً لجانبٍ من اللَّوْحَة الَّتِيْ يرسمها.

وانسجاماً مع هُدُوءِ حركةِ المادةِ، وتوتُّرِهَا داخلَ النَّصِّ الْمَقَامِيِّ، حَقَّقَتِ الْمَقَامَاتِ هَاتِيْنِ الظَّاهرتينِ بِطَرِيْقَةٍ عَالِيَةٍ فِيْ الْأَدَاءِ، وَلَعَلَّ مَا يُمَيِّزُ النُّصُوْصُ الإِبْدَاعيَّةُ عَنْ مُجْمَلِ الأَدَبِ، هي تِلْكَ الْحَرَكَةُ المستمرَّةُ فِيْهَا، حَيْثُ الْجَمَالِيَّاتُ فِيْ مُسْتَوَاهَا الْمَادِيِّ، أَوْ الْمَعْنَوِيِّ فِيْ حَرَكَتِي مَدٍّ وَجَزْرٍ مُسْتمرَّتَيْنِ، مِمَّا يَرْفِدُ النَّصَّ، والْقَارِئَ بِشَهْوةٍ قِرَائِيَّةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، لِذَلِكَ ظَلَّتْ بِعَضُ المَقَامَاتِ حَاضَرَةً فِيْ الْخَيَالِ القِرَائِيِّ الَّذِيْ يُمْكِنُ أَنْ نُسَمِّيْهِ بـ (الذاكرة الثَّقافيَّة)، عَلَى النَّحو الَّذِيْ أَفْضَى

---

[1] ياسوف، جماليّة المفردة القرآنيَّة، (ص149).

بهذهِ النُّصُوْصِ تميُّزهَا عَنْ بقيةِ المُتُونِ الأَدَبيَّةِ؛ لِذَا فَإِنَّ المَقَامَاتِ مَا تَزَالُ الذَّاكِرةُ الثَّقافيَّةُ تَحْتَفِظُ بِهَا وبقراءَتِهَا؛ لِأَنَّ الذَّاكرةَ لَاْ تَحْتَفِظُ إِلَّا بِمَا هُوَ مُبْدِعٌ وَخَلَّاقٌ، عَلَى خَلِافِ الذَّاكِرَةِ الجمعيَّةِ الثَّقافِيَّةِ الَّتِيْ قَدْ تَخْلِطُ بَيْنَ الجيِّدِ، والرَّديءِ، والحَسَنِ، وَالقبيحِ.

وَعَوْدَةٌ إِلَى النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ، وَالتَّشْكِيلِ الْحَرَكِيِّ فِيْ سُطُورِهَا، فَإِنَّنَا نَلْمَحُ لِلْوَهْلَةِ الْأُوْلَى أَنَّ الْحَرَكَةَ هِيَ بِمَثَابَةِ عَنْصرِ الحَيَاْةِ، وَبِدُوْنِهَا تَفْتَقِدُ الحَيَاْةُ بَعْضَ مُقوِّمَاتِهَا، وَلَا أُبَالِغُ إِنْ قلتُ كَثِيْراً مِنْ مُقوِّمَاتِهَا، فانعدامُ الْحَرَكَةِ مَوَاتٌ مُحَقَّقٌ، وَنِهَايَةٌ تُعْطِي البُرْهَانَ عَلَى تَوَقُّفِ الحَيَاْةِ عِنْدَ نُقْطَةِ اللَّاحَيَاة.

إِنَّ الْحَرَكَةَ فِيْ الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ لَيْسَتْ تِلْكَ الْحَرَكَةَ المجرَّدةَ مِنْ اتِّجاهٍ إِلَى آخَرَ، إِنَّهَا حركةُ الحَيَاةِ بِكُلِّ تناقضاتِهَا، وَحَرَكَةُ الوجودِ بِكُلِّ حَيْثِيَّاتِهِ، فالمَقَامَةُ تعتمدُ عَلَى "التَّشْكِيلِ الْحَيْوِيِّ الْمُرْتَكِزِ عَلَى التَّوَتُّرِ الحَرَكيِّ لِلنَّصِّ، مُسْتَمَدَاً مِنْ تَوَتُّراتِ الحَيَاْةِ، وجدليَّةِ تضادِّهَا، حَيْثُ تَتَعَدَّدُ الْأَصْوَاتُ، وَتَتَدَاخَلُ الأزمنةُ، وتتقارَبُ المسافَةُ بَيْنَ الدَّوَالِ، ومدلُوْلَاتِهَا"[1].

وَمَنْ يُدقِّقِ النَّظَرَ يَجِدْ أَنَّ أُسْلُوبَ المَقَامَةِ يتأرجَحُ بَيْنَ السُّرْعَةِ وَالبُطْءِ، انْسِجَاماً مَعَ النَّصِّ المقاميِّ الَّذِيْ يتطلبُ السُّرْعَةَ فِيْ حَرَكِيَّةِ الصُّورَةِ تَارَةً، وَخِلَافِ ذَلِكَ تَارَةً أُخْرَى؛ فالصُّورَةُ عِنْدَ كَثِيْرٍ مِنْ كُتَّابِ المَقَامَةِ هِيَ حَرَكةٌ مُتَتَابِعَةٌ مُتَوَاصِلَةٌ، مَمَّا يَجْعَلُهَا فِيْ اسْتِحْضَارٍ دائمٍ فِيْ الذَّاكِرَةِ، وَهَذِهِ الصُّورَةُ تتنوَّعُ فِيْ مُعْطَيَاتِ حَرَكَتِهَا بَيْنَ البُطْءِ، والسُّرْعَةِ حِيْنَاً، وَالْهُدُوْءِ، وَالتَّوَتُّرِ أَحْيَانَاً أُخْرَى، بِحَسَبِ الْمَوْقِفِ الْمَقَامِيِّ. وَثَمَّةَ نَتِيْجَةٌ أَخِيْرَةٌ لَابُدَّ مِنَ الْحَدِيْثِ عَنْهَا، هِيَ تَعانُقُ المِحْوَرَيْنِ تَعَانُقَاً بِنَائِيَّاً، فَمَتَى مَا كَانَتِ الصُّورَةُ سَرِيْعَةً، كَانَتْ مُتَوَتِّرَةً، وَمَتَى مَا كَانَتْ بَطِيْئَةً، كَانَتْ هَادِئَةً.

وَبِدَايَةُ الحَدِيْثِ يَنْطَلِقُ مِنْ رَوْعَةِ التَّشْكِيلِ الْحَرَكِيِّ فِيْ (المَقَامَة الرُّوميَّة) الَّتِيْ تَحْمِلُ فِيْ ثَنَايَاهَا كُلَّ مُقَوِّمَاتِ الْحَيَوِيَّةِ، والْاضْطِرَابِ، والْحَرَكَةِ الْمُتَوثِّبةِ الَّتِيْ يَخْتَفِي خَلْفَهَا ثَوْرَةٌ عَارِمَةٌ تَتَدَفَّقُ مِنَ الْعُرُوْقِ، يَشْدُو شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيّ مُغرِّدَاً: "فَحَلَلْنَا عُقْدَةَ الْحَزْمِ بِأَضْرَاسِ النَّدَمِ عَنِ الْجِيَادِ، وَامْتَطَيْنَا غَارِبَ الْعَزْمِ وَمَا لَنَا غَيْر الْمُنَى مَاءٌ، وَزَادٌ، مَا بِيْنَ ثَمْلٍ مِنْ خَمْرِ السُّرَى، وَرَاكِعٍ، وَسَاجِدٍ فِيْ تَهَجُّدِ الكَرَى، حَتَّى حَطَّتْ رِحَالُ التَّرْحَالِ بقسطنطينيةِ الرُّوْمِ...والبَحْرُ مَدَّ لِعِنَاقِهَا سَاعِدَيْهِ، والْأَمْوَاجُ تُقبِّلُ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَسَمْتُ فِيْ رِيَاضِهَا سَوَامِيَ النَّظْرِ، وَأَجلتُ فِيْ حِلْيَةِ الذِّهْنِ قِدَاحَ الْفِكْرِ، فَإِذَا هِيَ جَنَّةٌ مُلِئَتْ بِالْحُوْرِ وَالْوِلْدَانِ، وَحُفَّتْ بالشَّهَوَاتِ إِذْ حُفَّتِ المَكَارِهُ بالجِنَانِ، مِنْ

---

[1] العفّ، التَّشْكِيل الْجَمَالِيّ في الشِّعر الفلسطينيّ الْمُعَاصِر، (ص184).

كُلِّ شَادِنٍ سَرَقَ التِفَاتَةَ الْغَزَالِ، وتسلَّلتْ لِتَرَى لُطْفَهُ الصَّبَا، والشِّمَالُ، جَرَى فِيْهِ مَاءُ النَّعِيْمِ والهيفِ، وَحَار فِيْهِ الرَّأيُ، فَلَوْ رَآهُ سَيْلُ تَلْعَة لَوَقَفَ"[1].

تَنْسَجِمُ الْأَفْعَالُ، وَتَتَلَاحَمُ مَعَ الأَسْمَاءِ، وَقُلْ إِنْ شِئْتَ تَنْصَهِرُ مَعَهَا فِيْ بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لِتَرْسمَ صُوَرَاً بِارِعَةً تَبْدُو مُشَاهدةً لِلقَارِئِ مَعَ الْفِعْلَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ (حللنا، وامتطينا)، والأَسْمَاءُ (التَّرْحَال، البحر، الْأَمْوَاج، الغزال، الصّبا، وسيل) والَّتِيْ تَتَدفَّقُ حَرَكَةً بِكُلِّ مُسْتَوَيَاتِهَا هَادِئَةً كَانَتْ، أَمْ مُتَوَتِّرَةً، كَمَا تُصَوِّرُ مَحَاوِرَ السُّرْعَةِ والتَّوَتُّرِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَالهُدوءِ والبُطْءِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، فَيَرْسِمُ كُلٌّ مِنْهُمَا صُوْرَةَ الْجَمَالِ لِلآخَرِ.

إنَّ المُتَنقِّلَ بَيْنَ كَلِمَاتِ هَذِهِ المَقَامَةِ تَتَلَقَّفُهُ حَرَكَةٌ دَائِبَةٌ تَبْدَأُ مِنَ الْفِعْلِ الْمَاضِي (امتطينا) الَّذِيْ يَنْقُلُنَا إِلَى حَرَكَاتِ الْخَيْلِ الْمُتَسَارِعَةِ، وَدُرُوْبِ الرِّحْلَةِ الْمُتَوَاصِلَةِ، يَتْلُوْهَا حَرَكَةٌ مُتَتَابِعَةٌ صُحْبَةَ الْبَحْرِ، والأَمْوَاجِ، ثُمَّ حَرْكَةٌ سَرِيْعَةٌ مَعَ الغَزالِ، يَتْلُوْهَا هُدُوْءٌ، وَسَكِيْنَةٌ فِيْ (حطَّت، والصَّبا)، وَمَعْ هَذَا التَّلْوِيْنِ الْحَرْكِيِّ بَيْنَ الْهُدُوءِ، والسُّرْعَةِ، وَبَيْنَ البُطْءِ، وَالتَّوَتُّرِ تتحرَّكُ مَشَاعِرُ الْمُتَلَقِّي حَيْثُ تَثُوْرُ مَعَ السُّرْعَةِ، وَيَنْطَفِئُ لَهِيْبَهَا، وَتُخْمَدُ جَذْوَتُهَا مَعَ الْهُدُوءِ، وَالسَّكِيْنَةِ.

وَمَعْ فَاعِلِيَّةِ الْفَعْلِ الْمُضَارِعِ، وتجدُّدِهِ فِيْ الْحُدُوْثِ مِنْ نَاحِيَةٍ، واستمرَارِهِ، واستِحْضَارِ الصُّورَةِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى يَرْسِمُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ لَوْحَةً تَزْخَرُ بالْحَرَكَةِ والحيويَّةِ، ثمَّ تنحدرُ شَيْئَاً فشَيْئَاً إِلَى السَّكينةِ والهُدُوْءِ، حَيْثُ بَرَعَ فِيْ تَوْظِيْفِ الْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ الَّتِيْ يحملُ كُلٌّ مِنْهَا كَمًّا هَائِلَاً مِنْ مُعْطَيَاتِ الْحَرَكَةِ، والْحَيَوِيَّةِ صُعُوْدَاً، وهُبُوْطَاً، فيَغْدُو كُلُّ شَيْءٍ مَرْئِيَّاً، وَمَحْسُوساً، فِيْ قَوْلِهِ: "وَيْلَكَ يَا عَدُوَّ اللهِ، مَا كَفَاكَ أَنْ تَكُونَ فَاسِقَاً حَتَّى صِرْتَ سَارِقاً، فلأُقِيمنَّ عَلَيْكَ الْحَدَّ والقطْعَ، وَلَأَجْعَلَنَّكَ عِبرةً إِلَى يَوْمِ الْجَمْعِ، فَطَارَتْ نَفْسُ الْفَتَى شُعَاعَاً، وَاسْتَطَارَ فُؤَادُهُ ارْتِيَاعَاً، وَجَعَلَ يَتَهَطَّرُ لَدَيْهِ بِالسُّؤَالِ، ويُدمِّثُ لَهُ المَقَالَ، وَالشَّيْخُ يشمخُ بِأَنْفِهِ، وَيَهِزُّ مِنْ عِطْفِهِ، وَيَرْمَحُ برجلِهِ، وَيُشِيْرُ بكفِّهِ، فَكَادَ الْفَتَى يَذُوْبُ مِنَ الْحَيَاءِ، وَظَنَّ أَنَّ صَاعِقَةً هَبَطَتْ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ، فَذُهِلَ الْفَتَى عَنْ معرفَتِهِ بالتَّلميحِ، وَمَا صَدَّقَ أَنْ أَطْلَقَ سَاقَيْهِ للرِّيْحِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ إِلَى الوَقَارِ، وَقَفَ بِعَرْصَةِ الدَّارِ"[2].

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا (المَقَامَة الرُّوْمِيّة)، (ص369). التَّلعة: مسيل الماء إلى الوادي، منه قول الشَّاعر: **فمنْهُنَّ أنْ لا تجمعَ الدَّهرُ تلعَةٌ ..... بيوتاً لنا يا تَلْعَ سَيْلُك غامضُ**. العَسْكَرِيّ، جَمْهَرَة الْأَمْثَال، (ج200/2).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحَلَبِيَّة)، (ص59). يتهطر: من الهطرة، وهي تذلل الفقير للغني إذا سأله، يرمح: يرفس، يوم الجمع: يوم القيامة.

إنَّ مَوْسُوْعَةَ الْحَرَكَةِ في الْمَقْطُوْعَةِ السَّابِقَة تبدو متكاملةَ العَنَاْصِر، زَادَ مِنْ إِتْمَامِ مَشَاهِدهَا، الشَّواجِرُ بَيْنَ الأَسْمَاءِ والأَفْعَالِ، وَمَدَى الْعَلاَقَةِ بَيْنَهُا، فَمِنَ الْحَرَكَةِ المتوثِّبةِ فِيْ الْأَفْعَالِ (طارت، استطار، وهبطت)، إِلَى الحيويَّةِ المتجدِّدةِ فِيْ الْمُضَارِعِ (يهزُّ من عطفه، يرمحُ برجله، ويشيرُ بكفِّه) حَيْثُ غَدَا المُتَلَقِّي أَمَامَ مَشْهَدٍ مَرْئِيٍّ يُمَتِّعُ نَاظِرَيْهِ بِالْحَرْكَاتِ الَّتِيْ حَمَلَتْهُا الْأَفْعَالُ (يهزّ، يرمح، يشير)، وَأَكْمَلَ مَشَاهِدَ الْجَمَالِ تَوْظِيْفُ الْفِعْلَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ (صدَّق، وأَطْلَق)، اللَّذَيْنِ استوعبا مَسَاحَةً شَاسِعَةً مِنَ الْحَرَكَةِ المتوثِّبةَ فِيْ الْخَاتَمَةِ (وَمَا صَدَّقَ أَنْ أَطْلَق ساقيه للرِّيحِ).

وَلَمْ يَكْتَفِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ باستخدامِ الْأَفْعَالِ، بَلِ انْتَقَى مَا شَاءَ مِنَ الأَسْمَاءِ الَّتِيْ أكملتْ مَشَاهِدَ الْحَرَكَةِ فِيْ قَوْلِهِ: (يوم الجمع، صاعقة، والرِّيح)، وَمَا حَمَلَتْهُ الثُّلاثيَّةُ مِنْ حَرَكَةٍ دَائِبَةٍ لَاْ تُضَاهِيْهَا حَرَكَةٌ، فَيَوْمُ الْجَمْعِ، وَالصَّاعقةُ، والرِّيْحُ تَحْمِلُ فِيْ ثَنَايَاهَا أَبْعَاداً حَرَكِيَّةً مُتَوتِّرَةً أَشَدَّ مَا يَكُوْنُ التَّوَتُّر، ثُمَّ يَنْتَهِي مَشْهَدُ الْحَرَكَةِ بِهُدُوءٍ غَرِيْبٍ، وَسُكُونٍ عَجِيْبٍ حَمَلَ السَّكينةَ، كُلَّ السَّكِيْنَةِ تضَمَّنَهُ قُوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: (ثابَ إِلَى الوَقَارِ).

وَمِنْ رَوَائِع النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ الَّتِيْ تفوَّقتْ فِيْ رَسْمِ التَّشْكِيلِ الْحَرَكِيِّ، رَائِعَةُ عَبْد الله فِكْرِيّ، (المَقَامَة الفكريَّة) الَّتِيْ تتداخَلُ بَيْنَ سُطُوْرِهَا شَوَاجَرُ الْحَرَكَةِ، صُعُوداً وهُبُوطاً، سُرْعَةً وهُدُوْءاً، يَقُوْلُ: "وَسِرْنَا نَطْوِي الْمَنَازِلَ، ونقطعُ المَرَاحِلَ مِنْ طَرِيقٍ إِلَى طَرِيْقٍ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَضِيْقٍ، خَرَجْنَا مِنْهُ إِلَى قُبَّةٍ بَدِيْعَةٍ، عَلَى رَبْوَةٍ رفيعةٍ، يتَّصِلُ بِهَا كُلُّ مَا اشْتَمَلَتْ عليه المملكةُ فِيْ جَمِيْعِ أَنْحَائِهَا مِنْ مَوَارِدِهَا وَطُرُقَاتِهَا، وَمَسَالِكِهَا وَجَدَاوُلِ مَائِهَا، وَفِيْ هَذِهِ القُبَّةِ مِنَ الْأَنْوَارِ اللَّامِعَةِ، وَالْأَشِعَّةِ السَّاطِعَةِ مَا يُعْشِي الْأَبْصَارَ، وَيُدْهِشُ النُّظَّارَ "[1].

تَسْتَثْمِرُ المَقَامَةُ الفِكْرِيَّةُ الْأَفْعَال (سِرْنَا، نَطْوِي، نَقْطَع، خَرَجْنَا) مِنْ أَجْلِ مَنْحِ الصُّورَةِ فِيْ النَّصِّ الْمَقَامِيِّ طَاقَةً حَرَكِيَّةً أَكْبَرَ، تَدُلُّ هَذِهِ الطَّاقَةُ عَلَى التَّوَتُّرِ الَّذِيْ يَنْسَحِبُ عَلَى السَّيرِ، وَقَطْعِ الْمَسَافَاتِ، وَلَكِنَّ فكريّ اسْتَطَاعَ بِذَكَائِهِ، وَطَاقَتِهِ الإِبْدَاعيَّةِ الخَلَّاقَةِ نَقْلَ فِعْلِ التَّوَتُّرِ الَّذِيْ يَبْدُو غَيْرَ وَاضِحٍ مِنْ حَيْثُ المَعَالِمُ مِنْ ذَاتِهِ إِلَى أُمُورٍ مَعْنَوِيَّةٍ؛ لِذَلِكَ انتقلتْ صُوْرَةُ الْأَفْعَال المُتَوَتِّرةِ (سِرْنَا، نَطْوِي، نَقْطَع، خَرَجْنَا)؛ لِتَرْسمَ صُوْرَةَ الْحَرَكَةِ الدَّائِبَةِ الَّتِيْ تَكْتَنفُ المَشْهَدَ، تِلْكَ الصُّورَةُ زَيَّنَتْهَا بَرَاعَةُ الْأَدِيْبِ فِيْ تَوْظِيْفِ الأَسْمَاءِ الَّتِيْ تَدُوْرُ خِلَالَهَا الْحَرَكَةُ فِيْ (جَمِيْعِ أَنْحَائِهَا مِنْ مَوَارِدِهَا وَطُرُقَاتِهَا، وَمَسَالِكِهَا وَجَدَاوُلِ مَائِهَا) والَّتِيْ تُوْحِي باتِّسَاعِ رُقْعَةِ الْحَرَكَةِ. وَلَمْ يَغْفَلْ تَصْوِيرَ حَجْمِ الْحَرَكَةِ فِيْ ثَنَايَا الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ (نَطْوِي) الَّذِيْ يستوعبُ بَيْنَ حُرُوْفِهِ كُلَّ دَلَالَاتِ التَّوَتُّرِ، والْحَيَوِيَّةِ.

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص283، ص284).

يَسِيْرُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ بمُفْرَدَاتِهِ واثِقَ الخُطَى هَادِئاً تَارَةً، ويَنْطَلِقُ سَرِيْعاً تَارَةً أُخْرَى مُوَظِّفاً الصُّوَرَ التَّقابليَّةَ، فَمَعْ خُطُوَاتِ الرَّحِيلِ الدَّائِبَةِ، وَحَرَكَاتِ الإبلِ الهادئةِ يُقدِّمُ فَاصِلاً مِنْ جَمَالِيَّاتِ الْحَرَكَةِ فِيْ (المَقَامَة التَّغلبيَّة)، يَقُوْلُ: "شخصتُ في نفرٍ مِنْ أهلِ العاليةِ، إِلَىْ أَطْرَافِ تِلْكَ الباديَةِ، فَسِرْنَا لَاْ نَأْلُو جهْدَاً، وَلَا نَعْلُو مَهْدَاً، حَتَّى تَبَطَّنَّا مَفَازَةً قَدْ ضَرَبَتْ أَسَاهِيجَهَا الرِّيحُ، كَأَنَّهَا أَهَاجِيْجُ شَقٍّ أَوْ سطيحٍ، فَأَرْسَلْنَا إبلَنَا العراكَ، وأَخَذْنَا فِيْ الرَّسِيمِ والدِّرَاكِ، وَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذَا فَرْسَانٌ قَدْ أَشْرَعُوا الْعَوَامِلَ...حَتَّى أَحَاطُوا بِنَا إِحَاطَةِ الإسورةِ بِالْمَعَاصِمِ، وَقَالُوا لَا مَانِعَ لَكُم اليومَ مِنْ أَمْرِ اللهِ، وَلَاْ عَاصِمَ، فَسِرْنَا بيْنَهُمْ كالنِّعَاجِ بَيْنَ الذِّئَابِ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى حِلَّةٍ كَثِيْرةِ الخيامِ والقِبَابِ، مُكتظَّةٍ بالخَيْلِ والرِّكَابِ"[1].

يُسَيْطِرُ الْأَنَا عَلَى مَحَاوِرِ التَّشْكِيلِ الْحَرَكِيِّ فِيْ (المَقَامَة التَّغلبيَّة)، حَيْثُ غَلَبَ ضَمِيْرُ الْمُتَكَلِمِ الْمُصَاحِبِ لِلْحَرَكَةِ فِيْ الْأَفْعَال الْمَاضِيَةِ (سِرْنَا، تَبَطَّنَّا، أَرْسَلْنَا، وانْتَهَيْنَا)، وَفِيْ الْأَفْعَال الْمُضَارِعة (نَأْلُو، نَعْلُو)، وَيَكْتَمِلُ مَشْهَدُ الْحَرَكَةِ فِيْ بَرَاعَةِ انْتِقَاءِ الأَسْمَاءِ (الرِّيْحِ، الدِّراك، العراك، فرسان، والخيل)، حَيْثُ تتفاعل الْأَفْعَال الْمَاضِيَةُ والْمُضَارِعةُ مع الأَسْمَاءِ، وَتَنْصَهِرُ فِيْ بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لتشكِّلَ مَشْهَدَاً حركيَّاً حيَّاً تسيطرُ عليه أجواءُ التَّوَتُّرِ والسُّرْعَةِ، مَعْ مَا يَكْتَنِفُ المَشْهَدُ مِنَ تحقيقٍ، وَتَأكِيْدٍ مِنْ نَاحِيَةٍ، وتجدُّدٍ واستمرارٍ مع استحضارٍ للصُّورة مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى. وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ التَّوَتُّر هُنَا "يَتَأَتَّى مِنْ أُحَادِيَّةِ الرَّحِيْلِ، أَوْ لِنَقُلْ إِنَّهُ رَحِيْلٌ فِيْ اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ، لَاْ يَعْرِفُ التَّوَقُّفَ...الرَّحِيلُ إِلَى الْمَجْهُولِ الَّذِيْ يَغُوْصُ فِيْ مَنَاطِقِ الْاغْتِرابِ، والضَّيَاعِ"[2].

وَعَوْدَةٌ إِلَى نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ الَّذِيْ يَبْدُو تفوُّقُهُ فِيْ تَشْكِيْلِ الصُّورةِ جَلِيَّاً، فَهُوَ يفجِّرُ مِنَ الْأَفْعَالِ "مَشْهَدَاً دِيْنَامِيَّاً يَتَفَاعَلُ فِيْهِ الجَامِدُ مَعَ الْمُتَحَرِّكِ، وَالْحَيُّ مَعَ الْمَيِّتِ، وَالْآخَرُ مَعَ الْأَنَا، والضَّيِّقُ مَعَ الشَّاسِعِ، والْحَاضِرُ مَعَ الْمُحْتَمَلِ"[3].

وَمِنَ النَّمَاذِجِ الَّتِيْ تستحضرُ الصُّورَ الْمُتَوَتِّرَةَ، والْحَرَكَةَ الْمُتَوَثِّبَةَ الْمُتَقَلِّبَةَ بَيْنَ السُّرْعَةِ والْهُدُوْءِ مَا رَسَمَتْهُ (المَقَامَة الفُرَاتيَّة)، يَقُوْلُ فَارِسُهَا، نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "حدَّثَ سُهَيْلُ بنُ عبَّادٍ قَالَ: نَزَلْنَا شَاطِئَ الفُرَاتِ، فِيْ إِحْدَى السَّفَرَاتِ، فَرَاقَنَا مَا هُنَاْكَ مِنَ المياهِ الخَصِرَةِ، والْخَمَائِلِ النَّضِرَةِ، وَلَبِثْنَا أَيَامَاً نتنقَّلُ فِيْ تِلْكَ الْمُرُوْجِ، كَمَا تَتَنَقَّلُ الكَوَاكِبُ فِيْ البروجِ، وَنجْتَلِي مُفَاكَهَةَ السَّمرِ، كَمَا نَجْتَنِي فَاكِهَةَ الثَّمَرِ، وَنَتَوَسَّدُ كُلَّ قِضَّةٍ، أَنْقَى مِنَ الْفِضَّةِ، وَنَرِدُ كُلَّ سَبِيْلٍ، أَعْذَبَ مِنَ السَّلْسَبِيْلِ،

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة التغلبيَّة)، (ص83، ص84). أساهيجها: خطوط الرمل، الرسيم: السير السريع، الدراك: السير المتتابع، العوامل: الرماح.

[2] عَبْد الْمُطَّلِب، هكذا تكلَّم النَّص، (ص17).

[3] يحياوي، الشِّعر العربيّ الحديث، دراسة في المنجز النَّصيّ، (ص36).

حَتَّى إِذَا أَزِفَ التَّرْحَالُ، وَشُدَّتِ الرِّحَالُ، قِيْلَ قَد فَاحَ نَشْرُ الْخُزَامِ، عَلَى الْأَنَامِ، فَنَظَرْتُ وَإِذَا شَيْخُنَا المَيْمُونُ، والنَّاسُ إِلَيْهِ يَهِيمُوْنَ، وَعَلَيْهِ يَحُوْمُوْنَ، فَنَفَرْتُ إِلَيْهِ نَفْرَةَ الرِّيمِ، فِيْ ثَنَايَا الصَّرِيْمِ، فَنَقَضْنَا غَزْلَنَا أنكاثاً، وَعُدْنَا فَأَقَمْنَا ثَلَاثاً"[1].

تَتَجَلَّى فِيْ النَّصِّ دَلَالَاتٌ مُتَنَوِّعَةٌ شَكَّلَهَا سيطرةُ الأَنَا عَلَيْهِ، فِيْ أزمِنَةٍ مُتَقَاطِعَةٍ بَدَأَتْ فِيْ الْمَاضِي (نزلنا، راقنا، لبثنا، نقضنا، عُدنا، أقمنا)، تابعها الفعل الْمُضَارِع صُحْبَةَ الأَنَا كَذَلِكَ، (نجتلي، نجتني، نتوسَّد، ونَرِد)، ثُمَّ ما لَبِثَ أَنِ ارْتَدَّ إِلَى الْمَاضِي مَرَّةً أُخْرَى (أزِف، شدَّت، قيل، فاح، نشر، ونظرت)، وَلَمْ يتوقَّفِ الْأَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَعَادَ الكَرَّة مَرَّةً أُخْرَى مُتعلِّقاً بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ (يهيمونَ، يحومونَ)، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُزَاوِجَ بَيْنَ الْمَاضِي وَالمستقبلِ فِيْ الْحَرَكَاتِ الْهَادِئَةِ، والْمُتَوَثِّبَةِ دَفْعَاً للرَّتَابَةِ والسَّآمَةِ، فَقَدْ مَنَحَ تنوُّعُ أَزْمِنَةِ الْأَفْعَالِ الصُّورَة حَيَوِيَّةً، وَحَرَكَةً، وَسُكُوْنَاً وَهُدُوْءَاً يُوازِي كَمَّ الانْفِعَالَاتِ الَّتِيْ تُسَيْطِرُ عَلَى النَّصِّ، وَلَعَلَّ مَشَاهِدَ العُدُولِ هُنَا فِيْ التَّنَقُّلِ بَيْنَ الأزمنةِ فِيْهَا "تَطْرِيَةُ الْكَلَامِ، وصيانَةُ السَّمْعِ عَنِ الضَّجَرِ، والملالِ، لِمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النُّفُوْسُ مِنْ حُبِّ التَّنَقُّلَاتِ، والسَّآمَةِ مِنَ الاستمرارِ عَلَى مِنْوَالٍ وَاحِدٍ"[2].

كَمَا أَنَّ هَذَا العُدُولَ فِيْ التَّنَقُّلِ بَيْنَ الْأَفْعَالِ يَمْنَحُهَا الْحَرَكَةَ وَالْمُفَاجَأَةَ؛ فَهُوَ "فَنٌّ بَدِيْعٌ مِنْ فُنُوْنِ الْقَوْلِ يشبِهُهُ تحريكُ آلاتِ التَّصْوِيْرِ السِّينمائيِّ بِنَقْلِهَا مِنْ مَشْهَدٍ إِلَى مَشْهَدٍ آخَرَ فِيْ المُخْتَلِفَاتِ والْمُتَبَاعِدَاتِ الَّتِيْ يُرادُ عَرْضُ صُوَرٍ مِنْهَا، وَمُفَاجَأَةُ المُشَاهِدِ بِلَقَطَاتٍ مِنْهَا مُتَبَاعِدَاتٍ، لكنَّهَا تدخلُ فِيْ الإِطَارِ الْكُلِّيِّ الَّذِيْ يُرادُ عَرْضُ طَائِفَةٍ مِنْ مَشَاهِدِهِ تَدُلُّ عَلَى مَا يُقْصَدُ الْإِعْلَامُ بِهِ"[3]. وَفَوْقَ هَذَا وَذَاكَ مِنْ مَشَاهِدِ الرَّوْعَةِ، يُحِيْطُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ حَدِيْثَهُ بِأَجْوَاءِ القَدَاسَةِ لَمَّا قَفَل عَائِدَاً إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ يَتَلَمَّسُ آيَاتِهِ، فِيْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ [النحل: 92].

وَإِلَى عَوَالِمِ التَّفَاؤُلِ حَيْثُ حَمَلَتِ (المَقَامَة الحَمَويَّة) بِعُنْوَانِهَا مَشَاهِدَ حَرَكِيَّةً مُتَنَوِّعَة تبعثُ إليه بِمَا احتوَتْهُ مِنْ مُفْرَدَاتٍ، يَقُوْلُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ عَلَى لسانِ سهيلِ بنِ عَبَّاد: "لَقِيْتُ الْخُزَامِيَّ فِيْ حَمَاةَ، فانضويتُ إِلَى حِمَاهُ، ولبثتُ أتنسمُ ريَّاهُ، وأترشفُ حُمَيَّاهُ، وَهُوَ يَطُوْفُ بِي عَلَى الرِّيَاضِ والْغِيَاضِ، ويَرِدُ المعينَ والحياضَ، ويتفقدُ الْأَجَارِعَ النَّضِرَةَ، والْخَمَائِلَ الغَضِرَةَ، حَتَّى

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الفراتيَّة)، (ص325). الخصرة: الشديدة البرد، القضة: الحصى الصغيرة، الصريم: الرمل المنقطع.

[2] السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن، (ج253/3).

[3] الْمَيْدَانِيّ، الْبَلَاغَة الْعَرَبِيَّة أسسها وعلومها وفنونها، (ج480/1).

دَخَلْنَا إِلَى حديقةٍ بهيجةٍ أنيقةٍ، والدَّوَالِيْبُ حَوْلَهَا تَحِنُّ حَنِيْنَ النَّاقَةِ الرَّؤُوْمِ، وتئنُّ أَنِيْنَ المُدْنَفِ السَّؤُومِ، فَجَعَلْنَا نتخيَّرُ الأفياءَ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى ظِلالٍ لَمْيَاءَ، فَجَلَسْنَا وَقَدْ أطاعَنَا الْعَاصِي، وتسخَّرتْ لَنَا مياهُهُ مِنَ الْأَقَاصِي، وَأَخَذْنَا نَجْتَنِي الثِّمارَ الذَّوابلَ، مِنَ الأفنانِ السَّوابلِ، وَقَدْ رَقَصَ البُلْبُلُ عَلَى نَغَمَاتِ الْبَلَابِلِ"[1]. لَقَدْ حَلَّتِ (المَقَامَة الحمويَّة) فِيْ أعمالِ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ، فكَانَتْ طرازاً فريداً شَكَّلَ مِحْوَرَاً مِنْ مَحَاوِرِ الإِبْدَاعِ فِيْ نُصُوْصِهِ الْمَقَامِيَّةِ، فالْقَارِئُ أَمَامَ مَشَاهِدَ متتابعةٍ مفعمةٍ بحركةٍ دائبةٍ، وممتلئةٍ بحيويةٍ تبدو ملامِحُهَا في مُفْرَدَاتٍ تصوِّرُ الحيويَّةَ بِكُلِّ مَعَانِيها مَع قَوْلِهِ: (وَهُوَ يَطُوْفُ بِي عَلَى الرِّيَاضِ والْغِيَاضِ)، وَمَعْ بَاقَةٍ مِنَ الكَلِمَات الَّتِيْ يفوح شذى التَّفَاؤُل منها: فهنا المعينُ والحياضُ، الأجارعُ النَّضرةُ، والخمائلُ الغضرةُ، وَهُنَاْكَ الثِّمارُ الذَّوَابِلُ، والأفنانُ السَّوابِلُ، رَقَصَ البُلْبُلُ عَلَى نَغَمَاتِ الْبَلَابِلِ، وَيُكْمِلُ اليَازْجِيّ المَشْهَدَ بهدوءٍ مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ، وسكونٍ ينبعثُ مَعْ عَذْبِ الْأَصْوَاتِ، مَعْ حَنِيْنِ النَّاقَةِ الرَّؤُومِ، وَمِنْ أنينِ المُدْنَفِ السَّؤُومِ. وبِذَلِكَ جَمَعَ اليَازجِيّ بَيْنَ التَّشْكِيلِ اللَّوْنيِّ فِيْ قَوْلِهِ: (الثِّمَار، الرِّياض، الخمائل)، والتَّشْكِيلِ الْحَرَكِيِّ فِيْ قَوْلِهِ: (يطوف، والدَّواليب)، كَمَا زُيِّنَ الْمَشْهَدُ بِرَوَائِعِ التَّشْكِيلِ الصَّوْتِيِّ فِيْ قَوْلِه: (نغمات، حنين، وأنين)، فقدَّمَ صُوْرةً كليَّةً متكاملةً موشَّاةً بِخُطُوطِ اللَّوْنِ، والصَّوتِ، والْحَرَكَةِ.

وَتَتَوَالَى فُصُوْلُ الإِبْدَاعِ حَيْثُ رَسَمَ مُحَمَّد الْمُوِيلْحِيّ فِيْ رَائِعَتِهِ (حديث عيسى بن هشام) لوحةً فائقةَ الْجَمَالِ قَدْ يَظُنُّهَا الْقَارِئُ لوحةً صمَّاءَ بِلَا رُوْحٍ، أَوْ صُوْرةً مُقْعَدَةً يُجْبِرُهَا ظَرْفُهَا، فينزِعُ عَنْهَا صِفَاتِ الْحَرَكَةِ، وَيَخْلَعُ عليها نُعُوْتَ الْجَمَادَاتِ، بَيْدَ أَنَّهُ فَجْأَةً يُتْحِفُنَا بِحَرَكِةٍ مُتَوَثِّبةٍ لَا يمنعُهَا مَانِعٌ، وَلَا يُوْقِفُهَا سَاتِرٌ، فالْحَرَكَةُ تملأُ الْأَرْضَ والسَّمَاءَ مَعْ تدفُّقِ السُّيولِ، والأمطارِ، تسانِدُهَا حَرَكَةٌ أَقْوَى تُشْعِرُنَا بِهَا الكَلِمَاتُ، يَقُوْلُ: "وتدفَّقتِ السُّيولُ والْأَمْطَارُ، طُوْلَ كُلِّ ليلةٍ، وَكُلِّ نَهَارٍ، حَتَّى أُغْرِقَتِ الْغُدْرَانُ والأنهارُ، وَطَغَى الماءُ بِمِثْلِ الطُّوفانِ، وَسَالَ فِيْ الْأَوْدِيَةِ والبلدانِ، وامتدَّ نَهْرُ المدينةِ فَوَصَلَ إِلَى أَرْضِ الْمَنَازِلِ، وَالْمَسَاكِنِ، وَقَدْ يَعْلُو إِلَى الأدْوَارِ، والأَمَاكِنِ، فانزوَيْنَا فِيْ الغُرَفِ والحُجُرَاتِ، نَقْضِي بِهَا جَمِيْعَ الأوقاتِ، وَكَأَنَّمَا نحنُ فِيْ العَذَابِ نُعذَّبُ مَرَّةً بنارِ الاسْتِدْفَاءِ، وتَارَةً بزمهريرِ الشِّتَاءِ، وَأَقَمْنَا عَاكِفِيْنَ عَلَى الحَدِيْثِ والسَّمَرِ، بِمَا وَعَيْنَاهُ عَنْ هَذِهِ الْمَدِيْنَةِ مِنْ كُلِّ خَبَرٍ وَأَثَرٍ، وَكَانَ الصَّديقُ بيننا كَعَهْدِهِ يُرْسِلُ علينا الْقَوْلَ إرسَالاً، وَيَذْهَبُ فِيْ حِدَّةِ انتقَادِهِ يَمِيْناً وَشِمَالاً"[2].

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحَمَوِيَّة)، (ص355، ص356). ريَّاه: رائحته الطيبة، الغضرة: المخصبة، الدَّواليب: دواليب السَّواقي، السَّوابل: المتدلية، البلابل: جمع بُلْبُلة، وهي الانابيب التي ينصب منها الماء.

[2] المويلحيّ، حديث عيسى بن هشام، (ص322).

إنَّ الْحَرَكَةَ الَّتِيْ أَثَارَهَا مُحَمَّد الْمُوِيلْحِيّ استوعبتْ كُلَّ الْمَعَانِي وَرَاءَ اللَّفْظِ، حَيْثُ حَمَلَ المُتَلَقِّي فِيْ قَارِبٍ وَسطَ أمواجٍ مُتَلَاطِمةٍ، فِيْ جَوٍّ مَاطِرٍ أَضَافَ إِلَى الْحَرَكَةِ قوَّةً فَوْقَ قوَّةٍ، كَمَا أَضْفَى إِلَى المَشْهَد جَمَالاً إِلَى جَمَالٍ، وَتَبْدُو هَذِهِ المَشَاهِدِ فِيْ قَوْلِه: (وتدفَّقتِ السُّيولُ، والأمطارُ)، الَّتِيْ تحملُ القوَّة النَّاشئةَ مِنْ تَلَاحُمِ الفعلِ (تدفَّقت) مَعَ الاسْمَيْنِ (السُّيول والأمطار) حَيْثُ لَاْ تَغِيْبُ الْحَرَكَةُ عَنْ مَرْأَى المُتَلَقِّينَ، وَيُوَاصِلُ الْمُوِيلْحِيّ رحلتَهُ فِيْ عَوَالِمِ الْحَرَكَةِ باستخدامِ كَلِمَاتٍ تَسْتَوْعِبُ فِيْ ثَنَايَاهَا كُلَّ مَعَانِي الْحَرَكَةِ الَّتِيْ لَا يَغْفَلُ عَنْهَا إنسانٌ، يبدأُ بِمَشْهَدٍ حَرَكِيٍّ مُروِّعٍ فِيْ: (وَطَغَى الماءُ بِمِثْلِ الطُّوفانِ)، وَيُثَنِّي بمشهدٍ آخرَ مُرعبٍ في: (وَسَالَ فِيْ الْأَوْدِيَةِ والبلدانِ)، وَيُوَاصِلُ بِمَشْهَدٍ حَرَكِيٍّ ثَالِثٍ مخيفٍ في: (وامتدَّ نَهْرُ المدينةِ فَوَصَلَ إِلَى أَرْضِ الْمَنَازِلِ، وَالْمَسَاكِنِ، وَقَدْ يَعْلُو إِلَى الأدْوَارِ، والأَمَاكِنِ). فالْحَرَكَة دَائِبةٌ، والمَشْهَدُ يلفُّهُ الْخَوْفُ، والرُّعبُ، وكأنَّي بالْأَدِيْبِ ينتقلُ بحديثِهِ إِلَى قصَّةِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، والْحَرَكَةِ المتوتِّرةِ فِيْ أحداثِهَا، والَّتِيْ صوَّرَهَا سَيِّدُ قُطُب مَشْهَداً حَيَّاً مِنْ سُوْرَةِ هُوْد عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوَضِّحُ براعةَ التَّصْوِيْرِ الفنيِّ، "وهَذَا المَشْهَدُ مِن قصَّةِ الطُّوفَانِ: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ [هود:42] وَفِيْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ الرَّهيبةِ، تتنبَّهُ فِي نُوْحٍ عاطفةُ الأُبوَّةِ، فَإِنَّ هُنَاْكَ ابناً لَهُ لَمْ يؤمنْ، وإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُغرَقٌ مَعَ المُغْرقينَ. وَلَكِنْ هَا هُوَ ذَا الموجِ يَطْغَى... وَفِيْ لَحْظَةٍ تَتَغَيَّرُ صَفْحَةُ المَوْقِفِ، فَهَا هِيَ ذِي الْمَوْجَة الْعَاتِيَة تبتلعُ كُلَّ شَيْءٍ ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود:43]"[1].

ثُمَّ يُكملُ المَشْهَدَ فِيْ قَوْلِهِ: (وَقَدْ يَعْلُو إِلَى الأدْوَارِ، والأَمَاكِنِ)، وَكَأَنَّهُ يعودُ إِلَى مَا رَسَمَهُ سَيِّدُ قُطْب فِيْ قَوْلِهِ: "إِنَّ السَّامِعَ ليمسكُ أَنْفَاسَهُ فِيْ هَذِهِ اللَّحظَاتِ القِصَارِ؛ ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ [هود:42]... والموجَةُ القويَّةُ العاتيةُ تَحْسِمُ المَوْقِفَ فِيْ لحظةٍ سريعةٍ خاطفةٍ. وإِنَّ الهولَ هُنَا ليقاسُ بِمَدَاهُ فِيْ النَّفْسِ الْحَيَّةِ – بَيْنَ الْوَالِدِ وَالمَوْلُودِ– كَمَا يُقَاسُ بِمَدَاهُ فِيْ الطَّبِيْعَةِ حَيْثُ يَطْغَى الْمَوْجُ عَلَى الذُّرَى وَالوِدْيَانِ، وإِنَّهُمَا لمتكافئانِ فِيْ الطَّبِيْعَةِ الصَّامتةِ، وَفِيْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ"[2].

لَمْ يُهْمِلْ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ (غَزَّةَ) فِيْ أعمالِهِ، فَقَدْ كَانَ لَهَا نَصِيْبٌ فِيْ مَقَامَةٍ مستقلَّةٍ، هِيَ (المَقَامَة الغزِّيَّة)، وَمِنْ رَوَائِعِ حَرَكِيَّةِ المَشَاهِدِ مَا رَسَمَهُ اليَازْجِيّ فِيْهَا، والَّتِيْ يقدِّمُهَا كأجْمَلِ اللَّوْحَاتِ، يَقُوْلُ: "خَرَجْنَا مِنَ العواصمِ، نريدُ غزَّةَ هاشمٍ، فَأَعْمَلْنَا السَّنابكَ والفَرَاسِنَ، وَوَرَدْنَا الآجِنَ والآسِنَ، حَتَّى دَخَلْنَاهَا بَعْدَ الأَيْنِ، بَيْنَ العشاءَيْنِ، وَقَدْ عَلَتْ أَوْجُهَنَا وَمْحةٌ مِنَ السَّفَرِ، وَلَمْحَةٌ مِنَ

---

[1] قطب، التَّصْوِيْر الفنيّ في القُرْآنِ، (ص58).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص58.

الكَدَرِ، واغتنمَ كُلٌّ منَّا دِعَةَ الهاجِعِ، فَلَمَّا انسلخَ النَّهَارُ مِنَ اللَّيْلِ، وجرَّتِ الغزالةُ فضلَ الَّذِيْلِ، خَرَجْنَا نتفقَّدُ الخَضْرَاءَ، والْبَيْضَاءَ، حَتَّى إِذَا مَرَرْنَا بِدَارِ الْقَضَاءِ، سَمِعْنَا لَغَطَاً، وَضَوْضَاءَ"[1].

يَنْظِمُ نَاصيفُ اليَازْجِيّ الكَلِمَاتِ، وَتَتَفَاعَلُ مَعَ الكَلِمَاتِ الْحَرَكَاتُ، وَتَخْطُو حِيْنَهَا الخُطُوَاتُ، تَنْسَجِمُ فِيْهَا السُّرْعَةُ مَعَ السُّكونِ، ويتعانقُ التَّوَتُّرُ مَعَ الهُدُوءِ، فَتَتْرُكُ لَوْحَاتٍ كَعُقُوْدِ الدُّرِّ، تَنْطَلِقُ الْحَرَكَةُ بِالفِعْلِ الْمَاضِي المتناغمِ مَعَ الْأَنَا فِيْ (خَرَجْنَا)، وَبَيْنَ العَواصِمِ خُطَىً سريعةٌ تتحرَّكُ، ومسافاتٌ طويلةٌ تُقْطَعُ، وَمَشَقَّةٌ تَرَكَتْهَا آثارُ الشَّمْسِ الملتهبةِ عَلَى الوُجُوهِ، وَتَعَبٌ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ بَدَا عَلَى الأجسامِ، لَكِنَّ الْأَدِيْبَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْفِضَهُ عَنِ الوُجُوهِ بذكاءٍ شديدٍ فِيْ لَمْحِ البصرِ، حَيْثُ اختصرَ فِيْهَا كُلَّ آثارِ التَّعَبِ عَبْرَ قَوْلِهِ: (دِعَةَ الْهَاجِعِ) لَمَّا أضافَ الهجوعَ بسكونِهِ إِلَى الدَّعَةِ بهدوئِهَا، فَشَكَّلا مَعَاً فَضَاءً وَاسِعَاً مِنْ فَضَاءَاتِ السَّكينةِ والاطْمِئْنَانِ.

وإِلَى عَوَالِمِ الإِبْدَاعِ فِيْ التَّشْكِيلِ الْحَرَكِيِّ، وَدَوَالِ التَّوَتُّرِ وَالسُّكونِ، والسُّرْعَةِ والهدوءِ، حَيْثُ يقدِّمُ أَحْمَدُ البَرْبِيْر فَاصِلاً من الْجَمَالِ الأخَّاذِ فِيْ مَقَامَتِهِ (المُفَاخَرَة بَيْنَ المَاءِ والهَوَاءِ) الَّتِيْ تنقلنَا سطورُهَا إِلَى الْحَرَكَةَ الدَّائبةِ، والتَّطْوَافِ الدَّائِمِ، يَقُوْلُ: "فتلقَّتنا عودياتُ طيورِهَا بالصَّدحِ، وَمَجامِرَ كمائمِ وُرُوْدِهَا بالنَّفْحِ، وزهرُهَا بثغرٍ باسمٍ، ونهرُها بقلبٍ صَافٍ، وأدواحُها ببسطِ البسطِ من ظلِّها الضَّافِي. وقَامَتْ لَنَا الأشجارُ عَلَى سُوْقِهَا، وسَفَرَتْ لَنَا عرائِسُ الورودِ عَنْ لثامِ غبوقِهَا. وأدارتْ علينا سُلافُ طَلِّهَا كؤوسَ الزُّهُورِ، قَبْلَ أَنْ ترشفَهُ شمسُ البُكورِ، وحيَّتْنَا راحةُ الرَّاحَةِ والسُّرورِ، بأصابعِ المنثُوْرِ، وغنَّتْ لَنَا مُطوَّقاتُ شَوَادِيْهَا عَلَى العيدانِ، وَأَعْرِبَتْ وَهِيَ عَجْمَاءُ بفنونٍ تمايلتْ لَهَا قُدُوْدُ الْأَفْنَانِ، ورقصتْ بَيْنَ أيدينَا جَوَارِي المَاءِ، وَظَهَرَتْ مَعْ وُجُودِ شموسِنَا، وبدورِنَا نجومُ النَّبَاتِ حَتَّى ظَنَنَّاهَا نجومَ السَّمَاءِ، وَطَافَ النَّسيمُ بكعبةِ صَفَانَا طَوَافَ القُدُومِ، فَمَا كَانَ ألطفَ ذَلِكَ الطَّائِفِ"[2].

لَقَدْ سَمَا أَحْمَدُ البَرْبِيْر بمقطوعَتِهِ لَمَّا مَزَجَ بَيْنَ ألوانِ الْجَمَالِ، وَجَمالِ الأَلْوَانِ، وَزَاوَجَ بَيْنَ إبداعِ الْحَرَكَةِ، وَحَرَكَةِ الإِبْدَاعِ فِيْ أُسْلُوبٍ متفرِّدٍ رُبَّمَا عَجَزَ عَنْهُ آخَرُوْنَ، وَلَكَ أَنْ تلمحَ هَذَا الْجَمَالَ الأخَّاذَ فِيْ كُلِّ كلمةٍ مِنَ الكَلِمَاتِ الَّتِيْ قدَّمَتْ تشكيلاً حَرَكِيَّاً بَارِعَاً، فَمِنْ رِقَّةِ نسائمِ الورودِ إِلَى حَلَاوةَ تَمَايُلِ الزُّهُورِ دقيقةِ القدودِ، وَمِنْ تَرَاقُصِ الأفنانِ، إِلَى رَقْصِ الطُّيُورِ عَلَى العيدانِ، وَمِنْ حَرَكَةِ النُّجومِ فِيْ السَّمَاءِ، إِلَى رِقَّةِ الجَدَاولِ، وَصَفَاءِ الماءِ، ثُمَّ يَرْسِمُ مَشْهَدَ النِّهَايةِ بِحَرَكِةٍ

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الغزيَّة)، (ص374، ص375). الأين: التعب والإعياء، ومحة: أثر الشَّمْس. الآجِن والآسِن: الماءُ تغيَّر طعمُه ولونُه ورائحتُه.

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص23، ص24).

دائبةٍ صُحْبَةَ طَوَافِ النَّسيمِ بكعبةِ الصَّفَاءِ، تَعْلُو الْحَرَكَةَ جَمَالِيَّاتُ الأَلْوَانِ الَّتِيْ تَبْدُو فِيْ الوُرُوْدِ والزُّهُورِ، والشَّمْسِ، وَالطُّيُورِ، وَالنَّبَاتِ، وَالْبُدُوْرِ.

تَتَعَانَقُ السُّرْعَةُ والبُطْءُ فِيْ مَقَامَةِ (المُفَاخَرَة بين المَاءِ والهَوَاءِ) تعانقاً بنائيَّاً، فَمَتَى مَا كَانَتِ الصُّورَةُ سريعةً كَانَتْ متوتِّرةً، وَمَتَى مَا كَانَتْ بطيئةً كَانَتْ هادئةً. وَلَعَلَّ هَذَا التَّعَانُقَ يَرْسِمُ رابطةَ الدَّمِ بَيْنَ السُّرْعَةِ والهُدوءِ فَكُلٌّ يكملُ الآخَرَ؛ إِذْ لا فِكَاكَ بينهُمَا، يَقُوْلُ أَحْمَدُ البَرْبِيْر: "أَنَا الهواءُ الَّذِيْ أُؤلِّفُ بَيْنَ السَّحَابِ، وأنقلُ ريحَ الأحبابِ، وَأَهُبُّ تَارَةً بالرَّحمةِ، وأُخْرَى بالعذابِ، نَصَرَ اللهُ بِي مُحَمَّداً، وَصَحْبَهُ الأمجادَ، وأهلكَ اللهُ بِي قَوْمَ عَادٍ، وَأَنَا الَّذِيْ تَمَّ بِي ملكُ سُليمانَ، وَأَجْرَى الماءَ فِيْ خدمتي لِكُلِّ مكانٍ، وَسَيَّرَ بِيْ الفُلْكَ فِيْ البحرِ كَمَا تسيرُ العِيْسُ فِيْ البِطَاحِ، وَأَطَارَ بِي فِيْ الجَوِّ كُلَّ جَنَاحٍ، وَأَنَا الَّذِيْ ألعبُ بالطُّرَرِ فَوْقَ الغُرَرِ، كَمَا ألعبُ بِلِحَى الجبابرةِ مِنَ البشرِ، وَأَنَا الَّذِيْ أُميلُ قاماتِ الأغصانِ، وَأُدْنِي عَارِضَ الغيثِ وعِذارَ الآسِ مِنْ خَدِّ الشَّقيقِ، وَشَارِبِ الرَّيحانِ"[1].

يَنْسَجِمُ التَّوَتُّرُ والهدوءُ انسجامَ الأصدقاءِ، وتَلْتَقِي السُّرْعَةُ مَعَ السُّكونِ لِقَاءَ الأَخِلَّاءِ بَعْدَ طولِ غيابٍ، فَيُغَادِرُ الكَدَرُ والأتراحُ، وَيَحِلُّ السُّرورُ والأفراحُ، وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِيْ هدوءِ الصُّورَةِ السَّاكنةِ الَّذِيْ ينبثقُ مِنْ خِلَالِ الأَسْمَاءِ والْأَفْعَالِ، فَنَرَى أَنَّ الفعلَ (أَنْقُلُ رِيْحَ الأحبابِ) فِيْ هَذِهِ الْأَسْطُرِ، يأخذُ مَعْ ذَاتِ الشَّاعِرِ دَلَالَةَ حَرَكَةٍ هَادِئَةٍ تلتحمُ مَعْ قَوْلِهِ: (وأهُبُّ تَارَةً بالرَّحمةِ)، وَقَوْلِهِ: (نَصَرَ اللهُ بِي مُحَمَّداً، وَصَحْبَهُ الأمجادَ)؛ إِذْ إِنَّ قُدْسِيَّة هَذَا الجوِّ لَا يمكنُ أَنْ تتمَّ بصورةٍ متوتِّرةٍ، إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاْكَ هُدُوْءٌ يتناسبُ مَعْ أجواءِ النُّصُوْصِ؛ لِذَلِكَ عبَّرَ أَحْمَد البَرْبِيْر بِقَوْلِهِ: (ألعبُ بالطُّرَرِ فَوْقَ الغُرَرِ).

كَمَا تَتَدَاعَى سُرْعَةُ الصُّورَةِ المتحرِّكةِ، فيَنْطَلِقُ مِنْ أَزْمِنَةِ الْأَفْعَالِ المُتَنَوِّعَةِ بَيْنَ الْمُضَارِعِ (أُهلك، أُجرِى)، والْماضي (سَيَّرَ، وأطَارَ)، وَمَا فِيْهَا مِنْ حيويَّةٍ، وَحَرَكَةٍ تُوَازِي حَيَوِيَّةِ الانْفِعَالَاتِ، وحركتِهَا، وتجربَةِ المناظرةِ وما تقتضيهِ المفاخرةُ مِنْ سُمُوِّ الْمَعَانِي، ومَعَانِي السُّموِّ، وَمَا تَحْوِيْهِ مِنَ الرَّوْعَةِ فِيْ انْتِقَاءِ الكَلِمَاتِ، والْبَرَاعَةِ فِيْ تَوْظِيْفِ الْأَفْعَالِ، حَيْثُ إِنَّ تَنَافُرَ الْهُدُوْءِ والْحَيَوِيَّةِ تنافراً حَادَاً أَسْهَمَ فِيْ إضفاءِ نَوْعٍ مِنَ الرَّوْعَةِ عَلَى النَّصِّ، فالرَّحمةُ تتنافرُ مع (أهبُّ)، و(الطُّرَرُ والغُرَر) تتنافرُانِ مَعَ (الجبابرةِ مِنَ البشرِ)، وهَذَا "يجعلُ النَّصُّ فِيْ حَالَةِ تَوَتُّرٍ دَلَالِيٍّ لَاْ يُمْكِنُ تَفَادِيْهَا إِلَّا بالتَّحَرُّكِ فِيْ الْمُسْتَوَى العميقِ للكشفِ عَنْ الْعَلَاقَاتِ المتآلفةِ"[2].

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص29).

[2] عَبْد الْمُطَّلِب، هكذا تكلَّم النَّصّ، (ص100).

وَمَعْ حَرَكَةِ مَوْجَاتِ البحرِ الهادرِ، وسرعةِ الرِّياحِ المتوثِّبةِ، وَمَعْ هُدُوْءِ شاطئِ البحرِ، وسكونِ صُخُورِهِ، وَمَعْ حَرَكَةِ الفُلْكِ يتوشَّحُ النَّصُّ، ويفيضُ حَيَوِيَّةً وَحَرَكَةً فِيْ كلِّ مفردةٍ مِن مُفْرَدَاتِهِ، بَلْ فِيْ كُلِّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوْفِ كَلِمَاتِه، فالبحرُ بأمواجِهِ يتفاعلُ مَعْ حيويَّةِ الرِّياحِ والْأَمْوَاجِ. وَعَوْدَةٌ تِجَاهَ البحرِ، وتفجُّرِ الدَّوالِ، "فالْمَعْنَى يتفجَّرُ – في الدَّفقةِ – من دال (البحر) الَّذِيْ يقدِّمُ دلالةً مزدوجةً تجمعُ بَيْنَ (الاتِّصال، والانفصال). فَكَمَا يَصِلُ البحرُ بَيْنَ المتباعداتِ، وَيُعْطِي للغائبِ قدرةَ الحضورِ، فَإِنَّهُ يُشكِّلُ عالمَ الضَّياعِ المخيفِ الَّذِيْ لا تحدُّهُ حَدُوْدٌ"[1].

لَقَدْ حَقَّقَ الفعلُ عَلَى صعيدِ حَرَكِيَّةِ الصُّورَةِ نجاحاً كَبِيْرَاً بوصفه مهيمناً تشكيليَّاً يمنحُ النَّصَّ فَاعِلِيَتَهُ، وطاقتَهُ الْحَرَكِيَّةِ، "فالفعلُ يَسِمُ الصُّورَةَ بحضورِ صياغَتِهِ، بَلْ يمارسُ حضورهُ هُنَاْكَ فِيْ أَعْمَقِ أَعْمَاقِهَا، يسحبُ عليها تأثيرَهُ، ويجعلها تتجاوَزُ جميعَ أشكالِ التَّنْمِيْطِ، فتَتَجَلَّى في قالبِ حشدٍ مِنَ الصُّورِ تستمدُّ حركيَّتها مِنَ الْفِعْلِ ذاتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ تتنوَّع بتنوُّعِهِ، وتقدِّمُ نفسَهَا فِيْ أشكالٍ مختلفةٍ، وَتَكُفُّ عَنْ كونِهَا صورةً بالْمَعْنَى المتعارفِ لتصبحَ لوحَةً أَوْ مَشْهَدَاً"[2]. وهَذَا مَا نجدُهُ فِيْ قَوْلِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "بَيْنَمَا كُنْتُ فِيْ رَشِيْد، جَالِسَاً فِيْ صَرْحٍ مَشِيدٍ، إِذْ لمحتُ الْخُزَامِيَّ فِيْ بعضِ الأسواقِ، فَكِدْتُ أَطِيرُ إِلَيْهِ بأجنحةِ الأَشْوَاقِ، وما لبثْتُ أَنْ بادرْتُ إِلَى التماسِهِ، لأنقعَ ظَمَأَي بِزُلَالِ كَاسِهِ، فَمَا وجدتُ لَهُ مِنْ أَثَرٍ، وَلَاْ وجدتُ عليهِ مِنْ عَثَرٍ، وما زلتُ أَجْرِي كَأَنِّي رُميتُ عَنْ قسيِّ البنادقِ، حَتَّى أفضيتُ إِلَى بعضِ الفنادقِ"[3]. وَهُنَا يكمل اليَازْجِيّ روايتَهُ، ويتابعُ الإِبْدَاعَ فِيْ فُصُوْلِهَا، فَيَرْسِمُ مَشَاهِدَ الْحَرَكَةِ العنيفةِ، والهادئةِ في (المَقَامَة الرَّشِيديَّة)، وَيَسْتَمِدُّ النَّصُّ حَرَكَتَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الدَّالةِ عَلَى الْحَرَكَةِ، والمنتشرةِ عَلَى مساحةِ النَّصِّ (أطير، بادرت، أنقع، أجري، رُميت، أفضيت) فالنَّصُّ ينفتحُ عَلَى أجواءِ الْحَرَكَةِ مِنْ خِلَالِ الفعلِ الْمُضَارِعِ (أَطيرُ) الَّذِيْ يشيرُ إِلَى استمراريَّةِ الْحَرَكَةِ، وتجدُّدِهَا، يتبعُ الْحَرَكَةَ حركةٌ أشدُّ قُوَّةً مِنْ خِلَالِ الفعلِ (أجري)، يتبعْهُمَا سكونٌ مؤقَّتٌ يحملُهُ الفعلُ (أَفضيتُ) مِنْ خِلَالِ قَوْلِهِ: (وما زلتُ أَجْرِي كَأَنِّي رُميتُ عَنْ قسيِّ البنادقِ، حَتَّى أفضيتُ إِلَى بعضِ الفنادقِ) الَّذِيْ يحملُ روعةَ الانتقالِ مِنَ الْحَرَكَةِ الدَّائبةِ إِلَى السُّكونِ والثَّباتِ. وَلَعَلَّ مَعَانِي السُّكونِ تَتَجَلَّى لَمَّا ترتبطُ بالْحَرَكَةِ. أمَّا السُّكُونُ فَإِنَّه ينقلُنَا إِلَى "الْحَرَكَةِ الَّتِيْ تُوْهِمُنَا بأنَّهَا خَالِيَةٌ مِنْ كُلِّ جهدٍ عَضَلِيٍّ، فَنَرَى الأعضاءَ تتحرَّكُ حُرَّةً طليقةً كأنَّمَا يحرِّكُهَا النَّسِيْمِ"[4].

---

[1] عَبْد الْمُطَّلِب، هَكَذَا تكلَّم النَّصُّ، (ص228).

[2] اليوسفيّ، في بنية الشِّعر العربيّ الْمُعَاصِر، (ص123).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الرَّشِيديَّة)، (ص242، ص243).

[4] جويو، مسائل فلسفة الفنِّ الْمُعَاصِرة، (ص43).

وَتَتَسَامَى حَرَكِيَّةُ الصُّورِ، وَتَتَنَامَى؛ لتصلَ إِلَىْ قمَّتِهَا فِيْ التَّشْكِيلِ الاسْتِعَارِيِّ فِيْ (أَطِيرُ إليْهِ بأجنحةِ الأَشْوَاقِ) لَمَّا صَوَّرَ اليَازْجِيّ الأشواقَ بالطَّائرِ، مَعْ مَا تضفِيْهِ الأجنحةُ مِنْ حركةٍ دائبةٍ تَتَجَلَّى حروفُها، وتَتَعَالَى أَصْوَاتُهَا، وَتَتَدَاعَى حَرَكَاتُها فِيْ نظامٍ إلهيٍّ بديعٍ، في ثنائيَّةٍ عُنْوَانُهَا: (صَافَاتٍ، وَيَقْبِضْنَ) تلُفُّها روعةُ تجسيمِ المعنويَّاتِ.

لَقَدْ مثَّلتْ رائعةُ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة) مَعِيْنَاً لَاْ ينضبُ لِمَنْ أرادَ سَبْرَ أَغْوَارِهَا، وَمِنْهُلاً لِاْ يجفُّ لِمَنْ قَصَدَ وُرُوْد مَاءِهَا، فَقَدْ حَمَلَتِ الرُّؤى والْجَمَالِيَّاتِ الأخَّاذَةِ الَّتِيْ لَاْ تستوعِبُهَا إِلَّاْ قريحةٌ وَقَّادَةٌ، وَلَاْ يدركُهَا إِلَّاْ عَقْلٌ مُتَفَتِّحٌ، يَقُوْلُ: "فَأَخَذَ القومَ فِيْ تسكينِ ارتعاشِهِ، وتمكينِ انتعاشِهِ، حَتَّى خَمَدَتْ لوعتُهُ، وَهَمَدَتْ روعتُهُ... ثُمَّ نَهَضَ بِي مُكبِّراً، وَبَاتَ مُدْبِرَاً، وَأَنْشَأَ يَقُوْلُ:

قُـمْ فِـي الـدُّجَى يَـا أَيُّهَـا المتعبِّـدُ حَتَّـــى مَتَـــى فَـــوَقَ الأسِـــرَّةِ تَرْقُـــدُ

قُمْ وادْعُ مَوْلَاكَ الَّذِيْ خَلَقَ الدُّجَى والصُّبْحَ، وَامِضُ فَقَدْ دَعَاكَ المَسْجِدُ[1]

إِنَّنَا حِيْنَ نَرِدُ مُفْرَدَاتِ اليَازْجِيّ فِيْ النَّصِّ نصطدمُ بالمتمرِّدةِ حِيْنَاً، وبالسَّاكنة أَحْيَانَاً أُخْرَى، وَمِنْ هَذَا التَّمرُّدِ، وَمِنْ ذَاكَ السُّكُوْنِ تتولَّدُ التَّشْكِيلاتُ الْحَرَكِيَّةُ الَّتِيْ تندفعُ أَمَامَنَا مُسْرِعَةً حِيْنَاً فننطلقُ مندفعينَ صُحْبَتَهَا، وتتوقَّفُ تِجَاهَنَا سَاكِنَةً أَحْيَانَاً أُخْرَى، فنتمهَّلُ مُشاركينَها سُكُوْنَهَا. نندفعُ مَعْ (روعته، قُمْ، امْضِ)، ونهدأُ مَعْ (خَمَدَتْ لوعتُهُ، وَهَمَدَتْ روعتُهُ)، ويبلغُ الهدوءُ مَدَاهُ مَعْ (فوق الأسرَّة ترقدُ) مَعْ مَا فِيْ النَّومِ مِنْ سُباتٍ عَمِيقٍ.

وَمِنْ مَشَاهِدِ الْحَرَكَةِ المُتَنَوِّعَةِ بَيْنَ التَّوَتُّرِ والهدوءِ بَاقاتٌ منوَّعَةٌ نتنسَّمُ عطرَهَا، ونسائمُ معطَّرَةٌ نتلمَّسُ روعتَهَا فِيْ (المَقَامَة الطَّائيَّة)، يَقُوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "حَلَلْتُ بلادَ اليمنِ فِيْ سالفِ الزَّمنِ، وَأَنَا غضيضُ الصِّبَا، غريضُ الفننِ، فجعلتُ أتردَّدُ في بوادِيْهَا، بَيْنَ شعبِهَا ووادِيهَا، وَمَا زلتُ أطوفُ الحيَّ بعد الحيِّ، حَتَّى دُفعْتُ إِلَى أحياءِ بَنِي طَيٍّ، فرأيتُ بِهَا مَا شَاءَ اللهُ مِنْ خِيَامٍ مَبثوثةٍ، وَنِيْرَانٍ مَشْبُوْبَةٍ، وَجِفَانٍ مَصْفُوْفَةٍ، وخَيْلٍ مَشْدُوْدَةٍ، ورِمَاحٍ مَرْكُوْزَةٍ، وجِمَالٍ كالرُّبَى، وسِخَالٍ كالدُّبَى، وجوارٍ كَالظِّبَاءِ، وَغِلْمَان كالظُّبَى"[2].

لَقَدْ قدَّمتْ هَذِهِ المَقَامَةُ إبداعاً مُتفرِّداً أَلْقَي بظلالِهِ عَلَى ذَوَاتِ القُرَّاءِ بِمَا يُتِيْحُ لَهَا مِنْ رُؤْيةٍ مُزْدَوَجَةٍ تَتَرَاوَحُ بَيْنَ الهُدُوءِ، والتَّوَتُّرِ، هُدُوءِ صُحْبَةَ الأَسْمَاءِ، وَالْأَفْعَالِ، وتوتُّرٍ يُزَاحِمُ هَذَا

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (الْمَقَامَة الْقُدْسِيَّة)، (ص421).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الطَّائيَّة)، (ص261). الدُّبى: الجراد الصَّغير، غريض: ليِّن.

الهُدُوْءَ فِيْ ذَاتِ الْحُقُوْلِ فِيْ نَسَقٍ أُسْلُوبِيٍّ يعتمدُ عَلَى تَوَالِي الدَّفقَاتِ الْهَادِئَةِ والْمُتَوَتِّرةِ، فِيْ تَمَاسُكٍ بِنَائِيٍّ بَدِيْعٍ يَبْدَأُ مِنَ الْأَفْعَالِ (حللتُ، أطوفُ، أتردَّدُ) الَّتِيْ تَجْمَعُ بَيْنَ دَلَالَاتِ الْهُدُوْءِ وَالتَّوَتُّرِ، فَقَدِ اتَّكَأَتِ الْحَرَكَةُ الْهَادِئَةُ عَلَى (حللتُ، نتلمسُ، أتردَّدُ)، ثُمَّ يَتَجَاوَزُ التَّوَتُّرُ حَوَاجِزَ السُّكُوْنِ عَلَى مستويَاتِهَا كَافَّةً؛ ليخترقَ حَوَاجِزَ الصَّمْتِ، وَيُحَطِّمَ أَسْتَارَ السُّكُوْنِ، وَيَدْخُلَ عَوَالِمَ الْحَيَوِيَّةِ مِنْ أَوْسَعِ الْأَبْوَابِ صُحْبَةَ (دُفِعْتُ، نيران مشبوبة، ظباء، خيل)؛ لِتَتَمَاهَى الْحَرَكَةُ فِيْ أَرْوَعِ مَشَاهِدِهَا، وَأَبْهَى صُوَرِهَا.

وَلَمْ يَبْرَحْ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ البيئةَ الْبَدَوِيَّةَ، فَقَدْ كَانَ لَهَا نَصِيْبٌ كَبِيْرٌ مِنْ رَوَائِعِ التَّشْكِيلِ الْحَرَكِيِّ فِيْ نُصُوْصِهِ الْمَقَامِيَّةِ، فَاسْتَلْهَمَ الْخَيْمَةَ وَالْبَعِيْرَ، وَالنَّاقةَ وَالْهَجِيْرَ، وَالْجَرْيَ والنَّفيرَ فِيْ (المَقَامَة البدويَّة)، يَقُوْلُ: "فَنَزَلْنَا وَارْتَبَطْنَا الْأَنْعَامَ، وَأَضْرَمْنَا النَّارَ لِلطَّعَامِ، وَقَامَ الشَّيْخُ حَتَّى دَنَا مِنْ نَاقَتِي فَحَلَّ العِقَالَ، وَأَخَذَ يَتَخَطَّى، وَيَتَمَطَّى ذَاتَ الْيَمِيْنِ، وَذَاتَ الشِّمَالِ، فَنَفَرَتِ النَّاقَةُ فِيْ مَجَاهِلِ تِلْكَ الْأَرْضِ، وَجَعَلَ يَسْتَوْقِفُهَا زَجْراً فَتَشْتَدُّ فِيْ الرَّكْضِ، فَبَادَرْتُ أَعْدُو إِلَيْهَا حَتَّى اسْتَأْنَسْتُ مِنَ النِّفَارِ، وَرَجَعْتُ بِهَا أَتَتَوَّرُ تِلْكَ النَّارَ "[1].

يَنْطَلِقُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ مِنْ قَلْبِ الْبَادِيَةِ انْطِلَاقَةً تَبْدُو مُتَفَرِّدَةً فِيْ حَدَائِقِ التَّشْكِيلِ الْحَرَكِيِّ، وَبِأُسْلُوْبٍ ذَكِيٍّ يُحَرِّكُ قَلَمَهُ صَوْبَ التَّفوُّقِ وَالتَّمَيُّزِ، وَكَأَنَّ كَلِمَاتِهِ عَرُوْسٌ حَسْنَاءُ تَجُرُّ أَذْيَالَ الْحُسْنِ، والْبَرَاعَةِ، يَسْتَهِلُّ التَّشْكِيلَ اسْتِهْلَالاً بَارِعاً فَيَرْسِمُ هُدُوْءَ جَلْسَةٍ، وَسُكُوْنَ خَيْمَةٍ، حَوْلَ دِفْءِ النِّيْرَانِ، ثُمَّ يَنْدَفِعُ شَيْئَاً فشَيْئَاً، وَيَحِلُّ عِقَالَ النَّاقَةِ، فَيَبْدَأ مَشْهَدُ التَّوَتُّرِ صُحْبَةَ نُفُورِهَا، وَيَزْدَادُ التَّوَتُّرُ مَا بَيْنَ النُّفورِ وَالرَّكضِ، وتَتَعَالَى السُّرْعَةُ مَا بَيْنَ الْجَرْيِ وَالْعَدوِ، وَالْعَدْوِ وَالْجَرْيِ، ثُمَّ يُدْرِكُ مَشْهَدَ النِّهَايَةِ وَقَدْ سَيْطَرَ الْهُدُوءُ، وَخَيَّمَ السُّكونُ فِيْ (اسْتَأْنَسْتُ مِنَ النِّفَارِ، وَرَجَعْتُ بِهَا أَتَتَوَّرُ تِلْكَ النَّارَ).

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة البدويَّة)، (ص7، ص8).

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: التَّشْكِيْلُ الصَّوْتِيُّ

تَتَمَتَّعُ الْكَلِمَةُ فِيْ الْمِضْمَارِ الْأَدَبِيِّ بِثُنَائِيَّةِ الشَّكْلِ وَالْمَضْمُونِ، وَفِيْ الأَدَبِ الرَّاقِي يَتَّضِحُ أَنَّ الشَّكْلَ لَيْسَ زُخْرُفَةً بَالِيَةً، بَلْ يُسَانِدُ الْمَضْمُوْنَ الْفِكْرِيَّ. وَمُؤَيِّدَاتُ هَذَا التَّلاحُمِ، وهَذَا التَّلاؤُمِ المُنْسَجِمِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ يَنْبُعُ مِنَ النَّصِّ نَفْسِهِ، وَتَنْطَلِقُ الْأَحْكَامُ مِنْ خِلَالِ جَوِّ الْمُفْرَدَةِ فِيْ خِضَمِّ الْمُفْرَدَاتِ، وَالْمُفْرَدَةُ "تُصَافِحُ حَاسَةَ السَّمْعِ قَبْلَ أَنْ تَطْرُقَ بَابَ الْمَشَاعِرِ، أَيْ تَرْجَمَتَهَا فِيْ سِجِلِّ الْوَعْيِ، ذَلِكَ لِأَنَّهَا صَوْتٌ أَوَّلاً، وَمَعْنَىً فِيْ الدَّرجَةِ الثَّانِيةِ"[1].

لَقَدْ جَنَحَ الشِّعْرُ أَحْيَانَاً إِلَى المُوْسِيْقَا الدَّاخِلِيَّةِ الْمُتَوَخَاةِ فِيْ طَيَّاتِ الكَلِمَاتِ؛ إِذْ اسْتَعَاضَ بِهَا عَنِ الْوَزْنِ وَالْقَافِيَةِ، "فَالْأَدِيْبُ الْبَارِعُ مَنْ يُوَظِّفُ الْقِيمَةَ الصَّوْتِيَّةَ فِيْ رَسْمِ الْمَعَانِي، وَيُشَخِّصُهَا للمُتَلَقِّي؛ لِأَنَّ الْإِيْقَاعَ يَجِبُ أَنْ يُمَثِّلَ الْحَالَةَ الشُّعُوْرِيَّةَ"[2].

إِنَّ الْاهْتِمَامَ بِالصَّوْتِ وَتَشْكِيْلِهِ عِنْدَ الْعَرَبِ قَدِيْمٌ قِدَمَ الأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، فَقَدْ عَشِقَ الدَّارِسُونَ الْأَلْفَاظَ لِمُجَرَّدِ حَلَاوَةِ نَغَمِهَا، وَتَنَاسُقِ حُرُوْفِهَا، وَدِقَّةِ تَرَابُطِهَا. وَالْعَلَاقَةُ بَيْنَ الصَّوتِ اللُّغَوِيِّ، وَالسِّيَاقِ الدَّلَالِيِّ لَاْ يُمْكِنُ أَنْ تَنْقَطِعَ، أَوْ أَنْ يَنْعَزِلَ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ؛ لِأَنَّ "الخَصَائِصَ الْمُوْسِيْقِيَّةَ للصَّوْتِ اللُّغَوِيِّ لَيْسَ لَهَا قِيْمَةٌ بِمَعْزِلٍ عَنِ السِّيَاقِ الدَّلَالِيِّ لِلنَّصِّ الشِّعْرِيِّ، وَالشَّاعِرُ عِنْدَما يُشَكِّلُ الْأَصْوَاتِ فِيْ إِطَارِ عَلَاقَاتِهَا التَّرْكِيْبِيَّةِ نَحْوَاً، وَصَرْفَاً، وَدَلَالَةً يَتَجَاوَزُ بِهَا النَّسَقَ التَّعْبِيْرِيَّ الْمُبَاشِرَ إِلَى جَمَالِيَّاتِ التَّشْكِيْلَاتِ الْإِيْقَاعِيَّةِ الإِشَارِيَّةِ الْمُوْحِيَةِ الَّتِيْ تَشْغُلُ حَيِّزَاً زَمَانِيَّاً مُنْسَجِماً مُتَنَاسِقَاً، فَيَكْتَسِي الصَّوتُ بِأَرْدِيَةِ الدَّلَالَةِ، وَيَتَحَلَّى بِمُتْعَةِ المُوْسِيْقَا"[3].

لَقَدْ حَرِصَ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ عَلَى شَحْنِ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ بَاقَاتٍ مُتَنَوِّعَةً مِنَ النَّغمِ الصَّوْتِيِّ، وَلَعَلَّ الَّذِيْ زَادَ ذَلِكَ جَمَالاً قِيَامُ المَقَامَةِ عَلَى السَّجْعِ، والتَّجْنِيسِ، فَنَحْنُ نَجِدُ ذَلِكَ فِيْ قَوْلِ نَاصِيْفِ اليَازْجِيّ: "وَاجْتَرَأَتِ الكِرَامُ عَلَى السَّمَاحَةِ، وَهُم ضُرَّابُ السُّيوفِ، وشُرَّابُ الحُتُوْفِ، وَقُرَاةُ الضُّيُوْفِ، وَحُبَاةُ الْأُلُوْفِ، وَحُماةُ السُّجُوفِ"[4]. فَلَكَ أَنْ تَسْتَمِعَ بِإِيْقَاعِ صَوْتِي مُوْسِيقِيٍّ طَوِيْلِ الْمَدَى صُحْبَةَ خَمْسِ جُمَلٍ مُتَوَازِنَةٍ، جَمَعَهَا الاتِّفَاقُ فِيْ الْوَزْنِ والتَّقْفِيةِ فِيْ (السّيوف، الحتوف، الضُّيوف، الأُلوف، والسُّجُوف). وَالْمَدُّ الصَّوْتِيُّ فِيْ حَرْفِ الْوَاوِ الَّذِيْ أَضَافَ إِلَى المَشْهَدِ مُوْسِيْقَا عَذْبَةً.

---

[1] ياسوف، جَمَالِيَّة المفردة القرآنيَّة، (ص31).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص31.

[3] العفّ، التَّشكيل الْجَمَاليّ في الشِّعر الفلسطينيِّ الْمُعَاصِر، (ص245).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة التَّغلبيَّة)، (ص87، ص88).

لَقَدْ ضَمَّنَ الْكُتَّابُ نُصُوْصَهُم المَقَامِيَّةَ أَصْدَافَ الْإِيْقَاعِ، وُدُرَرَ المُوْسِيْقَا، وَوَشَّحُوْهَا بِرَوَائِعِ الْأَنْغَامِ، وَأَنْغَامِ الرَّوَائِعِ، يَقُوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "فَغَدَوْتُ أَجْتَنِي مِنْ رِيَاضِ مَعَارِفِهِم الْعَاطِرَةِ، أَنْوَاراً زَاهِرَةً، وَأَجْتَلِي مِنْ حِيَاضِ لَطَائِفِهِم النَّاضِرَةِ، أَسْرَاراً بَاهِرَةً، وَأَشْنُفُ سَمْعِي بِلَطِيْفِ أَحَادِيْثِهِم الَّتِيْ هِيَ أَشْهَى مِنَ الْعَافِيَةِ إِلَى الْعَلِيْلِ، وَأَحْلَى مِنْ زُلَالِ الْوِصَالِ لَدَى صَبٍّ تَأَجَّجَتْ فِيْ أَحْشَائِهِ نَارُ الْغَلِيْلِ"[1].

إِنَّ الْإِيْقَاعَ الصَّوْتِيَّ جَاءَ مُنْسَجِماً مُتَلَاحِمَ الدَّلَالَةِ، تَتَنَاوَبُ أَنْغَامُ أَصْوَاتِهِ عَلَى وَقْعِ (عاطرة، زاهرة، ناضرة)، و(العليل، والغليل)، ثُمَّ يَتَوَسَّعُ الْأَدِيْبُ فِيْ التَّشْكِيلِ الصَّوْتِيِّ، فَيُزَاوِجُ بَيْنَ جُمْلَتَيْنِ مُتَوَازِنَتَيْنِ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ، فِيْ الْوَزْنِ، والتَّقْفِيةِ، وَفِي التَّرتِيْبِ بَيْنَ السَّطْرَيْنِ، وَذَلِكَ يَمْنَحُ النَّصَّ مُوْسِيْقَا مِنْ طِرَازٍ فَرِيدٍ لَاْ يَقْوَى عَلَى عَزْفِهَا إِلَّاْ المُبْدِعُونَ:

أَجْتَنِي مِنْ رِيَاضِ مَعَارِفِهِم الْعَاطِرَةِ، أَنْوَاراً زَاهِرَةً

أَجْتَلِي مِنْ حِيَاضِ لَطَائِفِهِم النَّاضِرَةِ، أَسْرَاراً بَاهِرَةً

وَالتَّشْكِيلُ الصَّوْتِيُّ، وَالْإِيْقَاعُ وَجْهَانِ لِعُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ، و"الْإِيْقَاعُ يحدث بالإفادة من جرس الْأَلْفَاظ، وتناغم العبارات لإحداث التَّوافقِ الصَّوتيِّ بين الحركات، والسَّكنات لتأدية وظيفة سمعيَّة، والتَّأثير في المستمع، ويأتي الْإِيْقَاعُ من اختيار الكَلِمَات من حَيْثُ كونها تُعبِّر عن قيمة التَّأثير الَّذِيْ تحدثه وظيفة الكلمة في مدلولها الْإِيْقَاعِيِّ، فهو إحداث استجابةٍ ذوقيَّةٍ تُمتِّع الحَوَاسِ، وتثير الانْفِعَالَاتِ"[2].

التَّشْكِيلُ بالمُحَسِّنَاتِ الصَّوْتِيَّةِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

اهْتَمَّ الْبَلَاغِيُّونَ فِيْ بُحُوثِهِم الْجَمَاليَّةِ لتصرُّفاتِ المَبَاحِثِ البَلاغيَّةِ بصورٍ مختلفةٍ من الأَلْوَانِ البَدِيْعيَّةِ الصَّوْتيَّةِ الَّتِيْ لها مزيةُ حُسْنِ الوقعِ السَّمْعِيِّ، والَّتِيْ صُنِّفتْ تَحْتَ مُسَمَّى المُحَسِّنَاتِ اللَّفْظِيَّة، وهَذَا الاهتمامُ بالأثرِ الصَّوتيِّ لهذه المُحَسِّنَاتِ يصدر عن نزعةٍ جماليَّةٍ، أَضِفْ إِلَىْ ذَلِكَ أَنَّ المُحَسِّنَاتِ تُنْتِجُ مَزِيْجَاً صَوتيَّاً عَذْبَاً يتآلفُ مَعَ الْمُقَوِّمَاتِ الأُخْرَى لِلْعَمَلِ الْفَنِّيِّ، كَالصُّورِ، وَالْأَخِيَلةِ، وَالْمَعَانِي.

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين الغربة والمَقَامَة)، (ص151).

[2] جاب الله، جماليَّات التَّلوين الصَّوتيّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص35).

وعِنْدَ الحَدِيْثِ عن هَذَا الجَانِبِ في الشِّعْرِ، نجدُ فِيْ الشِّعْرِ الجَيِّدِ إيقاعاً مُوْسِيْقِيَّاً غَيْرَ مُتولِّدٍ عَنْ مُعَانَقَةِ الوزنِ فَقَطْ، بلْ هو ناتجٌ عن علاقاتٍ نسقيَّةٍ بين الْأَلْفَاظِ من النَّاحِيَّةِ الصَّوْتيَّةِ، وما يتخللُ ذَلِكَ من الاتِّكاء عَلَى معطيات النَّبر والتَّنغيم عِنْدَ الأداء الصَّوتيِّ لهَذَا الشِّعر.

وهَذَا الْإِيْقَاعُ الْمُوْسِيْقِيُّ النَّاتِجُ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْعَلَاقَات النَّسقيَّة، لَاْ نَسْتَطِيُع أنْ نفصله عن ألوان الْإِيْقَاعَات الأُخْرَى داخل السِّياق الأدائيِّ؛ لِأَنَّها جَمِيْعَاً تتداخل معاً لتنتج لنا مزيجاً صوتيَّاً عَذْبَاً، يتآلف مع المقوِّمات الأُخْرَى للعمل الفنِّيِّ، كالصُّور، والأخيلة، والْمَعَانِي، والانفعالات، عَلَى أنَّه يجب الحذر من الإسراف في تنمية مثل هذه الْعَلَاقَات الصَّوْتيَّة؛ لِأَنَّ ذلك سيؤدي إِلَى نَشَازٍ جماليٍّ داخلِ السِّياقِ الكليِّ للعملِ الْفَنِّيِّ. فهذه الْعَلَاقَاتُ يجب أَنْ يَكُوْنَ مقدارها موازياً لمقدار الْإِيْقَاع، ومنضبطة معه[1].

وَإِذَا عُدْنَا إِلَى عَوَالِمِ النَّثرِ الَّذِيْ ترتبط به المَقَامَاتُ، نَجِدْ أنَّ الْإِيْقَاعَ الْمُوْسِيْقيَّ فِيْهِ يَفْتَرِقُ عن الشِّعر؛ لِأَنَّ "للنَّثرِ إيقاعه، وبِمَعْنَى آخر أنَّه يقوم عَلَى إيقاع الفقرة أو السَّطر؛ لِأَنَّه يستند بقوَّةٍ إِلَى الفَصْلِ والوصْلِ، فقد كَانَتْ مبادئ في الشِّعر الخليليِّ تقوم عَلَى طول التَّفعيلات وحدودها، وعَلَى الشَّطر ثم عَلَى السَّطر، والشَّطر والسَّطر محدَّدان بالْقَافِيَة، ونهاية البيت، أما إيقاع النَّثر فيقوم عَلَى فصلٍ ووصلٍ من نمطٍ مختلفٍ ينشئه البعدُ الدَّلاليُّ المتعلِّقُ بامتدادِ النَّفَسِ، والضَّغط النَّابع من تموُّجات التَّجربةِ والقراءةِ، والْحَرَكَةِ الدَّاخليَّةِ للَّهجةِ الشِّعريَّةِ"[2].

ويفترقُ النَّثرُ عن الشِّعرِ من ناحيةِ التَّشْكِيلِ المُوْسِيْقِيِّ، فهو في الشِّعرِ يقوم عَلَى مُوْسِيْقَا الوزنِ والْقَافِيَة، لكنَّه في النَّثرِ إِلَى جانبِ السَّجْعِ فَإِنَّه "ناتج عمَّا سُمِّي في القديمِ بالطُّرقِ الْبَيَانِيَّة، كالتَّجْنِيس، والتَّرديدِ، والازدواجِ، والتَّكْرَارِ، وما يدور في فلكها من الوسائلِ الْبَيَانِيَّة الَّتِيْ تعتمد عَلَى إعادة اللفظ، أو مجانسته إبرازاً لدوره في التَّرْكيبِ النَّغميِّ"[3].

ويعتمدُ التَّشْكِيلُ الصَّوتيُّ في المَقَامَاتِ عَلَى معطياتِ المُحَسِّنَاتِ اللَّفْظِيَّة، وما تحدثه من أثرٍ جماليٍّ نابعٍ من فنيَّةٍ استخدامها عَلَى نسقٍ تعبيريٍّ معيَّنٍ، وما تتركه هذه المُحَسِّنَاتُ من أثرٍ في نفس الْقَارِئ، خَاصَّةً أنَّ المَقَامَة تستند في المقامِ الْأَوَّلِ عَلَى المُحَسِّنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، فَإِذَا ذُكِر فنُّ المَقَامَةِ ذكرت معه الصَّنْعَةُ اللَّفْظِيَّة، فهذه الصَّنعةُ "أخذت شكلاً خاصاً توارثه كتَّابها في مختلفِ العُصُوْرِ والبيئاتِ، من ذَلِكَ السَّجْعُ، والمُحَسِّنَات البَدِيْعيَّة الَّتِيْ لازمتها منذ نشأتها في

---

[1] يُنْظَر: جاب الله، جماليَّات التَّلوين الصَّوتيِّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص395).

[2] أبو ديب، في البنية الإيقاعيَّة للشِّعر العربيِّ، (ص221).

[3] المقالح، الشِّعر بين الرؤية والتَّشكيل، (ص115).

القرنِ الرَّابعِ الهجريِّ"[1]. وقد كَانَتْ المُحَسِّنَات البَدِيْعيَّة طابعاً مميزاً تفرَّدت به المَقَامَة عن الفُنُوْن النَّثْرية الأُخْرَى. حَيْثُ أحدثت تلك المُحَسِّنَات تشكيلاً صوتيَّاً، ذا إيقاعٍ موسيقيٍّ فِيْ الْمَقَامَةِ ربَّما قارب إيقاع البحورِ في الشِّعرِ، وإنْ اختلفت الفُنُوْنُ الأَدَبيَّةُ.

إنَّ كَثِيْراً من المُحَسِّنَاتِ البَدِيْعيَّةِ تبدو فيها المُوْسِيْقَا ظاهرةً، خَاصَّةً في السَّجْعِ والجِنَاسِ، فالجِنَاسُ "تكرارٌ موسيقيٌّ، ولونٌ بديعيٌّ عرفه أهل الْعَرَبِيَّة من قديمٍ، واستعملوه في شعرهم ونثرهم، إلا أنَّ استعمالهم له في النَّثرِ كان أكثر، نظراً لما في الشِّعر من ألوانٍ موسيقيَّةٍ تغنيه عن الجِنَاس"[2]. فهو ظاهرةٌ موسيقيَّةٌ تعتمد عَلَى تكرارِ لفظٍ ما تكراراً تاماً، أو تكراراً غير تامٍ لبعض الْحُرُوْف فَقَطْ، وَذَلِكَ عِنْدَ اختلافِ لفظي الجِنَاسِ، فهو وسيلةٌ فنيَّةٌ لتحقيق مزايا الجرسِ الصَّوتيِّ الموسيقيِّ الَّذِيْ ينبِّه الأذنَ والعقلَ، فتطرب له الأذنُ، وينجذب إليه العقلُ شرطَ أنْ يُوظَّفَ الجِنَاسُ بحرفيَّةٍ شديدةٍ، ودقَّةٍ متناهيةٍ، فَإِذَا ما كثر في الْكَلَام دخل في إطار التَّكلُّف فكان عالةً عَلَى النَّصِّ، وفساداً للكلامِ. وهَذَا ما سبق إليه الإمامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الجُرْجَانِيّ بِقَوْلِهِ: "أَمَّا التَّجْنِيسُ فَإِنَّك لا تستحسن تجانسَ اللَّفْظَيْنِ إلَّا إذَا كَانَ موقع معنيهما من العقلِ موقعاً حميداً، ولم يكن مَرْمَى الجامعِ بينهما مَرْمَىً بعيداً"[3].

وَمِنْ رَوَائِع التَّشْكِيلِ الصَّوتيِّ، والْإِيْقَاعِ الموسيقيِّ الَّذِيْ تتزيَّن بِهِ المَقَامَاتُ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "حللتُ بلاد اليَمن، في سالف الزَّمنِ، وأنا غضيضُ الصِّباءِ غريض الفننِ، فجعلت أتردَّدُ في بواديها، بين شِعبها، ووادِيها، وما زلت أطوف الحيَّ بعد الحيِّ، حتى دُفعت إِلَى بني طيٍّ، فرأيت بها ما شاء اللهُ من خيامٍ مَبثوثةٍ، ونيرانٍ مَشبوبةٍ، وجفانٍ مَصفوفةٍ، وخيلٍ مَشدودةٍ، ورِماحٍ مَركوزةٍ، وجمالٍ كالرُّبى، وسخالٍ كالدّبى، وجوارٍ كالظِّباء، وغلمان كالظُّبى"[4].

إنَّ ما قدَّمته اللَّوْحَةُ السَّابِقَةُ أَشْبَهَ بمعزوفةٍ موسيقيَّةٍ مُتَنَوِّعَة الْأَلْحَان، تنقَّل فيها الْأَدِيْب من حرفٍ إِلَى آخر، ومع كلِّ نقلةٍ مثَّلَ دفقةً شعوريَّةً تفترق عن سابقتها بدءاً بهدوءِ النُّونِ وسكونها، ثمَّ امتداد الهاء، وانتهاءً بدقَّةِ توظيف التَّاء المربوطة في جملٍ متوازنةٍ.

---

[1] أبو علي، نقد النَّثر في تراث العرب النَّقْديّ حتى نهاية العَصْر العباسيّ 656 هـ، (ص327).

[2] جاب الله، جماليَّات التَّلوين الصَّوتيّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص395).

[3] الْجُرْجَانِي، أسرار الْبَلَاغَة، (ص7).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الطائيَّة)، (ص261). الدُّبى: الجراد الصغير، الفنن: الغصن.

يُعَدُّ الجِنَاسُ، والسَّجْعُ من أهم المُحَسِّنَاتِ الَّتِيْ اهتمَّ النَّصُّ المقاميُّ بها، فالجِنَاس أسلوبُ العَصْر في التَّعبيرِ عن الجَانِبِ الأثيرِ الباقي من اللُّغَة، فالمَقَامَات قرينةُ الجِنَاس، والسَّجْع، والتَّلوينِ اللطيفِ، فهما يُضْفِيان عَلَى الْكَلَام مَزِيْدَاً من التَّشْكِيلاتِ الصَّوْتيَّةِ.

تعوِّلُ المَقَامَةُ كَثِيْراً عَلَى "خَصَائِصَ أسلوبيَّةٍ جمَّةٍ، كَانْتِقَاء الْأَلْفَاظ الحِسَان، والجرس الموسيقيِّ الفنيِّ، والمتغنى، والتزام السَّجْعِ الَّذِيْ يشكل عنصراً مهمَّــاً في الأداءِ الشِّعريِّ"[1]، مع الاعتماد عَلَى الجمل القصيرة الَّتِيْ تنتهي غالباً بالسَّجْعِ. وقد سمَّاه العُلَمَاْء الموازنة السَّجْعيَّة.

كَمَا تعتمدُ المَقَامَةُ عَلَى التَّقْفِيةِ الواحدةِ بين كلِّ جملتين متتاليتين، فالْأَلْفَاظ تتألف منها الجمل، وتتقارب في عددها، وتتماثل في أداءِ الْمَعْنَى المراد، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قول عَبْد الله فِكْرِيّ: "فهو أفضلُ عتادٍ، وأكرمُ مُستفادٍ، وأظرفُ جَليسٍ، وألطفُ أنيسٍ، وأرفقُ قرينٍ، وأوفقُ خدينٍ، وأوفى عِياذٍ، وأقوى مَلاذٍ، تجارته رابحة، وعبارته ببشائر السُّرور صادحة"[2].

إنَّنا إذا تَتَبَّعْنَا الأسطرَ السَّابِقَةَ نَجِد التَّقْفِيةَ الواحدةَ بين الجملِ المتتابعةِ فِيْ (أظرف جليسٍ، وألطف أنيسٍ)، و(أوفى عياذٍ، وأقوى ملاذٍ)، و(تجارته رابحة، وعبارته صادحة). وَلَعَلَّ ذَلِكَ يحدث إيقاعاً مُوْسِيْقِيَّاً تطربُ له الأذنُ. أضف إِلَىْ ذَلِكَ أنَّه مَعَ التَّداعي الصَّوتيِّ يتدخل التَّداعي النَّفْسيُّ؛ للرَّبطِ بين الجملِ والَّذِيْ يُشعر بالأمانِ.

إنَّ الجِنَاس الَّذِيْ يمثِّل واحداً من المُحَسِّنَات اللَّفْظِيَّة تتشكَّل مِنْ خِلَالِه تشكيلاتٌ صوتيَّةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، فأهلُ الْأُسْلُوبِ يرون في التَّعاملِ مع بنيةِ الجِنَاس "نوعاً مِنَ الاتِّكاءِ عَلَى الْمُعْطَى الصَّوتيِّ المتوفِّرِ فيها تحقيقاً للإيقاعِ النَّغَمِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ، وإثارةً لأفقِ التَّوقُّعاتِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى"[3].

وَمِنْ رَوَائِع التَّشْكِيلِ الصَّوتيِّ في الجِنَاسِ النَّاقِصِ ما يعتمد عَلَى زيادة حرفٍ حسب موقع هَذَا الحرفِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ فِيْ النَّصِّ المقاميِّ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

1- إِذَا كَانَ الحرفُ المُزاد في أوَّلِ الكلمةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "فكم ألقت المرءَ في المكاره، فغدا يتمنَّى الموتَ، وهو للحياةِ كارهٌ"[4]. فَقَد جَانَسَ بين كَلِمَتَي (المكاره)، و(كاره)، بزيادة حرفٍ، وهو (الميم) في بداية الكلمة الْأُوْلَى، وهَذَا يُسمَّى بالمُطَرَّفِ.

---

[1] مرتاض، فنُّ الْمَقَامَات في الْأَدَب العربيّ، (ص379)

[2] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (زَجْر الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ)، (ص63).

[3] جاب الله، جَمَاليَّات التَّلوين الصَّوتيّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم، (ص101).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص156).

2- أمَّا إِذَا كَانَ الحرفُ المُزَادُ واقعاً في وسط أحدى الْكَلِمَتَيْنِ كقول نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "حتى اضطررتُ أنْ أعفِّر خدِّي، ليجدَّ جهدِّي"[1]. بزيادة الهاء في وسط الكلمةِ الثَّانِيةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِه كَذَلِكَ: "أمْ كَيْفَ تزعم أنّك الآن من النَّعيمِ في جَنَّةٍ، ومن شررِ شرورِ الدُّنيا في وقايةٍ، وجُنَّةٍ"[2]. فقد جانس بين (شرر)، و(شرور) بزيادة الواو في وسط الكلمةِ الثَّانِيةِ، وهَذَا جناسٌ مكتنفٌ.

3- فَإِذَا كَانَ الحرفُ الْمَزَادُ واقعاً فِيْ نِهَايَةِ إحدى الْكَلِمَتَيْنِ، فهو الجِنَاسُ المُذيَّلُ، وهو ما اختلفتْ فيه إحدى الْكَلِمَتَيْنِ بزيادةِ أكثرَ من حرفٍ عن الأُخْرَى، ومثله: "فلله سواد ذلك الشِّعر، أو منطقة كالجوزاء، أو قرط كالثُّريا ذات السَّنَا والسَّنَاء"[3]. فَقَد جَانَسَ الْأَدِيْب بين (السَّنا)، و(السَّناء) بزيادة الْهَمْزَة في الكلمةِ الثَّانِيةِ، وهَذَا مِن المُذيَّلِ

وقد تكون إحدى الْكَلِمَتَيْنِ مزيدةً بأكثر من حرفٍ في آخرها عَنِ الْكَلِمَةِ الأُخْرَى، وَمِنْ شَوَاهِدِه فِيْ الْمَقَامَةِ العُثْمَانِيَّةِ: كَمَا أَنَّ فراقه من أَجَلِّ الرَّزايا، وأكبرِ المحنِ والبلايا، يوقع المرء في مصائدِ الْمَصَائِب، ويلقيه بين أنيابِ النَّوى والنَّوائبِ"[4]. فَقَد جَانَسَ بين (النَّوى)، و(النَّوائب)، والثَّانِية مزيدة بحَرْفَيْنِ في آخرها، وهما (الْهَمْزَة، والباء). وهَذَا النَّوع عِنْدَ أهلِ البَلَاْغَةِ هو ما يستحقُّ أنْ يطلق عليه (المذيَّل)؛ لِأَنَّ التَّذييلَ زيادةٌ تلحقُ أواخرَ الكَلِمَاتِ.

وَقَدْ تَتَشَكَّلُ التَّلويناتُ الصَّوْتيَّةُ عن طريقِ المغايرةِ، وتكون المغايرةُ عن طريق الاخْتِلَاْف في الْحَرَكَةِ، أو النَّقطِ، والخطِ، أو في ترتيبِ الْحُرُوْف، وَيُمْكِنُ رَسْمَ هَذِهِ التَّشْكِيلاتِ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

1- إذا تماثلتِ الْكَلِمَتَانِ في الْحُرُوْفِ مماثلةً تامةً، وتغايرتا في الحركاتِ سَوَاء أكانا اسمينِ أم فعلينِ، أو اسم وفعل، فعِنْدَئذٍ يسمى بالمُحرَّفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ مُحمَّد المُبَارَك: "أمْ كَيْفَ تزعم أنَّك الآن من النَّعيمِ في جَنَّةٍ، ومن شرر شرور الدُّنيا في وقايةٍ وجُنَّةٍ"[5]. فَقَد جَانَسَ بين كَلِمَتَي (جَنَّة) بفتح الجيم، وهي الجنَّة المعُلُوْمة، و(جُنَّة) بضمِّ الجيم، وهي بِمَعْنَى وقاية.

2- أمَّا إذا اختلف اللَّفْظَانِ المتجانسانِ فِيْ النَّقْطِ، وَذَلِكَ بَيْنَ الْحُرُوْف الأخوات (الباء، التَّاء، الثَّاء، والنُّون)، و(الجيم، الحاء، والخاء)، و(الدَّال، والذَّال)، و(الرَّاء، والزَّاي)، و(السِّين،

---

(1) اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الطائيَّة)، (ص264.).

(2) الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص158).

(3) الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (ص138).

(4) الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص155).

(5) المَرْجِع السَّابِق، ص158.

والشِّين)، و(الصَّاد، والضَّاد)، (والطَّاء، والظَّاء)، و(العَيْن، والغين)، و(الفاء، والقاف) فعِنْدَئذٍ يسمى هَذَا اللَّوْن (جناس التَّصْحِيفِ)، وَمِنْ شَوَاهِدِه: "رأيت الكبرَ ثاني عطفه شامخاً بين أقرانه بأنفه، يأنف من أبناءِ جنسه، وينفر من أسبابِ أنسه، ويجرُّ رداءَ التَّعالي، ويخطر في رواءِ التَّغالي"[1]. فَقَد جَانَسَ بين (التَّعالي)، و(التَّغالي) فناظرَ العَيْنَ بالغينِ، وهَذَا مقصورٌ عَلَى النَّقطِ فَقَطْ. وَمِنْهُ كَذَلِكَ: "وفيما بلغنا من الأخبارِ عن الأحبارِ، أنَّ تونس اسم لذات أسوار لا سِوار"[2]. فَقَد جَانَسَ بين (الأخبار) و(الأحبار)، فناظر الخاءَ بالحاءِ في نسقٍ صوتيٍّ بديعٍ.

3- وَإِذَا اتَّفَقَ اللَّفْظَانِ في الْحُرُوْفِ، واختلفا في ترتيبها دَاخَلَ بنيةِ الكلمةِ سَوَاء أكان هَذَا التَّرتيبُ كليَّاً أَمْ جزئيَّاً، عِنْدَئذٍ يسمى هَذَا النَّوع (جناس القلب)، وَمِنْ شَوَاهِدِ الاخْتِلَاْف الجزئيِّ فِيْ الْمَقَامَةِ العُثْمَانِيّةِ: "فكمْ وكَمْ حصل في الغربةِ، من انجلاءِ الهمِّ والكُربةِ، وطابت الأوقاتُ، وساغت الأقواتُ"[3]. حَيْثُ جَانَسَ بالقلبِ الجزئيِّ بين كَلِمَتَي (الأوقات)، و(الأقوات)، وهما مُتماثلتانِ في الْحُرُوْف ذاتها، بَيْدَ أنَّهُمَا اخْتَلَفَتَا فِيْ التَّرْتِيْبِ.

4- أما إذا اختلف اللَّفْظَانِ في نوعِ الحرفِ (الَّذِيْ يشترط كونه واحداً لا أكثر)، فالجِنَاس هنا عَلَى ضربينِ:

الضَّرب الأوَّل: أَنْ يَكُوْنَ الحرفانِ المتغايرانِ متقاربينِ صَوْتيَّاً، وَمِنْ شَوَاهِدِه فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، قول شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "فَلَمَّا حانَ وقتُ المساءِ، وانسدل سجف الظَّلماءِ، خلَّى عن التَّاجر، وردَّ الحمار إِلَى المكاري ساغباً لاغباً جائعاً يكاد يسلمه الطَّوى إِلَى التَّوى، ويسوقه الصَّدا إِلَى الرَّدا"[4]. فَقَد جَانَسَ الْأَدِيْب بين (الطَّوى)، و(التَّوى)، والاخْتِلَاْف بينهما فَقَطْ في حرفي (الطَّاء)، و(التَّاء) كلٌّ في موقعه، والحرفانِ من مخرجٍ صوتيٍّ واحدٍ، وهو رأس، أو طرف اللسان مع أصول الثَّنَايَا العليا[5]، ويسمَّى هَذَا النَّوع (الجِنَاس الْمُضَارِع).

الضَّرب الثَّانِي: أَنْ يَكُوْنَ الحرفانِ المتغايرانِ متباعدينِ صَوتيَّاً، ومثله: -"فإلام تتَّخذني مَرْمَى هَمْزِكَ وَلَمْزِكَ فيما فيه تُفيضُ، مع أنِّي مِن العُلَا في الأوجِ، وأنت في الحضيضِ"[6]. فَقَد جَانَسَ

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة) (ص290).

[2] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَة الخمريَّة)، (ص22).

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص165).

[4] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (المَقَامَة التي عارض بها الوطواط)، (ص390). الطَّوى: الجوع، التَّوى: الهلاك.

[5] يُنْظَر، أنيس، الأَصْوَات اللغويَّة، (ص62).

[6] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص158).

مُحَمَّد المُبَارَك بين (همزك)، و(لمزك)، والاخْتِلَاْف بينهما فَقَطْ في حرفي (الهاء)، و(اللام) كلٌّ في موقعه، والحرفانِ مُتباعدانِ في المخرجِ الصَّوتيِّ، فالهاء من أقصى الحلقِ، واللام من طرف اللسانِ. وهَذَا النَّوع يُسمَّى (الجِنَاس اللاحق).

وأَخِيرَاً يُمْكِنُ الْقَوْلُ إنَّهُ: "في إطارِ التَّماثلِ الْحَرْفيِّ، تتدخَّلُ بِنْيَةٌ بَدِيْعِيَّةٌ لها حُدُوْدُهَا الصَّوْتيَّة العالية، وهي بنية (التَّجَانُس) الَّتِيْ تعمل سطحيَّاً عَلَى مستوى السَّمعِ، ومستوى البصرِ، وتعمل في العمقِ عَلَى مستوى التَّوقُّعِ الخائبِ، أو غير المنتظر. وأهمية الْبِنْيَة – عَلَى المستوى الصَّرفيِّ– أنَّ التَّماثلَ فيها يغلب التَّخالفَ، من حَيْثُ الجمعُ بين دالينِ تكونُ علاقتهما الصَّوْتيَّة هي المطلوب الأوَّل"[1]، وقد وظَّف كتَّابُ المَقَامَةِ بنيةَ الجِنَاسِ بأعدادٍ لَا حَصْرَ لَهَا تمثِّلُ دفقاتٍ شعوريَّةً تزدحمُ بظواهرَ إيقاعيَّةٍ تكثِّفُ تشكيلاتِها الصَّوْتيَّةَ.

إنَّ الْإِيْقَاعَ الموسيقيَّ يُبنى عَلَى مَجْمُوْعَة من المعطياتِ، ولا يتوقَّف عَلَى أمرٍ منفردٍ، ولكن "الظَّاهرة الموسيقيَّة كلٌّ متكاملٌ في وحدةٍ وظيفيَّةٍ فِيْ النَّصِّ الشِّعريِّ، وهي تشكيلٌ من الوزنِ والْقَافِيَة، والصِّيغِ الصَّرفيَّةِ والْأَصْوَات، والتَّكْرَارِ والجِنَاسِ، وسوى ذَلِكَ. وجميعُ هذه العواملِ تسهم في التَّشْكِيلِ الموسيقيِّ للنَّصِّ"[2].

هَذِهِ رِحْلَةٌ قَصِيْرَةٌ فِيْ حقولِ الجِنَاسِ المُتَنَوِّعَةِ، وتشكيلاتِهِ الصَّوْتيَّةِ الْمُتَعَدِّدَةِ، مِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ إنَّ تعدُّدَ ألوانِ الجِنَاسِ الصَّوتيِّ، إنَّمَا مقصده الإلمام بمعطياتِ هَذَا اللَّوْنِ صَوتيَّاً، وما يترتب عَلَى ذلك من دلالاتٍ سياقيَّةٍ تحملُ تشكيلاتٍ صَوتيَّةً مُتَنَوِّعَةً، وَهِيَ تِلْكَ الَّتِيْ برع الْأُدَبَاء في تقديمها في لوحاتٍ فنيَّةٍ بارعةٍ، فاقت مثيلاتها في فنونِ النَّثرِ الأُخْرَى، حَيْثُ امتلكَ الْأُدَبَاء زمامَ البَدِيْعِ خَاصَّةً في ألوانِ الجِنَاسِ.

ولا يَتَوَقَّفُ التَّشْكِيلُ الصَّوتيُّ المُوْسِيْقِيُّ عَلَى الجِنَاسِ فَقَطْ، فهو يظهر كَذَلِكَ في التَّسْجِيعِ خَاصَّة إذا امتلكَ الْأَدِيْبُ زِمَامَ الُّلغَةِ، واستوعبَ فِكْرَةَ التَّعامُلِ مَعَ التَّسْجيع في المكانِ المناسبِ بعيداً عن التَّصنُّع، أو الفلسفة الَّتِيْ تحوِّل الْكَلَام إلَى مجرَّدِ ألغازٍ من الصَّعبِ أنْ يستوعبَ الْقَارِئُ دلالتها، أو يدركَ السَّامِعُ كُنهَهَا، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الإمامَ عَبْدَ القَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ أظهر الْوَشَائِج القويَّةَ بَيْنَ التَّجْنِيسِ والسَّجْعِ، ومواقع استحسانهما، يَقُوْلُ: "فَإِنَّك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سَجْعاً حسناً، حَتَّى يكونَ الْمَعْنَى هو الَّذِيْ طلبه، واستدعاه، وساق نحوه، وَحَتَّى لا تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً، وَمِنْ هُنَا كان أحلى تجنيسٍ تسمعه، وأعلاه، وأحقّهُ بالحسنِ

---

[1] عَبْد الْمُطَّلِب، هكذا تكلَّم النَّصُّ، (ص172).

[2] السَّد، الْأُسْلُوبيَّة وتحليل الخطاب، (ج103/1).

وأولاه، مَا وَقَعَ مِنْ غَيْرِ قصدٍ من المتكلمِ إِلَى اجتلابه، وَتَأَهَّبَ لطلبه، أو ما هو – لحسن ملاءمته، وإن كان مطلوباً– بهذه المنزلةِ، وفي هذه الصُّورَةِ"[1].

لَقَد جَرَى السَّجْعُ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ مَجْرَى الماءِ السَّلْسَبِيْلِ، ونسائمِ الهواءِ العليلِ، وجمع الْأُدَبَاء فِيْ أَعْمَالِهِمْ ما تقع عليه العيونُ فتقرُّ، ويصيب القُلُوْب فتطمئنُ، يدركه السَّامِعُ في كلِّ سطرٍ من أسطرِ المَقَامَةِ، وفي كلِّ معنىً من مَعَانِيها، فَهِيَ كَنْزٌ ثمينٌ يمتلئُ بجواهرِ السَّجْعِ، ويتزيَّنُ بلآلئ التَّجْنِيسِ، وَكَأَنِّي بالْأُدَبَاء أمامَ موردٍ عذبٍ ينهلونَ منه، وحَدَائِقَ غنَّاءَ يجمعونَ منها أجملَ الْأَزْهَار، ويقطفونَ أطيبَ الثِّمَارِ، وأنشودةٍ عَذْبَةٍ تُعْزَفُ صُحْبَةَ أجملِ الْأَلْحَانِ.

إنَّ المُتَتَبِّعَ لِلمَقَامَةِ العُثْمَانِيَّةِ، المتنقِّلَ بَيْنَ نُصُوْصِهَا، يَجِدُ أنَّ السَّجْعَ يزيِّنُ معظمَ صَفَحَاتِهَا، وَقُلْ إِنْ شِئْتَ معظم سطورِها، حَيْثُ كان ديدن الْأُدَبَاء الإكثار من التَّسْجيعِ، وكأنَّهم أرادوا أنْ ينهجوا مَنْهَجَ أسلافهم من الْأُدَبَاء، ويقتفوا أثرهم في تزيينِ مَقَامَاتِهِم بالأسْجَاعِ بشَتَّى صنوفها، وَمِنْ بَيْنِ ثَنَايَا السَّجْعِ تتولَّدُ ترديداتٌ موسيقيَّةٌ، وتشكيلاتٌ صوتيَّةٌ تتفرَّد بالْجَمَالِ الأخَّاذِ، ويمكنُ تَتَبُّع أَضْرُب السَّجْعِ الَّتِيْ حَمَلَتْهُا المَقَامَاتُ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

1– إذا اتَّفقتِ الفاصلتانِ فِيْ الْوَزْنِ، واخْتَلَفَتَا فِيْ التَّقْفِيَةِ، كان السَّجْعُ متوازناً، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ اليَازْجِيّ: "فَرَأَيْتُ بِهَا مَا شَاءَ اللهُ مِنْ خِيَامٍ مَبثوثةٍ، ونيرانٍ مَشبوبةٍ، وجفانٍ مَصفوفةٍ، وخيلٍ مَشدودةٍ، ورماحٍ مَركوزةٍ، وجمالٍ كالرُّبى، وسخالٍ كالدّبى، وجوارٍ كالظباء، وغلمان كالظُّبى"[2]. فَإِنَّ (مَبثوثة، مَشبوبة، مَصفوفة، مَشدودة، ومَركوزة) متَّفقةٌ فِيْ الْوَزْنِ دونَ التَّقْفِيةِ.

2– أما إذا اتَّفقتْ فيه ألفاظُ إحدى الْفِقْرَتَيْنِ أو أكثرها فِيْ الْوَزْنِ والتَّقْفِيةِ كان السَّجْعُ مُرصَّعاً، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا النوعِ قولُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: فَلَمَّا قبضتِ الدِّيَة أخمدتْ زفراتها، وأجمدتْ عبراتها، وأجملتِ الثَّناءَ، وأجزلتِ العطاءَ"[3]. فقد تماثلتْ ألفاظُ الْفِقْرَتَيْنِ (أخمدت زفراتها)، (وأجمدت عبراتها) فِيْ الْوَزْنِ والتَّقْفِيةِ، كما تماثلتْ كَذَلِكَ ألفاظُ الْفِقْرَتَيْنِ (أجملت الثَّناء)، و(أجزلت العطاء). مع ما يصاحبهما من إيقاعٍ موسيقيٍّ تنجذبُ إليه الأسماعُ.

3– وَإِذَا اختلفتِ الفاصلتانِ فِيْ الْوَزْنِ، واتَّفَقَتَا فِيْ التَّقْفِيَةِ، كَانَ السَّجْعُ مُطرَّفاً، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا النَّوعِ قولُ ابن الأَلُوسِيّ: "ما الَّذِيْ أَصَابَكَ، وَأَعْظَمَ أَوْصَابَكَ، هَلْ فَقَدْتَ – لَا فَقَدْتَ– أحداً مِنْ

---

[1] الْجُرْجَانِي، أسرار الْبَلَاغَة، (ص11).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الطائيَّة)، (ص261). الدُّبى: الجراد الصغير.

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الأنباريَّة)، (ص289).

أحبابك، فاضطرمت من فقده نيرانُ كربِك، واكتئابك، فبادرهم الدَّمعُ بالجوابِ، وكدتُ أقضي نحبي لولا الانتحابُ"[1]. حَيْثُ وَرَدَ السَّجْعُ في الْفَاصِلَتَيْنِ (الجواب)، و(الانتحاب)، وقد اختلفت هاتانِ الفاصلتانِ فِيْ الْوَزْنِ، واتَّفقتا فِيْ التَّقْفِيَةِ.

4- وَإِذَا اتَّفقتِ الْفِقْرَتَانِ فِيْ الْوَزْنِ والرَّوِيِّ كان السَّجْعُ متوازياً، وَمِنْ شَوَاهِدِه في المَقَامةِ العُثْمَانِيّةِ قول نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "وهي بِكرٌ رقيقةُ القوامِ، كَأَنَّهَا وردُ الكمامِ، لها نكهةُ الخزامِ، وصفاء ماءِ الغمامِ، تفتن القُلُوْبَ والأَلْبَابَ، وتستعبد السَّادةَ، والأربابَ"[2]. حَيْثُ اتَّفقتِ الفاصلتانِ (الأَلْبَاب)، و(الأرباب) فِيْ الْوَزْنِ، والرَّوِيِّ.

ويظهر التَّشْكِيلُ الصَّوتيُّ في ضربٍ ثالثٍ من المُحَسِّنَاتِ البَدِيْعيَّةِ اللَّفْظِيَّة، ويتجاوز هَذَا الضَّرب في امتداده الموسيقيِّ السَّجْع، وهَذَا المحسنُ اللفظيُّ هو الالتزام، أو لزوم ما يلزم، وقد عدَّه عبد الله بن المعتز من محاسنِ الْكَلَامِ، والْمَقْصُود به: "أنْ يجيءَ قبل حرف الرَّوِيِّ، وما في معناه مِنَ الفَاصِلَةِ ما ليس بلازمٍ في السَّجْعِ"[3]، وعنى ذلك أن يلتزمَ النَّاثرُ في نثره، أو النَّاظمُ في نظمه بحرفٍ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوِيِّ، أو بأكثر من حرفٍ بالنِّسبة إِلَى قدرته مع عدمِ التَّكلُّفِ. وَقَدْ وَرَدَ هَذَا النَّوعُ أكثر ما ورد في المَقَامَاتِ، خَاصَّةً مقامات الحريريِّ، والْهَمَذَانِيّ، وَمِنْ شَوَاهِدِه فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ قول نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "وأخذنا نجتني النِّمَارَ الذَّوابلَ، من الأفنانِ السَّوابلِ، وقد رقص البلبلُ عَلَى نغماتِ البلابلِ، وَإِذَا قومٌ من كرامِ الوجودِ، سيماهم في وجوههم من أثرِ السُّجودِ، وعليهم لوائحُ الجودة، والجود"[4]. فاللُّزُوْمُ في الفقرةِ السَّابِقَةِ وَقَعَ في كَلِمَتَي (الذَّوابل)، و(السَّوابل) في ثلاثةِ حروفٍ هي: الواو، والألف، والباء، كما وقع في (الوجود)، و(السُّجود)، و(الجود) حَيْثُ ظهر في حَرْفَيْنِ هما: الجيم، والواو. والجمع بين هذه الدَّوال زَيَّنَ المَشْهَدَ بِجَرْسٍ موسيقيٍّ من طِرَازٍ فريدٍ.

ولزومُ ما يلزم يكون فيه امتدادُ الصَّوتِ أكثر منه في السَّجْع الَّذِيْ قد يتوقَّفُ عَلَى حرفٍ واحدٍ فَقَطْ، غير أنَّه في لزوم ما يلزم قد يتجاوزُ ذَلِكَ، فيشكِّلُ امتداداتٍ صوتيَّةٍ أطولَ؛ لِذَا عَدَّهُ ابنُ الأثير من أشقِّ هذه الصِّناعةِ مذهباً، وأوسعها مسلكاً، فَإِنَّ اللازمَ في هَذَا الْمَوضُوْعِ، وما جرى مجراه إِنَّمَا هو السَّجْعُ الَّذِيْ هو تساوي أجزاء الْفَوَاصِلِ في الْكَلَامِ المنثورِ في قوافيها، وهَذَا

---

[1] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ (زَجْر الْمَغْرُوْرِ عَنْ رَجْزِ الْغُرُوْرِ)، (ص101).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المضريَّة)، (ص308).

[3] القَزْوِيْنِيّ، الْإِيْضَاح في علوم الْبَلَاغَة، (ص553).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحمويَّة)، (ص356). السَّوابل: المتدلِّية.

فيه زيادة عَلَى ذلك، وهو أن تكون الْحُرُوْفُ الَّتِيْ قبلَ الفاصلةِ حرفاً واحداً، وهو في الشِّعر أنْ تتساوى الْحُرُوْف الَّتِيْ قَبْلَ رَوِيِّ الأبياتِ الشِّعريَّةِ"[1].

إنَّ التَّشْكِيلَ الصَّوتيَّ موردٌ عذبٌ للمُوْسِيْقَا الَّتِيْ لها تأثيرها الكبيرُ عَلَى النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، إنَّها تفتح أبوابَ العُقُوْلِ، والقُلُوْبِ أمامَ إبداعاتِ فنِّ المَقَامَةِ، ذلك الفنُّ العجيبُ، وتستولي عَلَى حصونهما، وتسلِّم مفاتيحهما لَهَا، وتبسط سلطانه عليها؛ لِأَنَّ "في المُوْسِيْقَا سرَّاً عجيباً، كَمَا أَنَّ لإيحاءاتها أثراً هائلاً في تقوية الْمَعَانِي، والمشاعر الَّتِيْ يُرَاد توصيلها إِلَى المُتَلَقِّي. إنَّها تَهَبُ الْمَعَانِي والمشاعرَ أجنحةً عملاقةً تطير بها إِلَى الذُّرَى"[2].

هَكَذَا تنقَّلَ الْأُدَبَاءُ فِيْ هَذَا الْبَابِ تنقُّلَ الفراشاتِ بَيْنَ الزُّهور، ونشروا أصنافاً من الرَّياحين والعطورِ، وأداروا حلقةَ سمرٍ عزفوا فيها أجملَ الْأَلْحَانِ عَلَى وقع الأسجاعِ، والأوزانِ، فشكَّلوا تلويناتٍ صوتيَّةً بارعةً، ومُوْسِيْقَا عذبةً رائعةً تجاوزت حدودَ الْجَمَالِ إِلَى أسوارِ المحالِ؛ لتكتب قصَّةَ خلودٍ للمقامةِ ومبدعيها في كلِّ أفقٍ، ومجالٍ.

تِلْكَ هِيَ أهمُّ المُحَسِّنَاتِ البَلاغيَّةِ الصَّوْتيَّةِ ينسِّقها الْأُسْلُوبُ، وبما تحمله من تشكيلاتٍ جماليَّةٍ موظفةٍ في ثَنَايَا النَّصِّ المقاميِّ كَقِيَمٍ نصيَّةٍ صوتيَّةٍ دلاليَّةٍ تترك أَمَامَ المُتَلَقِّي مساحاتٍ لا حدودَ لها كي يُمتِّعَ سَمْعَهُ في كلِّ آنٍ، وحينٍ. وغدت حليةً زيَّنتِ المَقَامَةَ، ووشَّحتْ نُصُوْصهَا بوشاحِ الْجَمَالِ الَّذِيْ يروي ظَمَأَ المُتَعَطِّشِيْنَ.

---

[1] ابن الأثير، المَثَل السَّائِر، (ص106).

[2] عوض، المرايا المشوَّهة، (ص144).

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: التَّشْكِيْلُ الْأُسْلُوْبِيُّ

مَفْهُوْمُ التَّشْكِيْلِ الْأُسْلُوبيِّ اصْطِلَاحَاً:

التَّشْكِيلُ الْأُسْلُوبيُّ هو الغايةُ، والوسيلةُ مَعَاً عِنْدَ النُّقَّادِ الْأُسْلُوبيّينَ "فالتَّشْكِيلُ من المُصْطَلَحاتِ النَّقديَّةِ الحَدِيْثةِ، الَّتِيْ تداولها النُّقَّادُ، عقدت لأجله ندواتٌ فكريَّةٌ عربيَّةٌ لما لهَذَا المُصْطَلَح من مفاهيمَ متعددةٍ"[1]، إلَّا أنَّ النَّدواتِ تُجمعُ عَلَى إنَّ التَّشْكِيلَ هو: "الصَّيرورة الَّتِيْ تؤول إلَيْهَا الأَشْيَاء والمكوِّنات لتحقِّق وحدةً متماسكةً، متعدِّدةً، مترابطةً، ووجوداً جَدِيْدَاً تحقّق فيه مبادئَ المزجِ، والتَّوليفِ، والتَّنظيم، والتَّنوعِ، والتَّوازنِ، والتَّناغمِ، والْإِيْقَاعِ، والانسجامِ فعلَها الفنيَّ، الَّذِيْ يمثِّل نزوعاً جماليَّاً لتحقيقِ التَّشْكِيلِ، وتُمَثِّلُ هذه المبادئ قيمَ السُّلوكِ الفنيِّ، وتقاليده الهادفة لتكوين التَّشْكِيلِ، وتحقيق وجوده"[2]. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ إنَّ مبدأ الصَّيرورةِ، والتَّحوُّل للأفكار، وانتقالها، هي تقنية يسلكها المبدع حَتَّى يجعلَهَا مجسَّدةً، ومتاحةً في مُتَنَاوَلِ إدراك المُتَلَقِّي سَوَاء كَانَتْ تلك التَّشْكِيلات الْأُسْلُوبيّة خطيَّةً مكتوبةً، أو شفاهيَّةً منطوقةً وهي تنمُّ عن قدرةِ المشكلِ (الْأُسْلُوبيّ) عَلَى حسنِ الاختيارِ من المادةِ اللَّفْظِيَّةِ الأوليَّةِ، وإخراجها إلَى تشكيلٍ معبِّرٍ عن الْمَعَانِي، والمفاهيم، والإحساسات الَّتِيْ يخاطب بها متلقِّيه. كَمَا نَجِدُ (عبد العزيز المقالح)، قد تطرَّق إلَى معنى التَّشْكِيل الأَدَبيِّ في كتابه (الشِّعر بين الرُّؤيا والتَّشْكِيل)، حَيْثُ قَالَ: "العملُ الأَدَبيُّ ليس قطعةً من النَّسيج يمكن للدارَّس أنْ يمزِّقَهَا إلَى خُيُوطٍ، لِكَي يتمكَّنَ مِنْ دَرْسِ كلِّ خيطٍ عَلَى حِدَة. إنَّ العمل الأَدَبيَّ – رَغْمَ تعدُّد عَنَاْصِره– وحدةٌ متلاحمةٌ، ومتداخلةٌ إذَا استدعيت منها جانباً حمل معه بقيةَ الجَوَانِبِ"[3].

وفي هَذَا الصَّددِ وضَّح (عبد العزيز المقالح) أَنَّ التَّشْكِيلَ الأَدَبيَّ بصفةٍ عامةٍ، وَمِنْهُ التَّشْكِيل الْأُسْلُوبيّ بصفةٍ خَاصَّةٍ، هو عملٌ منتظمٌ متشابكٌ يشكِّل في كلِّه وحدةً شكليَّةً، ودلاليَّةً متَّسقةً تركيبيَّاً، ومنسجمة دلاليَّاً. فالتَّشْكِيلُ الْأُسْلُوبيُّ يقوم عَلَى "فرضيَّة منهجيَّة أساسها أنَّ المدلولَ الواحدَ يمكن التَّعبيرِ عنه بأَسَالِيْبَ مختلفةٍ، مِمَّا يؤدِّي إلَى تعدُّدِ الْأَشْكَالِ التَّعبيريَّةِ عَلَى الرَّغْمِ من وحدةِ الصُّورَةِ الذِّهنيَّةِ"[4].

وَمِنْهُ فالاختيارُ، والتَّرْكيبُ عنصرانِ مكوِّنانِ للأسلوبِ، حَيْثُ تتَّضحُ أهميتهما في التَّشْكِيلِ

---

[1] يُنْظَر، شيخة، التَّشْكيل الْأُسْلُوبيّ في الشِّعر المهجريِّ الحديث (ص19، ص20).

[2] قوقزة، نظرية التَّشْكيل الاستعاريّ في الْبَلَاغَة والنَّقْد، (ص27).

[3] المقالح، الشِّعر بين الرُّؤيا والتَّشْكيل، (ص230، ص231).

[4] الكوَّاز، علم الْأُسْلُوب مفاهيم وتطبيقات، (ص18).

الْأُسْلُوبيِّ، وَمِثْل ذَلِكَ عمليَّة البناءِ الهندسيِّ في فَنِّ العمارةِ، وعمليَّة البناءِ الُّلغويِّ للأسلوبِ.

إنَّ التَّشْكِيلَ الْأُسْلُوبيَّ يتحقَّق باختيارِ عددٍ من المتغيرات الْأُسْلُوبيَّةِ الَّتِيْ تؤدِّي إِلَى تمايزِ الأَسَالِيْب، فهو– أعني التَّشْكِيلَ الْأُسْلُوبيَّ– "عمليةٌ مركَّبةٌ تتمُّ في نسيجٍ متشابكٍ معقَّدٍ عَلَى جميع المستوياتِ الصَّوْتيَّةِ، والصَّرفيَّةِ، والتَّرْكيبيَّةِ، والمُعْجَميَّةِ في آنٍ مَعَاً، وأنَّ تعقُّدَ عمليَّةِ التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبيِّ يقابلها صعوبةً مماثلةً من جانبِ البَاْحِث عِنْدَ محاولته فكّ تداخلات النَّسيجِ، وتشخيص الخَصَائِص المائزة، واستكناه دَلَاْلَاْتِهَا"[1]، وما يمكنُ قَوْلُهُ عن التَّعقيدِ فيما يخصُّ المستويات يرجع إِلَى الانصهارِ القائمِ بين هذه المستويات، الَّذِيْ يُولَدُ عَلَى إثره مثيراتٌ أسلوبيَّةٌ تجعل البَاْحِث يجد صعوبةً في معرفة الخَصَائِصِ الْأُسْلُوبيَّةِ (النُّعوت الْأُسْلُوبيَّة، ومدى الكشفِ عن بعدها الدَّلاليِّ. فالمستويات الموجودة في التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبيِّ، نجدها تختلف فيما بينها، فالمتغيِّرُ الدَّلاليُّ له قيمة القابليَّة للتَّشكيلِ، ثم يأتي المتغيِّرُ الصَّرفيُّ، والتَّرْكيبيُّ، أمَّا فيما يخصُّ المتغيِّر الصَّوتيّ، فَإِنَّ هَذَا المتغيِّر "يخضع لنظام الُّلغَة، وَمِنْ هُنَا يظهر دورُ الشَّاعِرِ في التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبيِّ، ومدى اختلافِ قدراتِ الشُّعَرَاءِ بعضهم عن بعضٍ"[2].

وهَكَذَا يتبيَّنُ لَنَا أنَّ المتغيراتِ الْأُسْلُوبيَّةَ لَهَا دورٌ كبيرُ في التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبيِّ، بالإضافة إِلَى عواملِ الاختيارِ، والشّيوعِ، والتَّوزيعِ هي الأُخْرَى لها دورٌ أكبرُ في عمليةِ تشكيلِ الْأُسْلُوبِ.

وقد سبقَ أبو بكر الباقلانيّ (ت372هـ) فِيْ هَذَا الْبَابِ، حَيْثُ اسْتَخْدَمَ كلمةَ الْأُسْلُوبِ للدَّلالةِ عَلَى "تناسق الشَّكلِ الأَدَبيِّ، واتِّساقه في كلام الْبَلَاغِيين العرب حول إعجاز الْقُرْآن الْكَرِيْم، وأقدم من اسْتَخْدَمَ هذه اللفظة، كان الباقلانيّ في كتابه الموسوم بإعجاز القرآن، فقد أوضح أنَّ لكلِّ شاعرٍ، أو كاتبٍ طريقةً يُعرَفُ بها، وتنسبُ إليه"[3].

ولا يتوقَّفُ الْأُسْلُوبُ عَلَى فنٍّ أدبيٍّ دون آخر، ولا غرضٍ شعريٍّ دونَ غرضٍ، وكَذَلِكَ لا يتفرَّدُ به الشِّعرُ دُوْنَ النَّثْرِ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ "الْأُسْلُوبَ يُعَدُّ تعبيراً عن نظامٍ متَّحدٍ ذي شكلٍ متماسكٍ متَّصلٍ بقاعدةِ هَذَا النَّصِّ، أو ذاك"[4].

إنَّ التَّشْكِيلَ الْأُسْلُوبيَّ لا يتوقَّفُ عَلَى أسلوبٍ معينٍ، بل ينشأ أساساً من الجمع بين عددٍ من الأَسَالِيْب؛ لِأَنَّ "العنصرَ الجَوهريَّ في القيمِ الْأُسْلُوبيَّةِ يتخلَّق أساساً من التَّقابلاتِ بَيْنَ

---

[1] مصلوح، في النَّصَّ الْأَدَبيّ، دراسة أسلوبيَّة إحصائيَّة، (ص36).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص36.

[3] خليل، النَّقْد الْأَدَبيّ الحديث من المحاكاة إلى التَّفكيك، (ص149).

[4] فضل، نظرية البنائيَّة في النَّقْد الْأَدَبيِّ، (ص315).

أَسَالِيْب اللُّغَةِ المُخْتَلِفَةِ، ويتَّضحُ صدق ذلك من أنَّ كلَّ أنواع التَّلوين في الْأُسْلُوب، وما يعزى لها من قيمةٍ يختفي بمجرَّد أنْ نتصوَّر لغةً ذات أسلوبٍ واحدٍ، وعَلَى هَذَا فَإِنَّ قيمة الْأُسْلُوب تتحدَّد بالْعَلَاقَة المتبادلة"[1].

والتَّشْكِيلُ الْأُسْلُوبيُّ هو مزيجٌ من أَسَالِيْبَ مُتَنَوِّعَةٍ، أو عَنَاْصِرَ متعدِّدةٍ، تتشابك تِلْكَ العَنَاْصِر كَافَّةً في العملِ الأَدَبيِّ، فتشكِّلُ لوحاتٍ أدبيَّةً تحملُ مستوياتٍ من الأَنْمَاط الْأُسْلُوبيَّةِ، أو تجتمع تقنيات متعدِّدة تنتهي برسم مَشَاهِدَ أسلوبيَّةٍ، تنصهر جَمِيْعَاً، فلا يقف أحداها محايداً عن الأَسَالِيْب الأُخْرَى، حَيْثُ تجتمعُ تقنياتِ الأمرِ، والنَّهيِ، والاسْتِفْهَامِ، والنِّدَاءِ، والتَّمنِّي، ثُمَّ يتفاعلُ معها تقنياتٌ أُخْرَى، كتقنيةِ الشَّرْطِ، والتَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ، والتَّعْرِيفِ والتَّنكيرِ، والذِّكرِ والحذفِ، إضافة إِلَى بعض التّقنيات الَّتِيْ تظهر مكمِّلة لسابقاتها؛ لينتهي الأمرُ إِلَى تشكيلٍ أسلوبيٍّ يمنح الفُنُوْنَ الأَدَبيَّةَ مَزِيْدَاً من التَّأَلُّقِ، ويهب أصحابَهُ طاقاتٍ من التَّفوُّقِ، والإِبْدَاعِ.

أَدَوَاتُ التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبيِّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

إنَّ التَّشْكِيلَ الْأُسْلُوبيَّ للمقامةِ يعمل عَلَى تحقيقِ آليَّةِ التَّشْكِيلِ الْجَمَاليِّ والفنيِّ، حِيْنَ نمَّقتِ الْأُسْلُوبَ، وأفعمته بألوانِ الْمَعَانِي، ومضاربِ البَلَاْغَةِ، والفَصَاْحَةِ، والَّتِيْ عُدَّت معالم أسلوبيَّة ذات دلالاتٍ تأثيريَّةٍ فِيْ عَصْرٍ أُوْلِعَ فِيْهِ الكتَّابُ إِلَى جَانِبِ البَدِيْعِ، والصَّنْعَةِ اللَّفْظِيَّةِ بالتَّنميقِ الْأُسْلُوبيِّ، الَّتِيْ اكسبت النُّصُوْص مَزِيْدَاً مِنَ الرَّوْعَةِ، والْبَهَاءِ، والإِبْدَاعِ، مِنْ هُنَا يَنْطَلِقُ منذر عياشي قَائِلَاً: "وَلِذَا نَتَكَلَّمُ عَنِ الإِبْدَاعِ حِيْنَ نَتَكَلَّمُ عن الْأُسْلُوبِ، كَمَا نَتَكَلَّمُ عن الخارقِ للمألوفِ حَيْثُ يكون الْأُسْلُوبُ علامةً فارقةً لنصٍّ من النُّصُوْصِ"[2].

وَلَمْ يغفلِ الْأُدَبَاءُ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ الظَّوَاهِرَ الْأُسْلُوبيَّةَ بما فيها الأَسَالِيْب الخبريَّة، والأَسَالِيْب الإنشائيَّة، مع تنوُّع أغراضها، وإن كانوا قد صَبُّوا جُلَّ اهتمامهم بالبَدِيْعِ، بل انْطَلَقُوا إِلَى عَوَالِمِ الأَسَالِيْبِ المُخْتَلِفَةِ، والظَّوَاهِرِ المُتَنَوِّعَةِ الَّتِيْ أكسبت مقاماتهم مَزِيْدَاً من الرَّوْعَةِ، والأناقةِ. فكتبتْ لهم بكلِّ جدارةٍ استحقاقَ وسامِ الإِبْدَاعِ، وقلائدِ العبقريَّةِ.

وَتَتَنَوَّعُ أدواتُ التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبيِّ فِيْ الفُنُوْنِ الأَدَبيَّةِ بوجهٍ عامٍّ، وفِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ بوجهٍ خاصٍّ، ويجمعُ الْأُدَبَاءُ بين الأَسَالِيْب الَّتِيْ تغدو نُظُمَاً تعبيريَّةً تتعايشُ داخلَ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، وتعكس بعضاً من إمكاناتهم، وطاقاتهم الإِبْدَاعيَّةِ الَّتِيْ تبدو جليَّةً فِيْ أَعْمَالِهِمْ الَّتِيْ جَمَعَتْ بَيْنَ شَتَّى الأَسَالِيْبِ، فَلَمْ يَقْتَصِرِ الْأَمْرُ كَمَا يظنُّ بَعْضُ الدَّارِسِينَ أنَّ المَقَامَةَ لمَّا ركَّزتْ

---

[1] فضل، نظرية البنائيّة في النَّقْد الْأَدَبيّ، (ص316).

[2] عياشي، مقالات في الْأُسْلُوبيّة، (ص41).

عَلَى السَّجْعِ والتَّجْنِيسِ، أَهْمَلَتِ الجَانِبَ الْأُسْلُوْبِيَّ، والأمرُ لَيْسَ كَذَلِكَ فَقَدْ تزيَّنت المَقَامَاتُ بأَسَالِيْب الإنْشَاءِ الطَّلبيِّ، وَغَيْرِ الطَّلبيِّ بضروبهما المُخْتَلِفَةِ، كما ازدانتْ بالشَّرْطِ، والتَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ، وتجمَّلت بالذِّكرِ والحذفِ، وتوشَّحت بالتَّكْرَارِ، والتَّعْرِيفِ والتَّنكيرِ، فلم يتركِ الْأُدَبَاء باباً من أبواب الْأُسْلُوبِ إلا طَرَقُوْهُ، ولم يدعوا سبيلاً في هَذَا الجَانِبِ إلا سلكوه، وَلَعَلَّ الدَّافعَ الَّذِيْ أضاء لهم تِلْكَ السُّبلَ هو تلمُّسهم دُرُوْبَ سابقيهم مِنَ الْأُدَبَاءِ أمثالِ، الحريريّ، وبَدِيع الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ مِنْ نَاحِيَةٍ، ورغبتهم الجارفة في إمتاع القُرَّاءِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وقد تحقَّق ذلك لهم فعلاً؛ لِأَنَّ من سبر أغوار المَقَامَة كفى نفسه مؤونة البحث عن جَمَالِيَّات أُخْرَى؛ وَذَلِكَ بما حَمَلَتْهُ المَقَامَاتُ من مساحاتٍ شاسعةٍ من الحسنِ والْجَمَالِ، ما تضمَّنته أَسَالِيْبُهَا المتنوِّعةُ من السِّحرِ، والدَّلالِ.

ومن أدواتِ التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوْبِيِّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ مَا يَأْتِي:

أَوَّلاً: الْأَمْـرُ

بِالْعَوْدَةِ إِلَى أدواتِ التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبيِّ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، نرى باقةَ الأَسَالِيْب مُتَنَوِّعَةً، وأزهارها متعدِّدةً، وعَلَى رأسِ هَذِهِ الأدواتِ، الأَمـر، والأَمرُ لغةً نقيضُ النَّهي، وقد ورد هَذَا الْمَعْنَى في مواضعَ كَثِيْرةٍ تزيَّن بها الْقُرْآن الْكَرِيْم، وَنَحْوَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: 71].

أَمَّا اصْطِلَاحَاً فهو "قَوْلٌ يُنبئ عن استدعاءِ الفعلِ من جهةِ الغيرِ عَلَى جهةِ الاستعلاءِ"[1]. وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الأمرَ هو طلبُ حصولِ الفعلِ عَلَى وجهِ الاستعلاءِ والإلزامِ، أو "طلب تحقيق شيء ماديّ أو معنويّ"[2].

اسْتَعْمَلَ كُتَّابُ المَقَامَةِ تقنيةَ الأمرِ في مواضعَ كَثِيْرةٍ، خَاصَّةً أَنَّ المَقَامَةَ كَانَتْ فِيْ حاجةٍ ماسَّةٍ إِلَى تلك التّقنية خَاصَّةً في مَوْضُوْعَاتِ المواعظِ، والنَّصائحِ الَّتِيْ سيطرتْ عَلَى مَوْضُوْعَاتِ المَقَامَةِ، أو في تعليمِ الناشئةِ الآداب المُخْتَلِفَة، ولم يقفْ هَؤلاءِ عِنْدَ هَذَا الْمَعْنَى فَقَطْ، بل تجاوزوا الْمَعْنَى الحقيقيَّ للأمرِ إِلَى معانٍ أُخْرَى فرضها عليهم سياقُ الْكَلَامِ، وَفَحْوَى الحَدِيْثِ، فتنقَّلوا بين النُّصْحِ، والتَّمنِّي، وبين الالتماسِ، والتَّهكُّمِ، والدُّعاءِ، وبين الوعدِ والتَّهديدِ، وَبَيْنَ التَّحذيرِ والوعيدِ، منوِّعينَ فِيْ تَشْكِيْلَاتِهِم الْأُسْلُوبيَّةِ كلَّما دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَىْ ذَلِكَ.

---

[1] العلويّ، الطِّراز، (ص530).

[2] الْمَيْدَانِيّ، الْبَلَاغَة الْعَرَبِيَّة أسسها وعلومها وفنونها، (ج228/1).

وَمِنْ شَوَاهِدِ النُّصْحِ، والإرشادِ بالأمرِ الَّتِيْ استوعبتْ مساحةً شاسعةً فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ تلك الَّتِيْ ضمَّنها ابن الأَلُوسِيّ مقَامَته (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، وهي وصيَّةٌ لأبنائه تصلح أن تكون دستوراً ثابتاً في مكارمِ الأَخْلَاقِ، فقد تتابعت فِيْ ثَنَايَاهَا أَسَالِيْب الأمر، والنَّهي، والنِّدَاء بِطَرِيْقَةٍ واضحةٍ، وكَثِيْرةٍ ، وَلَعَلَّ المبرِّرَ في ذلك أنَّ هذه المَقَامَةَ في مجملها كَانَتْ أشبهَ بموسوعةٍ من النَّصائحِ، والمواعظِ للأبناءِ في جوانبِ مكارمِ الأَخْلَاقِ، والَّذِيْ يميِّز هذه المَقَامَة تقارب هذه الأَسَالِيْب الثَّلاثة، وورودها مجتمعةً في آنٍ واحدٍ، في كلِّ صفحةٍ من صفحاتِ المَقَامَةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، والتَّعليلِ للأوامرِ، والنَّواهي مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، يَقُوْلُ: "يا بَنِيَّ، جودوا بالمال في موضع الحقِّ، وابخلوا بالْأَسْرَارِ عَلَى جميعِ الخلقِ؛ فَإِنَّ أَحْمَدَ جُوْدِ المرءِ الإنفاقُ فِيْ وَجْهِ الْبِرِّ، وأكرمَ بُخْلِ المرءِ الضَّنُّ بمكتومِ السِّرِّ"[1].

لَقَدْ استجمعَ ابنُ الأَلُوسِيّ كلَّ خبراته في التَّشْكِيلِ، فاسْتَخْدَمَ تقنيةَ الأمرِ في (جُودوا بالمال في موضع الحقِّ)، وعلَّل للأمر مباشرةً فِيْ قَوْلِه: (فَإِنَّ أَحْمَد جودِ المرءِ، الإنفاقُ في وجهِ البرِّ)، ثم تابع بالأمر (ابخلوا بالْأَسْرَار عَلَى جميع الخلق) معلِّلاً للأمر بِقَوْلِهِ: (أكرم بخل المرء الضَّن بمكتوم السِّرِّ). مع ما حمله فعلا الأمر (جودوا، ابخلوا) من نصحٍ، وإرشادٍ وُشِّحَا بإبراز لِلْمَعْنَى عن طريقِ التَّضَادِ مِنْ نَاحِيَةٍ. ومِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى اسْتِلْهَام تُرَاثِ الأَدَبِ الجاهليِّ مُسْتَعِيْنَاً بِقَوْلِ قيس بن الخطيم:

أَجُــوْدُ بِمَكْنُــوْنِ الــتِّلَادِ وإنَّنَــي بِسِــرّك عَمَّــنْ يَسْــأَلَن لَضَــنِيْنُ

إِذَا جَــاوَزَ الاثْنَــيْنِ سِــرٌّ فَإِنَّــهُ يُبَــثُّ وتكَثِيْــرُ الحَــدِيْثِ قَمِــيْنُ[2]

وَنَوَّعَ ابن الأَلُوسِيّ في استخدامِ تقنيةِ الأمرِ، فلم يكتفِ بصيغة فعلِ الأمرِ، بل اسْتَخْدَمَ اسمَ فعلِ الأمرِ، والمصدر النَّائب عنه، يَقُوْلُ: "عَلَيْكُمْ بالقناعةِ، ولا يكشفنَّ أحدٌ منكم للَّئيم قناعه...الحذرَ الحذرَ من الوقيعةِ في الْأُمَرَاءِ، والتَّشنيعِ عليهم فيما هم فيه من الشَّنيعةِ الشَّنْعَاء"[3].

لَمَّا توسَّعَ ابنُ الأَلُوسِيّ فِيْ استخدامِ تقنيةِ الأمرِ فَتَحَ المجالَ أَمَامَهُ لاستخدامِ صيغه المُخْتَلِفَة، فاستفتحَ بالأمرِ (جُودوا)، وَثَنَّى بِاسْمِ فعلِ الأمرِ (عَلَيْكُمْ) بِمَعْنَى: (الزموا)، وَخَتَمَ

---

[1] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، (ص3).

[2] ابن الخطيم، دِيْوَان قيس بن الخطيم، (ص3).

[3] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، (ص10).

بالمصدرِ النَّائبِ عن فعلِ الأمرِ: (الحَذَر) مَعْ مَا تَحْمِلُهُ الصيَّغُ الثَّلاثةُ من مَعَانِي النُّصحِ والإرشادِ، وما تضمَّنه التَّكْرَار (الحَذَر الحَذَر) مِنْ تَأكِيْدٍ لباقة النَّصائحِ.

وَلَمْ يُفَارِق ابنُ الأَلُوسِيّ مقَامَته حَتَّى جَمَعَ صِيَغَ الأمرِ كَافَّةً في وثيقةٍ أُخْرَى، يَقُوْلُ مُوجِّهاً الوَصَايَا لِأَبْنَائِهِ: "يَا بَنِيَّ، عَلَى استيفاءِ الوَصَايَا لَا أَقْوَى، وَجِمَاعُ ذَلِكَ فيما أَرَى التَّقوى، فالتَّقوى التَّقوى، وليأتِ أحدُكُم منها بِمَا يَقْوَى، وَثِقُوا باللهِ تَعَالَى أتمَّ وثوقٍ، وإيَّاكُم أَنْ تعتمدوا فِيْ أمرٍ عَلَى مخلوقٍ"[1].

لَقَدْ شَكَّلَ ابنُ الأَلُوسِيّ لوحةً مِنْ لَوْحَاتِ التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوْبِيِّ الْبَارِعَةِ الَّتِيْ حملتْ عناوينَ الأمرِ كَافَّةً، فاستفتح بالمصدر النَّائب عن فعل الأمر (التَّقوى، التَّقوى) بدلالة: اتَّقوا التَّقوى، ثمَّ تابع بالْمُضَارِعِ المقترنِ بلامِ الأمرِ: (وليأتِ)، وواصل مسيرته مع تقنيةِ الأمرِ بفعلِ الأمرِ المباشرِ: (ثقوا)، وَخَتَمَ بِاسْمِ فِعْلِ الأمرِ: (إيَّاكم) بِمَعْنَى: احذروا، فاكتملتِ اللَّوْحَة الرُّباعيَّةُ الأبعادِ مُحَاطَةً بمساحاتٍ شاسعةٍ من الْحَثِّ والنُّصْحِ.

وَمِنْ هُنَا يمكن أنْ تكون هذه المَقَامَةُ أنموذجاً متفرِّداً للتَّشكيلِ الْأُسْلُوبيِّ، وَذَلِكَ بما تضمَّنته من علاقاتٍ متبادلةٍ بين الأَسَالِيْب، أو وشائجَ مترابطةٍ، وتحوُّلات خطابٍ تنمُّ عن ذكاءٍ حادٍّ، وقريحةٍ وقَّادةٍ امتلكها ابن الأَلُوسِيّ. كما تصلح أنْ تكونَ دستوراً في مكارمِ الأَخْلَاقِ، يَرِدُ مناهِلَهُ الْمُتَعَطِّشُونَ إِلَى الفضيلةِ والأَدَب، الْبَاحِثُونَ عَنْ عظيمِ الخُلُقِ.

وَيَقْتَفِي نَاصِيْف اليَازْجِيّ آثارَ ابن الأَلُوسِيّ برسم مَجْمُوْعَة من دوال (الأمر) المتواصلة الَّتِيْ تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا النُّصحَ والإرشادَ، يَقُوْلُ: "يا غُلام، عَامِلِ النَّاس ما استطعتَ بالإحسانِ، وكُنْ بينهم عفيفَ الطَّرفِ، واليدِ، واللسانِ، وقابلِ النِّعمةَ بالشّكرِ، وأَحيِ الْجَمِيْلَ بالذِّكرِ، وحافظْ عَلَى الصَّديقِ، وَلَوْ فِيْ الْحَرِيقِ، وَإِيَّاكَ والغيبة، فَهِيَ بِئْسَ الرِّيبةِ، وانظرْ إِلَى معايبك قبلَ معايبِ صاحبك، واجتنبِ الْمُزَاحَ؛ فَإِنَّهُ يخفُضُ الجناحَ"[2].

لقد صوَّر نَاصِيْف اليَازْجِيّ مَشْهَداً حيَّاً من مَشَاهِدِ الأَخْلَاقِ عن طريقِ تقنيةِ الأمرِ، ولم يقف عِنْدَ دال الأمرِ، بلْ علَّلَ لكلِّ أمرٍ بتعليلٍ مناسبةٍ، مع ما حَمَلَتْهُ المَشَاهِدُ من أخلاقِ البيئةِ المسلمةِ الَّتِيْ اقتبس مُفْرَدَاتها من الْقُرْآن الْكَرِيْمِ، والحَدِيْثِ الشَّريفِ في كلِّ تقنيةٍ من تقنياتِ الأمرِ في أسطرِ النَّصِّ.

---

[1] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، (ص24).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (المَقَامَة الْأَدَبيّة)، (ص250، ص251).

وَمِنْ شَوَاهِدِ تقنيةِ الأمرِ باستخدام المصدرِ النَّائبِ عنه، قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة البغداديَّة): "فعاد إِلَى المقامِ، وقال صبراً عَلَى مجامرِ الكرامِ"[1]. والتَّقدير فِيْ النَّصِّ: اصبر صبراً عَلَى مجامرِ الكرامِ، والأمر هنا بِمَعْنَى النُّصحِ والإرشادِ.

ثُمَّ يجمعُ اليَازْجِيّ بَيْنَ صيغتينِ مختلفتينِ مِنْ صِيَغِ الأَمْرِ، هما اسم فعل الأمر: (دونك) بِمَعْنَى: خُذْ، وفعل الأمر: (انزل) فِيْ قَوْلِهِ: "وقَالُوا للفَتَى دُوْنَكَ الْجِمَالَ...قَالَ انْزِلْ بِنَا هُنَا"[2]. وسياق الْكَلَامِ في الأمرِ الموجَّهِ إِلَى الفتى يحملُ مَعْنَى النُّصحِ والإرشادِ.

وَفِيْ رِحَابِ الْجَمَالِ يبدعُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ فِيْ المزاوجةِ بَيْنَ تقنيتي الأمرِ والنَّهيِ فِيْ آنٍ واحدٍ، حَيْثُ استهلَّ بالأمرِ، وثَنَّى بالنَّهي في أكثرَ من موضعٍ، فأكسب مَعَانِيه وضوحاً إِلَى وضوحٍ، و بياناً إِلَى بيانٍ، يَقُوْلُ: "ثابروا أيُّهَا الولدانُ المُخَلَّدونَ، ولا ترضوا مِنَ الصِّناعةِ بالدُّوْنِ، وَإِذَا قرأتم فافتحوا الطَّرفَ، وأظهروا الحَرْفَ، والزموا الدَّرْسَ، ولا تكثروا الهَمْسَ"[3]. فقد بدأ بالأمرِ (ثابروا)، وتابعه بالنَّهي (لا ترضوا)، ثُمَّ عاد مرةً أُخْرَى إِلَى الأمرِ (افتحوا)، ثم النَّهي (لا تكثروا) حَيْثُ حَمَلَتْ أَسَالِيْبُ الأمرِ، والنَّهيِ كَافَّةً مَعَانِي النُّصْحِ والإرشادِ.

لَجَأَ الْأُدَبَاءُ أَحْيَانَاً إِلَى تقنيةِ الأمرِ مُسْتَلْهِمِينَ الأماكنَ المقدَّسةَ للحَثِّ والنُّصحِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "تمسَّكْ بأذيالِ الهِمَمِ تَمسُّكَ الزُّوارِ بأستارِ البيتِ"[4]. وَكَأَنِّي بالخَفَاجِيّ يربطُ عُلُوَّ الهمَّةِ بالطَّوافِ حولَ البيتِ، والتَّعلُّقِ بأستارِه.

وَقَدْ تحملُ تقنيةُ الأمرِ معنى الالتماس إِذَا صدرت عن الأندادِ أو النُّظراءِ المتساوينَ قدراً ومنزلةً، وهَذَا ما حَمَلَهُ قَوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ فِيْ مَقَامَتِهِ (في حسن الوفاء): "وأنا مكاشفك بخبيئةٍ في الضَّميرِ، ومخبرك بأمرٍ خطيرٍ...فافتحْ لِمَا أقول أقفالَ لبِّك، واحفظه كسوادِ عينك، وسويداءِ قلبك"[5]. فَقَدْ حَمَلَ فِعْلَا الأمرِ (افتحْ، احفظْ) الالتماسَ؛ لِأَنَّهما صَدَرَا مِنْ صديقٍ لصديقِهِ.

وأَحْيَانَاً تحملُ تقنيةُ الأمرِ، الإهانةَ والتَّحقيرَ، ويُسمَّى التَّهكُّم، والسُّخرية، والازدراء، وَهُوَ "طَلَبٌ يحملُ بَيْنَ ثَنَايَاه التَّحقيرَ، والإهانةَ، والإذلالَ"[6]. وَيكونُ الأمرُ للإهانةِ، وَذَلِكَ "بتوجيهِ

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (المَقَامَة البغداديَّة)، (ص49، ص50).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (المَقَامَة اليماميَّة)، (ص366).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (المَقَامَة اللاذقيَّة)، (ص346).

[4] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (المَقَامَة الرُّوْمِيّة)، (ص374).

[5] فكري، الآثار الفكرية (مَقَامَة في حسن الوفاء)، (ص303).

[6] أمين، الْبَلَاغَة الْعَرَبِيَّة في ثوبها الجديد –علم المعاني، (ص107).

الأمرِ إِلَى المخاطبِ بقصدِ استصغاره، والإقلال من شأنِه، والازدراء به، وتبكيته"[1]. وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "انظروا لهَذَا الجاهلِ الغُمرِ، والأحمقِ الغِرِّ"[2]. حَيْثُ حَمَلَ الأمرُ مَعْنَى التَّهكُّمِ، وسياق التَّعبيرِ، وما حمل من كلمات (الجاهل، الغُمر، الأحمق، والغِرّ) ينقل السَّامع إِلَى مَشَاهِدِ التَّحقيرِ، والسُّخريةِ، والازدراءِ.

ولا تبتعدُ تقنيةُ الأمرِ عن معنى التَّمنِّي، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الأمرُ صادراً من الأدنى رتبةً إِلَى الأعَلَى رتبةً، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "يا مولاي، اشكرْ نعمةَ اللهِ لئلا يغيِّرها عنك، وكنْ خائفاً منه كما تخاف النَّاسُ منك، وكنْ في اللينِ والشِّدَّةِ بَيْنَ بَيْنَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لا يؤخذون بالمحضَ بين الطَّرفينِ"[3]. فالخطابُ موجَّهٌ للسَّيد ممن هو أدنى منه رتبةً، والقرينةُ (يا مولاي)؛ لَذا حملتْ أفعالُ الأمرِ (اشكرْ، وكُنْ) مَعْنَى التَّمنِّي.

ثَانِيَاً: النَّهْيُ

وَمِنْ أدواتِ التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوْبِيِّ في عَوَالِمِ الإنشاءِ الطَّلبيِّ، النَّهيُ الَّذِيْ يقعُ بَعْدَ الأمرِ في الطَّلب، ويتَّفق معه من جهةِ الاستعلاءِ، وارتباطه بالمخاطبِ، والنَّهي لغةً نقيضُ الأمرِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:90].

أَمَّا اصْطِلَاحَاً فهو "عبارة عَنْ قولٍ يُنْبِئُ عن المنعِ مِنَ الْفِعْلِ عَلَى جهةِ الاستعلاءِ"[4]. وعنى ذلك: طلب الكفِّ عن الفعلِ، أو الامتناع عنه عَلَى وجهِ الاستعلاءِ والإلزامِ. ويضيف بعضُ الْبَلَاغِيينَ إِلَى التَّعْرِيفِ السَّابقِ شَرْطاً، "ولا يتحقَّقُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ النَّهيُ صادراً من الأعَلَى إِلَى الأدنى"[5].

وَتَتَنَوَّعُ تقنيةُ النَّهيِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ مُعْرِبةً عن حاجةِ الْأَدِيْب إِلَى مساهمةِ المُتَلَقِّي الَّذِيْ يتحوَّلُ من مجرَّد متلقٍّ إِلَى طرفٍ مشاركٍ في عمليةِ الإِبْدَاعِ فِيْ تِلْكَ النُّصُوْصِ، الَّتِيْ تتزيَّنُ بمَشَاهِدَ من أَسَالِيْبِ النَّهي الَّتِيْ تسهمُ في التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوْبِيِّ، وهَذَا يؤدِّي بدوره إِلَى اكتمالِ

---

[1] عتيق، علم المعاني، (ص88).

[2] فكري، الآثار الفكريَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص283). الغمر: الرجل الذي لم يجرب الأمور، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج773/2)، الغِر: الرجل الغر، غير المجرب، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج768/2).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة العاصميَّة)، (ص239).

[4] العلويّ، الطِّراز، (ص531).

[5] طبل، علم المعاني في الموروث البلاغيّ تأصيل وتقييم، (ص70).

النَّسيجِ الْجَمَاليِّ في المَقَامَاتِ؛ وَمِنْ هُنَا فَقَد كَثَّفَ الْأُدَبَاء مِنَ اختيارِ أسلوبِ النَّهيِ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، وكانَ ذَلِكَ معياراً فارقاً في التَّشْكِيلِ، حَيْثُ أضحتْ سِمَةً أُسْلُوبِيَّةً بارزةً فِيْ تِلْكَ النُّصُوْصِ.

وَيَحْمِلُ البعدُ الدَّلاليُّ لهَذَا التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبيِّ مَعَانِيَ مُتَنَوِّعَةً ضَمَّنَهَا الْأُدَبَاءُ فِيْ مَقَامَاتِهِم، فتنقَّلَ هَؤلاءِ بَيْنَ النُّصحِ والإرشادِ، والالتماسِ والتَّمني، وانْطَلَقُوا تِجَاهَ التَّوبيخِ والتَّحقيرِ، واندفعوا صَوْبَ الوعدِ والتَّهديدِ، مروراً بالتَّعجبِ، والوعيدِ، فَشَكَّلُوا لوحاتٍ أسلوبيَّةً تلوَّنتْ بِمَعَانٍ عديدةٍ، أَكْسَبَتِ المَقَامَاتِ نوعاً مِنَ الأناقةِ، والْجَمَالِ صُحْبَةَ الأَسَالِيْبِ الأُخْرَى.

استثمرَ الْأُدَبَاءُ تقنيةَ النَّهيِ بعيداً عن الْمَعْنَى الحقيقيِّ، فخرج عن كونه تقنيةً تعبيريَّةً عن معناه الحقيقيِّ إِلَى مَعْنَى النُّصحِ والإرشادِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ ابن الأَلُوسِيّ: "لَا تَرْفَعُوا بالردِّ قدرَ السَّفيهِ إِذَا شافهكم بَغْيَاً بِمَا فيه، فَذَاكَ كلبٌ فألقموه حجرَ السُّكوتِ، ودعوه ينبحْ حَتَّى يموتُ"[1]. حَيْثُ امتلكَ ابنُ الأَلُوسِيّ هُنَا زمامَ الإِبْدَاعِ بما حَمَلَهُ النَّهي من قيَمٍ خُلُقيَّةٍ استلهمها من الدِّينِ الإسلاميِّ، وقِيَمِهِ الخالدةِ، مُقْتَبِساً ألفاظَهُ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

إِذَا نَطَــقَ السَّــفِيهُ فَــلَا تُجِبْــهُ فَخَيْــرٌ مِــنْ إِجَابَتِــهِ السُّــكُوتُ

فَــإِنْ كلَّمتــــهُ فَرَّجْــــتَ عَنْــــهُ وَإِنْ خلَّيْتِــــه كَمَــــداً يَمُــــوْتُ[2]

وَيَبدُو تبريرُ ابن الأَلُوسِيّ منطقيَّاً، فلو أَطْلَقَ الْإِنْسَانُ العَنَانَ لنفسه؛ ليلقمَ من تجاوزَ حدودَهُ حجراً لِتُحَقَّقَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

لَـوْ كُـلّ كَلْـبٍ عَـوَى أَلْقَمْتَـهُ حَجَـرَاً لَأَصْبَحَ الصَّـخْرُ مِثْقَـالاً بِـدِيْنَارِ[3]

وَلَمْ ينضبْ مَعِيْنُ إبداعاتِ ابنِ الأَلُوسِيّ، وَلَمْ يَجِفَّ نَهْرُ روائعِهِ في استخدامِ تقنيةِ النَّهْيِ، فقد واصل نثرَ دُرَرِ إبداعه فِيْ لآلئ مقامَةِ (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، حَيْثُ رَسَمَ لوحةً جديدةً، يَقُوْلُ: "يا بَنِيِّ، لَكِنَّ الوقارَ حبيبُكُم، فلا تُجِيبوا منْ لا يسألُكُم، وَلَا تسألوا مَنْ لَا

---

[1] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، (ص5، ص6).

[2] الشَّافعيّ، دِيْوَان الإمام الشَّافعي، (ص41).

[3] الصَّفاقسيّ، دِيْوَان علي الغراب الصَّفاقسيّ، (ص65)، وقال السَّخاويّ: إنَّ البيت للفارسكوريّ (يوسف بن علي بن مُحَمَّد) في الضُّوء اللامع لأهل القرن التاسع، (ج325/10). في أبيات، منها:

كـم مـن لئـيم مشـى بـالزور ينقلـه لا يتقـي الله ولا يخشـى مـن العـار

يــودُّ لــو أنَّــه للمــرء يهلكــه ولــم ينلــه ســوى إثــم وإزرار

يُحِبُّ أنْ يجيبكم"[1]. فقد حَمَلَ أسلوبا النَّهْيِ (فلا تجيبوا، ولا تسألوا) في طيَّاتِهِمَا مَعَانِي النُّصحِ والإرشادِ، والقرينةُ هُنَا قَوْلُهُ: (يا بَنِيَّ).

وَلَمْ يَبْتَعِدْ عَبْد الله فِكْرِيّ عَنْ أُدَبَاءِ عصرِه، بَلْ رَاحَ يوظِّفُ تقنيةَ النَّهيِ في إرساءِ قواعدِ الأَخْلَاقِ، مُعْتَمِدَاً عَلَى مَعْنَى النُّصْحِ، والإرشادِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "فَلَا تجزعْ من تقلُّبِ الدُّهورِ، وعجائبِ الأُمُوْرِ"[2]. مُسْتَلْهِمَاً قَوْلَه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الزمر: 53].

وَلَمْ يتوقَّفِ النَّهْي عِنْدَ ذَلِكَ، بَلْ كرَّسَ الْأُدَبَاءُ هَذِهِ التّقنيةَ فِيْ الدُّعاءِ، فقد كَانَ ديدنهم التَّضرُّعُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى فِيْ مواقفَ كَثِيْرةٍ؛ بِهَدَفِ مَنْحِ نصوصهم مَزِيْدَاً من القداسةِ، فرفعوا أكفَّ الضَّراعةِ للهِ تَعَالَى، وَمِنْ مَشَاهِدِ استخدامِ تقنيةِ الدُّعاءِ بالنَّهْيِ قَوْلُ اليَازْجِيّ: "فَضَاقَ الرَّجُلُ ذَرْعَاً فِيْ الْجَوَابِ، وَقَالَ اللَّهُمَّ اهدنا صراطَ الحقِّ، ولا تثنينا عَنْ سبيلِ الصَّوابِ"[3].

ثَالِثَاً: الاسْتِفْهَامُ

يُعَدُّ أسلوبُ الاسْتِفْهَامِ من مقوِّماتِ التَّرْكيبِ اللُّغَوِيِّ، وأُسُسِ بنيانِهِ شَأْنُهُ شَأْنُ الأَسَالِيْبِ الأُخْرَى مِنْ أمرٍ، وَنَهْيٍ، وتمنٍ، ونداءٍ، حَيْثُ انصهرتِ الأَسَالِيْبُ جَمِيْعَاً فِيْ بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ فشكَّلتْ بُعْدَاً جَمَالِيَّاً بديعاً، ومظهراً فنيَّاً رائعاً.

والاسْتِفْهَامُ مَطْلَبٌ أساسٌ في أمورٍ كَثِيْرةٍ، وَذَلِكَ لطلبِ حصولِ صورةِ الشَّيْءِ فِيْ الذِّهْنِ، ويلتقي العُلَمَاْءُ فِيْ تعريفه ؛ فَهُوَ عِنْدَهُم: "طَلَبُ المرادِ مِنَ الغيرِ عَلَى جهةِ الاستعلامِ"[4]. وَمِنْ هُنَا يكونُ الاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى طَلَبِ العلمِ بِشَيْءٍ لمْ يكنْ معلُوْماً مِنْ قبلُ بأداةٍ مَخصوصةٍ.

واستعملَ الْأُدَبَاءُ الاسْتِفْهَامَ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّة بوفرةٍ؛ ليشكِّلوا بِذَلِكَ سِمَةً أسلوبيَّةً أرادوا مِنْ خِلَالِهَا رَسْمَ ما يدورُ فِيْ أَعْمَاقِهم، وَمَا يختلجُ في نفوسهم من مَعَانٍ. خَاصَّةً أنَّ تِلْكَ التَّقنيةَ "تُحَوِّلُ الخطابَ مِنَ الهدوءِ إِلَى التَّوهُّجِ، وبالتَّالي تعطيه دلالاتٍ جديدةً مِمَّا يجعلُهَا كَعَامِلٍ مُنَشِّطٍ للشَّاعِرِ، والمُتَلَقِّي"[5].

---

[1] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ، (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، (ص12).

[2] فكري، الآثار الفكرية، (مَقَامَة فِيْ حُسْنِ الوَفَاءِ)، (ص308).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الخزرجيَّة)، (ص38).

[4] العلويّ، الطِّراز، (ص532).

[5] يُنْظَر: عباس، حروف المعاني بين الأصالة والتَّجديد، (ص90).

وَلَمْ يكنِ الهدفُ الأوَّلُ للاستفهامِ هو طلبُ الجوابِ، فَقَدْ حملَ الاسْتِفْهَامُ مَعَانِيَ عديدةً سَافَرتْ بعيداً عن انتظارِ الجوابِ، حَيْثُ تردَّدتِ الْمَعَانِي بَيْنَ التَّقريرِ والنَّفيِ، وَبَيْنَ الأمرِ والنَّهْيِ، وبين التَّحقيرِ والتَّهكُّمِ، ثُمَّ انْطَلَقُوا من بَيْنِ ثَنَايَا الْأَسْئِلَةِ إِلَى التَّسويةِ والتَّمنِّي، وإِلَى الإنكارِ والتَّعجُّبِ، وَمِنْ هُنَا حَوَّلَ الْأُدَبَاءُ مسارَ تقنيةِ الاسْتِفْهَامِ إِلَى مساراتٍ مُتَنَوِّعَةٍ أضحتِ المَقَامَاتُ عَلَى إثرها قطعةً فنيَّةً رائعةَ الْبَهَاءِ، فائقةَ الْجَمَالِ حَيْثُ اختفى شَكْلُ السُّؤالِ التَّقليديِّ فَحَمَلَ أسلوباً جَدِيْدَاً متفرِّداً، وَشَكَّل ظاهرةً أسلوبيَّةً جديدةً، كالتَّمنِّي، والْمَقْصُودُ بالتَّمنِّي "توقُّعُ أمرٍ محبوبٍ في المستقبلِ، والكلمةُ الْمَوضُوْعةُ له حقيقةً هي (ليت) وحدها، وَقَدْ يقع التَّمنِّي بـ (هَلْ) و(لَوْ)، وليسَ مِنْ شَرْطِ المتمنَّي أَنْ يَكُوْنَ ممكناً، بَلْ يكون فِيْ الممكنِ، وغير الممكنِ"[1]، وَمِنْ شَوَاهِدِ التَّمنِّي بالاسْتِفْهَامِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ قَوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "يا أمَّاه، قَدْ بلغتِ الفَاقَةُ غايتها، وتجاوزتِ الشِّدَّةُ نهايتها، وَلَمْ يبقَ عِنْدَنا ما يمسكُ الرَّمَقَ، ويطفئُ وَهْدَةَ الحرقِ، فَهَلْ تَرَيْن أنْ نبيعَ هذه الدَّارَ كباقي البيوتِ، ونصرفُ من ثمنها عَلَى القُوتِ؟"[2]. وَقَدْ خَرَجَ الاسْتِفْهَامُ في الْمَقْطُوْعَةِ السَّابِقَةِ عَنْ معناه الحقيقيِّ إِلَى مَعْنَى التَّمنِّي لَمَّا وُجِّهَ مِنَ الابنِ لأمِّهِ، أَوْ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الأعلَى، والقرينةُ قَوْلُ فكريّ: (يا أُمَّاه).

وَمِنَ الْمَعَانِي الَّتِيْ تخرجُ إِلَيْهَا تقنيةُ الاسْتِفْهَامِ، الإنكارُ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "يا بُنَيَّ، إِذَا بعتَ مأوانا، فأينَ يكونُ مثوانا؟"[3]. وَقَوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "فحتى متى أنا مِنْ سكرةِ الحيرةِ لا أستفيقُ، كأنَّني مصحفٌ في بيتِ زنديقٍ"[4]. وكأنَّ الخَفَاجِيّ ينكرُ عَلَى نفسه أن يصل إِلَى ما وصلِ إليه، فهو يعاني سكراتِ الحيرةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، والإهمالِ والتَّهميشِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى. وقد يحمل هذا الشاهد – أيضاً – غرض الاستبطاء.

وَتَتَوَالَى المهامُ الوظيفيَّةُ لأدواتِ الاسْتِفْهَامِ في التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبِيِّ، حَيْثُ ترسو السَّفينةُ في ميناءِ النَّهيِ، ويوظِّفُ ابنُ الأَلُوسِيّ هذه التِّقنيةَ فِيْ قَوْلِهِ: "أتخافُ العِدَا وهُنَّ ضِبَاعٌ، وليوثُ الوَغَى غَدوا أَنْصَارك؟"[5]. والْمَعْنَى: لا تَخَفِ العِدَا لِأَنَّهم لا يتجاوزونَ جُبْنَ الضِّباعِ، وأنتَ تمتلكُ الأسودَ. مُعْتَمِداً عَلَى النَّهيِ بالاسْتِفْهَامِ فِيْ قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ ﴾ [هود: 73].

---

[1] العلويّ، الطِّراز، (ص534، ص535).

[2] فكري، الآثار الفكريَّة، (مَقَامَة في حُسْنِ الوَفَاء)، (ص305).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص305.

[4] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (المَقَامَة الرُّوْمِيّة)، (ص373).

[5] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ (الْأَعْوَالُ مِن الْأَخْوَالِ)، (ص31).

خرجتْ أداةُ الاسْتِفْهَامِ كَثِيْراً عن دلالتها الحقيقيَّةِ لتحملَ مَعْنَى لَا النَّاهية فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "وقَالُوا أتحسبها حمقاءَ، وَهِيَ باخسٌ؟، فلابدَّ بيننا من حربِ داحسٍ[1]". والْمَعْنَى هُنَا: لا تحسبها حمقاءَ، وهو مثَلٌ يُضرب لشدَّة الدَّهاءِ.

وَمِنَ الْمَعَانِي الَّتِيْ يخرجُ إِلَيْهَا الاسْتِفْهَامُ شَأْنُهُ شَأْنُ أَسَالِيْبِ الإنشاءِ الأُخْرَى، التَّهكُّمُ والسَّخريةُ. والْمَقْصُودُ بالتَّهكُّمِ: إظهارُ عدمِ المبالاةِ بالمستهزَأ، أو المتهكَّم بِهِ، ولو كان عظيماً. ويكونُ التَّهكُّمُ "إِمَّا لشدَّة الغضبِ قد أَوعد بلفظِ البشارةِ، أو لشدةِ الكبرِ، وتهاونه بالمخاطبِ، قد فعل ذَلِكَ، أو ذكَّر بفعله عِنْدَ العقوبةِ عَلَى سبب المعيرة له"[2]. وهَذَا الْأُسْلُوبُ يستندُ إِلَى الفعاليَّاتِ النَّفْسيَّةِ العاليةِ عِنْدَ المتكلِّمِ مفيداً مِمَّا لَدَى المخاطبِ من أوضاعٍ مزريةٍ.

ومن التَّهكُّمِ بالاسْتِفْهَامِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "أما تذكر عيبك، ورِيبك، وشؤمك، ولؤمك، وفاقتك المدقعة، وأسمالك المرقَّعة؟"[3]. وسياقُ الْكَلَام يحمل في ثَنَايَاه كلَّ مَعَانِي التَّهكُّمِ، والتَّحقيرِ، والسُّخريةِ، والازدراءِ، فكلُّ كلمةٍ بدءاً بـ (عيبك)، ومروراً بـ (ريبك، شؤمك، ولؤمك)، وانتهاءً بـ (فاقتك المدقعة، وأسمالك المرقَّعة) تنقل المُتَلَقِّي إِلَى أجواءِ التَّهكُّمِ والتَّحقيرِ، ومَشَاهِدِ السُّخريةِ والاستهزاءِ، وكأنَّ المَشْهَدَ ماثلٌ أَمَامَهُ.

ويقدِّمُ أَحْمَد البَرْبِيْر فِيْ رائعتِهِ (مقامة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، لوحةً متكاملةً يسيطرُ عليها التَّهكُّمُ والتَّحْقِيرُ، عن طريقِ جملةٍ من أَسَالِيْبِ الاسْتِفْهَامِ مستخدماً الدَّال (أيّ)؛ ليرسم صورةَ هوانِ المخَاطَبِ، ويقلِّلُ مِنْ شأنِهِ، وَيَحُطُّ مِنْ قَدْرِهِ، يَقُوْلُ: "أيّ فخرٍ لمن يعزّ مفقوداً، ويهون موجوداً؟!، ومَنْ إِذَا أطالَ مُكْثُهُ، ظهرَ خُبْثُهُ، وَإِذَا سكن متنه؛ تحرَّك نتنه، ومن نبعَ من الصُّخور، ومرّ مذاقه في البُحُورِ، وشرِق به شاربه، وغرق فيه مجاوره ومصاحبه، وعلت فوقه الجيف، وانحطَّتْ عِنْدَه اللآلئُ في الصَّدَفِ"[4]. ثم يتداول مَجْمُوْعَة من التَّعبيراتِ الَّتِيْ تضفي عَلَى الْمَعْنَى مَزِيْدَاً من التَّحقيرِ مستخدماً أسلوبَ الشَّرْطِ المزدوجِ صُحْبَةَ الدَّال (إِذَا)، ويُلمح ذلك فِيْ قَوْلِه: (إِذَا أطال مكثه، ظهر خبثه، وَإِذَا سكن متْنُهُ؛ تحرَّك نتنُهُ). وَيُوَاصِلُ أَحْمَد البَرْبِيْر الدَّورانَ حولَ مَعْنَى التَّهكُّمِ، وكأنِّي به يأبى مغادرةَ حقولِه، فقد برع في رسم صورةٍ مشوَّهةٍ عبر تقنية الاسْتِفْهَامِ، حَيْثُ جمع كمّاً كَبِيْرَاً من الصُّورِ القبيحةِ حَتَّى يبرِّرَ علَّةَ التَّهكُّمِ والسُّخريةِ، فاختار الجَانِبَ المظلمَ للماءِ مستهلاً ذلك بالْمُقَابَلَة: (يعزّ مفقوداً، ويهون موجوداً)، ثُمَّ تَابَعَ

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (المَقَامَة الحليَّة)، (ص321).

[2] المصريّ، تحرير التَّحبير، (ص568).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (المَقَامَة الدِّمياطيَّة)، (ص388).

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات، (مَقَامَة في المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص30).

بأسلوبي شرطٍ حَمَلَ جوابهما مَشْهَداً تعافُهُ النُّفُوْسُ: (إذَا أطال مكثه، ظهر خبثه)، و(إذَا سكن متنه؛ تحرَّك نتنه)، ثُمَّ طالعَ المُتَلَقِّي بحشدٍ من الصِّفَاتِ الَّتِيْ تسيطر عليها مظاهرُ الاشمئزازِ عَلَى التَّوالي (مرّ مذاقه في البحورِ)، (شرِق به شاربه)، (غرق فيه مجاوره ومصاحبه)، (علت فوقه الجيف)، و(انحطَّت عِنْدَه اللآلئ في الصَّدَفِ). وكأنِّي بالْأَدِيْب أبى أنْ يغادر الْمَقْطُوْعَةَ إلَّا وقد أفسد الْعَلَاقَة بين الماءِ والْإِنْسَانِ، لَمَّا انتقى مَشَاهِدَ تستقبحها العيونُ، وتمجُّها الآذَانُ، وتعافها النُّفُوسُ.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ بَهَاءُ الدِّين الْبِيْطَار عن التَّهكُّمِ بالاسْتِفْهَام، وكأنَّ هَذَا الْمَعْنَى كان لازمةً من لوازمِ (المُفَاخَرَات، والمُنَاظَرَات)؛ وَذَلِكَ لإظهارِ عيوبِ الآخرينَ، وكشفِ مساوئهم، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ مُعْتَمِداً عَلَى الدَّال (هَلْ) قَوْلُهُ: "وهلْ أنت مني في القدرِ، إلا كقلامةِ الظُّفْرِ"[1]. والمقارنةُ الَّتِيْ شملها الْقَوْل تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا التَّقليلَ من الشَّأنِ، والحَطُّ من القدرِ، وَذَلِكَ لَمَّا جعله منه كقلامةِ الظُّفرِ، وما في التَّعبيرِ من التَّصْغيرِ، والتَّحقيرِ مُسْتَلْهِماً قَوْلَ جميل بثينة:

لَـوْ أَنَّ فِـي قلبـي، كقَـدْرِ قُلامَـةٍ، فَضْلاً، وصلتْكِ، أَو أَتَتْكِ رسائلي[2]

وَتَتَوَالَى تقنيةُ الاسْتِفْهَامِ بأدواتٍ مُتَنَوِّعَةٍ في (المَقَامَة المغربيَّة)، ومع تنوُّعِ الأدواتِ تتنوَّعُ الْمَعَانِي الَّتِيْ يحملُهَا الاسْتِفْهَامُ، يَقُوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "فَلَمَّا سلَّم عليَّ وحيَّا، وجاورت منه كريم المحيَّا، قال ألست ابن نصر، شاعر العَصْر؟ يا معشرَ الْأُدَبَاء، الفُضَلَاءِ الأَلبّاءِ، مَتَى أُهْمِلَتْ بينكم الحقوقُ؟ وحدث فيكم هَذَا العقوقُ، أأنهبُ وتغضُّونَ؟ ويُغَار عليَّ وترضونَ، ألست أوَّلَ من شرعَ لكم البَدِيْعَ؟ وأنبعَ لكم عيونَ التَّقْسِيمِ، والتَّصريعِ، والتَّرصيعِ"[3].

وَاللَّافتُ في الْمَقْطُوْعَةِ السَّابِقَة أنَّ الخَفَاجِيّ هُنَا جمع في الفقرةِ السَّابِقَة طائفةً من تقنيات الاسْتِفْهَامِ الَّتِيْ خرجتْ عن الْمَعْنَى الحقيقيِّ إلَى معانٍ أُخْرَى أظهرتها القرائنُ مُعْتَمِداً عَلَى دالين هما: (الْهَمْزَة، ومتى)، فبدأ بالتَّقريرِ بالاسْتِفْهَامِ فِيْ قَوْلِه: (ألست ابن نصر؟)، والجواب: بَلَى! ثُمَّ ثنَّى بالإنكارِ بالاسْتِفْهَام فِيْ قَوْلِه: (أأنهبُ، وتغضُّونَ؟)، ثُمَّ يعودُ إلَى التَّقرير ويختمُ به فِيْ قَوْلِه: (ألستُ أوَّل من شرع لكم البَدِيْع؟)، والجواب كَذَلِكَ: بَلَى!. والملاحظُ هُنَا "أن كلَّ أداةٍ لها وظيفتُها الإنتاجيَّةُ، الَّتِيْ تخالف غيرها في كَثِيْرٍ، أو قليلٍ"[4].

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات، (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص62).

[2] ابن مَعْمَر، دِيْوَان جميل بثينة، (ص54).

[3] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (المَقَامَة المغربيَّة)، (ص407).

[4] عَبْد الْمُطَّلِب، الْبَلَاغَة الْعَرَبِيَّة قراءة أخرى، (ص290).

يتحـرَّكُ الْأُدَبَـاءُ فِـيْ نُصُوْصِـهِم المَقَامِيَّـةِ بـين مَعَـانِي الاسْـتِفْهَامِ المُتَنَوِّعَـةِ، ودلالاتـه الْمُتَعَدِّدَةِ، فيتوقَّفُ بعضهم عِنْدَ مَعْنَى الإنكارِ والتَّعجُّبِ مُعْتَمِداً عَلَى دوالٍ مختلفةٍ، أولها الدَّال (كَيْفَ)، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "فآمالك لا تظمأ بهَذَا المَقامِ، وكَيْفَ يظمأُ مَنْ كانَ جَارَ الغَمَامِ؟"[1]. فعجبٌ كُلَّ العجبِ أنْ يظمأَ مَنْ كَانَ يسكنْ عَلَى نهرٍ جارٍ. ويعودُ الخَفَاجِيّ هنا إِلَى قَوْلِ أَبِي الْعَلَاءِ المعريّ:

كَالعِيْسِ فِـيْ البَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُوْرِهَا مَحْمُوْلُ[2]

وَمِنْهُ قولُه كَذَلِكَ: "مَا حالُ وردةٍ فارقت نسماتِ القَبولِ، فحداها السُّموم، وقادها القَبولُ"[3].

ويلجأُ الْأُدَبَاءُ أَحْيَانَاً إِلَى توظيفِ مَعَانِي الاسْتِفْهَامِ مُعتمدينَ عَلَى المُحَسِّنَاتِ البَدِيْعيَّةِ من طباقٍ، ومقابلةٍ، وغيرهما؛ لإيضاحِ فكرتِهِمْ، وإبرازِ مَعَانِيهِمْ، فلا يبتعدُ الْمَعْنَى حِيْنَهَا عَنِ التَّعَجُّبِ، حَيْثُ إنَّ سياقَ الْكَلَامِ لا يمكنُ أنْ يخرجَ عن هَذَا الْمَعْنَى، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ، قَوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "كَيْفَ يتركُ الْإِنْسَانُ ما ينفعُ بِمَا يَضُرُّ، ويَشْتَرِي باختيارِه ما يُحْزِنُ بِمَا يَسُرُّ؟"[4]. حَيْثُ اعْتَمَدَ هُنَا عَلَى الدَّالِ (كَيْفَ)، والطِّباقِ (ينفعُ، ويضرُّ)، و(يحزنُ، ويسُرُّ).

ويُقدِّمُ عَبْد الله فِكْرِيّ كَذَلِكَ صورةً من صورِ الإنكارِ بالاسْتِفْهَامِ مُعْتَمِداً عَلَى الدَّالِ (كَيْفَ) مبرزاً علَّة هَذَا الإنكارِ عن طريقِ الدَّلائلِ، يَقُوْلُ: "فكَيْفَ يغفلونَ عن مآثره حَتَّى يُعرضوا عن أوامره، أو يتعرَّضوا لمعارضته، ويجسروا عَلَى مناقضته"[5]. وَلَمْ يَكْتَفِ فكري بِذَلِكَ بَلْ شَرَعَ يقدِّم الدَّلائلَ الَّتِيْ تصوِّر مثالبَ الملكِ، والَّتِيْ تقف سدَّاً منيعاً في وجهِ مَنْ قَصَدَ إنكارَ مآثرِه، ومدحَ فضائِلِهِ، يَقُوْلُ: "كَلَّا بلْ مثل هَذَا الملكِ العاقلِ، والحاكمِ الحكيمِ العادلِ، تقابل أوامره بالقَبُوْلِ والإقبالِ، ونواهيه بالطَّاعةِ والامتثالِ"[6].

وَيعـاوِدُ مُحَمَّـد المُبَـارَك الإنكـارَ بالاسْـتِفْهَامِ، مُعْتَمِـدَاً عَلَـى الْمُتَنَاقِضَـاتِ صُـحْبَةَ الـدَّال (كَيْفَ)، يَقُوْلُ: "كَيْفَ جنحتَ للظُّلمِ مع أنَّ مرتعَهُ وخيمٌ، وأثبتَّ في كلامِكَ نَقْصِي، وقدري عِنْدَ

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (مَقَامَة الغربة)، (ص387).

[2] المعريّ، دِيْوَان المعريّ، (ص222). والشطر الأول في رواية أخرى: والعيسُ أَقْتَلُ ما يَكونُ لها الصَّدى.

[3] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا، (المَقَامَة السَّاسانيَّة)، (ص390).

[4] فكري، عبد الله، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص278).

[5] المَرْجِع السَّابِق، ص282.

[6] المَرْجِع نفسه، ص272.

الله فخيمٌ؟"[1]. فهو ينكرُ إنكاراً تاماً أنْ يجنحَ الْإِنْسَانُ للظُّلمِ مع أن عاقبته وخيمةٌ، ثُمَّ ينكر اتِّهامه بالنَّقصِ رَغمَ عُلُوِّ قدرِهِ عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى.

وفي بحارِ الإنكارِ التَّوبيخيِّ غَاصَ عَبْد الله فِكْرِيّ، حَيْثُ قَدِّمَ طائفةً من تقنياتِ الاسْتِفْهَامِ مُعْتَمِدَاً عَلَى دالين هما (أينَ، والْهَمْزَة)، مستلهماً شواهِدَهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، يَقُوْلُ: "أينَ عزبتْ أحلامكم، وغربتْ أفهامكم؟، أَمَا آنَ أَنْ توافقوا هَذَا الرَّأيَ السَّديدَ، والتَّدبيرَ المفيدَ؟، أليسَ فيكم رجلٌ رشيدٌ؟، أَمَا فيكم مَنْ يهمُّه حِفْظَ ناموسنا، أَمَا فيكم مَنْ تحرِّكه الحميَّةُ، والعصبيَّةُ؟"[2]. وكأنِّي بالْأَدِيْبِ يسيطرُ عليه القلقُ والغيرةُ، ويكتنفه الخوفُ والحيرةُ؛ عَلَّ النَّفي يأخذُ مجراه فِيْ هَذَا المكانِ، وهذه الأَسَالِيْبُ من الاسْتِفْهَامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ بِمَعْنَى: النَّفي، ونفي النَّفي إثباتٌ والمراد: لا يوجد فيكم رجلٌ عاقلٌ يدعوكم إِلَى الخيرِ، يهمُّه حفظَ ناموسِنا، أما فيكم رجلٌ رشيدٌ مَنْ تحرِّكه الحميَّةُ، والعصبيَّةُ. وقدْ لفَّتِ الأَسَالِيْبَ قداسةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ الَّتِيْ تمثَّلتْ فِيْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: 78]. وَمَا قيلَ حَوْلَ هَذِهِ الآيةِ يُمْكِنُ أنْ يُقالَ هُنَا، وهو: "أليسَ منكم رجلٌ يهتدي إِلَى سبيلِ الحقِّ، وفعلِ الْجَمِيْلِ، والكفِّ عن السُّوْءِ، وفي ذلك توبيخٌ عظيمٌ لهم حَيْثُ لم يكنْ منهم رشيدٌ البتة"[3]. وقيل: استفهامٌ إنكاريٌّ توبيخيٌّ بِمَعْنَى: النَّفيّ، ونفي النَّفيّ إثباتٌ، والمراد: لا يوجد فيكم رجلٌ عاقلٌ يدعوكم إِلَى الخيرِ[4]. وإِلَى جانبِ التَّوبيخِ يحملُ هَذَا الاسْتِفْهَامُ مَعْنَى التَّعجُّبِ.

ويدورُ الْأُدَبَاءُ في دائرةِ التَّوبيخِ، ويلجأ نَاصِيْف اليَازْجِيّ إِلَى الدَّال (الْهَمْزَة) لتقديم هَذَا الْمَعْنَى، يَقُوْلُ: "فتلقَّاه الأميرُ بالوجهِ العَبُوسِ، وَقَالَ أُفٍّ لَكَ يا أشأمَ مِنَ البَسُوس، أَتَهْجُو العربَ الَّذِيْن منهم أُخذَ الشَّعرُ والخطابُ، وعَلَى كلامهم بُنِيَ التَّصْريفُ، والإعرابُ؟"[5]. فالاسْتِفْهَامُ فِيْ قَوْلِ اليَازْجِيّ: (أَتَهْجُو؟) للتَّوبيخِ؛ لِأَنَّهم كانوا قد اتَّهموه بهجوهِ العرب، وجرأته عليهم رَغْمَ أَنَّهُم كَمَا بَرَّرَ اليَازْجِيّ: "ضُرَّابُ السُّيوفِ، وشُرَّابُ الحُتُوفِ، وقراةُ الضُّيوفِ، وحُباةُ الألوفِ، وحُمَاةُ السُّجُوفِ"[6].

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص171).

[2] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص289).

[3] الأندلسيّ، البَحر المُحِيط، (ج247/5)، البقاعيّ، نظم الدُّرَر، (ج559/3)، ابن الجوزيّ، زاد المسير، (ج139/4).

[4] يُنْظَر، الصَّابونيّ، صفوة التَّفاسير، (ج26/2).

[5] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة التَّغلبيَّة)، (ص88).

[6] المَرْجِع السَّابق، ص88.

ويخرجُ الاسْتِفْهَامُ كَذَلِكَ إِلَى مَعْنَى النَّفْيِ، ويحمل هَذَا الْمَعْنَى عِنْدَما "تجئ لفظةُ الاسْتِفْهَامِ للنَّفي، لا لطلبِ العلمِ بِشَيْءٍ كان مجهولاً"[1]، وتكونُ الإجابةُ عن السُّؤال بالنَّفي، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا النَّوعِ قَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك مُعْتَمِداً عَلَى الدَّالين (هَلْ، والْهَمْزَة): "وهَلْ يَحقُّ للكثيفِ أنْ يتغَالَى عَلَى اللَّطِيفِ، أم ينبغي للوضِيعِ، أنْ يتَعَالَى عَلَى الرَّفِيعِ؟!"[2]. والإجابةُ عن السُّؤالينِ السَّابقينِ بالنَّفي، وهَذَا هو المنطقُ، وشرعةُ الحَيَاةِ، وقد وظَّفَ المُبَارَك الطِّباقَ كَذَلِكَ أكثرَ من مَرَّةٍ لإبراز فكرتِهِ في (الكثيف، واللطيف)، و(الوضيع، والرَّفيع) ، وقد عاد وأكَّد ذلك الْمَعْنَى سريعاً فِيْ قَوْلِه: "كلَّا! إنَّ ذَلِكَ لمن قلبِ الحقائقِ، فأينَ أنتَ من فهمِ الْأَسْرَارِ والدَّقائقِ؟!"[3].

وَمِنْ شَوَاهِدِ تقنيةِ الاسْتِفْهَامِ الَّتِيْ لا تَحملُ إِلَّا مَعْنَى النَّفِيْ قَوْلِ مُحَمَّد المُبَارَك: "وَهَلْ يُزري بالخالِ سوادُه البارعُ، أو يُغري بالبرصِ بياضُه النَّاصعُ؟"[4]. والجوابُ حَتْمَاً (لا)؛ فسوادُ الخالِ آيةٌ مِنْ آياتِ الْجَمَالِ الَّتِيْ تترفَّعُ بصاحبها عَنِ القُبحِ، وَفِيْ المقابلِ لا يمكنُ أنْ يُغريَ البرصُ النَّاظرينَ ببياضِه النَّاصعِ.

وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ فكريّ مُعْتَمِداً عَلَى دال الاسْتِفْهَامِ (مَنْ): "مَنْ لي بهَذَا المَرْمَى البعيدِ؟"[5]. والإجابة لَا أحد إلا الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وأيَّد ذَلِكَ قَوْلُهُ: "وَيْكأنَّ الله يفعلُ ما يريدُ"[6].

لَقَدْ نَوَّعَ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ في استخدامِ أدواتِ الاسْتِفْهَامِ، وَلَعَلَّ التَّنويعَ يرجعُ إِلَى الحالةِ الشُّعوريَّةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وطبيعةِ المَوْقِفِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، فقد يستحيلُ الاسْتِفْهَامُ؛ ليحملَ مَعْنَى النَّفيِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ: "وأيُّ نفعٍ لصديقٍ لا يصدق فيه رجائي، وصاحبٍ لا يصحبني في شدَّتي، ورخائي"[7]. والمرادُ: لا نفعَ لصديقٍ...، ولا لصاحبٍ.

وبرفقةِ الدَّال (هَلْ) يَرْسِمُ عَبْد الله فِكْرِيّ النَّفيَ بالاسْتِفْهَامِ، ثُمَّ يُبَرِّرُ هَذَا النَّفيَ فِيْ قَوْلِهِ: "وَهَلْ يجدُ فِي إدارةِ حكومتِه مَانِعَاً، أو يرى من رعيته مُمَانِعَاً"[8]. فكَيْفَ يصطدمُ بِذَلِكَ، وقد علمتِ الرَّعيَّةُ مزيدَ فضلِهِ، وعلوَّ قدرِهِ، حسن تدبيره، ويُمنَ مساعيه.

---

[1] عتيق، علم المعاني، (ص104).

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات، (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص91).

[3] المَرْجِع السَّابق، ص91.

[4] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات، (نُضْرَة البِهَار فِيْ مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار)، (137).

[5] فكري، الآثار الفكرية (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص279).

[6] المَرْجِع السَّابِق، ص279.

[7] فكري، الآثار الفكرية، (مَقَامَة فِيْ حُسْنِ الوَفَاءِ)، (ص306).

[8] فكري، الآثار الفكرية، (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص282).

وعَلَى نَفْسِ الدَّالِ (هلْ) يخطُّ نَاصِيْف اليَازْجِيّ أسلوبَ استفهامٍ جديدٍ يحملُ مَعْنَى النَّفي فِيْ قَوْلِهِ: "فبكى الشَّيْخُ حَتَّى اخضلَّ عارضاهُ، وقَالَ: هَلْ مَنْ يبيعُ روحَهُ برضاه؟"[1]. والجوابُ حَتْمَاً لَاْ؛ إذْ يستحيلُ أنْ يلقيَ الْإِنْسَانُ روحَهَ فِيْ مَهَاوِي الرَّدَى عن طيبِ خاطرٍ.

وَمِنَ الْمَعَانِي الَّتِيْ يَحْمِلُهَا الاسْتِفْهَامُ، الاسْتبعادُ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك مستخدماً دالين هما (أنَّى، ومَتَى): "وأنَّى يجزعُ ذو قلبٍ ثابتٍ، وفي اللهِ عوضٌ مِنْ كُلِّ فائتٍ؟...مَتَى قِيْسَ التُّربُ بالعَسْجَدِ، أَوْ شُبِّهَ الحَصَى بالزَّبَرْجَدِ؟"[2]. وسياقُ الحَدِيْثِ يُوْحِي باستبعادِ الحصولِ، فالْجَزَعُ مِنْ قضاءِ اللهِ وقدره، أمرٌ مستبعدٌ لمنْ يمتلكُ قَلبَاً ثابتاً، وإيماناً راسخاً، كما يتضمَّن فَحْوَى الْكَلَامِ استبعادَ مقارنةِ التُّربِ بالعسْجدِ، والحصى بالزَّبرْجدِ؛ فشتانَ شتانَ بينهما، فَلَا مُقَارَنةَ بَيْنَ الثَّرى والثُّريَّا.

وَيَرْسِمُ مُحَمَّد المُبَارَك صُورةً قبيحةً تشمئزُّ منها النَّفْسُ لمَّا قصد الاستبعادَ بالاسْتِفْهَامِ، مُعْتَمِدَاً عَلَى الدَّال (أنَّى)، يَقُوْلُ: "فَأَنَّى تفوزينَ بأشرفِ الأقدارِ، وأنتِ موضعُ الفضلاتِ والأقذارِ"[3]. فقد أحسنَ تصويرَ مشهدِ القُبحِ الَّذِيْ يهوي بصاحبه إِلَى دَرَكَاتِ التَّهكُّمِ، والتَّحقيرِ مستبعداً تبدُّلَ الحالِ من القبحِ إِلَى الْجَمَالِ.

رَابِعَاً: النِّدَاءُ

إنَّ الْجُمْلَةَ البَلاغيَّةَ فِي أَسَالِيْبِ النِّدَاءِ عِنْدَ العربِ أداةٌ وهَدَفٌ، وهي في دَلَالَاتِهَا، وجَمَالِيَّاتها البَلاغيَّةِ رسالةٌ كلاميَّةٌ، وعملٌ فَنِّيٌّ في آنٍ واحدٍ.

والنِّدَاءُ لُغَةً: مَأْخُوْذٌ مِنَ الْفِعْلِ الثُّلَاثِيِّ (نَدَا) وَهُوَ بِمَعْنَى دَعَا، والنِّدَاءُ: الصَّوْتُ، وَقَدْ يُضَمُّ مثل الدُّعَاء والرُّغَاء، وناداه مناداةً أو نداءً، أي: صاح به، والنِّدَاءُ مَصْدَرٌ للفعلِ الرُّباعيِّ (نادى)، وَمِنْهُ قُولُه تَعَالَى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم:3][4].

والنِّدَاءُ ضَربٌ من ضُرُوبِ الإنشاءِ الطَّلبيِّ، والْمَقْصُودُ به في الاصْطِلَاحِ: "التَّصويتُ بالمنادَى لإقباله عليك"[5]. ويمكنُ أَنْ يَكُوْنَ بِمَعْنَى: "طلب الإقبالِ بحرفٍ نائبٍ مَنَاب أدعو

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة المصريَّة)، (ص222).

[2] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات، (غَرِيْب الأَنْبَاء فِي مُنَاظَرَةِ الْأَرْض وَالسَّمَاء)، (ص94).

[3] المَرْجِع السَّابِق، ص91.

[4] يُنْظَر: الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج6/2505، 2506)، مادة (ندا).

[5] العلويّ، الطِّراز، (ص535).

لفظاً"[1]، وَمَعْنَى ذَلِكَ طلب المتكلِّمِ إقبال المخاطبِ عليه بحرف نابَ مناب (أنادي) المنقول من الخبرِ إِلَى الإنشاءِ.

والنِّدَاءُ تقنيةٌ أسلوبيَّةٌ مرنةٌ تتصرَّفُ في كَثِيْرٍ من الْمَعَانِي، لاسيَّما في الُّلغَة الفنيَّةِ، حَيْثُ "لا يتوجَّهُ النِّدَاءُ إِلَى المخاطبِ أصلاً، فقد يُنادَى الجمادُ، أو تُناجى النَّفسُ، أو يؤنَّبُ الضَّميرُ"[2].

وينحرفُ النِّدَاءُ عن معناه الحقيقيِّ إِلَى معانٍ تفهم من فَحْوَى الحَدِيْثِ، وسياقِ الْكَلَامِ، كالإغراءِ، والتَّحذيرِ، والتَّمنِّي، والتَّعجُّبِ، والتَّهكُّمِ، والتَّوبيخِ.

وقدْ وَظَّفَ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ تقنيةَ النِّدَاءِ فِيْ مَقَامَاتِهِم بصورةٍ كبيرةٍ، وَمِنَ التَّشْكِيلاتِ الْجَمَاليَّةِ لهذه التَّقنيةِ، قَوْلُ بهاء الدَّين الْبِيْطَار عَلَى لسانِ الْقَمَرِ مُخَاطباً الشَّمْسَ: "أيُّتها اللافحةُ بنارِ الهاجرةِ، لأنتِ التَّاركةُ للإنصافِ والهاجرةِ"[3]. والنِّدَاءُ يحملُ هُنَا مَعْنَى التَّهَكُّمِ، والتَّحقيرِ.

وَحَمَلَ النِّدَاءُ مَعْنَى التَّهكُّمِ كَذَلِكَ فِيْ قَوْلِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "فَقَالَ الأميرُ للغلامِ: أفٍّ لَكَ يا عُقَق، يابنَ شاربِ الفَلَقَ"[4]. فسياقُ الْكَلَامِ، وَفَحْوَى الحَدِيْثِ ينقُلُنَا إِلَى التَّهكُّمِ، فالعُقَقُ مَنْ لَا يَفِي أباهُ حَقَّ التَّربيةِ، وَالفَلَقُ، فَضْلَةُ اللَّبنِ، والعربُ يعيِّرونَ بِهَا فيَقُوْلُونَ لِمَنْ يشتمونَهُ: يا ابنَ شاربِ الفلقِ. وَمِنْهُ كَذَلِكَ قَوْلُهُ: "وَإِذَا امرأةٌ تُنَادِي، يا شاربَ اللبنِ، الرَّخيصِ الثَّمن"[5].

وَقَدْ حملتْ مَقَامَاتُ (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات) فِيْ ثَنَايَاهَا التَّهكُّمَ والتَّحقيرَ، وَذَلِكَ لِمَا تتطلَّبُهُ المفاخرةُ، وَمِنَ التَّهكُّمِ بالنِّدَاءِ قَوْلُ مُحَمَّد المُبَارَك: "أَمَا عَلمتَ أيُّهَا المخادعُ المحتالُ، أنَّ اللهَ لا يحبُّ الفخورَ المختالَ؟[6]". حَيْثُ بَرَعَ المُبَارَكُ أَيَّمَا براعةٍ في رَسْمِ صورةٍ رائعةٍ لَمْ يكتفِ فيها بالتَّهكُّمِ بالنِّدَاءِ فِيْ قَوْلِهِ: (أيُّهَا المخادعُ المحتالُ)، بَلِ انْتَقَي مِنَ الأَسَالِيْبِ الاسْتِفْهَامَ (أما علمت؟)، وَمَا يَحْمِلُهُ من التَّهكُّمِ أَيْضَاً، ثُمَّ خَتَمَ بتناصٍ دينيٍّ صَوَّرَ سَوداويَّةَ المَشْهَد مُعْتَمِدَاً عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 18]. فأيَّةُ نهايةٍ ينتظرُهَا المخادعُ المحتالُ، وأيَّةُ عاقبةٍ يلقاهَا الفخورُ المختالُ إِذَا خَسِرَ حُبَّ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى؟!.

---

[1] طبل، علم المعاني تأصيل وتقييم: (ص96).

[2] المَرْجِع السَّابِق، ص85.

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات، (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص64).

[4] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة السَّاحليَّة)، (ص209).

[5] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة البغداديَّة)، (ص46).

[6] الطَّيَّان، الآثَار الفِكْرِيَّة (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِيْ المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص173).

ويحملُ النِّدَاءُ كَذَلِكَ مَعْنَى الدُّعاءِ، والْمَقْصُودُ بِهِ: "الطَّلَبُ مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأعلَى عَلَى سبيلِ التَّضرُّعِ"[1]، وَمِنْ مَشَاهِد استخدامِ تقنيةِ الدُّعَاءِ بالنِّدَاءِ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "فَضَاقَ الرَّجلُ ذَرْعَاً فِيْ الجَوَابِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اهدنَا صراطَ الحقِّ والصَّوابِ"[2].

خَامِسَاً: التَّقْدِيمُ والتَّأْخِيرُ

لَمْ يَعُدِ الْأُدَبَاءُ متعلِّقينَ بالْمَعْنَى التَّقليديِّ لتركيبِ الجملِ، وَتَرْتيبِهَا النَّسقيِّ المعتادِ. والتَّقْدِيمُ والتَّأْخِيرُ هُوَ أَحدُ أَسَالِيْبِ البَلَاْغَةِ، وأحدُ الدَّلائلِ عَلَى براعةِ الْإِنْسَانِ العربيِّ، فقدْ أَتَى بِهِ العربُ "دلالةً عَلَى تمكُّنهم فِيْ الفَصَاْحَةِ، وملكتهم في الْكَلَامِ وانقيادِهِ لهم، ولَهُ فِيْ القُلُوْبِ أحسنُ موقعٍ، وأعذبُ مذاقٍ"[3].

وَقَدْ برعَ كَثِيْرٌ مِنَ العُلَمَاْءِ في بيانِ مكانةِ التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ، وإظهارِ محاسِنِهِ، فهَذَا صاحبُ (دَلَائِل الإِعْجَاز)، الإمامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الجرجانيّ يوردُ كلاماً بديعاً فِيْ هَذَا الْبَابِ مبيناً مكَانَتْه قَائِلَاً: "هو بابٌ كَثِيْرُ الفوائدِ، جَمُّ المحاسنِ، واسعُ التَّصرُّفِ، بعيدُ الغايةِ، لَاْ يزالُ يفتر لَكَ عن بديعةٍ، ويُفضِي بِكَ إِلَى لطيفةٍ، ولا تزالُ ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطفُ لَدَيْكَ موقعه، ثُمَّ تنظرُ فتجدُ سببَ أَنْ راقَكَ ولطف عِنْدَكَ، إِنْ قُدِّم فيه شَيْءٍ، وحُوِّل اللَّفْظُ من مكانٍ إِلَى مكانٍ"[4].

وَقَدْ أَحْسَنَ الْأُدَبَاءُ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ فِيْ التَّلاعبِ بالْأَلْفَاظِ، وأجادوا فِيْ تغييرِ مواقعها دَفْعَاً للرَّتابةِ التَّقليديَّةِ والسَّآمَةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، إضافةً إِلَى أَنَّهُ يحملُ فِيْ طيَّاتِهِ مَزِيْدَاً مِنَ الخفايا، والْأَسْرَارِ مِنْ نَاحِيَةٍ ثانيةٍ.

وَتَتِمُّ تقنيةُ التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ للألفاظِ داخلَ النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ نتيجةَ عَمليَّاتٍ ذهنيَّةٍ قَدْ تسبقُ عمليَّةَ الْكَلَامِ، والنُّطق به، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يتشكَّلَ كلاماً منطوقاً، أو فِيْ نَسَقِ النَّصِّ الأَدَبيِّ مَعْ مَا تَحْمِلُهُ هَذِهِ التّقنيةُ مِنْ لطائفَ بلاغيَّةٍ قَدْ لا تلمسُ أثرَهَا وَفَقَ التَّرتيبِ المعياريِّ لتراكيبِ اللُّغَةِ، وتبدو جَمَاليَّةُ هَذِهِ التَّقنيةِ فِيْ مَوْضُوْعَاتٍ تفرَّدَ بِهَا العَصْرُ العُثْمَانِيُّ مثل العكس، وَمَا لَا يستحيلُ بالانعكاسِ، وغيرها مِنَ الفُنُوْنِ الَّتِيْ بَرَعَ الْأُدَبَاءُ فِيْ نظمِهَا، وَمِنْ مَشَاهِدِ التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "وَقَالَ قَدْ تجنَّى عَلَيَّ هَذَا الغُمْرُ، واللهُ يعلمُ أَنْ

---

[1] طبل، علم المعاني في الموروث البلاغيّ تأصيل وتقييم، (ص63).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الخزرجيَّة)، (ص38).

[3] الزَّركشيّ، البرهان في علوم القرآن، (ج273/3).

[4] الْجُرْجَانِي، دَلَائِل الإِعْجَاز، (ص106).

ليسَ لِي ذنبٌ إلَّا ذنبُ صُحْر"[1]. حَيْثُ قَدَّمَ اليَازْجِيّ التَّرْكيبَ (لي) عَلَى اسمِ ليسَ (ذنب) لدلالةٍ نفسيَّةٍ أرادَ مِنْ خِلَالِهَا أَنْ ينفيَ الذَّنبِ عَنْ نفسِهِ، مُعْتَمِدَاً عَلَى النَّفْيِ والاستثناءِ فِيْ (ليس، إلَّا)، واستلهامِ التُّرَاثِ مِنْ خِلَالِ توظيفِ المثلِ المَشْهُورِ (لَيْسَ لِي ذَنْبٌ إلَّا ذَنْبُ صُحَر)؛ حَتَّى يأمنَ العقابَ مِنْ غيرِ ذَنْبٍ.

ويُضْفِي التَّقْدِيمُ والتَّأْخِيرُ عَلَى النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ حُسناً وجَمَالاً، وويكسبها متعةً وجلالاً. فَهُوَ صيغةٌ جماليَّةٌ تحقِّقُ أغراضاً دلاليَّةً للمنشِئ، ولا تتحقَّقُ بالتَّرتيبِ المنطقيِّ للأجزاءِ والتَّراكيبِ. وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق في (السَّاق عَلَى السَّاق): "إذْ لَيْسَ فيهِ إفضاءٌ إِلَى البحثِ فِيْ الأديانِ، وإنَّمَا هُوَ أمرٌ مباحٌ لكلِّ إنسانٍ"[2]. حَيْثُ قدَّمَ خَبَرَ ليسَ (فيه) عَلَى اسْمِهَا (إفضاء). وكلُّ هذا ينقلنا إلى عوالمِ إثارةِ الذِّهْنِ، وإعمالِ الفكرِ.

وَقَدْ ينطوي التَّقْدِيمُ والتَّأْخِيرُ عَلَى "مفارقاتٍ دلاليَّةٍ، وأُخْرَى ثقافيَّةٍ، أَوْ اجتماعيَّةٍ، أَوْ نفسيَّةٍ، تتَّضِحُ سَلْباً كَمَا تتَّضِحُ إيجاباً عَلَى هَذِهِ المستوياتِ"[3]، إلَّا أنَّ الجَانِبَ الفَنِّيَّ، أو اللُّغويَّ قَدْ يكشفُ فيهِ عَنْ جَوَانبَ أسلوبيَّةٍ بَارِزةٍ.

وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ، تقديمُ الجارِ والمجرورِ (من عرفات) فِيْ قَوْلِ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "وَأفضنَا فيْهِ كَمَا تفيضَ مِنْ عَرَفَاتٍ الحجاجُ"[4]. فقداسةُ المكانِ، ورهبةُ الفضاءِ يبعثانِ فِيْ نَفْسِ المُتَلَقِّي مشاعرَ مِنْ نوعٍ خاصٍّ، فالنَّصُ يطيرُ بِنَا إِلَى مَشَاهِدَ كَثِيْرةٍ أولها سيرة النَّبيِّ الكريمِ، مُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– العطرة، وحجَّة الوداعِ، وفِيْ مشهدٍ مهيبٍ، ينقلنا إِلَىْ مَشْهدٍ آخَرَ يَنْضَوِي عَلَى دلالاتٍ نفسيَّةٍ تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا بواعثَ الخوفِ والرَّعْبِ، وهَذَا المَشْهَدُ هُوَ مشهدُ القيامةِ.

---

[1] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن، (المَقَامَة اليماميَّة)، (ص363). صَحْر، بنت لقمان بن عاد. عوقبت عَلَى الإحسان، فضرب بها المثل، فقيل: (ما لي ذنبٌ إلا ذنب صُحْر)، وابنه لُقَيْمٌ خرجا في إغارة، فأصابا إبلاً، فسبق لُقَيْم، فأتى منزله، فنحرت أخته صَحْر جزوراً من غنيمته، وصنعت منها طعاماً تتحف به أباها إذا قَدِم، وقد كان لقمان حسد لُقَيْما في تبريزه عليه، فلما قدم لقمان قدمت له الطعام، وكان يحسد لُقَيْماً، فلطمها ولم يكن لها ذنب، فصارت عقوبتها مثلًا لكل من لا ذنب له ويعاقب فقيل: "ما لي ذنب إلا ذنب صَحْر". العسكري، جمهرة الأمثال، (ج2/211، 212) الزبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس، (ج12/290)، مادة (صَحَرَ).

[2] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (مَقَامَة مقعدة)، (ص131).

[3] السَّعدنيّ، البنيات الْأُسْلُوبيَّة في لغة الشِّعر العربيِّ الحديث، (ص207).

[4] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (مَقَامَة مقعدة)، (ص131).

وِمِنْ التَّقْدِيمِ، تقديمُ المفعولِ بِهِ عَلَى الفَاعِلِ فِيْ قَوْلِ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "فعلمتُ أَنَّهُ قَدْ صَدَعَهُ الصَّدعُ"[1]. فَقَدْ قَدَّمَ المفعولَ بِهِ الضَّميرَ (الهاء) فِيْ الفِعْلِ (صدعه) عَلَى الفاعلِ (الصَّدع) وجوباً؛ لبيانِ هولِ ما أصابه، ولتخصيصِ الصَّدعِ بِهِ هوَ دُونَ غيره.

لَقَدْ اسْتَخْدَمَ الْأُدَبَاءُ التَّقْدِيمَ والتَّأْخِيرَ كظاهرةٍ مِنْ ظواهرِ العُدُولِ، وهو وسيلةٌ مِنَ الوسائلِ التَّرْكيبيَّةِ لبناءِ النُّصُوْصِ المَقَامِيَّةِ، وإضفاءِ الْجَمَاليَّةِ عليها؛ مِمَّا يحرِّكُ عِنْدَ المُتَلَقِّي لَذَةً أدبيَّةً نتيجةَ هَذَا الانحرافِ للتَّرتيبِ الأُفقيِّ المعياريِّ لوحداتِ التَّراكيبِ اللُّغويَّةِ. وبهَذَا تسمو دلالةُ أنساقِ النَّصِّ المقامِيِّ لَمَّا عَمَدَ الكتَّابُ إِلَى التَّبديلِ والتَّغييرِ، أو التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ. وَمِنْ هُنَا يَنْطَلِقُ مُحَمَّد الوُرْغِيُّ لتقديمِ لوحةٍ مِنْ لَوْحَاتِ التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ، يَقُوْلُ: "خيرُ المتكلمينَ مَنْ حدَّث بِمَا نَفَعَ، وخيرُ السَّامِعِيْنَ مَنْ أَحْرَزَ مَا سَمِعَ، وخيرُ مَا قيلَ مِنَ الكلمِ مَا قيلَ لقائلِهِ سَلِمْ، إنَّ مِنَ العجزِ تفضيلَ دارٍ عَلَى دارٍ، وإنَّ مِنَ الأسرِ اتِّخاذُ حليلةٍ وجارٍ"[2]. فَقَدْ طَالَعَنَا الوُرْغِيُّ بتشكيلاتٍ منوَّعةٍ مِنَ التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ، بدأهَا بتقديمِ الخبرِ عَلَى المبتدأ فِيْ ثَلاثِ جُمَلٍ متتابعةٍ، وَذَلِكَ مِنْ بابِ الْمَدْح وإعلاءِ الشَّأنِ، وإبرازِ عُلُوِّ المَكَانةِ، والمنزلةِ، ثمَّ تَابَعَ بتقديمِ خَبَرَي إنَّ (من العجزِ، ومن الأسرِ) عَلَى اسميها (تفضيل، واتِّخاذ) فِيْ جُمْلَتَيْنِ متتابعتينِ، مَعْ توشيحِ تشكيلاتِهِ بالتَّسْجيعِ والتَّشْطِيْرِ، فَأَضْفَى عَلَيْهَا مُوْسِيْقَا عَذْبَةً جذبتْ أسماعَ المُتَلَقِّينَ، وألهبتْ أحاسيسَ المتذوِّقينَ الَّذِيْنَ يبحثونَ عَنِ الْجَمَالِ.

وَمِنْ رَوَائِعِ التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ قَوْلُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "كَيْفَ لا؟ وقد أوشكتْ جوارحي أنْ تعودَ مجروحَةً، وضاقتْ بأحمالِ إبلِكُم الْأَرْضُ، وَهِيَ فسيحةٌ"[3]. فَقَدْ خالفَ الشِّدْيَاقُ المألوفَ، وَقَدَّمَ (بأحمال إبلكم) عَلَى الفاعلِ (الْأَرْض)؛ ليُصَوِّرَ ثقلَ الهمومِ الَّتِيْ أحاطتْ بِهِ مِنْ كُلِّ جانبٍ، حَتَّى الْأَرْض ضاقتْ بهذِهِ الهمومِ ذَرْعَاً رَغْمَ اتِّسَاعَهَا.

سَادِسَاً: التَّكْرَارُ

يُعَدُّ التَّكْرَارُ مِنَ الظَّوَاهِرِ الْأُسْلُوبيَّةِ الَّتِيْ تُستخدمُ لفهمِ النَّصِّ الأَدَبيِّ، وَقَدْ تَابَعَ الْبَلَاغِيُّونَ العربُ هَذِهِ الظَّاهرةَ، وتنبَّهوا إِلَيْهَا عِنْدَ دراستِهِم لكَثِيْرٍ مِنَ الشَّواهدِ الشِّعريَّةِ، والنثريَّةِ، وبيَّنوا فوائدَهَا ووظائِفَهَا، وَهُوَ مِنَ الأَسَالِيْبِ الَّتِيْ لَهَا أبعادُهَا الْأُسْلُوبيَّة، والْجَمَاليَّة، سَوَاءٌ أكانَ موضِعُهُ فِيْ الكلمةِ، أَمْ فِيْ الْجُمْلَةِ.

---

[1] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (مَقَامَة مقعدة)، (ص133).

[2] الوُرْغِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيّ وَرَسَائِلُهُ، (ص16).

[3] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق (مَقَامَة مقعدة)، (ص131).

إنَّ مصطلحَ التَّكْرَارِ مُصطلحٌ عَرَبِيٌّ كَانَ لَهُ حضورُهُ عِنْدَ الْبَلَاغِيينَ العربِ القُدَامَى؛ فَهُوَ فِيْ اللُّغَةِ مِنَ (الكَرِّ) بِمَعْنَى الرُّجُوعِ، ويأتي بِمَعْنَى الإعادةِ والعطفِ، يُقَالُ: "كَرَّرْتُ الشَّيْءَ تَكْرِيراً وتَكْرَاراً"[1]. وَهُوَ فِيْ الاصْطِلَاحِ "تكرارُ الكلمةِ أو اللَّفْظةِ أكثرَ مِنْ مَرَّةٍ فِيْ سياقٍ واحدٍ لنكتةٍ، إمَّا للتَّوكيدِ، أَوْ لزيادةِ التَّنبيهِ، أَوْ التَّهويلِ، أَوْ للتَّعظيمِ، أو للتَّلَذُّذِ بذكرِ المُكَرَّرِ"[2]. أَوْ "أَنْ يكرِّرَ المتكلمُ اللَّفْظَةَ الواحدةَ لتأكيدِ الوَصْفِ، أَوْ الْمَدْحِ، أَوْ الذَّمِّ، أَوْ التَّهويلِ، أَوْ الوَعِيْدِ"[3].

والتَّكْرَارُ هُوَ "إلحاحٌ عَلَى جهةٍ هامَّةٍ مِنَ العبارةِ يَعْنِي بَهَا الشَّاعِرُ أكثرَ مِنْ عنايتِهِ بسواها، وَهُوَ بِذَلِكَ ذُو دَلالةٍ نفسيَّةٍ قيِّمةٍ تفيدُ النَّاقدَ الأَدَبِيَّ الَّذِيْ يدرسُ النَّصَّ، وَيُحلِّلُ نفسيَّةَ كاتبه، إذْ يضعُ فِيْ أيدينا مفتاحَ الفكرةِ المتسلِّطةِ عَلَى الشَّاعِرِ"[4].

لَقَدْ تَزَيَّنَ الْقُرْآنُ الْكَرِيْمُ، والحَدِيْثُ الشَّريفُ بالتَّكْرَارِ، وانعكسَ ذَلِكَ عَلَى أُدَبَاءِ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وَمِنْ هُنَا فَقَدْ أُوْلِعوا بهذَا الْأُسْلُوبِ، فانْطَلَقُوا يَسْتَلْهِمُونَه، ويزيّنونَ بِهِ نُصُوْصَهُم.

وَالتَّكْرَارُ لا يقومُ فَقَطْ عَلَى مجرَّدِ تكرارِ اللَّفظةِ فِيْ السِّياقِ الشِّعْرِيِّ، أَوْ النَّثْرِيِّ، وإنَّمَا مَا تتركُهُ هَذِهِ اللَّفْظةُ مِنْ أثرٍ انفعاليٍّ في نفسِ المُتَلَقِّي، وبِذَلِكَ فَإِنَّهُ يعكسُ جانباً من المَوْقِفِ النَّفْسِيِّ والانفعاليِّ، وَمِثْلُ هَذَا الجَانِبِ لَاْ يمكنُ فهمُهُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ دراسةِ التَّكْرَارِ دَاخِلَ النَّصِّ الأَدَبِيِّ الَّذِيْ وَرَدَ فيْهِ، فَكُلُّ تَكْرارٍ يحملُ فِيْ ثَنَايَاهُ دَلَالَاتٍ نفسيَّةً، وانفعاليَّةً مُختلفةً تفرِضُهَا طبيعةُ السِّياقِ الشِّعريِّ، أَوْ النَّثْرِيِّ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ لَكانَ تَكراراً لجملةٍ مِنَ الأَشْيَاءِ الَّتِيْ لا تؤدِّي إِلَى مَعْنَىً، أو وظيفةٍ فِيْ البناءِ الشِّعْرِيِّ؛ لِأَنَّ التَّكْرَارَ "أحدُ الأدواتِ الْجَمَاليَّةِ الَّتِيْ تساعدُ الشَّاعِرَ عَلَى تشكيلِ موقفِهِ وتصويرِهِ، وَلَابُدَّ أنْ يعتمدَ التَّكْرَارُ الاهتمامَ بِمَا بَعْدَ الكلمةِ المتكرِّرةِ حَتَّى لا يصبح التَّكْرَار مجرَّد حشوٍ، فالشَّاعِرُ إِذَا كَرَّرَ عَكْسَ أهميةَ مَا يكرِّرُهُ مَعَ الاهتمامِ بِمَا يعدُّه حَتَّى تتجدَّد الْعَلَاقَات، وتثرى الدَّلَالَات، وينمو البناءُ الشِّعريُّ"[5].

وَالتَّكْرَارُ ملمحٌ بارزٌ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، طَرَقَ الْأُدَبَاءُ أبوابَهُ لَمَّا قَصَدُوا بيانَ أفكارِهِم، وإظهارَ مَعَانِيهِم، وتأكيدَ مَا يقصدونَ بيانَهُ، وَمِنْ شَوَاهِدِ التَّكْرَارِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، قَوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "فالحذرَ الحذرَ مِنْ مكرِهَا، والفرارَ الفرارَ مِنْ شَرِّهَا وَنكرِهَا"[6]. حَيْثُ اعْتَمَدَ

---

[1] الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج3/805).

[2] ابن معصوم، أنوار الرَّبيع في أنواع البديع، (35/5).

[3] المصريّ، تحرير التَّحبير، (ص375).

[4] شرتح، ظواهر أسلوبيَّة في شعر بدوي الجبل، (ص9).

[5] الجيَّار، الصُّورة الشِّعريَّة عند أبي القاسم الشَّابيّ، (ص47).

[6] فكري، الآثار الفكريّة (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص285).

فكريّ عَلَى التَّكْرَارِ؛ ليحذِّرَ مِنَ الشَّهوةِ الحيوانيَّةِ، ويمهِّدُ السَّبيلَ للخلاصِ مِنْ شرِّهَا، ونكرِهَا.

وَقَصَدَ الْأُدَبَاءُ التَّكْرَارَ أَيْضَاً للحَثِّ عَلَى صلةِ الأرحامِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ ابن الأَلُوسِيّ: "يَا بَنِيَّ، اللهَ اللهَ فِيْ أخواتِكُم، وعُدُّوهنَّ فِيْ عدادِ بناتِكم، اللهَ اللهَ فِيْ أمِّكم، فَلَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ تسترَّ بسرورِكُم، وتغتمُّ لغمِّكُم"[1]. حَيْثُ أكَّدَ ابنُ الأَلُوسِيّ عَلَى الحفاظِ عَلَى الْعَلَاقَةِ بالأخواتِ، فَهُنَّ فَيْ مقامِ البناتِ، وَثَنَّى بالوصيَّةِ ببرِّ الأمِّ الَّتِيْ تسترُّ بسرورِ أبنائِهَا، وَتَغْتَمُّ لغمِّهم، مَعْ ملاحظةِ أَنَّ النِّدَاء (يا بَنِيَّ) تكرَّر فِيْ مَقَامَةِ (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ) سبعاً وثلاثينَ مرَّةً. وَلَعَلَّ التَّكْرَارَ يُؤَكِّدُ عَلَى النُّصْحِ والإرشادِ فِيْ تقنياتِ الأمرِ والنَّهْيِ الَّتِيْ تَلَتْ كُلَّ تقنيةٍ مِنْ تقنياتِ النِّدَاءِ، والَّتِيْ استوعبتْ كُلَّ مَعَانِي التَّنبيهِ فِيْ الْمَقَامَةِ.

وَمِنَ التَّكْرَارِ قَوْلُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق: "فَلَمَّا بصرتُ بِهِ قُلْتُ له: نِزَال نِزَال، وَحَيَّ عَلَى هَذَا العدالِ"[2]. والتَّكْرَارُ وَرَدَ عَلَى دال اسْمِ فعلِ الأمرِ (نِزَال) مَعْ مَا حَمَلَهُ التَّكْرَارُ مِنَ الحَثِّ عَلَى خوضِ حلباتِ النِّزالِ فِيْ ميادينِ الشَّرفِ والفضيلةِ.

وَمِنَ التَّكْرَارِ التَّنقُّلُ بَيْنَ مفردةٍ واحدةٍ أكثرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ أَحْمَد البَرْبِيْر: "ونهرُهَا بقلبٍ صافٍ، وأدواحها ببسطِ بساطِ البَسْطِ مِنْ ظلِّها الضَّافِي"[3]. حَيْثُ تنقَّل البَرْبِيْرُ بَيْنَ (بسط، بساط، والبسط)؛ فَرَسَمَ بحركاتِهِ عن طريقِ التَّكْرَارِ لَوْحَةً بَارِعَةً مِنْ لَوْحَاتِ الطَّبِيْعَةِ السَّاحِرةِ.

أمَّا بهاءُ الدِّين الْبِيْطَار فارتحلَ إِلَى دُرُوْبِ التَّكْرَارِ مُعْتَمِدَاً عَلَى الإضافةِ بمُفْرَدَاتٍ مكرَّرةٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُه: "وأدارتْ علينا سُلاف طلِّها كُؤُوْسُ الزُّهورِ، قَبْلَ أنْ ترشفَهُ شمسُ البُكورِ، وحيَّتْنا راحةُ الرَّاحةِ والسُّرورِ"[4]. مَعْ مَا يحملُهُ التَّكْرَارُ مِنْ إضفاءِ أجواءِ الرَّاحةِ عَلَى الفضاءِ المحيطِ.

وَيَرْسِمُ نَاصِيْفُ اليَازْجِيّ لَوْحَةً مِنْ لَوْحَاتِ التَّكْرَارِ مُعْتَمِدَاً عَلَى مَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، يَقُوْلُ: "فتمتَّعوا بشهواتكم مليَّاً، واتركوا ما رأيتم نَسْيَاً منسيَّاً، وإلَّا فالبِدارَ البِدارَ!. وأتحفه كُلٌّ منهم بما يشاءُ، وقَالُوا لَهُ الدُّعاءَ الدُّعاءَ"[5]. قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ

---

[1] ابن الأَلُوسِيّ، مقامات ابن الأَلُوسِيّ (أَنْبَاءُ الْأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، (ص14).

[2] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (مَقَامَة مقعدة)، (ص133).

[3] الطَّيَّان، (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات) (المُفَاخَرَة بين المَاء والهَوَاء)، (ص24).

[4] الطَّيَّان، (المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات) (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص65).

[5] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة العقيقيَّة)، (ص15، ص16).

قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: 23]. فَقَدْ جَمَعَ اليَازْجِيّ مِنَ الرَّوَائِعِ فأحسنَ الجمعَ، وانتقى فأجادَ الانْتِقَاءَ حَيْثُ استهلَّ لوحتَهُ بالأمرِ (تَمتَّعوا)، ثُمَّ تابعَ بالجمعِ بَيْنَ الأمرِ، والاقتباسِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ فِيْ قَوْلِهِ: (واتركوا ما رأيتم نسياً منسيَّاً)، وَوَاصلَ بتَكرارِ مَشْهَدَيْنِ متتابعينِ هُمَا: (فالبِدارَ البِدارَ)، وكأنِّي بِهِ يعودُ إِلَى الأمرِ عن طريقِ اسمِ فعلِهِ (بِدار) بِمَعْنَى بادرْ، و(الدُّعاء الدُّعاء). مَعْ مَا يحملَهُ التَّكْرَارُ مِنْ تأكيدٍ لِلْمَعْنَى، وتوضيحٍ لَهُ.

ويلجأُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق إِلَى مُفْرَدَاتٍ متشابهةٍ فِيْ الْوَزْنِ والتَّقفيةِ لتقديمِ مشهدِ التَّكْرَارِ، يَقُوْلُ: "فأمسكتُ مِنْ فرحي بالزّنبيلِ، وَقُلْتُ الدَّليل الدَّليل، قَالَ هوجوع، بُرقوع، يُرقوع، بركوع"[1]. حَيْثُ كرَّر (الدَّليل) ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رصدِ كلماتٍ متتابعةٍ، هِيَ: (هوجوع، بُرقوع، يُرقوع، بركوع).

وَمِنْ رَوَائِعِ التَّكْرَارِ قَوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "أهوى السِّياحةَ، والنَّاسُ ناسٌ، والدِّيارُ ديارٌ، والدَّهرُ غرٌّ لم يفطنْ لتلوُّنِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ"[2]. حَيْثُ اعْتَمَدَ عَلَى تكرارِ ذاتِ الكلمةِ عنْ طريقِ التَّلوينِ بَيْنَ المعرفةِ، والنَّكرةِ فِيْ (النَّاسُ ناسٌ)، و(الدِّيارُ ديارٌ) مَعْ مَا حَمَلَهُ المَشْهَدُ مِن روعةِ التَّأكيدِ، وجمالِ التَّقسيمِ.

ويشيرُ كَثِيْرٌ مِنَ العُلَمَاْءِ فِيْ هَذَا الْبَابِ إِلَى ما يُسمَّى بالتَّكْرَارِ النَّمَطِيِّ، ويتوسَّعونَ فِيْ هَذَا الْبَابِ، ومن التَّكْرَارِ النَّمَطِيِّ الَّذِيْ اهتمَّ لَهُ الْبَلَاغِيُّونَ عَلَى المستوى الصَّوتيِّ، مبحثُ السَّجْعِ أَلْوَانَاً من الأداءِ، يتمثَّلُ فيها عنصرُ التَّوازُنِ اللَّفْظِيِّ، وَمِنْهُ أَنْ يَكُوْنَ الجزآنِ فِيْ السَّجْعِ مُتعادلينِ، لا يزيدُ أحدُهما عَنِ الآخرِ فِيْ الْوَزْنِ والتَّقفيةِ، وإنْ اختلفتِ الْحُرُوْفُ في سائرِ الكلمةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ بَهَاء الدِّين الْبَيْطَار: "وَكَمْ مِنْ ذي جفنٍ سَاهرٍ، وذهنٍ حَائرٍ. وطرفٍ جَائلٍ، ودمْعٍ سَائلٍ. وقلبٍ ذَائبٍ، وكربٍ ذائبٍ"[3]. فالْبَرَاعَةُ هُنَا أنَّه كرَّرَ الصِّفَاتِ (ساهر، حائر، جائل، سائل، ذائب، دائب) وجميعها عَلَى وزنِ (فَاعِل)، وَمِنْ قَبْلِ اسمِ الفاعِلِ كرَّرَ المَوصُوفَ (جفن، ذهن، طرف، دمع، قلب، وكرب) وكلُّهَا عَلَى ذاتِ الوزنِ، مَعْ مَا حَمَلَهُ هَذَا التَّكْرَارُ النَّمَطيُّ مِنْ إيقاعٍ موسيقيٍّ متفرِّدٍ مستمدٍ من تشابهِ الْفَوَاصِلِ، إضافةً إِلَى قدرةٍ فنيَّةٍ بارعةٍ فِيْ التَّسْجِيعِ.

ويبدو التَّكْرَارُ النَّمَطِيُّ أكثرَ وضوحاً عَلَى المستوى الصَّوْتِيِّ فِيْ التَّرْصِيعِ، وَذَلِكَ إِذَا

---

[1] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (مَقَامَة مقيمة)، (ص285). برقوع: لباس نساء الأعراب، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج1184/3) مادة (برقع). يرقوع: جوع يرقوع، أي: شديد، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج1222/3) مادة (رقع). بركوع: القيام عَلَى أربع، الْجَوْهَرِيّ، الصَّحَاح، (ج1185/3) مادة (بركع).

[2] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وزهرة الحَيَاْة الدنيا، (المَقَامَة السَّاسانيَّة)، (ص389).

[3] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص61).

اتَّفقتِ الْفِقْرَتَانِ فِيْ الْوَزْنِ والتَّقفيةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِه قَوْلُ بَهَاءِ الدِّين الْبِيْطَار:

وَلَاْ حَــلَاْ ثَمَــرٌ، وَلَاْ نَمَــاْ شَــجَرٌ وَلَاْ بَدَا قَمَرٌ، وَلَاَ هَمَتْ سُحُبُ[1]

حَيْثُ اشتملَ البيتُ عَلَى أربعِ فقراتٍ متَّفقَةٍ فِيْ الْوَزْنِ والتَّقفيةِ، مَعْ مَا تركته مِنْ إيقَاعٍ موسيقيٍّ متفرِّدٍ نابعٍ مِنَ التَّكْرَارِ، يمكنُ توضيحُهُ مِنْ خِلَالِ المَشْهَدِ الْآتِي:

وَلَاْ حَـــــلَا ثَمَـــــرٌ

وَلَا نَمَـــــا شَـــــجَرٌ

وَلَا بَـــــدَا قَمَـــــرٌ

وَلَا هَمَـــتْ سُـــحُبُ

وَكَأَنِّي بالفقراتِ هنا قد وُزِنَتْ بميزانِ الذَّهبِ الدَّقيقِ، بِحَيْثُ لَمْ تتجاوزْ أيُّ كلمةٍ حدودَ مثيلاتِهَا فِيْ المَشْهَدِ السَّابِقِ. وهذا دليلٌ قاطِعٌ على مواهبَ متنوِّعة امتلكها الأدباءُ في العَصْرِ العُثْمَانِيِّ،

وَمِنَ التَّكْرَارِ النَّمَطِيِّ مَا يأخذُ شكلَ النَّسَقِ الرِّيَاضِيِّ، أو التَّرتيبِ الهندسِيِّ، وَهُوَ مَا يُطلَقُ عَلَيْهِ (ما لا يستحيل بالانعكاس)، وهَذَا اللَّوْنُ "يقومُ عَلَى نَمَطٍ تكراريٍّ فِيْ الْحُرُوْفِ والكَلِمَاتِ، وفيه تُعادُ الكَلِمَاتُ مِنْ آخِرِ حَرْفٍ، فَنَجِدُ الْمَعْنَى بتمامِهِ فِيْ الشَّكلِ، والدَّلَالَةِ"[2]. وبِمَعْنَى آخَرَ تتكرَّرُ ذاتُ الكَلِمَاتِ فِيْ المَشْهَدَيْنِ، وإنْ كَانَ التَّكْرَارُ فِيْ اتّجاهينِ مختلفينِ، وَمِنْ نماذجِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في (المَقَامَة البَصْرِيَّة):

قَــرَّ فِــيْ إلْــفِ نَــدَاهَا قلبُــهُ بِلِقَاهَــــا دَنِــــفٌ لا يَفْــــرَقُ

قَطَنَــــتْ هيْفَــــاءُ فِيْــــهِ آمنــــاً إنَّمَــــا هَيفَــــاءُ فِيْــــهِ تَنْطِــــقُ

قِـفْ ألا قَـاضٍ فَـإنِّي ضَـاقَ بِـي رَيْـبُ قاضِـينَا فضَـاقَ الأفُـقُ[3]

إنَّ نَاصِيْفَ اليَازْجِيّ جَمَعَ بَيْنَ جَمَالِ التَّكْرَارِ، وتكرارِ الْجَمَالِ، وَرَوْعَةِ مَا لا يستحيلُ بالانعكاسِ فِيْ أسلوبٍ مُتفرِّدٍ، وَكَأَنِّي بِهِ أَرَادَ أَنْ يخالِفَ الآخرينَ فِيْ نَمْطِ التَّكْرَارِ مُعْتَمِداً عَلَى قلبِ الكلِّ، مُظْهِراً مَا يمتلكه مِنْ قدرةٍ فائقةٍ عَجَزَ عَنِ امتلاكها الآخَرُوْنَ، وقلْ إن شئتَ من

---

[1] الطَّيَّان، المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات (المُفَاخَرَة بين الشَّمْس والقَمَر)، (ص60).

[2] عَبْد الْمُطَّلِب، الْبَلَاغَة والْأُسْلُوبيَّة، (ص298).

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة البَصريَّة)، (ص157، ص158). نداها: جودها، الدَّنف: المريض المجهود.

الصعب أن يمتلكها أحدٌ. فَلَكَ أنْ تقرأَ الأبياتِ مقلوبَةً؛ لتجدَ الْمَعْنَى بتمامِهِ فِيْ الشَّكْلِ، والدَّلَالَةِ.

سَابِعَاً: الشَّرْطُ

الشَّرْطُ أسلوبٌ لُغَويٌّ ينبني عَلَى جملةٍ مركَّبةٍ تتألَّفُ من أداةٍ، وَمِن شقَّينِ، الأَوَّل مُنزَّل منزلةِ السَّببِ، وَهَوَ الشَّرْط، والثَّانِي مُنزَّل منزلةِ المُسبَّبِ، وَهَوَ الْجَزَاء. وَهَوَ تركيبٌ نَحْوِيٌّ يربطُ المتكلمُ فيه بينَ حدثينِ، أحدهما رئيسٌ، والآخَر ثانويٌّ، وَتُستخدمُ فيه أدواتٌ مُعيَّنةٌ، تُعينُ عَلَى هَذَا الرَّبطِ، وتضفي عليه معنىً محدَّداً. أَوْ هُوَ "مَا دَخَلَ عليه الحرفُ إِنْ، أَوْ يقومُ مقامَهُ مِنَ الظُّرُوْفِ، والأَسْمَاءِ الدَّالةِ عَلَى سببيَّةِ الأوَّلِ، ومسبَّبيَّةِ الثَّانِي"[1].

وَقَدْ عَمَدَ الْأُدَبَاءُ إِلَى استعمالِ أدواتِ الشَّرْطِ فِيْ نُصُوْصِهِم المَقَامِيَّةِ، وتوظيفها فِيْ تشكيلهم الْأُسْلُوبيِّ؛ إِذْ لَا مَنَاصَ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا أكثروا مِنْ إيرادِ الأدواتِ (مَنْ، إِذَا، حَيْثُمَا، لمَّا، لو، إِنْ)، بَيْدَ أنَّ أكثرَ أدواتِ الشَّرْطِ وُرُوداً فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ: مَنْ، وَإِذَا.

إِنَّنَا إِذَا تَتَبَّعْنَا النُّصُوْصَ المَقَامِيَّةَ، وَدَوَالَ (الشَّرْط) فيها، نجدْ أنَّ معظمَ الْأُدَبَاءِ قَدِ استعملوا أداةَ الشَّرْطِ (إِذَا)، وَوَظَّفُوْهَا فِيْ نُصُوْصِهِم بِطَرِيْقَةٍ مُجديةٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ، قَوْلُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ: "إِذَا تلاحتِ الخُصومُ، تسافهتِ الحُلُومُ"[2]. فَقَدْ أَتْبَعَ اليَازْجِيّ أداةَ الشَّرْطِ (إِذَا) بجملةٍ فعليَّةٍ؛ ليقرِّبَ الدَّلَالَةَ مِنَ الْحَقِيْقَةِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ توظيفِهِ الفعل (تلاحت)، وَقَدِ اقتضتْ أداةُ الشَّرْطِ (إِذَا) جَوَاباً، وزيادةً عَلَى ما يحملُهُ فعلُ الشَّرْطِ من مَعْنَىً، فَإِذَا حملَ فعلُ الشَّرْطِ مَعْنَى الشَّتمِ، فَإِنَّ الجوابَ تجاوزَ حدودَ الشَّتمِ إِلَى مَعْنَىً أعظمَ حَمَلَتْهُ الجملةُ: (تسافهت). أضفْ إِلَىْ ذَلِكَ أنَّ الشَّرْطَ، والجزاءَ فعلانِ ماضيانِ حَمَلَا تحقُّقَ حصولِ الحُكْمِ لَاْ مَحَالَةَ.

وَيُبْدِعُ نَاصِيْف اليَازْجِيّ في تقديمِ تقنياتِ شَرْطٍ متتابعةٍ مُعْتَمِدَاً فِيْ جَمِيْعِها عَلَى الدَّال (إِذَا)، منوِّعاً فِيْ الشَّرْطِ والجزاءِ، يَقُوْلُ: "إِذَا استغنيتَ فَلَا تَبطَرْ، وَإِذَا افتقرتَ فَلَا تَضْجَرْ، وَإِذَا بُليتَ فاصطبرْ، وَإِذَا رأيتَ العِبرَةَ فاعتبرْ، وَإِذَا أردتَ أنْ تُطاعَ، فَسَلْ مَا يُستطاع، وَإِذَا حدَّثتَ فعليكَ بالإيجازِ، ولا تلبسِ الْحَقِيْقَةَ بالمجازِ"[3]. حَيْثُ طَالَعَنَا اليَازْجِيّ بستِ تقنياتٍ شَرْطيَّةٍ مُعْتَمِدَاً فِيْ جَمِيْعِها عَلَى فعلِ الشَّرْطِ المُوجَّهِ إِلَى المُخَاطبِ: (استغنيتَ، افتقرتَ، بُليتَ، رأيتَ، أردتَ، وحدَّثْتَ)، بَيْنَمَا نَوَّعَ فِيْ الجزاءِ، فتَارَةً استعملَ النَّهيَ: (فلا تَبطَرْ، وفلا تضجَرْ)، وأُخْرَى الأمر: (اصطبرْ، اعتبرْ، وسلْ)، وثالثةً اسم فعلِ الأمرِ: (فعليك) مترفِّعاً عَنِ السَّآمةِ الَّتِيْ قَدْ تسيطرُ

---

[1] الحنفيّ، الكليَّات، (ص531).

[2] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحمويَّة)، (ص359). تلاحت: تشاتمت.

[3] اليَازْجِيّ، مَجْمَع البَحْرَيْن (المَقَامَة الحكميَّة)، (ص135).

عَلَى المُتَلَقِّي بالتَّكْرَارِ المتماثلِ فِيْ نَسَقٍ واحدٍ.

وَمِنْ مَشَاهِدِ توظيفِ تقنيةِ الشَّرْطِ فِيْ النُّصُوْصِ الْمَقَامِيَّةِ، قَوْلُ شِهَاب الدِّينِ الخَفَاجِيّ: "وأجلتُ في حلبةِ الذِّهْنِ قداحَ الفكرِ، فَإِذَا هِيَ جنَّةٌ حُفَّتْ بالحورِ والولدانِ، وحُفَّتْ بالشَّهواتِ إِذَا حفَّتِ المكارهُ بالجِنَانِ"[1]. فالخَفَاجِيّ يُقدِّمُ مشهدَ الجنَّةِ، ونعيمهَا، وحورهَا، وولدانهَا، وَذَلِكَ باستعمالِهِ لأسلوبِ الشَّرْطِ المُزَاحِ عَنْ أصْلِهِ، عَنْ طريقِ تقديمِ جملةِ جوابِ الشَّرْطِ عَلَى جملةِ الشَّرْطِ، حَيْثُ أَرْدَفَ (إِذَا) بالفعلِ الْمَاضِي (حُفَّتْ)؛ ليكونَ الأمرُ حاصلاً لَا محالةَ، ويتحقَّقُ حدوثُ الفعلِ.

وَقَدْ يحملُ الشَّرْطُ فِيْ طيَّاتِهِ إِلَى جانبِ معناه الرَّئيس، مَعَانِي أُخْرَى كالتَّهكُّمِ، والتَّحقيرِ باستخدام الدَّال (إِذَا)، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ: "إِذَا كَبرَ وتكسَّرتْ قواريرُه، هبَّتْ لتخريبِ الأوقافِ دبورُهُ وأعاصيرُهُ، وَإِذَا صَامَ عَنِ الخُبزِ أفطرَ بأكلِ أموالِهَا"[2]. حَيْثُ رَسَمَ الخَفَاجِيّ صُوْرَةً مُظلمةً، وَلَا أبالغُ إِنْ قلتُ صُورةً مشوَّهةً تحيدُ عَنِ الحقِّ والهُدَى، وتتعلَّقُ بالضَّلالِ، وتتركُ المعروفَ؛ لتبحثَ عَنِ المنكرِ الَّذِيْ ينتهي دَوْمَاً بالخرابِ والدَّمارِ. وَقَدْ أضافَ الخَفَاجِيّ جَمَالاً إِلَى جَمَالٍ لَمَّا وَظَّفَ الفعلَ الْمَاضِي (كبر، وصام) فِيْ الشَّرْطِ، و(هبَّت، أفطر) فِيْ الجزاءِ، مَعْ مَا يحملُهُ الفعلُ الْمَاضِي مِنْ تحقُّقِ الحدثِ.

وَيَرْسِمُ أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق لَوْحَةً بَارِعَةً تحملُ فِيْ ثَنَايَاهَا صِفَاتِ الزَّوجةِ مَستخدماً دَالَ الشَّرْطِ (إِذَا)، يَقُوْلُ: "إِنَّ الزَّوجةَ إِذَا علمتْ أَنَّهَا تكونُ عِنْدَ زوجِهَا كالمتاعِ المتنقِّلِ، وكثوبِ المبتذلِ، موقوفةً عَلَى بادرةٍ تفرطُ منها، أو هفوةٍ تنقلُ عنها، لَمْ تخلصْ له سريرَتَهَا، وَلَنْ تمحضَ له مودّتها، وَإِذَا مرضتْ مرضَ هُوَ مَعَهَا، وَإِذَا رأتْ رأياً فَلَابُدَّ مِنْ أَنْ يواطئها عَلَيْهِ، ويجامعها"[3]. حَيْثُ قَدَّمَ الشِّدْيَاقُ أمراً بَدَهيَّاً تعرفُهُ الخَاصَّةُ والعامَّةُ، فَكُلُّ خصلةٍ يبرِّرها رَدٌّ مناسبٌ، فحسنُ المعاملةِ للزَّوجةَ يتبعه الإخلاصُ فِيْ السِّرِّ والسَّريرةِ، فَإِذَا اعتلَّتْ كَانَ هَوَ العليلَ، وَإِذَا برئتْ أضْحَى هو الصَّحيحُ، والإهمالُ والتَّهميشُ، واللامبالاة بِهَا، وبشؤونها يتبعُهُ عَدَم الإخلاصِ، والاهتمامِ. فالمعروفُ يتبعه المعروف، والإهمال يلاحقه الإنكار.

وَيلجأُ الْأَدِيْبُ أَحْيَانَاً إِلَى استخدامِ الشَّرْطِ بِطَرِيْقَةٍ متفرِّدةٍ مُعْتَمِدَاً عَلَى الدَّالِ (إِذَا)، وَتَتَابُعِ الشَّرْطِ مِنْ نَاحِيَةٍ، والتَّرتيبِ المنطقيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى بتناسقٍ عجيبٍ يعودُ بِنَا إِلَى تراثِ

---

[1] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (المَقَامَة الرُّوْمِيّة)، (ص369).

[2] الخَفَاجِيّ، رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا، (المَقَامَة السَّاسانيَّة)، (ص392).

[3] الشِّدْيَاق، السَّاق عَلَى السَّاق، (مَقَامَة مقعدة)، (ص131).

الجاهليَّةِ، وروائعِ (قسّ بن ساعدة الإياديّ)، يَقُوْلُ عَبْد الله فِكْرِيّ: "وسماعُ الغناءِ بِرْسَامٌ حادٌّ، يَدْخُلُ عَلَى الْإِنْسَانِ بالفسادِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا سَمِعَ شَرِبَ، وَإِذَا شَرِبَ طربَ، وَإِذَا طربَ وَهَبَ، وَإِذَا وَهَبَ عطبَ، وَإِذَا عطبَ اعتلَّ، وَإِذَا اعتلَّ جسمُهُ انحلَّ، وَإِذَا انحلَّ جسمُهُ، ماتَ، وَإِذَا ماتَ فاتَ"[1]. فَقَدْ سافرَ فكريّ فِيْ رحلةٍ طويلةٍ محطتها الأُولَى لَهْوُ الحَدِيْثِ، وسماعُ الغناءِ، ومحطتها الأخيرة الاعتلالُ، والموتُ، مَعْ مَا فِيْ الرِّحْلَةِ مِنْ محطَّاتٍ، كُلِّ محطَّةٍ تقومُ عَلَى فعلِ شرطٍ، وجَزَاء يتابعُ الشَّرْطَ، وَعمادُ كُلِّ محطَّةٍ فعلانِ ماضيانِ يحملانِ فِيْ ثَنَايَاهما التَّحقيقَ، والتَّرتيبَ، فسماعُ الغناءِ يعقبُهُ شربُ الخمرِ، ثُمَّ تَتَوَالَى الْأَفْعَالُ الْمَاضِيةُ (سمعَ، شربَ، طربَ، وهبَ، عطبَ، اعتلَّ، انحلَّ، وماتَ، وفاتَ) تِبَاعاً مرتبَّةً لَا يُمْكِنُ أَنْ يسبقَ أحدُهَا الآخرَ، حَتَّى تنتهيَ إِلَىْ آخِرِ المطافِ، وَهُوَ الموت، ثُمَّ الفَوت. مستلهماً فكريّ تراثَ الجاهليينّ، ممثَّلاً فِيْ قَوْلِ قُسّ بن ساعدة الإياديّ: "يّا معشرَ النَّاسِ، اجتمعوا فَكُلُّ مَنْ فاتَ فاتَ، وَكُلُّ شَيْءٍ آتٍ آت، لَيْلٌ دَاجٍ، وَسَمَاءٌ ذاتُ أبراجٍ، وَبْحرٌ عجاجٌ"[2].

وَمِنَ التَّشْكِيلاتِ الشَّرْطيَّةِ الَّتِيْ وَظَّفَهَا الْأُدَبَاءُ، استعمالُهُم دال الشَّرْطِ (مَنْ)، حَيْثُ بَرَعَ عَبْدُ الله فِكْرِيّ فِيْ رَسْمِ أكثر مِنْ مشهدٍ مُعْتَمِداً عليها، وَقَدْ حَمَلَ كُلُّ مشهدٍ فِيْ طيَّاتِهِ حكمةً بليغةً، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "مَنْ غَرَسَ شَجَرَ الحلمِ، اجْتَنَى ثَمَرَ السِّلْمِ"[3]. ففكريّ هَنَا قَدَّمَ حكمةً رائعةً موظِّفاً أسلوبَ الشَّرْطِ مُعْتَمِداً عَلَى الْفِعْلَيْنِ الْمَاضِيينِ (غرسَ، واجتنى) فِيْ الشَّرْطِ وَالجزاءِ. حَيْثُ نجدُ تقنيةَ الشَّرْطِ (مَنْ) رَسَمَتْ لَنَا الدَّلَالَةَ الَّتِيْ يريدُ فكري إيصالَهَا للمتلقِّي، والَّتِيْ تكمنُ فِيْ الإغراءِ؛ رَغْبَةً فِيْ البحثِ عَنْ دُرُوْب الحلمِ، لضمانِ قطف ثمار السِّلْمِ.

وَفِيْ ذاتِ السِّياقِ شَكَّلَ عَبْدُ الله فِكْرِيّ لوحةً جديدةً مِنْ لَوْحَاتِ الشَّرْطِ مُعْتَمِداً عَلَى الدَّالِ (مَنْ) مِنْ نَاحِيَةٍ، والْمُقَابَلَةِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، يَقُوْلُ: "مَنْ وافقَ صراطَ الاعتدالِ فِيْ دُنياهُ فِيْ جَمِيْعِ الأحوالِ وافقَ الحَقَّ، وفازَ بالمَرامِ، وَمَرَّ عَلَى صِراطِ الآخرةِ يومَ القيامةِ كلمحةِ البرقِ الخاطفِ إِلَى دَارِ السَّلامِ، ومَنْ انحرفَ عَنْ صراطِ الاعتدالِ ذَاتِ اليمينِ، وذاتِ الشِّمالِ، وَقَعَ فِيْ الدُّنيا فِيْ نيرانِ مساوئِ الأَخْلَاقِ والأعمالِ، وانحرفَ كَذَلِكَ عَنْ صراطِ الآخرةِ، فَوَقَعَ فِيْ نارِ العذابِ والنِّكالِ"[4]. فَقَدْ تفوَّقَ فكري عَلَى نَفْسِهِ فِيْ تقديمِ مَشْهَدَيْنِ مِنْ مَشَاهِدِ الشَّرْطِ، لَمَّا اعْتَمَدَ عَلَى الْمُقَابَلَةِ، الأوَّل: مشهد السَّعادةِ الَّذِيْ يَنْتَهِي بالفوزِ بالمرامِ، والمرورِ كلمحةِ البرقِ الخاطفِ

---

[1] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة، (المَقَامَة الفكريَّة)، (ص293).

[2] ابن كَثِيْر، البداية والنِّهاية، (ج144/2).

[3] فكري، الآثَار الفِكْرِيَّة، (المَقَامَة الفكريَّة)، (291).

[4] المَرْجِع السَّابِق، ص295.

إِلَى دارِ السَّلامِ، والثَّانِي: مشهد الشَّقاءِ الَّذِيْ ينتهي بالانحرافِ عَنْ صراطِ الآخرةِ، والوقوعِ فِيْ نارِ العذابِ والنَّكَالِ. وهَذَا الانْتِقَاء البارعُ لأداةِ الشَّرْطِ (مَنْ)، واستعمالِ الفعلِ الْمَاضِي فِيْ الشَّرْطِ والجزاءِ يُؤَكِّدُ عَلَى امتلاكِ فكري زمامَ الُّلغَةِ، وتمكُّنه مِنْ نواصِيهَا، وقدرته الفائقة عَلَى اختيارِ مَا يناسبُ نصوصَهُ المَقَامِيَّةَ، وتوظيفها بأَسَالِيْبَ مُتَنَوِّعَةٍ للدَّعوةِ إِلَىْ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، والحثِّ عَلَى مكارمِ الأَخْلَاقِ لِلْوُصُوْلِ إِلَىْ الجنَّةِ ونعيمِهَا، وَالبُعْدِ عن النَّارِ وجحيمِها. وهَذَا مَا أَضْفَى عَلَى تعبيره طاقةً تشكيليَّةً هَائِلةً.

أَمَّا بعد، فَقَدْ أَبْدَعَ كتَّابُ المَقَامَةِ أَيَّمَا إبداعٍ فِيْ أَعْمَالِهِمْ، وبَرَعُوا فِيْ صناعةِ لوحاتٍ تتزيَّنُ بالتَّشْكِيلِ الَّلوْنيِّ، وتتجمَّلُ بالتَّشْكِيلِ الحركِيِّ، وتتلوَّنُ بالتَّشْكِيلِ الصَّوتيِّ، والأُسْلُوبيِّ. فَفِيْ عَوَالِمِ التَّشْكِيلِ الَّلوْنيِّ فِيْ الْمَقَامَةِ رَسَمَ الْأُدَبَاء كأبرعِ الْفَنَّانينَ، واختاروا الأَلْوَانَ كأحسنِ الرَّسَّامينَ، وَقَدَّموا لوحاتٍ فنيَّةً ترنَو إِلَيْهَا العُيُونُ فتقرُّ بِهَا، تتأثَّرُ بِهَا القُلُوْبُ فتأنسُ صُحبتَهَا، تشعرُ بِهَا الْأَحَاسِيْسُ فتتفاعَلُ مَعَهَا، وتتعلَّقُ بِهَا الأفئدةُ فتعشَقُهَا. لَوْحَاتٌ رُبَّمَا حَمَلَتْ صَورُهَا قسماتِ الحزنِ في وُجوهِ الكبارِ، وَرَسَمَتْ نسماتِ الفرحِ عَلَى مُحَيَّا الأطفالِ الصِّغارِ، أَوْ حملتْ فِيْ طيَّاتِهَا آلامَ التَّعبِ، وآهاتِ الأحزانِ، وَمَا برحتِ المكانَ حَتَّى رَسَمَتْ بشائرَ الفَرَحِ، وبشرياتِ السُّرورِ، وَأَعْلَتْ زغاريدَ الفرحِ، وَأنشدتْ أَغَانِيَ الْجَمَالِ.

وَصُحْبَةَ السُّكونِ والْحَرَكَةِ، أَوْ رِفْقَةَ الهدوءِ والتَّوَتُّرِ، أبهرنَا كتَّابُ المَقَامَةِ بالتَّشْكِيلاتِ الْحَرَكِيَّةِ الَّتِيْ رسمتْ صُوَرَاً ناطقةً، ومَشَاهِدَ حيَّةً، فَعِشْنَا مَعْ رَوَائِعهم مشقَّةَ الرَّحِيلِ، وعناءَ التَّرْحَالِ، وَحَيِينَا مَعْ مقاماتِهِمْ سعادةَ الصُّعودِ، وشقاءَ الهُبوطِ، وَألمَ القَهْرِ، وَقَهْرَ القُنُوْطِ. وَلَكِنَّهُم لَمْ يبخلوا علينا برحلةِ أملٍ صَوْبَ الْبَرَاعَةِ، وَسَفَرِ حلمٍ تِجَاهَ الإِبْدَاعِ، كَمَا لمْ يضنّوا علينا بتنسُّمِ عَبَقِ الرَّياحينَ، وتلمُّس الْجَمَالِ فِيْ شَتَّى الميادينَ.

وَعَلَى أنغامِ المُوْسِيْقَا، ومُوْسِيْقَا الأنغامِ عَزَفَ الْأُدَبَاءُ أَجْمَلَ المقطوعاتِ، وَتَرَنَّمُوا بأعذبِ الْأُغْنِيَاتِ، فَحَمَلَتْ كُلُّ مقطوعةٍ دفقاتٍ شعوريَّةً تُلهبُ المشاعرَ، وتثري الْأَحَاسِيْسَ، مَا بَيْنَ نغمةٍ وأُخْرَى رَوْعَةٌ وَجَمَالٌ، وَفِيْ كُلِّ كلمةٍ حُسْنٌ وَجَلَالٌ، تندفعُ صَوْبَهُ الأَلْبَابُ، وتطيرُ تِجَاهَهُ الأفئدةُ والقُلُوْبُ، جَمَالٌ لَاْ تَنْتَهِي آثارُهُ، وَحُسْنٌ لَاْ تَنْضَبُ مَنَاهِلُهُ. وَجَلَالٌ لَا تَنْفَدُ خزائنُهُ.

لَقَدْ طَوَّفَ الكُتَّابُ بمقاماتِهِم فِيْ مختلفِ الأصقاعِ، وَحَلَّقوا بِهَا فِيْ مُختلفِ الأجْوَاءِ، وشَتَّى الأنْحَاءِ الَّتِيْ تُبرِزُ جَمَالِيَّاتِ التَّشْكِيلِ الَّلوْنيِّ، وَالحركيِّ، وَالتَّلوينِ الموسيقيِّ، وَالصَّوتيِّ، وَمَعَ التَّطوافِ لوحاتٌ فائقةٌ، وَحركةٌ دائبةٌ، وَمُوْسِيْقَا عَذْبَةٌ، وَمَعَ التَّحليقِ ارتقاءٌ نَحْوَ الْجَمَالِ بكلِّ دقائقِهِ، وَصُعُودٌ تِجَاهَ الْحُسْنِ بشَتَّى مَعَانِيهِ.

وَفِيْ حَدَائِقِ التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوْبِيِّ تنقَّلَ الْأُدَبَاءُ بَيْنَ محطاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، كُلَّمَا غادروا واحدةً حَطُّوا رحالَهُم فِيْ غَيْرِهَا فأبدعوا وفاقوا، فَقَدْ اسْتَهلُّوا الرِّحْلَةَ بأسلوبِ الأمرِ، وَتَابَعُوا بالنَّهْيِ، وَالاسْتِفْهَامِ، والنِّدَاءِ، وَمَعَ كُلِّ أسلوبٍ نوَّعوا فِيْ لوحاتِهِم، وَغيَّروا فِيْ تشكيلاتِهِم.

وَلَمْ تنتهِ الرِّحْلَةُ بَعْدُ فتحرَّكوا صَوْبَ التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ، وواصلوا المسيرَ تجاهَ التَّكْرَارِ والشَّرْطِ، فنقلوا المُتَلَقِّي نقلةً نَوعيَّةً تُحِيطُها أجواءُ عاطفيَّةٌ ينتهي بِهَا المَطَافُ بِشَواهِدَ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ، وروائعَ أرقَّ مِنْ نسيمِ الصَّبَا، وَأَعْذَبَ مِنَ الْمَاءِ الزُّلَالِ.

سِمَاتُ المَقَامَاتِ فِيْ الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ

1- كثرةُ الاقْتِبَاسِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ، فَقَدْ حَمَلَتِ المَقَامَاتُ العُثْمَانِيَّةُ الطَابعَ الدِّينيَّ نظراً لطبيعةِ المجتمعِ العُثْمَانِيِّ المتديِّنِ، وَقَدْ ظَهَرَ الاقْتِبَاسُ مِنَ القرآنِ الكريمِ فِيْ مقاماتِ هَذَا العَصْرِ واضحاً، وَلَا أبالغُ إِنْ قُلْتُ إنَّ الاقْتِبَاسَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ لَمْ تَخْلُ منه مَقَامَةٌ، وَقَدْ لَا أنحرفُ عَنِ الْحَقِيْقَةِ إِنْ قُلْتُ: إنَّ بعضَ المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ لَا يكادُ تَمُرُّ صفحةٌ مِنْ صفحاتِهَا إِلَّا وتحملُ بَيْنَ سطورِهَا اقتباساً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ.

2- عَكَسَتِ المَقَامَاتُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ الأحوالَ السِّيَاسِيَّةَ، فقد حملتِ النُّصوصُ المَقَامِيَّةُ الطَّابعَ السِّياسيَّ، فَلَمْ يكنْ هَذَا الفَنُّ بمنأى عَنِ السِّيَاسَةِ، حَيْثُ استوعبتِ المَقَامَاتُ مساحةً شاسعةً مِنْ هَذَا الْمَوضُوْعِ، رُبَّمَا ارتبطَ هَذَا الاتِّساعُ باتِّساعِ الدَّولةِ العُثْمَانِيَّةِ الَّتِيْ امتدتْ إِلَى ثلاثِ قاراتٍ، هِيَ آسْيَا وأوروبَا، وأفريقيَا.

3- عكستِ المَقَامَاتُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ الأحوالَ الاجتماعيَّةَ، وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ إنَّ الظَّاهرةَ العامةَ الَّتِيْ اتَّسمَتْ بها المَقَامَةُ عامة هي ظاهرةُ النَّقدِ والثَّورةِ، وَكَشْف العيوبِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وإظهارِ المشكلاتِ الاجتماعيَّةِ، مَعْ مُحاولةِ وَضْعِ البديلِ لَهَا فِيْ بعضِ الأحيانِ، وإيجادِ الحُلُولِ المناسبةِ مِنْ خِلَالِ فَنِّ المَقَامَةِ.

4- عكستِ المَقَامَاتُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ الأحوالَ الدِّيْنِيَّةَ، فقد ظهرتِ الْمَوضُوْعاتُ الدِّيْنِيَّةُ فيها مُنْذُ نشأتِهَا، حَيْثُ أَكْثَرَ روادُ هَذَا الفَنِّ مِنْ ذكرِ مثلِ هذه الْمَوضُوْعاتِ كَمَا هُوَ الحال فِيْ مقاماتِ نَاصِيْف اليَازْجِيّ، ومقاماتِ شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ، والشِّدياقِ، ومعاصريهم لانتشارِ النَّزعةِ الصُّوفيَّةِ الَّتِيْ كَانَتْ تشيعُ فِيْ المجتمعِ آنَذَاكَ. وَمِنَ البدهيِّ أَنْ يحملَ العَصْرُ العُثْمَانِيُّ مَزِيْدَاً مِنَ القيمِ الدِّيْنِيَّةِ خَاصَّةً أنَّ المجتمعَ العُثْمَانِيَّ صُبِغَتْ حياتُهُ بِتِلْكَ الصِّبغةِ الدِّينيَّةِ.

5- لَمْ تبرحِ المَقَامَاتُ الوطنَ العربيَّ، وَلَمْ تهملْ جغرافيته، فَقَدْ حَمَلَ كَثِيْرٌ مِنَ المَقَامَاتِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ أسماءَ دولٍ عربيَّةٍ، كالمصريَّةِ، واليمنيَّةِ، والمغربيَّةِ، والعراقيَّةِ، كَمَا حَمَلَ مِنْهَا

أسماءَ لعواصمَ، ومدنٍ عربيَّةٍ، كالقدسيَّةِ، والدِّمشقيَّةِ، والإسكندريَّةِ، والمكيَّةِ، والحليَّةِ، والحلبيَّةِ، كَمَا اقترنَ بعضُها بأسماءِ الشَّخْصِيَّاتِ، كالمعريَّةِ، كَذَلِكَ حَمَلَ بعضُها أسماءَ أسواقٍ ارتبطَ اسمُهَا بالأَدَبِ، كالعكاظيَّةِ، وهَذَا إنْ دَلَّ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الاعتزازِ بالموروثِ العربيِّ وَالإسلاميِّ.

6- إنَّ المَقَامَاتِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ وضعتنا أمامَ صورةٍ لحالِ المجتمعاتِ الْعَرَبِيَّةِ فِيْ العهدِ العُثْمَانِيِّ الَّذِيْ عَاشَ فترةَ أمجادٍ وانتصاراتٍ، اعتراها أَحْيَانَاً بعضُ الاضطراباتِ، والصِّراعاتِ الدَّاخليَّةِ والخارجيَّةِ، وَرَغْمَ ذَلِكَ بَقِيَ هَذَا المجتمعُ يقدِّسُ الدِّينَ، ويحترمُ رجالَه، أَمَّا مِنْ حَيْثُ الثَّقَافَةُ السَّائدةُ، فَهِيَ ثقافةٌ إسلاميَّةٌ سيطرتْ عليها الظَّاهرةُ الدِّينيَّةُ، ممثلةً فِيْ الصُّوفيَّةِ الَّتِيْ تمكنتْ مِنْ عقولِ المثَّقفينَ، والْأُدَبَاءِ، والعُلَمَاْءِ، وعمومِ أفرادِ المجتمعِ، وَقَدْ انعكستْ هَذِهِ الثَّقَافَةُ عَلَى فَنِّ المَقَامَاتِ، لَاْ أقولُ كُلّهَا، بَلْ معظمها، حَيْثُ سيطرتْ النَّزعةُ الدِّيْنِيَّةُ عليها.

7- إنَّ فَنَّ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ سَايَرَ الأَدَبَ العربيَّ فِيْ جَمِيْعِ عصورِهِ مُنْذُ ظهورِهِ فِيْ القرنِ الرَّابعِ الهجريِّ، فَلَمْ يبتعدِ الْأُدَبَاءُ عَنْ سابقيهم، بَلْ نهجوا نهجَهم، واقتفوا أثرَهُمْ.

8- وَكَمَا كَانَتِ المَقَامَةُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ مَوْسُوعَةً شاملةً للفنونِ كَافَّةً مِنْ فَلَكٍ، وَطِبٍّ، وتاريخٍ، فَإِنَّها كَذَلِكَ لَمْ تَخْلُ مِنَ الفكاهةِ، فَقَدْ حاولَ أُدَبَاءُ المَقَامَةِ طَرْقَ أبوابِ الهزلِ والفكاهةِ، وإنِ اختلفَ الأمرُ عَنْ سابقيهم، وَمِنْ هَذِهِ المَقَامَاتِ، المَقَامَةُ الهزليَّةُ، وإنْ لَمْ تَصِلْ إِلَى مَا أصابته المَقَامَاتُ السَّابِقَةُ فِيْ هَذَا الْمَوضُوْعِ، وأظنُّ أنَّ فِيْ هَذِهِ المَقَامَةِ مَا نطَّلِعُ مِنْهُ عَلَى جملةِ الصِّفَاتِ والخَصَائِصِ الَّتِيْ يتميَّزُ بها نَاصيفُ اليَازْجِيّ، فَاسْمُهَا المَقَامَةُ الهزليَّةُ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أنَّه حاولَ أنْ يُجري فيها تياراً مِنَ الهزلِ والفكاهةِ، عَلَى نَحْوِ مَا رأينا عِنْدَ بَدِيع الزَّمَان الْهَمَذَانِيّ، والحريريّ، والْقَارِئُ يلاحظُ معنا أنَّ فكاهةَ اليَازْجِيّ جَامدةٌ، وأن تيارَها لَاْ يتدفَّقُ، فَمِنْ غيرِ شِكٍّ أنَّ هَذَا الَّتِيْارَ أقوى عِنْدَ بَدِيعِ الزَّمَان، والحريريِّ منه، وَكَأَنَّ طبيعةَ اليَازْجِيّ الجديَّةَ حالتْ بينَهُ وَبَيْنَ رُوْحِ الدُّعابةِ والفكاهةِ.

9- أَمَّا عَنْ بلاغةِ المَقَامَةِ فَلَكَ أَنْ تتحدَّثَ وَلَاْ حَرَجَ، فَقَدِ انسابتْ أقلامُ الْأُدَبَاءِ تَنْتَقِي مِنْ صُوَرِ البيانِ أعذبها، وَمِنْ رَوَائِعِ البَدِيْعِ أجملهَا، فرسموا لوحاتٍ حملتْ كُلَّ مَعَانِي الْجَمَالِ، وقدَّمُوا تشكيلاتٍ احتوتْ جُلَّ صورِ الْجَلَالِ، خَطُّوا فسحروا العُيُونَ، وترنَّموا فأطربوا الأسماعَ، وتغنَّوا فأثاروا المشاعرَ والْأَحَاسِيْسَ، عشقوا المَقَامَةَ واعتلوا صَهَوَاتِ خيولِها الَّتِيْ ارتحلتْ بعيداً، وَحَلَّقَتْ عَالياً صَوْبَ عَوَالِمِ الْبَرَاعَةِ والإِبْدَاعِ، وَتِجَاهَ دُرُوْبِ الحُسْنِ والْبَهَاء والإمتاعِ.

الْخَاتِمَةُ

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ كَانَتِ المَقَامَاتُ قصَّةً توالتْ أحداثُها فكَانَتْ، وما فتئتْ أجملَ قصَّةٍ، وأضحتْ روايةً تتابعتْ فُصُوْلُهَا فكَانَتْ، وستظلُّ أَحْلَى روايةٍ، واستحالتْ قصيدةً تعدَّدتْ أبياتُهَا فكَانَتْ أَرْوَعَ قصيدةٍ، لَقَدْ غَدَا كتَّابُها أيقونةً فِيْ الأَدَبِ العربيِّ، وبوصلةً تُحَدِّدُ المسارَ لكَثِيْرٍ مِنَ الْأُدَبَاء، وزهرةً يفوحُ شذاهَا فِيْ كُلِّ زمانٍ، وَفِيْ أيِّ مكانٍ.

المَقَامَةُ الوطنُ والوطنيَّةُ، وَكُتَّابُهَا المبدعونَ والْبَاحِثُونَ عَنِ الهُويَّةِ، مِنْهُم القائدُ والصِّنديدُ، والفارسُ الحديدُ، وَمِنْهُم السَّيفُ القاطعُ، والكلمةُ المدوِّيةُ، وَمِنْهُم الثَّقَافَةُ الواسعةُ، والتَّاريخُ النَّاصِعُ، وأعمالهم مثَّلتْ كُلَّ حَقٍّ بَيِّنٍ، وَأيُّ حلمٍ جميلٍ، وَكُلَّ لحنٍ عَذْبٍ، فهم مَنْ لا يتَّسعُ مِدَادُ الكَلِمَاتِ لمدحهم، ولا عِداد الآهاتِ لرثائهم، وقدْ لَاْ يكفِي نحيبُ الدَّهرِ لبكائِهِم.

لَاْ أَدْرِي وَسَوْفَ أخالُ أَدْرِي صَراحةً كَيْفَ انطلقَ قَلَمِي لينسابَ بهدوءٍ هَذِهِ المرَّة كَيْ يسطِّرَ كُلَّ هذه الكَلِمَاتِ، وأظنُّها لَا تَفِي، وَلَوْ أَطْلَقتُ العَنَانَ لريشتي مَا توقفتُ لحظةً عَنِ الْمَدْحِ، ولا كَبَحَ شكيمتَها حَاجزٌ ليوقِفَهَا عَنِ التَّعبيرِ عَنْ روائعِ هَذَا النَّموذجِ، وَذَاكَ الفَنِّ الأُنموذجِ، لَكِنَّهَا سنَّةُ الحَيَاةِ الَّتِيْ تَرْسِمُ لِكُلِّ أوَّلٍ خَاتَمَةً، وَلِكُلِّ بدايةٍ نهايةً.

فِيْ عَوَالِمِ التَّشْكِيلِ فِيْ الْمَقَامَةِ رَسَمَ الكتَّابُ كأبرع فنَّانٍ، واختاروا الأَلْوَاْن كأحسنِ رسَّامٍ، وقدَّموا لوحاتٍ فنيَّةً ترنو إِلَيْهَا العُيُونُ فتقرُّ بها، وتتأثَّرُ بِهَا القُلُوْبُ فتأنسُ صُحبتَهَا، وتشعرُ بها الْأَحَاسِيْسُ فتتفاعلُ مَعَهَا، وتتعلَّقُ بها الأفئدةُ فتعشقها. لوحاتٌ رُبَّمَا حملتْ صورُهَا قسماتِ الحزنِ في وجوهِ الثَّكالَى والكبارِ، ونسماتِ الفرحِ عَلَى مُحيَّا الأطفالِ الصِّغارِ، أو حملتْ فيْ طيَّاتِهَا آلامَ القهرِ، وقهرَ الآلامِ، وَمَا برحتِ المكانَ حَتَّى رسمتْ بشائرَ العزَّةِ، وبشرياتِ الانعتاقِ، وأعلتْ زغاريدَ الفرحِ، و أنشدتْ أغانيَ الانتصارِ.

وصُحْبَةَ السُّكونِ والْحَرَكَةِ، أو رفقةَ الهدوءِ والتَّوَتُّرِ أبهرنا كتَّابُ المَقَامَةِ بالتَّشْكِيلاتِ الْحَرَكِيَّةِ الَّتِيْ رسمتْ صوراً ناطقةً ومَشَاهِدَ حيَّةً، فعشنا مع رَوَائِعهم مشقَّةَ الرَّحِيلِ، وعناءَ التَّرْحَالِ، وحيينا مع مقاماتِهِم سَعادةَ الصُّعود، وشقاءَ الهبوطِ، وتذوَّقنا مَعْ نصوصِهِم ألمَ القهرِ، وقهرَ القنوطِ. ولكنَّهم لَمْ يبخلوا علينا بِرِحلةِ أملٍ صَوْبَ الْجَمَالَ، وسفرَ حلمٍ تَجَاهَ الْكَمَال، كَمَا لَمْ يضنّوا علينا بتنسُّمِ عبق الرياحينِ، وتلمُّس الْجَمَال فِيْ شَتَّى الميادين.

هَكَذَا غنَّى الْأُدَبَاءُ فأضحتْ كلماتهم فنوناً وأفناناً، وبديعاً مِنْ شَتَّى الأَلْوَاْنْ، حاربوا فغدتْ رَوَائِعهم سيوفاً مُشرعاتٍ، وبيضَ صفائحَ باتراتٍ، وقنابلَ مدوِّياتٍ تصيبُ بلعنتها قلوباً وحثالاتٍ، وتصفعُ وجوهاً حالكاتٍ، وتمزِّقُ أستاراً زائفاتٍ. وترنَّموا بكلماتٍ مختاراتٍ علتْ فوقَ الهاماتِ،

وتبوَّأتْ بَيْنَ الفُنُوْنِ أمكنةً عالياتٍ، فَغَدَتْ كالرَّاياتِ الخافقاتِ، وأصابتِ المجدَ فِيْ الوهادِ والرَّبواتِ، فأضحتْ كعقدِ الدُّرِّ فِيْ جياد الغيدِ والحسناواتِ، وكالَّتِيْجانِ المُرَصَّعةِ بالجواهرِ واللآلئِ فَوْقَ رؤوسِ الحِسانِ، والملكاتِ.

وَدَاعاً لكلمةٍ لا تُنْسَى، وسيفٍ لم يُفَلّ، ولحنِ عزٍّ لَمَّا ينتهِ، وقبسِ نورٍ لَنْ يخبوَ، وعصرٍ لا تفارقُ قسماتُه مُحَيَّا كُلِّ إنسانٍ فنَّانٍ، بَلْ كُلِّ فنَّانٍ إنسانٍ. لَكِنَّنَا الآنَ ننتظرُ عودةَ الفارسِ مِنْ جديدٍ، ورجوعَ الْأَمَلِ مِنْ جديدٍ، وَرُبَّمَا يحملُ قادمُ الأيامِ الأمانيَ والآمالَ، الَّتِيْ تقهرُ مواطنَ الآلامِ، وآلامَ المَوَاطِنِ.

أَخِيرَاً وَبَعْدَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الشَّاقَّةِ فِيْ فَنِّ المَقَامَاتِ، وَعَقِبَ الإبحارِ فِيْ ثَنَايَا نُصُوْصهَا فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، يجدرُ بالبَاْحِثِ أَنْ يسجِّلَ أهمَّ مَا وَصَلَ إليه مِنْ نتائجَ، ويجمَعُهَا فِيْ صعيدٍ واحدٍ، وَمِنْ ثَمَّ يُقدِّمُ بعضَ التَّوصياتِ.

أَوَّلاً: النَّتَائِجُ

1- إنَّ العَصْرَ العُثْمَانِيَّ قَدْ تعرَّضَ للظُّلمِ الشَّديدِ دُوْنَ وازعٍ مِنْ ضميرٍ لَدَىْ بَعْضِ النُّقَّادِ.

2- العَصْرُ العُثْمَانِيُّ حَمَلَ مِنَ الرَّوَائِع فِيْ الأَدَبِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وأنجبَ شخصياتٍ أدبيَّةً بارزةً مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى رُبَّمَا تعجزُ الأقلامُ أنْ تفيَهَا حَقَّهَا.

3- إنَّ الإبْدَاعَ الأَدَبيَّ لا يرتبطُ بزمانٍ أو بمكانٍ، بَلِ انطلقَ ذَلِكَ الإبْدَاعُ يغرِّدُ فِيْ كُلِّ الفَضَاءَاتِ، وَبِحُرِيَّةٍ لَا حُدُودَ لَهَا في شتَّى أنحاء الدَّولةِ العثمانيَّةِ.

4- إنَّ فَنَّ المَقَامَةِ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ كَانَ فيه مِنَ الإبْدَاعِ مَا أسكتَ ألسنةَ المتطاولينَ عَلَى العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وَشَفَا غَليلَ المنصفينَ لهَذَا العَصْرِ.

5- حملتِ المَقَامَاتُ عبقَ التُّرَاثِ، فَلَمْ تنفصلْ عنه تَمَامَاً، لَكِنَّهَا جدَّدَتْ في كَثِيْرٍ مِنَ الأُمُوْرِ بِمَا يلائمُ العَصْرَ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَمَا يتطلَّبه الْوَاقِعُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

6- إنَّ المَقَامَةَ أخذتْ مكَانَتها بَيْنَ الفُنُوْنِ النَّثْرِيَّةِ الَّتِيْ سبقتها، بَلْ ونافستها فِيْ كَثِيْرٍ مِنَ الأزمنةِ.

7- المَقَامَةُ مفخرةٌ لأبناءِ العروبةِ فِيْ كُلِّ زمانٍ ومكانٍ بعيداً عَنِ الحيِّزِ الَّذِيْ كتبتْ فيه هَذِهِ المَقَامَةُ، رَغْمَ تَخَلِّي كَثِيْرٌ مِنْ أُدَبَاءِ العربِ عَنْ تاريخهم، وَتَعلُّقهم بالغربِ بحثاً عن الشُّهرةِ، والعالميَّةِ.

8- اسْتَطَاعَ فَنُّ المَقَامَةِ، وبقوَّةٍ أنْ ينافسَ الفُنُوْنَ الأَدَبيَّةَ الأُخْرَى، بَلْ ويتفوَّقَ عليها فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، والعُصُوْرِ الأَدَبيَّةِ السَّابِقَةِ، وهَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ أَصَرَّ عَلَى وَسْمِ العَصْرِ بالجمودِ والتَّخلُّفِ، وَوَصْفِ أدبِهِ بالضَّعفِ، والْانْحِطَاطِ.

9- انطلقَ أُدَبَاءُ المَقَامَاتِ فِيْ شَتَّى الأرجاءِ، واندفعوا يَرْسُمُونَ أجْمَلَ اللَّوْحَاتِ فِيْ الْأَرْضِ والسَّماءِ، فَلَمْ يتركوا يابساً وَلَا ماءً، وَلَا وادياً وَلَا صحراءَ، إِلَّا وشقوا طرقَهَا، وسلكوا دُرُوْبَهَا، وقصدوا سبيلَهَا، كَمَا لَمْ يتركوا امرأةً وَلَا حسناءَ إِلَّا ووصفوا حُسنَهَا، ورسموا ملامِحَ جمالِهَا، وجابوا السُّهولَ، والصَّحارِيَ، وقطعوا الوديانَ، والفيافيَ، فأَطْلَقوا العَنَانَ لأقلامهم لتكتبَ أنَّىْ شاءتِ الكتابةَ، وتركوا الْحُريَّةَ لريشتهم لِتَرْسمَ أيَّانَ رغبتِ الرَّسْمَ مَا أبدعتْ عقليتها مِنَ اللَّوْحَاتِ البَدِيْعَةِ، حَتَّى غَدَتِ المَقَامَاتُ مرآةً صافيةً لهذَا العَصْرِ، ينظرُ الرَّائي إِلَيْهَا أنَّى شَاءَ؛ ليجدَ مِنَ الرَّوَائِع مَتَى شَاءَ مَا يَشَاءُ.

10- حَفلتِ النُّصُوْصُ المَقَامِيَّةُ فِيْ الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ بالخَصَائِصِ الفنيَّةِ فِيْ اللُّغَةِ والْأُسْلُوبِ، وتزيَّنتْ بالأَسَالِيْبِ الْبَيَانِيَّةِ مِنْ تشبيهاتٍ، واستعاراتٍ، وكناياتٍ، وتوشَّحتْ بِالمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيْعيَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ واللَّفْظِيَّةِ، كَمَا ازدانتْ بروائعِ التَّشْكِيلِ اللَّوْنيِّ، والحركيِّ، والصَّوتيِّ، والْأُسْلُوبيِّ، فَغَدَتِ المَقَامَاتُ حَدَائِقَ غنَّاءَ يرتادُهَا الدَّارِسُونَ ليقطفوا مِنْ جمالِ أزهارِها، ومناهلَ عذبةً يَرِدُهَا الْبَاحِثُونَ ليشربوا مِنْ عَذْبِ مَائِهَا.

ثَانِيَاً: التَّوْصِيَاتُ

1- الاهتمامُ بدراسةِ التُّرَاثِ البلاغيِّ الَّذِيْ يُمَثِّلُ كُنْزَاً مِنْ كنوزِ الْعَرَبِيَّةِ، وإعادةِ صياغةِ مؤلَّفاتِهِ بما ييَّسرُ التَّعاملَ مَعَهَا، خَاصَّةً فِيْ ظِلِّ التَّطوراتِ والتَّغيراتِ الَّتِيْ نعيشُها مِنْ نَاحِيَةٍ، وبما يحقِّقُ الفائدةَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَفِيْ مقدِّمةِ هَذَا التُّرَاثِ، الأَدَبُ العُثْمَانِيُّ.

2- تَوْجِيهُ عنايةِ الطُّلابِ والْبَاحِثِينَ إِلَى دراسةِ الأَدَبِ العُثْمَانِيِّ، والتخصُّصِ فيه، خَاصَّةً فَنِّ المَقَامَاتِ الَّذِيْ يُمَثِّلُ كنزاً مِنْ كنوزِ الأَدَبِ، والبَلَاْغَةِ.

3- تَكْثِيفُ الجهودِ لدحضِ الإشاعاتِ المغرضةِ الَّتِيْ تهدفُ إِلَى النَّيلِ مِنَ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، توطئةً للنَّيلِ مِنْ تراثنا العربيِّ والإسلاميِّ، لَاْسيَّمَا الْقُرْآن الْكَرِيْم، والسنَّة النَّبويَّة الشَّريفة.

4- الاهتمامُ بالدِّرَاسَاتِ البَلاغيَّةِ الملتزمةِ، وَذَلِكَ لِمَا تضفيه هَذِهِ الدراساتُ للُّغةِ منْ سعةٍ، وَمَا تمنحه لِلْبَلَاغَةِ مِنْ حفظٍ وتمكُّنٍ.

5- إعطاءُ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ عنايةً أكبرَ، ومساحةً أوسعَ فِيْ الدِّرَاسَاتِ الأَدَبيَّةِ، والبَلاغيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ كنزاً دفيناً مِنَ الْكُنُوْزِ الَّتِيْ تحتاجُ إِلَى التَّنقيبِ والبحثِ لاكتشافها، وسبرِ أَغْوَارها.

6- توجيهُ الدِّرَاسَاتِ نَحْوَ البَلَاْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّها جامعةٌ لكَثِيْرٍ مِنَ الأَسَالِيْبِ البَلاغيَّةِ، والأَلْوَانِ الْبَيَانِيَّةِ، والفُنُوْنِ البَدِيْعيَّةِ الَّتِيْ يستحيلُ أَنْ يحدَّهَا حَدٌّ، أَوْ يحصيها أيُّ عدٍّ.

7- الاهتمامُ بفَنِّ المَقَامَاتِ، ودراستِهَا، وتوفيرِ الْمَصَادِرِ الَّتِيْ تناولتها، وتشجيعِ الدَّارِسِينَ للبحثِ فيها.

8- الاهتمامُ بتوفيرِ الْمَصَادِرِ الْقَدِيمَة، والْمَرَاجِعِ الحَدِيْثَةِ، والوسائطِ التقنيَّةِ الَّتِيْ تساعدُ فِيْ جمعِ المعُلُوْماتِ حَوْلَ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وتوفيرها للباحثينَ.

الْمَصَـــــادِرُ

وَ

الْمَرَاجِـــــعُ

الْمَصَادِرُ والْمَرَاجِعُ

إبْرَاهِيْم، زكريا. (1988م). *فلسفة الفن في الفكر المعاصر، دراسات جماليَّة*. ط1. القاهرة: دار مصر للطِّبَاعَةِ.

إبْرَاهِيْم، مُحَمَّد حافظ. (2012م). *ليالي سطيح*. (د. ط)، القاهرة: مؤسسة هنداوي للنَّشرِ والطباعة.

إبْرَاهِيْم، وفاء مُحَمَّد. (1992م). *علم الْجَمَال، قَضَايَا تاريخية ومعاصرة*. ط1. القاهرة: دار غريب للطِّبَاعَةِ والنَّشر.

ابن الأثير، ضياء الدين. (1959م). *المثل السائر في أدب الْأَدِيْب والشَّاعِر*. تحقيق: مُحَمَّد الحوفي، بدوي طبانة. ط2. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنَّشر.

أَحْمَد، مُحَمَّد الحسن علي أمين. (1405هـ، 1985م). *الْكِنَايَة أَسَالِيْبها ومواقعها في الشِّعر الجاهلي*. (د. ط). (د. م): الْمَكْتَبَة الفيصلية.

ابن الأحنف، العباس. (1373هـ- 1954م). *ديوان العباس بن الأحنف*، شرح وتحقيق: عاتكة الخزرجي. (د. ط). القاهرة: مطبعة دار الكُتُب المصريَّة.

أَدُوْنِيْس، علي أَحْمَد سعيد. (1984م). *الْثابت والمتحول، بحث في الإتباع والإبْدَاع عِنْدَ العرب*،3- "صدمة الحداثة". ط4. بيروت: دار العودة.

أَدُوْنِيْس، (علي أَحْمَد سعيد). (1983م). *زمن الشِّعر*. ط3. بيروت، لبنان: دار العودة.

إسماعيل، عزّ الدِّين. (1974م). *الأسس الْجَمَاليَّة في النقد العربيّ عرض وتفسير ومقارنة*. ط3. القاهرة: دار الفكر العربي.

إسماعيل، عزّ الدِّين. (1962م). *التَّفسير النَّفسي للأدب*. (د. ط). بيروت، لبنان: دار العودة ودار الثَّقَافَة، بيروت، لبنان.

الأسمريّ، عبد العزيز مُحَمَّد علي. (1435هـ-2014م). *القضيَّة الفلسطينيَّة في شعر عبد الرحمن بارود*. رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية: كلية الُّلغَة العربية.

الأصبهانيّ، الرَّاغب. (1902م). *محاضرات الْأُدَبَاء ومحاورات الشُّعَرَاء والبُلَغَاْء*. تحقيق: إبْرَاهِيْم زيدان. مصر: مكتبة دار الهلال.

الأصْفَهَانِيّ، الرَّاغب. (د. ت). *الْمُفْرَدَات غي غريب القرآن*. تحقيق: مركز الدِّرَاسَات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز. (د. ط). مكتبة نزار مصطفى الباز.

الأعشى، مَيْمُون بن قيس. (1950م). *ديوان الأعشى الكبير مَيْمُون بن قيس*. شرح وتعليق: مُحَمَّد حسين. (د. ط). القاهرة: المطبعة النَّموذجيَّة.

الألبانيّ، مُحَمَّد ناصر الدِّين. (1412هـ-1992م). *سلسلة الأحاديث الضعيفة والْمَوضُوْعة وأثرها السيئ في الأمة*. ط1. الرياض، المملكة العربية السعودية: دار الْمَعَارِف.

الألبانيّ، مُحَمَّد ناصر الدِّين. (1400هـ- 1980م). *غاية المرام في تخريج احاديث الحلال والحرام*. ط1. بيروت، دمشق: المكتب الإسلاميّ.

ابن الأَلُوسِيّ، محمود شِهَاب الدِّين بن عبد الله الحسينيّ. *مقامات ابن الأَلُوسِيّ*، نسخة مخطوطة، دار الكُتُب المصريَّة، أدب تيمور 768.

أمين، أَحْمَد. (1387هـ-1967م). *النَّقد الأَدَبيّ*. ط4. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربيّ.

أمين، بكري شيخ. (1979م). *مطالعات في الشِّعر المملوكيّ والعُثْمَانِيّ*. ط2. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

الأندلسيّ، أبو حيان مُحَمَّد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسيّ الغرناطيّ. (1987م). *البحر المحيط*. ط2. بيروت ، لبنان: دار الفكر للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

الأَنْصَارِيّ، الأحوص. (1411هـ-1990م). *شعر الأحوص الأَنْصَارِيّ*، جمع: عادل سليمان جمال، تقديم: شوقي ضيف. ط2. القاهرة: مكتبة الخانجي.

الأَنْصَارِيّ، أبو عبد الله ابن هشام. (1966م). *أوضح المسالك عَلَى ألفية ابن مالك*. ط5. بيروت، لبنان: دار إحياء التُّرَاث العربيّ.

الأَنْصَارِيّ، أبو عبد الله بن هشام. (د. ت). *مغني اللبيب عن كتب الأعاريب*. تحقيق: مُحَمَّد محي الدِّين عبد الحميد. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الشَّام للتُّراث.

أنيس، إِبْرَاهِيْم. (1961م). *الْأَصْوَات اللغوية*. (د. ط). مصر: مكتبة نهضة مصر ومطبعتها.

أنيس، إِبْرَاهِيْم، وعبد الحليم منتصر. (1971م). *الْمُعْجَم الوسيط*. ط2. القاهرة: (د. ن).

أهل الحَدِيْث. (2003م، 28 ديسمبر). *بلعم بن عوراء*. تاريخ الاطلاع: 23 مارس 2017م. الموقع: أهل الحَدِيْث www.ahlalhdeeth.com.

البحتريّ، أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخيّ الطَّائيّ. (1964). *ديوان البحتري*. تحقيق: حسن كامل الصيرفي. ط3. مصر: دار الْمَعَارِف.

البحراويّ، سيد. (2003م). *المدخل الاجتماعي للأدب*. (د. ط). القاهرة: دار الثَّقَافَة الْعَرَبِيَّة.

البخاريّ، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل. (1417هـ- 1997م). *صحيح البخاريّ*. ط1. الرياض: دار السَّلام.

بدوي، أَحْمَد زكي. (1991م). *مُعْجَم مصطلحات الدِّرَاسَات الْإِنْسَانية*. (د. ط)، بيروت: دار الكتاب المصريّ، دار الكتاب اللبنانيّ.

البرجاويّ، عبد الرؤوف. (1981م). *فُصُوْل في علم الْجَمَال*. ط1. بيروت، لبنان: دار الآفاق الْعَرَبِيَّة.

ابن برد، بشار. (1386هـ-1966م). *ديوان بشار بن برد*. تقديم وشرح: مُحَمَّد الطَّاهر بن عاشور. (د. ط). القاهرة: مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر.

البستانيّ، بطرس. (1977م). *محيط المحيط*. ط1. بيروت: مكتبة لبنان.

البغداديّ، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزيّ القرشيّ. (د. ت). *زاد المسير في علم التفسير*. ط1. دمشق، بيروت: المكتب الإسلاميّ للطِّبَاعَةِ والنَّشر.

البقاعيّ، برهان الدين أبي الحسن إِبْرَاهِيْم بن عمر. (1995م). *نظم الدرر في تناسب الآيات والسُّور*. ط1. بيروت . لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

بهنسي، عفيفي. (د. ت). *فلسفة الفن عِنْدَ أبي حيان التوحيديّ*. (د. ط). دمشق، سوريا: دار الفكر.

الْبِيْطَار، عبد الرازق. (1993م). *حلية البشر في تاريخ القرن الثَّالِث عشر*. تحقيق: مُحَمَّد بهجة الْبِيْطَار. ط2. بيروت: دار صادر.

تأبَّط شراً. (1999م). *ديوان تأبَّط شراً وأخباره*، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكر. ط2. بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلاميّ.

التَّبريزيّ، أبو زكريا يحيى بن علي بن مُحَمَّد الشَّيبانيّ. (1414هـ- 1994م). *شرح ديوان أَبِي تَمَّام*. تحقيق: راجي الأسمر. ط2. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربيّ.

تليمة، عبد المنعم. (2013م). *مدخل إِلَى علم الْجَمَال الأَدَبيّ*. (د. ط). القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب.

التَّهانوي، مُحَمَّد علي. (1996م). *كشاف اصطلاحات الفُنُوْن والعُلُوْم*. تحقيق: رفيق العجم، وعلي دحروج. ط1. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان.

التَّوْحِيدِيّ، أبو حيان علي بن مُحَمَّد بن العباس. (1408هـ -1988م). *البصائر والذَّخائر*، تحقيق: وداد القاضي. ط1. بيروت، لبنان: دار صادر.

التَّوْحِيدِيّ، أبو حيان علي بن مُحَمَّد بن العباس. (د. ت). *الهوامل والشَّوامل*. تحقيق: سيد كسروني. (د. ط)، بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

التُّونجي، مُحَمَّد. (1413هـ-1993م). *المُعْجَم المفصل في الأَدَب*. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

جاب الله، أسامة عبد العزيز. (2009م). *جماليات التلوين الصوتي في الْقُرْآن الْكَرِيْم* .ط1. طنطا، مصر: دار ومكتبة الإسراء للطَّبع والنَّشر والتَّوزيع.

الْجَاحِظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1418هـ-1998م). *البيان والتبيين*، تحقيق: عبد السلام هارون. ط7. بيروت – لبنان: دار الجيل.

الْجَاحِظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1384هـ- 1965م). *الحيوان*. تحقيق: عبد السلام هارون. ط2. القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبيّ.

الجربي، مُحَمَّد رمضان. (1997م). *البَلَاْغَة التطبيقية دراسة تحليلية لعلم البيان*. ط1. الخمس، الجماهيريَّة العظمى: منشورات جامعة ناصر.

الْجُرْجَانِي، أبو بكر عَبْد الْقَاهِر بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد. (1412هـ- 1991م). *أسرار البَلَاْغَة*. ط1. قراءة وتعليق: محمود مُحَمَّد شاكر، جدة، المملكة العربية السعودية: دار المدني.

الْجُرْجَانِي، أبو بكر عَبْد الْقَاهِر بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد. (1375هـ). *دَلَائِل الإِعْجَاز*. قراءة وتعليق: محمود مُحَمَّد شاكر. (د. ط). القاهرة: مكتبة الخانجي للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

جرير، أبو حزرة جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي. (د. ت). *ديوان جرير*. شرح: إيليا أبو ماضي، (د. ط)، لبنان: دار الكتاب اللبنانيّ للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

الجزائريّ، عبد القادر. (1989م). *ديوان عبد القادر الجزائريّ*، جمع وتحقيق: العربي دحو. ط2. الجزائر: منشورات تاله.

الجزائري، مُحَمَّد بن مَيْمُون. (1981م). *التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية*. تحقيق: مُحَمَّد بن عبد الكريم. ط2. الجزائر: الدار الوطنية للنَّشرِ والتَّوزيع.

ابن جعفر، أبو الفرج قدامة. (د ط). *نقد الشعر* . ط1. بيروت: دار الفكر.

جمعة، حسين. (2002م). *جماليَّة الكلمة، دراسة جماليَّة بلاغية نقدية*.ط1. دمشق، سوريا: منشورات اتِّحاد كتاب العرب.

ابن جندل، سلامة بن جندل بن عبد عمرو، أبو مالك. (1987م). *ديوان سلامة بن جندل*. تحقيق فخر الدين قباوة. ط2. بيروت: دار الكُتُب العلميَّة.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن. (د. ت). *زاد المسير في علم التفسير*. (ط1). دمشق، بيروت: المكتب الإسلاميّ للطِّبَاعَةِ والنَّشر.

الجوهريّ، أبو نصر إسماعيل بن حماد. (1987م). *الصحاح – تاج الُّلغَة وصحاح الْعَرَبِيَّة*. تحقيق: أَحْمَد عبد الرؤوف عطار. ط4. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

جويو، جان ماري. (1948م). *مسائل فلسفة الفن المعاصرة*، ترجمة سامي الدُرُوْبي. ط1. القاهرة: دار الفكر العربيّ.

الجيَّار، مدحت سعيد. (1984م). *الصورة الشعرية عِنْدَ أبي القاسم الشابي*. (د. ط). الجماهيريَّة العظمى، تونس: الدار الْعَرَبِيَّة للكتاب، والمؤسسة الوطنيَّة للكتاب.

الحريريّ، أبو القاسم مُحَمَّد بن علي. (1873م). *مقامات الحريري*. (د. ط). بيروت، لبنان: مطبعة الْمَعَارِف.

الحريريّ، مُحَمَّد فتحي. (2011م، 5 يناير). *القطا في الحَدِيْث الشَّريف، وكلام العرب*. تاريخ الاطلاع: 2 يناير 2017م. الموقع: المعهد الإسلاميّ. www.islamicforumarab.com

حسن، أَحْمَد عبد الرحيم. (1986). *في أصول التَّاريخ العُثْمَانِيّ*. ط3. القاهرة: دار الشُّروق.

حسن، مُحَمَّد رشدي .(1974م). *أثر المَقَامَة في نشأة الْقِصَّة المصريَّة الحَدِيْث*. (د. ط). القاهرة: الهيئة المصريَّة العامة.

الحصريّ، إبْرَاهِيْم بن علي بن تميم .(2005م). *زهر الآداب وثمر الأَلْبَاب*. (د. ط). تحقيق: صلاح الدِّين الهواري، دمشق: دار الفكر.

الحطيئة، أبو مُليكة جرول بن أوس بن مالك العبسي. (1413هـ- 1993م). *ديوان الحطيئة*. تحقيق: مفيد مُحَمَّد قميحة. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلمية.

ابن حمادوش، عبد الرَّزاق .(1983م). *رحلة بن حمادوش الجزائريّ* . تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعدالله. (د. ط). الجزائر: المؤسسة الوطنيَّة للفنون المطبعيَّة، الجزائر.

الحمدانيّ، أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان. (1414هـ - 1994م). *ديوان أبي فراس الحمدانيّ*. ط2. شرح: خليل البويهي. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربيّ.

الحمصي، ديك الجن، أبو مُحَمَّد عبد السلام بن رغبان. (2004م). *ديوان ديك الجن الحمصي*. تحقيق: أَحْمَد مطلوب، وعبد الله الجبوري. ط1. بيروت، لبنان: دار الثَّقَافَة.

الحمويّ، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله ابن حجة. (1987م). *خزانة الأَدَب وغاية الأرب*، تحقيق: عصام شعيتو. (ط1). بيروت، لبنان: دار ومكتبة الهلال.

الحنفي، أبو الْبَقَاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي. (1998م). *الكلِّيَّات مُعْجَم في المُصْطَلَحات والفروق اللغوية*. تحقيق: عدنان درويش، وحمد المصري. ط2. بيروت، لبنان: مؤسسة الرِّسَالَة.

الخَفَاجِيّ، أَحْمَد بن مُحَمَّد بن عمر شِهَاب الدِّين. (1386هـ- 1967م). *رَيْحَانَة الْأَلِبَّا وَزَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا* . تحقيق: عبد الفتاح الحلو. ط1. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي.

الخَفَاجِيّ، أَحْمَد بن مُحَمَّد بن عمر شِهَاب الدِّين. (د. ت). *طراز المجالس*. (د. ط). (د. م): المطبعة الوهبية.

الخَفَاجِيّ، عبد الله بن مُحَمَّد بن سعيد بن سنان. (1402هـ-1982م). *سر الفَصَاْحَة*. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلمية.

خليفة، عبد الكريم. (1987م). *الأَلْوَان في مُعْجَم العربية*، مجمع اللُّغَة العربية الأردني، الأردن، العدد 33، 1ديسمبر 1987م. (مجلة).

خليل، محمود إبْرَاهِيْم. (2003م). *النَّقد الأَدَبيَّ الحَدِيْث من المحاكاة إِلَى التَّفكيك*. ط1. عمان، الأردن: دار المسيرة للنَّشرِ والتَّوزيع.

الْخَنْسَاء، تماضر بنت عمرو. (1425هـ- 2004م). *ديوان الْخَنْسَاء*. تحقيق: حمدو طمَّاس. ط2. بيروت– لبنان: دار المعرفة للطِّبَاعَةِ والنشر والتَّوزيع.

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي. (د. ت). *سنن ابي داود*، تحقيق: مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد. (د. ط)، صيدا، لبنان: الْمَكْتَبَة العَصْرية.

الدَّاية، فايز(1990م). *جَمَالِيَّات الْأُسْلُوب والصُّورَة الفنيَّة في الأَدَب العربيّ*. ط3. بيروت، دمشق: دار الفكر المعاصر.

الدُّوري، عياض عبد الرحمن. (د. ت). *دلالة اللَّوْن في الفن العربي*. (د. ط)، بغداد: دائرة الشؤون الثقافيّة.

أبو ديب، كمال. (1982م). *في الْبنْيَة الْإِيْقَاعية للشعر العربي*. ط2. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

الذُّبيانيّ، زياد بن معاوية بن ضباب النابغة. (د. ت). *ديوان النَّابغة الذبيانيّ*. تحقيق: شكري فاضل .(د. ط). دمشق: دار الفكر.

ابن رؤبة، العجاج. (1969م). *ديوان العجاج*. تحقيق: عبد الحفيظ السَّطليّ. ط1. دمشق: مكتبة أطلس.

ابن أبي ربيعة، عمر بن عبد الله. (1934). *ديوان عمر بن أبي ربيعة*. (د. ط). بيروت، لبنان: دار القلم للطِّبَاعَةِ والنَّشر.

ابن أبي ربيعة، عمر بن عبد الله. (1371هـ-1952م). *شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي*. محي الدين عبد الحميد. ط1. مصر: الْمَكْتَبَة التِّجاريَّة الكبرى.

الرِّكابي، جودت. (1970م). *الأَدَب العربي من الانحدار إِلَى الازدهار*. ط1. دمشق، سوريا: دار الفكر.

الرُّندي، أبو الْبَقَاء، صالح بن يزيد بن صالح (د. ت)، *ديوان أبو الْبَقَاء الرُّندي*. تحقيق: حياة قارة. ط1. الإسكندريَّة: مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشّعريَّة.

ابن الرُّوميّ، علي بن العباس.(1423هـ- 2002م). ، *ديوان ابن الرُّوميّ*، تحقيق: أَحْمَد حسن بسج. ط3. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

الزَّبيديّ، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الرزاق المرتضى. (1393هـ- 1973م). *تاج العروس من جواهر القاموس*، تحقيق: مُحَمَّد حجازي. (د. ط). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفُنُوْن والآداب.

الزَّركشيّ، بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله. (1988م). *البرهان في عُلُوْم القرآن*. تقديم وتعليق: مُحَمَّد عبد القادر عطا. ط1. بيروت، لبنان: دار الفكر للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

الزَّركليّ، خير الدين .(2002م). *الأعلام*. ط15. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

زكريا، إِبْرَاهِيْم. (2002م). *أبو حيان التوحيدي أديب الْفَلَاسِفَة وفيلسوف الْأُدَبَاء*. ط1. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنَّشر.

الزَّمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أَحْمَد، جار الله. (1429هـ -2008م). *ديوان جارالله الزمخشريّ*. شرح: فاطمة يوسف الخيمي. ط1. بيروت، لبنان: دار صادر.

ابن زهير، كعب. (1417هـ- 1997م)، *ديوان كعب بن زهير*. تحقيق وشرح وتقديم: علي فاعور. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

سالم، مُحَمَّد عزيز نظمي. (1996م). *قراءات في علم الْجَمَال حول الإستطيقا النظريَّة والتطبيقيَّة*. ط1. (د. م): مؤسسة شباب الجامعة.

ستولنيتز، جيروم. (2007م). *النقد الفني، دراسة جماليَّة وفلسفية*، ترجمة فؤاد زكريا. ط1. الإسكندريَّة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنَّشر.

السَّخاوي، شمس الدين مُحَمَّد بن عبد الرحمن. (1412هـ-1992م). *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*. (ط1). بيروت: دار الجيل.

السَّد، نور الدين. (1997). *الْأُسْلُوبيّة وتحليل الخطاب*. ط1. الجزائر: دار هومة.

سركيس، يوسف. (1346هـ ـ 1928م). *مُعْجَم المطبوعات الْعَرَبِيَّة والمعرَّبة*. (د. ط) . (د. م).

سعد الله، أبو القاسم.(1978م). *أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر*. (د. ط). الجزائر: الشَّركة الوطنيَّة للنَّشرِ والتَّوزيع.

سعد الله، أبو القاسم. (د. ت). *تجارب في الأَدَب والرِّحْلَة*. (د. ط). الجزائر: المؤسسة الوطنيَّة للكتاب.

السَّعدني، مصطفى. (1987م). *البنيات الْأُسْلُوبيّة في لغة الشِّعر العربيّ الحَدِيْث*. ط1. الإسكندريَّة: منشأة دار الْمَعَارِف.

السَّكاكيّ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر. (1987م). *مفتاح العُلُوم*، ضبط وتعليق: نعيم زرزور. ط2. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلمية.

سلام، مُحَمَّد زغلول. (د. ت). *الأَدَب في العَصْر المملوكي*. (د. ط). الإسكندريَّة: منشأة الْمَعَارِف.

ابن أبي سلمى، ربيعة بن رياح بن قرط بن الحارث بن مازن. (1988م). *ديوان زهير*. ط1. شرح: علي فاعور، بيروت: دار الكُتُب العلمية.

سليم، محمود رزق. (1957م). *الأَدَب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعُثْمَانِيّين والحَدِيْث*. (د. ط). مصر: مطابع دار الكتاب العربيّ.

سليم، محمود رزق .(1962م). *عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأَدَبي*. (ط2). (د. م): مطبعة الجماميز.

السَّهروردِيّ، أبو الفتوح يحيى بن حبش الحكيم. شِهَاب الدِّين. (2005م). *ديوان السَّهروردِيّ*. تحقيق: عبدالرحمن بدوي. ط1. (د. م): دار ومكتبة بيبليون.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قمبر.(1408هـ –1988م). الكتاب. ط3. تحقيق: عبد السَّلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي.

السِّيرافي، يوسف بن أبي سعيد الحسن عبد الله بن المرزبان.(1394هـ– 1974م). *شرح أبيات سيبويه*. تحقيق: مُحَمَّد علي هاشم الريح، جمع: طه عبد الرؤوف سعد. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الفكر للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

السُّيوطيّ، عبد الرحمن بن الْكَمَال أبي بكر بن مُحَمَّد سابق الدين. (د. ت). *الإتقان في عُلُوم القرآن*. تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إِبْرَاهِيْم (د. ط). القاهرة: مكتبة دار التُّرَاث.

السُّيوطيّ، عبد الرحمن بن الْكَمَال أبي بكر بن مُحَمَّد سابق الدين. (1409هـ– 1981م). *شرح مقامات السيوطي*، تحقيق: سمير محمود الدُرُوْبي. ط1. بيروت، لبنان: مؤسسة الرِّسَالَة للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

الشَّافعيّ، مُحَمَّد بن إدريس، *ديوان الإمام الشَّافعيّ* (1428هـ–2007م). تقديم وتعليق: إسماعيل العقباويّ. ط1. القاهرة: شركة القدس للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

الشِّدْيَاق، ابن يوسف أَحْمَد فَارِس.(1993م). *السَّاق عَلَى السَّاق فيما هو الفارياق*. (د. ط). الجزائر: المؤسسة الوطنيَّة للفنون المطبعيَّة والنَّشر.

شرتح، عصام. (2005م). *ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل*. ط1. دمشق، سوريا: منشورات اتحاد الكتَّاب العرب.

الشَّريشيّ، أبو العباس أَحْمَد بن عبد المؤمن القيسي. (1413هـ-1992م). *شرح مقامات الحريريّ*. تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إِبْرَاهِيْم. (د. ط). صيدا، بيروت: الْمَكْتَبَة العَصْريَّة.

شريف، مُحَمَّد أفندي. (1306هـ). *المَقَامَة الشريفية في مزايا اللُّغَة العربية*. ط1. مصر المحميَّة: المطبعة الخيريَّة.

ابن أبي شيبة. (1409هـ). *المصنف في الحَدِيْث والآثار*، تحقيق: كمال الحوت. ط1. الرِّياض: مكتبة الرَّشيد.

شيخة، مُحَمَّد الأمين. (2008-2009م). *التَّشْكِيل الْأُسْلُوبيّ في الشِّعر المهجريّ الحَدِيْث*. "أطروحة دكتوراه في الأَدَب العربيِّ الحَدِيْث، قسم الأَدَب العربي، جامعة مُحَمَّد خيضر، بسكرة . (أطروحة دكتوراه).

شيخو، لويس. (1991م). *تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين*. ط3. بيروت، لبنان: منشورات دار المشرق.

الصَّابونيّ، مُحَمَّد علي. (2004م). *صفوة التفاسير*. ط1. بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي للطِّبَاعَةِ والنشر والتَّوزيع.

الصَّغير، مُحَمَّد حسين علي الصغير. (1992م). *الصورة الفنية في المثل القرآني*. ط1. بيروت، لبنان: دار الرَّشيد للطِّبَاعَةِ للنَّشرِ والتوزيع.

الصَّفَّار، ابتسام مرهون.(1431هـ-2010م). *جمالية التَّشْكِيل اللَّوْنيّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم*: ط1، إربد، الأردن: عالم الكُتُب الحَدِيْث.

الصَّفاقسيّ، علي الغراب الطرابلسيّ، *ديوان علي الغراب الصفاقسيّ، شعره ونثره*. (1973م). تحقيق: مُحَمَّد الهادي الطَّاهر المطويّ. ط1. تونس: الدار التُّونسيَّة للنَّشرِ.

الصَّفديّ، صلاح الدين أبو الصَّفاء خليل بن أيبك بن عبد الله. (1922م). *لوعة الشاكي ودمعة الباكي*. ضبط وشرح وتصحيح: مُحَمَّد أبو الفضل هارون. (د. ط). مصر: المطبعة الرحمانيَّة.

صيني، محمود إسماعيل. (1992م). *مُعْجَم الْأَمْثَال الْعَرَبِيَّة*. ط1. لبنان: مكتبة لبنان.

الضَّبي، المفضَّل بن مُحَمَّد بن يعَلَى بن سالم. (1371هـ- 1952م). *المفضلِيَّات*. تحقيق أَحْمَد مُحَمَّد شاكر، عبد السلام هارون. ط2. مصر: دار الْمَعَارِف.

ضيف، شوقي. (د ت). *تاريخ الأَدَب العربي- العَصْر الجاهلي*. ط11. القاهرة: دار الْمَعَارِف.

ضيف، شوقي. (1976م). المَقَامَة. ط4. مصر: دار الْمَعَارِف.

الطَّاهر، علي جواد. (1979م). *مقدمة في النقد الأَدَبي*. ط1. بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنَّشر.

الطَّبري، مُحَمَّد بن جرير بن يزيد بن كَثِيْر بن غالب. (1420هـ- 2000م). *جامع البيان في تفسير القرآن*. ط1. بيروت: دار الجيل.

الطَّرمَّاح، ابن عدي بن حاتم. (1414هـ- 1994م). *ديوان الطِّرماح*. تحقيق: عزة حسن. ط3. لبنان، سوريا: دار الشُّروق العربيّ.

الطَّويل، خالد. (2014م، 4 يونيو). *إيقاعات مَسْجُوْعة لدى أصحاب المزارع في المدينة*. تاريخ الاطلاع: 13 أبريل 2017م، الموقع: صحيفة مكة المكرمة.makkahnewspaper.com .

الطَّيَّان، مُحَمَّد حسان.(1421هـ- 2000م). المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات. ط1. بيروت، لبنان: دار البشائر الإسلاميَّة للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

ابن عاشور، مُحَمَّد الطَّاهر. (1984م). *تفسير التَّحرير والتَّنوير*. ط1. تونس: الدَّار التُّونسيَّة للنَّشرِ.

العامريّ، ابن عقيل لبيد بن ربيعة. (د. ت). *ديوان لبيد*. تحقيق: إحسان عباس. (د. ط). الكويت: التُّرَاث العربيّ الكويتيّ.

عباس، حسن. (2000م). *حروف الْمَعَانِي بين الأصالة والتجديد*. (د. ط). دمشق، سوريا: اتحاد الكتاب العرب.

عباس، فضل حسن. (1987م). *البَلَاْغَة فنونها وأفنانها – علم البيان والبَدِيْع*. ط1. عمان، الأردن: دار الفرقان للنَّشرِ والتَّوزيع.

ابن العبد، طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد أبو عمرو. (1423هـ-2002م). *ديوان طرفة بن العبد*. شرح وتقديم: مهدي مُحَمَّد ناصر الدين. ط3. بيروت، لبنان: دار الْمَكْتَبَة العلمية.

عبد الباقي، مُحَمَّد فؤاد. (1423– 2002م). *المُعْجَم المفهرس لألفاظ الْقُرْآن الْكَرِيْم*. ط1. بيروت، لبنان: دار المعرفة للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

عبد التَّواب، صلاح الدين. (1995م). *الصُّورَة الأَدَبيَّة في الْقُرْآن الْكَرِيْم*. ط1. القاهرة: الشَّركة المصريَّة العالمية للنَّشرِ– لونجمان.

عبد الحميد، مُحَمَّد محي الدين. (1400هـ– 1980م). *شرح ابن عقيل*. ط20. القاهرة: مكتبة دار التُّرَاث.

ابن عبد ربه، أَحْمَد بن مُحَمَّد. (1404هـ–1983م). *العقد الفريد*. تحقيق: عبد المجيد التَّرحيني. (ط1). بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

ابن عبد ربه، أَحْمَد بن مُحَمَّد. (د. ت). *العقد الفريد*. تحقيق: مفيد مُحَمَّد قميحة. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

عبد الرحمن، إِبْرَاهِيْم. (1995م). *الشِّعر الجاهليّ– قَضَاْيَاه الفنيَّة والْمَوضُوْعيَّة. (د. ط)*. المنيرة، القاهرة: مكتبة الشَّباب.

عبد الرحمن، إِبْرَاهِيْم. (1995م). *النَّقد الأَدَبي، قَضَاْيَاه الفنيَّة والْمَوضُوْعيَّة*. (د. ط). المنيرة، القاهرة: مكتبة الشَّباب.

عبد الكريم، بليل. (2014م، 1إبريل). *مَعَانِي الأشهر الهجريَّـة*، تـــاريخ الاطلاع: 11 إبريل 2017م، الموقع: صيد الفوائد www.saaid.net/mktarat/mohram/55.htm.

عبد الله، مُحَمَّد حسن. (1975م). *مقدمة في النَّقد الأَدَبيّ*. (د. ط). الكويت: دار البحوث العلمية.

عبد المطلب، مُحَمَّد. (2009م). *البَلاْغَة والأُسْلُوبيّة*. ط3. مصر: الشَّركة المصريَّة العالميَّة للنَّشرِ، لونجمان.

عبد المطلب، مُحَمَّد. (2007م). *البَلاْغَة العربية قراءة أُخْرَى*. ط2. القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنَّشرِ– لونجمان.

عبد المطلب، مُحَمَّد. (1997م). *هَكَذَا تكلَّم النص– اسْتِنْطَاق الخطاب الشِّعري لرفعت سلام*. (د. ط). القاهرة: الهيئة المصريَّة العامة للكتاب.

أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد كيسان العَيْني، أبو إسحاق. (1406هـ- 1986م). *ديوان أبي العتاهية*. تحقيق: دار بيروت للطِّبَاعَةِ والنشر. (د. ط). بيروت: دار بيروت للطِّبَاعَةِ والنشر.

عتيق، عبد العزيز. (1970م). في البَلَاْغَة العربية علم البيان، عبد العزيز عتيق. (د. ط). بيروت ، لبنان: دار النَّهضة الْعَرَبِيَّة للطِّبَاعَةِ والنَّشر.

العسكريّ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحي بن مهران. (1408هـ-1988م). *جمهرة الْأَمْثَال*، تحقيق: أَحْمَد عبد السلام. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

العسكريّ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحي بن مهران. (1981م). *الصِّناعتين الكتابة والشِّعر*، تحقيق: مفيد قميحة. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلمية.

العشماوي، مُحَمَّد زكي. (1998م). *فلسفة الْجَمَال في الفكر المعاصر*. (د. ط). القاهرة: دار النهضة العربية للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

عصفور، جابر أَحْمَد. (1992م). *الصُّورَة الفنية في التُّرَاث النقديّ والبلاغيّ عِنْدَ العرب*. ط3. بيروت، لبنان: المركز الثَّقافيّ العربيّ.

عصفور، جابر أَحْمَد. (1977م). *مفهوم الشِّعر، دراسة في التُّرَاث النَّقديّ*. (د. ط). القاهرة: دار الثَّقَافَة للنَّشرِ والتَّوزيع.

العظم، رفيق. (د. ت). *موسوعة مصطلحات الإمام الغزاليّ*. (د. ط). بيروت، لبنان: مكتبة لبنان.

العف، عبد الخالق. (2000م)، *التَّشْكِيل الْجَمَاليّ في الشِّعر الفلسطينيّ المعاصر*. ط2. فلسطين: مطبوعات وزارة الثَّقَافَة.

علوان، مُحَمَّد، ونعمان. (1998م). *من بلاغة الْقُرْآن الْكَرِيْم*. ط1. القاهرة: الدار العربية للنَّشرِ والتوزيع.

العلويّ، مُحَمَّد بن أَحْمَد بن طباطبا. (د. ت). *عيار الشِّعر*. تحقيق: مُحَمَّد زغلول سلام. ط3. الإسكندرية: منشأة الْمَعَارِف.

العلويّ، يحيى بن حمزة. (1415هـ- 1995م). *الطِّراز المتضمن لأسرار البَلَاْغَة وعُلُوْم حقائق الإعجاز*. ضبط وتدقيق: مُحَمَّد عبد الستار شاهين. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

أبو علي، نبيل خالد. (2008م). *الأَدَب العربيّ بين عصرين المملوكيّ والعُثْمَانِيّ*. ط1. غزة الشَّاطئ: دار المقداد للطِّبَاعَةِ.

أبو علي، نبيل خالد. (د. ت). *نقد النثر في تراث العرب النقديّ حتى نهاية العَصْر العباسيّ 656هـ*. (د. ط). القاهرة: الهيئة المصريَّة العامة للكتاب.

عمر، أَحْمَد مختار.(1401هـ-1990م). *علم الدَّلَالَة*. ط1. (د. م): مكتبة دار العروبة للنَّشرِ والتَّوزيع.

عمر، أَحْمَد مختار. (1977م). *اللُّغَة واللَّوْن*. ط2. القاهرة: دار الثَّقَافَة للنَّشرِ والتَّوزيع.

عوض، إِبْرَاهِيْم. (1426هـ- 2005م). *المرايا المشوهة، دراسة حول الشعر العربي في ضوء الاتجاهات النقديَّة الحَدِيْثَة*. ط1. الدوحة، قطر: مكتبة الثَّقَافَة.

عوض، لويس. (1969م). *تاريخ الفكر المصري الحَدِيْث من الحملة الفرنسية إِلَى عهد إسماعيل*. ط3. القاهرة: دار الهلال.

عوض، يوسف نور. (1979م). *فن المَقَامَات بين المشرق والمغرب*. ط1. بيروت، لبنان: دار القلم.

عياشي، منذر. (1990م). *مقالات في الْأُسْلُوبيّة، دراسة*. ط1. دمشق: منشورات اتِّحاد الكتاب العرب.

الغزاليّ، أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد. (1426هـ-2004م). *إحياء عُلُوْم الدين*. ط1. بيروت، لبنان: دار ابن حزم للطِّبَاعَةِ والنشر والتوزيع.

الغزيّ، نجم الدين مُحَمَّد بن مُحَمَّد. (1997م). *الكواكب السَّائرة بأعيان المائة العاشرة*. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

الفارابيّ، أبو نصر مُحَمَّد بن مُحَمَّد. (1959م). *آراء أهل المدينة الفاضلة*. تحقيق: ألبير نادر. (د. ط). بيروت، لبنان: المطبعة الكاثوليكيَّة.

ابن فارس، أبو الحسين بن زكريا.(1406هـ -1986م). *مجمل اللُّغَة*. دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان. ط2. بيروت، لبنان: مؤسسة الرِّسَالَة للطِّبَاعَةِ والنشر والتَّوزيع.

فارس، سليم. (1916م). *كنز الرغائب في منتخبات الجوائب*. ط1. الآستانة: مطبعة الجَوَانِب.

فتح الله، عبد اللطيف. (1404هـ- 1984م). *ديوان عبد اللطيف فتح الله*. تحقيق: زهير فتح الله . ط1. بيروت: دار فرانتس شتاينر للنَّشرِ.

الفراهيديّ، الخليل بن أَحْمَد. (1424هـ-2003م). *مُعْجَم العَيْن*. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

فرج الله، إدريس. (د .ت). *التَّشْكِيل اللَّوْنيّ للطِّبَاعَةِ*. (د. ط). الإسكندريّة: المكتب الجامعيّ الحَدِيْث.

الْفَرَزْدَق، همام بن غالب بن صعصعة الدَّارميّ التَّميميّ. (1407هـ، 1987م). *ديوان الْفَرَزْدَق*: تحقيق: علي فاعور. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميّة.

فضل، صلاح. (2003م). *نظرية البنائية في النقد الأَدَبي. ط2*. القاهرة، مصر: مكتبة الأسرة.

فكري، عبد الله. (1315هـ- 1897م). *الآثار الفكرية*. جمع وتحقيق: أمين فكري. ط1. القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق.

قاسم، عدنان. (2000م). *التَّصْوِيْر الشِّعري، رؤية نقديَّة لبلاغتنا الْعَرَبِيَّة*. ط1. مدينة نصر، مصر: الدار الْعَرَبِيَّة للنَّشرِ والتَّوزيع.

القرطاجنيّ، أبو الحسن حازم بن مُحَمَّد بن حازم. (2008م). *منهاج البُلَغَاْء وسراج الْأُدَبَاء*. تحقيق: مُحَمَّد الحبيب بن الخوجة.(د. ط). تونس: الدَّار الْعَرَبِيَّة للكتاب.

القَزْوِيْنِيّ، أبو عبد الله زكريا بن مُحَمَّد بن محمود الخطيب. (1395هـ- 1975م). *الإيضاح في عُلُوْم البَلَاْغَة*. ط4. بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.

القط، عبد القادر. (1987م). *الاتِّجاه الوجدانيّ في الشِّعر العربيّ المعاصر*. ط2. بيروت، لبنان: دار النَّهضة.

قطب، سيِّد. (2002). *التَّصْوِيْر الفنيّ في القرآن*. ط16. القاهرة: دار الشُّروق.

قطب، سيِّد. (1981م). *في ظلال القرآن*. ط10. القاهرة، بيروت: دار الشُّروق.

قطب، سيِّد. (د. ت). *النَّقد الأَدَبيّ- أصوله ومناهجه*.(د. ط). بيروت، لبنان: دار الشُّروق.

ابن قلاقس. (1323هـ-1905م). *ديوان ابن قلاقس*، مراجعة وضبط: خليل مطران. (د. ط). مصر: مطبعة الجوائب.

الْقَلَقْشَنْدِيّ، أبو العباس شِهَاب الدِّين أَحْمَد بن علي بن أَحْمَد. (د. ت). *صَبْحُ الْأَعْشَى فِيْ صِنَاعَةِ الْإِنْشَا*. تحقيق: مُحَمَّد شمس الدين. (د. ط). بيروت: دار الكُتُب العلميَّة.

قوقزة، نوَّاف. (2000م). *نظرية التَّشْكِيل الاستعاريّ في البَلَاْغَة والنقد*. ط1. عمان، الأردن: وزارة الثَّقَافَة الأردنيَّة.

القيروانيّ، أبو الحسن بن رشيق.(1972م). *العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده*. ط4. بيروت، لبنان: دار الجيل للنَّشرِ والتوزيع والطِّباعة.

القيس، امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندي. (1425هـ- 2004م). *ديوان امرئ القيس*. ضبط وتصحيح: مصطفى عبد الشَّافي. ط5. بيروت ، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

ابن كَثِيْر، أبو الفداء الحافظ الدِّمشقيّ. (1409هـ- 1989م). *البداية والنهاية*. ط6. بيروت: دار الْمَعَارِف.

كَثِيْر عزَّة، كَثِيْر بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر بن عويمر الخزاعي. (1393هـ، 1971م). *ديوان كَثِيْر عزة*: ، تحقيق: إحسان عباس. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الثَّقَافَة.

كحالة، عمر رضا. (1414هـ- 1993م). *مُعْجَم المؤلفين*. (د. ط). بيروت: مؤسسة الرِّسَالَة للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

الكوَّاز، مُحَمَّد كريم. (2005م). *علم الْأُسْلُوب- مفاهيم وتطبيقات*. ط1. الزاوية، الجماهيريَّة العظمى: منشورات جامعة السَّابع من إبريل.

كوهن، جان. (1986م). *بنية اللُّغَة الشعرية*. ترجمة: مُحَمَّد الولي ومُحَمَّد العمري. (د. ط). الدَّار البيضاء: دار توبقال للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

الماورديّ، علي بن مُحَمَّد بن حبيب. (د. ت). *أدب الدُّنيا والدِّين*. (د ط). بيروت، لبنان: دار الفكر.

مبارك، زكي. (1934م). *النَّثر الفني في القرن الرَّابع*. ط1. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصريَّة.

الْمُتَنَبِّي، أبو الطَّيب أَحْمَد بن حسين الجعفيّ. (1403هـ -1983م). *ديوان الْمُتَنَبِّي*. (د. ط). بيروت، لبنان: دار بيروت للطِّبَاعَةِ والنَّشر.

ابن المثنى، أبو عبيدة معمر. (1358هـ). *كتاب الخيل*. ط1. حيدر أباد، الهند: دار الْمَعَارِف الإسلاميَّة.

المحبيّ، مُحَمَّد أمين بن فضل الله بن محب الدين. (د. ت). *خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر*. (د. ط). (د. م). (د. ن).

المحبيّ، مُحَمَّد أمين بن فضل الله بن محب الدين. (1968م). *نفحة الريحانة ورشحة طُلاء الحانة*. تحقيق: عبد الفتاح الحلو. ط1. بيروت: دار إحياء الكُتُب الْعَرَبِيَّة.

المدنيّ، أَحْمَد توفيق. (1974م). *مذكرات أَحْمَد الحاج الشريف الزهار*. (د. ط). الجزائر: الشَّركة الوطنيَّة للنَّشرِ والتَّوزيع.

المراديّ، أبو الفضل مُحَمَّد خليل بن علي .(1988م). *سلك الدرر في أعيان القرن الثَّانِي عشر*. ط3. الكويت: دار البشائر الإسلامية.

مُرتاض، عبد الملك. (1408هـ- 1988م). *فن المَقَامَات في الأَدَب العربيّ*. ط2. الجزائر: الشَّركة الوطنيَّة للنَّشرِ والتَّوزيع.

مرتاض، عبد الملك. (1998م). *في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفُنُوْن والآداب.

المصريّ، عبد الْعَظِيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الأصبع العدواني، البغدادي. (د. ت). *بديع القرآن*. (د. ط). تحقيق: حفني شرف. القاهرة: دار نهضة مصر للطَّبع والنَّشر.

المصريّ، عبد الْعَظِيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدوانيّ، البغداديّ. (د. ت). *تحرير التَّحبير في صناعة الشِّعر والنَّثر وإعجاز الْقُرْآن الْكَرِيْم*. تحقيق: حفني مُحَمَّد شرف. (د. ط). الجمهوريَّة الْعَرَبِيَّة المتحدة: المجلس الأعَلَى للشؤون الإسلاميَّة.

المصريّ، مُحَمَّد بن أَحْمَد بن إياس الحنفي.(1960م). *بدائع الزُّهور في وقائع الدُّهور*. (د. ط). .(د. م). مطابع الشَّعب.

مصطفى، إبْرَاهِيْم و الزيات، أَحْمَد حسن، وآخَرُوْن.(1392هـ -1972م). *المُعْجَم الوسيط- مجمع اللُّغَة العربية. ط2*. إستانبول- تركيا: الْمَكْتَبَة الإسلاميَّة للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

مصلوح، سعد. (1996م). *في النص الأَدَبي، دراسة أسلوبيَّة إحصائيَّة*. ط1. (د. م): عين للدِّراسات والبحوث الْإِنْسَانِيَّة والاجتماعيَّة.

مطر، أميرة حلمي. (1988م). *فلسفة الْجَمَال، أعلامها ومذاهبها*.(د ط). القاهرة: دار قباء للطِّبَاعَةِ والنشر والتوزيع.

مطلوب، أَحْمَد. (2000م). *مُعْجَم المُصْطَلَحات البَلاغيَّة وتطورها*. ط2. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان، ناشرون.

المطويّ، مُحَمَّد الهادي. (1989م). *أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق، حياته وآثاره وآراؤه في النَّهضة الْعَرَبِيَّة الحَدِيْثَة*. ط1. بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلاميّ.

ابن معصوم، علي صدر الدِّين بن أَحْمَد نظام الدَّين بن مُحَمَّد. (1969م)، *أنوار الرَّبيع في أنواع البَدِيْع*، تحقيق: شاكر هادي شكر. ط1. النَّجف: مطبعة النُّعمان.

ابن معمر، جميل بن عبد الله. (1402هـ-1982م). *ديوان جميل بثينة*. (د ط). بيروت، لبنان: دار بيروت للطِّبَاعَةِ والنشر.

المقالح، عبد العزيز. (1984م). *الشِّعر بين الرؤية والتَّشْكِيل* . ط1. بيروت، لبنان: دار العودة.

ابن المقفع، أبو مُحَمَّد عبدالله. (1409هـ- 1989م). *الأَدَب الكبير ضمن آثار ابن المقفع*. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

الملك، ابن سناء. (1388هـ- 1969م). *ديوان ابن سناء الملك*. تحقيق: مُحَمَّد إِبْرَاهِيْم نصر، وحسين مُحَمَّد نصَّار. ط2. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربيّ.

ابن مَنْظُوْر، أبو الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم. (2000م). *لِسَان الْعَرَب*. ط1. بيروت، لبنان: دار صادر للطِّبَاعَةِ والنَّشر.

أبو موسى، مُحَمَّد. (1398هـ- 1978م). *التَّصْوِيْر البيانيّ – دراسة تحليليَّة لمسائل البيان*. ط1. ليبيا: منشورات جامعة قار يونس.

موسوعة المُصْطَلَح النَّقديّ. (1983م). ترجمة عبد الواحد لؤلؤة. ط2. بيروت، لبنان: المؤسسة الْعَرَبِيَّة للدِّراسات والنَّشر.

الْمُوِيلْحِيّ، مُحَمَّد إِبْرَاهِيْم. (2012م). *حديث عيسى بن هشام*. ط4. القاهرة: مؤسسة هنداوي للعُلُوْم والثَّقَافَة.

الميدانيّ، أَحْمَد بن مُحَمَّد أبو الفضل. (1376هـ- 1955م). مجمع *الْأَمْثَال*، تحقيق: مُحَمَّد محي الدِّين عبد الحميد. (د. ط). بيروت: دار المعرفة.

الميدانيّ، عبد الرحمن حسن حبنكة. (1996م). *البَلَاْغَة الْعَرَبِيَّة أسسها وعُلُوْمها وفنونها*. ط1. دمشق: دار القلم للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

نجم، مُحَمَّد يوسف. (1966م). *الْقِصَّة في الأَدَب العربيِّ الحَدِيْث (1870- 1914م)*. ط3. بيروت، لبنان: دار الثَّقَافَة.

النّسائيّ، أبو عبد الرحمن أَحْمَد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار. *المجتبى من السُّنن*. (1406هـ-1986م). تحقيق: عبد الفتاح غدة. (ط2). حلب، سوريا: مكتبة المطبوعات الإسلاميَّة.

ابن النَّقيب، عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن كمال الدِّين مُحَمَّد. (1956م). *ديوان ابن النَّقيب*. تحقيق عبدالله الجبوري. (د. ط). دمشق: مجلة المجمع العلميّ العربيّ.

أبو نواس، الحسن بن هانئ. (1990م). *ديوان أبي نواس*. تحقيق: أَحْمَد عبد المجيد الغزالي. ط1. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

النَّيسابوريّ، مسلم بن الحجاج القشيريّ. (1412هـ -1992م). *صحيح مسلم*. تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

الهاشميّ، السيد أَحْمَد. (1999م). *جواهر البَلَاْغَة في الْمَعَانِي والبيان والبَدِيْع* .ط1. بيروت، لبنان: الْمَكْتَبَة العَصْرية.

الهذليّ، أبو ذؤيب، وآخَرُوْن. (1385هـ-1965م). *ديوان الهذليين*: الشُّعَرَاء الهذليين، تحقيق: أَحْمَد الزين، ومحمود أبو الوفا. (د. ط). القاهرة: دار الكُتُب المصريَّة للطِّبَاعَةِ والنَّشر.

الوُرْغِيّ، مُحَمَّد بن أَحْمَد. (د. ت). *مقامات الوُرْغِيّ ورسائله*، تحقيق: عبد العزيز الفيزانيّ. (د. ط). تونس: الدَّار التُّونسيَّة للنَّشرِ.

ابن وهب الْأَدِيْب، أبو الحسن اسحق بن إِبْرَاهِيْم بن سليمان. (1980م). *البرهان في وجوه البيان*. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.

اليَازْجِيّ، نَاصِيْف. (1880م). *مَجْمَع البَحْرَيْن*. (د. ط) . بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين.

ياسوف، أَحْمَد. (1419هـ-1999م). *جماليّة المفردة القرآنيَّة*. ط2. دمشق، سورية: دار المكتبي للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

ياسين، وسن عبد المنعم. (1432هـ-2011م). *خَصَائِص الْأُسْلُوب في شعر البحتريّ*. (د. ط). دمشق: منشورات المجمع العلميّ.

يحياوي، رشيد.(1998م). *الشِّعر العربيّ الحَدِيْث، دراسة في المنجز النَّصي*. ط1. بيروت، لبنان: أفريقيا الشرق.

يقطين، سعد. (2006م). *الرواية والتُّرَاث السَّرديّ – من أجل وعي جديد بالتُّرَاث*. ط1. القاهرة: رؤية للنَّشرِ والتَّوزيع.

يموت، غازي يموت. (1990م). *الفن الأَدَبيّ أجناسه وأنواعه*. ط1. بيروت: دار الحداثة للطِّبَاعَةِ والنَّشر والتَّوزيع.

اليوسف، يوسف. (1983م). *مقالات في الشِّعر الجاهليّ* . ط1. (د. م): دار الحقائق.

اليوسفي، مُحَمَّد لطفي. (د. ت). *في بنية الشِّعر العربيّ المعاصر*. (د. ط). تونس: الدَّار التُّونسيَّة للنَّشرِ.

اليوسي، الحسن (1401هـ – 1981م)، *زهر الأكم في الْأَمْثَال والحكم* ، تحقيق: مُحَمَّد حجي، مُحَمَّد الْأَخْضَر. ط1. المغرب: دار الثَّقَافَة.

يونس، عيد سعد. (2006م)، التَّصْوِيْر الْجَمَاليّ في الْقُرْآن الْكَرِيْم. ط6. إربد، الأردن: عالم الكُتُب.

الْفَهَارِسُ الْعَامَةُ

أَوَّلاً: فَهْرَسُ آيَـاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيْـمِ

ثَانِيَاً: فَهْرَسُ الْأَحَـادِيْثِ الشَّـرِيْفَةِ

ثَالِثَاً: فَهْـــرَسُ الْقَـــــــوَافِي

أَوَّلاً: فَهْرَسُ آيـــــاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ

السورة	الآيـــــــــــــــة	رقم الآية	الصفحة
البقرة	﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ ﴾	125	43
البقرة	﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾	265	130،184
البقرة	﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾	187	248
آل عمران	﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾	190	264
المائدة	﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾	114	205
الأنعام	﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾	13	110
الأعراف	﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ ﴾	26	175
التوبة	﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ ﴾	71	292
التوبة	﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ ﴾	109	184
هود	﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾	8	205
هود	﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾	42	272
هود	﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾	43	272
هود	﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ ﴾	73	299
هود	﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾	78	303
يوسف	﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ ﴾	18	31
يوسف	﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا ۚ ﴾	19	205

السورة	الآيـــــــــــــة	رقم الآية	الصفحة
يوسف	﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾	30	182
يوسف	﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا ﴾	88	183
النحل	﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾	6	31
النحل	﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾	92	270
النحل	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾	90	296
الإسراء	﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾	84	33، 182
الإسراء	﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا ﴾	24	148
الإسراء	﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ﴾	89	195
الكهف	﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ﴾	60	90
الكهف	﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾	46	206
الكهف	﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾	104	209
الكهف	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ ﴾	30	257
الكهف	﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ ﴾	31	257
مريم	﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾	3	305
مريم	﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾	23	311
طه	﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾	66	183
طه	﴿ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾	94	217

السورة	الآيـــــــــــــة	رقم الآية	الصفحة
الْأَنْبِيَاء	﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ ﴾	87	98
الْأَنْبِيَاء	﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾	4	168
الْأَنْبِيَاء	﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ ﴾	96	184
الحج	﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ ﴾	45	202
النور	﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ ﴾	60	94
الفرقان	﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾	61	70
القصص	﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ ﴾	13	180،164
القصص	﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ ﴾	73	177
القصص	﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾	23	179
القصص	﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ ﴾	7	180
القصص	﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ ﴾	10	180
العنكبوت	﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ۖ ﴾	41	185
الروم	﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ ﴾	55	206 ،200
الروم	﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾	43	213
لقمان	﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ ﴾	7	181
لقمان	﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ﴾	18	307
الأحزاب	﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ ﴾	13	43

السورة	الآيـــــــــــــة	رقم الآية	الصفحة
الأحزاب	﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ ﴾	19	183
فاطر	﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا ﴾	35	43
الصافات	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾	72	212
الصافات	﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾	73	212
الصافات	﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾	117	231
الصافات	﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾	118	231
الزمر	﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ﴾	53	298
الدخان	﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾	51	43
الدخان	﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾	24	181
ق	﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾	5	181
ق	﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾	16	182
الطور	﴿ وَٱلطُّورِ ﴾	1	234
الطور	﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾	2	234
النجم	﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾	2	182
النجم	﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾	3	182
الرحمن	﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾	58	259
الْوَاقِعة	﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾	28	235

السورة	الآيـــــــــــــة	رقم الآية	الصفحة
الْوَاقِعة	﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾	29	235
الْوَاقِعة	﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾	22	250
الْوَاقِعة	﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾	23	250
الْوَاقِعة	﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾	89	250
الحديد	﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ﴾	16	183
الحشر	﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ﴾	5	245
الجمعة	﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ ﴾	5	202
الطلاق	﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾	7	182
الملك	﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾	8	128
المعارج	﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾	5	30
المعارج	﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾	5	31
نوح	﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾	13	225
نوح	﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾	14	225
المدثر	﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾	35	182
القيامة	﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴾	26	180
القيامة	﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾	22	182، 210
القيامة	﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾	29	207

السورة	الآيـــــــــــــة	رقم الآية	الصفحة
القيامة	﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾	30	207
النبأ	﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾	10	230
النبأ	﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾	11	230
الانفطار	﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾	13	226
الانفطار	﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾	14	226
الطارق	﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾	13	204
الأعَلَى	﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾	2	181
الأعَلَى	﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾	3	181
الغاشية	﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾	13	230
الغاشية	﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾	14	230
الغاشية	﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾	15	230
الغاشية	﴿ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾	16	230
الضحى	﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾	6	177
الضحى	﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾	7	177
الضحى	﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾	8	177
الضحى	﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾	9	177
الضحى	﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾	10	177

السورة	الآيـــــــــــــــة	رقم الآية	الصفحة
الضحى	﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾	11	177
الضحى	﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾	3	205
الهمزة	﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾	1	208، 216

ثَانِياً: فَهْرَسُ الْأَحَادِيثِ النَّبويَّةِ الشَّرِيْفَةِ

الرقم	الحَدِيْث	الصفحة
1-	إنَّ امتي يدعون يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء	186
2-	إنَّ الله جميل يحب الْجَمَال	31
3-	إنَّ من البيان لسحراً	18
4-	إنما حبب إِلَى من الدنيا: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة	25
5-	إِنَّما مَثَلُ الجليس الصالحُ والجليسُ السوءِ كحامِلِ المسك، ونافخِ الكِيْرِ	121، 192
6-	تنكح الْمَرْأَة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك	26
7-	الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ	185
8-	حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ	185
9-	خمسٌ تجب للمسلم عَلَى أخيه: ردُّ السلام، وتشميتُ العاطِسِ، وإجابةُ الدَّعوة، وعيادة المريض، واتِّباعُ الجنائز	141
10-	اللهم أعط منفقا خلفًا، وأعط ممسكا تلفًا	224
11-	اللهم إني أدرأُ بك في نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم	230
12-	من بنى مسجدا لله ولو كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتاً في الجنة	103
13-	يأيُّهَا النَّاسُ! لا تَتَمَنَّوْا لقاءَ العدوِّ واسأَلُوا الله العافيةَ. فَإِذَا لَقيتُمُوهم فاصبروا. واعلمُوا إِنَّ أَبْوَابَ الجنَّةِ تحتَ ظلالِ السُّيوفِ	186

ثَالِثَاً: فَهْرَسُ الْقَـــــــــوَافِي

الرقم	الْقَافِيَة	القـــائل	البحر	الصفحة
1-	جملاء	ذو الرُّمة	الرَّجَز	15
2-	الماء	شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ	البسيط	134، 188
3-	الماء	البحتري	الكامل	189
4-	باب	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	مجزوء الكامل	113
5-	تأويب	سلامة بن جندل	البسيط	43
6-	حبيب	العباس بن الأحنف	الطَّوِيل	201
7-	سحب	بَهَاء الدِّين الْبِيْطَار	البسيط	313
8-	شارب	أبو فراس الحمداني	الطَّوِيل	221
9-	قواضب	أبو تمام	الطَّوِيل	220
10-	قوت	الحريري	البسيط	157
11-	المخضَّب	من الشاعر؟	الطَّوِيل	123
12-	المناكب	النابغة الذبياني	الطَّوِيل	256
13-	يشرب	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّجَز	101
14-	يهاب	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	مجزوء الكامل	113
15-	السُّكوت	الشافعي	الوافر	297
16-	السُّكوت	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الوافر	99
17-	ضلت	الطِّرماح بن حكيم	الطَّوِيل	193
18-	يموت	الشافعي	الوافر	297
19-	يموت	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الوافر	99
20-	تفرج	ابن النقيب	الطَّوِيل	65
21-	المتأرج	ابن النقيب	الطَّوِيل	65

الرقم	الْقَافِيَة	القـــائل	البحر	الصفحة
22-	المدبج	ابن النقيب	الطَّوِيل	65
23-	الأباطح	كَثِيْر عزة	الطَّوِيل	193
24-	أقاح	البحتري	السريع	247
25-	تستريح	أبو ذؤيب الهذلي	الوافر	15
26-	رائح	كَثِيْر عزة	الطَّوِيل	193
27-	الصَّباح	مُحَمَّد المُبَارَك	الخفيف	111
28-	الصِّباح	مُحَمَّد المُبَارَك	الخفيف	111
29-	فلاح	السَّهروردي	الكامل	193
30-	ماسح	كَثِيْر عزة	الطَّوِيل	193
31-	أشمخ	عبد القادر الجزائري	الطَّوِيل	76
32-	رسخا	عبد الله السويدي	البسيط	66
33-	فرسخ	عبد القادر الجزائري	الطَّوِيل	76
34-	نفخا	عبد الله السويدي	البسيط	66
35-	يتبوخ	عبد القادر الجزائري	الطَّوِيل	76
36-	ينسخ	عبد القادر الجزائري	الطَّوِيل	76
37-	أسئدي	الحريري	السريع	190
38-	الأسد	ابن شرف	المنسرح	80
39-	أمردا	الْخَنْسَاء	المتقارب	155
40-	البلد	ابن شرف	المنسرح	80
41-	ترقد	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الكامل	276
42-	حداد	لا قائل له	الكامل	248
43-	العقد	أبو تمام	الطَّوِيل	133
44-	العقد	ابن الرُّومي	الطَّوِيل	133

الرقم	الْقَافِيَة	القـــائل	البحر	الصفحة
45-	محدود	عبد الباقي العمري	البسيط	73
46-	مرفد	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	مجزوء الكامل	113
47-	مرفود	عبد الباقي العمري	البسيط	73
48-	المسجد	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الكامل	276
49-	مسند	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	مجزوء الكامل	113
50-	مغمود	عبد الباقي العمري	البسيط	73
51-	موجود	عبد الباقي العمري	البسيط	73
52-	مولود	عبد الباقي العمري	البسيط	73
53-	الأثر	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	مجزوء البسيط	100
54-	أدور	الأحوص	الطَّوِيل	207
55-	الأصغر	بشامة بن الغدير العذري	الكامل	43
56-	البدر	أبو فراس الحمداني	الطَّوِيل	214
57-	تسير	عبد اللطيف فتح الله	الكامل	68
58-	تمور	عبد اللطيف فتح الله	الكامل	68
59-	ثبير	عبد اللطيف فتح الله	الكامل	68
60-	الحقر	ابن الأَلُوسِيّ	البسيط	108
61-	دينار	علي الغراب الطرابلسي	البسيط	297
62-	زفير	عبد اللطيف فتح الله	الكامل	68
63-	الزهر	الْمُتَنَبِّي	البسيط	110
64-	الزهر	أَحْمَد البَرْبِيْر	البسيط	110
65-	سطور	عبد اللطيف فتح الله	الكامل	68
66-	سعير	عبد اللطيف فتح الله	الكامل	68
67-	سمر	ابن الأَلُوسِيّ	البسيط	108

الرقم	الْقَافِيَة	القـــائل	البحر	الصفحة
68-	الشَّعر	عبد القادر الجزائري	البسيط	212
69-	عمر	عمر بن أبي ربيعة	الرَّمل	190
70-	غرّ	طرفة بن العبد	الرَّمل	247
71-	الفكر	أبو فراس الحمداني	الطَّوِيل	132
72-	قدر	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	مجزوء البسيط	102
73-	الْقَمَر	عمر بن أبي ربيعة	الرَّمل	190
74-	المهر	أبو فراس الحمداني	الطَّوِيل	147
75-	نفير	مجدي أبو لحية	الكامل	217
76-	نهار	الْفَرَزْدَق	الكامل	189
77-	نوار	الْفَرَزْدَق	الوافر	192
78-	قفص	أَحْمَد البَرْبِيْر	الرَّجَز	110
79-	تنفع	أبو ذؤيب الهذلي	الكامل	139
80-	السَّجْع	ابن الأَلُوسِيّ	الطَّوِيل	72
81-	سمع	ابن الأَلُوسِيّ	الطَّوِيل	72
82-	الملسوع	كَثِيْر عزة	الكامل	187
83-	أعترف	أبو فراس الحمداني	مجزوء الكامل	209
84-	حتف	العباس بن الأحنف	الكامل	217
85-	منيف	ميسون بنت بحدل	الوافر	202
86-	الأفق	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّمل	313
87-	بالإحراق	ابن الرومي	الكامل	110
88-	تحرق	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّمل	112
89-	تضيق	عمرو بن سنان		18
90-	تنطق	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّمل	313

الرقم	الْقَافِيَة	القـــائل	البحر	الصفحة
-91	الحدق	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّمل	112
-92	خفاق	تأبط شراً	البسيط	161
-93	طرق	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّمل	112
-94	فمرق	شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ	الرَّمل	144
-95	المذلق	ابن المذلق	الطَّوِيل	196
-96	يرمق	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّمل	112
-97	يسبق	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّمل	112
-98	يفرق	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّمل	313
-99	أوراكا	شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ	الخفيف	82
-100	هُنَاْكَا	شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ	الخفيف	82
-101	أجمل	عبيد الله بن عتبة	الطَّوِيل	15
-102	أذيالها	أبو العتاهية	المتقارب	143
-103	أشكل	رؤبة بن العجاج	الرَّجَز	34
-104	تعتدل	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّجَز	100
-105	الْجَمَال	عبد مناف بن ربع الهذلي	الرَّمل	15
-106	الحلل	القاضي عياض	البسيط	176
-107	الحمل	القاضي عياض	البسيط	176
-108	خجل	شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ	البسيط	82
-109	سنبل	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّجَز	100
-110	طول	كعب بن زهير	البسيط	84
-111	الطَّوِيل	ابن سناء الملك	السريع	190
-112	عادل	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّجَز	237
-113	العالي	أبو تمام	الكامل	135، 193

الرقم	الْقَافِيَة	القـــائل	البحر	الصفحة
-114	الفعل	زهير بن أبي سلمى	الطَّوِيل	43
-115	القنابل	أبو فراس الحمداني	الطَّوِيل	220
-116	كلكل	امرؤ القيس	الطَّوِيل	192
-117	مبتلى	الملبد بن حرملة	الرَّجَز	16
-118	محمول	أبو العلاء المعري	الكامل	302
-119	النحل	الْمُتَنَبِّي	الطَّوِيل	187
-120	وابل	الْمُتَنَبِّي	الطَّوِيل	232
-121	الوحل	الأعشى مَيْمُون بن قيس	البسيط	84
-122	حذام	ابن قلاقس	الوافر	191
-123	رجوم	ابن الرومي	الكامل	122
-124	سقامها	شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ	الطَّوِيل	123
-125	السلام	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّجَز	237
-126	طعام	أبو نواس	الوافر	189
-127	الطغام	الْمُتَنَبِّي	الوافر	187
-128	قدم	أبو فراس الحمداني	البسيط	212
-129	قيام	لبيد بن ربيعة	الكامل	43
-130	المدام	الْمُتَنَبِّي	الوافر	158
-131	نجوم	ابن الرومي	الكامل	122
-132	أحيانا	بشار بن برد	البسيط	247
-133	أزمان	أبو الْبَقَاء الرندي	البسيط	261
-134	أمان	ابن إياس المصري	الرَّمل	51
-135	الزمان	ابن إياس المصري	الرَّمل	51
-136	السّفن	الْمُتَنَبِّي	البسيط	194

الرقم	الْقَافِيَة	القـــائل	البحر	الصفحة
-137	سمطين	الزمخشري	الطَّوِيل	188
-138	شان	أبو الْبَقَاء الرندي	البسيط	261
-139	الصوان	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّجَز	237
-140	ضنين	قيس بن الخطيم	الطَّوِيل	293
-141	طي لسان	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الخفيف	220
-142	العيون	مجدي أبو لحية	الطَّوِيل	200
-143	فنون	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الخفيف	98
-144	فيكون	عَبْد الله فِكْرِيّ	الطَّوِيل	97
-145	قتلانا	جرير	البسيط	248
-146	قمين	قيس بن الخطيم	الطَّوِيل	293
-147	نون	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الخفيف	98
-148	اختصى	شِهَاب الدِّين الخَفَاجِيّ	السريع	106
-149	شتا	الْخَنْسَاء	المتقارب	155
-150	المنى	مُحَمَّد المُبَارَك	الطَّوِيل	111
-151	بسطه	أبو فراس الحمداني	الرَّجَز	217
-152	تهلكه	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الوافر	99
-153	حاضره	الْأَخْضَر اللهبي	السريع	198
-154	سنبله	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرَّجَز	100
-155	طبقه	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الرجز	196
-156	يدركه	نَاصِيْف اليَازْجِيّ	الوافر	99
-157	عمرو	ديك الجن الحمصي	الوافر	12
-158	الثريا	الإمام عياض	المتقارب	188
-159	رسائلي	جميل بثينة	الكامل	123، 301

الرقم	الْقَافِيَة	القـــائل	البحر	الصفحة
160-	صدعني	أبو فراس الحمداني	مجزوء البسيط	219
161-	قفي	أبو فراس الحمداني	الطَّوِيل	194
162-	الكاسي	الحطيئة	البسيط	194